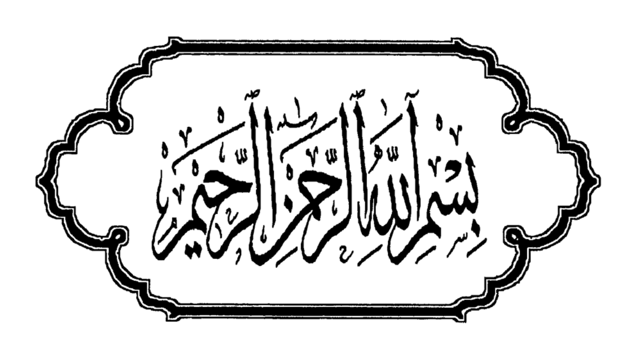

عبد الفتاح مقلد الغنيمي
موسوعة
المغرب العربي
المجلد الثالث
مكتبة مدبولي
القاهرة





موسوعة تاريخ المغرب العربى


بسم الله الرحمن الرحيم



موسوعة تاريخ المغرب العربى

بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين

بنى وطاس والسعديين وظهور الأشراف العلويين

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الخامس والسادس

الناشر : مكتبة مدبولى

الطبعة الأولى

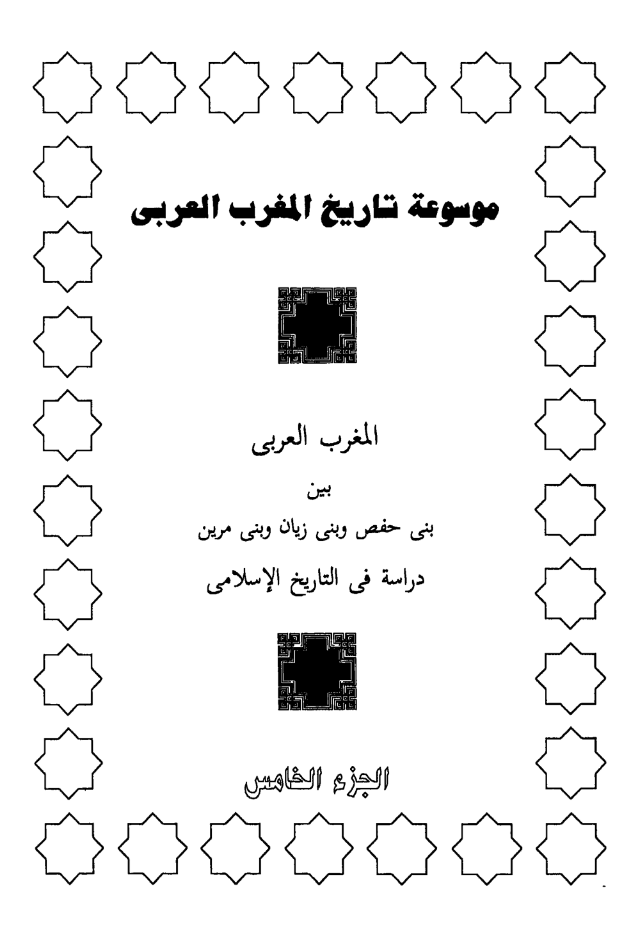
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م

الناشـــر

مكتبة مدبولى

ميدان طلعت حرب بالقاهرة - ج م ع

تليفون ٧٥٦٤٢١



موسوعة تاريخ المغرب العربى

المغرب العربى

بين

بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء الخامس



إلى ابنتى

مروة وبسمة ..

قرة عينى ومهجة فؤادى ودفء الأيام وحنان الأبوة وفلذة الكبد ورؤية المستقبل البعيد ..

هذا الجزء الخامس من موسوعة المغرب العربى ..

د. عبد الفتاح مقلد الغنيمى

التمـــهـــيد

إن هذه الدراسة تعالج قضية هامة هى عروبة المغرب ودوره فى مجد الإسلام والعروبة؛ فالمغرب حصن الإسلام ودرعها الواقى الحارس للبوابة الغربية للعالم العربى، والذى صان للإسلام مجده وللعروبة عزتها، والذى وقف صامداً يتحدى وبلات الأعداء وعدوانهم ويصد عاديات الزمن؛ بل إنه عارك الأحداث وعاركته الأحداث وخرج من كل هذا منتصراً ظافراً شامخاً شموخ جباله العالية وسفوحه الشماء التى تأبى إلا أن تحافظ على الوجه العربى الذى امتد فى أعماق التاريخ أكثر من اثنى عشر قرناً قبل الفتح العربى، فعمر عروبة المغرب أكثر من ثلاثين قرناً من الزمان. لذا .. فقد ثبتت أصالته العميقة فى المجد والشدائد التى مرت عليه وصار الوجه العربى للإسلام بصورته النقية الطاهرة عبر العصور الطويلة ورد كيد الأعداء فى نحورهم عندما حاولوا تشويه صورة العربى المغربى الأصلية وطمس معالمها وتمجيد العنصرية البربرية، والتى ما هى إلا العروبة قبل الإسلام وتلاحم عرب الإسلام مع أبناء عمومتهم عرب ما قبل الإسلام حول الامتزاج للدماء العربية بقبائلها وبطونها وعشائرها. وعلى هذا .. ذاب العرب والبربر أخوة وأبناء عمومة وأصل وتاريخ واحد فى كيان واحد.

ولذا .. فإن تاريخ الإسلام والعروبة فى بلاد المغرب موضوع حيوى لايزال رغم هذه الموسوعة، وما كتب من دراسات حول هذا الموضوع فى أمس الحاجة إلى مزيد من البحث العلمى والموضوعى لتحرى حقيقة ما يقصده كتاب الغرب من التحريض حول البربرية والعربية بغية تمزيق الكيان الواحد ولمحاولة طمس وتشويه تاريخ العروبة والإسلام وإخفاء معالم الحقيقة وإحياء العنصرية البربرية لضرب العروبة وعـزل المغرب عن أخوة العروبة والإسلام فى الشـرق ومنعـهم من التلاحـم مع أخـوة المغـرب، وعلى هذا.. فإن من يطالع هذه الأجزاء يدرك أهمية الدراسة فى الربط بين عناصر الأمـة العربية الإسلامية، وهـل أبناء البربر ما هم إلا عرب ما قـبل الفتح الإسـلامى!!

فبربر المغرب ذوو أصول عربية واحدة، فيما عدا أقليات قليلة على الساحل. أما البربر داخل البلاد .. فهم أبناء الفنقين الذين هاجروا قبل الفتح بعشرة قرون أو يزيد بغية وضع اللبنة الأولى فى بناء مغرب العروبة والإسلام بعد الفتح. لقد كان المغرب أصعب منالاً على الغريب لكنه سهل الاندماج مع أخوة العرب؛ فالعادات والتقاليد والقيم والأعراف والتقاليد تطابقت، ومن هنا .. جاء الامتزاج والاختلاط وأصبح الكيان واحدا. لذا .. صار درع وحصن العروبة، وها هى الثقافة العربية الإسلامية، واللسان الفصيح، تتحدى الأقدار، ولم تتخذه الأقدار تحطمت على صخرته الأخطار، وغرقت فى مياهه سفن الأعداء ومدافعها. فهو طوال تاريخه الممتد من الفتح الإسلامى حتى عصرنا الحاضر، صامد صمود الأبطال أمام كل محاولات النيل من مقوماته التاريخية والحضارية، ومن هنا خرج ظافراً إسلاماً وعروبة، وصانت عقيدة الإسلام أرضه من كل دنس أجنبى واسترد هويته العربية وحضارته الإسلامية، وكانت عزيمة أبنائه وقوة عريكتهم لاتلين ولا تهزم أبد الدهر.

فتحيةً لأبناء المغرب العربى من حدود مصر الغربية العربية حتى محيط المحيط الأطلسى عرباً وإسلاماً قيما حضارية خالدة أبد الدهر، تتحدى كل كيد يكاد لهذه الديار الطاهرة أرض القيروان، وفاس، وتلمسان، ومراكش، والرباط، وطرابلس؛ وبرقة، وزويلة، وفزان، ووهران، وتطوان .. وكل مدينة مغربية حتى نواكشوت. تلك الأرض التى استردت أنفاسها متلاحمة مع عروبة المشرق، التى لن يطول الزمن عليها لكى يكون لها مع الأحداث موقف.

وفى هذا الجزء من الموسوعة نرى كيف انفرط عقد الوحدة المغربية أثر سقوط الخلافة الموحدية، ولم يعد هذا العقد وحدة واحدة منذ ذلك التاريخ الوسيط حتى عصرنا الحاضر (اتحاد دول المغرب العربى)؛ بل إن الأقسام التى نشهدها اليوم ما هى إلا تقسيمات قد جرت عبر التاريخ الوسيط. فنجد أن ما يسمى بالمغرب الأدنى ما هو

إلا تونس الحالية، والمغرب الأوسط ما هو إلا الجزائر، والمغرب الأقصى ما هو إلا بلاد المغرب، فكأن الأقدار شاءت أن تقوم هذه الأقاليم مقسمة بين الحفصين فى تونس وبنى زيان فى الجزائر وبنى مرين فى المغرب الأقصى، وهذا ما سنطالعه فى الأبواب والفصول القادمة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

بسم الله الرحمن الرحيم

المقـــدمـة

الحمد لله رب العالمين الهادى لصراطه المستقيم، والصلاة والسلام على محمد ابن عبد الله النبى الخاتم، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد .. .. ..

فهذا هو الجزء الخامس من موسوعة تاريخ المغرب العربى الذى نقدمه للقارئ الكريم؛ لأنه صاحب الحكم السديد على ما جاء بهذه الدراسة من مواضيع مختلفة تصب كلها فى قالب واحد هو تاريخ المغرب العربى، وهذا الجزء من الموسوعة يعالج تاريخ المغرب فى فترة من أدق فترات تاريخه الطويل، إذ شهدت تلك الحقبة التاريخية (٦٢٦–٩٨١م) تمزق المغرب الموحد فى ظل الخلافة الفاطمية، والمرابطية، والموحدية إلى ثلاث دويلات لعبت كل دويلة منها دورها فى المغرب .. فكانت دولة الحفصين فى المغرب الأدنى، ودولة بنى زيان فى المغرب الأوسط، ودولة بنى مرين فى المغرب الأقصى، وقد ظهرت تلك الدويلات على انقاض دولة الموحدين. وقد لعبت كل دولة من هـذه الدول دورها السـياسى، والعسـكرى، والحـضارى، والثقافى، والعمرانى بقدر ما أتاحت لها الظروف، وساهمت فى دفع حركة التاريخ نحو الاتجاه الذى تريده كل دولة.

وقد قسمت هذه الدراسة إلى ثلاثة أبواب، وقسم كل باب إلى عدة فصول كل فصل منها يعالج موضوعاً متمماً للذى قبله ومتصلاً فى حلقة دراسية تؤدى فى النهاية إلى الهدف من وراء تلك الدراسة.

وعالجت فى **الباب الأول** انهيار دولة الموحدين، وظهور الإمارات الثلاث، وكان الفصل الأول عن كيفية ظهور دولة الحفصين، وما هى العوامل التى ساعدت على

ظهورها، والفصل الثانى عن الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا عبد الواحد وإعلان استقلالها عن الدولة الأم (الموحدين) فى المغرب الأقصى والفصل الثالث عالجت فيه دور الخليفة المستنصر فى إعلان الخلافة، وبنى حفص، والغزوة الصليبية على تونس، وكذلك الفصل الرابع يعالج موضوع الخلافاء الحفصيين الذين حكموا البلاد بين الغزوة الصليبية ودور كل منهم فى أحداث المغرب الأدنى. وكان الفصل الخامس فتحدثت فيه عن سيطرة بنى مرين على تونس وحكم بلاد المغرب الأدنى وجاء الفصل السادس، وهو عن الدولة الحفصية بعد طرد بنى مرين من الديار الحفصية. وكان الفصل السابع عن سلاطين بنى حفص فى ظل الخلافة العثمانية حتى سقوط الدولة. وفى الفصل الثامن تحدثت عن علاقة الدولة الحفصية بالدولة المجاورة لها فيما عدا بنى زيان، وبنى مرين؛ لأن هذه العلاقة جاءت فى نهاية البحث فى فصل خاص. ثم الفصل التاسع والأخير فى الباب الأول، وهو عن مآثر الخلافة الحفصية فى مختلف الميادين.

ثم تحدثت فى **الباب الثانى** عن ظهور بنى زيان على مسرح الأحداث فى المغرب ودولتهم فى طور التكوين، وتم تقسيم هذا الباب إلى عدة فصول، فيها الفصل الأول عن ظهور الدولة ككيان سياسى، والفصل الثانى عن الصراع مع بنى مرين وموقف بنى زيان من هذا الصراع، وكذلك الصراع مع بنى حفص ومحاولات بنى زيان الإخلال بميزان القوى فى المغرب، وجاء بعده الفصل الثالث ليعالج موضوع الدولة الزيانية فى أوج مجدها، والفصل الرابع عن القبائل العربية ودورها فى بناء الدولة، وفى الفصل الخامس تحدثت عن علاقة الدولة بالدول المجاورة والعلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية. ثم الفصل السادس عن النشاط الحضارى والثقافى والاقتصادى للدولة، وهو يعالج بصمات دولة بنى زيان فى مختلف نواحى الحياة فى المغرب الأوسط، وكانت خاتمة هذا الباب بالفصل السابع، وفيه كان الحديث عن نهاية الأسرة

اليغمراسنية الزيانية على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب الأوسط.

وثالث أبواب الدراسة عن بنى مرين على مسرح الأحداث فى المغرب الأقصى كسابق التقسيم؛ فقد قسم هذا الباب إلى عدة فصول منها الفصل الأول عن بداية ظهور الدولة ومراحل تكوين الدولة، ودور القادة فى بناء كيانها، وفى الفصل الثانى كان الحديث عن جهاد بنى مرين فى الأندلس والدور الذى قاموا به دون غيرهم فى المغرب فى تحمل عبء الدفاع عن قضايا مسلمى الأندلس، وفى الفصل الثالث كان موضوع هذا الفصل عن دور البحرية المرينية فى تحمل العبء الأكبر فى قضايا الأندلس، وحماية سواحل البلاد، وفى الفصل الرابع تحدثت عن المد المرينى فى المغرب الأوسط والأدنى؛ على حساب بنى زيان وبنى حفص، ومحاولات توحيد المغرب الإسلامى، والفصل الخامس تحدثت فيه عن مظاهر وحكم بنى مرين وإنجازاتهم فى المغرب الأقصى فى مختلف الأنشطة السياسية والفكرية والحضارية والثقافية وغيرها من المجالات، وفى الفصل السادس قسمته إلى فصلين وإن كان الموضوع واحدا؛ بحيث صار الفصل السادس عن السياسة الخارجية لسلطنة بنى مرين، والفصل السابع عن العلاقات السياسية، والثقافية، والاقتصادية؛ بين بنى مرين وبنى زيان، وبنى حفص الدويلات الثلاث؛ ثم الفصل الثامن عن نهاية الدولة المرينية وسقوطها.

ثم جاءت بعد ذلك **خاتمة البحث**، وهو ما توصلت إليه من نتائج فى تلك الأبواب الثلاث بفصولها المختلفة، وفى نهاية النهاية .. كانت قائمة المصادر والمراجع العربية المخطوط والمطبوع منها، كذلك الرسائل الجامعية التى عولت عليها كثيرا لاسيما الرسائل التى كانت تعالج مثل مواضيع الدراسة؛ حيث كانت المدد والعون فى ظهور هذه الدراسة إلى حيز الوجود، وقد أعاننى كثيراً، وإن كانت لم تؤد الهدف المقصود من وراء تلك الدراسة فيما استدعى بذل الجهد المضاعف بحثًا وراء العديد من الحقائق والمواضع التى لم يصل إليها الباحثون، ولم يعالجوها فى دراستهم .. فكانت

تلك الدراسة بهذه الصورة لاسيما أن جميع الرسائل الجامعية، التى اعتمدت عليها لم يحاول دارسوها الاعتماد على المصادر الأجنبية؛ إلا النذر اليسير الذى جاء فى رسالة واحدة، ولم يتعد أصابع اليد الواحدة، ومن هنا .. يدرك المرء أهمية الاطلاع والبحث فى المصادر الأوربية؛ كى يستطيع أن يخرج بنتائج علمية موضوعية سليمة لاسيما فى المواضيع التى كان الطرف الأوربى أحد أطراف الصراع، ورغم صعوبة تتبع كتابات الغربيين الذين كتبوا عن المغرب، والذين عالجوا قضاياه فى رؤيتهم الخاصة؛ إلا أن هذه الدراسة تظهر للعيان مدى تغلغل الإسلام والعروبة التى حاولت السياسة الاستعمارية العنصرية إزالة رواسبها بغية عزل المغرب عن أشقائه فى العالم العربى والإسلامى.

وفى ذلك .. فإن هذه الدويلات كانت بربرية الأصل عربية الدماء والعروق إسلامية المنهج والأصالة، ذات ثقافة أصيلة تنم عن مدى امتزاج عنصرى الشعب العربى (العرب وأبناء عمومتهم البربر)، فى بوتقة واحدة ربطت بين عناصر سكانه وساعدت كثيرا على نشر الإسلام واللغة العربية.

ورغم الجهد الذى بذل فى تلك الدراسة إلا أنها ليست القول الفصل؛ فالكمال لله وحده، وأنها قد لا تخلو من النواقص والهفوات.

وأسأل الله أن أكون قد وفيت بعض الدين لقضايا الوطن العربى الإسلامى، لاسيما ذلك الجزء الذى يحرس بوابة العالم العربى الغربية، والذى عارك الأحداث وعاركته الأحداث، حتى انتصر عليها، وها هو شاهد بأن المغرب الأصيل عروبة، والإسلام باقٍ أبد الدهر ما طالت الأحداث منه قيد أنملة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

الباب الأول

انهيار دولة الموحدين وظهور الإمارات الثلاث

ليس هناك جدال فى أن دولة الموحدين تعتبر من أعظم الدول فى التاريخ الإسلامى؛ فلقد بلغت بتاريخ المغرب فى تلك الحقبة التاريخية ذروتها، وتمكنت من تحقيق وحدة المغرب بأقسامه المختلفة ممتداً من برقة شرقاً إلى المحيط الأطلسى غرباً، ومن سواحل البحر المتوسط إلى مشارف أفريقية المدارية جنوباً ، هذا بالإضافة إلى سيطرتهم على بلاد الأندلس، والتاريخ يشهد بأن دولة الموحدين كانت آخر الدول الإسلامية فى المغرب، التى توحدت هذه الأرجاء الواسعة الممتدة من حدود مصر غرباً حتى ساحل المحيط الأطلسى شرقاً؛ تحت سيطرة دولة واحدة، وأن وحدة المغرب لم تقم من ذلك التاريخ حتى وقتنا الحاضر؛ حيث أنه فى هذه المساحة الواسعة بلغت الحضارة المغربية أوجاً جديداً حتى أن عصر الموحدين يعتبر العصر الذهبى فى تاريخ المغرب إلا أن نفوذ دولة الموحدين قد تقلص حتى كاد أن يصبح قاصراً على الأقسام الثلاثة للمغرب من الغرب إلى الشرق مراكش والجزائر وتونس، وهذه الأقسام الثلاثة تبدو أحسن حالاً من دولة المرابطين التى انهارت سواء فى الأندلس أو فى جنوب الصحراء. أما فى مناطق المغرب العربى .. فقد انهارت دولة الموحدين أيضاً بنفس السرعة خلال القرن السادس الهجرى الثالث عشر الميلادى إذ أخذ حكام كل من تونس والجزائر فى الاستقلال عن الدولة الأم فابتداءً من عام ١٢٢٦م استولت أسرة الحفصين على تونس واستقلت بحكمها مما أوضح أن الحالة الطبيعية للمغرب هو الانقسام الثلاثى الذى ما زال قائماً حتى الآن.

أما مراكش فقد ظلت خاضعة لحكم الموحدين لثلاثين سنة أخرى، حتى عام ١٢٦٩م حين استولت عليها أسرة بنى مرين، وهى من قبيلة زناتة، وكانت قد بدأت الحروب الأهلية والمنافسات التى انتهت بقيام حلفائهم القدامى وهم بنو مرين الزناتيون

بدخول مراكش والقضاء على آخر الموحدين عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وكان على رأس بنى مرين أبو يوسفيعقوب بن عبد الحى الذى ينتسب إلى بنى مرين الزنانين، وفى هذا التاريخ تنتهى أسرة الموحدين، ويحل محلهم فى المغرب الأقصى بنو مرين.

لقد كان البيت الموحدى فقيراً جداً فى الرجال فلا نكاد نجد موحدياً واحداً ذا قدرة أو كفاية فى إدارة الدولة؛ بل إننا نجد كثيراً من أبناء الدولة مسئولين عن ضياعها وانهيارها، وخاصة أبناء المنصور أبى عبد الله محمد المعروف بالعادل، وأبى العلاء ادريس المعروف بالمأمون، وأبى محمد عبد الله المعروف بالبيباسى؛ فهؤلاء الثلاثة أذلوا كيان البيت الموحدى، وخاصة أبو العلاء ادريس المأمون، وهو الذى كان السبب فى أن تعصف الرياح بالبيت الموحدى، وتقصم ظهره؛ حيث أنه كان من الضعف بحيث لم يعد للموحدين أدنى سيطرة على البلاد، وأخذ كل حاكم يستقل بناحيته التى يحكمها، وكان ضعف الموحدين قد شجع بنى مرين، وبنى زيان الزنانين على العمل على إزالة ملكهم والحلول محلهم، وتمكنت هذه الجماعة القبلية الزنانية من تحقيق أهدافها فى السيطرة على البلاد.

وعادت بالمغرب إلى عصر سيادة زناتة، وهو عصر اتصف بالفوضى والاضطراب والحروب الأهلية، وعدم ازدهار الحضارة الإسلامية وانحراف نظام الحكم عن الطريق السوى. وهكذا انهارت دولة الموحدين أمام هجمات بنى مرين الذين احتلوا العاصمة مراكش فى عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩م. وظهرت على أنقاض دولة الموحدين أربع دول مستقلة هى الدولة الحفصية فى تونس عام ٦٢٧هـ/١٢٣٠م، وهى فرع لدولة الموحدين وامتداد لها ثم دولة بنى زيان (عبد الواد فى تلمسان ونواحيها بالمغرب الأوسط عام ٦٢٣هـ/١٢٣٥م، ودولة بنى مرين أو بنى عبد الحق فى فاس، وهى الدولة التى استقلت بالمغرب بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائياً عام ٦٦٨هـ/١٢٦٩. ومملكة غرناطة، وهى آخر ما بقى للمسلمين من ممتلكات فى أسبانيا، وقد استقل بها الأحمر، أو بنو نضر عام ٦٣٥هـ/١٢٣٨م، وهذه المملكة

الأندلسية لاتدخل فى نطاق المغرب العربى، ومن هنا .. فسوف تلقى الضوء على الإمارات الثلاث، التى ورثت عرش الموحدين فى المغرب وظلت تحكم هذه البلاد حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادى العاشر الهجرى.

وقد ساعد على انهيار مملكة الموحدين ما انتهت إليه من اضطراب نتيجة صغر سن السلاطين وانصرافهم عن تطبيق الشريعة الإسلامية واستئثار ذوى قرباهم بالنفوذ واستقلالهم من أجل مصالحهم الخاصة مما ساعد على ازدياد حدة الثورات الداخلية التى لاحقت الخلفاء الموحدين مما اضطرهم إلى حكم استبدادى قائم على القتل وسفك الدماء، ومن ثم .. سارت الأمور على هذا النحو من الضعف الذى أدى إلى نهاية الدولة بالصورة التى انتهت إليه، وهكذا .. كان ضعف السلطة الموحدية فى المحافظة على الدولة فى المغرب والأندلس قد أدى إلى ظهور هذه الزعامات المحلية التى استقلت فى أماكنها بالمغرب وأقامت دولاً لعبت دوراً لا يماثل الدولة الموحدة الواحدة دولة الموحدين.

وعلى أية حال فقد انفرط عقد الغرب العربى فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر، وغابت شمس امبراطورية البربر إذ اضمحلت دولة الموحدين، وحلت بالتدريج محلها الدول الثلاث السابق الإشارة إليها، وقد حاولت كل دولة من هذه الدول الثلاث أن تبسط نفوذها على كل المغرب مباشرة، وتأسيس دولة كبيرة على نمط الموحدين. ولم تعترف هذه الدول بعضها البعض بالاستقلال فاستمرت الحروب فيما بينهم وربما وقعت الحرب بين الأمراء المرشحين للحكم فى الدولة الواحدة، ولتقارب القوى الحربية والسياسية لكل منهم لم ينحسم النزاع.

ولقد كانت دولة الحفصين أسبق الدول الثلاث ظهوراً، وأوسعها انتشاراً؛ حيث أعلن عن تكوينها رسمياً عام ١٢٢٧م، واستمرت دولة مزدهرة حتى عام ١٥٧٤م؛ بفضل سهول تونس الزراعية، وتجارتها مع جنوب أوربا والسودان، وقد اتسع نفوذ هذه الدولة فامتد من طرابلس شرقاً إلى عنابة غرباً.

ومهما يكن .. فإن دولة الموحدين تمكنت من مواصلة العمل المجيد الذى بدأه المرابطون من إقامة صرح الحضارة المغربية؛ فقد حفل القصر الموحدى بالعديد من المشروعات وخلقت بعدها حضارة زاهرة وكانت دولة مميزة وأن تلك الدولة تدهورت قبل الأوان ولم تصل الى غايتها ورغم كل هذا فقد فشل الموحدون فى ذلك الوقت فى نشر مفهوم مضمون الدولة والحياة الحضرية بين القبائل البربرية والعربية العديدة ، وخصوصا أنهم كانوا دائبين على التميز فى جميع مجالات النشاط بين قبائل مصمودة وزناتة من جهة وبين باقى قبائل البربر من جهة أخرى وكان هذا الفشل معناه ضعف مقاومتهم الشديدة للبدو المستمر من جهة ولاحظ ازدياد القوة الأسبانية المعادية ولتفادى ذلك قسم الموحدون حكومة امبراطوريتهم مع أواخر القرن الثانى عشر وأوائل القرن الثالث عشر الى قسمين شرقى وغربى حيث أعطوا للحفصين حكم الجزء الشرقى من الأمبراطورية فى تونس .

ولقد استطاع الموحدون أن يصدوا تيار الجماعات البدوية المتدفقة عليهم وأن ينجحوا فى ذلك نجاحا كبيرا ولكن الحروب ضدهم زادت حدتها بعد تحطيم وحدة المغرب ومن ثم أخذ الجزء الغربى من المغرب العربى يقاسى من جراء هزيمته من أسبانيا عام ١٢١٢ هـ فى موقعة العقاب ومن ثم سيطرة قبائل زناتة على المداخل الشرقية لمراكش فى حين أصبحت تونس تحت حكم الحفصين لجزء مستقل عن بقية أجزاء المغرب العربى واستقلت بأفريقية .

أما عن دولة بنى عبد الواد (بنى زيان) فقد ظهرت فى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى واتخذت من تلمسان حاضرة لها وقد ازدهرت هذه المدينة فى هذه الفترة اذ كانت مركزا ثقافيا ولم تحكم دولة بنى زيان سوى الجزء الغربى مما يقابل الجزائر حاليا وقد كانت هذه الدولة مطمع حكام تونس (بنى حفص) والمغرب الأقصى (بنى مرين) كما كانت مدنها الساحلية تكون جمهوريات مستقلة أشبه بالجمهوريات القائمة على السواحل المواجهة لايطاليا ومن ثم فقد أدى هذا التفكك الى طمع

الصقليين فى الجزائر فغزوا بعض مدنها الساحلية واحتلوها فترة خلال القرن الرابع عشر ولم تحقق الجزائر وحدتها الاقليمية الا فى العهد العثمانى .

ومما هو جدير بالذكر أنه كان بين سكان هذه الدولة بعض القبائل الزنانية التى كانت تمثل عناصر رعوية ترعى الماشية غير عابئة بثراء تونس فى الشرق ومراكش فى الغرب على السواء .

وأما فى المغرب حيث المغرب الأقصى فعاصرت الدولتان السابقتان دولة بنى مرين التى ينتمى قادتها الى قبيلة زناتة البربر وقد بدأ ظهورهم فى جنوب مراكش فى بداية القرن الثالث عشر ثم انتشر نفوذهم الى فاس ومكناس واخيرا استولوا على مدينة مراكش عام ١٢٦٩ م وقد ورث المرنيون بحكم موقعهم الجغرافى تقاليد سياسية الموحدين فى الأندلس القائمة على تقديم المساعدات للمسلمين هناك وللأسف فقد دب الخلاف بين المرنين ودولة بنى الأحمر حول تملك بعض الموانئ على شاطئ الأندلس مما عرض مراكش لغزو الدول المسيحية ولا سيما بعد أن سقطت سبتة فى أيدى البرتغاليين عام ١٤١٥ م .

وهكذا ورثت هذه الدول الثلاث عرش الموحدين الذى كان يحكم هذه البلاد من عاصمة واحدة بينما تمزقت الدولة الى ثلاثة عواصم فى تونس وتلمسان وفاس .

* * * *

الفصل الأول

كيف ظهرت دولة الحفصين

كانت وفاة الخليفة يعقوب المنصور الموحدى عام ٥٩٥ هـ / ١١٩٩ م قد أثارت حزنا عميقا فى الأوساط الاسلامية نظرا للدور الكبير الذى لعبه فى حركة الجهاد الاسلامى فى الأندلس الا أنها فى نفس الوقت حركت أطماع الطامعين من أعداء الدولة الموحدية من جديد فعاد بنو غانية حكام جزر البليار ـ ميورقة ، منورقة ، يابسة) الى شن غاراتهم على افريقية وتونس وتمكنوا من الاستيلاء على تونس والمهدية وبلاد الجريد والدعاء فيها للخليفة العباسى جريا على عادة اسلافهم من المرابطين ، كذلك حاول عبد الله بن غانية فى عام ٥٩٦ هـ / ١٢٠٠ م أن يسترد جزيرة يابسة من أيدى الموحدين ، الا أن اسطول الموحدين انتصر عليهم بعد أن اشتبك مع أسطول ابن غانية فى معركة بحرية ، وفى عام ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م استعاد الموحدون مدينة تونس والمهدية من بنى غانية وأحلافهم من عرب بنى هلال ثم أنزلوا هزيمة حاسمة على آخر رجـال (بنى غانية وهو يحى بن أبى اسحاق) واختار الناصر أكبر رجال الدولة الموحدية وهو أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص شيخ قبيلة هنتانة واليا على أفريقية وأطلق يده فى تلك الولاية وجعله بذلك واليا مستقلا فى ذلك الجزء الكبير من دولة الموحدين وبدأ أبو محمد عبد الواحد عمله فى أفريقية بنصر كبير أحرزه على يحيى بن أبى اسحاق بن غانية المنورقى فى اقليم الزاب عام ٦٠٤ هـ / ١٤٠٧ م وكان هذا النصر نهاية دولة بنى غانية وعرب بنى هلال فى أفريقية والمغرب الأوسط وتثبيتا لأقدام أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص فى أفريقية وبالفعل بدأت دولة الموحدين تنقسم الى قسمين .

وكان من رأى الخليفة الموحدى أبى عبد الله محمد الناصر لدين الله ابن المنصور (٥٩٥ هـ / ٦١١ هـ ١١٩٩ – ١٢١٤ م) أن استقرار نفود الموحدين فى أفريقية لن يثبت الا بالإستيلاء على جزر البليار جميعها حيث أنها قاعدة بنى غانية ومصدر

المتاعب التى يواجهها الموحدون فى أفريقية لهذا صمم الناصر على السيطرة ونجح الأسطول الموحدى فى السيطرة على هذه الجزر الشرقية أو جزر البليار وقبض على ابن غانية وأرسل إلى مراكش ومن ثم رأى الخليفة الموحدى أن يتبع ملوك بنى غانية فى أفريقية فتحرك اليهم بجيشه وأسطوله عليهم ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م واستولى على تونس والمهدية وفر يحيى بن غانيه بأهله وولده الى صحراء طرابلس ثم رأى الناصر ان استمرار بقاء الموحدين فى أفريقية يتوقف على اقامة حاكم دائم يكون له مطلق التصرف فى ادارتها فاختار لهذا الغرض واليا من أقربائه وهو الشيخ عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى جد الملوك الحفصين .

وبذلك فانه يمكن القول بأنه من ذلك الوقت انتقسمت دولة الموحدين الى دولتين احداهما الدولة المؤمنية نسبه الى عبد المؤمن بن على فى مراكش ، والحفصية فى تونس نسبه الى أبى حفص عمر بن يحيى الهنتاتى شيخ قبيلة هنتاتة المصمودية وأحد القائمين بدولة المهدى ابن تومرت مؤسس حركة الموحدين والخليفة عبد المؤمن من بعده .

فالدولة الحفصية شعبة من دولة الموحدين كما هو واضح من العرض السابق وأنها من أصل الأسرة حيث أن مؤسسها أحد أقارب الخليفة الموحدى الناصر وترجع علاقة الحفصين بأفريقية أثر الانتصار الكبير على ابن غانية وفراره الى الصحراء عام ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م حينما فوض الخليفة الموحد محمد الناصر أمر أفريقية الى وزيره وصهره الشيخ أبى محمد بن عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى ومنحه جميع السلطات التى تخول له حكما مستقلا بهذه الولاية عن الدولة الموحدية فى مراكش (موقف الخلافة العباسة سابقا من ابن الأغلب فى تونس) وهذا الحديث يعتبر فى واقع الأمر ايذانا بقيام ولاية مستقلة فى أفريقية وتمتعها بالاستقلال التام فى حكم أفريقية بعيدا عن سيطرة الدولة المركزية فى مراكش وعلى هذا فقد استمدت الدولة الجديدة

أطلق عليها المؤرخون (ابن خلدون وغيره) الدولة الحفصية وينتسب الحفصيون الى أبى محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بن يحيى بن محمد بن وانودين بن عليه بن أحمد بن والال بن أدرين بن خالد بن السبع بن الياس بن عمر ابن وافين بن محمد بن نجية بن كعب بن محمد بن سالم بن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ولأجل هذا النسب الشريف خطب لهم بأمير المؤمنين والناس مصدقين فى انتسابهم والشيخ أبو حفص من قبيلة هنتاتة من قبائل المصامدة وهنتاتة أكثرهم جميعا وهم القائمون بدعوة المهدى بن تومرت والسابقين اليهاوأبو حفص أحد العشرة الذين بايعوا المهدى . ولما ذخل الناصر بن المنصور أفريقية عندما تغلب على ابن غانية وهزمه الناصر وطرده ورجع الى تونس أراد أن يولى أفريقية من يقوم مقامه فوقع اختياره على الوالى عبد الواحد وكان رحمه الله عالما فاضلا ذكيا فطنا شجاعا محسنا .

وتوفى أبو محمد عبد الواحد عام ٦٢١ هـ / ١٢٢٤ م فخلفه ابنه أبو عبد الله ابن أبى محمد عبد الواحد بن أبى حفص وفى ربيع ثانى عام ٦٢٣ هـ ابريل ١٢٢٦م أصدر أبو العلاء ادريس المأمون تاسع خلفاء الموحدين (٢٢٦-٦٢٩هـ/١٢٢٩-١٢٣٢م) أمرا باقامة أبى عبد الله محمد بن عبد الواحد واليا على أفريقية وجعلها دائمة فى أهل بيته ، فسار الى تونس (أفريقية) مع أخويه أبى زكريا يحيى وأبى عبد الله اللحيانى . ويمكن اعتبار ذلك التاريخ ميلادا للدولة الحفصية فى أفريقية وبنو حفص هم الذين اتخذوا تونس عاصمة لأفريقية ولكن أول من استقل بأفريقية هو أبو زكريا .

ولما استتب الأمر لبنى حفص بأفريقية وكان شأن الجالية الأندلسية عظيما فى البلاد فقد قدم الى تونس أهل البيوتات وكان فيهم من شغل مناصب هامة فى الأندلس مثل بنى سعيد أصحاب القلعة بجوار غرناطة وكذلك بنى الحسن فرحب بهم

بنو حفص وجعلوا لهم النظر فى الانتقال كما كان لهم بالأندلس وسيظل أبو حفص عمر الهنتاتى الشخص الثانى للدولة الموحدية خاصة وهو رئيس قبيلة هنتاتة أقوى قبائل المصامدة اذ ذاك ويرث أولاده مكانته وقد لقب أبو حفص بالشيخ وأهل بيته بالأشياخ بل لقب بالشيخ الجليل وكان هو كبير الدولة الحفصية .

وكان أحد أبناء أبى حفص الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص الذى قام بدور كبير فى خدمة الدولة الموحدية فى عهد الناصر الموحدى وعبد الواحد هذا هو الذى استعان به الناصر ليقضى على الثائر المرابطى ابن غانية بعد أن تمكن من ان يسيطرعلى أجزاء كبيرة من أفريقية ولم يجد الخليفة الموحدى بدا من مواجهة خطر بنى غانية الداهم فاضطر الى الخروج الي أفريقية عام ٦٠١ هـ واستطاع هزيمة يحيى بن غانية هزيمة قاسية ولم ينجح الا فى الهروب ومعه أهله من انتقام الموحدين الى الصحراء .

وقد قام الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص بدور كبير فى مقاومةهذا الثائر المرابطى وبعد أن اطمأن الناصر الى حدود أفريقية ، فكر فى ايجاد حل نهائى للقضاء على أسباب الخطر والأضطراب ويعيد الى أفريقية الهدوء وهو الذى تحتاج اليه السلطة المركزية فى مراكش ووجد الناصر أن أفريقية فى حاجة الى حاكم قوى حيث أن افريقية تقع بعيدة عن مراكش مقر السلطة المركزية ، فاختار الناصر الشيخ عبد الواحد لهذه المهمة وقد لجأ اليه الموحدون ليحمى أفريقية من عبث العابثين من بنى غانية ولقد كانت براعة الشيخ عبد الواحد العسكرية بحيث يمكن القول بأن الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن حفص كان هو الرجل المناسب لتولى هذا المنصب الهام وذكر المراكشى أن الناصر عزم على الرحيل الى المغرب فنظر فيمن يوليه أفريقية فوقع اختياره على وزيره الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص فعقد له ذلك عام ٦٦٣ هـ ولقد رفض عبد الواحد هذا المنصب كثيرا وذلك لأن بنى حفص يتطلعون

ويطمعون فى مركز الخلافة وربما يكون عبد الواحد قد نظر الى مراكش والدعوة الموحدية .

ومهما يكن من أمر فانه يمكن اعتبار ولاية عبد الواحد على أفريقية مرحلة من مراحل نشأة الدولة الحفصية التى سارت بعد ذلك خطوتين آخريين فى عهد أبى زكريا وابنه المستنصر حتى استقامت دولة الخلافة ومما يؤكد أن هذه الولاية هى المرحلة الأولى للوجود الحقيقى فى افريقية استقرار الشيخ أبى محمد عبد الواحد بها وعدم تأكيده على ضرورة العودة للمغرب والدولة الحفصية ولهذا فان الحفصيين ينتسبون الى عمر ابن يحيى بن محمد بن أبى حفص كبير هنتاتة أعظم قبائل المصامدة وهم السابقون الى القيام بدعوة المهدى بن تومرت مؤسس حركة الموحدين ، وكان عمر هذا أول من تابعه وبايعه ولذا كانت مكانته تلى مكانة عبد المؤمن ولقب بالشيخ وأصبح قائد جيشه وكان اذا خرج عبد المؤمن للحرب استخلفه مكانه وظل أبناؤه يتداولون امارة الأندلس كما كان هو الذى قضى على ثورة ابن غانية فى افريقية وكانت أفريقية مكافأة له لكى يتولى حكمها مستقلا عن مراكش ويعد هذا النجاح المطرد الذى حققه اين أبى حفص فى القضاء على خطر ابن غانية وبعض عناصر البربر الأخرى للقضاء على هذا الخطر الذى يهدد دولة الموحدين والتى ربما يعود نشاط الأعداء المسيحيين من جديد اضافة الى بدو وبربر وسط المغرب وفى سبيل درء هذين الخطرين قسم الخليفة الناصر حكومته فعين واحدا من الحفصيين وهى واحدة من أبرز العائلات التى ظهرت بين الموحدين ليحكم شرق الخلافة الموحدية من تونس . ولسوء حظ الموحدين فان الحفصين حققوا نجاحا كبيرا فى تقهقر البدو ولكن الحروب ضدهم زادت من تحطم وحدة المغرب .

وهكذا كان تعيين أبى محمد واليا على أفريقية (تونس) من قبل الموحدين ليس تأمينا للحدود الشرقية وصد غارات المعتدين بقدر ما كان أول انهيار وتمزق الدولة اذ أن ولاء بنى حفص للدولة الأم فى مراكش لم يدم طويلا ولم تكن العلاقات على

خير ما يرام ذلك لأن النصر الذى حققه الناصر والذى ثبت به حدود الدولة شرقا بانتصاره على بنى غانية والبدو والذى به استعاد سطوة وسيطرة الدولة الى هذه الاقاليم الواسعة لكن استقلال أفريقية عن مراكش كان بداية النهاية للدولة الموحدية فقد أتاح الفرصة للحكام القادمين لكى يعلنوا استقلالهم عن مراكش وقطع كل صلة لهم بالخلافة الموحدية وعلى الرغم من أنهم فرع من المصامدة هذه العصبة المجيدة من حماة الاسلام الا أنه عندما اتيحت لهم أول بادرة فى ضعف الدولة فى مراكش فانهم سرعان ما أعلنوا استقلالهم .

وكان أول من خرج على سلطة الموحدين وأعلن الانفصال الرسمى والنهائى والتعبية هو السلطان أبو زكريا بن عبد الواحد الحفصى (٦٢٦ هـ / ١٢٢٩ م) وبدأت فترة الدولة كامارة مستقلة فى عهد السلطان أبى زكريا ثم تحولت الى خلافة وكان لزكريا علاقة حسنة وطيبة مع امبراطور المانيا فردرك الثانى وقد ساعده ذلك فى السعى لتوسيع حدود دولته على حساب دولة الموحدين بأنه أخذ يتطلع الى مراكش العاصمة حيث أنه كان من الحكام الأكفاء وأصبحت تونس تمثل جزيرة مستقرة نسبيا مستقلة عن المغرب وبحلول عام ٦٢٧ هـ / ١٢٣٠ م كانت مملكة الحفصين المستقلة قد قويت شوكتها واستطاعت أن تكون مركز اشعاع حضارى وتجارى فقد أبرمت اتفاقات تجارية مع أوربا واجتذبت كثيرا من تجارة الصحراء اليها .

وكان تحول الامارة الى خلافة إسلامية فى عهد أبى عبد الله محمد (٦٤٦ هـ / ١٢٤٩ م) والذى اتخذ لقب المستنصر بالله وتلقب بالخليفة لعدم التزامه بالخلافة العباسية التى قامت فى القاهرة بعد سقوط بغداد على يد التتار والذى تسمى بأمير المؤمنين .

وقد دام حكم أسرة الحفصيين لتونس أكثر من ثلاث قرون اذ أن بداية حكم الأسرة كان عام ٦٠٣ هـ / ١٢٠٦ م واستمرت حتى عام ٩٨١ هـ / ١٥٧٤ م.

ويرجع عمر بن يحيى الى أصول عربية قرشية الى نسب عمر بن الخطاب ثانى الخلفاء الراشدين ولا يمكن التحقق أو التأكد من صحة ذلك وقد استفاد منه ابناؤه وأحفاده لما قامت الدولة وقد كان أبو حفص عمر من أوائل الذين بايعوا ابن تومرت فاذا طبقنا مقياس الموحدين لتولى الحكم على ابن حفص وجدناه مستحقا لأن يتبوأ مكانة بين أنصار الدعوة وقد احترمت الدولة أبا حفص وجعلته ثالث ثلاثة بعد المهدى وصاحبه عبد المؤمن بن على . وقد حرص الموحدون على اعطائه لقبا كما أعطت سابقيه القابا وتلقب بالشيخ وقد لزمه هذا اللقب طوال حياته . وقد ظل الشيخ أبو حفلص مخلصا للدعوة فى حياة المهدى وبعد مماته وقد استمر الشيخ أبو حفص على وفائه واخلاصه للدولة ويقدم لها خدماته وقد شارك ابن حفص فى مهام الدولة وشارك أبو حفص فى قيادة القوات المحاصرة لوهران وقابس وغيرها من المدن ، ولم يقتصر دور الشيخ أبى حفص فى عهد عبد المؤمن على قيادة الجيوش والانتصار فى المعارك بل تعداه الى أدوار أخرى فقد كان مستشارا لعبد المؤمن الذى حرص على أخذ رأيه فى المشاكل الصعبة .

فها هو عبد المؤمن يلجأ للشيخ أبى حفص لما أراد الخروج الى أفريقية عام ٥٤٢هـ ولم يكن موقف أبى حفص موقف التابع بل كان يحرص على ابداء رأيه ولو كان مخالفا لرأى الخليفة نفسه ويظهر جليا مدي احترام عبد المؤمن للشيخ أبى حفص واضحا جدا حيث يستخدم نعتا للقب الرسمى للشيخ فيسبقه بالأجل بل يصل أمر هذا الاحترام الى أن يخص عبد المؤمن أبا حفص بابنته فيزوجه أياها .

ولقد ظل الشيخ أبو حفص طوال حياته مع الموحدين شعلة نشاط يخطط ويقود الجيوش فاتحا للمدن ومؤدبا للقبائل . فى عام ٦٠٧ هـ / ١٢١٠ م اغار أبو محمد عبد الواحد على قبائل سليم وغنم أموالهم وأسر شيوخهم بتونس رهينة ليرغم اتباعهم على الطاعة والتخلى عن مناصرة بنى غانية الذين تولى محمد بن عبد السلام ولى طرابلس مهاجمتهم بجوار جبل نفوسة وسلب عنادهم .

والدولة الحفصية كانت من الدول طويلة العمر قليلة المجد ربما لأنها لم تعتمد على قوة عسكرية ذاتية ولم يكن لها عماد معنوى فقد اعتمدت اساسا على قوة مصمودية قليلة واعتمدت على جند العرب من البادية والبربر والمرتزقة من صنهاجة وزنانة وربما كان أقدر أمرائهم أبو زكريا الذى أعلن استقلاله عن الموحدين وبسط سلطانه على كل أفريقية وطرابلس وخطب له على منابر الجزائر وتلمسان وطنجة ومكناسة وخطب له كذلك بنو وطاس الذين استولوا على فاس بعض الوقت وكانت له عناية بالمنشآت والعلوم والثقافة ويمكن القول أن سلطانه الفعلى كان على أفريقية وأما المغرب الأوسط وطرابلس فكان اسميا وقصير العمر .

* * * *

الفصل الثانى

« الدولة الحفصية فى عهد أبى زكريا بن عبد الواحد »

أزهى عصور الدولة

بعد أن أعلن أبو زكريا أول أبناء الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن يحيى أبى حفص عمر الهنتاتى أفريقية كإمارة مستقلة فإنه بدأ فى الوقوف ضد الخليفة الموحدى فقام بطرد عمال الموحدين من أعمالهم وحرمهم من البلاد. وقد خطا أبو زكريا خطوة تجاه الخلافة الموحدية عندما أعلن قيام الدولة الحفصية فى صورة واضحة قانونًا وأسقط اسم الخليفة المأمون من الخطبة مكتفيًا بالدعاء للمهدى والخلفاء الراشدين معلنًا بدء استقلال أفريقية عن السلطة المركزية فى المغرب الأقصى وبدأ الاستقلال الحقيقى عن الخليفة الموحدى وتلقب أبو زكريا بلقب الأمير وسك النقود والكتب والرسائل بذلك وظل يدعو للمهدى لأنه لم يرد أن يسبق الأحداث، وذلك خوفًا من ظهوره بصورة المعادى للخليفة الموحدى والخارج عن طاعة وسلطة الخليفة، ويكفى فقط أنه أزاله من الخطبة وكان خلعه للطاعة فى نفس العام الذى تولى فيه وهو عام ٦٢٧هـ، ويعتبر إعلان البيعة للأمير أبى زكريا فى نفس العام نقطة تحول كبرى فى تاريخ البيت الحفصى إذ تستطيع أن تؤرخ بها سنة ظهور الدولة الحفصية وأصبحت هناك دولة مستقلة لها شكل قانونى ودستورى وذات حدود ولها أمير بويع بالإمارة من قاضى القضاة والعلماء ورجال الدين والعامة.

وقد استطاع أبو زكريا الاستفادة من الموقف السياسى المضطرب فى المغرب الأقصى، وما قام به الخليفة المأمون من أعمال منافية للدين والتقاليد والأعراف الإسلامية. وبذلك وضع اللبنة الأولى لبناء وتكوين الدولة الحفصية التى كتب لها أن تعيش ثلاثة قرون ونصف، ولكنه كان عليه الانتظار سبعة أعوام حتى يشعر أن مكانته

قد استقرت تماماً قبل أن ينادى بنفسه حاكماً عام ٦٣٤هـ، واهتم أبو زكريا أن يظهر دولته بمظهر قوى فى أول قيامها فسعى إلى توسيع حدودها فاتجه غرباً فاستولى على قسنطينة وبجاية، وضمها إلى دولته الناشئة وولى العمال على أفريقية من قبله وجعلهم من قرابته وتولى أخوه أبو عبد الله اللحياتى على بجاية، وعين الوزراء والحكام وقبض على وزراء الموحدين ونفاهم خارج البلاد.

وعلى الرغم من ظروف دولة الموحدين ومشاكلها الخارجية والداخلية بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ/١٢١٢.. فإن أبا زكريا لم يتقدم إلا إلى ذكر اسمه فى الخطبة مع بيعته الثانية عام ٦٣٤هـ، ولم يفكر فى التلقب بلقب خليفة ولعله نظر إلى وجود خليفة فى المغرب ما زالت له قوة لايستهان بها وأنه نظر إلى وجود خليفة ثان فى بغداد له مكانة سامية فى نفوس أهل المشرق، وبهذه البيعة الثانية عام ٦٣٤هـ استقرت الدولة مع احتفاظ أبى زكريا بنمط التوسع العسكرى وتوسيع حدود إمارته فاتجه غرباً نحو الجزائر ففتح بلاد مغراوة، ومن بعدها تلمسان.

ومن ثم .. فقد بدأت وفود البلاد المجاورة تأتى إلى الدولة الحفصية مبايعة الأمير أبى زكريا وجاءت البيعة من الأندلس والمغرب فبايعت بالنسبة وغيرها من البلاد، وعلى الرغم من أن الدولة الحفصية قد أعلنت استقلالها عن الدولة الموحدية، وبذلك فإن الدولة الحفصية هى وارثة الموحدين الرسمية فى هذا الجزء من الدولة، وفى ذلك إضفاء الشريعة على الدولة الحفصية.

ولقد شهدت الدولة الحفصية أزهي عصورها ومجدها التليد فى عهد أبى زكريا الذى يعتبر واضع بناء الدولة القوية وموطدا أركانها فقد بلغت الدولة أقصى اتساعها وسمعتها فى عهد الأمير أبى زكريا هذا الذى عمل ما وسعه للعمل على توسيع حدود دولته مستخدما الأساليب العسكرية فقد كانت حدود الدولة عندما تولى الحكم عام ٦٢٧ هـ والتى استمرت فترة ولايته عشرين عاما حتى عام ٦٤٧ هـ تمتد من

طرابلس الى ماقبل قسنطينة ثم بدأ حكمه بفتح بجاية وقسنطينة من أملاك المغرب الأوسط عام ٦٢٨ هـ وقبض أبو زكريا على والى قسنطينة ووالى بجاية واستموت فتوحاته بجاه المغرب أيضا فارتحل الى الجزائر واستولى على شلف والبطحاء واطاعته بلاد مغراوة كما أطاعه بنو منديل وبعد أن حقق أبو زكريا فتح بلاد المغرب الأوسط قام بفتح تلمسان حاضره بلاد المغرب الأوسط ودار مملكة زنانة ومتوسطة قبائل البربر وكان أبو زكريا ينظر الى المغرب الأوسط جاعله الطريق الى الاستيلاء على عرش مراكش طامعا فى أن يكون الوارث الوحيد للدولة الموحدية .

وقدتحرك أبو زكريا عام ٦٣٩ هـ وضم اليه بعضا من قبائل العرب واستطاعت جيوش الحفصين أن تدخل تلمسان وبعد أن انتهت المعركة فكر فيمن يعينه واليا على هذا الاقليم الهام فى المغرب الأوسط ووقع اختياره على يغمراسن احد أبناء عبد المؤمن فولاه ولاية تلمسان وبعض أعمال أفريقية وكان لتحقيق الانتصارات فى الأقاليم الغربية وموقف المأمون من بناء كنيسة فى مراكش ليمارس النصارى شعائرهم فيها والاستعانة بقوات من الفرنجة واعلان امارة أفريقية مستقلة سببا فى ذيوع اسم وسمعة أبى زكريا فى مختلف أقطار المغرب والأندلس فقد سارعت المدن والأقاليم لاعلان البيعة له فلم يأت عام ٦٢٩ هـ بعد توليه بعامين فقط الا وتولت البيعة له من الشرق والغرب والأندلس فقد باسعت له مرسية عام ٦٢٩ هـ وأسقطت الدعاء للعباسيين وقد وردت بيعة مرسية فى وقت مبكر وذلك بعد اعلان البيعة الأولى بأربع سنوات ، غير أن البيعة عام ٦٣٧ هـ وبايعت بلنسية عام ٦٣٦ هـ لكن ابن أبى دنيار يذكر أن بلنسية بايعت تعام ٦٣٥ هـ لوجود بيعة ابن مردنيش لأنه كان فى مأزق والمدينة محاصرة من قبل الأسبان الفرنجة ولم يمد له يد المساعدة فلجأ الى الدولة الحفصية معطيا البيعة لها فى مقابل المدد والعون المادى والعسكرى .

الا أن أبا زكريا لم يتحرك التحرك الكافى بل اكتفى بارسال المدد من الطعام

والسلاح الى بلنسية المحاصرة ولم يهتم بارسال الجند كما ارسل الطعام والسلاح لكن تراخى أبو زكريا عن النصرة الحقيقية فى حين أن موقف بنى مرين كان ارسال الجيوش مرات تلو المرات الى الأندلس ولبوا صراخ الأندلسين فى حين أنه لم يرسل جيشا لفك الحصار عن المدينة ومحاربة الفرنجة عنها ، بل أن أسطول الحفصين لم يستطيع انقاذ المدينة المحاصرة وكان بالامكان ارسال الجند كما أرسل السلاح والطعام لكن تراخى أبى زكريا عن النصرة الحقيقية فى حين أن موقف بنى مرين كان ارسال الجند وأنهم لبوا صراخ بنى الأحمر الا أن ابن مردنيش ظل متمسكا ببيعة الدولة الحفصية وبعد سقوط بلشية وكذلك كانت البلاد الأندلسية التى بايعت أبا زكريا مثل مدينة اشبلية والتى أرسلت وفدا الى تونس وطلب العقد من الأمير زكريا أن يعين عليهم واليا من أقربائه فرحل اليهم ابن عمه أبو فارس بن يونس ابن أبى حفص فقدم أشبلية وقام بأمرها خير قيام بل كان من الولاة الذين عملوا الكثير من أجل مصلحة المدينة وشعبها وكان ذلك عام ٦٤١ هـ ولكن أبن خلدون وأبن أبي دينار ذكرا أن ذلك كان عام ٦٤٣ هـ ، الا أن والى الحفصين رغم الأعمال التى قام بها قد طرد من أشبلية عام ٦٤٣ هـ الى سبتة بل أن الوالى الجديد ابن الجد اساء معاملة بعض الجند وكان رجوع الوالى الجديد الى تونس بداية الاستخفاف بالمدينة من قبل النصارى وبدأوا يهاجمونها بعد أن توقفوا عن أية أعمال عسكرية أثناء حكم الأمير الحفصى لكن عندما أحس أهل أشبلية بوطأة الهجوم المسيحى عليهم طلبوا تعين أبى فارس الحفصى واليا عليهم للمرة الثانية وأن يلبى الأمير أبو زكريا الحفصى طلبهم فى امدادهم بالعون العسكرى والجند وقام أبو زكريا بعدة محاولات لفك الحصار وأرسل لأهل أشبلية وجهز لهم أسطولا وطلب من سيتة تجهيز أسطول آخر .

وكذلك كانت المرية من المدن الأندلسية الشرقية التى بايعت الوالى أبا زكريا لبيعة الطاعة وأرسلوا بطاعتهم الى الأمير الحفصى أبى زكريا الذى كان قد قوى

باستيلائه على تلمسان فى المغرب الأوسط . بالإضافة الى مبايعة بعض الأنصار فى الأندلس ولكن مدة الوجود الحقيقى الحفصى فى المرية لم يدم طويلا اذ لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات .

ومهما يكن من أمر بيعه هذه المدن الأندلسية للدولة الحفصية فى تونس ومبايعة الأمير أبى زكريا على هذا النطاق الواسع فان ذلك يعنى امتداد النفوذ الحفصى الى هذه الديار وازدياد سمعة الدولة الحفصية وقدرتها على مد يد العون لهذه المدن الأندلسية التى كانت تقاسي من حصار وتعدى القوى الفرنجية على بلادهم ومن هنا فقد وجدت هذه المدن سندا حقيقيا استطاع أن يقدم العون المادى والعسكرى وأن يحول دون سقوط هذه المدن فى أيدي القوة المعادية .

بل أن نفوذ بنى حفص اذا كان قد غطي نطاق البحر المتوسط وصولا الى الأندلس فانه استطاع أن يصل الى المغرب الأقصى مقر الدولة الموحدية بل أن هناك مدنا مغربية اعترفت بالسيادة الحفصية وبايع الأمير الحفصى أبا زكريا . وكانت بيعة المدن المغربية تعنى دلالة قوية على وصول النفوذ الحفصى الى قلب الدولة الموحدية ذلك لأن الحفصيين كانوا يطمعون فى كرسى الحكم بمراكش وكانوا يمدون أبصارهم الى المغرب الأقصى بعد أن سيطروا عن جزء من المغرب الأوسط بل أنهم كانوا يرغبون فى المزيد من الأراضى والمدن التى تخضع لنفوذهم وكان هدف الحفصين من ذلك حصار الدولة الموحدة ثم الاتجاه الى العاصمة مراكش والاستيلاء عليها .

ولقد كانت مدينة سبتة فى المغرب الأقصى من أولى مدن المغرب الأقصى التى بايعت الدولة الحفصية وخضعت لنفوذها وكذلك مدينة طنجة ومدينة قصر بن عبد الكريم . ويؤكد أبن خلدون أن بيعة سبتة كانت عام ٦٤٠ هـ وأنه فى هذه السنة بعث أهل أشبليه وسبتة بطاعتهما للأمير أبى زكريا صاحب أفريقية وترجع أهمية هذه المواقف السياسية لمدينة سبتة بأنها لم تكن خاصة بمدينة سبتة وحدها بل شاركتها

اعلان البيعة والطاعة للأمير الحفصى مدينة طنجه وإمارة قصر ابن عبد الكريم وعين الأمير الحفصى أبو زكريا الحفصى زكريا بن يحيى الشهيد من قبل بنى حفص واليا على هذه المدينة غير أن حكم الحفصين لم يدم طويلا فى مدينة سبتة فبمجرد وصول خبر وفاة أبى زكريا الى المدينة ثار أهلها ضد الوالى الحفصى وطردوه منها وانقطعت الدعوه الحفصية وحولت الى الخليفة الموحدى المرتضى وذلك خلال عام ٦٤٧ هـ فصارت مدينة سبتة تحت حكم الموحدين حوالى سبع سنوات ولما كانت طنجة تابعة لسبتة فقد تحولت هى الأخرى للدولةالموحدية غير أن هذه المدن الثلاث (سبتة ، طنجة ، قصر ابن عبد الكريم) قد عادت الى الدخول فى طاعة الدولة الحفصية وعلى الرغم من طول مدة طاعة سبتة للحفصين وبالرغم أيضا من معاودتها لطلب هذه البيعة الا أنها لم تكن قوية فقد تأرجحت هذه المدن بين البيعة وعدمها . ومهما يكن من أمر البيعة وطولها وبقاء الوالى الحفصى أو طرده وعودته مرة ثانية فإن ذلك خير دليل على قوة الوجود الحفصى وارتفاع مكانة الأمير الحفصى بين شعوب المغرب الأقصى والأندلس بل أن نفوذ الحفصين فى بلاد المغرب الأقصى لم يكتف بهذه المدن الساحلية بل تخطاها الى داخل البلاد ليكون على مقربة من مراكش قلب الخلافة الموحدية وهذا دليل آخر قوى على قوة النفوذ الحفصى فى بلاد الموحدين ومدى قوة نفوذ الأمير أبى زكريا الحفصى لا سيما بعد أفعال الخليفة المأمون التى أثارت حفيظة الناس ضده ومن ذلك نجد أن مدينة سجلماسة تتابع الخليفة الحفصى وتدخل فى طاعته عام ٦٤٠ هـ حيث ظلت هذه المدينة تخضع لسيادة الموحدين حتى هذا التاريخ فقد حدثت خلافات بين حاكم المدينة الذى يسمى الهزرجى وبين الموحدين فلم يكن أمام الحاكم الا أن يلجأ الى أمير قوى يبعث اليه بطاعته ويطلب منه حمايته من الخطر الموحدى وبعد أن استشار معاونيه ومستشاريه فانهم أشاروا عليه بإن يرسل الى الأمير الحفصى أبى زكريا الذى قوى نفوذه وذاع صيته بعد الاستيلاد على تلمسان وخاطبه

فى الدخول فى طاعته وأرسل اليه بالبيعة فبعث أبو زكريا الى عبد الله الهزرجى بقبول ذلك وثبته واليا على سجلماسة ومده بالمال والعتاد والجنود حتى يستطيع حماية المدينة والوقوف ضد الزحف الموحدى عليها وتمت الخطبة والبيعة لأبى زكريا الحفصى . على منابر سجلماسة وانحائها وفوض اليه أمرها وكانت البيعة عام ٦٤٠ هـ لكن هذه البيعة لم تستمتر طويلا اذ سارع الخليفة السعيد الموحدى فى الزحف على سجلماسة وفر عبد الله الهزرجى الى تونس محتميا بالدولة الحفصية والعيش فى حاضرتها وهكذا انتهت بيعة الأندلس مثلما انتهت اليه بيعة المدن المغربية وكذلك مدن شرق الأندلس ولم تستطيع الدولة الحفصية أن تحافظ على مكانتها وسمعتها فى تلك الديار لا سيما وأنها كانت ترنو ببصرها تجاه بلاد المغرب الأقصى والأندلس لكى تكون الوريثة الشرعية لدولة الموحدين بعد أن أصابها الوهن وبدأ الضعف يدب فى أوصالها وترك الأمور تسير على غير ما يرغب سكان هذه الولايات والمدن واهمال أمر هذه الأقاليم رغم وجود صراع كبير فى هذه المدن بين قوى أخرى بدأت تحاول أن تكون وريثة للدولة الموحدية وتعمل على ازاحة النفوذ الحفصى نهائيا من تلك الديار .

* * * *

عنهما.

وبفضل انتساب الحفصين الى قريش وانتسابهم الى الرسول ﷺ وقرابتهم من الموحدين استطاعوا أن يكسبوا حكمهم صفة شرعية وأن يقيموا الخلافة وأن يقيموا الخلافة وأن ينصب عبد الله محمد بن أبى زكريا الحفصى نفسه خليفة وتلقب بلقب أمير المؤمنين المستنصر عام ٦٥٧ هـ / ١٢٥٩ م وهو نفس العام الذى وردت فيه بيعة أهل مكة والحجاز وشريف مكة وقاضيها . وذلك بعد زوال الخلافة العباسية من بغداد وقتل الخليفة المعتصم بالله العباسى آخر خلفاء الدولة العباسية فى بغداد بسنة واحدة وعلى أثر مقتل آخر الخلفاء العباسيين وزوال الدولة العباسية وحاجة العالم الاسلامى الى خلافة فقد بايع شريف مكة وأهل الحجاز الخليفة الحفصى أبا عبد الله محمد باعتباره وارثا للخلافة العباسية ودعا له على منابر بلاده فى مكة وكل الحجاز ولقبه بأمير المؤمنين وبذلك اكتسبت الخلافة صفة شرعية .

وأقيمت الخطبة للخفيفة الحفصى على منابر المغرب واعترف بنو مرين عند تأسيسهم دولتهم بالخليفة الحفصى وفيما سبق القول أقيمت الخطبة للحفصيين على منابر الأندلس بعد أن حلت الهزيمة بالموحدين فى موقعة العقاب فى عام ٦٠٩ هـ / ١٢١٢ م وزوال سلطان الموحدين وسقطت هذه البلاد فى أيدى الأسبان ولم يبق فى أيدى المسلمين سوى منطقة جبلية فى جنوب شرق أسبانيا حيث قامت مملكة غرناطة الاسلامية على أيدى بنى النضير أو بنى الأحمر الذين بايعوا الخليفة الحفص أقوى حكام المغرب فى ذلك الوقت وأقاموا الخطبة على منابرهم وذلك لحماية دولتهم الناشئة من غارات الأسبان .

وقد اختلفت مصادر التاريخ الحفصى فى بيعة أهل مكة والحجاز للخليفة المستنصر بالله فقد أوردت بعض المصادر أنها أوردت فى عام ٥٦٩ هـ ولكن رأى ابن أبى دينار أنها كانت عام ٥٦٧ هـ وقد صيغت هذه البيعة بيد عبد الحق السبعين فى

ليلة القدر من رمضان عام ٦٥٦ وقد كان هذا بعد موت المعتصم على يد التتار لفترة وجيزة عندما وصل خبر بقتله الى أهل مكة فانهم بايعوا على الفور الأمير الحفصى وانتقل بيت الملك والسلطان من بغداد فى شهر رمضان ودفع بالأمر للأمام أبى عبد الله محمد بن يحيى المستنصر بالله الحفصى .

وكانت البيعة بعد التأكد من أن الخليفة العباسى قد قتل وأن الخلافة العباسية قد انتهى أمرها وأنه لا خليفة الا المستنصر الحفصى وقد احتفل الخليفة احتفالا عظيما بهذه المناسبة وورود بيعة أهل مكة والحجاز وركز الخطباءعلى أهمية مكة المكرمة وبيعتها فمن فتح الله عليه فتح مكة فقد تمت له النعمة وان الخليفة الذى لا خليفة معه وأنه لا يوجد خليفة يستحق هذا الأسم الا الخليفة المستنصر وأن الخليفة المستنصر هو الخليفة المشار اليه فى الأحاديث النبوية .

وكانت بيعة مكة المكرمة لها فعل السحر لدى شعوب المغرب العربى وكذلك لدى الرأى العام فى أفريقية وأيضا لدى المستنصر اذ أحس بعد بيعة أهل مكة والحجاز له بأنه الخليفة الأوحد فى العالم الاسلامى بلا منازع كان وقد احتفل المستنصر بهذه البيعة واحتشد القوم لسماع البيعة ودخول الحجاز فى طاعة المستنصر وربما كان سر الاهتمام هذا ببيعة مكة ذلك لأن لها مكانة عظيمة فى قلوب المسلمين حيث مهبط الوحى ومسرى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبلة المسلمين ومن هنا لها مكانة خاصة فى قلوب المغاربة أشوقهم الى بيت الله الحرام ، وكان وصول هذه البيعة السبب الأساسى لعلو المكانة السياسية والدينية للدولة الحفصية بعد أن بايعتها مكة المكرمة وكيف كانت هذه البيعة هى السبب الأساسى فى احياء الخلافة العباسية فى القاهرة وكان أهل تونس قد احتفلوا برسالة الحجاز أحسن احتفال وقد دخلت فى طاعة الخليفة المستنصر بالله الحفصى ودعوته ، بل أن الخليفة الحفصى قد اعترفت به بلاد المغرب جميعا من طرابلس شرقا الى ساحل البحر المحيط غربا ومن ذلك بنو مرين فى

المغرب الأقصى (٦٣٣ - ٧٩٦ هـ / ١٢٣٥ - ١٣٩٣م) الذين كونوا دولتهم على أنقاض الدولة الموحدية قد اقتدوا بملوك (بنى النضير) ، (بني الأحمر) فى غرناطة فأقاموا الدعوة للخليفة الحفصى لكى يكسبوا حكمهم صفة شرعية فى نظر شعوبهم ، وقد ظلت الحال على ذلك اعترافا بالخلافة الحفصية فى بلاد بنى زيان وبنى مرين الى أن قام الأمير يعقوب المنصور الذهبى المرينى (٦٥٦ - ٦٨٥ هـ / ١٢٥٧ - ١٢٦٨ م الدعوة لنفسه بعد أن كان بنو مرين يدعون للخليفة الحفصى . وبذلك ظهرت فى المغرب الكبير خلافة قوية هى الخلافة الحفصية التى امتد سلطانها الروحى من بلاد الحجاز شرقا والمغرب والأندلس غربا وغدت حاضرتها تونس مركزا سياسيا وثقافيا هاما جذب اليها الشعراء والعلماء والصلحاء من كافة أرجاء العالم الاسلامى ويذكر السلاوى أنه رغم تأصل الدعوة الموحدية فى نفوس أهل المغرب فان بنى مرين قدروا أنهم فى أمس الحاجة لتأييد الحفصى لهم فأقاموا الدعوة لهم تأليفا لأهل المغرب واستجلايا لمرضاتهم واثباتا لهم من ناحية وهو انهم اذا كانت صفة الدولة الموحدية قد رسخت فى قلوبهم فلعل بنى مرين الذين ينتمون الى قبيلة زناتة قد خطبوا ود الحلفاء الحفصين المصامدة الذين أقاموا الدولة الموحدية فكانت مسألة ومبايعة المرنين لبنى حفص بالخلافة ما هى الا سياسة بعيدة النظر .

وهكذا كانت الخلافة الحفصية قد وصلت الى ذروة مجدها فى عصر المستنصر بالله مؤسس الخلافة والذى كانت الظروف السياسية بالمغرب مساعدة على التلقب بلقب خليفة كذلك الظروف فى المشرق أيضا وقد كان لقب خليفة يحمله فى المغرب الخليفة الموحدى وفى تونس كان والد المستنصر بالله أبو زكريا قد وطد أساس الدولة الحفصية وبايعت له الأقاليم وسارعت دول أخرى فى المغرب تعلن عن بيعتها للدولة الحفصية وأما فى المشرق حيث الخلافة العباسية وقوة مصر والشام فلم تكن الحال بأحسن مما عليه فى المغرب ، فقد بدأ ضعف الخلافة العباسية ، بل أن المستنصر بالله

الحفصى لم يكن يهاب أى رد فعل خارجى أما رد الفعل الداخلى فقد أعد المستنصر له عدته وقوى أمر الخلافة بوجود بيعة أهل مكة والحجاز واعلان الخليفة المستنصر بالله الخلافة فى الرابع والعشرين من ذى الحجة عام ٦٥٥ هـ وبذلك فقد وصل الحكم الحفصى فى شكله السياسى الى تطور آخر فاذا كان عبد الواحد قد أرسى قواعد الوجود الحفصى فى مرحلته الأولى فإن الحفيد المستنصر بالله ابن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد قد جاء ليستكمل آخر تطور فى شكل الحكم الحفصى لأفريقية فيتحول هذا الحكم من امارة الى خلافة وهو التطور الثالث والأخير فى شكل بناء الدولة الحفصية وقد وصلته بيعة بنى مرين عام ٦٥٢ هـ من مدينة قاس ودعى له على منابرها.

ولقد كان تلقيب العديد من سلاطين و امراء البلاد الاسلامية بلقب خليفة قد أصبح شيئا عاديا اذ أننا نجد أن لقب خليفة قد أصبح مسموعا فى العديد من ديار الاسلام ومن ذلك فانه منذ عام ٦٥٦ هـ وهو العام الذى سقطت فيه الخلافة العباسية وانتهت من على مسرح الأحداث فى العالم الاسلامى وانتهت الخلافة بنظامها القديم واختل نظامها حتى أصبح فى استطاعة كل أمير نوى تغلب على بلد من البلاد الاسلامية أن يتلقب بلقب خليفة ولم ير ما يدعوه الى الالتجاء الى الخلفاء العباسين فى القاهرة أو غيرها من بلاد العالم الاسلامى التى يقيم بها خليفة للحصول على تفويض شرعى بالحكم .

ومن ذلك نرى المغول بعد أن اعتنقوا الاسلام لا يعبأون بالخلفاء العباسيين فى القاهرة - ففى فارس اعتنق غازان الاسلام ودعى له على المنابر بهذه الألقاب وهى السلطان الأعظم وسلطان الاسلام والمسلمين وتلقب السلطان رخ بلقب خليفة فانه لم تعد هناك هيبة للخلفاء وفقدوا نفوذهم الروحى والسياسى وكان تعين الخلفاء ليس الا لمجرد طبع الشرعية على الحكم فى البلاد واضفاء روح المهابة لدى الشعوب التى

تخضع لحكم هذا الخليفة وذلك سواء فى المشرق العربى أو فى المغرب .

وكان اعلان الخلافة الحفصية بداية مرحلة جديدة وفى عهد الخليفة المستنصر نجد أنه سار الى حد ما سيرة أبيه فى اسكات الوالى الأول للدولة أبى محمد عبد الواحد بإمداده بالأموال واسترضائه بها وقد امتنع عبد الواحد فترة عن مبايعة المستنصر «وذلك لصغر سن الخليفة وأغلب الظن أن هذا التوقف عن المبايعة ليس بالفترة الطويلة»

ونعود للحديث عن أبى محمد عبد الواحد الذى رحب أهل أفريقية بولايته واستبشروا به خيرا وقام عبد الواحد بدور كبير فى مقاومة ابن غانية وقام باصلاح الأمور وأحسن التدبير وأما عن السياسة المالية فقد نفذها خير تنفيذ واستطاع أن يضع الأمور فى نصابها فى كل أفريقية .

وكان أبو محمد عبد الواحد متدينا عادلا فى معاملة الناس فأحسن اليهم واختار عمالا عادلين ومشهودا لهم بالعدل وحسن التعامل مع الرعية ، وقد قصده الشعراء والعلماء ورجال الدين ومدحه الشعراء وشهد بعدله وحكمته رجال الدين وقد توفى الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص فى يوم الخميس أول المحرم عام ٦١٨ هـ بعد أن حكم أفريقية آربع عشرة سنة وثلاثة شهور ثم بعد وفاته تم عزل أبا زيد عبد الرحمن بن الواحد بن أبى جعفر عن ولاية أفريقية لكن الخلافة الموحدية كان لها رأى بعد وفاة عبد الواحد فقد عاد ابنه الى المغرب وحكم أفريقية من عام ٦١٨ هـ الى عام ٦٢٣ هـ حاكمان من قبل الموحدين أبناء عبد المؤمن وهم السيد أبو العلا ومن بعده ابنه المستنصر والذى مات بالعاصمة تونس عام ٦٢٣ هـ ويوصف المستنصر هذا بأنه كان مفسدا ، ثم عادت الولاية الى بنى حفص مرة ثانية بعد انقطاعها عنهم لفترة خمس سنوات فى عام ٦٢٣ هـ لنبدأ مرحلة جديدة من مراحل نشأة الدولة وهى مرحلة الولاية أو الوجود القانونى للحفصين .

اذ تولى السلطة فى أفريقية أبو محمد عبد الله بن عبد الواحد بن أبى حفص المعروف بعبو ودخل معه تونس أخوه أبو زكريا فى يوم السبت ٢٧ ذى الحجة عام ٦٢٣ هـ وحدثت اضطرابات شديدة فى مراكش وقد استغل بنو حفص هذا الاضطراب استغلالا جيدا لصالحهم . وبعد تولى أبى محمد عبد الله ولاية أفريقية بدأ فى عقد الأعمال والمناصب لأخوته فعهد الى أخيه أبى زكريا على قابس كما عقد لأبى ابراهيم على توزو ويعتبر هذا العمل خطوة هامة جدا فى سبيل تثبيت مكانة الحكم الحفصى .

وساءت العلاقة بين أبى زكريا وهو فى قابس وأخيه بعيو والى أفريقية وحاول الأخيران بعزله لكن المأمون الخليفة الموحدى عزل أبا محمد بن عبد الله الحفصى وكان قد وقع فيها اختلاف فخرج المولى عبد الله الى قتال أخيه أبى زكريا فتحالف عليه الموحدون وأبوا قتال أخيه فرجع الى تونس واستقر بها ثم بعد ذلك تحرك أبو زكريا إلى تونس لتملكها . أما أبو محمد عبد الله فقد هرب الى مدينة أشبلية بالأندلس واستقر هناك وتولى أبو زكريا الامارة فى تونس فى يوم الأربعاء ٦٢٥ هـ . وبتوليه أبى زكريا بدأت حلقة قوية للوجود الحفصى وسعى أبو زكريا الذى يعتبر المؤسس الحقيقى للدولة الحفصية لبناء الدولة القوية .

وكان الخليفة الموحدى المأمون قد خرج عن تقاليد الموحدين وتحالف مع الدول المسيحية بسبب زوجته حباية الرومية واستعانته بخمسمائة فارس من قشتالة . مقابل التنازل عن عشرة حصون بالأندلس لقشتالة واقامة كنيسة مسيحية بمراكش وهى أول كنيسة فى تارخ المغرب الاسلامى حتى يتمكن المسيحيون من ممارسة شعائرهم الدينية وقد أرجع البعض بتوليه هذه الى أن أمه كانت حفيدة لابن مرادنيش وكذلك الى زوجته حباية التى كانت فى الاصل جارية مسيحية .

فقد استغل أبو زكريا الحفصى الفرصة ووجدها سانحة لكى يؤكد استقلاله

بالبلاد اذ ان أبا زكريا هذا يعتبر من أقوى سلاطين الحفصين فهو أبو زكريا يحيى بن أبى محمد عبد الواحد بن بكر بن أبى حفص عمر الهنتاتى ولد بتونس بمراكش عام ٥٩٩ هـ وبويع بالقيروان عام ٦٢٥ هـ وكان عمره وقت مبايعته ستة وعشرين عندما جددت له البيعة بتونس فى الرابع والعشرين من المحرم حيث جددت له البيعة مرة ثانية عام ٦٣٤ هـ وذكر اسمه فى الخطبة باسم الأمير وليس أمير المؤمنين .

وعند اضطراب المغرب فى عصر الرشيد بن المأمون بن يعقوب المنصور الموحدى فان أبا زكريا استبد بأمر أفريقية وفى عام ٦٣٥ هـ بايعه صاحب أشبلية بالأندلس زيان بن مردنيش واعترف ببيعة أشبلية للامارة الحفصية فى تونس .

وفى عام ٦٣٩ هـ استولى على تلمسان وفتحها وفى عام ٦٤٠ هـ بايعته مدينة سبتة بالمغرب الأقصى وفى عام ٦٤٣ هـ بايعته للمرة الثانية مدينة أشبلية والمرية وغرناطة من بلاد الأندلس ودخلت وفود هذه البلاد الى تونس . وكان رحمه الله من الصالحين والعلماء العاملين . وهو الذى بنى الجامع بالقصبة بتونس وبنى صومعته العجيبة وكان بناؤها عام ٦٢٩ هـ . وكذلك بنى المدرسة التى بسوق الشماعين وبنى سوق العطارين ووفد على تونس فى عهده العلماء والشعراء وأهل الصلاح وجمع بعدله وحسن سياسته أموالا لا تحصى وكانت له مكتبة بها ستة وثلاثة ألف مجلد وقد توفى عام ٦٤٧ هـ ودفن بجامع مدينة بونه بغرب البلاد الحفصية وكانت فترة حكمه بعد البيعة الثانية اثنين وعشرين عاما وقد أعيد دفنه مرة ثانية فى مدينة قسنطينة وكانت وفاته آخر جمادى الأخيرة وهو ابن تسعة وأربعين عاما .

وقد ترك من الأولاد الذكور أربعة هم محمد المستنصر وأبو اسحاق وأبو بكر وأبو حفص عمر .

وبعد وفاته تولى امارة الدولة فى تونس أكبر أبنائه الأمير أبو عبد الله محمد وهو

ابن أبى زكريا بن أبى محمد عبد الواحد بن أبى بكر بن أبى حفص عمر بويع صبيحة الليلة التى توفى فيها أبوه يوم الجمعة ٢٧ من جمادى الآخرة عام ٦٤٧ هـ وعمره اثنان وعشرون عاما وقد تمت مبايعته عام ٦٥٢ هـ ووصلت بيعة بنى مرين من مدينة فاس ودعى له على منابرها وفى عام ٦٥٧ وصلت بيعة مكة وقرئت على الناس فعند ذلك تسمى بأمير المؤمنين وتلقب بالمستنصر بالله وكان قبل ذلك يدعى بالأمير . وفى عام ٦٦٠ هـ تحرل الى قبائل رياح العربية وكان الخليفة المستنصر بالله قد تضايق من موقف قبائل الزواودة العدائى فزحف عام ٦٦٤ هـ / ١٢٦٥ م وهاجم رياح حتى وصلت قواته الى المسيلة آخر أوطانهم ففر الزواودة الى الصحراء جنوبا وارسلوا فى طلب الصلح والعودة للمبايعة فأوعز المستنصر لولى بجاية الشيخ أبى هلال بن عياد بن محمد الهنتاتى بالتظاهر بقبول الصلح والغدر بهم وقبض على زعماء رياح وأرسلهم الى المستنصر فأمر بقتلهم وقد شملت حدول الدولة الحفصية على أراضٍ واسعة حيث كانت تشمل الأراضى التى تقابلها اليوم طرابس الغرب فى ليبيا وكل مساحة تونس الحالية والجزء الغربى من الجزائر حيث كانت تشمل ولاية قسنطينة وبجاية وولاية عنابه وتدلس وتسمى حاليا وليس فى الغرب وكذلك تمتد جنوب ورقلة فى الصحراء الجزائرية وبذلك أصبحت الخلافة الحفصية دولة ذات حدود سياسية ثابتة بل أنها كانت تتوسع على حساب الدولة المجاورة .

ولقد كانت هناك العديد من الأسباب والأسانيد التى دفعت بنى حفص الى اعلان خلافتهم الجديدة والتى كانت تستمد أطرها وأساسها من الشرعية فهم كانوا ينتمون الى الأصل العربى والنسب النبوى الشريف والى جانب قرابتهم للموحدين ادعوا أنهم من سلالة الخليفة أبى جعفر عمر بن الخطاب وعللوا ذلك بالكثير من الأسانيد بل أنهم حرصوا كل الحرص على الاعتزاز بهذا الأصل والنسب القريشى الشريف ولمحاولة نشر هذا الادعاء بين الرعية بل أننا نجد ذلك أكثر وضوحا فى أقوال كتابهم وشعرائهم التى أطلقت على الدولة الحفصية اسم الدولة العمرية (نسبة الى

عمر بن الخطاب ، أو الدولة الفاروقية (نسبة أيضا الى الفاروق عمر بن الخطاب) وكان الخليفة أبو عبد الله المستنصر بالله الذى أعلن الخلافة من أقوى امراء بنى حفص اذ أن أقدامه على اعلان الخلافة وتلقبه بلقب أمير المؤمنين يقتضى شجاعة فائقة وقدرة على مجابهة الأحداث ، بل ان سمعته قد وصلت الى أنحاء العالم الاسلامى فنجد مسلمى الأندلس سيتجهون اليه ويطلبون منه العون فبعث بأسطوله الحفصى الى مدينة بلنسية وحاصرها ومن ثم فقد امتد النفوذ الحفصى الى الأندلس وأكثر من استقدام الأندلسيين الى بلاده لكى يستفيد بهم فى أعمال الدولة نظرا لمهارتهم وخبراتهم فى شتى الفنون وكذلك لكى يوازن بينهم وبين قوة البربر الذين كانوا عصب الدولة لا سيما بعد أن قام البربر ببناء الدولة .

وكانت سياسة الحفصين التقرب الى العرب فلجأ الحفصيون الى بنى سليم وأنزلوهم بالقيروان وبلاد قسنطينة فصاروا حلفاء لهم وتمكنوا بمساعدتهم من طرد أعداء الدولة من شرق أفريقية الى غربها . كذلك استعان الحفصيون بالعديد من القبائل العربية الذين أقطعوهم الكثير من البقاع وحرص الحفصيون على جذب مودتهم واستخدامهم فى الحروب . وليس أدل على سياسة التقرب الى القبائل العربية من أن السلطان أبا العباس أحمد تزوج من عرب المحاميد فى طرابلس وهم فرع من قبائل بنى سليم وهذا يفسر ازدياد سلطة العرب فى عهد ابنه أبى فارس عبد العزيز بحكم كونهم أخواله .

وقد اعتمدت الدولة الحفصية على بعض زعماء العرب فى ادارة بعض ممتلكاتها فأسندت الى بعض العرب النازحين من بنى هلال ولاية الزاب وكذلك ولاية بلاد قصطيلة وكانت الولاية فى هذه القبائل من قبل الموحدين فأبقى الحفصيون على ود هذه القبائل باستمرار حكمهم لهذه البلاد التى كانت تقطعها لهم الدولة الموحدية .

* * * *

الفصل الثالث

الخليفة المستنصر بالله والغزوة الصليبية

ليس هناك أدنى شك فى أن موقع الدولة الحفصية فى تونس وسيطرتها على الساحة المتميزة من ساحل البحر المتوسط الممتدة من طرابلس شرقا الى عنابة غربا قد هيأ لها اتصالات وثيقة مع الدول الأوربية المواجهة لها من حوض البحر المتوسط ولا سيما جزيرة صقلية وقصربة وايطاليا وساحل فرنسا الجنوبى ولقد كان لهذه الصلات أبعاد عديدة اذ اتخدت هذه الأبعاد اشكالا مختلفة طبقا لما كان يسود العلاقة من حرب أو سلم وطبقا للجو العام الذى يسود منطقة حوض البحر المتوسط .

وكانت سياسة الحفصين منذ الخليفة المستنصر بالله الحفصى تقوم على حسن الجوار واتباع سياسة التقرب مع كل الأطراف فنجد أنه أقام علاقات الود ، مع كل يد امتدت اليه بالصداقة فتقرب الى شارل انجو صاحب صقلية وكذلك أقام علاقات مع أسرة هنشاوقن فى المانيا لكن حدثت بعض الأحداث الداخلية فى صقلية مما استدعت من شارل أنجو ملك صقلية أن يطلب مساعدة من الخليفة الحفصى لكن الحفصى رفض مساعدته فما كان منه الا أن هرب من الجزيرة الى أخيه القديس لويس التاسع فى فرنسا يشجعه بالاغارة على الحفصين .

ورغم أن المصادر الأوربية والمعاصرة للحملة تغزو قيامها لعدة أسباب متعددة ومتنوعة والتى منها نجاح مصر فى صد الحملة الفرنسية على المنصورة والهزيمة النكراء للحملة عام ٦٤٨ هـ / ١٢٥٠ م فكانت الحملة هذه التى ذهبت الى تونس قاصدة مصر لكنها تحولت الى تونس بتأثير وتوجيه شارل دى انجو ملك جزيرة صقلية وشقيق لويس الذى كان على خلاف شديد مع الخليفة المستنصر بالله الحفصى فطمع فى استغلال هذه الحملة لتحقيق أهداف شخصية ولتصفية حساب مع خليفة تونس وتدعيم

ملكة ومد نفوذه الى تونس مستغلا شارة الصليب التى كانت رمز الحروب الصليبية والتى كان الصليب منها براء بل أنها كانت لأهداف توسعية واطماع اقتصادية واستعمارية كما أن بعض المصادر يذكر أن سبب توجيه شارل دى أنجو للحملة الى تونس أن الخليفة المستنصر بالله الحفصى كان يأوى عنده بعض أعداء شارل أنجو وهم الذين قاموا بالثورة فى جزيرة صقلية واستطاعوا الهروب الى تونس مما أساء الى شارل ملكها .

كذلك تطلع شارل الى اضافة اقليم ذى موقع استراتيجى ومميز وهام على الساحل الافريقى وذلك خدمة للحركة الصليبية التى لا زالت تحلم فى السيطرة على العالم الاسلامى شرقه وغربه . اضافة الى أن شارل دى انجو استغل سماحة المستنصر بالله وحسن معاملته للمسيحين والفهم السئ بخلق الاسلام والمسلمين فى التعامل مع أهل الديانات الأخرى وليس كما أشار العديد من كتاب العصور الوسطى عن جهل وعدم فهم وتعصب بغيض بأن الخليفة المستنصر بالله كان لديه استعداد للتنصر والتحول الى المسيحية بعيدا عن الاسلام وتلك فرية كاذبة اذ كيف يفعل الخليفة الرجل الأول فى الدولة الحفصية معلن للخلافة ويعتز بالنسب النبوى القرشى بل يطلق على الدولة العمرية والفاروقية تيمنا بالخليفة عمر بن الخطاب ويكون عنده أدنى استعداد للتخلى عن عقيدة الاسلام السمحة كما اشار ذلك (ستيفن روتشن ، جو تقيل ، جون) لقد كان المستنصر بالله حسن العقيدة طيب الخلق عميق الايمان حافظا للقرآن الكريم دارسا لعلوم الدين الاسلامى بل كان حجة قوية ، وهكذا تصور شارل دى انجو خطأ فكرة أن اظهار قدر من القوة للخليفة كفيلة بأن تجعله يعلن اعتناقه للمسيحية (تصور كاذب وباطل ولا يتفق مع أدنى تعقل وفهم مبادئ الاسلام الخالدة لكن ابن أبى دينار فى كتابه المؤنس فى أخبار أفريقية وتونس وهو من المصادر التونسية فانه يجعل السبب القوى لقيام هذه الحملة الى تونس أن الخليفة المستنصر بالله الحفصى تناول سيرة

الملك لويس التاسع باستهزاء لا سيما بعد أسره فى دار أبن لقمان فى المنصورة بمصر وسجنه وافتدائه وجمع التبرعات له من أوربا وكان ذلك السبب المباشر الذى أثار عقب الملك لويس فحول قواته الى تونس بدلا من مصر انتقاما لكرامته وهذا بكون على جانب من الصحة وليس كقول جونفيل مؤرخ حملة لويس التاسع بالضغط على المستنصر بالله لاعلانه اعتناق المسيحية . وقد تكون أهمية الموقع الاستراتيجى لتونس بالنسبة لصقلية والدول الأوربية وراء رغبة شارل دى انجو فى بناء دولة على الساحل الأفريقى .

ووصلت الحملة الى الشواطئ التونسية فى ١٨ يوليو ١٢٧٠ م وعلى رأسها لويس التاسع وأبناؤه الثلاثة وأخوه شارل انجو وخلفاؤه من ملوك وأمراء أوربا ، فحصن الخليفة المستنصر بالله موانئ تونس واستنجد بالعرب ونقل عاصمته الى القيروان وكان وصول الحملة فى النصف الثانى من يوليو وهو أشد أوقات الصيف فى أفريقية حرارة ونظرا لعدم قدرة الأوربين على تحمل الجو شديد الحرارة فقد تفشى المرض فى المعسكر الفرنسى فوقع الأمراء والفرسان والعساكر فريسة للمرض الشديد وكان ذلك من الأسباب القوية التى جعلت الحملة ترتد على أعقابها تاركة العديد من أفرادها يصارعون المرض الشديد وتفشى الحمى بين أفرادها ، بل أن الملك لويس التاسع أصيب بحمى شوكية شديدة مات على أثرها مباشرة فتولى أخوه شارل دى انجو قيادة الحملة من بعده والتى كانت تتكون من أكثر من أربعين ألف مقاتل منهم ستة آلاف فارس وأكثر من ثلاثين ألف من الرجالة واستولى على تونس ، لكنْ شارل أدرك فشل الحملة وعدم قدرتها على تنفيذ المخطط الذى قدمت من أجله فما كان منه الا أن طلب الصلح مع المستنصر وتوقيع معاهدة صداقة وكان استيلاء الحملة على تونس فى ٦٦٨ هـ / ١٢٧٠ م فقامت القوات الحفصية بمساعدة ومساندة العرب وغيرهم من المسلمين بمقاومة شديدة وباسلة منزلين الرعب بالأعداء وحشد الخليفة المستنصر أكثر

من أربعين ألفا من الرماة فقط غير قوات الفرسان .

ورغم سيطرة القوات الفرنسية وحلفائها على تونس المغربية لمدة ثلاثة شهور ونصف وتفكير المستنصر بالله فى الانتقال الى قسنطينة وليس القيروان كما ذكرت المصادر الأوربية حيث أنه لم يكن قد غادر تونس بعد ، ولقد كان استمرار بقاء هذه الحملة لهذه الفترة تعود لدور شارل دى انجو فى المحافظة على القوات الباقية حتى الخريف وانقاذ الحملة من كارثة محققة ولقد كان طلب الصلح من جانب شارل دى انجو يعد بمثابة رفع الروح المعنوية لأهل تونس الذين تأكد لهم أن نهاية الحملة هذه لا تقل عن نهايتها فى مصر من حيث الهزيمة والفشل ففى مصر أسر لويس التاسع وعلى أرض تونس قتله مرض الحمى ولم تحقق الحملة أهدافا فى السيطرة على بيت المقدس حيث كانت آخركلمات تخرج من فم لويس التاسع وهو يموت بالحمى الشوكية بيت المقدس .

وعقد الصلح فى ربيع أول ٦٦٩ هـ / ١٢٧١ م وهكذا عادت الحملة الأوربية الى بلادها بعد أن توفى قائدها وفقد العديد من رجالاتها وهى تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضئيلة التى أغضبت معظم الذين اشتركوا بها حيث أنه يمكن القول أن الحملة فى مجملها قد فشلت أشد الفشل وعمت الفرحة بلاد العالم الاسلامى فى مغربه ومشرقه ، ففى المشرق ازداد ارتياح المسلمين عند سماعهم بكارثة تونس ومقتل لويس . بينما ساد الصلببيين حزن عميق لوفاة لويس التاسع دون أن يحقق أى هدف من الحملة التى قضى عدة سنوات وهو يعد لها بعد هزيمة المنصورة عام ١٢٥٠ م .

ويذكر من هذه الحملة انها نزلت الشواطئ التونسية فى ذى القعدة عام ٦٦٨هـ وكان نزولهم تونس فى جموع وافرة فرسانا ورجالا وكانت بينهم وبين المسلمين حروب طويلة مات فيها خلق كثير من الفريقين ومدة اقامة الفرنسين أربعة أشهر وعشرة أيام وفى العاشر من محرم عام ٦٦٩ هـ مات طاغيتهم وقد قيل ان السلطان بعث اليه

بسيف مسموم وقيل مات حتف نفسه ولكن الأراء تتفق على أنه مات بالحمى الشوكية من أثر الحر الشديد وأرسل الله وباء على جيشه فمات عدد كثير من جيشه وطلبوا الصلح فصالحهم السلطان مع عدم التعرض لأية جهة من بلاد المسلمين وعقد هدنة خمسة عشر عاما ثم تم الصلح .

وكانت الدولة الحفصية قد بلغت ذروة مجدها فى عهدة ذلك لانه عاصر حملة لويس التاسع على تونس وتلقب بلقب خليفة المسلمين جميعا واعترف شريف مكة المكرمة له بهذا اللقب كما قيل حاكم مصر بيبرس الدعوة له فى مصر عام ١٢٦٠ م قبل أن يقدم الخليفة العباسى الى القاهرة فى العام التالى .

وليس هناك أدنى شك فى أن تمكنه من صد الحملة الصليبية هو الذى أكسب الدولة هذا النفوذ الأدبى ومن المعروف أن لويس التاسع كان مدفوعا فى حملاته الصليبية بالروح الدينية أصلا ولذا كانت خطته تنبنى على أساس تحرير الأماكن المقدسة من حكم المسلمين مما جعله ينحرف عن هذا الهدف ويقود حملته عام ١٢٧٠ م الى تونس .

ويقال أن تسامح المستنصر الحفصى مع المسيحين جعل لويس التاسع يأمل فى أن يحوله الى المسيحية ولكن التفسير الشائع لهذه الحملة هو أن شارل انجو حاكم صقلية وأخا لويس التاسع هو الذى أغرى ملك فرنسا بتحويل حملته الى تونس لتحقيق مصالح خاصة ، ذلك لان تونس اعتادت أن تدفع مبلغا سنويا لصقلية تجنبا للقراصنة الأوربين وهذا أمر شائع فى ذلك الوقت فى حوض المتوسط بل أن الدول الأوربية كانت تفعل نفس الشئ لتجنب قراصنة الجزائر وقد كف المستنصر عن دفع الجزية عندما علا شأنه مما أثار عليه سخط حاكم صقلية ويقال بأن شارل دى انجو كان مستعدا لغزو الشرق عن طريق القسطنطينية ولكن كان لتجار مرسيليا ديون فى تونس يريدون استبقاءها وهم الذين أغروا أخا الملك للتوسط لديه .

وسواء أصابت هذه الرواية أم تلك فهذا دليل عن أن أسباب الحملة كانت اقتصادية ومن المعروف أن الأوربين دائما عندما تحيق بهم الهزائم ويمنون بخسائر فادحة فى الأرواح والعناد يعزون ذلك الى أسباب طبيعية وهكذا فعلوا فى تفسير حملة ١٢٧٠م إذ ذكروا أن الطاعون هو الذى قضى على حياة الملك وقضى أيضا على الحملة وعلى كل فقد سارع انجو بعد وفاة أخيه الى عقد الصلح وقبل المستنصر دفع غرامة حربية . .

ولهذه المعاهدة التى مدتها خمسة عشر عاما أهمية خاصة لانها أدخلت الأنظمة الأولية للامتيازات فى تونس فنصت على حرية رعاية الطرفين فى ممارسة التجارة عند الطرف الآخر وكذلك حق اقامة المسيحين لشعائرهم والسماح بانشاء المؤسسات المسيحية فى تونس وكانت الدول الأوربية هى التى استفادت وحدها من هذا النظام وكثرت الفنادق والقنصليات فى تونس قبل غيرها من بلاد المغرب وعلاوة على ذلك عرض المستنصر دفع جزية خمس سنوات بما قيمته أكثر من خمسة ملايين فرنك وذلك لتشجيع الحملة على الجلاء بسرعة . ويذكر أن السبب الذى دفع الخليفة المستنصر لدفع هذا المال أن العلجة أم ملك الفرنجة أرسلت للخليفة المستنصر أن يبذل لها ما خسروه فى مئونة حركتهم وترجع بقوتها فاسعفها السلطان لما كان العرب قد عزموا على الرحيل الى مشاتيهم فقد بعث مشيخة الفقهاء لعقد الصلح فى ربيع الأول ٦٦٩ هـ وهكذا عادت الحملة تجر أذيال الخيبة بتلك النتيجة المادية الضئيلة التى أغضبت معظم الذين اشتركوا فيها .

وتوفى الخليفة المستنصر فى الحادى من ذى الحجة عام ٦٧٥ هـ وعمره خمسون عاما وكانت خلافته ثمانية وعشرين عاما وخمسة أشهر وأحد عشر يوما .

* * * *

الفصل الرابع

خلفاء بنى حفص بعد الغزوة الصليبية

الخليفة أبو زكريا يحيى الواثق

كان هذا الخليفة هو الرابع من خلفاء بنى حفص وكان قد خرج على طاعة الدولة واستحدث ملكا فى أقاليم بجاية وقسنطنية وما اليها من أقاليم وورثه بنوه وقسموا الدولة الى قسمين وكان قد استفحل أمره ثم بعد ذلك استطاع أن يستولى على كرسى الأسرة بتونس ثم انقسم الملك بين أعقابهم ثم عاد الاستيلاء على أقاليم الدولة بينهم وقد انتهى الانقسام الى أكثر من دولتين أو ثلاث وانقسمت الدولة الى عدة أقاليم وكما وقع فى دول الطوائف بالأندلس وفى ملك صنهاجة بأفريقية (بنى زيرى وبنى حماد) فقد كان لآخر دولتهم فى كل حصن من حصون أفريقية ثائر مستقل بأمره .

وتولى ادارة شئون البلاد بعد وفاة الخليفة المستنصر بالله أمير المؤمنين أبو زكريا يحيى وهو ابن المستنصر بالله بن عبد الواحد بن أبى بكر بن عمر وبويع صبيحة اليوم الذى توفى فيه والده وقد أمر برفع المظالم والنظر فى بناء جامع الزيتونة وغيره من المساجد وأحسن الى الجند وكان غير معنى بأمور الخلافة وأعباء الملك وترك ادارة شئون البلاد لمن لا يحسن رعاية الأمة ولا يحسن شيئا من سياسة الملك والرعية فأدى ذلك الى فساد الملك والأمور فى البلاد مما أثار عليه أسرة بنى حفص فخرج عليه عمه أبو اسحق ابراهيم شقيق المستنصر وكان مقيما بالأندلس وكان قد فر اليها زمن خلافة أخيه المستنصر وأقام بها زمانا وكان الخليفة المستنصر على علاقة ودية مع حكام الأندلس لمنع أبى زكريا اسحق من الخروج من الأندلس ، فلما مات المستنصر وتولى ولده أبو زكريا يحيى ولم تكن له دراية واسعة بشئون الحكم وادارة دفة الأمور لها فإنه

قصد الى أفريقية وأتى الى تونس وخلع أبا زكريا وسلم السلطة لعمه أبى اسحق وكات خلافته سنتين وثلاثة أشهر وعشرين يوما ٦٧٧ هـ ومات عام ٦٧٩ هـ بعدما أعتقل ومات مسجونا .

وهكذا كان ذلك الحدث والخلاف بين أسرة بنى حفص بداية تفكك الدولة الحفصية بعد المستنصر وظهور التنافس بين أبناء الأسر على الحكم وهكذا بدأت الاضطرابات ذلك لأن الواثق بن المستنصر لم يكن فى كفاءة أبيه ومن هنا استحق العزل بعد سنتين .

خلافة الخليفة أمير المؤمنين أبى اسحق ابراهيم

وهو شقيق الخليفة المستنصر وهو ابن أبى زكريا بن عبد الواحد الذى أعلن استقلال الامارة الحفصيةعن الدولة المصمودية فى مراكش بويع فى تونس فى ربيع الآخرة عام ٦٧٨ هـ وكان ملكا شجاعا وفيه غلظة ودانت له كل أفريقية واستطاع أن يمسك بزمام الأمور وفى عام ٦٨٠ هـ أرسل ابنه عبد الواحد لمحاربة البلاد وحارب هوارة وبنى رياح . وفى عهده قام بالقيروان الفضل بن الواثق وأدعى أنه أحق بالخلافة خلفا لأبيه الذى عزله أبو اسحق وفى عام ٦٨١ هـ عظم أمر الواثق وملك قابس واحتوى أكثر البلاد فأخرج الخليفة اليه جيشا من تونس وأمر عليه ابنه أبا زكريا ونزل القيروان لكنه هُزم وأدى ذلك الى خروج الخليفة بنفسه بجيش عظيم لكنه لم يغن عنه شيئا وفر أكثر عساكره فرجع الى تونس ورحل الى المغرب ولما وصل الى بجاية كان ابنه فارس واليا عليها فتنازل عن الخلافة وخلعها لابنه أبى فارس وتلقب بالمعتمد.

وفى عهده ثار الأمير أبو بكر بن موسى الكومى أحد قواد الأمير أبى اسحق الحفصى بمدينة قسنطينة وكتب للنصارى فى أسبانيا يحرضهم على ملك قسنطنية واستعان أبو بكر بملك أرغون وتمكنت القوات المسيحية من احتلال قسنطينة لمدة

خمسة عشر شهرا لكن الأمير أبا فارس بن أبى اسحق زحف اليه بجيش من العرب عام ٦٨١ / ١٢٨٢ م وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على المدينة وقتل أبا بكر وأخاه عمران بعد القبض عليهما وتم طرد الغزاه من المدينة .

وفى عهد الأمير أبى حفص عمر عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م ظهر نورمان صقلية بجزيرة جرية وسواحل طرابلس ونهبوها واستولوا على ثلاثين سفينة وأسروا نحو ثمانية آلاف من شباب المدينة وعندما استولى الجنوبيون على طرابلس ثم طردهم وكذلك عندما عاود الجنوبييون بالاشتراك مع الفرنسيين مهاجمة الساحل الأفريقى والاستيلاء على مدينة المهدية عام ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م تمكن الأمير أبو فارس ومن معه من العرب من استردادها بعد شهرين ونصف .

كذلك ثار فى عهد ابى اسحق بن الوزير أحد قواده بمدينة قسنطينة وكتب الى النصارى يحرضهم على ملك قسنطية وغيرها لكن أهل المدينة كتبوا الى أبى اسحق فأعرض عنهم واستعان ابن الوزير بملك أرغون وتمكنت القوات المسيحية من احتلال المدينة لمدة خمسة عشر يوما فزحف اليها الأمير أبو فارس بن اسحق ابراهيم بجيش من العرب عام ٦٨١ هـ / ١٢٨٢ م وحاصرها وتمكن من الاستيلاء على المدينة وأمر أبو فارس بقتل ابن الوزير وأخيه بعد القبض عليهما .

وتجهز أبو فارس بن أبى اسحاق ابراهيم والذى تلقب بالخليفة المعتمد للقاء الفضل بن الواثق وترك والده فى بجاية والتقى الجمعان بقلعة سنيان لكن المعتمد قتل ولما سمع أبوه الخبر فر هاربا فأدركه أهل بجاية وأتوا به الى الفضل بن الوثاق فقتله فى عام ٦٨٢ هـ فكانت مدته ثلاثة أعوام وستة أشهر وعشرين يوما ولجأ ابنه الثانى أبو زكريا الى بلاد المغرب وسادت البلاد فترة من الاضطراب والقلق وسفك الدماء والفجور ونفر الناس من الدعى بعد أن تمادى فى جوره وكذبه ومقته الناس ، وجاء الدور على بنى حفص لكى يعود النظام الى البلاد فظهر أبو حفص بن أب زكريا وكان مختفيا

عند بنى سليم فى البادية والتقى عليه الناس فجاء الى تونس وحاصر الدعى وانكشف سره وفر بنفسه الا أنه تم القبض عليه ثم طوف به على حمار ثم قطع رأسه فكانت مدة توليه بتونس سنة ونصف غير ثلاثة أيام وذلك آواخر عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م .

خلافة أمير المؤمين أبى حفص عمر

هو ابن زكريا بن يحيى بن عبد الواحد أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بويع عام ٦٨٣ هـ / ١٢٤٨ م وكان خليفة عاقلا كريما لم تحدث منه عقوبة لأحد وكان يعظم العلماء والصالحين ولم يزل على أكمل الحالات فى أواخر أيامه أيام عدل وهناء وكان بنو سليم من الأعراب قد نصروه وأقاموه على عرش البلاد وكان على أبى حفص أن يوفى الدين لبنى سليم فترك لهم خراج بعض المدن وأقطعهم الأرض بالمجان .

وكانت قبائل سليم قد ثارت بقيادة أبى الليل بن أحمد زعيم عرب الكعوب وبايعت الأمير أبا حفص عمر الثانى الذى تنازل أبوه أبو اسحق ابراهيم الأول له عن الحكم وجهزت القوات الحفصية بالآلات والخيول وغير ذلك مما ساعد على احراز النصر وهزيمة ابن مرزوق وأنصاره ودخلت سليم تونس عام ٦٨٣ هـ / ١٢٨٤ م لتعيد الدولة الحفصية مرة أخرى .

وان من نتيجة ضعف الدولة الحفصية وانقسامها والصراع بين امرائها من ناحية وتهديد الممالك المجاورة لها من بنى عبد الواد فى تلمسان وبنى مرين فى قابس من ناحية أخرى ان اضطر الحفصيون أن يكون الاعتماد على بعض القبائل العربية يكاد يكون تاما حيث أنه لم يكن من السهل على أمراء الدولة الحفصية الحفاظ على بلادهم فى حالة تخلى هذه القبائل عنهم .

وكان من أثر عودة الخلافة الحفصية مرة ثانية والقضاء على الدعى الفاطمى الذى كان يهدف الى بعث الدولة الفاطمية أن منح الأمير أبو حفص الثانى أنصاره من

العرب الاقطاعات الواسعة وجباية القبائل المستقرة مكافأة لهم رغم أن سياسة الحفصين تجاه القبائل العربية بأفريقية تعارضت مع ذلك خوفا من ازدياد قوة هذه القبائل .

بل بعض القبائل العربية مثل رياح استغلت الصراع القائم فى البيت الحفصى حول السلطة فأيد زعماء هذه القبائل الأمير أبا زكريا يحيى التأثر على عمه الأمير أبى حفص عمر وعاونوه على الاستيلاء على مدينة بجاية وقسنطينة مما أدى الى انقسام الدولة الحفصية عام ٦٨٤ هـ / ١٢٨٤ م .

وكان الأمير لما أصابه المرض الذى توفى بسببه عهد بولاية الخلافة الى ولده عبد الله محمد الا أن رؤساء القبائل والمشايخ لم يرضوا عن هذا الترشيح لصغر سن عبد الله فاستشار ولى الله الشيخ المرجانى فأشار عليه بتولية أخيه أبى عبد الله محمد بن عصيدة فقبل اشارة الشيخ وانفذ بعهده وتوفى آواخر ذى الحجة عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م بعد أن حكم البلاد أحد عشر عاما وثمانية أشهر وله من العمر اثنان وخمسون عاما وقام بالأمر بعده أبو عصيدة .

خلافة أمير المؤمنين أبى عبد الله محمد بن أبى عصيدة

هو ابن أبى زكريا يحيى المستنصر بالله بن أبى زكريا بن عبد الواحد ابن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بويع عام ٦٩٤ هـ / ١٢٩٥ م وكانت أيامه هادئة وهدنة وعافية وسلم ولا حروب نشطت الحركة التجارية والزراعية والصناعية وكانت أيامه عدل ورخاء وكانت خلافته أربعة عشر عاما ومات عام ٧٠٩ هـ / ١٣٠٩ م ولم يترك خلفه عقبا من الذكور فأوصى بالخلافة من بعده الى يحيى أبى بكر .

* * * *

خلافة أمير المؤمنين أبى يحيى أبى بكر الشهيد

هو ابن الأمير عبد الرحمن بن الأمير أبى بكر بن أبى زكريا يحيى ابن الخليفة المستنصر بالله بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر بويع بالخلافة يوم وفاة أبى عصيدة وكانت مدة حكمه ستة عشر يوما حيث قتل وسمي بالشهيد وكان قد خرج جنده الى أبى البقاء خالد معترضا على خلافته بعد أن كان هذا يحكم مدينة قسنطينة وتقابل معه أبو بكر لكن جيشه انهزم ورجع هو هاربا وقبض عليه فقتل ولذلك سمى شهيدا .

خـلافة أبى البقاء خـالد

هو ابن زكريا يحيى بن أبى اسحق ابراهيم بن أبى زكريا يحيى بن المستنصر بالله بن أبى زكريا يحيى عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر . كان عاملا على بلد العناب وقسنطنية بعد وفاة والده أبى زكريا وكان يضع تاج الملك على رأسه ويركب بغلة عالية وذلك فى حالة قيام الخليفة أبى يحيى بن أبى بكر الشهير بالحكم ولقد كان من جراء ذلك أن ظهر أكثر من واحد يدعى العرش فذهب استقرار الدولة وقام أبو زكريا الثانى ينافس خليفة تونس ومد سلطته الى قسنطنية وظل ينافسه ثلاثة وعشرين عاما حتى اذا نجح قام أبو البقاء خالد فى هذا ونجح فى اقصاء وقتل الشهيد يحيى بن أبى بكر وكان لما دخل تونس العاصمة أنكب على ملذاته ولهوه وترك سياسة الملك وقام عليه أبو يحيى زكريا بن اللحيانى وقدم من المشرق ودخل طرابلس ورأى اضطراب الأحوال وسوء حالة الرعية والأحوال فى أفريقية فطلب الخلافة فبويع بها فى طرابلس وانضم اليه العرب من أولاد أبى الليل ودخل تونس أول عام ٧١٠ هـ / ١٣١٠ م فاجتمع القاضى ابن عبد الرفيع بالسلطان أبى البقاء خالد وحرضه على الدفاع عن سلطته لكنه اعتذر عن القتال ودخلت القبائل العربية المدينة وأخذت البيعة من الخليفة خالد ومن معه من الجند وقتل بعد ذلك وبويع بالخلافة لأمير المؤمنين أبى يحيى بن اللحيانى وكانت ولايته عامين وستة أشهر .

خلافة الأمير أبى يحيى اللحيانى

هو الأمير ابن أبى العباس أحمد بن أبى عبد الله محمد اللحيانى بن عبد الواحد بن أبى بكر الشيخ أبى حفص وقد أخذ له البيعة شيخه المزدورى ثم أقبل هو بعد فملك العاصمة تونس فى ثانى رجب عام ٧١١ هـ . ونزل المحمدية وجددت له البيعة هناك . وقد كان خليفة واعيا مدركا لأمور الرعية بالإضافة الى أنه كانت له مشاركة فى العلم والأدب وعندما تولى عرش البلاد كان قد تقدم فى السن دق وساس الأمور بخبرة ودراية وروية . وهو تاسع أو عاشر ملوك الحفصين كما ذكر ابن خلدون بافريقية وكان قد خرج عنه الملك ولحق بمصر فرارا فى طلب صاحب الثغور العربية لما تجمع لغزو تونس فأستعجل اللحيانى الرحلة الى ثغر طرابلس وركب السفن من هناك وخلص الى الاسكندرية بعد أن حمل جميع ما وجده فى بيت المال من النفائس والذخيرة وباع كل ما كان بخزائنهم من المتاع والعقار والجواهر حتى الكتب وحمل ذلك كله الى مصر ونزل على الملك الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٧ هـ فأكرم نزله ورفع مجلسه ومات عام ٧٢٨ هـ ويذكر أبن أبى دينار ان الذى كان ثار عليه من الثغور العربية هو الأمير أبو يحيى أبو بكر فعلم الأمير اللحيانى أنه لا طاقة له بقتاله ولقائه واضطربت عليه البلاد فجمع الأموال والذخائر وباع كل ما فى القصور والكتب والتى جمعها أبو زكريا بيعت فى الوراقين وجمع نحو عشرين قنطارا من الذهب سوى الفضة والقصور وغير ذلك وخرج الى قابس ثم الى طرابلس من خلال الفترة حكم فيها كل من اللحيانى وابنه أبى خرية محمد الثالث التى استمرت حتى عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م ازدادت سلطة العرب وأصبحت سلطة الحفصين بتونس اسمية حتى فضل اللحيانى الانسحاب الى مخيمات عرب زباب من أبناء سليم بطرابلس تاركا الأمور لابنه أبى خرية الذى عمل على الحد من سلطة العرب الذين أرهقوه بمطالبهم من ناحية والوقوف فى وجه الأمير أبى يحيى أبى بكر منافسه على السلطة من ناحية أخرى

ولكنه فشل فى المهمتين مما اضطره الى اللحاق بأبيه تاركا القبائل العربية من سليم تدافع عن استقلالها الذاتى أمام زحف الأمير أبى بكر الذى أنزل بهم هزيمة منكرة وقتل الكثير من زعمائهم وشرد الباقى فى أنحاء البلاد وسيطر على أمور تونس فى الفترة من ٧١٨ – ٧٤٧ هـ / ١٣١٨ – ١٣٤٧ م الى أن بويع ابنه أبو خزية وحكم ستة أعوام وثلاثة شهور .

وتولى الأمير أبو عبد الله محمد بن اللحيانى الذى عرف بأبى خزية خلفا لأبيه الذى تنازل عن الملك بعد أن خرج عليه أبو يحيى بن أبى بكر وكان أبو خزية مسجونا عند القاضى فأطلق سراحه وتولى الخلافة خلفا لأبيه ودخل أبو خزية تونس عام ٧١٧ هـ فى منتصف شعبان وتلقب بالمستنصر ولكن فترة حكمه للبلاد لم تطل فقد عاد عليه الكرة كما فعل مع أبيه الأمير يحيى بن أبى بكر فهرب أبو خزية الى المهدية بها وبلغ خبرة أبيه الذى كان لا يزال يقيم فى طرابلس ولم يكن قد وصل الى مصر بعد فأرسل اليه السفن التى حملته الى طرابلس وحمل ما له وأهله وسافر مع أبيه الى مصر وكانت فترة ولاية أبى خزية ثمانية أشهر وثلاثة أيام واستطاع الأمير أبو يحيى أبو بكر أن يدخل العاصمة وينادى به خليفة للبلاد والذى ينظر الى ما يحدث بين الأمراء يدرك الى أى مدى بلغت الدولة من الضعف والأنقسام وعدم السيطرة على مقاليد الأمور فخليفة يتولى الحكم ثمانية عشر يوما ، وآخر ثمانية شهور وثالث عاما ونصف والأدهى فى الأمر أن العزل والاقصاء عن السلطة الشرعية يتم عن طريق أمراء من البيت الحفصى وبدون أدنى تدخل من قبل أية جهة أخرى اللهم الا المساعدة من بعض القبائل العربية لأمير على أمير وكل ذلك أدى الى انهيار الدولة وعدم قدرتها على مواجهة الأحداث الداخلية والخارجية وطمع الطامعين فى الخارج والداخل مما عجل بالقضاء على الدولة الحفصية التى لعبت دورا هاما فى الساحة المغربية الاسلامية والدولية فى عصر السلاطين الأقوياء الذين أقاموا علاقات وطيدة مع البلدان المجاورة .

خـلافة الأمير أبو يحـيى أبى بكر

هو ابن الأمير أبى زكريا بن أبى اسحاق ابراهيم بن أبى زكريا بن أبى عبد الله محمد المستنصر بن أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ عام ٧١٨ هـ . وكان شجاعا محبوبا عند العامة والخاصة وكان لا يولى القضاء لأحد الا بعد أن يشهد فيه العدل والحكمة وشهد القضاء فى عهده أعدل أيام الدولة الحفصية حتى طلب القصاص من ابنه الذى ارتكب جناية وطلب منه الا يترك حقا حتى لو كان على ولده وكان يحب الشرفاء ويكرمهم وكان جده أبو أبو اسحاق قد أثبتهم فى زمام الموحدين لكن عندما تولى الخليفة أبو يحيى هذا أجزل للعطاء للاشراف ، وأقطعهم الأراضى والضياع وملكهم أياها وقسموها بينهم ودخل فى صراع مع بنى عبد الواحد فى المغرب الأقصى ودخل فى قتال مع العرب وانتصر عليهم ودانت له البلاد وتلقب بالمتوكل عل الله وفى حكمه فتح قائده ابن الحكيم مدينة المهدية وكانت لا تزال فى طاعة اللحيانى وولده من بعده فتحت عام ٧٣٩ هـ . وفى عام ٧٤٣ هـ أغار العرب على تونس وأقاموا سبعة أيام ثم ارتحلوا وخرج السلطان فى أثرهم وهزمهم هزيمة بشعة . وكان قد عين ولده أبا العباس للخلافة وكان ببلاد الجريد وبقية أولاده فى الأعمال التى يقومون بها ولم يبق بين يديه الا ولده أبو حفص عمر للخلافة .

خلافة أبى حفص عمر

هو خليفة أبى يحيى أبى بكر بن أبى زكريا بن أبى اسحاق ابراهيم بن أبى زكريا بن أبى عبد الله محمد المستنصر بن أبى زكريا بن عبد الواحد بن أبى بكر الشيخ أبى حفص الهنتاتى بويع يوم موت والده ثانى رجب ولم يلتفت الى عهد أبيه لأخيه أبى العباس . لكن عندما بلغ خبر تولى أبى حفص عمر الخلافة فان أبا العباس التجأ الى العرب وزحف الى تونس وحاصرت العرب تونس وأخذ زعيم العرب أبو الليل وزيره المعز بن مطاع (المعن بن مطاعن) الى الأمير أبى العباس بن السلطان ووالى قفصة

لتحريضه على الثورة ضد أبيه والدعوة لنفسه فقبض أبو العباس على الرسول وقتله ولكنه عاد ورحب بمحالفة العرب بعد وفاة أبيه أبى بكر عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٧ م ونازعه على السلطة أخوه الأمير أبو حفص عمرفساعدته القبائل العربية حتى استولى على تونس ولكن أبا حفص عمر تمكن من اقتحام المدينة وقتل أخاه وأنصاره من زعماء العرب البالغ عددهم أكثر من ثمانين رجلا . فعاود العرب الوفود على أبى الحسن المرينى مطالبين بثأر شيوخهم فاستغل هذه الأحداث وزحف الى أفريقية وقام بنو حمزة بن عمر وعرب الكعوب بملاحقة الأمير أبى حفص عمر الهارب وأعوانه فأدركوه .

وقامت العامة على العرب فلم يفلت الا القليل وأقام المولى عمر الى أن تحرك عليه أبو الحسن المرينى فهرب أبو حفص فأدركه أبو الحسن المرينى بتونس فقتل هناك وكانت أيام حكمه بتونس عشرة أشهر وثلاثة عشر يوما ومات سنة ٧٤٨ هـ وانتقل الأمر الى بنى مرين .

* * * *

الفصل الخامس

سيطرة بنى مرين على تونس

قتل أبو الحسن المرينى الخليفة التونسى الحفصى أبا حفص عمر بجوار قابس عام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م وأصبحت تونس خاضعة لسيطرة بنى مرين حتى عام ٧٥٠هـ / ١٣٥٠ م ولذلك فاننا نجد أنه منذ قوى أمراء بنى مرين فى المغرب الأقصى فانهم بدأ يتطلعون الى السيطرة على المغرب الأوسط والأدنى (أفريقية) فلما تمكنوا من السيطرة عل المغرب الأوسط نظروا الى أفريقية طامعين فى بناء حكم المغرب الكبير وتنوعت العلاقة بين بنى مرين والحفصيين واختلفت بين الطاعة والسيطرة والاستقلال حتى وصل الأمر الى حد استعانة الدولة الحفصية بالدولة المرينية وطلب العون والمساعدة العسكرية منها للقضاء على أطماع دولة بنى زيان (عبد الواد) فى تلمسان ، الا أن دولة بنى مرين سرعان ما أظهرت اطماعها فامتدت يدها للسيطرة على الدولة الحفصية وخضعت املاك الدولة الحفصية للسيطرة المرينية لفترتين من فترات السيطرة الحربية اذ تم الاحتلال الأول فى الفترة من ٧٤٨ – ٧٥٠ هـ . فى حين بدأ الاحتلال الثانى ٧٥٣ – ٧٥٨ هـ وسيطر بنو مرين على معظم أجزاء الدولة ففى الفترة كما سبق العرض سابقا من ٧٤٨ – ٧٥٠ هـ . تولى الخليفة أبو بكر الحكم عام ٧٤٧ هـ وكان قد جعل ولاية العهد لابنه أبى العباس أحمد والى وحاكم قفصه الا أن أخاه الأصغر أبا حفص عمر بن أبى بكر تمكن من الاستيلاء على الخلافة ودخل تونس وأخذ البيعة من العلماء والعامة وقاضى القضاة وتمت البيعة لأبى حفص عمر عام ٧٤٧ هـ وقد أدى هذا العمل الى حدوث انقسام فى الأسرة الحفصية والى نتائج سيئة لمستقبل الأسرة الحفصية جميعها . اذ أسرع ولى العهد الشرعى أبو العباس أحمد الى المطالبة بحقه فى الخلافة وجمع حوله الأعوان من العرب وساعده أخوه أبو فارس حاكم ولاية سوسة الا أن أبى حفص عمر استطاع

الهروب من العاصمة تونس الى الأقاليم الغربية وتمكن أبو العباس من دخول تونس الا أن أبا حفص عمر عاد بقوات كبيرة وحشود عسكرية كثيفة العدد وتمكن من دخول العاصمة تونس والسيطرة على مقر الخلافة وقتل أخاه أبا العباس أحمد كما قتل الأخوين الآخرين وقتل عددا كبيرا من العرب الذين ساعدوا وعاونوا أبا العباس فى السيطرة على تقاليد الأمور فى البلاد ولقد كانت هذه الحادثة وما آل اليه بقتل أبى العباس السبب المباشر لتدخل بنى مرين فى شئون الدولة الحفصية واحتلال البلاد عام ٧٤٨ هـ وكانت حجتهم فى التدخل ان الأمير أبا الحسن أمير بنى مرين كان أحد شهود عقد الولاية لأبى العباس أحمد فقد شهد هذا العقد عندما أرسل أبو بكر حاجبه أبا القاسم بن عيون فى سفاره الى بنى مرين وهكذا طمع أبو الحسن المرينى فى تملك بلاد أفريقية بعد ما أحس بضعفها وعدم قدرتها على الدفاع عن سيادتها من أثر الحروب الداخلية بين أبناء أبى بكر ومقتل الأخوة الثلاثة وبقاء أبى حفص عمر فى السلطة .

وبعد ما لجأت الدولة الحفصية اليه والى أبيه طالبة العون والمدد لحمايتها من عدوان بنى عبد الواد وبعد ما استطاع أبو الحسن نفسه أن يفرض سلطانه على المغرب الأوسط ومحاولة أبى الحسن أن يكون الوارث الوحيد لعرش الدولة الموحدية فى المغرب والاستيلاء على كل المغرب الكبير كان أبو الحسن يحدث نفسه بالسيطرة على تلمسان وأفريقية .

وكان أبو الحسن المرينى قد أعد عدته لاحتلال أفريقية واستعان بقوات من بنى عبد الواد وبقوات من بقية ولاة الدولة الحفصية فى الأقاليم الحفصية ومن بعض القبائل العربية وقدمت له العون الولايات التى دخلت تحت حكمه ومنها قابس ، وتورز، قنصة ، الزاب ، طرابلس ، قسنطينة وتمكن جيش أبى الحسن المرينى من القبض على الخليفة أبى حفص عمر وعلى قائده وتم قتلهما يوم ٢٧ جمادى الأولى

٧٨٤ هـ اذ كان بعيدا خارج العاصمة الا أن الأمير أبا حفص عمر فضل القتال وفى نهاية الأمر استشهد وبهدا استولى أبو الحسن المرينى على أملاك الدولة الحفصية ودخل الأمير المرينى أبو الحسن مدينة تونس فى ٨ جمادى الآخرة عام ٧٤٨ هـ لتكون جميع أجزاء المغرب قد خضعت لسيطرته من المحيط غربا الى طرابلس شرقا . وكان السبب فى سيطرته على أفريقية كما ذكر ذلك ابن أبى دنيار أن ابن تافراجين ، لما فر الى المغرب وقد أعلم أبا الحسن المرينى واستحثه على تملك أفريقية فتحرك من المغرب واجتمعت عليه الأعراب وأخذ بجايه وقسنطينة وعين عماله عليها وسيطر على أفريقية وأملاك الموحدين ودخل تونس بجيوش لا تحصى وشرع فى بناء مدينة فوق سيكوم اسمها المنصورة لسكنى جيشه . وقد بايعه بتونس خمسون سلطانا فى يوم واحد من بنى عبد الواحد (أبناء حفص) والأندلس وغيرها .

ولما تملك البلاد منع العرب من أعطيتهم ومنعهم الاقطاعات فانقلبوا عليه وشنوا الغارات فى جميع البلاد وقد تزعم ثورة العرب أبو بن حمزة ضد المرنين . فخرج اليهم والتقى معهم قرب القيروان فتحصن بمعسكره وفر بمن بقى معه الى القيروان هاربا . وكان السبب فى طرده من تونس ثورة القبائل العربية اذ أنها أول من قاومت الاحتلال وكانت قد ساعدت أبا الحسن المرينى من قبل وبدءا لبعض العمليات العسكرية وكان أبا الحسن المرينى قد قبض على أربعة من شيوخهم مما زاد فى أمر الخلاف بينهما وكان أبو الحسن المرينى قد اتهم هؤلاء الشيوخ بالاتصال بعبد الواحد اللحيانى الحفصى وتحريضه على الثورة ووعدوه بمساعدته مما زاد فى أمر الخلاف بينها، لكن هذه القبائل العربية استطاعت فى ٢ محرم ٧٤٩ هـ هزيمة أبى الحسن المرينى قرب القروان وكان السبب المباشر لانهزامه انفصال قوات بنى زيان (عبد الواد) عن قوات أبى الحسن المرينى وتركها منفردة تواجه الهزيمة فأدى ذلك الانسحاب المفاجئ للقوات الزيانية الى الهزيمة وضعف موقف أبى الحسن المرينى وحاصر العرب القيروان

وذلك عام ٧٤٩ هـ فطلب السلطان المرينى الصلح وتوجه بعض الأمراء ومعهم عدد من لعرب الى تونس وحاصروا قصبتها ورموا عليها بالمجانيق وفى أثناء المعارك توسط بعض العرب من أولاد مهلهل لدى السلطان المرينى وروأ رفع الحصار عنه وأن يفرجوا عنه على مال اشترطوا عليه فوفى لهم به وساروا به الى سوسة وركب منها البحر وقدم الى تونس فلما رحل السلطان فقده أصحابه تشتت جميعهم ورحلوا عن تونس .

وفى أثناء ذلك قاد حركة المقاومة أحد الأمراء الحفصين الذين أعادهم الأمير أبو عثمان المرينى بن الحسن الذى طمع فى ملك أبيه وكان السلطان أبو الحسن المرينى قد بلغه ان ابنه عثمان استقل بملك المغرب وانه سمع بوفاة والده وقت حصار القيروان وشهد له بذلك جماعة من العلماء والعامة فأقام نفسه سلطانا على المغرب وكان الذى دفع الأمير أبا عثمان أبا الحسن المرينى أنه كان طامعا فى العرش وأن يكون هؤلاء الأمراء الحفصين الذين أفرج عنهم سدا حائلا فى الأقاليم الغربية من أفريقية بين أبيه والمغرب الأقصى والأوسط لكى يحكم هذه الأجزاء بسبب الاستيلاء على الحكم عند غياب أبيه فى تونس وقد استغل هؤلاء الفرصة وتعاهدوا مع العرب على الموت وعملوا على استقدام السلطان أبى العباس بن الفضل من مدينة بونة لطلب حقه واسترجاع ملك أبائه وانقضت أقريقة على السلطان أبى الحسن المرينى مما اضطره الى العودة الى المغرب بعد أن اشتد الغلاء وكثر الوباء فى تونس وكانت عودته أوائل عام ٧٥٠ هـ . تاركا ابنه واليا على أقريقية الا أن أبا العباس الفضل تمكن من استعادة أفريقية من أبى الحسن المرينى ودخل دار الخلافة وتمت له البيعة وانتهت فترة الاحتلال المرينى . وكان أبو عثمان بن أبى الحسن المرينى لما سمع بأن أباه لا زال حيا بعث لجميع عماله أن يصدوا أباه عن التوجه الى المغرب لكن أبا الحسن خرج من تونس وركب البحر وتوجه الى المغرب واستطاع أبو العباسى الفضل الحقيقى أن يسيطر على الموقف وأن ينهى فترة الاحتلال المرينى التى استمرت عامين وستة أشهر وخمسة عشر يوما

والتى انتهت فى ذى القعدة عام ٥٧٢ هـ . ورجع ملك أفريقية الى بنى حفص بعد أن تم القضاء على أبى الحسن المرينى .

الأسرة الحفصية بعد الجلاء الأول لبنى مرين

كانت فترة سيطرة بنى مرين على تقاليد الأمور فى تونس عامين وستة أشهر وخمسة عشر يوما حيث أشار الى ذلك ابن أبى دينار وكان للثورة التى قادتها القبائل العربية أثرها الكبير فى طرد الغزاة من بنى مرين من البلاد ، بعد أن أجمع أمراء الأسرة الحفصية على طردهم من البلاد باعتبارهم غزاة وليس ساعين لوحدة المغرب كما فعل من قبلهم المرابطون والموحدون .

آلت أمور البلاد الى أبى العباس الفضل بن يحيى أبى بكر بن أبى زكريا ابراهيم ابن أبى زكريا بن يحيى بن محمد المستنصر بن أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن أبى بكر بن الشيخ أبى حفص عمر الهنتاتى وقد بويع بالخلافة ثانى يوم تم فيه طرد الأمير المرينى من البلاد وتمت البيعة فى أول ذى الحجة عام ٧٥٠ هـ ولما تولى حكم البلاد وكان قد تم طرد الغزاة منها فانه لم يقم بأدنى مجهود عسكرى لتأمين حدود الدولة بل ركن للراحة وشاركه العرب فى الديوان .

وكانت القبائل العربية قد ثارت على بنى مرين حينما علموا على الحد من سلطتهم وفكروا فى تقليم أظافرهم وقبض يدهم عن جباية القبائل المستقرة التى احترفت الزراعة سواء من العرب أم البربر فانقلبت أفريقية بالثورة مما اضطر أبو الحسن المرينى للانسحاب منها وقد حفظ بنو حفص الجميل للعرب . وزوج أبو العباس الفضل أخته لأبى الليل بن حمزة وذلك لكى يدعم هذا الزوج الحكم الحفصى ويقرض سيطرته على القبائل العربية .

وكان كبير قبائل أولاد أبى الليل عمر بن حمزة بالحج بمكة ومعه الشيخ أبو

محمد عبد الله بن تافراجين وبعد عودتهما من الحج اتفقوا جميعا على خلع الأمير أبى العباس الفضل بن يحيى الحفصى وكانوا قد بعثوا اليه فخرج مع جماعة له فقبضوا عليه وعلى أصحابه الذين معه وجردوهم من أسلحتهم وحددت اقامتهم بين مخيمات عرب أولاد أبى الليل ، ودخل ابن تافراجين زعيم عرب أولاد أبو الليل الى تونس وأخرج الأمير أبا اسحاق ابراهيم وأقاموه فى الخلافة وأولوه منصبا شكليا وأجلس بمجلس الخلافة وقتل الخليفة أبو العباس بعد أن دامت فترة حكمه خمسة أشهر .

ومن هنا نرى أن العرب الذين كانوا السبب فى طرد بنى مرين من البلاد أصبحوا هم أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد وأن الخلفاء كانوا يخضعوا لأوامرهم وما حدث من القبض على أبى العباس وقتله وتوليه والٍ آخر فى الدولة الحفصية بدلا منه خير دليل على ذلك .

الا ان تدخل بعض القبائل العربية فى شئون الحكم مباشرة أدى الى تذمر بعض الفصائل الأخرى فتخربت البطون ونشأ صراع فأدى الى أغتيال كبير أولاد أبى الليل والذى كان السبب فى مقتل أبى العباس الفضل فنصب العرب الأمير أبا اسحق ابراهيم المستنصر خليفة للبلاد وحيث جلس مجلس الخلافة بعد أخيه أبى العباس الفضل وزاد نفوذ العرب وخاصة ابن تافراجين الذى قام بتدبير شئون الدولة وعنت همته الى أن سلم عليه سلام الملوك وجعل كل البلاد فى يده بدلا من العرب واستبد بالشئون الداخلية وجعل القيروان وباجة وسوسة والأربس قرطاجنة تحت حكم خاصته وفى معظم بقية القرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادى) كانت الدولة الحفصية مقسمة الى ثلاثة أقسام تونس وبجاية وقسنطينة وكان الأمير الحفصى السادس عشر أبو العباس أحمد الملقب بالمستنصر هو الذى استطاع التغلب على منافسيه وأعاد وحدة البلاد ، وفى أثناء حكم أبى اسحق بن ابراهيم بدأ الخطر المرينى يزحف على البلاد للمرة الثانية .

سيطرة بنى مرين الثانية على تونس (أفريقية)

لم يدم خروج المرينن من البلاد فى المرة أولى أكثر من خمس سنوات تولى فيها اثنان من الولاة الحفصين هما أبو العباس الفضل وأخوه إبراهيم بن أبى اسحق، وقد عانت البلاد الكثير من المشاكل فى أعقاب فترة السيطرة المرينية الأولى وعانت البلاد حياة فيها شيء غير قليل من القلق والاضطراب بسبب كثرة الحروب وحركة المقاومة وكانت تونس محط أنظار العرب، كما أن الأقاليم الغربية المجاورة لبنى عبد الواد وبنى مرين كانت مضطربة، كما أن كثرة الحروب أدت إلى انتشار الأمراض وإلى اضطراب الأحوال الاجتماعية والاقتصادية أثناء الاحتلال واضطربت كذلك الأحوال السياسية، وقد أدى ذلك الاضطراب السياسى إلى قتل الخليفة السابق أبى العباس الفضل.

ولقد تحسنت العلاقات لفترة قصيرة بين الدولة الحفصية ودولة بنى مرين عقب انتهاء مدة الاحتلال السابقة فتبودلت الهدايا بين الخايفة الحفصى والأمير المرينى، لكن أطماع الأمير المرينى أبى عنان فى ملك أفريقية أفسدت ود هذه العلاقة ذلك لأن الأمير المرينى كان يفكر جدياً فى جعل أفريقية تحت سيطرته وأنه يريد أن يحقق ما لم يستطيع أن يحققه أبوه.

فبدأ أبو عنان عام ٧٥٣هـ فى إفساد العلاقة بالخليفة الحفصى وتوطيد علاقته مع والى بجاية الحفصى الأمير أبى عبد الله بن محمد ونجاحه بعد أن تمكن من إعادة سيطرته على المغرب وقد استغل أبو عنان فرصة وجود والى بجاية الحفصى فى المغرب فأرهبه حتى جعله يتنازل عن ولاية بجاية دون إراقة دماء، وأنه لم يأت عام ٧٥٥هـ إلا وكان السلطان أبو عنان المرينى قد أخضع بجاية واستولى عليها من أيدى الحفصيين وواته الفرصة بعد أن كان طامعاً فى امتلاكها.

بعد أن انضم إلى سلطانه كل من والى قابس وطرابلس، فقد عين أبو عنان

المرينى حاكمين عليهما من قبله، وهكذا بعد أن استولى أبو عنان على كل من بجاية.. فإنه فرض سلطانه على قابس ونظر أو بدا النظر إلى قسنطية لأنها قاعدة قوية، والذى يستولى عليها يتمكن من الاستيلاء على تونس. لذا .. فإننا نجد القوات المرينية تقوم بالزحف عام ٧٥٣هـ على قسنطينة فضطر بنى مرين إلى رفع الحصار عنها، وكذلك انتهى أمر بجاية بعد أن زحف عليها عرب الزواودة وغيرهم فاضطر بنو مرين إلى فك الحصار عن بجاية.

وشهد عام ٧٥٥هـ المحاولة الجريئة الثانية لأخذ مدينة قسنطينة من أيدى الحفصيين إذ عادت جيوش بنى مرين لحصار المدينة لكن أبا عنان اضطر لفك الحصار مقابل تسليم الأمير المرينى بن عمر تاشفين الذى كان يقيم بالمدينة لاجئاً إليها وعادت قوات بنى مرين إلى بجاية وعادت محاولة ثالثة عام ٧٥٦هـ لكنها فشلت فعادت للمرة الرابعة عام ٧٥٧هـ إلا أن المدينة قاومت وصمدت وتأتى المحاولة الخامسة لأخذ قسنطينة بحجة ما فعله والى قسنطينة أبو العباس الحفصى من هجومه على جند بنى مرين فأعد أبو عنان عدته وأخذ يزحف تجاه قسنطينة عام ٧٥٨هـ ونزلت قوات بنى مرين إلى المدنية قبل وصول الحفصيين إلى ساحة قسنطينة واستطاعت أن تستولى عليها بعد حصار استمر أكثر من أربعين يوماً ويعين أبا عنان المرينى والياً عليها من قبله ويزيد حدود ما يملكه الأمير المرينى أبو عنان من تمكنه من ضم بونة إليه وفر عامل الدولة الحفصية.

ثم كان على أبو عنان أن اتجه إلى العاصمة تونس؛ فقد أعد عدته وحشد جنده وبدأ يستعد الاستيلاء على تونس، وأرسل جيشين أحدهما بحرى والآخر برى ووصلت الأساطيل أولاً وبدأت هجومها إلا أن والى المدينة ابن تافراجين استطاع أن يهزم الأسطول ويطرده من مياه المدينة ثم وصلت الأخبار بأن القوات البرية فى طريقها للوصول ففر ابن تافراجين إلى المهدية بعد أن كانت القوات البرية تطبق الحصار على

العاصمة تونس، وتمكن الجيش والأسطول من دخول تونس فى رمضان ٧٥٨هـ، وملكوا تونس، وتمت البيعة لأبى عنان فى أغلب أجزاء أفريقية، وكان أبو عنان على رأس الجيش البرى، ولم تبايع له مدن المهدية وسوسة وتوزر؛ حيث كانت تلك المدن فى يد الخليفة الحفصى وظلت المهدية فى طاعة الدولة الحقصية.

وكما بدأت مقاومة الاحتلال الأول بنشاط القبائل العربية بدأت مقاومة الاحتلال الثانى بمقاومة العرب، ولم تتمكن المقاومة العربية المشكلة من أولاد أبى الليل وأولاد مهلهل من الدفاع عن أفريقية باسم الحفصيين من وقف زحف المرينين بقيادة أبى عنان فتحولوا لمبايعتهم فكافأهم أبو عنان ومنحهم الأراضى كاقطاعيات وأثبت ذلك فى السجلات والصكوك وأخذ أبناءهم رهينة مقابل طاعتهم، وحينما أراد أبو عنان المرينى أن يقوم بتنظيم تونس وأفريقية ويقضى على الفوضى الضاربة فى البلاد كما سبق أن حاول أبوه أبو الحسن أحس العرب بالخطر على استقلالهم الذاتى وبادروا إلى الثورة وأحس عرب الزواودة بخطورة أبى عنان عليهم فمنع الاعطيات عنهم فجاهر العرب بالخلاف والعداوة واضطر أبو عنان للخروج من تونس ومطاردة زعيم العرب لكنه لم يلحق به واضطر إلى الذهاب إلى قسنطينه، لكنه عندما أراد العودة تحركت عناصر عربية أخرى للمقاومة واعترضت طريقه شمال غرب فقصه وحدث انشقاق فى الجيش المرينى وانصرف كثير منهم إلى المغرب؛ فما كان من أبى عنان إلا أن تراجع إلى المغرب وخشيت القبائل المرينية أن يكون مصيرها مصير قوات أبى الحسن من الهزيمة المخجلة فتسللوا من جيش السلطان، حتى أدرك أنه لا جدوى من بقائه فانسحب إل المغرب بعد أن لجأت قوات الأسطول المرينى إلى سفنها وتركوا ما كان معهم من العدة والعتاد وأبحروا من تونس.

ولما سمع ابن تافراجين بذلك قصد تونس وأسرع أهل تونس بالثورة على من تبقى من جيش بنى مرين ودخلوا المدينة فعادت المدينة إلى ملك الحفصيين، لكن

الجهة الغربية بجاية وقسنطينة ظلت تحت سيطرة بنى مرين وحرص أبو عنان على بقاء هذه الأقاليم تحت سيطرته ومات أبو عنان عام ٧٥٩هـ بعد عودة الجيش الى المغرب فتولى أخوه أبو سالم المرينى حكم البلاد وثار أهل بجاية ضد الوالى المرينى وكاتبوا الخليفة فأسرع الى المدينة وتمكن من استعادتها عام ٧٥٩ هـ وأصبحت قسنطينة آخر المدن التى بقيت تحت سيطرة بنى مرين بعد أن نجح المرينيون فى استعادة بجاية ولم ترجع بجاية فى اطار الدولة الحفصية حتى رمضان ٧٦١ هـ . عندما تنازل عنها الخليفة المرينى أبو سالم للخليفة الحفصى حفظا للجميل للأمير الحفصى أبى العباس الذى ساعده فى تولى الحكم فى المغرب الأقصى .

وبعودة قسنطينة الى الدولة الحفصية ينتهى الاحتلال المرينى الثانى للبلاد الذى بدأ عام ٧٥٣ وانتهى عام ٧٦١ هـ والذى دام ثمانية أعوام وكان الاحتلال الأول من عام ٧٤٨ هـ – ٧٥٠ هـ وقد دام عامين ونصف العام .

وهكذا نرى أن محاولة بنى مرين السيطرة على الدولة الحفصية قد باءت بالفشل رغم تكرار المحاولة أكثر من مرة ورغم سيطرتها على مقاليد الأمور لأكثر من عشر سنوات الا أن قوة وصلابة الجبهة الداخلية بقيادة امراء بنى حفص ومساعدة القوات العربية ودورها فى صد الهجوم المرينى قد جعلت تلك السيطرة تفشل فى فرض نفوذها على الديار الحفصية .

واذا كانت سيطرة بنى مرين على بعض الأقاليم الغربية قد امتدت هذه الفترة الا أن الخليفة الحفصى استطاع أن يدخل عاصمة بلاده تونس عام ٧٥٨ هـ ولم تدم القيادة المرينينة فى العاصمة الا شهورا قليلة ومن ثم يكون العدوان المرينى على الديار الحفصية ما هو الا غزوة طارئة حيث أنه لم يستطع أن يسيطر على جميع البلاد فيما عدا البلاد الغربية وان بقاءه فى العاصمة لم يدم طويلا وذلك يعود لدور القبائل العربية. وهكذا عاد الخليفة أبو اسحق ابراهيم الثانى الى تونس وآلت رياسة عرب أولاد

أبى الليل الى منصور بن حمزة الذى تمكن من فرض سيطرته على أبى اسحق وابنه خالد من بعده .

* * * *

الفصل السادس

الدولة الحفصية بعد طرد بنى مرين

تولى أبو اسحق ابراهيم ادارة البلاد بعد طرد بنى مرين ورحيل أبى عنان المرينى عن البلاد وتحرير الأراضى والمدن العربية وقد توفى عام ٧٧٠ هـ وأنه ظل يحكم البلاد تسعة أعوام كاملة دون أدنى منازع داخل حدود دولته اللهم الا سيطرة العرب على جميع مقاليد الأمور وتوفى فى الثانى عشر من رجب وكانت مدة حكمه ثمانية عشر عاما وأحد عشر شهرا وخمسة عشر يوما ونصب خلفا له ولده أبا البقاء خالد وقد كان صبيا وهو اين أبى اسحق ابراهيم المستنصر وقد تولى الحكم بعد موت أبيه وتولى الحجابة أحمد البالغى فلم يترك للأمير شيئا فنهب الأموال من الناس وأهان العلماء وقتل الأفراد وكانت أمور البلاد فى يد زعيم عرب أبو الليل منصور بن حمزة الذى أرغم الدولة على اقطاعة ضواحى البلاد بل وقاسم بنى حفص جبايات الأمصار ريفا وصحراء وبادية وعندما أظهر الأمير خالد استياءه من هذا النشاط العربى والاستبداء استبدله منصور أبو الليل بالأمير أبى العباس أحمد الأول الحفصى وكان حمزة قد حث أبا العباس على تملك السلطنة الحفصية بعد أن كان واليا على قسنطينة فنهض الى تونس وأعلن وجهاء القوم الطاعة له وحاصر العاصمة عدة أيام وفر الخليفة وأتباعه من الجند وانطلقت قوات العرب وأبو العباس خلفهم فقبض على الأمير خالد واعتقل وقذف به وبأخيه فى البحر فعصفت بهما الريح فغرقا وكانت مدته بتونس سنة وتسعة أشهر.

* * * *

خلافة الأمير أبى العباس أحمد الأول المستنصر والقضاء على نفوذ العرب

٧٢٢ – ٧٩٦ هـ / ١٣٧١ – ١٣٩٥ م

عين الأمير العربى منصور بن حمزة الأمير الحفصى أبا العباس خليفة للبلاد بعد القبض على الأمير خالد وهو أبن الأمير أبى عبد الله محمد بن أبى يحيى بكر بويع بالخلافة فى تونس فى الثانى عشر من ربيع الآخر عام ٧٧٢ هـ ويعتبر الأمير أبو العباس أحمد مجدد شباب الدولة الحفصية حيث كان النزاع الداخلى بين أمراء الأسرة الحفصية وتكررت محاولات الاستيلاء على السلطة واحتلال تونس بنفسها من قبل أفراد البيت الحفصى واستطاع الخليفة أبو العباس أحمد بصعوبة بالغة أن يعيد الوحدة والأمن والهدوء والاستقرار الداخلى للبلاد فى أواخر حكمه الذى استمر أربعة وعشرين عاما (١٣٨١ – ١٣٩٥ هـ) وأن يعيد الى الأذهان صورة أقرب ما تكون الى حالة القوة التى كانت عليها الدولة فى عهد أبى زكريا يحيى بن عبد الواحد بن يحيى بن بكر بن أبى حفص عمر .

وكان الخليفة الجديد رجلا شجاعا عاقلا صفوحا وقد عمل على مداهمة العرب واستئلافهم الى أن أغتيل منصور بن حمزة زعيم عرب أولاد أبى الليل فحلت الجفوة بين أبى العباس أحمد الأول وعرب أولاد أبى الليل بسبب أبى العباس أحمد الأول بالقضاء على الاستقلال الذاتى لمدينة سوسة بعد محالفته لأولاد مهلهل مما دفع حوله ابن خالد بن حمزة للفرار بأعوانه الى الصحراء واسترد أبو العباس الاقطاعات التى منحها أسلافه للعرب وسحق ثوراتهم وعمل على القضاء على نفوذهم .

وأقام علاقات طيبة مع السلطان أبى سالم المرينى ورفع أنواع الفساد وكبح جماح العرب وانتزع ما بأيديهم من الأمصار ولم يزل يحاول أمر العرب الى أن قطع

دابرهم وفتح بلدة قفصة وأخذ شيوخها من بنى العابد الذين كانوا يزعمون أنهم ينتسبون الى قبيلة بلى العربية وأنهم أحلاف العرب الشريد من بطون سليم وكان بنو العابدى قد أحسوا بازدياد سلطة الدولة الحفصية وتصميمها على السيطرة على الموقف وعلى انهاء وجودهم وأخذ أملاكهم فانهم تحالفوا مع غيرهم من أمراء ومدن الجريد وسربوا أموالهم الى عرب الكعوب بزعامة أولاد أبى الليل ولكن السلطان أبا العباس أحمد بادر بالقضاء على عرب الكعوب أولا ثم حاصر قفصة فقام أهلها بتسليم زعيمهم الذى تظاهر بالترف والتشبه بأمراء الدولة الحفصية وفرض الضرائب والمكوس على الرعية ودخل أبوالعباس المدينة واستولى على ديار بنى العابد بما فيها من أموال وقضى على ولايتهم لقفصة فى عام ٧٨٠ هـ / ١٣٧٨ م .

وهكذا اذا كنا نرى الأمير أبا العباس أحمد الأول (٧٧٢ - ٧٩٦ هـ / ١٣٧١ - ١٣٩٥ م) ومن بعده أبنه أبو فارس عبد العزيز ٧٩٦ - ٨٣٧ هـ بقومان بالقضاء على نفوذ القبائل العربية وفرض سيطرتهما الكاملة على كل الأقاليم العربية التى كانت تتمتع بالحكم الذاتى فاننا نجد أن الدولة الحفصية فى قيامها اعتمدت على قبائل رياح ثم على قبائل بنى سليم وكرمه عرب الأتيج بعد تمرد رياح عليهم . وقد أدى أنقسام أفريقية بين عرب رياح وسليم الى انقسام الدولة الحفصية فى عام ٦٣٤ هـ / ١٢٨٥ م الى قسمين قسم شرقى عاصمة تونس ينعم بمحالفة عرب سليم المستقرين فى المنطقة الممتدة من قابس الى بونة وقسم غربى عاصمته بجاية يحظى بمحالفة عرب رياح المستقرين بالجانب الغربى بضواحى قسنطينة وبجاية وأدى الصراع بينهما الى ثورات العرب المتعددة وقيام الأسر العربية القوية بتأسيس امارات تنعم بالحكم الذاتى بنقل المعتزل واعترفت بالاسم لا بالفعل بسلطان الدولة الحفصية فكانت هذه الامارات بمثابة سلطنات صغيرة تحكم بمجال من الأعيان العرب أو يلى أمرها أسر عربية .

ولقد حاربت هذه الامارات العربية المستقلة الحفصيين طوال القرن الثامن الهجرى تعاونها القبائل العربية المستقرة حولها . ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطنها واستقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى الى تطور مفهوم القبيلة بالمغرب ولقد ساهمت القبائل العربية بدور ايجابى فى تأسيس الدولة الحفصية التى كانت فى نهاية المطاف تقضى على نفوذ بنى حفص بعد أن قدموا يد المساعدة ضد الغزو المرينى القادم من أقصى المغرب والغزو الزيانى القادم من المغرب الأوسط . فتبين دورهم فى حسم الصراع بين الأتراك العثمانيين المسلمين وبين القوى المسيحية وبذلك قد كلل جهودهم بالنجاح وحفظ لهم تاريخا اسلاميا عربيا صان لتونس عروبتها واسلامها ولولا الوقفة العربية لتغير وجه الاسلام والعروبة على أرض تونس التى تدرس حلقة من حلقات تاريخها الاسلامى وهى فترة الدولة الحفصية .

كذلك فان السلطان أبو العباس أحمد شهد اخضاع مدن الجريد والقضاء على استقلال امارتها ومدتها عام ٧٧٧ هـ / ١٣٧٥ م فانتقل شيوخها الى بسكرة حيث اتفقوا على مبايعة بنى عبد الواد بتلمسان فزحف اليهم أبو العباس بأنصاره من عرب سليم فتحالفت رياح ولاثيج على الموت دون بسكرة ونسيا الخصومة الأزلية بين رياح وسليم دفاعا عن أوطان رياح ومراعيها وكذلك عن امارة الزاب العربية الملجأ الحصين لكل عربى غضبت عليه الدولة الحفصية مما اضطر أبو العباس لمهادنة بنى مرين واذا كانت امارة بسكرة قد تمكنت من المحافظة على استقلالها الذاتى سواء عن طريق المصانعة لأمراء الدولة الحفصية أو عن طريق تقديم الهدايا للحاشية أو عن طريق القوة المسلحة لأعوانها من عرب رياح ولاثيج فى بداية القرن التاسع الهجرى الا أن السلطان أبا فارس عبد العزيز ابن أبى العباس الحفصى قد تمكن من القضاء على الاستقلال فى عام ٨٠٤ هـ / ١٤٠١ م وحمل أميرها أحمد بن يوسف وبنى مرين الى العاصمة

تونس بعد أن حكموا بسكرة والزاب طوال قرن ونصف وكانت بلاد الجريد التى استقلت بحكمها العربى أكثر من قرن ونصف القرن قد أفلحت فى الاحتفاظ باستقلالها الذاتى بفضل موقعها المنعزل واعترفت بالاسم لا بالفعل بسلطان الدولة الحفصية فكانت بمثابة جمهوريات صغيرة تحكمها مجالس عربية من الأعيان أو يلى أمرها أسر من ذوى النفوذ الوثيق فحاربت الحفصيين طوال القرن الثامن الهجرى بزعامة أسرها القوية النفوذ تعاونها فى ذلك القبائل العربية المستقرة حولها ويحالفها بنو مرين أمراء بسكرة والزاب .

وكذلك استولى الخليفة أبو العباس أحمد على ولاية توزر وفتحها واستولى على ذعائر شيخها ابن يملول وكانت ولاية توزر من أشهر امارات الجريد العربية ويعتبر بنو يملول زعماء لباقى بلاد الجريد العربية لسيطرتهم على توزر وأكبر مدنها واتساع نواحيها فتوزر تعتبر عاصمة البلاد الجريدية مع غيرهم من العرب الأفارقة ولعبوا دورهم السياسى فى الاشتراك فى مجالس الشورى بامارات الجريد واتصلوا بالدولة الحفصية .

وتطلع جدهم أحمد بن محمد بن بملول الى رياسة المدينة منذ بداية الدولة الحفصية فى أفريقية فمنعه الحفصيون من ماله وصادروه مما اضطره الى الانتقال الى تونس بطرق أبواب الوزراء والخاصة حتى اسند اليه ادارة ديوان البحر فازدادت سلطته وقد استغل الظروف التى مرت بالدولة الحفصية وتقلص نفوذها وتمكن من الوصول الى مشيخة توزر حتى وفاته عام ٧١٨ هـ / ١٣١٨ م وظل الحكم سنوات فيها . بل أدى اتساع الامارة الى تشبة بنى يملول فى الاشارة والحجاب والآلة والمجالس بالملوك وكذلك فرض الضرائب على الرعية وصادر أموال البيوتات القوية بالمدينة حتى قضى على نفوذهم السلطان أبو العباس أحمد الأول الذى عمل ما وسعه للعمل على اتمام السيطرة على كل البلاد الأفريقية ولم يترك قرية ولا مدينة الا أخضعها لنفوذ الدولة الحفصية وبسط لواء الحفصية على كل البلاد وقضى على نفوذ العرب قضاءا نهائيا

ولم يسمع صوت فى البلاد يعارض فى سياسته أو يخرج على طاعته أو يتحدى سلطة ونفوذ الدولة وأدار البلاد أحسن ادارة وفى حقيقة الأمر أن طول فترة حكمه التى استمرت أربعة وعشرين عاما أو يزيد جعلته يعمل على اقامة الدولة القوية .

فانه للحقيقة التاريخية يمكن القول انه اذا كان عبد الواحد قد قبل حكم افريقية وجاء بعده ابنه أبو زكريا يحيى بن عبد الواحد ليعلن استقلال الامارة عن الموحدين وجاء بعده ابنه ابراهيم محمد ليعلن الخلافة الحفصية فان أبا العباس أحمد الأول استطاع أن يعيد للأذهان صورة هؤلاء الأوائل الذين أقاموا الدولة فجاء هو ليدعم وجودها ونشر نفوذها ويجعلها وطيدة الأركان قوية الجانب مرهوبة من كل الأعداء .

وبعد أن وطد أبو العباس أحمد الأول أمور البلاد فان القوى الأوربية جاءت منها قوات فرنسية وجنوية فى ثمانى قطع ونزلوا الى مدينة المهدية وأقاموا بها بعد أن نهبوا المدينة شهرا وبعث اليهما أبو العباسى جيشا وكانت بينهم معارك حتى اضطروا الى الرحيل عن المدينة .

وتوفى رحمه الله ثالث شعبان ٧٩٦ هـ وسنة سبعة وستون عاما ومدة ولايته بتونس أربع وعشرون سنة وأربعة أشهر . ثم تولى بعده أبنه أبو فارس عبد العزيز وبويع رابع شعبان بعد وفاة والده وأقام بالأمر خير قيام وأصلح الأحوال وقمع أهل الفساد وساد الأمن ارجاء البلاد وأعطى الأموال لكل العباد . وكان شجاعا حازما تقيا موقرا للعلماء كثير الصدقات فطنا زكيا محبا للخير ، كان يرسل الصدقات لأهل الحرمين ووفد اليه علماء الشرق صحبة الركب الحجازى وقدم المساعدات لأهل الأندلس اعانة لهم على مقاومة العدو . كذلك اهتم بالكتب وأنشأ خزانة كبيرة للكتب وأوقفها على طلبة العلم ينتفعون بها وأقام العدل بين جميع رعاياه بالكتاب والسنة وانصف المظلوم من الظالم . وجاءت الوفود من المشرق والمغرب وقام بغزو صقلية وغنم منها غنائم كثيرة . وبسط نفوذ الدولة على طرابلس وقابس وقفصة وتوزر ونفطه وبسكرة وقسنطينة

وبجاية والحامه والصحراء . وأخضع جميع القبائل العربية فى بلاده والزمهم دفع الزكاة والعشر .

وعقد هدنة مودة مع ملوك بنى مرين وأرسل هدية الى يعقوب المرينى بفاس ، كما أن سلطان المماليك بمصر الناصر بن قلاوون بعث لأبى فارس بهدية قيمة . ذلك لعظم ذكره فى ذلك الوقت وحسن سمعته وارتفاع مكانته بين سلاطين العالم الاسلامى من جراء الأفعال والأعمال التى قام بها لا سيما غزوة صقلية وأفتتح مدينة فاس وأخذها من بنى زيان ووصلت قواته غربا الى قرب مدينة فاس عاصمة بنى مرين وقد أقر البيع القاى أبوعبد الله محمد الشماع البيعة بجامع تلسمان . وذكرت بعض المصادر أنه غزا مدينة فاس عاصمة بنى مرين عندما شكا له أهلها ظلم أحمد المرينى فخرجت له أخت أحمد المرينى فعفا عن أخيها واعاده الى بلده وأمر بالعدل .

وفى عام ٨٣٥ هـ نزلت قوات الفرنجة بجزيرة جربه وكان السلطان يخضع بلاد الجريد فتحرك الى المدينة واستطاع أن يجبر هذه القوات على الخروج من الجزيرة . وتوفى عام ٨٣٧ هـ وكانت مدة خلافته واحدا وأربعين عاما وأربعة أشهر وسبعة أيام .

وكان أبو فارس عبد العزيز درة الخلافة الحفصية وواسطها وأنه اذا ذكرت خلافة الحفصين بدونه ظهر بها النقص .

وكان أبو فارس عبد العزيز آخر السلاطين العظماء من بنى حفص واستمرت الدولة على القوة فى عهده وقد حكم تسعة وثلاثين عاما ولكن الدولة بعد وفاة أبى فارس عادت الى الانقسام بعد ذلك واتسع نفوذ الأوربين واستعان بهم المنافسون على العرش بعضهم على بعض ونشطت أعمال غزاة البحر وأصبحت مغانم الغزاه موردا هاما من موارد الدولة وحفلت موانى أفريقية والجزائر وبجاية وتونس بالأسرى والسبايا الذين كثروا فى البلاد وعاد الاضطراب للدولة وانقضى قرن كامل استردت فيه القبائل العربية

سيادتها وضعف الحفصيون وكان فى تونس ثلاثة أمراء حفصين يخضع كل خليفة جزءا من البلاد لسيادته فى تونس والمهدية وقسنطينة . وكانت الحروب تدور سجالا بين الأطراف مما كان يضطر الخليفة الى أن يترك العاصمة ولم تكن الوحدة الحفصية الا سرابا فاذا كان أبو العباس أحمد ومن بعده ابنه أبو فارس عبد العزيز قد نجحا فى توحيد الدولة الحفصية ، فقد اضطربت الأمور من جديد .

وهكذا تفككت الدولة الحفصية وظهر التنافس بين أبناء الأسرة على الحكم وتدخل الأوربيون فى هذا الصراع وانقسام الدولة الحفصية الى قسمين ونتج عن ذلك أن سقطت بعض أجزاء الدولة فى أيدى الأوربين حتى تجددت قوة الدولة فاستردت تلك الأقاليم ، ذلك أن الدولة الحفصية شهدت تقلبات مختلفة .

ففى بداية القرن الرابع عشر نلاحظ تجدد أردهارها واعادة توحيد فرعى الدولة فى تونس وشرق الجزائر . لكنه حدث أن تفوقت دولة بنى مرين فى عهد أبى الحسن الذى أوشك أن يخضع المغرب كله تحت حكمه فتمكن عام ١٣٤٨ م من احتلال تونس واخراج الحفصين منها بمساعدة رؤساء القبائل البادية . وفى عام ١٣٥٠ م اضطروا الى الإنسحاب منها واستطاع أبو العباس أن يعيد عظمة الدولة الحفصية فترة من الزمن وفى عهده ساهمت تونس للمرة الأولى فى حركة الجهاد فى البحر المتوسط مما عرض سواحلها للانتقام فقام الفرنسيون بالاغارة على المهدية وشهد القرن الثانى عشر تدهور دولة بنى عبد الواد فى المغرب الأوسط وبنى مرين فى المغرب الأقصى فنعمت تونس بحكم شخصين من أعظم الشخصيات وأطولهم عصرا وهما أبى فارس (١٣٩٤ – ٢٣٤٥ م) الذى عرضنا فى تلك الصفحات لسيرته الجليلة.

تولى بعد أبى فارس عبد العزيز ابنه أبى عبد الله المستنصر ٨٣٨هـ، ولم يحكم إلا سنة واحدة وشهرين واحد عشر يوماً، وتوفى فى صفر ٨٣٩هـ. ثم جاء بعده أخوه أبو عمر عثمان بن أبى فارس عبد العزيز الذى تولى الحكم صبيحة اليوم الذى توفى

فيه أخوه، وكان أبو عمر عثمان من أجل سلاطين الخلافة الحفصية وهو خاتمهم حكم ثلاثة وخمسين عاماً وكانت أيامه خيراً على العلم والعلماء ورجال الدين فأكثر من بناء المدارس ومكاتب تحفيظ القرآن الكريم وأوقف الأوقاف عليها وكذلك الاهتمام بخزانات الكتب وأكرم الشرفاء من أهل البيت النبوى وأحسن إليهم وقمع ثورات الأعراب، وذلك لأنه اشتد الصراع بين أمراء البيت الحفصى وكثر تدخل العرب وثوراتهم بقيادة أولاد أبى الليل لكن بعد نجاح الأمير أبى عمر عثمان ٨٣٢هـ / ٨٩٣هـ/ ١٤٣٥م–١٤٨٨م. فى الاستيلاء على الحكم بتونس قام أولاد أبى الليل ببجاية منافسة على العرش الأمير أبى عبد الله محمد بن أحمد وأنزلوه بمخيماتهم منافسة على العرش ولكنه وعدوا وأعيد أبو عمرو عثمان أرهب أولاد أبو الليل فأسلوه لاجئهم وأنصاره فقتلهم فى نفس العام.

ويبدو أنه لم يوف بوعده إذ هاجم أولاد أبى الليل مدن أفريقية وحاصروا مدينة تونس فأطلق أبو عمر عثمان أولاد مهلهل عليهم واشتبكوا معاً بالقرب من تونس وانسحب أولاد أبى الليل منهزمين ليعودوا مرة أخرى لحصار تونس بمعاونة الأمير أبى الحسن وإلى بجاية ويلتقى الفريقان فى عام ٨٤٠هـ/١٤٣٦م وينتصر أبو عمر عثمان وحلفاؤه من أولاد مهلهل ويقبض على زعماء أولاد أبى الليل. وليس معنى استعانة أبى عمر عثمان بأولاد مهلهل أنهم كانوا أنصار حلفاء للدولة بصفة مستمرة فقليلاً ما ثاروا على الدولة لسبب أو لآخر ففى عام ٨٦٧هـ/١٤٦٣م عندما خفض أبو عمر عثمان مرتباتهم ثار أولاد مهلهل وفر زعماؤهم إلى الصحراء فاستبدلهم أبو عمر عثمان وعين بدلاً من الشيوخ الثائرين عليه رجالاً منهم وأخذ أولادهم رهناً لديه لضمان طاعتهم وأرسلهم إلى العاصمة؛ حيث نزلوا بقصر خاص لتثقيفهم تربيتهم على الولاء للدولة والإخلاص لها.

وقد طالت أيام الخليفة أبى عمر عثمان فقد كانت ثلاثة وخمسين عاماً وفى

عهد أبو عمر عثمان فرضت السيادة الحفصية نفسها على المغرب الأقصى فبعد أن كانت تونس تعترف أحياناً لبنى مرين بالسيادة انقلبت الآية فى عهده ومن سلفه أبى فارس عبد العزيز فأصبح بنو-وطاس فى فاس يعترفون بالتبعية للحفصين وكان لزاماً على هذه الدولة أن تساهم فى دفع الخطر البرتغالى عن مراكش فى القرن الخامس عشر؛ بل أن الحفصين قدموا المساعدات إلى غرناطة آخر الدويلات الإسلامية فى الأندلس.

وبدأ اتصال الحفصين فى عهد السلطان أبى عمر عثمان (١٤٣٥-١٤٨٨م) فى ذلك الوقت بالدولة العثمانية الناشئة فأرسلوا سفارة لتهنئة محمد الفاتح بمناسبة فتح القسطنطينية عام ١٤٥٣م، وزاد التبادل التجارى بين تونس وأربا فى هذه الحقبة.

والواقع أن الدولة الحفصية منذ قيامها أولت العلاقات التجارية بالخارج عناية خاصة .. فهى التى تابعت دون غيرها من دول المغرب سياسة الموحدين فى عقد المعاهدات التجارية مع دويلات إيطاليا وتوسعت فيها، ولذلك انتشرت الفنادق والقنصليات فى مدينة تونس ويبدو أن تونس أصبحت حلقة اتصال بين تجارة أفريقيا الاستوائية وأوربا لأن الحفصين أقاموا علاقات طيبة مع الإمارات الإسلامية مثل كانم وبورتو. ونظراً لطول فترة الدراسة .. فإننا ننتهى عند القرن التاسع الهجرى الخامس عشر الميلادى؛ حيث سلاطين الدولة الحفصية قد استمروا يحكمون حتى قرب نهاية القرن العاشر الهجرى، وذلك عندما سقط حكم الدولة عام ٩٨١هـ/١٥٥٨م مع قرب نهاية القرن السادس الميلادى وخضوع البلاد للحكم العثمانى بعد أن حكموا البلاد ثلاثمائة وثمانية وسبعين عاماً وآلت الأمور للسيادة العثمانية وانتهت دولة بنى حفص التى أقام قواعدها محمد بن عبد الواحد بن عمر بن أبى حفص الهنتاتى عام ٦٠٣هـ.

* * * *

الفصل السابع

سلاطين بنى حفص فى ظل الخلافة العثمانية
حتى سقوط الدولة

بعد وفاة أبى عمر عثمان عام ٨٩٣هـ تولى حفيده أبو زكريا بن عبد الله محمد المسعود بن أبى عمر عثمان الذى بويع يوم وفاة جده، ولكن الأعراب قتلوه وتولى بعده ابن عمه أبو محمد عبد المؤمن بن أبى إبراهيم اسحق بن عمرو بن عثمان، ولكن الأعراب قتلوه أيضاً، ودخل السلطان أبو زكريا العاصمة وفر الأمير محمد عبد المؤمن الذى عينه الأعراب، وتم قتل عبد المؤمن وبويع أبو زكريا يحيى بيعة ثانية وجاءته بيعة العناب وقابس وحسا وقفصة ودانت له البلاد، وكانت مدة حكمه ست سنوات؛ ثم تولى الخلافة أبو عبد الله محمد بن الحسن بن عبد الله محمد المسعود ابن عمر وعثمان، وتوفى عام ٩٣٢هـ، وفى عهده هبط النصارى واستولوا على طرابلس لكنه طردهم منها، وهو الذى ملك الجزائر للتركى عروج وأخيه خبر الدين وحدثت فى عهده حوادث كثيرة منها سيرة العرب على القيروان. وقد خرجت بلاد كثيرة من حكمه وتدخل الأوربيون فى شئون البلاد حتى استدعى تدخل الأميرين التركين خروج وأخيه خير الدين. وقد حدثت مراسلات بينه وبين السلطان الغورى سلطان مصر.

وقد تولى الحكم بعده ابنه الحسن بن المسعود بن أبى عمرو عثمان، وبويع عام ٩٣٢هـ، وفى عهده ظهر النفوذ العثمانى وقد ساءت سيرته بين الناس، وخرجت عن طاعته مدينة سوسه والقيروان وبايع الناس رجلا جاء من المغرب ادعى أنه حفصى واسمه يحيى.

وخضعت قسنطينة لحكم الأتراك فى عهده وكذلك جاءت قوات بحرية تركية أرسلها إبراهيم باشا وزير السلطان سليمان بن سليم الأول. وفى عهده استولى خير الدين على تونس وفر عنها الحسن ودخل خير الدين تونس واستقل بها وأنهى حكمه عام ٩٤٠هـ، وقيل عام ٩٣٦هـ. وفى عهد الحسن اشتد الصراع بين القوى المسيحية الأوربية بقيادة امبراطور ألمانيا، والأتراك العثمانيين، ودارت على أرض أفريقية (تونس) معارك طاحنة اضطرت القوى المسيحية للانسحاب من البلاد بعد ارسال الأساطيل التركية.

وفى حوالى عام ١٥٤٠م أخذ شارل الخامس بعد العدة للاستيلاء على موانئ المغرب بمعاونة طلاب العرش المتنازعين، ولم يحل عام ١٥٥٨م حتى كانت تلك الموانئ قد احتلت وتصدى الأتراك العثمانيون للأسبان وابتداء من عام ١٥٦٠ كانت تونس مقسمة بين الأسبان والأتراك. كل جانب منها يؤيده أمير حفصى، وكان هذا هو التمهيد الذى أدى فى النهاية إلى احتلال الأتراك العثمانيين للجزائر، وتونس، وطرابلس، وتحويلها إلى أيالات عثمانية عام ١٥٨٧م، ولم يعد الأمراء الحفصيون مستقلين بل ممثلين للسلطان العثمانى ويحملون لقب الداى.

وبعد فرار خير الدين دخل الخليفة الحسن تونس؛ ثم جمع قواته والقبائل العربية، وقصد إلى القيروان ودخل المدينة بعد أن بايعه أهلها، وكان الخبر قد وصل الناس فهرعوا إليه وبايعوه، لكن تعاونه مع أعداء الدين جعل ابنه أحمد لايقر فعلة أبيه الحسن ودخل تونس خفية وتولى الخلافة خلفاً لأبيه لكنه استعان بالفرنجة الأوربين من الأسبان وتقابلت قوات الطرفين، وتم القبض عليه وسجن ثم سملت عيناه جزاء تعاونه مع أعداء الإسلام.

بعد خلافة الأمير الحسن قام عليه ابنه أبا العباس أحمد بن محمد الحسن بن عبد الله المسعود بن عمرو بن عثمان تولى الحكم فى عهد أبيه نظراً لأن أباه استعان بأعداء الإسلام وشاركوه فى الحكم. لكن الأمير أحمد راسل ملوك الأتراك فى

طرابلس والجزائر ثم أرسل بعثة إلى القسطنطينية وحارب أولاد سعيد من عرب أفريقية وكان السلطان أحمد مقيماً للعدل وإقامة الشرع واستعان السلطان أحمد بالأتراك وكانت قواته تضم أربعمائة من الأتراك. لكن الأسبان الذين كان نفوذهم أقوى فى البلاد عزلوا السلطان أحمد وعينوا بدلاً منه أخاه محمدا وأما السلطان أحمد ففر إلى جزيرة صقلية وسكن مدينة بالرمو إلى أن مات بها ودفن فى تونس.

وهكذا .. نرى رغم الوجود التركى إلا أن القوات الأسبانية كان لها السيطرة على مقاليد الأمور فى البلاد، ومن ذلك عزلها السلطان أحمد وتولية أخيه محمد الذى كان آخر سلاطين بنى حفص.

السلطان محمد بن الحسن بن المسعود بن عمرو بن عثمان الحفصى ونهاية دولة بنى حفص

هو السلطان محمد بن الحسن شقيق السلطان أحمد الخليفة السابق الذى تولى الحكم بعد أن طرد إياه الحسن لتعاونه مع أعداء الإسلام، وهو خاتمة بنى حفص وبانقراضه انقرضت الدولة الحفصية، وكان تعيينه عن طريق القوات المسيحية ، ومن ثم هرب أهل تونس عندما علموا بمجيئه وتركوا البلاد خاوية من الناس. وهرب أكثر أهل تونس وخلت المدينة من الأهالى وأعداء الإسلام وخربت النواحى فى المدينة وساكن الأعداء ديار الإسلام. وشاركت النصارى المسلمين فى مساكنهم ومعاملتهم وأقاموا معهم. لكن التدخل التركى ساعد على تقهقر قوة النصارى وأخرجوهم من القيروان، والتحق الأتراك بالقيروان وكان بها الباشا حيدر. وكاتب أهل القيروان اخوانهم بطرابلس والجزائر فتحرك الأتراك للجهاد ووصلوا تونس وأرسل السلطان سليم قوات بحرية بقيادة

القبطان على باشا وسنان باشا ويذكر أن هذه القوات التركية كانت مرسلة لمساعدة أهل غرناطة فى كفاحهم؛ بينما وصل خبر سقوط غرناطة فى أيدى الأعداء ١٤٥٢هـ بعث بها إلى تونس بدلاً من الأندلس، وكان عدد السفن البحرية ألف وخمسمائة سفينة تمكنت من الاستيلاء على تونس، وتم طرد القوات الأجنبية من البلاد وكان ذلك عام ٩٨١هـ.

وفى أواخر الدولة الحفصية عندما اشتد الصراع بين الدولة العثمانية، ومسيحى أسبانيا وأوربا حول السيطرة على بلاد المغرب قامت القبائل العربية بدور تاريخى فى هذا الصراع فنجد القبائل العربية انحازت إلى العثمانيين وقدمت نحو سبعة آلاف فارس بخلاف الرجالة للقوات العثمانية مما عجل بحسم الصراع الدائر فى المغرب فاستولت القوات العثمانية على تونس عام ٩٧٧هـ/١٥٦٩، وطردت القوات المسيحية منها وسقطت الخلافة الحفصية فى ٩٨١هـ/١٥٧٤م. وقد كان ما دفع القبائل العربية لدورها هذا أن الأمير أبا محمد الحفصى قد منح حصن خلق الوادى لأعوانه من مسيحى أسبانيا ووعده لهم بإباحة مدينة تونس بعد استردادها، وذلك انتقاماً للعرب الثائرين عليه وترحيبه لأعوانه من القوات المسيحية، وكانت بعض من القبائل العربية قد ثارت على الحفصين، وتم استيلاؤها على القيروان وأواسط سلطته تونس، والدعوة بين جميع القبائل العربية للاشتراك فى هذا الصراع الدائر بين الأتراك العثمانيين المسلمين ومقاومة الغزو المسيحى لسلطنة تونس ومنعهم من السيطرة على البلاد بعد أن شاهدوا الأسبان، وقد استباحوا تونس لفترة ثلاثة أيام فكان وقوف القبائل العربية بجانب القوات العثمانية مساعداً لها فى تحقيق النصر وتصحيح خطأ ارتكبوه عندما وقفوا ضد خير الدين باشا أثناء انسحابه من تونس عام ٩٤١هـ/١٥٥٤م، وهكذا كان للعرب دور فى إعلان نصر الإسلام.

وهكذا .. انتهت صفحة فى تاريخ بلاد أفريقية (تونس) التى طال عمرها ما يقرب من ثلاثة قرون استطاعت فيها الدولة الحفصية، التى كانت فرعًا فى الدولة الموحدية أن تحافظ على وجودها وسط العواصف التى كانت تعصف بالعالم الإسلام من جراء موقعة العقاب وانهيار الوجود الإسلامى بالأندلس وتقلص الإمارات الإسلامية بها، وكذلك انقسام الدولة الموحدية إلى ثلاثة أقسام كانت الدولة الحفصية إحدى هذه الأقسام؛ بالإضافة إلى الصراع الدائر بين القوى الثلاث بنى حفص وبنى زين فى المغرب الأوسط، وبنى مرين فى المغرب الأقصى، وهكذا نرى كذلك فى الفصول القادمة كيف أن هذه الدول الثلاث بدلاً من أن تتعاون جميعها فيما بينها من أجل خير الإسلام والمسلمين نرى الصراع والقتال يدور بينهما من أجل المصالح الشخصية، وليس من أجل قضايا إسلامية؛ بل كان النظام القبلى هو الذى يحكم الصراع بين المصامدة فرع (هنتاتة) الحفصين، وبنى زيان البربر الصنهاجة، وكان كل فرع يحاول السيطرة على حساب الآخر، ومن هنا .. أدى القتال والتطاحن إلى طمع الأعداء بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس فبدأت البرتغال وأسبانيا تتجه للسيطرة على السواحل المغربية لمحاربة الإسلام والمسلمين وتحقيقًا لأحلام تراودهم فى نشر المسيحية من جديد بين هذه الأقطار، ومن ثم كان الوجود التركى حماية للإسلام فى هذه الديار.

وهكذا .. نرى أن الدولة العثمانية لم تبسط نفوذها فى تونس بالغزو العسكرى أو تدخل مباشرة من قبل حكومة الاستآنة كما حدث فى مصر؛ بل جاء تدخل الدولة بنتيجة لاشتداد الصراع بين الإسلام والمسيحية فى الحوض الغربى للبحر المتوسط أوائل القرن السادس عشر، وقد اجتذب هذا الصراع عددا كبيرا من البحارة المغامرين المجاهدين الذين نشأوا فى خدمة أسطول العثمانيين ثم راحوا يقودون أساطيل صغيرة

تعمل لحسابهم الخاص، وضد أعداء الدين، ولهذا .. كان هؤلاء المجاهدون يعتبرون فى نظر المسلمين أبطالاً وطنيين مثل عروج وخير الدين بربر وسبه فى إنقاذ المغرب العربى من الوقوع فى يد الأسبان.

* * * *

الفصل الثامن

علاقة الدولة الحفصية بالدول المجاورة

ارتبطت الدولة الحفصية منذ قيامها فى عهد عبد الواحد يحيى بن عمر الحفصى حتى سقوطها تحت سيطرة الأتراك بعلاقات مع العديد من البلدان المجاورة سواء منها الإسلامية أو الأوربية وكانت هذه العلاقات تتذبذب حسب الأحوال السياسية بين الود والمهادنة وحسن الجوار وبين الاضطراب والتضامن والحسم العسكرى والقتال.

لكن الدولة الحفصية ارتبطت على طوال الخط بعلاقات طيبة مع مصر منذ ظهور الخلافة العباسية فى مصر عام ٦٥٩هـ/١٢٥٣م والخلافة الحفصية فى تونس عام ٦٥٦هـ/١٢٥٠م، على الرغم من وجود خلافتين أو أكثر من خلافة فى العالم الإسلامى إلا أن ذلك لم يقطع ود العلاقات بين مصر وتونس فطوال تاريخ الدولة الحفصية الذى امتد إلى ثلاثمائة وثمانية وسبعين عامًا لم يحدث أدنى تدخل فى شئون أى دولة من الدولتين، كما أن أيًا من الدولتين لم يقم بحشد قوات عسكرية ضد الطرف الآخر؛ بل إننا نجد أن مصر كانت ملاذا أو موطنًا للقادمين من الغرب.

كذلك .. فإن مصر بثقلها السياسى والعسكرى والثقافى والاقتصادى كان عليها بعد إعلان الخلافة التى كانت تهدف إلى مد نفوذها إلى سوريا والحجاز، تلك السياسة التى كانت تتعارض مع السياسة التقليدية التى كانت مصر تنتهجها منذ عهد الطولونيين (٢٥٤-٢٩٢هـ) فحرصت مصر على مد نفوذها على الحجاز والسيطرة

على تجارة البحر الأحمر وعمل السلطان بيبرس أحد سلاطين المماليك الذى يرجع إليه الفضل فى صد غارات المغول وإلحاق الهزيمة بزعيمهم هولاكو فى موقعة عين جالوت يرمى المشهور بالصلبين على أحياء الخلافة العباسية فى مصر بعد أن زالت من بغداد ٦٥٦هـ/١٢٥٥م، وكان بيبرس يرمى من وراء ذلك تقوية عرشه وجعل حكمه شرعيًا للبلاد كما يرمى إلى مد سلطانه على الحجاز والبحر الأحمر إلى إضعاف نفوذ الحفصيين الأدبى فى الشرق؛ فكان إعلان الخلافة العباسية فى مصر، ومن هنا عاد الضعف إلى الخلافة الحفصية.

ورغم ذلك فقد حرص سلاطين الدولة الحفصية وولاة الأسور بها وحكام الدول المستقلة على أن تظل العلاقات الحسنة تربطهم بمصر لأنها كانت طريقهم إلى الأراضى المقدسة بالحجاز فوجدوا عند سلاطين مصر الاستعداد الحسن مما دفعهم إلى أن يكتبوا إليهم الكتب المختلفة شاكرين إياهم هذا الاستعداد فى حسن استقبالهم لحجاج بيت الله الحرام وإكرامهم عند عودتهم.

وقد قدم إلى مصر الأمير أبو يحيى زكريا الحفصى من أمراء الدولة الحفصية فى تونس عام ٧١١هـ مستنجداً بالسلطان الناصر محمد بن قلاوون فأنجده السلطان المصرى بالقوات اللازمة، ونجحت الحملة المصرية فى مهمتها وتم إعادة أبو حيى بفضل القوات المصرية إلى العرش وخطب للسلطان الناصر على منابر تونس (أفريقية) فكونت هذه الأجزاء من أفريقيا جزءا من السلطنة المصرية المملوكية للمرة الأولى فى تاريخ العصور الوسطى؛ إلا أن حكم ذلك السلطان الحفصى لم يدم طويلا.

وقد آشار ابن خلدون إلى أنه جاء إلى مصر عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م على ظهر سفينة مصرية كانت فى تونس، ومن المعروف أن وصول ابن خلدون إلى مصر كان من العوامل التى ساعدت على استمرار العلاقات بينه وسلاطين الدولة الحفصية؛ فقد عملوا على توثيق الروابط بين بلادهم وبين السلطان الظاهر برقوق، وتجلت هذه الروابط

حين طلب ابن خلدون من السلطان الظاهر برقوق أن يشفع له لدى السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بن عبد الله صاحب تونس لكى يرسل له أسرته (أهله وولده)، ومن ثم .. فقد استجاب السلطان برقوق لرغبة ابن خلدون وأرسل إلى السلطان الحفصى فى ١٥ صفر ٨٧٦هـ/١٣٨٤م خطاباً يرجو فيه من السلطان الحفصى أن يرسل أسرة ابن خلدون إلى مصر وسرعان ما لبى سلطان تونس طلب السلطان برقوق، وبعث بسفينة محملة بالهدايا وعليها أسرة ابن خلدون.

وعندما علم السلطان الحفصى أبى العباس أحمد بخلع السلطان برقوق فى جمادى الأولى ٩٧١هـ/١٣٨٩م استاء لذلك وظل يراقب الموقف فى مصر حتى وصلته الأنباء بعودة السلطان برقوق مرة أخرى إلى العرش عام ٧٩٢هـ/١٣٩٠م. وسارع السلطان الحفصى بإرسال بعثة إلى القاهرة محملة بالهدايا، ومعها كتاب إلى السلطان برقوق يهنئه بالعودة إلى عرش السلطة مرة أخرى، وقد أشار إلى ذلك المقريزى.

وقد أورد القلقشندى فى كتابه صبح الأعشى فى صناعة الأنشا فحوى الرسال التى أرسلها السلطان الحفصى ابن عبد الله إلى السلطان برقوق كما أن سلاطين تونس كانوا دائماً على اتصال بالخليفة العباسى المقيم فى القاهرة منذ عام ٦٥٩هـ، إذ أرسل أبو عبد الله بن يحيى بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس عام ٧٩٢هـ كتاباً إلى الخليفة العباسى المتوكل على الله الذى كان يقيم بالقاهرة مع هدية قيمة. كذلك إن السلطان برقوق كان دائم الاتصال والكتابة إلى سلاطين الدولة الحفصية فنجد أنه كتب عام ٧٩٩هـ/١٣٩٧م كتاباً إلى أبى العباس أحمد بن يحيى بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس.

كذلك فإن مصر كانت الوطن الثانى لأبناء تونس من السلاطين والعامة من ذلك عندما حاول السلطان أبو يحيى زكريا بن أحمد اللحيانى تاسع أو عاشر سلاطين الحفصين بأفريقية الخروج من عرش البلاد والتخلى عنه .. فإنه طلب اللحاق والوصول

إلى مصر فراراً من حاكم الأقاليم الغربية من البلاد؛ فإنه لما سمع بغزو تونس استعجل أبو حفص الليحياتى الرحلة إلى ثغور طرابلس، وركب السفن هناك إلى الأسكندرية ووصل إلى مصر ونزل على السلطان الناصر محمد بن قلاوون عام ٧١٧هـ فأكرم نزله ورفع مجلسه إلى أن مات عام ٧٢٨هـ كذلك إنه عندما تعرضت تونس للغزو المرينى؛ فإن السلطان ورئيس الوزراء وابن تافراجين ركبا البحر وفرا إلى الأسكندرية عام ٧٤٩هـ.

كذلك .. فإن السلطان الحفصى أبو خربة قد لاذ بمصر أثر الشقاق والنزاع الداخلى مع الخليفة المستنصر الذى خرج عليه أبو بكر فهرب أبو خربة إلى المهدية وتحصن بها ثم إلى طرابلس وسافر إلى مصر وذلك أيام الملك محمد بن قلاوون.

كذلك .. فإن آخر سلاطين بنى حفص السلطان محمد بن الحسن أرسل رسولاً إلى سلطان مصر السلطان الغورى، وذلك أول دولة السلطان محمد وأرسل إلى السلطان الغورى هدية قيمة فيها زرافة. وقد وقع ابن أبى زينار فى خطأ عندما ظن أن الذى أرسل الزراقة هو السلطان الغورى فى حين أن الذى أرسل الزرافة هو سلطان كانم وبرنو وليس سلطان مصر لأن مصر لا تشتهر بهذا النوع من الحيوانات.

كذلك قامت بين مصر وبلاد الحفصيين علاقات اقتصادية وتجارية كان أساسها التعامل الاقتصادى والتعاون الأخوى والسوق العربية الإسلامية؛ حيث كانت مصر تصدر مالا تحتاج إليه إلى بلاد تونس والمغرب وتستورد ما تحتاج إليه واشتهر التجار المغاربة فى الأسواق المصرية؛ حيث كانت فئة التجار المغاربة يشكلون أكثر الفئات اتصالاً بمصر.

ومن هنا ترك الأثر الاقتصادى المصرى أثره الواضح والبارز فى البيئة المصرية؛ حيث شهد بذلك التأثير الثقافى الذى تركه هؤلاء التجار فى إثراء الحركة الثقافية

والفكرية والعلمية المصرية فى بلاد تونس، وكذلك رحيل علماء المغرب إلى مصر طلباً للعلم فى الأزهر (ابن خلدون جاء إلى مصر فى عصر الدولة الحفصية وتولى القضاء فى مصر كذلك فإن الأزهر أفرد رواقاً للمغاربة من بين الأروقة الكثيرة، وكان طلاب من تونس فى عصر الدولة الحفصية يحضرون إلى الأزهر لدراسة الفقه المالكى والعودة إلى تونس، ومن هنا .. كانت مصر على صلة قوية بالسلطنة الحفصية طوال تاريخها الطويل.

وكذلك أقامت تونس الحفصية علاقات قوية مع أفريقية الاستوائية؛ فقد كانت أقوى العلاقات من كانم والدولة الحفصية فى تونس منذ إنشائها، وكانت علاقات منتظمة وكان سلطان كانم قد أرسل فى عام ٦٥٧هـ/١٢٥٧م وكالة ومعها الهدايا إلى الخليفة المستنصر مؤسس الخلافة الحفصية ضمت زرافة اثارت الحيرة والتعجب وابتهج بها العامة واستمرت العلاقات قوية مع تبادل الهدايا واتصال الود بين ملوك كانم برنو وسلاطين بنى حفص، وكانت الهدية الأولى استهلالاً لمستقبل العلاقات مما انعكس أثره فى ازدياد التجارة.

وكانت علاقة كانم بالدولة الحفصية قوية وواضحة تمثلت فى التعاون والتنسيق فى ميادين عديدة. وهكذا .. ترى أن الدولة الحفصية ارتبطت بعلاقات ودية مع العديد من الأقطار. أما علاقتها بالبلاد الأوربية فقد عرضنا لها فى صلب الدراسة وأشرنا إلى الغزوة الصليبية بقيادة لويس التاسع عام ١٢٧٠م، وكذلك هجوم جنوده على طرابلس وغيرها من الاعتداءات العدوانية التى كانت تتكرر كثيراً على السواحل التونسية. وموضوع العلاقات موضوع متسع لا تتسع له هذه الصفحات إنما تحتاج إلى دراسة مستقلة لاسيما أن طوال فترة حكم الأسرة الحفصية يجعل لمن يبحث فى موضوع العلاقات مع الدول الأوربية يجد مادة كافية لتلك الدراسة.

أما موضوع العلاقات الحفصية مع دولة بنى زيان فى المغرب الأوسط ودولة الموحدين فى المغرب الأقصى ومن بعدها دولة بنى مرين، فسوف نعرضها فى تلك الدراسة بعد إلقاء الضوء على دولة بنى زيان ودولة بنى مرين ثم يكون موضوع العلاقات التونسية الزيانية المرينية فى فصل مستقل.

* * * *

الفصل التاسع

مآثر الخلافة الحفصية فى مختلف الميادين

إن أثر الخلافة الحفصية فى مختلف ميادين الحكم والسياسة والحضارة والثقافة والاقتصاد وغيرها من الميادين الأخرى طوال فترة حكمها التى امتدت الى ما يقرب من ثلاثة قرون موضوع متسع ويحتاج إلى دراسة منفصلة قد تكون عدة كتب لأن الحضارة الحفصية تركت بصماتها فى مختلف الميادين، ولكن تكتفى هنا نظراً لضيق الحيز المكانى لتأليف تلك الموسوعة بقدر ضئيل؛ بحيث تأخذ من كل جانب شذرة أو نقطة تعالج بها هذا الموضوع.

ومن ذلك نجد أن الحفصيين حافظوا على كثير من نظم الموحدين الإدارية؛ بل إن مؤسس الدولة ابن تومرت ظل يذكر فى خطبة الجمعة حتى القرن الرابع عشر واستمر وجود الدعاة الذين يعرفون بمشايخ الموحدين، والذين لعبوا دوراً كبيراً فى قيادة البلاد الاجتماعية والسياسية وانقسمت البلاد إدارياً إلى ثلاثة أنواع؛ فكانت القبائل البادية تتميز بنظام إدارى خاص يتضح فى دور رئيس القبيلة وهو نائب الحكومة، وكان البدو يمثلون مشكلة معقدة بالنسبة للدولة الحفصية وخاصة أثناء الصراع العائلى على السلطة لأن كل رئيس قبيلة بدوية كان ينضم إلى أحد الأمراء المتنافسين وانتهى الأمر بأن تمنح القبائل العربية اقطاعيات لتستقر عليها أراضيهم حول صفانس فى عهد الحفصيين وأغلب العرب على السهول التونسية فتحولت إلى النظام الرعوى؛ بينما انتقلت المراكز العمرانية إلى الساحل.

وقد عرفت الدولة الحفصية نظاماً سياسياً دقيقاً ظهرت فيه معظم المناصب الرئيسية المعروفة فى أشكال الحكم عرف الحاكم أميراً وخليفة، وقد حرصت الدولة

الحفصية منذ أن استقل بها حاكمها الأول أبو زكريا أن تظهر بصورة الدولة المتفرعة عن الدولة الموحدية، وعمل مؤرخو الدول الحفصية على إظهار أبناء عبد المؤمن من خلفاء الموحدين على أنهم فرع من الدولة، ويظهر ذلك فى احتفاظ الحفصيين بكثير من تقاليد الدولة الموحدية فى الحكم؛ بل احتفاظهم بلقب الموحدين، مثل شيخ الموحدين ورئيس الموحدين وظلت هذه الألقاب حتى نهاية الدولة.

وينحصر نظام الحكم فى تقسيم الدولة إلى ولايات بعهديهاإلى حكام هم أبناء السلطان أو أخوته أو من سلالة بنى حفص مع منحهم سلطات مطلقة، وكان السلطان يحكم بواسطة لجنة العشرة كما الحال فى دولة الموحدين وعرفت الدولة نظام الخلافة فى أوائل عهد أميرها الثانى المستنصر بالله أبى زكريا، وذلك عام ٦٥٠هـ، أو ٦٥٦هـ، أو ٦٥٧هـ، وقد اهتمت الدولة الحفصية منذ عهد عميدها الشيخ أبى حفص بأن تنسب إلى قريش والى عمر بن الخطاب، وحرص مؤرخوها على نعت الدولة بالعمرية أو الفاروقية.

وقد أوجد الخليفة المستنصر نظام الخلافة فى الدولة، وكان النظام فى أن يتولى ولى العهد هذا المنصب أو يتولى أهل الرأى والمشورة، وأهل الحل والعقد فى تونس اختيار الخليفة فى حالة موت الخليفة دون أن يعين وليًا للعهد مثلما تدخل أهل الرأى فى اختيار الأمير أبى البقاء خالد الثانى عام ٧٧٠هـ-٧٧٢هـ؛ ليكون خليفة للبلاد بعد وفاة أبى إبراهيم بن أبى بكر (٧٧٠هـ)، دون أن يولى عهده لأحد واختلف الخلفاء الحفصيون من حيث سيطرتهم على الدولة وقيامهم بأمورها والمسئوليات الملقاة على عاتقهم، ومن حيث قدرتهم وقوتهم فقد حافظ المستنصر على تولى الحكم الذى وصل إليه أبوه، وقد أدى ضعف الخلفاء واستبداد حجابهم ورجالهم بالحكم إلى أضرار كثيرة، وظل الأمر على ذلك إلى أن جاء الخليفة أبو العباس أحمد فبدأ فترة من عودة القوة إلى الخلافة والدولة.

وكان ولى العهد هو خليفة الغد، وعرفته الدولة الحفصية واعتبرته وسيلة سياسية لتولى الحكم والذى يدرس تاريخ الأسرة الحفصية وتسلسل الحكام والسلاطين الذين تولوا السلطة يجد أن نظام ولاية العهد إنما يكون غالباً لأحد أبناء الخلفاء السابقين أو أخوته أو أحفاده إن لم يكن له أبناء، وإن مشكلة ولاية العهد التى كان يعهد فيها الخليفة إلى من يراه وريثاً للحكم من بعده قد أدت إلى مشاكل كثيرة، ومنها خروج بعض الحفصيين على ولاية العهد؛ بل البيعة واستيلائه على الحكم من حفصى آخر مثلما فعل أبو العباس أحمد ضد أبى البقاء خالد الثانى (٧٧٠هـ-٧٧٢هـ)، وكذلك عزل الابن لأبيه بعد عهده إليه بالولاية.

وقد اعتمد نظام الحكم الحفصى الخليفى فى البلد ادارته لزمام الأمور على هيئة مستشارين وعلى مناصب عدة، وكان الخليفة يستشير كثيراً من المعاونين، ومنهم أشياخ البساط، وهم مجموعة من المقربين للخليفة الحفصى كما أن الخليفة يعتمد على شيخ الدولة، وكبير الدولة، وقد وصلت وظيفة ومكانة شيخ الموحدين إلى مرتبة عالية ولأهمية هذه الوظيفة أولاها الخليفة مزيداً من الاهتمام والعناية وحسن اختيار من يتولاها فنجد أنه كان دائماً يحرص كل الحرص على اختيار أصلح العناصر الحفصية الممتازة، وقد تولى مثلاً رياسة الدولة فى عهد أبى زكريا أخوه أبو عبد الله اللبحانى، وكان يخلفه فى الحكم عندما يكون خارج تونس أو فى حملات عسكرية.

وكان وظيفة الحاجب وظيفة خاصة إذ كان يشرف على قصر الخليفة ويلعب دور الوسيط بينه وبين الحكومة. وهناك موظفون يباشرون وظائف القصر أكبرهم المحتسب وهو الذى يراقب الأسواق ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر.

وتلقب خلفاء آل حفص بلقب أمير المؤمنين واستأثروا به عمن سواهم، وكانت الرياسة فى دولتهم بأفريقية والتقدم لوزير الرأى والمشورة، وكان يخص باسم شيخ الموحدين، وكان له النظر فى الولايات والعزل وتولية قواد العسكر والحروب والديوان

واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال، وكان الحاجب واسطة بين الناس وأهل الرتب فيهم وحجب السلطان نفسه عن الناس وعرفت الدولة الحفصية الوزارة وكان الوزراء فى العادة ثلاثة اختص أحدهم بالجيش واختص الثانى بالناحية المالية واختص الثالث بالإشراف على الدواوين وتيسير الأمور بها ومعها الإشراف على الأمن، ولذا .. كان منصب الوزير مطعماً لكثيرين ودبروا المؤامرات للحصول عليه، وكانت مكانته أقل من رياسة الدولة والحجابة وقد نقل ابن فضل الله عن الدولة الحفصية أن وزراء الدولة ثلاثة أنواع وزير الجند والجيش ووزير المالية ووزير القصر وكان وزير القصر يختص بشئون الكتابة والعلامة كما أن وظيفة وزير ليست مساوية لأشياخ السباط وأغلب الظن أن وظيفة وزير أقرب لوظيفة أمين السر كذلك وظيفة الكاتب وهى من الوظائف المعاونة للحكم وقد اهتمت الدولة بوظيفة كاتب الإنشاء وكاتب العلامة ويبدو أنها كانت أعلى علامة.

وكان للاستقبال فى القصر مراسم مختلفة تشدد الخلفاء فى رسمها؛ فقد كان لهم حرس خاص يحيط بهم إذا خرجوا كما كانت لهم أعلام كبيرة مصنوعة من الحرير المطرز بالذهب الخالص والفضة.

وقد امتلأ تاريخ الحفصيين الذى يقرب من ثلاثة قرون بالفتن والحروب فلم نجد عهد خليفة يخلو من ثورة يقوم بها أحد أبنائه أو اخوته أو أعمامه وكان الانقسام ظاهرة واضحة فى تاريخ الدولة الحفصية، وهذه الظاهرة كانت شائعة فى كل دويلات المغرب العربى المعاصرة واللاحقة والسابقة لدولة بنى حفص.

والواقع أن الدولة الحفصية منذ قيامها أولت العلاقات التجارية بالخارج عناية خاصة؛ فهى التى تابعت دون غيرها من دول المغرب سياسة الموحدين فى عقد المعاهدات التجارية مع دويلات ايطاليا وتوسعت فيها، ولذا .. انتشرت الفنادق والقنصليات فى مدينة تونس ويبدو أن تونس كانت حلقة اتصال، وأهم ما يميز

الحفصين عن غيرهم هو علاقتهم بالمسيحيين؛ فقد حاربوا الأمراء المسيحيين فى أوائل دولتهم حين استنجد بهم أمراء المسلمون، ولكن الأمر انقلب إلى صداقة فألفوا مع المسلمين والمسيحيين فى الأندلس حلفا وقف فى وجه الموحدين حتى قضوا عليهم، ولذا .. قدم المسيحيون إلى تونس وسكنوها وتمتعوا بحريتهم وأقام الحفصيون نظاماً عسكرياً حشدوا له جيشاً من مختلف الجنسيات المحلية والوافدة فيهم العرب والبربر كما ظهر آنذاك الأندلسيون والأسرى الأوربيون الذين اعتنقوا الإسلام فى صفوف الجيش الحفصى وإذا كان الحفصيون قد حافظوا على مركز التعامل مع الأوربين؛ من حيث القوة البحرية إلا أن الدفة أخذت تتحول لصالح الأوربين من حيث القوة البحرية والدليل على ذلك أن التجار الأوربين هم الذين كانوا يأتون إلى تونس ويقيمون فيها الفنادق والقنصليات.

وقد كان لزاماً على الدولة الحفصية أن تسهم فى دفع الخطر البرتغالى عن مراكش فى القرن الخامس عشر؛ بل أنها قدمت المساعدات إلى آخر الدويلات الإسلامية فى الأندلس (دولة غرناطة).

حضارة الحفصين :

اهتم سلاطين الدولة الحفصية بإقامة المنشات، وتشهد مدن تونس جميعها بعلو باعهم فى مختلف الفنون كالمدارس والقناطر والقباب والقصور ودار الحكمة ودار الكتب وقصور الخلفاء التى أقامها فنانو الأندلس الذين قدموا تونس وعاشوا فيها وشيد أبو زكريا الكثير من القصور وغرس الحدائق وأقام أبو زكريا فى مدينة تونس جامع القصبة وكانت منارته المربعة على مثال مغارة جامع القصبة فى تونس وكان بناء الجامع عام ٦٢٩هـ، ويقال له جامع السلطان وبنى مدرسة بسوق الشماعين وجعل مكتبة بها ٣٦ ألف مجلد.

وأقام الخليفة أبو حفص عمر مسجداً سمى مسجد الهواء بشبه فى طرازه الفخم جامع القيروان وشيد المستنصر قصر فخماً أكثر ابن خلدون فى الإشادة به، وكان فى وسطه بحيرة كبيرة المساحة، وشيد الحفصيون كثيراً من خزانات المياه وكانت فى أيام أبى زكريا ثلاث مدارس ظلت واحدة منها حتى نهاية القرن الثالث عشر.

وأصبحت الدولة الحفصية باعتبار أن نسبها يمتد إلى قريش والى عمر بن الخطاب اهتماماً كبيراً بالناحية الدينية فعملت على نشر مكاتب لتحفيظ القرآن الكريم وتخصيص جوائز لمن يتم حفظه والاهتمام بجامع الزينونة وكذلك تعلم الأحاديث النبوية والعلوم الدينية الأخرى، وكان مذهب الدولة هو المذهب المالكى المنتشر فى جميع أنحاء الدولة على اتباع سياسة اللين والتسامح على أصحاب المذاهب الأخرى، وكما اهتمت الدولة بالدين الإسلامى؛ فقد اهتمت بالوظائف المتعلقة به واهتمت الدولة بوظيفة القضاء وتعيين قاضى القضاة، وذلك للفصل بين الناس فى الخصومات، وكان هناك نظام قضائى دقيق وفى الدولة الحفصية أولى الخلفاء بأنفسهم اهتماماً بالغاً بالقضاء لإحساسهم بخطورة المنصب ودوره فى الدولة لاتصاله بأمور الشريعة والدين وتحقيق العدل بين الرعية؛ فكان الخليفة يقوم باختيار القضاء بنفسه، وقد اتبعت الدولة نظاماً صارماً ودقيقاً لكى تحفظ للقضاء نزاهته وعدالته؛ فكانت تختار القاضى من بين من يشهد لهم بالعدل وحسن السيرة والسمعة والتمكن من علوم الدين مع النزاهة والصرامة والقدوة الحسنة، وكان يعين القاضى لفترة لاتزيد عن عامين وكانت المدة تنقص لتكون عاماً واحداً وبضعة أشهر، وكان تحديد هذه الفترة القصيرة لكى يكون له نفوذ قوى، وحتى لايكون له أعوان وأنصار وربما طول المدة يجعله يحيد عن جادة الحكم وقد يتعارض بقاؤه مع نظام الحكم الحفصى. وكان الخلفاء الحفصيون يهتمون بالإسراع فى تعيين القضاة، وذلك لحرصهم على عدم التأخر فى النظر فى المحاكم

واتخاذ قرار البت فى شكاوى العامة والصلح بين طرفى التنازع وتمسكاً بالحق ونشر العدل فى أرجاء البلاد. وكان العدل من أهم سمات الحكم الحفصى.

وكما اهتم الحفصيون بالتجارة وزاد النشاط العمرانى فى مختلف أنحاء البلاد وخاصة المدن الكبرى فى الموانىء؛ حيث الفنادق ووكالات التجار والخانات والأسواق تخصصها فى بيع سلعة معينة.

وكذلك اهتم الحفصيون بالثقافية الإسلامية فأنشأوا المكتبات واهتموا بمجالس العلم والعلماء وشجعوا البحث والدراسة والتأليف وإرسال البعثات التعليمية إلى الأزهر بمصر وشجع الخلفاء والأمراء وكبار الموظفين. هذا الاتجاه وأنشأوا المكتبات الضخمة ولقيت بمجالس العلم العلماء عناية الدولة واهتم بها الخلفاء وكان بعض الخلفاء الأمراء ميالاً لحضور مجالس العلم وحريصاً على الاستفادة منها واهتمت الدولة بمجالس الوعظ وقراءة القرآن الكريم والأوراد.

وكان العلماء فى الدولة مهتمين بإبداء النصح للخلفاء، وكان نصحهم يلقى قبولاً لديهم واهتمت الدولة بالآداب وفنون العمارة الإسلامية وأكثروا من إنشاء المساجد وتمكنت تقاليد مذهب الإمام مالك فى نفوس أهل أفريقية وفى مدارس القيروان ووقفت للمذاهب الأخرى بالمرصاد وانتصر المذهب المالكى وهو المذهب الرسمى للدولة وأصبح فقهاء الملكية فى نظر شعب المغرب الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام وفى تاريخ الدولة الحفصية أمثلة كثيرة على تدخل رجال الدين للصلح بنى المنافسين على العرش. وكان نصحهم ودورهم يلقى قبولاً من الرعية والحكام.

ونبغ كثير من أبناء تونس فى الأدب والشعر والفقه وأولت الدولة الحفصية مزيداً من العناية والتعليم وإنشاء المدارس حتى أننا لا نجد خليفة طال حكمه إلا وأقام العديد من المدارس وعين المدرسين لها.

وكل هذه الأمور التى شهدتها البلاد استدعت من الدولة اهتماماً شديداً بالناحية الاقتصادية لأن الاقتصاد هو عماد بناء الدولة وكانت الدولة تعتمد على عدة مصادر لتمويل مشاريعها وإدارة شئونها ومن هذه المصادر الضرائب والزكاة والجزية والمصادرات والعشور وضرائب الأرض وضرائب الحرفين ولقد حافظت الدولة على تحصيل الضرائب وكذلك أموال الزكاة.

ولقد كان الاقتصاد القوى للدولة سبباً فى تقدم النشاط الثقافى والحضارى وكذلك النواحى الاجتماعية وبناء الزوايا والسبل والأربطة وكل هذه النشاطات، ما كان لها أن تتحقق وتزدهر إلا فى ظل نظام اقتصادى دقيق ومنضبط يحقق أهداف الدولة فى تقدمها ورقيها؛ حيث ازدهرت الثقافة الإسلامية فى عهد الدولة الحفصية.

وتلك هى صورة موجزة ومختصرة على الدولة الحفصية باعتبارها أقدم دول منطقة المغرب العربى فى الظهور ككيان مستقل رغم وجود الدويلات المستقلة التى حاربت من أجل إضعاف دولة الموحدين لكى تقوم على انقاضها هذه الدول الثلاث.

* * * *

حكام الأسرة الحفصية فى تونس

١ – حكام تابعـون للخلافة الموحدية

١ – أبو محمد عبد الواحد بن أبى حفص

(٦٠٣هـ–٦٢١هـ/١٢٠٦م–١١٢٤م)

٢ – أبو عبد الله محمد عبد الواحد

(٦٢٣هـ–٦٢٥هـ/١٢٢٦م–١٢٢٨م)

٢ – الإمارة المستقلة

٣ – أبو زكريا بن محمد عبد الواحد

(٦٢٦هـ–٦٤٧هـ/١٢٢٩م–١٢٤٩م)

٣ – الخلافة الحفصية

٤ – أبو عبد الله محمد الأول المستنصر

(٦٤٧هـ/١٢٤٩م)

٥ – أبو زكريا يحيى الثانى الواثق

(٦٧٥هـ/١٢٧٦م)

٦ – أبو اسحق إبراهيم الأول

(٦٧٨هـ/١٢٧٩م)

* ثورة الدعى أحمد بن مرزوق أبى عميرة (٦٨١هـ/١٢٨٢م)

٤ – الأسرة الحفصية وانقسام الدولة

٨ – أبو حفص عمر الأول (يحكم فى تونس)

(٦٨٣هـ/١٢٨٤م)

٩ – أبو زكريا يحيى (يحكم فى بجاية)

(٦٨٣هـ–١٢٨٤/٦٩٨–١٢٩٨م)

١٠ – أبو عبد الله (أبو عصيدة) محمد الثانى المستنصر بن يحيى الثانى
(يحكم فى تونس) (٦٩٤هـ/١٢٩٤م)

١١ – أبو البقاء خالد الناصر الأول : يحكم فى بجاية ثم انفرد بالحكم بعد ذلك
(٦٩٩هـ/١٢٩٩م)

١٢ – أبو بكر الأول الشهيد يحيى الأول، يحكم فى بجاية ثم انفرد بالحكم بعد ذلك
(٧٠٩هـ/١٢٠٩م)

١٣ – أبو البقاء خالد الأول الناصر فى تونس

(٧٠٩هـ/١٣٠٩م)

١٤ – أبو بكر الثانى المتوكل بقسنطينة وبجاية

(٧١١هـ/١٣١١م)

١٥ – أبو يحيى زكريا اللحيانى بن أحمد (تونس)

(٧١١هـ/١٣١١م)

١٦ – أبو خربة محمد الثالث المستنصر (تونس)

(٧١٧هـ/١٣١٧م)

١٧ - أبو يحيى أبو بكر الثانى المتوكل (يحكم فى وجدة)
(٧١٨هـ/١٣١٨م)

١٨ - أبو حفص عمر الثانى
(٧٣٧هـ/١٣٤٦م)

الاحتلال المرينى ٧٤٧هـ - ١٣٤٦م

١٩ - أبو العباس أحمد الأول الفضل (يحكم فى قسنطينة) (٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢٠ - أبو زيد عبد الرحمن بن أبى بكر الثانى (يحكم فى قسنطينة)
(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢١ - أبو عبد الله محمد المنصور بن أبى بكر الثانى (يحكم فى بجاية)
(٧٤٩هـ/١٣٤٨م)

٢٢ - أبو العباس أحمد الأول الفضل المتوكل (يحكم منفرداً)
(٧٥٠هـ/١٣٤٩م)

٢٣ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المستنصر (يحكم فى تونس)
(٧٥٠هـ-٧٧٠هـ)

٢٤ - استيلاء بنى مرين على بجاية (٧٥٤هـ/١٣٥٣م)

٢٥ - احتلال بنى مرين لأفريقية للمرة الثانية (٧٥٨هـ/١٣٥٩م)

٢٦ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المنتصر (يحكم فى تونس) (٧٥٨هـ/١٣٥٦م)

٢٧ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المستنصر (يحكم فى تونس) (٧٥٨هـ/١٣٥٦م)

٢٨ - أبو اسحق إبراهيم الثانى المستنصر (يحكم فى تونس)

(٧٦١هـ/١٣٥٩م)

٢٩ - أبو البقاء خالد الثانى بن إبراهيم الثانى

(٧٧٠هـ/١٣٦٨م)

عودة الخلافة للقوة وخلفاء أقوياء

٣٠ - أبو العباس أحمد الثانى المستنصر (انتزع الحكم بمفرده)

(٧٧٢هـ/١٣٧٠م)

٣١ - أبو فارس عبد العزيز المتوكل بن أحمد الثانى

(٧٩٦هـ/١٣٩٣م)

٣٢ - أبو عبد الله محمد الرابع المنتصر بن محمد

(٨٣٨هـ/١٤٨٧م)

٣٣ - أبو عمر عثمان بن محمد الرابع

(٨٩٣هـ/١٤٨٧م)

٥ - الأسرة الحفصية فى ظل الأتراك

٣٤ - أبو زكريا يحيى بن عبد الله محمد المنصور

(٧٩٣هـ/١٤٨٧م)

٣٥ - أبو عبد الله محمد بن أبى محمد الحسن

(٨٩٩هـ/١٤٩٣م)

٣٦ - أبو محمد الحسن بن محمد بن الحسن بن المسعود

(٩٣٢هـ/١٢٥٦م)

٣٧ - محمد بن الحسن بن محمد الحسن (فترة اضطرابات بين الأتراك والأسبان)
وظل يحكم تونس فى عام (٩٨١هـ/١٥٧٤م)

وانفرد الأتراك بحكم تونس وتحويلها إلى أيالة عام ١٥٨٧م.

* * * *

الباب الثانى

بنى زيان على مسرح الأحداث فى المغرب

الدولة فى دور التكوين

شهد القرن السابع الهجرى الثالث عشر الميلادى مولد دويلات فى بلاد المغرب صارعت كل منها الأخرى فى سبيل تحقيق ذاتها وقد تحقق لها ذلك فنعمت بكياناتها المستقلة وأصبحت كل منها دولة قوية.

فإذا كان الجزء الشرقى من الدولة الموحدية قد استطاع أن يحافظ على كيانه تحت حكم الحفصيين؛ فإن الجزء الأوسط كان أقل حظا؛ حيث أصبحت المدن ميداناً لكثير من الهجمات المتوالية التى أشاعت الخراب فيه؛ فقد انتهزت قبيلة زنانة فرصة ضياع سلطة صنهاجة لتعود إلى قواتها، وهكذا .. استطاعت زنانة أن تقسم دولة الموحدية لزنانة بنى مرين فى المغرب الأقصى وزنانة بن عبد الواد (زيان) فى المغرب الأوسط وتنتمى دولة بنى عبد الواد إلى قبائل زنانة التى كانت ترتاد جبال وصحراء المغرب الأوسط ولما فتح الموحدون هذه البلاد كان بنو عبد الواد عونا لهم فنالوا ثقة الموحدين وحصلوا منهم على اقطاعات وفيرة وهى أقليم تنمسان فاستقروا فيها منذ ذلك الوقت، وكان الموحدون يسيطرون على كل بلاد المغرب قاطبة ولما أخذت دولتهم تضعف شيئاً فشيئاً .. قام على أثر ذلك عدة دول، والدولة الزيانية التى تعرض لها والتى تقف مكتوفة الأيدى أمام تمزق الدولة الموحدية قد أصبحت من هذه الدويلات.

ذلك لأنه على أثر الفتح الإسلامى فى بداية القرن السابع الميلادى كانت القبائل المستقرة فى منطقة تلمسان تحت سلطة فرع من بنى أيفرن وهى إحدى القبائل

الرئيسية من زنانة وهم من رعاة البدو وكفان فرع من مغراوة وهم أهم أقوام زنانة بشغل المنطقة الواقعة إلى الشرق من ذلك. وفى ذلك الوقت كان بنو عبد الواد وهم فرع من بنى واسين وهؤلاء قبيلة أخرى من زنانة، كانوا فى حالة بداوة يتجولون فى الزاب وفى جبال الأوراس. وقد شكل بنو عبد الواد فرقة فى جيش عقبة بن نافع النهرى الذين قادهم فى مسيرته نحو الغرب عام ٦٨٢م وأبلوا معه بلاءاً حسنا وقد انهارت قوة بنى يفرن أثر الفتح الفاطمى فى القرن العاشر الميلادى أمام مغراوة الذين لم يفقدوا سلطتهم فى تلمسان إلا على أثر فتح المدينة على أيدى المرابطين عام ١٠٧٩م، وفى هذا العصر تمت إزاحة بنى عبد الواد من الزاب فى منطقة قسنطينة على يد العرب الهلالين وجاءوا ليستقروا فى جنوب منطقة وهران الحالية، ولم يظهروا على مسرح الأحداث فى منطقة تلمسان إلا فى أواسط القرن الثانى عشر الميلادى كخصوم أولاً ثم كخلفاء الفاتح الموحدى عبد المؤمن. وفى عام ١٢٣٦م أخذ أميرهم يغمراسن بن زيان وكان محارباً قديراً فيه كل صفات الزعامة الملكية تحت رئاسة الخليفة الموحدى فى مراكش. وكان هذا رد فعل ضد بنى مرين وهم من زنانة بنى واسين.

وقامت الدولة الزيانية فى منطقة أطلق المؤرخون عليها المغرب الأوسط وتسمى أيضاً الدولة العبد الوادية نسباً إلى عبد الواد كبير القبيلة. وينقسم بنو عبد الواد إلى بطون وشعوب منها بنو درهطف وبنو ولدا وبنو لومرت وبنو قاسم وغيرهم، ويزعم بنو قاسم أنهم من أولاد القاسم بن أدريس وعمل بنو عبد الواد على تأكيد هذا النسب.

وبنو زيان ينتسبون إلى زيان بن ثابت واد يغمراسن مؤسس هذه الدولة وأنهم استطاعوا بقيادة يغمراسن بن زيان أن يقيموا دولة بالمغرب الأوسط.

وبذلك .. تكون الدولة الزيانية هى الثانية التى ورثت الموحدين فى شرق المغرب الأوسط وبنو عبد الواد الذين أنشأوا هذه الدولة كانوا من أشد حلفاء الموحدين، وقد

توغلوا فى المغرب الأوسط ونازعوا بنى هلال الذين كانوا مسيطرين هناك، وكان العرب الهلالية قد دفعوا الزيانية أمامهم من مواطنهم الأولى فى بلاد الزاب جنوبى قسنطينة فهاجروا غرباً واستقروا حول تلمسان بموافقة الموحدين.

وهكذا .. نجد أنفسنا أمام وضع سياسى ثانٍ جديد يقوم على أنقاض الدولة الموحدية إذ أنه فى نفس الوقت الذى نشأت فيه أسرة حاكمة فى تونس أقام يغمراسن ابن زيان أسرة جديدة فى تلمسان، وهو ينتمى إلى فرع عبد الودية أو عبد الواد من قبيلة زنانة الكبيرة، ولذا .. تعرف أحياناً أسرة تلمسان بأسرة عبد الواد؛ بل أن تلقبها بالأسرة الزيانية لم يشع إلا بعد القرن الرابع عشر.

وقد بدا نجم أسرة بنى الواد فى السطوع فى منطقة غرب الجزائر. وبالذات بالقرب من تلمسان عندما وزع الموحدون الاقطاعيات على العائلات والقبائل الكبيرة، التى أدت خدمات جليلة للدولة؛ فكان نصيب بنى عبد الواد بالقرب من تلمسان.

وكانت عودة السلطة إلى زناتة تعنى قيام أسرتين فى منطقتى المغرب الأوسط والغربى، وقد ارتبطتا برابطة الدم والقرابة إلا أن العداوات قامت بينهما، وهما أسرتا عبد الواد فى تلمسان وبنى مرين فى فاس.

وكان يغمراسن بن زيان هذا هو سليل إحدى الأسر التى زحفت نحو الغرب أمام الهلاليين، وبعد قرن كامل وحدت بطونها وقويت شوكتها وبدأت تتجه نحو الشرق حتى استقرت بالقرب من وهران تابعة للموحدين حتى إذا حققت هذه الدولة الأخيرة وجودها انتهز رجالها الفرصة وأقاموا لهم دولة مستقلة استمرت ثلاثة قرون.

والمغرب الأوسط الذى قامت به دولة بنى زيان يقصد به الجزائر وأنه فى هذه البقعة كما اتفق العديد من المؤرخين هو وادى ملوية ولكنهم اختلفوا فى تحديد الحد

الشرقى؛ فمنهم من يرى أنها مدينة قسنطينة ومنهم من يرى أنها داخل أفريقية وأن بجاية تعنى الحد الشرقى.

وكانت حدود هذه الدولة غير ثابتة إذ أنها كانت تضيق وتتسع؛ حيث قوة جيرانها وضعفهم وهم فى الشرق بنو حفص وفى الغرب بنو مرين إلا أنه يمكن القول بأن حدودها كانت تمتد طولاً من البحر المتوسط شمالاً إلى صحراء الجزائر جنوباً وعرضاً من جبال سعيدة ووادى ميتة شرقًا إلى وادى ملوية ومدينة وجدة غربًا.

ومن التكوين الطبيعى لمنطقة المغرب الأوسط؛ فإنه نتج عنه تكوين قبلى يتلائم مع مكونات البيئة الجبلية الصحراوية؛ حيث السفوح والسهول والوديان؛ فكانت القبائل تشكل نظاماً يختلف عن المغرب الأدنى ولقد استوطنت بالمغرب عناصر سكانية متعددة، وكانت الغالبية العظمى العرب والبربر، ولقد استوطنت القبائل العربية فى المغرب الأوسط فى مناطق مختلفة، ومنها القبائل الهلالية التى وفدت إلى المغرب فى المسيرة الهلالية ثم استوطنت أفريقية والبربر فى المغرب الأوسط انتشروا أيضاً فيه وخاصة قبيلة زنانة وأن المغرب الأوسط ينتسب إليها ويعرف بها فيقال وطنى زنانة، ومن قبائل زنانة قبيلة عبد الواد السابق الإشارة التى يندرج تحتها بنو زيان.

نسب بنو زيان :

قيل أنهم من البربر ومن أبناء زنانة فمن ولد زنانة بنو عبد الواد، وبنو مرين، ومفراوة، وغيرهم، ولكن منهم من قسمهم إلى اتخاذ أولهما إلى البربر ونسب وينسب ثانيها إلى إدريس بن عبد الله بن محمد بن أبى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم، وقد افتخر يغمراسن بن زيان عندما رفع نسبه إلى ادريس. وقد عمل بنو عبد الواد على تأكيد هذا النسب خصوصاً فى عهد موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بن

يحيى بن يغمراسن بن زيان الذى يعتبره عصره من أزهى عصور الدولة؛ بل أنه أكثر من ذلك .. فإن بنى عبد الواد لم يكتفوا بتأكيد نسبهم إلى آل ادريس؛ بل تقربوا إلى العلويين؛ حيث كانت لهم قرية من أعمال تلمسان تعرف بقرية العلويين، وقد عمل بنو زيان على تأكيد الصلة فتزوجوا وزوجوا بناتهم إلى أبناء الشريف ويعرف بالعلوى.

كذلك تأكيداً للنسب العلوى العربى يخالف بنو عبد الواد القبائل العربية، التى استقرت فى المغرب الأوسط خصوصاً بطون عرب زغنة الذين جمعتهم وزنانة عصبية الحلف وذوى عبد الله من عرب المعقل المجاورين لبنى عامر بن زغبة المستقرين بجوار تلمسان. وازدادت مكانة شيوخ هذه القبائل حتى أسند يغمراسن بن زيان فى بعض الأحيان إلى شيخ عرب سويو بن مالك ولاية تلمسان، وما يتبعها شرقاً عند خروجه لقتال أعدائه.

ظروف ظهور بنى زيان :

عاش بنو عبد الواد بداية أمرهم فى الصحراء شرق المغرب الأوسط، وانقسمت الدولة الموحدية إلى أقسام بين الحفصيين وبنى مرين ولكن وسط هذا الانقسام ما هو الموقف فى المغرب الأوسط، لقد كانت قبيلة بنى عبد الواد التى تعيش فى ضواحى تلمسان أقوى هذه القبائل جميعاً ونظروا فى الوضع الراهن وحالات التردى التى وصلت إليها البلاد، فوجدوا بلاد المغرب وقد شاعت وظهرت على السطح ظاهرة استقلال الأقاليم وتفكك الدولة؛ فكان عليهم وهم أقوى القبائل وبما لهم من زعامة وقوة وتمركز بالقرب من تلمسان أن يحققوا ذاتهم وأن يكون لهم كيان سياسى ومكان فى الصراع الدائر بين القوى المختلفة.

فاستطاع يغمراسن دخول تلمسان واتخاذها قاعدة لهم وتلمسان مدينة قديمة

إلى شرق وادى ملوية وكانت تعرف أيام الرومان باسم بوماريا واسمها بلغة البربر (تاجرارت)، ولكنها عرفت منذ أيام المرابطين، وفى عهد يوسف بن تاشفين بالذات باسم تلمسان، وقد عمرها يوسف وأنشأ مسجدها الجامع وأحاطها بسور وجعلها من مراكز العلم والحضارة فى المغرب الأوسط، وفى ذلك يقول أبو عبيد الله البكرى أن تلمسان كانت دائماً مركز تجارة نافعة وعلم وعلماء، وقد نعمت تلمسان بالازدهار الحضارى؛ حيث أصبحت صورة من غرناطة وبدخول يغمراسن تمكن بنو عبد الواد من تأسيس ملكهم بتلمسان، وهكذا .. اتخذ هذا الفرع الزياتى من مدينة تلمسان مقراً للحكومة الجديدة التى أنشأها وساعدت الظروف الطبيعية على اختيار هذا المكان.

فإن تلمسان تقع فوق هضبة مرتفعة بين مصب نهر التفنة وبين المدن الداخلية، واستمرت الأسرة الزيانية فى اتخاذ تلمسان مركزاً لحكم الدولة، وكان بها حيان أحدهما للعسكريين والآخر للمدنيين، وقد احتفظ بنو زيان بامارتها ثلاثمائة عام وظلت فى حكم أحفاد يغمراسن بن زيان، وقد بدل هؤلاء السلاطين اسم الأسرة من بنى عبد الواد وأصبحوا يدعون بنى زيان أى أبناء زيان الذى كان والد يغمراش.

وتمتد مملكة تلمسان فى عهد بنى زيان كما ذكر ذلك الحسن الوزان (ليو الأفريقى) على مساحة خمسمائة وثلاثين ميلاً من الشرق إلى الغرب، ولكنها ضيقة جداً من الشمال إلى الجنوب بين البحر المتوسط، وبين تخوم الصحراء لاتوجد إلا بعض النقاط المدن القليلة سوى مساحة لاتزيد عن خمسة وعشرين ميلاً، وهذا هو السبب الذى جعل هذه السلطنة معرضة باستمرار لسوء المعاملة وللإذلال الخطير على أيدى العرب الذين يسكنون الجزء المجاور للصحراء، وكان ملوك تلمسان مضطرين دائماً لكسب مودتهم بدفع أتاوات ضخمة وتقديم الهدايا لهم والقسم الأعظم من مملكة تلمسان عبارة عن مقاطعة جافة عقيمة ولاسيما فى قسمها الجنوبى ولكن السهول

القريبة من السواحل منتجة جداً؛ بسبب خصوبتها وكل النطاق المجاور لتلمسان يقع فى السهل مع وجود بعض الصحارى المأمون الموحدى الذى كتب له عهداً على تلمسان (٦٢٧هـ/١٢٢٩م) على المسرح السياسى فى المغرب الأوسط، وبدأ كيان الزياتية بأخذ أولى ويبدو أن الموحدين نظروا فلم يجدوا سوى بنى عبد الواد أهلاً لحمل ولايوجد إلا القليل من المدن والقصور فى هذه المملكة غير أن هذه البلدان تكون مزدهرة فى المنطقة الخصبة.

وكان على بنى عبد الواد أن يفكروا فى الأمر باتزان بعد دخولهم تلمسان وكان زعيمهم (جابر بن يوسف) الذى على المدينة قد أرسل بالبيعة للخليفة اسمهم فى هذه المنطقة خاصة وأن أفريقية قد ضاعت منهم بعد استقلالها فى عهد أبى زكريا الحفصى، ومن هنا .. بدأ بنو عبد الواد يضعون أقدامهم الخطوات للظهور على مسرح الأحداث فى المغرب.

وهكذا .. صادف قيام الدولة الزبانية نجاحاً نظراً لأن بنى عبد الواد كانوا يعيشون بالقرب من تلمسان، وبذلك استطاعوا ضرب قوى بنى غانية فى المدينة وأرسلوا بتبعيتهم إلى الموحدين ونتيجة لضعف الموحدين فى ذلك الوقت كتبوا العهد لبنى عبد الواد فى تلمسان.

ولقد كانت ظروف المغرب تفرض على بنى عبد الواد أن يحتاطوا للأمور، وأن يعطوه عظيم اهتمامهم؛ خاصة وأنهم يتتابعون ويعلمون أن دولة الموحدين على وشك السقوط والانحدار النهائى، ومن هذه القوى الشابة التى استقلت عن الموحدين فى الشرق والمغرب لابد أن تهاجم المغرب الأوسط، وكان موقع هذه الدولة الناشئة بين الحفصين فى الشرق وبنى مرين فى الغرب هو الذى جعل لها أهمية سياسية فاعتبرها كل فريق جزءاً من دولته فتبادلاها أكثر من مرة.

وقد ظلت الأسرة الزيانية أقل الدول التى خلفت الموحدين شأناً؛ فهى لم تسيطر على المغرب الأوسط الذى يقابل الجزائر فى وقتنا الحاضر؛ بل اقتصر حكمها فى معظم الأحيان على الجزء الغربى من الجزائر وتعرضت ممتلكاتها للعدوان. ولقد مرت الدولة بعدة مراحل حتى أصبحت دولة فتيه لها كيانها ورهبتها فى المغرب العربى.

وكان على بنى زيان أن يعملوا على المحافظة على كيانهم وسط العواصف التى تحاول أن تجتاحها فكانت الخطة فى المحافظة على بقاء الأمور فى أيديهم حتى أننا نجد شيخهم جابر بن يوسف بعد أن استولى على تلمسان ٦٢٧هـ/١٢٢٩م) كان أكثر كياسة وفطنة فى استمرار علاقته الحسنة بالموحدين فظل الخليفة المأمون الموحدى يذكر على منابر تلمسان ويدعو له فى الخطبة لأن الدولة لاتزال فى المهد فقام بالأمر ستة شهور يدعو للموحدين، لكن بعد وفاة جابر بايع القوم الحسن بن جابر؛ إلا أنه نظراً لصغر سنه تنازل لعمه عثمان بن يوسف أخى جابر ٦٣٠هـ/١٢٣٣م. لكن بنى عبد الواد أجمعوا أمرهم على أن تكون زعامة الدولة لأميرهم زكراز بن زيان الشهير بابن غرة وبايعوه على (٦٣١هـ/١٢٣٣). ومع دخول بنى زيان إلى تلمسان إلى أنهم فى ذلك التاريخ لم يأخذوا شكل الدولة المستقلة، وبذلك .. فإن فترة السنوات الخمس هذه تعتبر فترة الوجود الزياتى فى المدينة على اعتبار أن بنى زيان مازالوا يضعون أقدامهم على بداية الطريق محاولين خلق دولة، واستطاعوا بطريق السلم والحرب أن يكونوا قوة لايستهان بها، واتخذوا تلمسان عاصمة لهم وفرضوا أنفسهم على القوى المناوئة لهم وبدأ فى تأسيس دولة وكيان سياسى لهم.

* * * *

الفصل الأول

ظهور الدولة ككيان سياسى

تدين دولة بنى زيان بكل شىء لشيخها ومؤسسها أبى يحيى بن يغمراسن بن زيان الذى عرف كيف يثبت أقدام بيته الزيانى ويحكم فى تلمسان وما حولها. وكذلك عمل على كسب ود الموحدين، وقد حكم هذا الرجل قرابة خمسين سنة هجرية (٦٣٣هـ-٦٨١/١٢٣٦-١٢٨٢م)، وأبدى خلال الفترة الطويلة من الذكاء والمناورة والجرأة ما جعل دولته من أقوى دول المغرب ولكنها كانت بداية ونهاية دولة قبيلة غير مستقرة وقد أعطى لها شكل الكيان السياسى المستقل وأصبحت دولة بمفهوم عصرها فقد لبس شارة الملك والسلطان وقطع دعوة بنى عبد المؤمن من تلمسان وقطرها ولم يشأ أى يستقل استقلالاً كاملاً بالدولة؛ بل تظاهر بتأييد وطاعة الموحدين حتى يأمن شرهم ومكرهم به ونظر إلى المغرب الأوسط فوجده يخضع حتى ذلك الوقت للسيادة الموحدية بقيادة بنى عبد المؤمن وذلك فيما عدا مدن قسنطينة وبجاية التى كانت تخضع فى ذلك الحين للقيادة الحفصية بعد أن أخضعها لنفوذه أبو زكريا الحفصى (٦٢٨هـ/١٢٣٠م).

وفى سنوات حكمه الطويل تحولت تلمسان إلى سوق من أكبر أسواق المغرب العربى لأن مركزها الجغرافى وسياسة أميرها يغمراسن جعل منها سوقا لتجارة أفريقية المدارية الاستوائية مع المغرب وإليها كان يفد تجار العاج والأبنوس والجلود والرقيق والتوابل وما إلى ذلك ولقد كان هذا الثراء الذى وصلت إليه تلمسان يجعل أميرها قادراً على تغير معالم الدولة وصورتها الخاصة حضارية ومتمدنة بدلاً من حياة البداوة التى كان يحياها بنو زيان قبل السيطرة على المدينة.

ولقد كان يغمراسن بن زيان لكى يضمن بناء الدولة ويحفظ وجودها وتوازنها وسط تيارات الصراع السياسى والعسكرى فى المغرب بعد ضعف النفوذ الموحدى فكان عليه أن يحارب بنى حفص أو يهادنهم وكذلك الموحدين لأجلائهم عن المغرب الأوسط، ولقد كان موقع الدولة الزبانية بين قوتين تتطلعان كلها إلى السيطرة على بلاد المغرب الأوسط توطئة لبناء الدولة الواحدة فى المغرب. فإذا حاول بنو حفص بأفريقية فرض السيطرة الحفصية على بلاد المغرب اصطدموا بالدولة الزباية بتلمسان فتقع بينهما الحروب، وهذا ما كان يحدث بالنسبة للموحدين ثم بنى مرين من بعدهم بالمغرب الأقصى.

وعلى هذا .. فقد اتفقت جميع المصادر بل والمؤرخون على أن يغمراسن بن زيان هذا أول من جعل لبنى عبد الواد وجوداً سياسياً مستقلاً لفترة الخمسين عاما دون أن يعتريها أدنى اضطراب بل أنه هو الذى قاوم الحفصيين للاستيلاء على تلمسان عام ٦٤٤هـ. كما صد بعد قبائل زنانة التى كانت تنافس بنى زبان (قبائل توجين) كما صد القبائل العربية القادمة من الغرب وقد قاد يغمراسن أكثر من اثنين وسبعين حملة وغزوة للدفاع عن كيان الدولة الشابة النامية التى تحاول أن تحافظ على كيانها وسط مهبات العواصف من كل الاتجاهات وبمساعدة القبائل العربية بعد أن صادقها وعقد معها الاتفاقيات وقدم لها الهبات والعطايا واقطعها الاقطاعيات. وصد بنى مرين الذين قدموا لحربه مرتين اضطر فيها لترك عاصمته والإغارة على حدود بنى مرين فى المغرب الأقصى لرفع الحصار عن تلمسان وكانت خطته دائماً تنجح ثم يعود إلى تلمسان بعد أن يشعر العدو بخطر زحفه إلى بلاد المغرب وبهذا الوجود السياسى فإن قبيلة زبان استطاعت أن تظهر منتصرة على الموحدين وتقضى على نفوذهم فى المغرب الأوسط.

وهذا الموقع الجغرافى لبنى زيان فى المغرب الأوسط بين كتلتين سياسيتين

متحاربين الحفصيين والموحدين، والحفصيين وبنى مرين فيما بعد؛ قد جعلهم دائماً فى حروب مستمرة مع الدولتين المجاورتين ومع باقى القبائل وسكان المغرب الأوسط، وقد كان ذلك من الأسباب القوية التى حالت دون سطوع نجم الدولة الزبانية على مستوى الأحداث العالمية فلم تستطيع أن تكون قوة كبرى فى مجال الجهاد الإسلامى والصراع الدائر على أرض الأندلس ومياه البحر المتوسط؛ فهى لم تزد عن قوة قبلية عشائرية ذات كيان سياسى محدود ومحصورة بين قوتين كتب على الكيان الزياتى أن يكون فى تقال وصراع مستمر فالذى ينظر إلى الحروب والغزوات (٧٢ غزوة)؛ قام بها يغمراسن يدرك مدى الأخطار التى كانت تحدق بهذا الكيان والتى تحاول وأآه بل قتله منذ ولادته فقد حارب بنى حفص عام (٦٤٠هـ/١٢٤٢م) وحارب الموحدين عام (٦٤٦هـ/١٢٤٨)، فنجد أنه لم تمض إلا سنوات قليلة على ظهور يغمراسن كقائد حرب ورئيس دولة حتى تهاجمه الدولة الحفصية وتحاصر تلمسان وتخضعها للنفوذ الحفصى. وكان يغمراسن من الذكاء والكياسة والحكمة بل فطنا مناوراً استغل الظروف المحيطة به أحسن استغلال، فأعلن طاعته وخضوعه للنفوذ الحفصى خالعاً البيعة للموحدين ومنادياً للأمير أبى زكريا الحفصى ومقيماً له الدعوة تلمسان ومتحدياً شعور الموحدين ولكن فعلته هذه أغضبت أولياء الأمر فى المغرب الأوسط فما كان من الوحدين الذين أغضبتهم مبايعة بنى حفص وإلغاء تبعيتهم حجة ليجمعوا قواتهم وجموعهم محاولين اخضاع بنى زيان.

ولكن يغمراسن أخذ للأمر عدته فنجد أنه بعد استيلائه على تلمسان بفترة وانتقال زنانة إلى التلول والأرياف استولت قبائل المعقل العربية على مواطن زناتة. القديمة بالصحراء، فنقل يغمراسن قبائل بنى عامر العربية من أوطانها إلى جواره بصحراء تلمسان وكثرت أعداد بنى عامر وكانوا هم خط الدفاع عن المدينة ومشاركين

فى الغزو والدفاع وكان لبنى عامر دور هام فى حماية الدولة وصد العدوان والغزو فى توسيع رقعتها ولقد كانت السياسة التى اتبعها بنو زيان فى حروبهم مع أعدائهم من بنى حفص والموحدين لابد أن تتسم بالمهادئة والذكاء العسكرى ودراسة الأحوال العسكرية وعدم الدخول فى قتال ضارٍ مع قوى تفوقه عدداً وعدة فكان أن أعلن الخضوع والولاء لأبى زكريا الحفصى.

ونظر أبو زكريا الحفصى بعد إخضاع تلمسان لنفوذه فيمن يعين والياً عليها ويضمن ولاءه فلم يجد أكفأ من يغمراسن زعيم زناتة لتولى هذه المهمة بعد أن خلع بيعة الموحدين. وهذا الأسلوب من المهادئة والخضوع والميول السلمية وضح أكثر من الموحدين فى الفترة (٦٤٦هـ/١٢٤٨م) عندما أيقنوا أنه لا قبل لهم بحشود الموحدين وقواتهم العسكرية الهائلة؛ فكان أن أصدر أوامره بالانسحاب من العاصمة تلمسان وتركها خاوية على عروشها وفتح أبوابها للقوات الغازية واعتصم بالجبال ودارت حرب العصابات بين أودية الجبال الضيقة والتى كانت تجيدها القبائل الزيانية خير إجادة فانتصر بنو زيان، وبهذا الأسلوب المحنك، الذى تمتاز به القبائل البدوية استطاع أن يحفظ دولته الفتية وأن يتقى شر بنى حفص بالبيعة الأسمية ويتقى شر الموحدين بالانتصار العسكرى على قواتهم.

وإذا كان يغمراسن قد حصن عاصمته بدرع قوى من العرب حين أقدم بعدة حملات تأديبية وغارات سريعة على القبائل والمدن والقرى والأودية داخل المغرب الأوسط نفسه وأقطعوا القبائل القاطنة هذه الأماكن التى يسكنوها بعد إعلان الولاء والتبعية للسلطان يغمراسن.

وإذا كان يغمراسن قد حصن عاصمته بدرع قوى من العرب حين أقدم بنو عامر من الصحراء وأقطعهم نواحى وهران وتلمسان فكانت خير سابقة وأحسن خطة لحماية

العاصمة إلا أنه لم يكتف بذلك؛ بل أسكن فريقاً من القبائل العربية الأخرى كقبيلة عكرمة؛ حيث اسكنها جبل كركرة وكان هذا نوع من التكتيك الحربى وخلق حلف سياسى مع قبائل الدولة العربية واتخاذها كخط دفاع وصد وهجوم وحماية للظهر بل استعمل سلاح الزواج السياسى والمصاهرة لأهداف مستقبلية فخطب بنت السلطان أبى اسحق الحفصى وهو الخليفة الأول، خطب ابنته لابنه وولى عهده عثمان بن يغمراسن.

وقد كانت شخصية يغمراسن بن زيان شخصية مرهوبة الجانب ولها وزنها العسكرى وثقلها السياسى فى منطقة المغرب وكان يخشى بأسها، نظراً لأنه مد نفوذه إلى المغرب الأقصى؛ حيث سجلماسة جنوباً، ومن هنا نجد أن أبا يوسف يعقوب بن عبد المؤمن مؤسس دولة بنى مرين ينظر إلى يغمراسن نظرة شك وريب ويقدر خطورته على الدولة المرينية الناشئة، ومن هنا كان لابد من محاربته ووقف نشاطه التوسعى فعندما عمل أبو يوسف على ضرب الخليفة المرتضى آخر خلفاء الموحدين فإنه عمل على السيطرة على أقاليم الدولة والعمل على تأمينها ضد أى خطر خارجى، وكان هذا الخطر يتمثل فى يغمراسن بن زيان الذى كان يراقب عن كسب بنى مرين نفوذهم الفعلى على أقليم سجلماسة، هذا الأقليم من الناحية السياسية كان تابعاً قبل ذلك لنقوذ بنى مرين.

ومن ثم .. عمل أبو يوسف على توجيه ضربة لخصمة العتيد يغمراسن بن زيان الذى يقف حجر عثره أيام تثبيت أركان الدولة المرينية ويهدد شرق الدولة المرينية دائماً

ويتربص بها الدوائر، وكل ذلك كان بدافع من الانتقام لأن يغمراسن كان قد وقف موقف المساعد والمساند لأبى ديوس الذى سقطت الدولة الموحدية فى عهده وأرسل يغمراسن بيعة لأبى ديوس فى رسالة خاطب بها أبا ديوس قائلاً : إياك أن تطمع بنى مرين فيما لديك فأنا أكفيك شرهم وأنا وأنت يد واحدة فى حربهم وبعد تلك الرسالة شعر أبو ديوس أنه يستطيع مواجهة بنى مرين. وخرج أبو يوسف لحصار مراكش وضيق الحصار على المدينة مما جعله يستنجد بيغمراسن بن زيان أمير تلمسان، وعلى الفور قام يغمراسن بن زياد بشن غارات مكثفة فى أطراف المغرب وخاصة ملوية، ففر أبو يوسف وأرجأ فتح العاصمة والسيطرة مؤقتاً ورفع الحصار عنها وعاد إلى فاس وفى منتصف ربيع الأول ٦١٦هـ/١٢٦٧م. سار أبو يوسف إلى وادى ملوية وكان اللقاء بوادى تلاغ وعبأ كل منهم جهده وعتاده وقواته ودارت معركة طاحنة وحمى وطيس القتال وقتل فيها أبو حفص عمر أكبر أبناء يغمراسن وفر يغمراسن حتى بعد أن لحقت به الهزيمة هو وقومه من بنى عبد الواد وعاد أبو يوسف إلى فاس.

لكن يغمراسن بن زيان كان يتربص بالدولة الفتيه الدوائر ويعمل على إضعافها أو الحد من نفوذها وعلى الجانب الآخر كان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المرينى يرى أنه لابد من كسر شوكة يغمراسن وتقليم أظافره لأن معركة تلاغ لم تكن كافية بالنسبة له وأنها لم تشف غليله ولم تطفئ نار الانتقام من عدو عنيف وشرس فأجمع أمره على غزوهم فى ديارهم، ولكن نظراً لظروف الأندلس؛ فإن أبا يوسف رأى أن يبدأ بيغمراسن ثم يعود لقبيلة طلب بنى الأحمر ولاة غرناطة، لأن يغمراسن يقف مهدداً أمن الدولة المرينية فبعث إليه أبو يوسف يشرح له حقيقة الأمر والصراع الدائر على أرض الأندلس والمخاطر التى تهدد المسلمين فى غرناطة وطلب منه عقد صلح بينهما وأن يتعاونا معاً على إنقاذ وتدعيم الجبهة الإسلامية بالأندلس ولكن يغمراسن بن زيان

رفض هذا العرض بشدة وأقسم ألا يصالحه أبداً حتى يأخذ الثأر منه أو يموت دون ذلك.

وكان ذلك الرد العنيف من يغمراسن يمثل تقصيرا فى خدمة الإسلام والمسلمين فى الأندلس من جانبه لأنه لم يفهم على بداوته طبيعة الأحداث السياسية التى تمر بها المنطقة بل أنه قصوراً فى الفكر الإسلامى وعدم فهم لحركة الجهاد الإسلامى التى تنوى بنو مرين القيام بها فى الأندلس ذلك لأن الأندلس يواجه موقفاً حرجاً على اعتبار أنها آخر المعاقل الإسلامية.

لذا .. أعلن أبو يوسف التعبئة العامة فى أنحاء البلاد وحشد قوات جرارة وعتادا يفوق الوصف وسار يحفزه شعور بالإهانة وجرح الكبرياء من قبل يغمراسن وعدم تقدير للمواقف فى الأندلس فكان لابد من تصفية الحساب وعند وادى ابتسيلى بالقرب من وجدة عام (٦٧هـ/١٢٧١م) دارت المعركة التى انهزم فيها يغمراسن وشفى أبو يوسف يعقوب ظمأه من معركة تلاغ بل أنه لم يكتف بالانتصار هذا بل أراد أن يستثمره بأسرع ما يمكن فتعقب القوات المنهزمة إلى تلمسان.

وتقدم لمحاصرة يغمراسن فى عقر داره فحاصر عاصمته واشتركت معه فى هذا الحصار للعاصمة قبائل يوجين ومغرواه وكانت قبائل يوجين بقيادة زعيمها محمد عبد القوى التسجينى وكانت هذه القبائل قد جاءت لتحارب يغمراسن ولتأخذ بثأرها منه وشدد الرينيون فى حصار المدينة فقطعوا كل صلة لها بمخارج الأسوار وأفسدوا كل شىء حتى أنه لم يبق بتلك الأنحاء قوت يوم، لكنه أكتفى بذلك وقرر رفع الحصار، لكنه لم يفك الحصار للمدينة إلا بعد أن تحركت قبائل يوجين إلى مواقعها ومواطنها الداخلية ووصلت فى تحركها إلى ونشريس وبلغت مأمنها فقد كان أبو يوسف يخاف أن يتبعها يغمراسن أثناء انسحابها وقد أعطى أبو يوسف هذه القبائل كثيراً من مغانم

الحرب وعاد إلى فاس عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م. بعد أن اتخذ بعض الخطوات الدفاعية بإعادة تأمين الحدود الشرقية للبلاد وحصن مدينة تأدنت وبنى بها حصناً منيعاً وذلك لقربها من بنى زيان وشحنه بالمؤن والعتاد والأقواس ليقف مركزاً متقدما لمراقبة يغمراسن بن زيان وتحركاته، وكان قبل ذلك قد أمر بهدم مدينة وجدة وتحطيمها حتى لا يحتمى بها يغمراسن مرة أخرى.

لكن خطر يغمراسن لم ينته؛ فقد تعرض بنو مرين لهجوم من جانب بنى زيان فقد ظن يغمراسن بن زيان أن يضم المغرب من فاس ومكناسة وأن البلاد قد تمزقت وأن العداء والصراع الدائر بين أفراد الأسرة المرينية قد يعطيه الفرصة لتحقيق أهدافه وأن هذه الفرصة قد تمكنه من القضاء عليهم فجمع يغمراسن جيشاً كبيراً من قومه وضم إليه قبائل توجين ومغرواه وبنى عامر العرب ووصلت أنباء هذه الهجمات إلى أبى يعقوب بن عبد الحق فخرج بجيش من بنى مرين والتقى بيغمراسن عند بلدة (كلدبان) فهزم المرنيون بن عبد الواد وانسحب يغمراسن.

وفى هذا الأثناء كان يعقوب بن عبد الحق يراقب أحوال يعمراسن بن زيان فبادر بتجميع قواته وتوجيهها إلى سلا ثم فتحها عنوة، لكن على الجانب الآخر بعد هذا الصراع وجد الأمير يعقوب أنه لابد من عقد صلح مع يغمراسن فالتقى به عند مدينة (هوجريان) وأسفر هذا اللقاء عن عقد صلح آخر بين بنى مرين ويغمراسن زعيم بنى زيان كان أساسه المحافظة على السلم بين الطرفين ووضع أوزار الحرب بينهما جانباً ومعاهدة الصلح هذه التى تمت بين سائر القوى السياسية المتصارعة فى المغرب الأوسط والأقصى أشبه ما يكون بتوزيع لمناطق النفوذ بين القوى المتصارعة.

وفى مجال الصراع بين القوى عبد الوادية والمرينية نجد أن بنى عبد الواد كان قد تم لهم الاستيلاء على مدينة سجلماسة فى جنوب غرب المغرب وخضعت لهم منذ

عام ٦٥٣هـ/١٢٠٥م، لكن بنى مرين كانوا قد تحركوا للاستيلاء عليها ولم يكن الاستيلاء عليها بالقتال بل عن طريق الانقلاب ضد حاكم المدينة وكان يغمراسن قد تحرك للاستيلاء عليها؛ حيث راسله بعض أهلها ولكن يغمراسن فوجئ بوصول الأسير يحيى إليها ودارت بينهما معركة انسحب بعدها يغمراسن بعد أن تأكد من صلابة بنى مرين فى سجلماسة لكن ذلك لم يمنع من سيطرة بنى زيان عليها إذ نجد بعد عشر سنوات يتجدد الصراع ٦٧٣هـ/١٢٧٤م. فنجد بنى مرين يريدون السيطرة على سجلماسة التى لم يبق خارج سيطرتهم إلا تلك المدينة التى كانت هى القاعدة الجنوبية لدولتهم والمفتاح الجنوبى للمغرب الأقصى، وكان الاستيلاء عليها بالنسبة للمرين يعد أمراً حيوياً خاصة وأن يغمراسن بن زيان سيطر عليها وحلفاؤه من عرب المنبات وكان بيعث كل سنة ولداً من أولاده لضبطها وجباية خراجها من عرب المنبات. وتدم أبو يوسف يعقوب نحو سجلماسة بحشود ضخمة وهاجم المدينة واستخدم البارود لأول مرة فى حروبه وظل بنو مرين سنة كاملة يحاصرون المدينة حتى سقطت فى صفر ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وبسقوط سجلماسة أكمل المرنين السيادة الكاملة على بلاد المغرب الأقصى والذى ينظر إلى حال الدولة الزيانية ولم يمض على إعلانها أكثر من عشر سنوات يدرك مدى الأخطار التى تعرضت لها ومدى ما أصابها من مخاطر فى بداية أمرها والظروف الصعبة التى دفعتها دفعاً إلى السلم والمهادنة والمبايعة والاعتراف والتبعية وإلى الحرب ومع أن يغمراسن بن زيان ظل فترة يدعو للموحدين على منابر تلمسان ثم للحفصيين من بعدهم إلا أنه استطاع أن يقود دولته فى مهدها وأن يقود سفينة البلاد وسط الأمواج العاتية وأن يصل بها إلى بر الأمان وأن ينجو من الظروف المحيطة وبذلك استطاع أن يطمئن ولو لفترة قصيرة بأن أمن شر ومكر من يحيطون بها شرقاً وغرباً أما شمالاً فكان البحر المتوسط وجنوباً الصحراء. وهكذا استطاعت الدولة

الزيانية فى عصر يغمراسن أن تقف قوية مطمئنة إلى أن كيانها السياسى قد بات معترفًا به وأنه حقق أهدافه فى البقاء.

« الكيان السياسى بين التوسع والانكماش »

فى حقيقة الأمر فإن قيام الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط ووقوعها بين فكى كماشة حفصية وموحدية ثم بنى مرينية قد ألقى عليها تبعات ثقالا وجعلها تكون دائمًا على أهبة الاستعداد العسكرى معلنة حالة الطوارئ والاستعداد للقاء العدو فى أية لحظة فالأخطار كانت تحدق بها من كل جانب بالإضافة إلى الخطر الداخلى المحتمل من القبائل البدوية؛ حيث طبيعة المغرب الأوسط.

لكن رغم أدراك قادة الدولة بأنهم بواجهون قوى متعددة فإنهم كانوا يحسبون لكل شيء حسابه ويعدون لكل أمر عدته سواء سلمًا أو حربًا كما مر سابقًا ولكنها عملت على كسر الطوق الذى يحاصرها فكان عليها أن تحاول أن تمد حدودها وأن توسع منطقة نفوذها وتحقق كيانا أكبر بأسلوبها الذى تراه فاتسعت الدولة لكن هذا الاتساع لم يكن ثابتًا فبنو زيان بالذات لم تكن لهم حدود ثابتة طوال حكمهم للظروف السابق الإشارة إليها فلم تكن معالم الحدود شرقًا أو غربًا ثابتة، ومعترفًا بها طوال فترات سلطة بنى زيان ، وكانت الحدود بين التوسع والانكماش ولقد كان العامل القبلى من أهم العوامل التى أثرت فى كيان الدولة مما جعلها لا تستقر فى نفوذها علن المنطقة؛ حيث كان المغرب الأوسط يضم مجموعة من القبائل البربرية والعربية وتخضع كل قبيلة من هذه القبائل المتعددة وغير المتجانسة لنظام القبيلة التى لاتستطيع الخروج عليه فكانت كل قبيلة تتعصب لنفسها وتأبى الخضوع لغير سلطان

القبيلة، وفى هذا الإطار والمفهوم القبلى والعشائرى والكيانات الصغيرة قامت الدولة الزيانية.

بل كانت هذة الجماعات البدوية لا تنتظم تحت سلطة حكومية واحدة وأنها عبارة عن قوة من البدو تهدد أمن المجتمعات الحضرية الامنة وكان على بنى زيان العمل على نشر مفهوم الدولة بين هذة القبائل المتعددة وأن تقضى الدولة على التجمعات القبلية المتنافسة وأن تجعلها لا تتصارع داخليا بل يكون صراعها شرقا وغربا لأجل حفظ الكيان السياسى .

وفى هذا الاطار القبلى قامت الدولة الزيانية فقد وجد بنو عبد الواد أنفسهم أكثر قوة من غيرهم ففرضوا سيطرتهم على بقية القبائل ولقد كانت القوة هى المحرك الاساسى لاقامة دولة بنى زيان فلم يحاول بنو زيان عقد تحالف أو تفاهم مع بقية القبائل الاخرى بل انفردوا بالسيطرة على تلمسان وضربوا عرض الحائط ببقية القبائل البربرية والعربية االأخرى لأنهم لمسوا فى أنفسهم أنهم أكبر قوة فى المغرب الاوسط . ومن هنا فقد حاولت القبائل الاخرى الوقوف بالمرصاد لهم ومحاولة ضرب كيانهم السياسى وهذا هو الخطر الداخلى الذى كانت تحاول الدولة كسرة بأية وسيلة . لكن كانت هناك قوى أخرى من القبائل البربرية العربية حاولت ضرب الدولة الزيانية من الداخل فقد وفد زعماء قبائل مغراوة وبنى بوجيين الى أبى زكريا الحفص طالبين منة الاستيلاء على تلمسان مقدمين لة أنفسهم وقبائلهم للوقوف بجانبة فى حالة مقاومة بنى زيان . وكان للعداء التقليدى بين هذة القبائل وزيان التى أحست أنها قد ظلمت من سيطرة بنى زيان على مقاليد الحكم منفردة فى حروب مستمرة مع قبائل المغرب الاوسط لاخضاعها والسيطرة عليها .

اتجهت سياسة بنى زيان منذ الوهلة الاولى الى اقامة دولة قوية ومن هنا كان

يغمر اسن بن زبان المؤسسى الفعلى للدولة وأن يعمل على اتخاذ كافة السبل لاتساع الدولة وسارت سياسة بنى زبان فى خطين متقابلين توصلان فى النهاية الى الهدف المنشود من بناء وتوسيع كيان الدولة وبقائها قوية وكان الخط السياسى الاول هو الاتجاه السلمى ويتمثل هذا الاتجاه فى قيام علاقات حسنة طيبة مع الدولة الأم التى كانت تنشر نفوذها على كل أجزاء المغرب الكبير وهى دولة الموحدين التى كانت لاتزال قوية تحكم من مراكش رغم هزيمة العقاب ٦٠٩هـ ثم بعد ذلك عندما انتزعت بنو مرين السلطة فى المغرب الاقصى من الموحدين واتخاذها فاس عاصمة سياسة لهم وكان على بنى زبان مسالمة هذه القوى الجديدة بل ان سياسة المسالمة مع بنى مرين كانت تمثل عنصرا جوهريا بل اساسيا فى تفكير مخططى السياسة الزبانية ، حيث نجد أن أسلوب المسالمة وللمهادنة سار علية كل من تولى امور الدولة وذلك لأن العاصمة تلمسان كانت تقع على مقربة من خط الحدود مع المغرب الأقصى موطن بنى مرين وفى نفس الوقت تبعد عن أفريقية موطن بنى حفص . ومن هنا كان الخطر من بنى مرين أكثر من بنى حفص . لذلك كانت خشيتهم من الاحتكاك مع بنى مرين هى الدافع الأساسى و القوى وراء مسالمتهم حتى يضمنوا سلامة حدودهم الغربية) .

اما جيرانهم فى الشرق وهم بنو حفص فان بعد المسافة كان يمثل عاملا من عوامل الامان وكان الزواج السياسى أو المصاهرة السلطانية عاملا من عوامل توطيد أواصر الصداقة والمودة ومن ذلك زواج عثمان بن يغمراسن من ابنه الخليفة أبى اسحق الحفصى مما كان له بعد أساسى بعيد المدى فى حسن العلاقة والجوار على المدى البعيد .

وكان الخط السياسى لدى مخططى الكيان الزبانى هو الأسلوب العسكرى بحيث يتوازى مع خط المسالمة وكان وضع بنى زبان الحرج بين القوتين قد جعل الاتجاه

العسكرى أسلوبا من أساليب الحكم والبقاء بل أنه كان سمة بارزة لمد النفوذ والمحافظة على كيان الدولة داخل حدود المغرب الأوسط ومن هنا كان اصطدامهم مع بنى حفص شرقا وبنى مرين غربا فى محاولة كل منهم للسيطرة على المغرب مباشرة و محاولة بنى زيان توسيع دولتهم و تأمين حدودها .

ومن هنا برزت السمة العسكرية فى النشاط التوسعى للدولة وكانت خطة يغمر اسن ومن جاء بعده العمل على توسيع رقعة الدولة وامتدادها ودخولهم فى صراع مع قبائل المغرب الأوسط ومع بنى حفص وبنى مرين حتى تحقق للدولة فى عهد أبي ناشقين الأول الاتساع المرجو من قبل بنى زيان فى أفريقية واستولوا على تونس الا أنه كان امتدادا وقتيا ما لبث أن انكمش وتلاشى أمام ا لهجوم المرينى على تلمسان كما تحقق للدولةاتساعهافى عهد أبى مالك عبد ا لواحد الذى تولى الحكم (٨١٤هـ/١٤١١م) واستطاع أن يوسع رقعة ا لدولة فبسط نفوذها ، على كل المدن والأراضى التى كانت تخضع لنفوذ بنى حفص فى المغرب الأوسط وتوسع غربا حتى استولى على فاس عاصمة بنى مرين .

وهكذا يتضح سياسة الدولة التوسيعية التى اعتمدت على الناحية ا لعسكرية والمحاولات السلمية لاحتواء الأزمات مع جيرانها . وقد نجحت فى المحافظة على وجودها وسط قوى عاتية شرقا وغربا . وهكذا نجح مخططو سياسة بنى زيان فى تنفيذ ما نصحهم به يغمراسن بن زيان فى أمن القوى المعادية سلما و حربا . وسوف ترى فى الصفحات القادمة كيف أدار بنو زيان صراعهم مع بنى حفص وبنى مرين من منطلق السلم والحرب وتحقق لهم المحافظة على كيانهم السياسى من عام ٦٣٣هـ–١٢٣٥م حتى عام ٩٥٧هـ– ١٥٥٠م أى أكثر من ثلاثة قرون وكبح جماحها حتى لا تثور ضد سيادة بنى زيان وكان على يغمر سن أن يحارب مغراوه وبنى يوجين كبرى

القبائل فى المغرب الأوسط حتى استقاموا للأمر وجنحوا للسلم .

وبوفاة يغمر اسن بن زيان . خلفة ابنة أبو عثمان ٦٥٣-٧٠٣هـ ١٨٨٢-١٣٠٤م) فأمضى كل هذه الفترة التى تزيد عن عشرين عاما محاربا للدفاع عن كيان دولتة الذى بدأ يضعف بخروج القبائل عن طاعة بنى زيان بعد وفاة والده وضعف نظام الدولة فما كان من أبى سعيد عثمان الاأن يبذل الجهد الكثير وأن ينبرى لاضعافهم بالقوة .

وكان على أبى سعيد عثمان أن يأخذ حيطتة فى الدفاع عن البلاد ضد غارات بنى مرين وارثه عرش الموحدين فى المغرب الأقصى حيث قاد حملة عام ٦٨٧هـ - ١٢٨٧م بلغ بها أسوار مدينة برجية الواقعة غربا وذلك لصد هجوم أبى يعقوب المرينى لكن نفوذ الدولة كان قد انحسر نتيجة لاحتلال بنى مرين للمغرب الأوسط وحصارهم تلمسان عاصمة الدولة عام ٦٩٨هـ- ١٢٩٨م . لكن يغمراسن كان قد أكمل استعداداتة العسكرية للدفاع عن المدينة حيث كان أعظم ما أنشأه سور تلمسان العظيم الذى يعد أشد أسوار المدن المغربية تحصينا والتاريخ يشهد أن بقية حكم عبد الواد بعد وفاة يغمراسن كانت صراعا متصلا مع بنى مرين خاصة فنجد أنه أيام الخليفة أبى سعيد عثمان الأول بن يغمراسن بن زيان (ذى الحجة ٦٥١ – ذى القعدة ٧٠٣هـ /مارس ١٢٨٢ – يونيو ١٣٠٤م)حاصر بنو مرين تلمسان وهاجم أبو يعقوب يوسف بن يعقوب الناصر المرينى تلمسان ثلاث مرات وعجز عن الاستيلاء عليها بل أن بعض المصادر تذكر أنه حاصرها أربع مرات وفشل فى الاستيلاء عليها لدفاع بنى زيان بسورها العظيم .

وكان سكان المغرب الأوسط ينتهزون دائما الفرص للخروج على سلطة الدولة اذا انشغلت الدولة بمواجهة تمرد خارجى وكان العامل القبلى هو المحرك للدفاع عن

كيان القبيلة والتمرد على السلطة المركزية حيث بلغت الدولة من القوة ما جعل بنى زيان يزحفون فى الاتجاه الشرقى حيث دولة بنى حفص وينتصرون عليهم بعد قتال ضارٍ ويستولون على عاصمة البلادتونس عام ٧٣٠هـ /١٣٢٩م . وتحولت الدولة من الدفاع والتحصن الى الهجوم والتوسع وفرض السيطرة والنفوذ عن الطاعة والبيعة لبنى حفص .

* * * *

الفصل الثانى

الصراع مع بنى مرين

لقد وقفت القبائل فى المغرب الأوسط ضد بنى زيان عند هجوم بنى مرين على تلمسان وحصارهم لها فكانت تضم كل مرةالى جانبهم فوقفت بنو يوجين ومفراق الى جانب بنى مرين أثناء منازلتهم تلمسان ٦٧٠هـ / ٦٨٠ هـ ووقفت مغراوة الى جانبهم أيضا ٦٨٩هـ – ١٢٩٠م . ودانت قبائل المغرب الأوسط لطاعة بنى مرين خالعة طاعة بنى زيان ولم نجد هذه القبائل لذلك سبيلا سوى الانضمام لبنى حفص تارة ولبنى زيان تارة أخرى

وكان التباغض والتناغر والغيرة وراء موقف بنى يوجين من اخوانهم بنى زيان اذ رأو أنهم قد وصلوا الى درجة عالية من التفوق العسكرى ومن هنا .. فإن مناهضتهم ستعود عليهم بالخسران فوقفوا إلى جانبهم أثناء حصار بنى مرين لهم عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م.

بل إننا لا نجد بنى يوجين تقف بمفردها. لكننا نجد أثناء هذا الغزو المرينى للمغرب الأوسط فإن قبائل بنى عامر العربية تقوم بدور إيجابى فى مقاومة الغزو واسترداد أملاك بنى عبد الواد وإعادة دولتهم فبعد استيلاء أبى الحسن المرينى على تلمسان عام ٧٣٧هـ/١٣٣٧م. لم يكن موقف بنى يوحين أقل من القبائل العربية؛ حيث أن بى يوحين وبنى عبد الواد وبنى مرين كلهم من أصل واحد ولذلك نجد العصبية تسيطر على بنى يوجين فينحازون إلى جانب بنى زيان وبذلك كانوا أكثر القبائل حظوة عند بنى زيان.

وفقد بنو زيان استقلالهم وسيطرتهم على المغرب الأوسط (٧٣٧هـ-١٣٣٦م)، ومكثوا اثنى عشر عاما والدولة تخضع للاحتلال المرينى ٧٤٩هـ-١٣٤٨م.

وكان بنو مرين فى هذه المرة قد أقبلوا على تلمسان بكل قواهم وبلغ من تصميمهم على الاستيلاء عليها أن بنوا بجوار تلمسان مدينة سميت (محلة المنصورة) أو المنصورة وكانت مدينة كاملة بميادينها وأسواقها ومساجدها وحماماتها ومتوفرا لها كل المرافق التى تجعلها مدينة مستقلة تعتمد على نفسها وأقام بها قصرا لدار الحكم ومسجداً بل أقام الفنادق والحمامات وأطلق عليها بعض المؤرخين تلمسان الجديدة وكان بنو مرين قد حاصروا تلمسان القديمة ثمانى سنوات تصميماً على فتحها وتعبيراً عن تصميم أبى يعقوب على الاستيلاء عليها واستمر الحصار حتى مات أبو يعقوب وكان مقتل أبى يعقوب بواسطة أحد رجاله يمثل بداية انقشاع الغمة لأهل المدينة الذين قاسوا الكثير خلال فترة الحصار الطويل حتى أنهم من قسوة الجوع أكلوا الكلاب والثعابين وفك الحصار وعقد الصلح بين الطرفين.

واستطاع بنو زيان إعادة النفوذ للدولة على المغرب الأوسط عام ٧٤٩هـ بقيادة أبى سعيد وأبى ثابت الملقب بالزعيم وهما ولدا عبد الرحمن بن يحيى بن يغمراسن بن زيان، ويذكر هنا الفضل الكبير لقبيلة مغراوة التى كان لها دور كبير فى المساعدة والعمل على استعادة النفوذ الزيانى وكانت بعض القبائل قد وقفت ضد الدولة أثناء الحصار الطويل فقام بعدة حملات تأديبية لهذه القبائل واستطاع بنو زيان هزيمتها.

وكانت القبائل العربية لا تقل عصبية عن القبائل البربرية كما لا يقل دورها خطورة وتأثيراً فى اتساع الدولة وامتدادها وانكماشها فقد وقف بنو عامر ضد بنى مرين عندما سيطروا على المغرب الأوسط وظهرت العصبية عندما حاول بنو مرين الاستيلاء على أفريقية.

فنجد بنى عامر قد انتقموا لأنفسهم عندما شرعوا فى تخليص المغرب الأوسط من يد قوات أبى عنان المرينى ووصلت الأخبار بوفاة أبى عنان فاجتمع عرب المغرب الأوسط على مبايعة أبى حمود وحلفائه من عرب بنى عامر ووعدوه المعاونة، فاشتبك بنو عامر مع بنى مرين خارج تلمسان وهزموهم وقتل أميرهم وعاد بنو زيان إلى تلمسان عام ٧٦٠هـ/١٤٥٩م.

غير أن الأوضاع السياسية بدأت تواجه تطوراً هاماً فى سياسة الدولة الزبانية فقد بدأت بعد خروجها من الصراع الدامى مع بنى مرين وهزائمها وانتصاراتها تخطو خطوات نحو تثبيت ملكها إذ أن المحن والشدائد كانت تجد الوسائل للتغلب عليها وكانت سياسة اتباع الهدايا وبذل الأموال والاغراء المادى والسخاء فى البذل وأكياس الذهب والفضة وأقطاع الاقطاعيات من الأساليب التى اتبعتها الدولة الزبانية لكى تفرج عن نفسها شدة الحصار وتكسب ود القبائل فى داخل حدودها السياسية وكان أسلوب المال من أحسن الأساليب للسيطرة على القبائل.

لكن كما سبق القول فإن دولة بنى زبان كان كيانها على أساس قبلى والقبيلة تشكل عصب الكيان ومن هنا يمكن القول أن المواقف المتناقضة بين السلب والإيجاب والمساندة والمساعدة والغدر والطعن من الظهر التى وقفتها قبائل المغرب الأوسط عربا كانوا أم بربرا ليس لها ما يبررها إلا العصبية فكل قبيلة كانت تجد فى نفسها القوة كانت تحاول بكل الوسائل فرض سيطرتها على القبائل الأخرى وهذا ما حدث بالنسبة للدولة الزبانية وأثر على امتداد الدولة واتساعها فى الرقعة المساحية وبسط نفوذها فى المنطقة فعاشت الدولة حياة مضطربة وتسببت الحروب المستمرة داخلياً بينها ومن القبائل ذات العصبية القبلية فى فقد نفوذها أكثر من مرة ولم تكن هذه القبائل سنداً وعدة لتوسيع نطاق الحدود المتعارف عليها بل كانت عامل انحسار وليس انتشارا.

وكذلك لعب الصراع الداخلى بين أفراد الأسرة الزبانية الواحدة من أجل توليه عرش الحكم أثره الكبير على قوة الدولة وفقدت نفوذها على البلاد وخاصة المنطقة الشرقية التى دب فيها الخلاف بين أمراء الأسرة الزبانية فنادرا ما كان الوفاق يسود بين الأمراء أثر وفاة حاكم وعند تعين خلف له فالصراع ممتد والذى يدرس تاريخ تولية الأمراء يجد الانقسام والقتل وتقسيم الدولة بين عدة أمراء وبدلاً من التوحد كان التشرذم والتقوقع داخل مساحات ضيقة واستعانة بالخصم للانتصار على أفراد العائلة وتولية مقاليد الأمور والاستعانة بقوى خارجية.

ومن ثم .. فإن الدولة الزبانية كانت تعيش فيما يشبه الحرب الأهلية بين أبنائها وأبناء أبى حمود على وجه الخصوص وأصبحت الدولة تعيش حالة من الفوضى. فنجد مثلا أثناء الصراع الذى دار بين أبى زيان وأبى حمو حول السلطة تدخلت القبائل العربية وثار عرب بنى زيد وناصروا أبا زيان فأسرع أبو حمو بارسال قواته التى قامت بتدمير وطنهم وأصاب أبو حمو مقتلا بعمله هذا مما جعل القبائل العربية من بنى زيد تعلن طاعتها وتخلع تأييد أبى زيان.

الخطر المرينى يتجدد

كان الخطر المرينى من أهم العقبات التى وقفت فى طريق تقدم الدولة الزبانية واتساعها وتحقيق أهدافها فى التقدم والتحضر والزدهار وبناء دولة مستقرة وثابتة الأوطاد. فالذى يتابع أحداث الغزو المرينى على تلمسان العاصمة والمغرب الأوسط نجد أنه عدوان متكرر ومستمر ولم ينقطع ألا ليعود أشد قوة وأشد ضراوة وأكثر تصميماً على السيطرة والتدمير واثبات الوجود وبناء المدن والتوسع على حساب الدولة الزبانية.

فنجد أن الدولة دخلت فى صراع جديد مع بنى مرين إلا أن السلطان أبا حمو الثانى استطاع إعادة نفوذ بنى زيان من جديد (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) وطرد بنى مرين من تلمسان وعندما هاجم أبو سالم المرينى تلمسان عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م خرج منها أبو حمو وقام بالاعتداء على حدود المغرب الأقصى مما اضطر أبا سالم إلى رفع الحصار عن المدينة ونصب أبا زيان على المدينة خلفاً لأبى حمو الثانى ولكن أبا حمو قاوم هذا التعيين من قبل المرينيين مما اضطرهما للدخول فى قتال استطاع فيه أبو زيان أن ينتصر على أبى حمو عام ٧٦٨هـ/١٣٣٦م. وبذلك استطاع أبو زيان بالصراع العسكرى الداخلى والقتال أن يضعف قوة الدولة الزبانية فى المنطقة الشرقية بل جاء الاستيلاء على تلمسان. وعلى كل .. فإن أبا زيان الملقب بالقبى استطاع انهاك قوة الدولة الزبانية وكانت حروبه عائقاً دون اتساع الدولة وقد حكم أبو زيان سعيد أربع سنوات أعاد فيها النظام إلى الدولة وخلفه أبو حمو موسى الأول الذى أكمل إصلاح تلمسان واتخذ سياسة التوسع شرقاً نحو حوض شليف حتى وصل قسنطينة وبجاية ولكن ولدة أبا تاشفين قتله عام ٧٤٨-٧٦٨هـ/١٣١٨-١٣٣٧م والذى كان يستعجل الحكم فى البلاد.

وكذلك زحف بنو مرين على تلمسان والمغرب الأوسط عام ٧٩١هـ/١٣٨٨م بقيادة أبى فارس بن السلطان أبى العباس لكن سلطان بنى زيان أبا حمو اضطر لترك العاصمة والتحصين بالحبال للدفاع عن كيان الدولة إلا أنه قتل فى المعارك على الرغم من مساعدة قبائل بنى عامر العربية له.

وعلى هذا .. فإن المعارك بين دول المغرب الأربع بنى زيان، بنى حفص، الموحدين ثم بنى مرين لم يتوقف طوال القرن الثامن الهجرى، الرابع عشر الميلادى وهى حروب عظيمة وطويلة المدى ومتكررة ولم تنته؛ بل كانت غارات كروفرو

متواصلة، وهى حرب عقيمة لا قيمة ولا فائدة ترجى من ورائها سوى حب السيطرة والنفوذ وكانت نهاية هذه الحروب أضعاف هذه الدول جميعًا وخصوصًا بنى عبد الواد الذين توقفت تجارة بلدهم وانهكتها الحروب وانتهت بأن احتلتهم بنو مرين عام ٧٣٨هـ/١٣٣٧م وخربوا تلمسان ولما اعتلى أبو تاشفين عرش الدولة الزبانية أقام الدعوة والبيعة لأبى عباس المرينى صاحب المغرب الأقصى وخطب له على منابر المغرب الأوسط وظل أبو تاشفين تابعًا فى إدارته لبنى مرين حتى وفاته ٧٩٥هـ/١٣٩٢م، وقام أمير المؤمنين أبو فارس عبد العزيز بن السلطان أبو سالم بن أبى الحسن من ملوك بنى مرين قام بمهاجمة تلمسان واستولى عليها وأقام دعوة أبيه أبى العباس المرينى وحققت الدولة الزبانية خضوعًا تامًا لبنى مرين إدارة وسياسة إلى أن توفى السلطان أبو العباس المرينى فاستدعى بنو مرين أبا فارس من تلمسان ليحل محل أبيه فى العرش المرينى وأرسلوا أبا زيان بن حمو ليتولى أمر البلاد تحت طاعة بنى مرين (٧٩٦هـ/١٣٩٣م) وتولى أمر تلمسان.

الصراع مع بنى حفص

ولقد كان أبو تاشفين الذى أعلن خضوعه لبنى مرين يرى أنه لا أمل فى التوسع غربًا؛ حيث القوة المرينية التى يهابها فما كان عليه إلا أن يتوسع شرقًا فحاول إخضاع قسنطينة وبجاية لنفوذ دولته وحدث صراع بين القوتين الحفصية الزبانية وبين بنى زيان ودخلوا تونس واستولوا عليها.

ولما رأى بنو حفص ازدياد قوة بنى زيان بحيث أصبحت تشكل خطرًا فعليًا على وجودهم بأفريقية وتهدد أمن المغرب الأدنى فإنه لم يكن أمامهم إلا طريق واحد وهو

الاستعانة ببنى مرين لوقف هذا الهجوم ومحاولة درء الخطر الزيانى الذى بات يهدد كيان بنى مرين أيضاً لأن ضم الأراضى الحفصية والاستيلاء على تونس يجعل من بنى زيان قوة كبرى تستطيع أن تقف وتهدد طموحات بنى مرين وهذا ما كان يخشاه المرينيون، فلبوا نجدة بنى حفص لضرب القوة الزيانية والوقوف أمام اتباع المد القادم من المغرب الأوسط وكسر نفوذ بنى زيان ونتج عن ذلك حصار تلمسان من قبل بنى مرين (٧٣٥هـ-٧٣٧هـ/١٣٣٤-١٣٣٦م). وكان معنى هجوم بنى مرين من الغرب وبنى حفص من الشرق على بن زيان فإنهم وجدوا أنفسهم لا يستطيعون الحرب فى جبهتين فسقطت تلمسان فى أيدى بنى مرين وفرض النفوذ المرينى على سكانها.

وفى حقيقة الأمر فإن تبادل الحروب بين القوى الثلاث قد استنفد قواها وجعلها فى حروب متواصلة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

لكن الظروف التاريخية كانت تفرض نفسها فأعداء الأمس صاروا أصدقاء، فإن الدور الحفصى لم يقف فى طريق التوسع الزيانى دائماً، ذلك أنهم فى بعض الفترات التاريخية ساعدوا بطريق غير مباشر على إعادة نفوذ بنى زيان عندما وقفوا إلى جانب أبى حمو الثانى فساعدوه لطرد بنى مرين المسيطرين على المغب الوسط والذين كانوا يتطلعون لبسط نفوذهم السياسى والعسكرى والقيادى على أفريقية والمغرب كله وإزاحة بنى حفص كما أزاحوا بنى زيان للانفراد بالسلطة الفعلية فى المغرب الكبير.

واستطاع أبو حمو الزيانى عن طريق دعمه بجيش تم تسليحه بواسطة بنى حفص أن يتمكن من استعادة تلمسان مرة أخرى ولكن عندما عاد بنو زيان لتوسيع دائرة النفوذ الزيانى بالعدوان على قسنطينة وبجاية فى عهد أبى حمو الثانى وقف لهم بنو حفص بالمرصاد لأن بنى حفص كانوا دائماً يحاولون ضرب نفوذ أية قوة من المغرب الأوسط يشتم منها رائحة تهديد نفوذهم فى أفريقية وكانت لهم سياسة مزدوجة أو

اللعب على كل الأطراف واحتواء عدو الأمس وعداوة صديق الأمس، فساعدوا بنى مرين للاستيلاد على تلمسان، ثم ساعدوا أبا حمو الثانى فى القضاء على النفوذ المرينى بالمغرب الأوسط، ثم ضربوا بنى زيان بعضهم بالبعض أثناد الصراع من أجل السلطة، فنجد بنو حفص يساعدون أبا زيان بن السلطان أبى سعيد فى مزاحمة أبى حمو الثانى فى توليه عرش تلمسان.

والذى يتمعن فى مواقف بنى حفص من دولة بنى زيان يدرك أن محاولاتهم هذه تتجلى فى الوقوف بكل الوسائل والسبل ضد اتساع الدولة سلباً أو إيجاباً.

فقد انتصر بنو حفص على جيش أبى حمو فى بجاية؛ حيث أن هذا الانتصار قلل من شأن الدولة بين عرب المغرب الأوسط وأضعف جانبها أمام قوة أبى زيان الذى أصبح لأول مرة يمتلك قوة لا يستهان بها فى المغرب الأوسط، واستعان بالقبائل العربية فى حصار قسنطينة وبجاية، ولكن أبا بكر سلطان بنى زيان استعان ببنى مرين يهاجموه من الغرب وحاصروا عاصمته وكان بنو حفص يمدونهم بالعون والعتاد العسكرى والقوات المشاركة فانهزمت جيوشه ودخلت جيوش بنى مرين بمساعدة بنى حفص عاصمته بل أصبحت دولته جزءاً من دولتهم قرابة نصف قرن حتى استعادها بنو زيان ولقد كافأ أبو زيان أنصاره وحلفاءه من العرب العامرية والمعتلية حينما وفدوا لتهنئته بالانتصار فكساهم جميعاً رغم كثرتهم.

محاولات بنى زيان للإخلال بميزان القوى فى المغرب

درج بنو زيان منذ عهد مؤسسها الأول أبى يحيى يغمراسن بن زيان (٦٣٣-٦٨١هـ/١٢٣٥-١٢٨٢م) على التوسع فى الأقاليم الشرقية المجاورة لكيانهم

فى المغرب الأوسط والتى تخضع لنفوذ وسيطرة الأسرة الحفصية الحاكمة فى تونس. وقد أتيحت لهم فرصة إلحاق هزيمة فادحة بالدولة الحفصية وذلك لأنه فى عام ٧٢٩هـ/١٣٢٨م تمكنت قوات بنى زيان والتى كانت قائمة أساساً على القوى العسكرية من إلحاق هزيمة كبرى بالسلطان الحفصى أبى يحيى بن أبى زكريا واستولوا على الأراضى الواقعة شرق حدودهم حتى دخلوا العاصمة تونس وسيطروا عليها وسقطت عاصمة الدولة فى أيدى قوات بنى زيان.

وقام بنو عبد الواد فور دخولهم عاصمة الخلافة الحفصية بنتصيب أحد عملائهم وهو محمد بن أبى عمران حاكماً لتونس بدلاً من سلطان الحفصيين، إلا أنه أثناء اقتحام بنى زيان العاصمة تونس فإن الخليفة أبا يحيى بن أبى زكريا الحفصى استطاع الهروب وحاشيته من العاصمة والالتجاء إلى بجاية ومن هناك أرسل وفدا يرأسه ولده الأمير أبو زكريا ومعه وزيره أبو محمد بن أفراكين للاستنجاد بالسلطان المرينى أبى سعيد ضد اكتساح القوات الزبانية لدولته وقد أحدث وصول هذا الوفد أثراً كبيراً لدى السلطان المرينى والدوائر الحاكمة فى العاصمة فاس مما كان له صدى عميق فى نفس السلطان خاصة وولى عهده الأمير أبو الحسن.

ومما لا شك فيه أن وصول هذه الأنباء المتعلقة بسبب الغزو الزبانى قد جعلت خليفة بنى مرين وهو الذى كان يراقب بنى زيان مراقبة دقيقة جعلته يشعر بالخطر فى ازدياد القوة الزبانية واستيلاء أبى زيان على تونس. وضم هذه الديار للمغرب الأوسط وتوحيد المغرب الأدنى والأوسط تحت قيادة واحدة يشكل تهديداً لقوة بنى مرين وإخلالاً بموازين القوى فى المغرب، ذلك لأن وجود بنى حفص فى أفريقية (المغرب الأدنى) والحفاظ على دولتهم من شأنه أن يكبح جماح بنى زيان.

ومن ثم .. كانت هذه الحادثة تمثل نقطة تحول خطيرة فى سياسة بين مرين

قبل المغرب الأوسط والأدنى إذ بدأ المرينيون يخططون سياستهم على أساس التوسع للقضاء على أى خطر يهدد دولتهم من اتجاه الشرق حيث دولة بنى زيان.

ومن هنا .. أخذت الاستعدادات العسكرية تتم على قدم وساق والتجهيزات العسكرية والحشود تتأهب للانطلاق شرقًا بقيادة ولى العهد أبى الحسن بن أبى سعيد الذى كان على الميمنة، والسلطان أبى سعيد على رأس القوات جميعها من المتطوعين العرب، وبنى مرين وتحركوا عام (٧٣٠هـ/١٣٢٩م) ووصلوا فى تحركهم حتى وصلوا بالقرب من منطقة وادى ملوية وتمركزوا حتى جاءت الأنباء من المشرق بأن السلطان أبا يحيى بن زكريا الحفصى استطاع استعادة عاصمة بلاده وطرد الغزاة –بنى زيان– من أفريقية ومطاردتهم حتى حدود بلادهم. وقام السلطان أبو سعيد المرينى باستدعاء الأمير أبى زكريا ووزيره أبى محمد بن تاقركين وأمرهم بالعودة إل يتونس بعد أن حملهم بالهدايا التى تليق بعظمة خليفة تونس وبهم وأرسل معهم القاضى المرينى وابن العزفى لخطبة ابنة السلطان الحفصى لولده الأمير أبى الحسن، وقد نجح الرسولان فى مهمتهما ووصلت العروس إلى فاس عام ٧٣١هـ/١٣٣٠م.

ومن ذلك .. فإن دولة بنى زيان لم تترك فرصة حتى تتحينها لتوسيع دائرة نفوذها وتوسيع مجال سيادتها وتحقيق حكم مؤسسها يغمراسن بن زيان بأن تكون دولتهم القوة الوحيدة فى المغرب وكان عددهم ثمانية آلاف ووهب رؤوساهم الخيل الأصيلة والأسلحة؛ بجانب ما منحهم من المال.

ومنذ بداية النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى خصوصاً خلال فترة حكم السلطان أبى حمو ازدادت قوة عرب بنى عامر وحلفائهم من القبائل العربية بالمغرب الأوسط وضعف قبائل زبانة فتملكت رغبة سائر البلاد بالاقطاع من الساحل طوعاً أو كرهاً حتى طردوا زنانة إلى سيف البحر (الساحل)، وفى الواقع فإن دفاع هذه القبائل

عن المغرب الأوسط هو فى الواقع دفاع عن مصالحها من الضياع، وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل فى حروبهم ضد بنى مرين التى أرسلها الوزير الحسن بن عمر لاسترداد تلمسان والحاقهم الهزيمة بها حتى اضطروهم إلى الانسحاب وهم عراة حتى حدود الدولة المرينية فى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م، وبعد أن حققت القوات العربية انتصارها عام ٧٦٠هـ/١٣٥٩م .. فإنهم ثاروا على السلطان زيان وعزلوه ووضعوا مكانه أبا حمو موسى الثانى (٧٦٢- ٧٩١هـ/١٣٦١-١٣٨٩م)، الذى كان لا يميل إلى الحرب، ولذا .. أمضى أيامه فى سجن الثائرين ضده ومصارعة وقتال كل من ادعى المطالبة بالعرش على الرغم من تأييد ومساندة بنى مرين له وكان من بين المتآمرين عليه ابنه، وكانت الحروب طويلة وشاقة اضطر السلطان خلالها أن يهرب من عاصمته ليحاول بين مرة وأخرى أن يعيد الانتعاش إلى دولته؛ بل عاصمته التى خربها الثائرون وأخيرًا نجح ابنه أبو تاشفين الثانى فى قتله، وقد مات والسيف فى يده يدافع عن نفسه.

* * * *

الفصل الثالث

الدولة الزبانية فى أوج مجدها

شهدت الدولة الزبانية أمجد فتراتها التاريخية فى عهد السلطان أبى مالك عبد الواحد بن السلطان السعيد أبى حمو موسى الثانى (٨١٤ - ٨٢٧هـ/ ١٤١١-١٤٢٤م) إذ نلاحظ أنه عندما تسلم مقاليد الأمور خلفاً لوالده أنه وضع كل همه فى بناء جيش قوى جهزه بأحدث أسلحة العصر ودربه على أحدث الطرق القتالية؛ لأنه منذ نعومة أظفاره، وهو يسمع قصص وحكايات تدمير بلاده من قبل القوى الغربية بنى مرين والقوى الشرقية بنى حفص، وكان عليه أن يكسر شوكتهما معا وأن يجعل السيادة له على تلك الدول، ومن خلال هذا المنظور العسكرى والسياسى استطاع أن يعيد للدولة كيانها وسمعتها حتى عهد جده يغمراسن بن زيان فاسترجع كل الأقاليم التى كانت تحت سيطرة بنى حفص قسنطينة وبجاية وغيرها من المدن القريبة عام (٨١٤هـ/١٤٢٢م)؛ بل انه لم يكتف بذلك ويقف عن هذا !! فقد كان يرى ضرورة كبح جماح القوى المرينية التى استولت على عاصمته وعاصمة أجداده مرات عديدة فلابد من الدخول معها فى صراع ضارٍ بعد أن أعد للأمر عدته وحشد كل طاقاته فتحركت قواته غرباً إلى الحدود المرينية ولكن إلى العاصمة فاس التى استطاع أن يستولى عليها وأن يدمر قوة بنى مرين وأن يعين عليها أميراً من قبله لكن ازاء هذا الانتصار الواسع على الجبهتين كان على بنى حفص أن يأخذوا للأمر عدته وأن يستعينوا بكل القبائل العربية فى بلادهم فوقفوا بالمرصاد للتوسع الزيانى كما كانوا يفعلون سابقاً وشنوا حملة على الدولة الزبانية انتصروا فيها انتصاراً سريعاً باتباع أسلوب الغدر والخيانة والدس والخديعة واستطاعوا دخول تلمسان عام (٨٢٧هـ/١٤٢٣م)

وعينوا عليها أميرا من قبلهم لكنه كان من بين أفراد الأسرة الزبانية المنشقين على أبى مالك عبد الواحد وهو الأمير أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحمرة (٨٢٧هـ/١٤٢٣م) ابن السلطان تاشفين الثانى وخضع بنو زيان لسلطة الدولة الحفصية وأخذ بنو حفص من ذلك الحين يلعبون دوراً هاماً فى أمور الدولة الزبانية فهم الذين يولون أمير البلاد، وهم يعزلون من لا ترضى عنه السياسة الحفصية ولا يحقق أهدافها فى الحكم.

وكانت بنو حفص كلما رأوا اتساع نفوذ بن زيان .. عملوا على انحسار ذلك النفوذ دائماً.

الصراع المرينى -الزبانى خلال القرن الثامنى الهجرى- الرابع عشر الميلادى

وقفت بنو مرين كما وقف بنو حفص للدولة الزبانية بالمرصاد وطال أمد الصراع حتى أن الباحث فى تاريخ المغرب الإسلامى خلال تلك الحقبة التاريخية يجد أن هذه الدول الثلاث كان بينها من العدوان والصراع ما جعل الصراع يستمر خلال ثلاثة قرون وأن هذا الصراع لم يكن فى صالح القوى الإسلامية بقدر ما كان سبباً فى المطامع الأوربية التى رأت أن انهاك هذه القوى الثلاث فى صالحها فكان أن وضعت عدتها للاستيلاء على هذه الديار وبالذات المدن الساحلية لقطع مواردها الاقتصادية واضعافها أكثر مما هى فيه من ضعف، ولو أن هذه القوى الثلاث وحدت قواها أو على الأقل تعاونت لصالح الإسلام والمسلمين لكان ذلك من الأسباب القوية التى كانت تعيد للإسلام قوته فى الأندلس لقد كان قيام هذه القوى الثلاث وبالاً على دولة

الموحدين، ومن ثم وبالاً على المغرب العربى والأندلس بصفة خاصة. أن الباحث المتعمق لا يستطيع أن يفهم الأسباب الحقيقية وراء هذا الصراع أن زناتة (بنى عد الواد) وزناتة (بنى مرين) كان الأمثل أن يكون بينهما تعاون ووحدة وتضامن وليس تطاحن وتصارع دون أن يحقق أدنى هدف سوى مصلحة أعداء الإسلام فى الأندلس وعودة لترصد بنى مرين وبنى زيان طوال القرن الثانى الهجرى. ندرك أن بنى مرين لعبوا دوراً هاماً فى كبح جماح بنى زيان وتقليم أظافرهم والوقوف بالمرصاد لهم حتى تكون لهم دولة قوية تستطيع أن تلعب دوراً على مسرح الأحداث العالمية ولكن جعلها دولة محلية أو تابعة وليست من الكيانات الكبرى التى تلعب دوراً له تأثير فى مجريات أحداث حوض البحر المتوسط الغربى؛ بل عمل بنو مرين على انحسار الدولة وانكماشها بل انكسارها، لتتقوقع داخل حدود ضيقة، ولقد عمل بنو مرين على احتواء بنى زيان واخضاعهم فى هذه الحالة كان يسمح لهم بالتوسع المحدود وليس فى الحدود القريبة ولكن شرقاً حيث بنى حفص فالتوسع والانحسار كان يرتبط برغبة بنى مرين وكان ذلك مرتبطاً بعلاقة بنى زيان وبنى مرين فتأخذ الدولة فى الاتساع كلما حسنوا علاقتهم مع بنى مرين، ثم فى الانحسار إذا ساءت العلاقة ومن هنا أخذت الدولة فى مسالمة بنى مرين واستطاع بنو زيان أن يوسعوا دائرة نفوذهم فى المغرب الوسط عندما تكون الأمور على خير ما يرام مع بنى مرين وعندما يكون هناك ود وصفاء أو الهدايا أو المساعدات العسكرية والعتاد ففى هذه الحالة استطاع بنو زيان أن يستولوا على كثير من أراضى المغرب الأوسط وضمها إلى نفوذهم.

وانحسر نفوذ الدولة وضاقت رقعتها وتقلصت أقاليمها وكيانها نتيجة للاحتلال المرينى للمغرب الأوسط وحصارهم تلمسان (٦٩٨هـ/١٢٩٨م) ثم عادت الدولة الزيانية إلى محاولة بسط نفوذها على المغرب الأوسط على المغرب الأوسط فى عهد ابن

تاشتين الأول؛ حيث استطاع بنو زيان اخضاع المغرب الأوسط كله لنفوذهم واستطاعوا السيطرة على تونس. ويتقرر دور بنى مرين فى انحسار قوة الدولة عندما استنجد بهم بنو حفص وأرسلوا إلى بنى مرين، إلا أن أبا الحسن المرينى تحرك إلى تلمسان ورسم مع بنى حفص خطة الهجوم وحاصروا تلمسان سوياً فى عام ٧٣٥هـ/١٣٣٤م، وفى عام ٧٣٧هـ/١٣٣٦م استولى بنو مرين على جميع أراضى المغرب الأوسط وأنهوا حكم بنى زيان لهذه المنطقة. وهكذا أساء بنو زيان لأنفسهم وتسببوا فى هذا الهجوم الحفصى المرينى المشترك عندما ردوا شفاعة بنى مرين فى بنى حفص.

ولم يقف بنو مرين عند هذا الحد؛ بل كرروا هجومهم على تلمسان فى عهد أبى سالم المرينى وأوغل صوب تلمسان عام ٧٦١هـ/١٣٦٩م وما فعله أبو حمو فى المرة الأولى فعله فى المرة الثانية؛ فقام بقواته متقدماً نحو حدود المغرب الأقصى فأجبر بنى مرين على ترك تلمسان وعاد أبو حمو إلى تلمسان عازماً على بسط نفوذه على سائر بلاد المغرب الأوسط فاشتبك مع حمايات بنى مرين وزحف بنو مرين إلى تلمسان واستطاعوا دخول العاصمة عام (٧٧٢هـ/١٣٧٠م)، واستقر السلطان أبو فارس المرينى بتلمسان وجعلها مقراً له إلى أن مات بها عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م؛ فاضطرب بتأثر ذلك أحوال العرش المرينى وعاد بنو مرين إلى فاس تاركين على تلمسان أحد أمراء بنى عبد الواد وهو السلطان إبراهيم بن السلطان أبى ناشفين الأولى وقام بطرد السلطان أبى حمو ودخل تلمسان، لكن بنى مرين يعودون للهجوم على تلمسان مرة أخرى ٧٨٦هـ/١٣٨٤م. ثم يتركون السلطان إبراهيم ويعودوا للمغرب الأقصى بعد أن قاموا بهدم المدينة فعاد أبو حمو إلى عاصمته فعمرها بعد أن خربها بنو مرين. وعمر مسجد تلمسان الجامع وكان آية فى الجمال فى عهد حكم بنى زيان الذين عمروا البلاد، وعادت البلاد إلى سابق عهدها ومجدها ومدت سلطانها حتى بجاية من بلاد الحفصين بمساعدة عرب بنى هلال من الزواودة وبنى معقل من عبد الله بن بنى رياح.

وكان للعرب موقف مشرف فى غزوة عام ٧٦١هـ/١٣٦٠م ذلك لأنه عندما زحف أبو سالم المرينى لغزو تلمسان فإن قبائل زغبة بزعامة بنى عامر تمكنت من ارغامه على الانسحاب من تلمسان أيضاً وذلك بمهاجمتهم مدن الحدود المرينية مثل مطاط، بلاد ملوية وكر سيف مما أجبرهم على الانسحاب.

ولم يقف دور بنى مرين عند هذا الحد؛ بل تعداه إلى مساعدة بعض أمراء الأسرة الزباينة المنشقين عليها، ومن هنا يمكن القول أن بنى مرين قد أثروا فى اتساع الدولة الزبانية واستطاع بنو مرين إيقاف نشاط الدولة التوسعى؛ بل كثيراً ما خضعت بلاد المغرب الأوسط لطاعتهم وكان ذلك يقتضى بذل الجهد من جانب بنى زيان لاستعادة نفوذهم على تلك البلاد.

وعملت الدولة على إخضاع المنطقة الشرقية للبلاد الواقعة بجانب الحدود الحفصية، ففى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م. قاد أبو يعقوب والد أبى حمو جيشاً اتجه به صوب المناطق الشرقية لإجلاء بنى مرين عنها واستطاع هزيمة بنى مرين وقام أبو حمو عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م بحملة ضد قبائل مغراوة ومشايخها الذين ساعدوا بنى مرين ضد الدولة وأخضعهم للنفوذ السياسى للدولة.

وبعد أن تم الصلح بين أبى حمو الزيانى وأبى سالم تنازل بنو مرين عن مدينة تدلس، وهران والجزائر لبنى زيان وحققت الدولة أزهى عصورها فى عهد أبى حمو الثانى، إلا أن الحروب مع القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط ومع بنى مرين أضعفت من قوة الدولة وجعل همها الأول وشغلها الشاغل هو الحفاظ على بقائها وحماية حدودها وكبح جماح القبائل الثائرة بالداخل واستمر الحال حتى احتل بنو مرين تلمسان عام ٧٩٥هـ/١٣٩٢م.

* * * *

الفصل الرابع

القبائل العربية ودورها فى بناء الدولة

لعبت القبائل العربية دوراً هاماً وبالغاً فى مساعدة الدولة الزيانية منذ عهد مؤسسها الأول يغمراسن بن زيان (٧٥٣-٧٩١هـ/١٣٥٢-١٣٨٩م). وكان لها دور لا ينكر منذ الوهلة الأولى لقيام الدولة لاسيما مساعدة قبائل بنى عامر للدولة فى مهدها واتخاذ يغمراسن لها كحائط بشرى وسد منيع للدفاع عن تلمسان العاصمة وسكناهم بأطرافها وبجوارها ليكونوا عوناً لها عند ساعة الخطر وذلك لبسط ونشر اللسان والثقافة العربية بين جموع السكان.

وعلى الرغم من أن القبائل العربية فى المغرب الأوسط فى دولة بنى زيان لم يكن لهم كيان سياسى مستقل أو كيانات شبه مستقلة كما كان لاخوانهم الذين يعيشون داخل حدود الدولة الحفصية إلا أن تجمعات قبائلهم كانت تلعب دوراً بين السلب والإيجاب بين مساعدة ومساندة الدولة وبين الانقلاب عليها ومساندة بنى مرين تارة وبنى حفص تارة أخرى وبين تأييد أمير ضد أمير وبين الثورة على الدولة والخروج على الشرعية وبين الهجرة خارج الحدود والاحتماء بالدولة والخروج على الشرعية وبين الهجرة خارج الحدود والاحتماء بالدولة الشرقية بنى حفص والدولة الغربية بنى مرين؛ إلا أنه رغم كل هذا كان لهم دور مشهود وخالد فى صفحات تاريخ هذه الدولة.

ولقد أحسن بنو زيان منذ الوهلة الأولى لقيام دولتهم وسيطرتهم على العاصمة تلمسان؛ أنه لابد من محالفة القبائل العربية التى استقرعت بالمغرب الأوسط خصوصاً عرب زعبة الذين جمعهم وزيان عصبية الحلف ومن هنا .. كان استقرار بنى عامر

بجوار تلمسان. ولقد زادت مكانة شيوخ هذه القبائل لدى مؤسس الدولة يغمراسن بن زيان وزادت ثقته فى بعضهم لدرجة أنه كان يتولى أحد مشايخ العرب أمر العاصمة أثناء خروجه بحملات خارج البلاد.

ولقد حالف بنو زيان عرب المعقل، وبالذات فرع عبد الله فقد كان سبب مجاورتهم للدولة مع الناحية الغربية على الرغم من أنهم كانوا يسكنون صحراء المغرب الأقصى لكن اشتراك الحدود؛ حيث أن موطنهم كان بين تلمسان ووجده. وبعد أن تمكن بنو زيان من تأسيس دولتهم جعلوا عرب المنيات تحت خدمتهم وأولوهم حكم سجلماسة والسيطرة على مقاليد الأمور بها وذلك لثقتهم بهذه القبائل وكذلك لعمق التحالف؛ حيث أن موطنهم كان بالمغرب الأقصى ما بين ملوية ودرعه.

وهنا نلاحظ كيف أن القبائل العربية من عرب المعقل كان لهم دور فى نشر نفوذ بنى زيان وفرض سيادة الدولة على مدينة سجلماسة ومساعدة عرب المنيات لهم فى جباية الخراج والضرائب.

وفى عهد الأمير أبى حمو فإن نفوذه امتد إلى درعه مما جعل واليها وأحلافه من عرب المعقل يلجأون إلى بنى عبد الواد فقام والى درعه (عبد الله بن مسلم) بنقل معظم عرب المنيات والعمارنة إلا ضواحى تلمسان وجعلهم فى منطقة سكنى مع بنى عامر.

ولما كثرت ثورات أمراء بنى عبد الواد بسبب الصراع حول السلطة واحقية أى من الأمراء فى هذا الأمر فإن بعض بطون القبائل العربية مثل زغبة الذين كان بنو الواد قد طردوهم إلى الصحراء فى أثناء قوة الدولة فإنهم فى فترة الصيف عادوا إلى التلول حيث خصوبة الأرض ووفرة المعيشة واعترفت الدولة لهم بذلك واقطعهم السهول

والأمصار مقابل المخالفة والمساندة والطاعة وعدم التمرد على الدولة حتى يمكن الأمراء من مقاومة الغزو الخارجى القادم من الشرق والغرب والاستحواذ على السلطة فى البلاد والقضاء على منافسيهم المتطلعين للحكم من العاصمة تلمسان.

ولما كانت المنطقة الشرقية من البلاد هى منطقة احتكاك وصراع بين بنى زيد وبنى حفص فإن بنى زيان بعد أن بسطوا سلطانهم على المغرب الأوسط اقطعوا بنو زيد من بطون زغبة منطقة بجاية فاستقروا فيها وقاموا بحماية بجاية من غارات البربر الصنهاجية وكافأتهم الدولة بالاقطاعات الواسعة بجوار مدينة بجاية وصارت من أملاكهم وتمكن بنو زيد من الاستقلال بأوطانهم وتوزيع جبايتها وخراجها على بطونهم أثناء ضعف الدولة وانقسام الأمراء والحكام على أنفسهم.

وأثناء الصراع الذى دار حول تولى السلطة بنى أميرين من أمراء الدولة الزيانية هما أبى حمو وأبى زيان فإن القبائل العربية انقسمت على نفسها بين مؤيد لهذا ومعارض له ولكن بعد انتصار أبى حمو فإنه انتقم من القبائل التى وقفت ضده وساندت أبو زيان.

وكانت فكرة يغمراسن من نقل بنى عامر وبنى زيد إلى جواره بصحراد تلمسان من أجل الأفكار التى صانت للدولة بقاءها واستمرارها أكثر من ثلاثة قرون إذ أنهم أثناء الغزو المرينى للمغرب الأوسط كانوا هم الدرع الواقى للدولة وهم الذين كانوا يقومون بدور كبير فى مقاومة الغزو واسترداد أملاك بنى عبد الواد وإعادتهم لدولتهم واستمرارهم فى الحكم بل أنهم كانوا يردون الصاع صاعين لبنى مرين؛ فقد انتقم بنو عامر لأنفسهم عندما شرعوا فى انقاذ المغرب الأوسط من يد قوات أبى عنان المرينى وقد وصلت أخبار بوفاته فاجتمع عرب المغرب الأوسط جميعاً على مبايعة أبى حمو ومحالفيه من عرب بنى عامر ووعوده بالمساندة والمعاونة فى التصدى لخصومه، فاشتبكوا

مع عرب مؤيد حلفاء بنى مرين خارج تلمسان وهزموهم شر هزيمة وقتل أميرهم وعاد أبو حمو للعاصمة فى ٧٦٠هـ/١٣٥٩م وإزاء هذا الهجوم لم يجد ابن السلطان أبى عنان المرينى وكان واليا على المدينة سبلاً الا القرار. وقد قدرت القيادة الزيانية دور بنى عامر فى إعادة الدولة اليغمراسية ونددوا بهزيمة الأعداء وكافأ أبو حمو أنصاره من بنى عامر. وهذا يفسر لنا استماتة هذه القبائل فى حروبهم ضد قوات بنى مرين التى أرسلت لاستعادة تلمسان وإلحاقهم الهزيمة بهم.

ولقد كانت القبائل العربية هى التى تقف بالمرصاد لكل زحف مرينى يريد النيل من استقلال الدولة والسيطرة على تلمسان ومن ذلك نجد أنه فى عام ٧٦١هـ/١٢٣٦٠م عندما زحف أبو سالم المرينى لغزو تلمسان فإن قبائل بنى عامر العربية تمكنت من إرغامه على انسحاب من تلمسان بل أنها ظلت تطارد قواته المنسحبة وقامت بالهجوم على مدن الحدود المرينية.

ومن هنا يتضح مدى اعتماد الدولة اليغمراسية على القوات العربية من بنى عامر واحلافهم وارتباط ذلك باستمرار بقوة الدولة ذلك عندما حدث خلاف بين أبى حمو وزعيم القبائل العامرية فإن هذا القبائل تحالفت مع أبى زيان العدو اللدود لأبى حمو ومع قوات من بنى مرين وقادت هذه التحالف قبائل بنى عامر وقامت بمهاجمة بلاد منداس من المغرب الأوسط وزحفت إليهم قوات الدولة ولكنها هزمت هزيمة نكراء عام ٧٦٥هـ/١٣٦٤م.

ومن هذه الواقعة أدرك أبو حمو أهمية القبائل العربية من بنى عامر وغيرهم من العرب فهادنهم وبذل لهم الأموال الكثيرة واقطعهم ما طلبوه من البلاد إلا أن ازدياد نفوذ أبى زيان خارج العاصمة دفع أبا حمو للاستقرار فى العاصمة تلمسان.

ولما خذل عرب المغرب الأوسط أبا حمو وساندوا أبا زيان اضطر لطلب النجدة والمساندة من عرب رياح بأفريقية بزعامة الزواودة فلبوا طلبه وانتصر على الثائرين عليه عام ٧٦٣هـ/١٣٦٧م وقتل الكثير من أعدائه ولكن ما أن انسحبت رباح إلى أفريقية حتى وقعت الهزيمة بأبى حمو وكاد أن يقتل لولا مساندة عرب أولاد عسكر بن معروف العامرى الذين دافعوا عنه حتى عاد للعاصمة واضطر للجوء إلى بنى عامر وزحف بهم عام ٧٧٠هـ/١٣٨٦م لمهاجمة أبى زيان وانتصر عليه وعاد إلى تلمسان.

وفى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م بعد انحسار الغزو المرينى عن المغرب الأوسط عاد أبو حمو الثانى والى تلمسان مع أنصاره من العرب وتغيرت سياسة بنى زيان تجاه عرب أولاد عريف بعد أن قام زعيمهم بدور رئيسى فى عقد معاهدة صداقة بين أبى حمو وبنى مرين، وكذلك قام زعيم عرب عريف باقناع أبى زيان بن عم السلطان حمو ومنافسة على السلطة بالمغرب الأوسط بالاستقرار بأفريقية والإقامة بأوطان عرب رباح مقابل مبلغ من المال يدفع له بصفة دورية.

ومن هنا .. نرى كيف أن القبائل العربية كانت تتدخل بما لديها من نفوذ بين الأطراف الدولية المتصارعة مثلما حدث بين بنى زيان وبنى مرين ومساندة السلطان حمو وكذلك فى حل المشاكل الأسرية بين الأمراء المتصارعين وإيجاد السبل للمصالحة وحتى يعود الهدوء وتسود الحياة المستقرة بالمغرب الأوسط. ومن هنا كان للمغرب الدور الفعال فى استقرار الدولة.

لكن تحالف الدولة اليغمراسية مع قبائل عريف أثار ثارة أولاد عامر فحدثت بينهم معارك وبين القبائل العربية فى المغرب الأوسط انتهت بترك بنى عامر لسكناها بجوار تلمسان والهروب إلى الصحراء. لكن قبل نهاية دولة بنى زيان وحتى استيلاء الأتراك على الدولة وسيطرتهم على المغرب الأوسط فقد استمر عرب بنى عامر كحلفاء

مخلصين للدولة اليغمراسية يساهمون بقواتهم فى جيش سلطان تلمسان لطرد الغزاة الأسبان من البلاد.

ومن هنا .. لم يكن العرب دعاة فرقة بقدر ما كانوا دعاة توحيد وتضامن. ولم يكونوا ثائرين بقدر ما كانوا يأبون الظلم والتعسف والاضطهاد كانوا عدة دولة بنى حفص وبنى زيان وكان دورهم فى الدفاع ضد العدو لاينكر ولا يجحد وكان دورهم فى التحضير والرقى والتعمير والتشييد والبناء الزراعة واستصلاح الأراضى وتعميرها وإدخال محاصيل جديدة هم بناة؛ فلم يتعالوا على إخوانهم أبناء المغرب بل خضعوا للقيادة البربرية فى أفريقية والمغرب الأوسط. والحكم يطلق هنا على الأغلبية وذلك لأن أغلبية القبائل العربية خضعت لنفوذ الدولة وساهمت بدور فعال لا ينكر فى كل إدارات الدولة لكنه ليس معنى ذلك أنه لا توجد أعداد قليلة من القبائل العربية كانت دائماً تخرج على القانون والدولة شأن غيرها من القبائل العربية فى ذلك الوقت؛ بل إن العرب الثعالبة مثلا شاركوا بجنودهم وقواتهم إلى جانب بربر بنى توجين رغم العداء بينهم وبين بنى زيان، ورغم فقد الثعالبة لمكانتهم فى دولة بنى زيان، ومن هنا كان عداؤهم للدولة ومناصرة أعدائها من بنى توجين أو بنى مرين وأيضاً الدولة الحفصية لكن قوات أبى حمو الأول (٧١٢هـ/١٣١٢م) قامت بمهاجمة الثعالبة فى سهل منتيجة واخضاعهم لنفوذ الدولة وكذلك حاصرت قواتهم مدينة الجزائر وضمتها إلى أملاك الدولة (٧٧٠هـ/١٣٦٨م)، وظهر موقف الثعالبة العدائى للدولة عندما ثار أبى زيان ضد أبى حمو فانضم الثعالبة لأبى زيان ودعوا له بين أهل الجزائر ومليانه حتى اجتمع جميع عرب المغرب على دعوته ومبايعته وتمكن العرب من الاستيلاء على مدن تنس ومستغانم ووهران وفـرغوان، مما دفع أبى حمو لاستمالة العرب لكى ينقضوا عن أبى زيـان وتأييـده.

كذلك فإن عرب ذوى عبيدة كانوا من الخارجين على بنى يزان نظراً لقرب مواطنهم من حدود الدولة المرينية فقد انحازوا إليهم فى غزوهم للمغرب الأوسط؛ بل اعتمد المرينيون عليهم كجنود وفرسان ضمن قواتهم، فأثناء غزو أبى الحسن المرينى لتلمسان حالفوه وعاونوه وأسند إليهم غزو قصور الصحراء جنوب مدينة وجدة كذلك فإن عرب حصين بن زغبة كانوا دائماً يرحبون بكل غازٍ للمغرب الأوسط على مواطن استقرارها وجاورها بعد انحسار الغزو المرينى عن تلمسان استقر عرب حصين بن زغبة بجبل تيطرى وبايعوا أبا زيان أثناء الفتنة مع ادراك أبى حمو ضعف موقفه فخرج إلى الجزائر ليستعين بقبائل حصين والثعالبة ضده لكن ابنه أبى تاشفين تمكن من عزله واعتقاله بوهران ٧٨٨هـ/١٣٨٧م. وهرب أخوته المستنصر وأبو زيان وعمر أبناء أبى حمو إلى عرب حصين واستقروا بينهم.

كذلك فإن قبائل سويد ناصبت بنى زيان العداء واشتركوا مع قوات بنى مرين وكسبوا طاعة القبائل العربية بالمغرب الأوسط لحساب حلفائهم من بنى مرين مما جعلهم فى وضع متميز فى الدولة المرينية خصوصاً.

وهكذا .. نرى أن عدم خضوع بعض القبائل العربية للدولة والثورة عليها إنما يكون راجعاً إلى وقوع ظلم عليها أو بسبب تحالف الدولة مع قبائل عربية تناصب الأخرى العداء. لكن على كل الأحوال فإن القبائل العربية قد أدت دورها كاملاً فى الدولة.

وهكذا نرى أن القبائل العربية لعبت دوراً كبيراً فى استقرار دولة بنى عبد الواد فى علاقتها مع جيرانها فى الحرب والسلام. وقد يؤيد ذلك أن معظم السفارات التى تبودلت بينها وبين جيرانها الحفصيين والمرينيين كانوا من زعماء القبائل العربية فى أفريقية والمغرب كما فى عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م؛ فقد كانوا دائماً حمامة سلام ورسول

محبة وتصالح ولم يكونوا أبدا دعاة حرب وإثارة واضطراب كما حاول أن يصور ذلك أعداء العروبة والإسلام من كتاب الغرب المتعصبين فقد كان رسول أبى زيان إلى ابن عمه أبى حمو طالباً للصلح زعيم قبائل رياح، كما كان رسول بنى مرين لطلب الصلح إلى بنى زيان هو زعيم قبائل عريف وكانوا دائماً مصدر خير ومحبة فى التوفيق بين المتشفين فى الأسرة المرينية.

لقد اصطنعت قبائل البرب انساباً عربية حتى تتساوى مع القبائل العربية؛ بل حتى يتم اخضاع العرب لهم. وكذلك عمدت بعض الدولة المغربية ذات الأصل البربرى (بنى حفص، بنى عبد الواد، بنى مرين) إلى الاستناد للأصل العربى والنسب النبوى وكذلك مصاهرة القبائل العربية المقدمة بالمغرب فتزوجوا النساء العربيات واستخدموافى الحجابة والكتابة رجالا من العرب. ولعل هذا الانقسام نتيجة لقيام ثلاث دول متنازعة على انقاص دولة الموحدين حتى اضطرت كل دولة من هذه الدول إلى الاعتماد على بعض هذه القبائل المستقرة ببلادها اعتمادا يكاد يكون تاما؛ بحيث صار من الصعب على سلاطين وخلفاء هذه الدول الحفاظ على بلادهم فى حالة تخلى هذه القبائل عنهم. فاعتمدت الدولة الحفصية على قبائل رياح ثم على قبائل بنى سليم وكرفه من عرب الأشبج بعد أن تمردت رياح عليهم، كذلك حالف بنو زيان قبائل زغبة التى استقرت بالمغرب الاوسط وعرب ذوى عبيد الله وذوى منصور المنبات وأولاد حسين والعمارنة من المعقل أما الدولة المرينية؛ فقد اعتمدت على القبائل العربية المستقرة ببلادها بقيادة عرب سويد لاستعادة أملاك الدولة الموحدية فى المغرب الأوسط وأفريقية التى استولى عليها بنو حفص وبنو زيان. ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى إلى تطور مفاهيم القبيلة العربية بالمغرب وقد شاركت القبائل العربية هذه دولة بنى زيان

فى النواحى الإدارية العسكرية والتعليمية والقضائية فاقطعتهم الأراضى وأضافت إليهم مزيداً من الاقطاعات واضطرت لإقرارهم على ما بأيديهم بمقتضى مرسوم صادر من السلطان بالتقليد والخلع واسندت إليهم الوظائف الإدارية مثل الجباية ووظائف القضاء والفتيا إلى العلماء من هذه القبائل خصوصاً فى المدن التى تسيطر القبائل العربية على نواصيها وازدادات شيوخ القبائل العربية لدى حكام بنى زيان بحيث عين منهم الوزراء والكتاب وكان منهم من ينيب عن السلطان فى حالة خروجه للحرب وتصدروا المجالس السلطانية وأصبحوا ضمن أهل الشورى للسلطان وانضم بعضهم إلى مجلس منادمته فى خلوته كما اختار السلاطين منهم بعض وزرائهم وسفرائهم إلى جيرانهم من الملوك.

ولقد أثرت هذه القبائل العربية فى الحياة الاقتصادية لدولة بنى زيان تأثيراً ملحوظاً فنقلوا إلى المغرب الأوسط وغيره خبراتهم الطويلة فى تنمية الثروة الحيوانية وتأثرت بعض القبائل الزيانية بخبرة القبائل العربية فى هذا المضمار فأخذوا عنهم تربية الخيول وتحسين أنسابها كما أسندت إليهم الدولة الزيانية إدارة مراعيهم وتربية أنعامهم فقام العرب من سويد بإداراتها كما سيطرت القبائل العربية على طرق التجارة الداخلية فلا يجتازها غيرهم إلا بخفارة أحدهم ووسعوا نطاق هذه التجارة بين التل والصحراء واحتكروا تموين بعض المدن الأفريقية مقابل توزيعهم لمنتجاتهم ولقد كان لعرب بنى عامر الدور الرئيسى فى مساعدة بنى عبد الواد فى قيام دولتهم المستقلة فى المغرب الأوسط والحفاظ عليها من هجمات أعدائها بنى حفص فى الشرق وبنى مرين فى المغرب.

لقد تجلت حضارة العرب فى معاملتهم مع سكان البلاد؛ فقد كانوا دائماً يجيرون من يلجأ إليهم ومن ذلك فإنهم قاموا بمساعدة أمير سجلماسة الأمير محمد بن عبد الحليم؛ حيث قامت طائفة من عرب الأخلاف بحراسته حيث هرب لاجئاً بجوار بنى مرين.

ذلك فإنه فى أحلك الظروف السياسية التى مرت بدولة بنى زيان؛ فقد كانوا هم السند والعزة فبعد أن ضعفت دولتهم كان العرب من أولاد عريف وعرب سويد سنداً لها وتمكيناً لوجودها فى الاستمرار فى حكم بلاد المغرب الأوسط.

وفى تاريخ العرب فى المغرب الأوسط عامة أمثلة كثيرة على حسن الجوار ومسئولية الجوار وقدسية الجوار فقد آثرت القبائل العربية قتل أبنائها على تسليم من أجير بها أو الغدر به حتى لو أدى الأمر إلى القتل على جميعهم، فعندما كانت تشتد الأمور فى حصار تلمسان ويهرب الأمير أو السلطان إلى العرب يطلب الاستجارة بهم فإنهم كانوا يجيرونه ويرفضون تسليمه للسلطان كذلك أجار عرب الزواودة بأفريقية المغضوب عليهم من الدولة الحفصية أو الهاربين خوفاً من بطش حكامها أو اللاجئين طلباً للحماية مما جعل القبائل العربية فى صراع دائم مع الدولة.

وهكذا .. نرى كيف كانت القبائل العربية دائماً السند والقوة والمساندة والمساعدة للدولة؛ بل كانت هى الحصن الذى يحمى دفاعات الدولة وقت الشدة، ومن هنا كانت نظرة يغمراسن بن زيان مؤسس الدولة الزيانية بعيدة جداً حين استعان بقبائل بنى عامر العربية لكى تكون الدرع الواقى لحماية العاصمة تلمسان والدرع الذى يصد هجمات الأعداء من الداخل والخارج، وعلى هذا .. كان الدور العربى فعالاً ومؤثراً فى بناء الدولة الزيانية وحفظ تواجدها طوال هذه القرون الثلاثة التى كان الوجود العربى فيها هو المؤثر الفعال لهذا الكيان السياسى فى المغرب الأوسط.

* * * *

الفصل الخامس

علاقات الدولة بالدول المجاورة

كان موقع الدولة الزيانية الجغرافى وسط المغرب أو فى المغرب الأوسط له دور كبير فى التطور السياسى لبلاد المغرب كما أن الموقع المتوسط كان له أثر العلاقات مع جيران الدولة بالشرق والغرب ولما كانت تلك الدراسة تتناول الدول الثلاث بنى حفص فى المغرب الأدنى (أفريقية) وبنى زيان فى المغرب الأوسط (الجزائر) وبنى مرين فى المغرب الأقصى .. فإن العلاقات فيما بينهما سوف تكون فى فصل خاص نظراً لارتباط عناصر الدراسة مع بعضها البعض ونظراً لأن الدراسة تقع فى جزء واحد فإذن ليس هناك من الدواعى أن تكرر فصل العلاقات عند الحديث عن كل دولة من هذه الدول الثلاث.

ولقد حاولت الدول الثلاث ضرب نفوذ الآخر. وهذا التنافس بين القوى الثلاث قد جعل بنى زيان دائماً فى شغل شاغل فقد اهتموا بتأمين دولتهم الشابة والتى يريدون لها البقاء وسط هذا الصراع، وفى ظل هذه الظروف الصعبة والحروب المتصلة والقتال المستمر، عاشت دولة بنى زيان، ولذا .. فإنه يمكن القول بأن علاقة الدولة الزيانية قد غلبت عليها الناحية العسكرية.

وقد ارتبطت دولة بنى زيان بعلاقات مع الأندلس ومصر وبلاد السودان وكذلك مع الدولة الشرقية المجاورة لها وهى بنى حفص والدولة الغربية بنى مرين وكانت دولة الموحدين من الدول التى أقامت بينها وبين عبد الواد علاقات وسقطت هذه الدولة تحت ضربات الجيش المرينى وحتى لايتكرر حديث العلاقات فسوف نلقى هنا حديثاً عن الموحدين وعلاقاتهم ببنى زيان.

علاقات بنى زيان مع الموحدين

الذى ينظر إلى أحداث المغرب يجد أن علاقة بنى زيان بالموحدين كانت فى أول أمرها علاقة فيها نوع من التبعية نظراً لإعلان بنى زيان البيعة للخليفة المرتضى بالله، وذكر اسمه على منابر تلمسان والخطبة له. ثم تطورت إلى صراع مسلح ثم إلى تعاون عسكرى بينهما؛ بل إن الناحية العسكرية كانت السمة البارزة فى علاقة بنى عبد الواد مع الموحدين. وكان بنو عبد الواد يسكنون ضواحى مدينة تلمسان ويتخذونها عاصمة لهم ويبسطون نفوذهم على القبائل التى تقع سكانها فى المغرب الأوسط، فكان طبيعياً أن يجتكوا بأية قوة تحاول اخضاع هذه المنطقة التى تقع تحت نفوذهم. وهذه المحاولة كانت تمنع محاولة الموحدين السيطرة على المغرب الأوسط وقد وقفت بنى عبد الواد ضد الموحدين ودخلوا فى صراع مسلح انتصر فيه الموحدون وأخذت العلاقة شكل التبعية والمبايعة بالخلافة الموحدية.

ووقف بنو عبد الواد مع الموحدين ضد بنى مرين وهذا الموقف وضعهم فى مقدمة الدول التابعة للموحدين خاصة أنهم أوقعوا بتعاونهم مع الموحدين هزيمة فادحة بقوات بنى مرين وهى فى التطور لمحاولة تكوين دولة على حساب الموحدين، وفى الوقت الذى ضعف فيه مركز الموحدين السياسى والدينى فى بلاد المغرب بدأ بنو زيان دخول تلمسان وتبعيتهم للموحدين وعلى الرغم من عدم خشية الدولة الزيانية بل كان الموحدون يخطبون ود يغمراسن (٦٤٠هـ-١٢٤٢م) مؤسس دولة بنى زيان قدم للخليفة الموحدى المرتضى هدية بالغة وراسله بشأن التعاون والوقوف عسكرياً ضد بنى مرين.

وفى بعض الفترات التاريخية استطاعت الدولة الزيانية أن تصل إلى درجة الدخول فى صراع مسلح وعسكرى مع الموحدين ولم يجد الموحدون بدًا من الاتصال بأبناء

عمومتهم بنى حفص حكام أفريقية (المغرب الأدنى) لتقديم العون العسكرى والدعم لهم ومعاونتهم فى حرب بنى زيان وكسر شوكتهم والوقوف ضد قوتهم النامية والتى تتطلع لتلعب دوراً أساسيا فى بلاد المغرب وواورثة تركة الموحدين قبل ظهور قوة بنى مرين، ولكى ينفذ بنو زيان إلى رضاء بنى حفص على حساب الموحدين وكسر التعاون بينهما والذى كان سيقضى على قوتهم فى المهد .. فإنهم خرجوا من هذا المأزق السياسى بأن خلعوا الدعوة على منابر تلمسان للموحدين واستبدلوا بدلاً منهم بنى حفص.

وبعد هذه البيعة خضع المغرب الأوسط تحت طاعة بنى حفص بدلاً من الموحدين الذين عقدوا العزم على ضرب النفوذ الحفصى بالمغرب الأوسط وأفريقية ومنع محاولاتهم للسيطرة على بنى زيان واستطاع السعيد الموحدى أن يجهز جيشاً كبيرا حاصر به تلمسان عاصمة بنى زيان (٦٤٦هـ-١٢٤٨م) وعندما علم يغمراسن بن زيان بهذه الحشود الموحدية الضخمة ترك تلمسان وتحول إلى حرب عصابات وكرووفر واصطياد قوات الموحدين بين الوديان والشعاب مما أثر فى هزيمة الموحدينَ وقتل قائده السعيد الموحدى، وبهذا الانتصار السريع والخاطف على قوات الموحدين استطاعت الدولة الزيانية النامية أن تشد انتباه سكان المغرب الأوسط والقوى المعاصرة فى الأندلس وأفريقية ومصر والدول النصرانية فى حوض البحر المتوسط الغربى. .

لكن العداوة تحولت إلى علاقة تعاون وصداقة؛ فقد تعاون الطرفان عسكرياً ضد بنى مرين عندما استطاعوا إلحاق الهزيمة ببنى مرين وقتل بنو زيان شيخ بنى مرين فى ذلك الوقت وأرسلوا رأسه إلى عبد المؤمن بن على، وفى الوقت الذى كان فيه بنو زيان على درجة من الندية مع الموحدين كان بنو حفص وبنو مرين بالمغرب الأقصى يبذلون جهداً لضرب الموحدين وإسقاط دولتهم وكان عليهم فى نفس الوقت إرضاء بنى زيان

للوقوف فى وجه بنى حفص والاستعانة بهم ضد بنى مرين.

وتم توقيع معاهدة صداقة وتعاون بين بنى زيان والموحدين وكان فحوها أن يلبى يغمراسن نداء الموحدين فى حربهم ضد بنى مرين، ولكن التعاون العسكرى بين بنى زيان والموحدين لم يكتمل ويتخذ خطوات فعلية للتنفيذ وخوض معارك مشتركة فنظراً لأن بنى مرين أدخلوا الخوف فى قلوب بنى زيان للابتعاد عن الموحدين، وإذ كان التعاون العسكرى بين بنى زيان والموحدين لم يكتمل فى عهد الخليفة السعيد إلا أنه اكتمل فى عهد الخليفة الموحدى المرتضى وأبى دبوس.

ويلاحظ أن مرحلة التعاون هذه فإن الموحدين فى عهد المرتضى وأبى دبوس تركوا بنى زيان يحاربون بنى مرين وحدهم، وكان يراود نفس يغمراسن بن زياد أنه كان يريد أن يجعل نفسه الوريث الوحيد للدولة الموحدية حتى يتمكن من تحطيم القوة المنافسة له وهى بنى مرين. لكن امكانيات الدولة الزيانية والمشاكل التى تقف فى طريقه حتى توحيد قبائل المغرب الأوسط وتأمين الجبهة الشرقية ضد عداوات بنى حفص وقلة قواته وانقسام القبائل الزيانية فى المغرب الأوسط ومنها بنو توحين ومغراوة كل هذه العوامل وقفت حجر عثرة فى طريق الوصول إلى الهدف المنشود؛ حيث استطاع بنو مرين أن يرثوا عرش الموحدين وأن تكون لهم السيادة فى المغرب والأندلس وأن يعلنوا الخلافة المرينية ويتخذوا لقب أمير المؤمنين.

وبهذا .. فإن تعاون وعلاقات بنى زيان الطيبة مع الموحدين فى معظم فترات تاريخهم لم تأخذ البعد الذى كان يطمع فيه يغمراسن بن زيان، لكن هذه العلاقة ساعدت على احتفاظ يغمراسن بعرش بلاده والعمل على حفظ التوازن فى العلاقات بين القوى المتصارعة لاسيما أن الحفصيين كانوا يتطلعون إلى المغرب الأقصى وعلى العكس كان بنو مرين يتطلعون إلى المغرب الأدنى والسيطرة على أفريقية بعض الفترات

التاريخية. وفى كل هذه الأحوال كانت هذه القوى عندما تتعرض للهجوم تخطب ود بنى زيان. فكم من مرة عقدت معاهدات صادقة مع الموحدين ومع بنى زيان ومعاهدات صداقة وتعاون مع بنى زيان وبنى حفص ومعاهدات صداقة وحسن جوار مع بنى مرين. ومن هنا استغل يغمراسن علاقته مع الموحدين فى بناء الدولة وتنظيم هيكلها الداخلى وبناء قوة عسكرية عملت لها كل الأطراف المتصارعة الحساب وطلب نجدتها عند الشدة والدخول فى صراع معها عندما تحس بضعف الدولة الزيانية.

علاقات بنى زيان مع مصر

لقد كان دور مصر الواضح فى العلاقات السياسية مع بلاد المغرب ومع بنى زيان فى تلمسان، وقد تنوعت العلاقات بينها وبنى مصر فى العصر المملوكى، والذى ظهر على أشده بعد انتصارات مصر على المغول، والتتار، والصليبيين؛ فقد كانت رابطة الإسلام والتبادل الثقافى ودور الأزهر؛ ثم رابطة الحج باعتبار مصر مجاز الحجاج المغاربة إلى الأراضى الحجازية المقدسة.

وقد أورد ديوان الإنشاء المصرى فى العصر المملوكى صور رسائل متبادلة بين سلاطين المماليك وسلاطين بنى حفص وبنى مرين، وكذلك سلاطين تلمسان من بنى زيان؛ فقد كتب السلطان برقوق الذى كان دائم الاتصال والكتابة إلى سلاطين بلاد المغرب فنجد أنه كتب عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م كتابا إلى كل من أبى العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر الحفصى سلطان تونس، وكذلك كتابا آخر فى نفس السنة إلى سلطان تلمسان بن بنى عبد الواد، وكتابا ثالثا إلى السلطان فاس وأنه حمل إلى سلطان تلمسان هدية فاخرة عبارة عن القماش والطيب والقسى، وحمل السلطان أبو زيان بنى

أبى حمو هدية عظيمة عاد بها الرسول المملوكى إلى القاهرة.

ومن هنا فإن العلاقات والصلات المصرية مع أمراء بنى زيان فى تلمسان (الجزائر) قد اتسمت بالمودة والأخوة؛ حيث كما ذكرنا تبادل سلطانها أبو زيان بن أبى حمو الهدايا مع السلطان المملوكى؛ بل أنه حين رغب السلطان برقوق عام ٧٩٩هـ-١٣٩٧م فى شراء الخيول الأصيلة العربية من المغرب بعث برسائل وهدايا إلى صاحب تلمسان أبى زيان بن أبى حمو يطلب ما يحتاج إليه من الخيول وعادت رسل السلطان برقوق محملة بالهدايا ومعها الخيل العتاق المنتقاة، وهكذا .. تعددت العلاقات وازدادت الروابط بين مصر فى عهد السلطان برقوق وابنه فرج وبين سلاطين تلمسان مما يعتبر من أقوى الأدلة والشواهد على وحدة التاريخ العربى الإسلامى.

ويبدو أن عرب ذباب المستقرين فى المنطقة الممتدة من برقة إلى قابس كانوا متخصصين بتجارة الخيول ونقلها من بلاد المغرب الأوسط وأفريقية إلى الدولة المملوكة بالقاهرة؛ حيث يقول ابن سعيد فى كتابة بسط الأرض فى الطول والعرض أن مجالات ذياب من حد قابس إلى برقة ولهم غرام بحمل الخيل إلى الاسكندرية، ويجد منهم الحجاج معونة فى ذلك الطريق الشاق.

وكانت هدايا دولة بنى زيان إلى الدولة المملوكية بمصر الخيول، وذلك عند مرور ركب الحج المغربى بالقاهرة فى طريقه إلى الأراضى المقدسة.

وحرص سلاطين المماليك بمصر على الاستزادة من خيول بلاد المغرب الأوسط وأفريقية لما تمتاز به من الشدة والصبر على المتاعب والسرعة الفائقة؛ فقد كلف السلطان الظاهر برقوق ابن خلدون بالكتابة إلى أبى زيان سلطان تامسان بأن يرسل له الخيل العتاق فأرسل ثلاثين من الجياد العربية الأصيلة، وقد وصلت هدية صاحب تلمسان مع الملوك فطولب المكلف بتربية الخيول.

كذلك ارتبطت مصر تجارياً واقتصادياً مع المغرب الأوسط؛ حيث كانت البلاد والموانئ الساحلية الممتدة من الاسكندرية شرقاً إلى طنجة غرباً كلها مرتبطة بعلاقات تجارية واسعة، ومنها تلمسان وبونة وبجاية والجزائر وشرشال وتنيس ووهران، وقد لعبت هذه الموانئ دوراً فى الترابط الاقتصادى بين مصر وبين دول المغرب وخاصة الواقعة تحت النفوذ الزيانى، وقد أشار المقريزى فى مناسبات كثيرة إلى العلاقات التجارية، التى كانت تربط التجار المغاربة وتجار الأسكندرية، ونظراً لشدة حاجة سلاطين مصر إلى الخيول العربية الأصيلة؛ فقد كانت تصل من المغرب صحبة التجار والرسل الذين يرسلهم السلاطين للمماليك. كذلك كان التجار المصريون يذهبون بمنتجات بلادهم إلى هذه البلاد لبيعها فى بلاد المغرب.

ولعل أكبر دليل على الترابط الاقتصادى بين مصر وبلاد المغرب ذلك العدد الكبير من التجار المصريين والمغاربة الذين كانوا يرحلون سنوياً فى قوافل كبيرة العدد إلى بلاد وسط وغرب القارة الأفريقية لكى يقوموا بعملية التبادل التجارى مع تلك البلاد. ولقد امتاز العصر الملوكى فى مصر بذلك النشاط الاقتصادى الواسع النطاق، ولقد كان سلاطين المماليك قبل سقوط دولتهم عام ١٥١٧م لا يدخرون وسعاً فى تقوية الروابط الاقتصادية بينهم وبين بلاد المغرب.

ولقد كانت الصادرات والواردات تمثل محاولة المجتمع المغربى لسد حاجاته بتصدير الفائض من حاجته واستيراد ما يتطلبه؛ فإن النظرة فى حركة التصدير والاستيراد بين مصر وبلاد المغرب ما هى إلا جزء من حلقة التكامل الاقتصادى بين دول العالم الإسلامى.

ولما كانت مصر طريقاً للحجاج الوافدين من بلاد المغرب فطالما انتهز هؤلاء الحجاج فرصة الحج ليحطوا الرحال بمصر والأزهر فترة طويلة أو قصيرة يغترفون خلالها

العلم والمعرفة من الأزهر ويتعرفون على الحضارة الإسلامية التى كانت مزدهرة بالقاهرة، وهكذا .. كان دور مصر ودور الأزهر واسعاً فى المغرب.

ولقد كان رواق المغاربة من بين الأروقة المشهورة الكبيرة فى الأزهر الشريف؛ حيث كان يتخرج فى هذه الأروقة العلماء الذين كانوا يرحلون إلى المغرب، وبعض منهم يفضلون البقاء للتدريس فى الأزهر. وقد وصل العديد من علماء بلاد المغرب إلى تولى منصب مشيخة الأزهر، وأخذ هؤلاء العلماء المغاربة يتعاونون مع رفقائهم المصريين فى حمل رسالة العلم فى الأزهر.

وعلى الجانب الآخر؛ فقد لعبت مدينة تلمسان عاصمة دولة بنى زيان بمدارسها ومعاهدها المختلفة التى أنشأها سلاطين بنى زيان دوراً كبيراً فى إثراء حركة الثقافة المغربية وفى جميع الحياة الثقافية على أرض المغرب ذلك لأن تلمسان منارة أخرى من منارات الفكر الإسلامى كما أنها لعبت دوراً ثقافياً مؤثراً فى المغرب الأوسط؛ بل دوراً مماثلاً فى خدمة الإسلام جنوب الصحراء الكبرى، إنها شاركت القيروان وفاس والمدارس الإسلامية الأخرى على أرض المغرب فى بسط الثقافة العربية الإسلامية، كما أن كثيراً من علماء تلمسان ساهموا فى بناء حركة الفكر والثقافة العربية الإسلامية فى البلاد العربية المجاورة، ومن ذلك رحيل الشيخ التلمسانى المغربى إلى السودان؛ حيث نزل على الشيخ محمد بن عيسى سوار الذهب، وكان له باع طويل فى العقائد فجذب إليه المريدين من أنحاء مملكة الفونج.

وهكذا .. يكون الدور الذى لعبته مصر فى إثراء الحركة الثقافية هو الدور الواضح. وأن كل المؤشرات الإسلامية وإن كانت قدمت من الجزيرة العربية إلا أنها طبعت بالطابع المصرى فى كثير من الأمور، ومن هنا شد أبناء المغرب الرحال إلى القاهرة؛ حيث كان الجامع الأزهر أكثر قدرة على العطاء لاسيما فى المذهب المالكى

الذى كان مذهب أهل المغرب جميعاً فسواء فى المغرب الأدنى والأوسط والأقصى. وهكذا .. ظهر مذهب مالك بصورة قوية ومن ثم بدأ يتغلب على المذاهب الأخرى واشتد سلطان الفقهاء والمغاربة المالكين فى الحياة الثقافية، وهكذا كان لمصر دور خاص فى تغذية فقه مالك عن طريق الفقهاء المغاربة الذين درسوا المذهب المالكى بالقاهرة فى العصر المملوكى.

وهكذا .. كان لمصر أثر بعيد فى إثراء الحركة العلمية الثقافية والدينية فى بلاد المغرب وامتداد من حدود مصر الغربية مروراً بكل أقطار المغرب وصولاً على طنجة على شاطئ المحيط الأطلسى، وهكذا .. أعطت مصر فأجادت العطاء، ومنحت فكرها وثقافتها فآتت ثمارها طيبة وظلالاً وارفة فى أرض المغرب؛ حيث كان لمصر ثقلها السياسى والحضارى والثقافى.

لكن صلات مصر ببلاد بنى زيان الاقتصادية والثقافية والعلمية كانت أوثق منها سياسية؛ حيث رحيل أبناء تلمسان والمدن الأخرى طلباً للعلم والتجارية والتبادل الثقافى والاقتصادى بين مصر والدولة الزيانية خلال العصر المملوكى وحتى سقوط حكمهم تحت ضربات العثمانيين عام ١٥١٧م.

* * * *

علاقات بنى زيان مع الأندلس

لم يتخذ سلاطين بنى زيان منذ قيام دولتهم حتى سقوطها مبدأ الجهاد الإسلامى فى الأندلس للدفاع عن حقوق المسلمين فى هذه الديار وطردهم منها هدفًا أساسيًا أو جانبًا من سياستهم، إذ أنه خلال تاريخهم الطويل لم تشارك الدولة اليغراسينية بقوات عسكرية أو حشود مجاهدة من المتطوعين للدفاع عن كيان الأندلس؛ بينما ان دولة بنى مرين فى الغرب كان سلاطينها قد وضعوا فلسفة الجهاد الإسلامى نصب أعينهم منذ اللحظة الأولى لتكوين دولتهم، وبهذه السياسة الجهادية فى الأندلس .. فإن بنى مرين يتميزون عن غيرهم من الحفصيين وبنى زيان الذين لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى سبيل الله فى الميدان الأندلسى.

بل إن يغمراسن رفض أن يتعاون مع أبى يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى إنقاذ الجبهة الإسلامية فى الأندلس بعد أن شرح له ابن عبد الحق حقيقة الأمر بالأندلس وأن يغمراسن بن زيان لم يفهم طبيعة الأحداث السياسية التى تمر بها الأندلس، لكن الذى يدرس هذا الفصل فى العلاقات بين الأندلس وبنى زيان يدرك أن ابن زيان كان يأخذ سياسة مخالفة لبنى مرين فى الأندلس فقد لعبت الدولة الزيانية دورًا فى الأندلس وتعاونت مع بنى الأحمر فى غرناطة وشاركت فى حركة الجهاد بإرسال المؤن والغذاء والعدد والخيول وكل ما يطلب منها فيما عدا القوات العسكرية لأنه كان يخشى بنى حفص وبنى مرين فى وقت واحد. ومن هنا كان حذره فى المشاركة فى حركة الجهاد فى الأندلس.

ولقد تأثرت علاقات بنى زيان بالأندلس بالأوضاع السياسية التى سادت منطقة العالم الإسلامى أثر انهيار الدولة الموحدية فى المغرب وما ترتب على انهيارها من فوضى فى المغرب والأندلس مما أعطى أعداء الإسلام الفرصة المواتية للقضاء على الوجود

الإسلامى بعد معركة العقاب ٦٠٩هـ؛ حيث بدأت المعاقل الإسلامية الأندلسية تتساقط تباعًا تحت ضربات القوى النصرانية التى لم تجد جبهة إسلامية موحدة تستطيع الوقوف أمام الهجوم المسيحى القادم من الشمال. وقاسى الأندلسيون أنواعا عديدة من الاضطهادات. لكن بقيت أجزاء فى جنوب الأندلس تكونت منها مملكة غرناطة والتى أسسها بنو الأحمر واتخذ ملوك غرناطة مواقف متناقضة مع النصارى فتارة يتحالفون مع بنى مرين وتارة يتحالفون مع بنى زيان ضد بنى مرين وتارة أخرى يتحالفون مع النصارى ضد الوجود المرينى. وهذه الخلافات خلقت علاقات ذات هدف مشترك بين بنى زيان وبنى الأحمر.

ولقد كان بنو الأحمو وبنو اشقيليولة اصهارًا وحلفاء وعندما استنجد بنو الأحمر ببنى مرين فى حروبهم ضد نصارى الأندلس وقف بنو أشقيولة إلى جانبهم فى جهادهم فكان أن توثقت علاقاتهم ببنى الأحمر لكن ازدياد النفوذ المرينى فى الأندلس واستيلاءهم على ممتلكات بنى اشقيلولة وتوسيع نطاق الجهاد فى الجبهة الأندلسية وخشية بنى الأحمر على عرشهم وكيانهم لا على الوجود الإسلامى فى الأندلس، ومن هنا بدأ الخلاف يأخذ طابعا شخصيا وليس تفضيل المصلحة الإسلامية العليا، فتحالف بنو الأحمر مع النصارى عام ٦٧٧هـ/١٢٧٨م ضد بنى مرين؛ فإنهم عملوا على الاتصال ببنى زيان فى المغرب لمعرفتهم بالعداوة التقليدية بين الطرفين وجذور الصراع العميق بين الطرفين وتعدد المعارك بين يغمراسن بن زيان وأبى يوسف يعقوب بن عبد الحق؛ حيث كانت مطالب بنى الأحمد من بنى زيان تتمثل فى ضرورة تعاون بنى زيان معهم لضرب القوة المرينية بالمغرب وتبادل معهم الهدايا واتفق الطرفان على أن يقوم يغمراسن بن زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أبا يوسف عن العبور إلى الأندلس، ولقد رأى أبو يوسف المرينى أن يتجه إلى يغمراسن بن زيان

حليف بنى الأحمر والفشتالين النصارى الذين أرسلوا سفنهم للجزيرة الخضراء وحطمها أسطول بنى مرين، فقاد حملة تأديبية ضده وتمكنت هذه الحملة من هزيمة يغمراسن ولاحقته وقضت على مقاومته قرب تلمسان وكان سبب هذه الحملة التأديبية أن يغمراسن قام بالعدوان على حدود المغرب الأقصى وخربت هذه الغارات بعض المدن والضواحى وذلك لانشغال بنى مرين فى حركة الجهاد ومحاولة إبعادهم عن دورهم التاريخى فى الجهاد الإسلامى فى الأندلس.

وأكثر من ذلك فإن يغمراسن بن زيان أرسل إلى بنى الأحمر عدداً من الخيول العتاق قدرتها المصادر بأكثر من ثلاثمائة فرس مع الملابس الصوفية واستمر فى غاراته على أطراف المغرب الأقصى.

وإذ كان بنو الأحمر حكام غرناطة هم الذين بدأوا علاقاتهم ومراسلتهم ببنى زيان واستنجدوا بهم ضد بنى مرين .. فإن المواقف تقتضى التعاون والمساندة، ومن ذلك فإن بنى زيان عندما أحسوا بقوة الخطر المرينى واستعدادات ابن عبد الحق المرينى القوية وحشده الجيوش الجرارة وحرصه على التدمير والزحف إلى تلمسان؛ فإن يغمراسن استنجد ببنى الأحمر وكان لبنى الأحمر نفوذ كبير على الدولة المرينية أو على الأقل تعاون ومصالح مشتركة على أرض الأندلس. فحث ابن الأحمر أبا العباس المرينى عن كف يده عن حرب ابن زيان، لكن السلطان المرينى أصر على الزحف على تلمسان واستولى عليها.

وعندما حدث الخلاف في البيت المرينى بن العباس وموسى بن عنان، جهز بنو الأحمر جيشاً لمؤازرة أبى عنان ونزل الجيش الغرناطى سبتة عام (٧٥٦هـ/١٣٨٤م)، وتوجه إلى فاس واستولى عليها، وقد كان لدخول الجيش الغرناطى أثره فى مساعدة أبى حمو الثانى الزيانى فى العودة إلى عرش بلاده من جديد؛ حيث رفع بنو مرين الحصار

عن تلمسان فور سماعهم أنباء الجيش الغرناطى وسقوط فاس.

والذى يتابع خطوات التعاون بين بنى زيان وبنى الأحمر فى الأندلس يتبين له أن هذا التعاون لم يحدث إلا فى فترة حكم سلطانين فقط من سلاطين بنى الأحمر، هما أبو عبد الله محمد الملقب بالفقيه والثانى هو محمد بن السلطان بن الحجاج يوسف الملقب بالغنى بالله.

وان التعاون بين بنى زيان وبنى الأحمر لم يكن لأجل المصلحة الإسلامية وحركة الجهاد وضد العدو الذى عاث فى أرض الأندلس فساداً وقتلاً وحرقاً وتدميراً وإكراهاً على العدول عن دين الإسلام الخالد، ولم يكن هذا التعاون إلا لضرب قوة بنى مرين القوة الوحيدة التى وقع عليها عبء الجهاد فى الأندلس فى تلك الفترة من فترات تاريخ الإسلام فى الأندلس ولو وجدت هذه الحركة المؤازرة الكامنة من قبيل بنى الأحمر وبنى زيان، وبنى حفص، والقوى الإسلامية الأخرى .. لتغير وجه الإسلام فى الأندلس.

ولكن مهما يكن فقد نشأت العلاقات بين بنى زيان وبنى الأحمر فإنها لم تتعد إمدادات مالية ومواد غذائية من بنى زيان دون الإمدادات العسكرية بالرجال والسلاح، ويبدوا أن بنى زيان كانوا يخشون على أنفسهم الجهاد والمشاركة فى كفاح أهل الأندلس تاركين بلادهم التى يطمع فيها بنو حفص فى أفريقية وبنو مرين بالمغرب الأقصى على السواء، كما يمكن أن يكون بعد المسافة عاملاً آخر من عوامل الحيلولة دون إرسال إمدادات عسكرية وقوات حربية.

إضافة إلى أن دولة بنى زيان لم تكن دولة بحرية، ولم يكن لها الأسطول الذى يعتد به ويملك القدرة على الاشتراك فى قتال بحرى، ونقل إمدادات وقوات حربية أو

متطوعين؛ بل كانت دولة برية ولم يشر أحد من المؤرخين إلى وجود أسطول بحرى زيانى. لكن الظروف المحيطة كانت أقوى من فكر الدولة فى الاشتراك فى الجهاد.

ولقد كان الأحرى ببنى الأحمر فى غرناطة أن يطلبوا من بنى زيان المشاركة فى حركة الجهاد والتعاون مع اخوانهم بنى مرين بدلاً من طلب الاعتداء على حدود بنى مرين واشغالهم عن التحرك للجبهة الأندلسية لكن هكذا تضيع أرض الإسلام ويخسر الإسلام أرضاً نتيجة جهل حكام المسلمين بالمسئولية التاريخية الملقاة عليهم وتبعية الشعوب المضطهدة ورعايتها. وهكذا .. كانت صفحة العلاقات الزيانية وبنى الأحمر ضد الإسلام وليس لصالح قضايا المسلمين فى الأندلس.

علاقة بنى زيان مع بلاد جنوب الصحراء الكبرى

كانت تلمسان مركز هذه الدولة. وكانت مدينة كبيرة تقع على شاطئ البحر المتوسط ويربطها طريق صحراوى ينتهى إليها، ومن هنا تأتيها تجارة السودان من العاج والرقيق والذهب يتبادلها التجار مع صوف تلمسان وسلاحها ومخطوطاتها وأنها كانت محطة للتجارة الأوربية مع أفريقيا السوداء.

لقد لعبت تجارة هذه البلاد عنصراً هاماً فى التجارة التلمسانية (دولة بنى زيان)، إذ كان تجار بلاد السودان الأوسط يأتون من السودان وهم حاملين معهم كميات كبيرة من الذهب، وذلك إلى جانب أن تجارة السودان حققت لهم الوفير من الربح مما ساعد على بقاء دولتهم ككيان سياسى أطول فترة ممكنة.

ولقد كان موقع تلمسان الفريد على ساحل البحر المتوسط مما جعلها فى نظر سكان بلاد المغرب تكون البلاد الواقعة فى حوض السنغال والنيجر. وقد تأكدت هذه

الصلات عن طريق التجارة الصحراوية ونشاط القوافل التى كانت تجوب هذه الصحارى حاملة معها المنسوجات وغيرها من منتجات بلاد المغرب.

ولقد كان موقع تلمسان الفريد على ساحل البحر المتوسط ما جعلها مركزاً لتجميع البضائع القادمة من جنوب أوربا وكذلك البضائع القادمة من بلاد السودان.

وكان هناك طريق يتجه من تلمسان جنوباً عبر الصحراء إلى واحة قوات ثم إلى مدينة تمبكتو ويتفرع بعد ذلك فى الاتجاه الجنوبى الشرقى فى سلطنة البرتو كانم، وإلى مالى غرباً ثم يتجه جنوباً حيث مدينة جنى وجاو عاصمة سلاطين سنغاى، ولقد كانت ثروة البلاد كما قال عنها سلطان بنى زيان أثناء زيارة الحسن الوزان ١٥٤٠م تأتى من التجارة مع بلاد السودان وما حققته من ثراء هى سبب ثروة مملكته.

وقد لعبت تلمسان دوراً كبيراً فى ربط الطرق المتجهة إلى الجنوب عبر توات إلى تمبكتو؛ حيث كانت مهمة التجار المقيمين بها استقبال السلع الأوربية القادمة من جنوب أوربا والمدن الإيطالية وتصدير هذه السلع إلى بلاد السودان لتسويقها فى بلاد السودان؛ ثم بعد ذلك تتجه البضاعة إلى سكان الغابات فى الجنوب ونظراً لأهمية تلمسان فقد تمكن التجار البنادقة والجنوبوين من إقامة فنادق لهم بها وكذلك مستودعات لبضائعهم وكان يتردد عليها جمع كبير من تجارهم وقناصلهم.

ولقد كانت المناطق القريبة من المغرب منطقة مرور للتجارة عبر الصحراء إما إلى موانئ البحر المتوسط أو إلى الجنوب وكانت الطرق الجبلية بصفة عامة تتمركز فى ثلاثة مراكز تجارية فى اغمات وفاس وتلمسان ثم تنطلق الطرق الجبلية إلى السودان.

ولقد ارتبط سلاطين بنى زيان بعلاقات ودية مع سلاطين كانم وبرتو وسنغاى ومالى، ويتبادلوا معهم الهدايا والرسائل وكانت العلاقات متصلة عبر الطرق الصحراوية وكان طلاب من هذه البلاد يفدون إلى تلمسان لتلقى العلم فى مدارسها ومعاهدها

الدينية التى بذل لها سلاطين بنى زيان الكثير من الرعاية وحسن اختيار الأساتذة والعاملين بها.

كما أن ركب حجيج بلاد السودان الغربى كان يجد فى طريقه إلى الحج كل مساعدة وعون له عند المرور بمدينة تلمسان، وكان بعض أبناء هذه الأقطار بفضل الإقامة النهائية بالمدينة وعدم العودة تكسباً للعمل أو للدراسة فى مسجدها الجامع الكبير الذى أقامه يغمراسن بن زيان أو لتلقى علوم الطب الذى فاقت فيه المدينة كل المدن المغربية حتى أن بعض المصريين قدموا من القاهرة لتلقى علوم الطب على أيدى أساتذة تلمسان، وقد نبغ كثير من الأساتذة التلمسانيين الذين ذاع صيتهم فى بلاد العالم الإسلامى وهما العلم والحضارة فى المغرب خلال العصور الوسطى، ومهما يكن من ضعف أسرة بنى زيان فإنها جعلت من تلمسان حضارة رئيسية ومركزاً لبلاد مالى وبرنو كانم وسنغاى، الرحال إلى تلمسان طلباً للعلم وتلقياً لعلومه التى ازدهرت فيها الثقافة الإسلامية وانتشر المذهب الملكى مذهب بلاد السودان وتأسست فيها كثير من الطرق الصوفية الشهيرة التى انتشرت بدورها فى بلاد السودان.

وكانت بلاد بنى زيان بها الموانئ المشهورة ميناء وهران، والمرسى الكبير، وكان يقصد هذين الميناءين عادة الكثير من التجار الجنوبيين والبنادقة الذين كانوا يزاولون فيها التجارة الكبرى عن طريق المقايضة، وقد أدى ذلك إلى حدوث حركة كبيرة فى تجارة السلع فى المملكة، وذلك لأنها كانت تؤلف محطة على الطرق المؤدية لبلاد السودان.

ولقد كانت تلمسان محطة وصول طلاب السودان؛ حيث كان يوجد فى المدينة القضاة والمحامون والعديد من كتاب العدل الذين يتدخلون فى الدعاوى، ونرى فيها أيضاً

الكثير من الطلبة والأساتذة فى مختلف المواد، سواء فى الشرع أو العلوم الطبيعية، وكانت بها خمس مدارس تشبه جامعات العصر الحديث، أو الكليات المتخصصة، وهى تكفل أمر معيشتهم بانتظام.

وطوال تاريخ بنى زيان الطويل الذى امتد أكثر من ثلاثة قرون تواصل دورها الحضارى والثقافى والاقتصادى مع بلاد جنوب الصحراء الكبرى ووفد إليها التجار والطلاب ورجال الإدارة لكى يتعلموا فى مدارس ومعاهد تلمسان، التى كانت توفر سبل المعيشة لطلاب الدراسة وانتشر نظام دراسة المذهب المالكى على نطاق واسع فى عصر بنى زيان الذين أولوا العلم والثقافة دوراً هاماً حتى أننا نجد أن بعض سلاطينهم وهو السلطان أبا حمو بن زيان العبد الوادى يقوم بتأليف كتاب واسطة السلوك فى سياسة الملوك. ويحرص على حضور مجالس العلم والفقه والدين، ويشهد مناظرة الشعر والشعراء، ووصلة الشعراء من كل جانب.

وقد كان عصر موسى بن يوسف بن عبد الرحمن بنى يحيى يغمراسن بن زيان (٧٥٣-٧٩١هـ/١٤٥٢-١٣٨٩م) أزهى عصور الدولة (أبو حمو بن زيان)، وكان له أثر كبير فى ذلك الازدهار الحضارى الذى نعمت به تلمسان حتى صارت صورة متحضرة وراقية، ويبدو من تاريخ هذا السلطان أنه كان قبل كل شىء أديباً وفيلسوفاً وشاعراً وفناناً فى نفس الوقت، وقد أحاطت به طبقة من الكتاب والشعراء، ومنهم الكاتب يحيى بن خلدون (٧٨٠هـ/١٣٧٨م)، وهو مؤلف كتاب بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد، أن هذه النهضة العلمية الأدبية والفكرية والإسلامية شدت انتباه أبناء السودان الأوسط والغربى فشدوا الرحال إلى تلمسان نهلاً من فكرها وعطائها العلمى الفياض الذى تخصص له جهابذة الفكر المالكى والعلمى.

ومن هنا .. ارتبطت تلمسان عاصمة بنى زيان برباط سياسى واقتصادى وثقافى وحضارى وعلمى مع بلاد السودان جنوب الصحراء الكبرى وأدت دورها على أتم أداء؛ فى نشر حضارة الإسلام وثقافته بين شعوب هذه الأنحاء من القارة الأفريقية.

* * * *

الفصل السادس

النشاط الحضارى والثقافى والاقتصادى للدولة

شهد بنو زيان فى ظل دولتهم نظاماً سياسياً دقيقاً تمثل فى عدة مناصب؛ حيث عرفوا الحاكم الذى اتخذ لقب أمير المؤمنين، ثم لقب السلطان، ثم لقب الخليفة، وأمير المسلمين، وكان السلطان يتولى الحكم عن طريق عهد من سابقيه.

وكان السلطان يعيش وفق مراسم دقيقة؛ فهو لايظهر إلا بالنسبة للكبار ولشخصيات بلاطه الرئيسية ولا يستقبل أحدا سواهم وهم الذين يصرفون الأمور حسب النظام السائد وفى هذا البلاط مناصب ودواوئر عديدة والشخصية الأولى فى البلاد السلطانى هو القائد الذى يحدد رواتب كل واحد قدر كفاءته وهو الذى يقود الجيش ويكون أحياناً على رأس الجيوش بجانب السلطان نفسه، والشخصية الثانية هو الكاتب الأول الذى يكتب ويجيب باسم الملك (ديوان الإنشاء) والخازن الذى يتسلم أموال السلطان ويحتفظ بها والعائدات السلطانية. ثم قائد الباب ومهمته حراسة القصر والذات السلطانية فى حالة الاستقبال وهناك وظائف أقل أهمية كوظيفة رئيس الاسطبلات أو قائد الحرس ورئيس التشريعات، ولا يظهر لهذا الأخير عمل إلا فى حالة استقبال السلطان لزواره.

إضافة إلى الوزير، الحاجب، القضاه العمال، شيوخ المدن، الحاميات الشرفية، وكانت تلمسان تعيش بها الشخصيات ذات المناصب الكبيرة وكانت السلطة ترجع إلى فرد من بنى زيان.

وتلمسان مدينة كبيرة وعاصمة السلطة وفى عهد حكم أسرة بنى زيان توسعت

تلمسان، وقد كانت تحوى ست عشرة ألف أسرة فى عهد السلطان أبى تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨-٧٣٧هـ/١٣١٨-١٣٥٢م)، وبلغت درجة سامية من الازدهار وتكاثر عدد سكانها، وتوزع فيها كل المهن وأصناف التجارة بين مختلف الأحياء ويوجد بها بضعة جوامع ومساجد جميلة معتنى بها بصورة حسنة، ولها أئمة وخطباء، كما تحوى أيضاً خمس مدارس بديعة حسنة البنيان وقد شيد بعضها سلاطين تلمسان والبعض الآخر سلاطين فاس وتوجد بها بضع حمامات كبيرة من كل المستويات وتوجد بها بضعة فنادق حسب الطراز العربى الإسلامى، ومن بينها اثنان لسكنى التجار البنادقة والجنوبين. ويوجد فى المدينة موارد عديدة للماء وأسوارها عالية وبها خمسة أبواب شديدة الاتساع وفى جوف هذه الأبواب حجرات صغيرة يقيم فيها الموظفون والحراس ويقع القصر السلطانى وسط العاصمة وتحيط به أسوار مرتفعة على غرار القلاع وهو يحوى قصورا أخرى ولكنها متقنة البناء جداً مع هندسة رائعة (طراز أندلسى)، وتوجد خارج تلمسان عدة كور بديعة بها منازل غاية فى الأناقة.

وينقسم سكان تلمسان إلى أربع طبقات صناع وتجار وطلبة وجنود، وتجارها رجال شرفاء ومخلصون وشرفاء فى معاملتهم ويعملون جاهدين لجعل مدينتهم جيدة التموين وسفرهم الرئيسى نحو بلاد السودان وهم أغنياء جداً وعساكر السلطان رجال مختارون ويتقاضون أجوراً مرتفعة، والطلاب هم أفقر سكان المدينة لأنهم يعيشون فى مدارسهم بصورة بائسة وبعد أن يحصل أحدهم على الشهادة النهائية يعين أستاذاً أو كاتب عدل أو إماماً، وتجار تلمسان وأهلها ذوو هندام جيد ويكتسى الطلاب حسب حالتهم المادية وسارت الدولة على نظام ولاية العهد واعتمد بعض الأمراء على القوة فى الوصول إلى السلطة كما حدث فى عهد أبى سعيد وأبى ثابت وادى عبد الرحمن بن يغمراسن.

وكانت الوزارة تأخذ شكلاً وراثياً والسلطة القضائية يتولاها قاضى القضاة والسلطة العسكرية قائد الجيش، وكان حاكم الدولة هو الذى يقود الجيوش بنفسه، وهناك وظائف أخرى فى كل مدينة أو محافظة كالمحافظ وهو الوالى المحتسب، والحاجب وكان معروفًا فى الدولة الزيانية منذ نشأتها الأولى وكان الجيش بعد عمود الدولة الزيانية ووسيلة الدفاع عنها واتساع رقعتها وتمتد سلطنة تلمسان على مسافة خمسمائة وثلاثين ميلا من الشرق إلى الغرب ولكنها ضيقة جداً من الشمال إلى الجنوب؛ فبين البحر المتوسط وبين تخوم صحراء نومديا لايوجد إلا بعض النقاط سوى مسافة لاتزيد عن خمسة وعشرين ميلاً بين نهر الملوية ووادى الصمام، وهذا هو السبب الذى جعل هذه السلطنة معرضة للهجوم من جانب العرب الذين يسكنون الجزء المجاور من الصحراء ولا يوجد بها سوى القليل من المدن والقصور غير أن هذه المدن تكون مزدهرة.

وقد اعتمدت الدولة الزيانية فى اقتصادها على الزراعة والصناعة والتجارة والثروة الحيوانية؛ بالإضافة إلى موارد أخرى واهتمت الدولة بهذه الأمور وأولتها عناية خاصة وإنتاج السلطنة قليل، وبالتالى .. فهى قليلة السكان، ولكن نظراً لأنها محطة بين أوربا وأفريقيا جنوب الصحراء فإن السلطان يحصل على دخل كبير من جراء حركة التصدير والاستيراد وظلت السلطنة فترة طويلة من السنين تحقق دخلاً كبيراً، وقد اهتمت الدولة بصناعة الصفن والمنسوجات والتطريز والبحث عن الثروة المعدنية، وكان لموقع الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط أثر كبير فى ازدهار الحركة التجارية؛ بحيث يعتبر المغرب الأوسط حلقة اتصال بين شرقى وغرب المغرب.

وشهد المغرب الأوسط فى عهد الدولة الزيانية نشاطًا عمرانياً ملحوظًا تنوعت فيه الاتجاهات العمرانية فشملت الضواحى وزادت المبانى الدينية والثقافية والعسكرية. وقد

اهتم أمراء الدولة بالناحية الدينية فى نشاطهم العمرانى؛ ففى عهد يغمراسن بن زيان بنيت صومعتان، إضافة إلى الجامعين الأعظمين بمدينة تلمسان ذات الزخارف التى من صنع أندلسى ومحراب المسجد كمحراب مسجد قرطبة وذلك من أثر اتصال حضارة المغرب بالأندلس.

واهتمت الدولة فى عهد أبى سعيد عثمان بن يغمراسن ببناء مسجد أبى الحسن (٦٩٦هـ/١٢٩٦م)، واجتمع على أن عهد أبى تاشفين الأول يعتبر عصر ازدهار العمران، وفى عهد أبى حمو الثانى أنشئ مسجد الولى إبراهيم وكما اهتم بنو زيان بالناحية العمرانية اهتموا بالناحية العسكرية.

وكان الاتجاه الدفاعى والهجومى هما خطأ السياسة العسكرية، التى سارت عليها الدولة طوال تاريخها ضد العدو المهاجم والهجوم خلف الخصم عند الانسحاب، ومن هنا حصنوا تلمسان بالأسوار العالية والأبراج المنيعة المتينة وأبواب المدينة ذات مصاريع مصفحة بالحديد والأسوار غاية فى الارتفاع على غرار القلاع وهى رائعة الهندسة متقنة البناء.

وقصر السلطان له بيان الأول يفتح على البادية فى مواجهة الجبل والثانى نحو داخل المدينة؛ حيث يقيم قائد الحرس.

وقد كان بنو زيان على دراية ببناء المدن والأسوار والقلاع والحصون ووسائل الدفاع كما أنهم كانوا على دراية بالتكنيك الحربى. ومن الناحية الهجومية استطاع ابن تاشفين الأول بناء حصن بكر على مقربة من بجاية ليكون خط دفاع أول ونقطة هجوم ضد بنى حفص كذلك اهتموا بوسائل الدفاع عن البلاد القريبة المجاورة لبنى مرين.

وقام سلاطين بنى زيان بإنشاء دار لسك العملة، وكانوا يتعاملون بالدينار الذهبى كما كانوا يسكون عملة فضة، وكذلك عملة نحاسية ذات قيمة، وأنواع مختلفة، وكان يتم التعامل بهذه العملة بين طوائف الشعب المختلفة.

وكان لهم جيش دائم وفرسان لكن فى حالة الحرب أى عندما تكون البلاد فى حالة قتال مع أعدائها .. فإنها تعلن حالة الاستعداد العسكرى ويجتمع لدى السلطان الجنود من الأعراب وسكان المدن والمتطوعة ويتجول فى أنحاء السلطنة لحشد قوات كثيرة. وكان يوجد عدد كبير من الجنود فى حراسة السلطان وأكثر من ألف فارس لحراسة القصر (شهد بذلك الحسن الوزان ليو الأفريقى، وصف أفريقية).

وفى عصر الأسرة الزيانية عاد المذهب المالكى يمثل مكانته الرفيعة من جديد فى المغرب الأوسط بعد أن فقدها فى عهد الموحدين ومع تسليمنا بأن مدرسة تلمسان لن تبلغ مبلغ القيروان وفاس فى ذيوع الصيت فى مجال الثقافة والعلوم، إلا أن عهد بنى زيان شهد أهم تطور ثقافى عربى شهدته البلاد وهو انتشار مذهب الإمام مالك وانتشاره فى القسم الغربى من العالم الإسلامى.

ويبدو أن ما سمعه أهل تلمسان على علماء المغرب من علمائهم القادمين من مصر فإنهم أخذوا يطلبون فقيه المزيد مما دفع فقيه المغرب سحنون ابن سعيد إلى الرحيل إلى مصر.

وقد صحب انتصار المالكية فى بلاد المغرب الأوسط توطن الثقافة العربية فى مختلف المجالات بانتشار اللغة العربية وتغلغل الثقافة الإسلامية فى نفوس الناس، وظهر جيل من مثقفى سكان المغرب يطبعون الثقافة العربية بطباعهم المغربى.

وكان عصر بنى زيان قد شهد الانتصار النهائى لهذا المذهب وسرعة انتشاره فى

البلاد بعد أن كانت مكانته قد ضعفت فى عهد الموحدين وبدأ هذا المذهب يتغلب على مذهب أبى حنيفة مسيطراً على قلوب الناس ومدارس الفقه حتى انتصر نهائياً وبدأ المالكية يغلبون على الحياة الثقافية فى بلاد المغرب كلها، واشتد سلطان الفقهاء المغاربة المالكية فى الحياة الثقافية والدينية؛ بل لقد أصبح فقهاء المالكية فى نظر المغاربة الزعماء الذين يدافعون عن الضعفاء ويعارضون الحكام ويستشهدون فى سبيل العقيدة.

وشهد عصر بنى زيان انتشار الفقهاء المالكية والذين كانت أسماؤهم تتبع بالتلمسانى فى العديد من الأقطار المجاورة؛ حيث لقى هذا المذهب قبولاً من الفقهاء المغاربة لاعتماده أساساً على نصوص القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف دون تأويل أو لجوء إلى الرأى معرضين عن المذاهب الأخرى، التى تعتمد على الرأى والتأويل؛ بل إن العلوم التى كانت تدرس فى مدارس المغرب الأوسط كانت تدور حول فقه الإمام مالك والعلوم الإسلامية الأخرى؛ بحيث أصبح المذهب المالكى هو الحصن الذى اعتصم به أهل المغرب.

كما أن بنى زيان قد اهتموا بالناحية الثقافية اهتماماً بالغاً فشجعوا دراسة العلوم وأنشأوا المدارس، وقد كان فى تلمسان وحدها خمس مدارس بديعة حسنة البناء، ومزدانة بالبلاط الملون وسواه من الأعمال الفنية، وقد شهد بعضها ملوك تلمسان، كما أن مدينة عباد كان بها مدرسة بديعة جداً وفندق لسكنى الأغراب وقد حملت بعض المدارس أسماء مؤسسيها فنجد مدرسة حمو الأول وكان أبو تاشفين الأول قد أقام مدرسة عرفت باسمه وكثر بناء المدارس والزوايا، وكان كل السلاطين يبدون اهتماماً بالعلوم الإسلامية كما أنهم اهتموا ببناء خزانات الكتب التى توضع بها المخطوطات ونشطت حركة نقل العلوم والمخطوطات وراجت تجارة الكتب، وحسن الاهتمام ببناء القصور والدور وشهد عهدهم نشاطاً عمرانياً مكثفاً شهد به الحسن الوزان الذى زار

تلمسان وقضى بها فترة من الزمن فى ضيافة السلطان أبى عبد الله محمد السابع ٩٠٢هـ/١٤٩٦م.

وكانت المدن الجديدة بها كل مستلزمات الحياة من تجارة وصناعة ومساجد وغيرها، وبلغت هذه العناية مداها فى عهد أبى تاشفين الأول، فقد شيد المصانع.

وكان فى دولة أبى زيان العديد من المدن الهامة، والتى منها تلمسان العاصمة ومدينة وجدة وكانت وجدة دائماً فى جانب سلاطين تلمسان ضد بنى مرين، وقد كانت أسوارها قوية وعالية كما أن بيوتها حسنة جيدة البناء وسكانها أغنياء ومهذبين وذوى مروءة وشجاعة، وقد تجددت مساكنها كثيراً. وأصبحت جميلة الطراز، والذى غلب عليه الطابع الأندلسى وأهلها يتكلمون اللغة العربية، وكذلك من المدن الهامة مدينة عباد، وهى على مسافة ميل من تلمسان فى اتجاه الجنوب وهى مأهولة بالسكان وتضم العديد من الصناع وبها مدرسة وفندق، وهى مدينة تضم العديد من صباغى الملابس.

ومن المدن الهامة أيضاً مدينة وهران وهى على ساحل البحر المتوسط على مسافة مائة وأربعين ميلاً من تلمسان وهى مدينة كبيرة بها العمارات والمؤسسات التى تعتبر مدينة حضرية بها (المشافى) الكبيرة، (الجوامع) المساجد، والمدارس، والحمامات، والفنادق، والبالمارستانات، وهى محاطة بأسوار عالية وأكثر سكانها من الصناع والتجار ، والسكان ينتخبون رئيس مجلس يهتم بشئون المدينة، وكان بها خازن مال، ومكاس لتحصيل عوائد البناء.

ثم مدينة المرسى الكبير وأسسها سلاطين تلمسان على شاطئ البحر المتوسط على مسافة بضعة أميال من وهران وكانت تستطيع أن ترسو عليها مائة سفينة ومركب، فى

وقت واحد ولا يوجد له مثيل فى العالم، قاطبة فى عصر بنى زيان وكانت من عادة سفن البنادقة أن تلجأ إليه فى حالة هياج البحر، وترسل بضائعها إلى وهران.

وكذلك .. مدينة مستغانم وهى تقع على البحر المتوسط وتقع على مسافة ثلاثة أميال شرقى مدينة مازاغران وشهدت تحضرا عظيماً وكثرة من السكان فى عصر سلاطين بنى زيان وبها جامع جميل جداً وفيها العديد من الصناع الذين ينسجون أقمشة الكتان وبيوتها جميلة كما تكثر بها موارد المياه والأراضى التى تحيط بها خصبة وصالحة للزراعة ولها ميناء صغير تقصده السفن الأوربية وعندما ضعفت هيبة الدولة تعرضت لمضايقات بدو الصحراء.

ومدينة شرشال على ساحل البحر المتوسط ولها سور شديد الارتفاع ويظهر فيها بجوار البحر جامع كبير عال جدا لاتزال محاربه قائمة وقت زيارة الحسن والوزان. وصف أفريقيا وكانت مأهولة بالسكان ولكنها هجرت فى أعقاب الحروب بين سلاطين تلمسان وسلاطين بنى مرين وظلت قليلة السكان حتى عمرها كثير من الغرناطين بعد سقوط دولتهم ١٤٥٢م، وأعادوا بناء قسم كبير من منازلها وكذلك قلعتها وزرعوا أرضها ثم بنوا الكثير من سفن الملاحة واشتغلوا بصناعة الحرير وسكانها أكثر من ألف ومائتين نفسا.

ثم مدينة ملبائة وتقع هذه المدينة فوق قمة جبل وتبعد عن شرشال بأربعين ميلا وبيوتها متقنة ويكاد سكانها جميعًا أن يكونوا من الصناع ومن الخراطين ويعمل بعض منهم فى الزراعة.

ثم مدينة تنيس وهى على مسافة خطوات من البحر المتوسط وبها الكثير من السكان وكانت دائمًا تابعة لسلاطين تلمسان وعندما أدرك المغرب السلطان أبو عبد الله

محمد المتوفى ١٥٠٥م، وهو جد الملك أبى عبد الله محمد الذى كان يحكم ١٥٢٨م وكان قد خلف ثلاثة أبناء أكبرهم كان يدعى عبد الله والثانى أبو زيان والثالث يحيى آل الحكيم إلى عبد الله وظهر الانقسام بين الأخوة الثلاثة، إلا أن يحيى عاد إلى تنيس ونودى به سلطاناً وظل يحكم البلاد بضعة أعوام منها ونتج أرضها الكثير من الفحم.

ومدينة مازونة، وهى مدينة داخلية على بعد أربعين ميلاً من البحر وتمتد على مساحة كبيرة وبيوتها كثيرة وأسوارها عالية منيعة وهى مدينة متحضرة وقد تعرضت للتدمير من العرب والعصاة وبنى زيان وذلك لقربها من حدود سلاطين فاس وربما لتأييدها لهم وأرضها الزراعية طيبة ومنتجة ومن المدن الهامة أيضاً فى سلطنة بنى زيان مدينة الجزائر وقد خضعت الجزائر لسلطة سلاطين تلمسان لكن عند حدوث الشقاق بين أبناء الأسرة خضعت لحاكم بجاية ووقعت تحت سلطته لأنها كانت أقرب إلى بجاية من تلمسان وهى مدينة كبيرة جداً وأسوارها رائعة وقوية للغاية وبها أسواق جيدة كما أن بها عددا كبيرا من الفنادق والحمامات وبها جامع كبير جداً يقع على حافة البحر. وكان خضوع سكان الجزائر لسلطان بجاية لأن سلطان تلمسان لايستطيع أن ينجدهم وأنهم يتعرضون لأذى ملك بجاية فقدموا الولاء له وتحول بعض سكانها إلى أعمال القرصنة وكانوا يغيرون على السواحل الأسبانية وجزر يابسة ومتروقة وما يورقه وبيزاً وغيرها من المدن الإيطالية وخضعت لحكم خير الدين بربروس وأخيه عروج وضرب السكة باسمه ووعد كل سكان المناطق المجاورة بالطاعة وأرسلوا له الجزية وقد تعرضت لغزو ماوك أسبانيا.

ومدينة تقدمت وغيرها من المدن الأخرى مثل مدينة دليس، تاميد فوست، برشك، مازاغران ومدينة البطحة؛ ثم ولاية بنى راشد وكانت إمارة تحكم بيد العرب الذين يقدمون المحاربين للسلطان من الفرسان والمشاة إضافة إلى مبلغ من المال يدفع سنوياً

مبلغ خمسة وعشرين ألف دينار، ومدينة تسالة، نفرة، ومدينة رشتون، ومدينة حنين، ومدينة ندرومة، ومدينة تيحريت، ومدينة قصر ايسلى، قصر تيمز يزدغت.

هذه المدن الكثيرة العديدة والكبيرة والموانى الكثيرة خضعت لسيطرة سلاطين بنى زيان طوال حكمهم الطويل والذى يطالع الحديث المطول عن هذه المدن التى ذكرها الحسن الوزان فى كتابه وصف أفريقيا وأشار إليها بعض المؤرخين الذين جاءوا من بعده يدرك أن هذه الدولة كانت على مستوى عالٍ من الرقى والتقدم والازدهار الحضارى والثقافى وأن كل مدينة من هذه المدن الكبرى لعبت دوراً بارزاً فى إثراء الحركة الثقافية والعلمية والحضارية والاقتصادية وساعدت على تطور وتقدم المغرب الأوسط ولو أن هذه السلطنة كانت من الضعف والانهيار لما استطاعت أن تصمد أمام قوتين فى المغرب الأدنى والأقصى كل منها يريد السيطرة عليها لكنها قاومت كل تيارات الاحتواء والسيطرة والزوال من مسرح الأحداث طوال ثلاثة قرون.

لكن القوة الاقتصادية والعسكرية وثراء الدولة وقوة سلاطينها ساعدت فى بناء الأسرة الحاكمة طوال هذه الفترة وكانت الظروف الخارجية والقوى العالية الخارجية كالأتراك والأسبان والبرتغال الصراغ فى حوض غرب البحر المتوسط من العوامل التى عجلت بانتهاء أسرة بنى زيان وزوال سلطتها.

وفى فترة سقوط بنى زيان البصرة لحكم بنى زيان مرين والتى سوف نتحدث عنها فى باب العلاقات بين الدول الثلاث (بنى حفص، بنى زيان، تواجدهم القصير فى بلاد المغرب الأوسط والتى شملت النواحى العسكرية والمدينة فأسسوا مدينة المنصورة فى عهد أبى يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى وأحاطوها بالأسوار وبنى فيها قصراً وكذلك اهتم بنو مرين بالناحية الدينية لكسب الشعور الشعبى وتأييد السكان لهم؛ فقاموا ببناء المساجد ففى عهد أبى الحسن تم بناء مسجد المنصورة الأعظم كما قاموا

ببناء مسجد بقرية العباد كما قاموا ببناء مسجد حول ضريح أبى عبد الله الملوى، واهتم بنو مرين ببناء المدارس وأولوا العناية بالثقافة والعلوم الإسلامية وأعطوها عناية فائقة ففى عهد أبى الحسن المرينى بنيت مدرسة فى قرية العباد وفى تلمسان العاصمة كما بنيت وشيدت فى عهد أبى عنان مدرسة أخرى.

لكن مجمل القول أن الفترة التى عاشتها دولة بنى زيان شهدت اهتماماً بعلوم اللغة العربية كالنحو، والأدب، والبلاغة، والتاريخ، والجغرافيا، ولهذا اشتهر فى عهد الدولة الزيانية كثير من العلماء والمؤلفين والمؤلفات المخطوطة، واهتمت الدولة بتدريس العلوم الطبيعية كالرياضة والطب والكيمياء المخطوطة واهتمت الدولة بتدريس العلوم الطبيعية كالرياضة والطب والكيمياء وعلوم الفلك والتنجيم وكل ما يتصل بمظاهر الحياة كعلوم الحيوان والزراعة وغيرها من علوم العصر؛ حيث ساهم فيها علماء تلمسان بدور رائع.

ومن هنا .. فإن الفترة التى عاشتها الدولة الزيانية فى المغرب الأوسط تعتبر حركة نمو وإشعاع فكرى وعلمى نشطت فيه العلوم ونبغ فيها عدد وافر من العلماء فى مختلف الميادين وقد نجح هؤلاء العلماء فى أن يجعلوا من تلمسان عاصمة دولتهم مركز إشعاع ومهبط طلاب ومقصد علماء وداراً تستقطب طلاباً من أعماق شتى وتهوى إليها أفئدة طلاب العلم؛ بل مدينة ثقافية بالمعنى المعاصر، وقد ذكر ابن خلدون عبد الرحمن ويحيى بن خلدون أنهما عاشا زمناً طويلاً ينعقد فيها أسواق العلوم والصنائع وكثر فيها العلماء وضاهت عاصمتها أمصار الدول الإسلامية كغرناطة وقرطبة والقيروان وفاس والقاهرة، وكانت مكانتها لاتقل عن مكانة المراكز الخلافية فى العالم الإسلامى.

وبلغت الحياة الثقافية ذروة نشاطها فى عهد أبى حمو الثانى الذى اهتم بالعلم

والعلماء، وغدت تلمسان فى عهده مركزاً ثقافياً هاماً يضاهى أهم مراكز المغرب الثقافية، كما شهد المغرب الأوسط انتشار التعليم ومدارسه فى شتى المدن الكبيرة التى أشرنا إليها فى الصفحات السابقة؛ بل ان المدارس وكتاب تحفيظ القرآن الكريم ودراسة علومه انتشرت فى المدن والقرى وفى الزوايا والبوادى وبين سكان الجبال والسهول. ودرست العلوم الإسلامية فى المساجد والمدارس وأولت الدولة اهتماماً كبيراً بتحفيظ القرآن الكريم وتشجيع التلاميذ على حفظه وهم فى سن صغير، وكذلك دراسة علوم الدنيا والدين.

وقد ساهم أمراء بنى مرين فى فترة وجودهم بالمغرب الأوسط فى العمل على انتشار التعليم فأمروا ببناء المدارس والزوايا وساهموا فى هذا الميدان بدور لا يقل عن دور بنى زيان وكانوا يعينون للتدريس فى هذه المدارس أشهر العلماء وكان التعليم بالمجان؛ بل كان يصرف الطعام والكساء والكتب المخطوطة للطلاب. وازدادات منزلة العلماء عند أمراء الدولة. وهكذا .. كانت تلمسان حلقة علمية اجتمع فيها من رجال الدين والأدب الكثيرون فغدت مركزاً علمياً يشد إليه الرحال طلباً للعلم فى شتى أقطار العالم الإسلامى. فها هو العالم المصرى عبد الباسط خليل المصرى من علماء القرن التاسع الهجرى يهاجر إلى تلمسان من القاهرة فى رحلة طويلة طلباً لاستكمال بعض المعلومات الطبية التى كان يلح فى معرفتها فدرس على يد الشيخ محمد بن على بن بلمارستانات تشونى أحد أطباء بمارستانات تلمسان المشهورة.

ومن هنا كان لبنى زيان فى فترة قوة دولتهم دور بارز فى مجال العلوم الإسلامية وتدريسها وأثمرت الأنشطة التى قاموا بها فى مجال الحضارة الثقافية والاقتصادية بدور بارز استطاعت الدولة رغم أنها لم تصل إلى مصاف الدول المحيطة إلا أنها لعبت دوراً لايقل عما لعبته القيروان فى عصر بنى حفص وماس فى عصر بنى مرين فكانت

تلمسان لاتقل دوراً عن أدوار هذه المدن على مختلف الأصعدة التى شاركت فيها فى أذكاء أنوار الحضارة الإسلامية التى كانت الصراعات الأسرية بين الأمراء المطالبين بالعرش وبين القوى المتصارعة على أرض المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وفى غرناطة كل هذه الانقسامات كانت من الأسباب القوية التى لم تساعد على السير على نهج التطور العلمى والحضارى الذى برز فيه الذين درسوا فى جامعات قرطبة وطليطلة وبالرمو وفاس والقيروان وتلمسان لتصبح لهم قيادة فى المجال العلمى للبشرية حتى وقتنا الحالى.

* * * *

الفصل السابع

نهاية الأسرة اليغمراسنية الزيانية

قامت دولة بنى زيان على أساس القوة القبلية ذلك لأنه كما سبق القول عندما أحست قبيلة بنى عبد الواد بقوتها فإنها استطاعت أن تدخل العاصمة وتفرض وجودها السياسى على منطقة المغرب الأوسط وفرض سيادتها على القبائل البربرية بوجين ومغراوة وغيرها من القبائل البربرية وكذلك القبائل العربية كبنى هلال وفروعها، ومن هنا كان تاريخها تاريخا عسكريا قضيت معظم سنواتها فى حرب داخلية وحروب خارجية (بنى حفص، بنى مرين).

ولقد كانت الحروب المتصلة مع القبائل القاطنة بالمغرب الأوسط وصراعها مع بنى مرين، كل هذه الأمور قد أضعفت من قوة الدولة وجعلت شغلها الشاغل الحفاظ على بقائها واستمرار الحال حتى احتل بنو مرين تلمسان (٧٩٥هـ/١٣٩٢م) وحكموا المدينة وممتلكاتها ربع قرن من الزمان قد تخلصت منهم وعادت إلى سابق عهدها ومدت سلطانها حتى بجاية من بلاد الحفصين بمساعدة الهلالية من الزواودة وبنى معقل بن عبد الله بن رياح.

وإذ كان أبو موسى الأول قد استطاع أن يحيى الدولة فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر، وأن يحررها من الحكم المرينى وبصعوبة شديدة استطاعت الدولة أن تحافظ على كيانها، لكن كل هذه العوامل قد أثرت فى كيان الدولة فلم تستقر الاستقرار الطبيعى؛ بل أن الدولة تعرضت للإنهيار الداخلى بسبب الصراع على الحكم والسلطة، كذلك الهجوم الأسبانى على شواطئ المغرب الأوسط، ولو نظرنا إلى الدولة الزيانية فى

أواخر عهد أبو حمو الثانى (٧٦٠هـ/٧٩١هـ) نجد أن المشاكل التى كانت تنشب بسبب التنافس والتهالك على السلطة. دفعت أبا تاشفين الثانى إلى أن يستعين ببنى مرين ضد أبيه وتفشت ظاهرة قتل السلاطين.

وكان ظهور الأسبان وما يدور فى نفوسهم من حقد وكراهية للإسلام والمسلمين واتفاقهم على أن يكون المغرب الأقصى من نصيب البرتغال والمغرب الأوسط من نصيب الأسبان، وكان العدوان على المغرب من عمل أسبانيا والبرتغال التى قادت حركة الحروب الصليبية ضد المغرب؛ لأن المغرب كان دائماً يشكل الخطوط الخلفية التى تحمى ظهور المسلمين فى الأندلس، وإذا كان المرابطون والموحدون قد استطاعوا أن يقدموا مساعدات فعالة للإمارات الإسلامية فى الأندلس .. فإن خلفاء الموحدين من بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين لم يتمكنوا من إيقاف الخطر المسيحى على حساب الدويلات الإسلامية فى الأندلس.

ولقد شهد القرن الثالث عشر الميلادى توازن القوى من الدويلات المغربية الثلاث وبين الدويلات المسيحية فى الأندلس، لكن النصف الأول من القرن الرابع عشر شهد تحول القوى لصالح أسبانيا والبرتغال لأنهما اتجها نحو الاتحاد؛ بينما تغلبت عوامل التفكك فى المغرب فهو لم يعد مقسماً بين الدول الثلاث (بنى حفص، وبنى زيان، وبنى مرين)؛ بل ان جميع هذه الدول أصبحت فى القرن الخامس عشر ومع نهاية الرابع عشر منقسمة على نفسها فالحفصيون منقسمون إلى دولتين احداهما فى تونس والأخرى فى بجاية، وفى المغرب الأوسط يستقل كل ميناء بحكومته الخاصة حتى شبهت هذه الموانئ بجمهوريات إيطاليا البحرية، وفى المغرب الأقصى قامت ثلاث حكومات فى نفس الوقت أحداهما فى فاس والأخرى فى مراكش والثالثة فى سجلماسة.

وبعد أن تحققت الوحدة الأسبانية، تم القضاء على غرناطة آخر المعاقل الإسلامية فى الأندلس عام ١٤٩٢م، ويقابل هذه الوحدة استمرار التفكك فى المغرب فكان ذلك أول عامل مهد الطريق لتحول أسبانيا من حرب الاسترداد إلى مرحلة الهجوم على أراضى المغرب ذاتها وظهور البرتغال كقوة بحرية كبيرة فى القرن الخامس عشر، مما جعل البرتغال تتجه نحو التوسع الخارجى وتشاركها فى ذلك أسبانيا. وكان تفكك المغرب السياسى أشد ما يغرى أسبانيا على ذلك؛ فقد كانت هذه الفوضى التى سادت المغرب تغرى رجال الدين المسيحيين على دفع الملوك؛ لتنظيم الحملات على شواطئ المغرب كما أن الجنود كانوا يتحرفون شوقًا إلى السلب والنهب.

وشهدت سواحل المغرب غارات مسيحية متعددة منذ القرن الثالث عشر، لكن الاحتلال الفعلى للمغرب الأوسط شهد قوة المد الصليبى فى القرن السادس عشر فنجد أن النفوذ الأسبانى انتشر فى المنطقة المراكشية عام ١٥١٨م؛ ثم جاء بعدها دور وهران فسلمت بعد مذبحة قتل بها أكثر من أربعة آلاف شخص وأسر أكثر من ثمانية آلاف ، وأخيرًا سلمت بجاية فى يناير ١٥١٠م بعد مقاومة جبارة وأعقب ذلك النفوذ الأسبانى فى طرابلس فى يونيو من نفس العام كما استولوا على جربه عام ١٥١٨م، وأسروا فريقًا من الأهالى. وفى بضع سنين أصبحت أسبانيا سيدة جميع النقط الساحلية التى تستطيع أن تعتمد عليها لغزو الأقاليم الداخلية من المغرب الأوسط ولكنها لم تفعل بل اكتفت بالمناطق الساحلية، وقد ظل الأسبان على سواحل المغرب الأوسط فى المدن التى احتلوها يعانون نوعًا من الحصار ما داموا لايملكون اتصالاً بالمواطنين فى الداخل؛ فأصبحت حياة الجنوب مرهقة لهم فتعرضت مدن مثل وهران لخطر المجاعة من وقت لآخر وسوء الحالة الصحية.

ويتداخل العامل الاقتصادى مع التعصب الدينى فى دفع أسبانيا نحو هذه

السياسية التوسعية التى اتبعوها فى المغرب، وكان الأسبان مدفعين بهذه الروح منذ نهاية القرن الخامس عشر فى اعتداءاتهم على المغرب. لذا .. كانت فكرة تقسيم البلاد إلى منطقة نفوذ طبقاً لمعاهدة وقعت بين الطرفين فى عام ١٤٧٩م.

وكان للأسبان نصيب المنطقة الواقعة شرق حجر باديس، وهى نقطة تقع عند التقاء الساحل المراكشى بالساحل الجزائرى تقريباً.

وقبل نزول الأسبان إلى ساحل المغرب الأوسط عام ١٥١٠م، فقد استولى الأسبان عام ١٥٠٥م على شاطئ بلنسيا، وفى عام ١٥٠٨م استولوا على حجر باديس، وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية، وفى ١٥١٠م دمرت طرابلس، وكان كل ذلك بدون مقاومة تذكر من قبل بنى زيان واضطرت موانئ أخرى فى المغرب مثل دلس والجزائر إلى دفع الجزية وأقام الأسبان أمام هذه الموانئ حصناً من الصخور، وكان على سلطنة تلمسان أن تواجه هذا الغزو لأن كثيراً من هذه الموانى تتبعها ولكن الدولة الزيانية لم تكن من القوة؛ بحيث تستطيع رد الغزو الأوربى عن المغرب.

بل على العكس من ذلك فقد تعرضت دولتهم فى هذه الفترة لتفكك جديد ونشوب ثورات داخلية احتجاجاً على الضرائب الجديدة التى اضطروا إلى فرضها لمواجهة الغزو الخارجى وانتهى الأمر بهم إلى عقد صلح مع الأسبان عام ١٥١٢م، اعترفوا فيه باستيلاء الأسبان على عدة موانئ فى غرب الجزائر.

وكان سقوط هذه الموانئ فى يد الملك الكاثوليكى فرناندو عام ١٥٠٦م/١٥٠٩م المرسى الكبير ووهران وغيره من هذه المدن خسارة جسيمة على سلطنة تلمسان حتى أن الشعب طرد السلطان أبا حمو وجاء شخص آخر من الأسر الزيانية هو أبو زيان، وهو عم أبو حمو وولده عبد الله بعد أن أطلق سراحه من السجن

ووضعه على العرش، ولكنه لم يتمتع بذلك كثيراً لأن العرش كان مطمع الأخوين الأتراك خير الدين وعروج بابروس. لكن عندما طرد الشعب أبا حمو .. فإنه ذهب إلى وهران فوراً، وكانت تخضع للحماية الأسبانية وسافر معها إلى أسبانيا لمقابلة ملك أسبانيا الامبراطور شارل وناشده أن ينجده ويساعده ضد سكان تلمسان وضد التركى خير الدين وأخيه عروج وأرسل الامبراطور مع أبا حمو جيشاً دخل بواسطته إلى مملكته وقتل الوالى مع حاشيته واسترد أبو حمو سلطته على تلمسان، وكان ظهور هذه القوى الجديدة الغزاة الأسبان والمغامرون العثمانيون؛ فقد كان على الأسرة الزيانية أن تختار حماية احدى هاتين القوتين، وفى خلال التنافس على السلطة بين أفراد الأسرة استنجد بعضهم بالعثمانيين، والبعض الآخر بالأسبان، ووسط هذا الصراع انتفت الأسرة تماماً؛ لأنه بعد هذه الأحداث كافأ أبو حمو القوات الأسبانية ورغبة منه فى الطمأنينة ظل وفياً لتعهداته التى قطعها على نفسه تجاه الامبراطور شارل الأول ملك أسبانيا الذى أمده بألفى رجل، وراح يرسل له كل عام الجزية المحددة، وهى مائة وعشرين ألف دينار من الذهب واثنى عشر حصاناً عربياً من العتاق وستة من أناث الصقور، وقد تمسك بهذه المعاهدة مدة حياته وبعد موته آلت أمور السلطنة إلى أخيه عبد الله أبى محمد عبد الله الذى تولى عام ١٥١٨م، وظل يحكم حتى عام ١٥٤٠م، وأرسل خطاب وفاء وطاعة لخير الدين بربروس بعد أن استولى هذا على ميناء الجزائر فى ٢٧ مايو ١٥٢٩م؛ فإنه رفض طاعة الامبراطور وتنفيذ بنود المعاهدة التى وقع عليها أخوه وذلك بسبب الثقة التى كانت له عند السلطان التركى سليمان بن سليم الأول سلطان الأتراك.

ولقد كان نمو القوة التركية فى غرب حوض البحر المتوسط من الأسباب القوية التى جعلت القوى الأسبانية غير مستعدة لاحتلال المناطقة الداخلية فى المغرب، ولذلك آثر الأسبان اتباع نظام أشبه بالحماية على سلطنة تلمسان الضعيفة واحتلال الموانئ

التى يمكن تموينها من أسبانيا عبر البحر.

وهكذا .. كان ظهور قوة البحارة الأتراك المغامرين الذين جاهدوا القوى الأسبانية سبباً فى التفكير فى عدم خوض حرب داخلية مع سلطنة تلمسان.

ولقد كان التطاحن على السلطة العامل القوى والوحيد الذى عجل بنهاية الأسرة الزيانية ذلك لأنه فى الوقت الذى استولى فيه الأسبان على المرسى الكبير ووهران، وتدلس، وشرشال، وبجاية، وعلى جميع مدن الساحل. كانت السلطة الزيانية فى أشد فترات التطاحن والصراع على الحكم فلم يستطيع أبو حمو الثالث صد العدوان الأسبانى وأوقع المغرب الأوسط فى مشكلة كبرى إذ وقع نفسه فى أحضان أسبانيا وأدى لها جزية سنوية. لذا .. كان اتجاه الشعب وخاصة العلماء ورجال الدين والقضاة وطلاب العلم والصناع والحرفيين إلى ضرورة الاستعانة بالقوى التركية الإسلامية لصد الزحف الصليبى الأسبانى الذى يريد بديارهم الشر والكفر.

وأخذت الوفود تذهب إلى الأخوين التركيين، وهما عروج بن يعقوب التركى، وأخيه خير الدين اللذين كانا قد أسسا ولاية الجزائر العظيمة وربطوها بالدولة العثمانية، لذلك .. فإن الظاهرة الأساسية التى تميز تاريخ المغرب فى هذه الفترة الصراع العثمانى الأسبانى فى غرب البحر المتوسط. ولبى الأخوان على الفور طلب سكان المغرب الأوسط وأصبح ذلك الجزء من المغرب ساحة حرب بين الأتراك والأسبان. ودخل الأتراك المغرب الأوسط وأزاحوا أبا حمو عن الحكم لالتجائه إلى أعداء الإسلام، وفر أبو حمو إلى وهران وتولى أبو زيان أحمد عرش تلمسان، لكن كما سبق القول كان زبو حمو قد عاد بقوات من الأسبان ضربت حصاراً حول تلمسان فاضطر عروج إلى اختراق هذا الحصار فقتل عام ٩٢٤هـ/١٥١٨م، وفى هذه السنة كانت وفاة السلطان حمو الثالث وطلب خير الدين العون والمساندة من حكومة الأستانة فأرسل السلطان

سليم الأول ٩٢٤هـ/١٥١٨م ألفين من قوات الأنكشارية؛ بينما استعان الأمير أبو محمد عبد الله بالأتراك ونجد أبا عبد الله محمد بن السلطان محمد بن عبد الله ينحاز للأسبان محتميًا بهم ضد الأتراك.

ويبدو أن الصراع بين الأتراك والأسبان قد طال، ومن ثم استنجد أبناء المغرب الأوسط بالأشراف السعدين فى المغرب الأقصى واستطاع السعديون الزحف صوب المغرب الأوسط والاستيلاء على تلمسان ٩٥٧هـ/١٥٥١م.

وهنا يتضح مدى ما وصلت إليه الدولة الزيانية من ضعف وتحرك الأتراك لطرد السعديين من الجزائر ودارت بين الطرفين معركة انهزم فيها السعديون وعادوا إلى المغرب الأقصى. ودخل الأتراك تلمسان بقيادة حسن بن خير الدين، وعزل أبا زيان وولى مكانه الحسن بن عبد الله عام ٩٥٧هـ/١٥٥٠م، ولم تكن للسلطان حسن سلطة تذكر، وإنما كانت السلطة الفعلية للأتراك، وفى عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م خلعه الأتراك وضمت تلمسان منذ ذلك الحين إلى حكومة الجزائر وانقرضت أسرة بنى زيان على يد آخر سلاطينها السلطان الحسن بن عبد الله.

ومن هنا .. فإننا نرى كيف أن الصراع على السلطة بين أفراد الأسرة المالكة كان السبب المباشر للتدخل التركى الأسبانى، وكيف أن الصراع بين الأتراك العثمانيين والأسبان على مصير المغرب قد عجل بنهاية الأسرة الزيانية، التى قيل أن الوالى التركى صلاح ريس، وليس حسن بن خير الدين هو الذى دخل مدينة تلمسان وجعلها جزءًا من آيالة الجزائر عام ٩٦٢هـ/١٥٥٥م، وأصبحت تلمسان واقليمها جزءًا من المغرب الأوسط العثمانى.

وهكذا .. طويت صفحة من صفحات التاريخ فى المغرب الأوسط استغرق تاريخها

ثلاثمائة وأربعة وعشرين عامًا هجريًا، وثلاثمائة وخمسة عشر عامًا ميلاديًا تحت سيطرة الأسرة الزيانية التى عملت على استقلال المغرب الأوسط وسط الصراعات الأقليمية فى المغرب بين المغرب الأدنى والمغرب الأقصى ومحاولة إيجاد توازن بين هذه القوى التى كانت تطمع فى السيطرة على كيان الأسرة الزيانية، وكيف أن هذه الأسرة لم تكن تقف مكتوفة الأيدى أمام تحدى القوتين ففى بعض حقبها التاريخية احتلت قوات بنى زيان تونس عاصمة الدولة الحفصية، وفى بعضها الآخر سيطرت قواتها على فاس عاصمة الدولة المرينية. وبهذا .. تكون قد وضعت نهاية الدولة تحت السيطرة التركية التى صانتها من رجس التدخل الأسبانى الذى ربما لو خضعت له البلاد فى تلك الفترة من القرن السادس عشر الميلادى لتغير وجه المغرب الأوسط عما هو عليه الحال حاليًا.

* * * *

الأسرة الزيانية التى حكمت المغرب الأوسط

١ - أبو يحيى يعمراسن بن زيان (٦٣٣هـ-١٢٣٥م)

٢ - أبو سعيد عثمان بن يغمراسن (٦٨١هـ-١٢٨٢م)

٣ - أبو زيان محمد الأول (٧٠٣هـ-١٣٠٣م)

٤ - أبو حمو موسى الأول بن عثمان (٧٠٧هـ-١٣٠٧م)

٥ - أبو تاشفين عبد الرحمن الأول (٧١٨هـ-١٣١٨م)

٦ - أبو سعيد عثمان الثانى بن عبد الرحمن (٧٤٩هـ-١٣٤٨م)

٧ - أبو حمو موسى الثانى بن يوسف (٧٦٠هـ-١٣٥٨م)

خضعت سلطنة بنى زيان أثناء فترة حكم أبى سعيد عثمان فى أيدى بنى مرين طوال الحكم -اثنى عشر عاما- (٧٣٧هـ-٧٤٩هـ)، وأثناء حكم أبى حموى موسى -سبع سنوات- (٧٥٣هـ-٧٦٠هـ).

٨ - أبو تاشفين عبد الرحمن الثانى (٧٩١هـ-١٣٨٨م)

٩ - أبو ثابت يوسف الأول بن عبد الرحمن (٧٩٥هـ-١٣٩٢م)

١٠ - أبو الحجاج يوسف بن موسى (٧٩٥هـ-١٣٩٢م)

١١ - أبو زيان محمد عثمان بن موسى (٧٩٦هـ-١٣٩٣م)

١٢ - أبو محمد عبد الله الأول بن موسى (٨٠١هـ-١٣٩٨م)

١٣ - أبو عبد الله محمد الثالث (الواثق بالله) (٨٠٤هـ-١٤٠١م)

١٤ - عبد الرحمن الثالث بن محمد الثالث (٨١٣هـ-١٤١٠م)

١٥ – السعيد بن أبى أحمد موسى الثانى (٨١٤هـ–١٤١٧م)

١٦ – أبو مالك عبد الواحد (٨١٤هـ–١٤١١م)

١٧ – أبو عبد الله محمد الرابع بن أبى تاشفين الثانى الملقب بابن الحمرة

(٨٢٧هـ–١٤٢٣م)

١٨ – أبو مالك عبد الواحد (تولى الحكم للمرة الثانية) (٨٣١هـ–١٤٢٧م)

١٩ – أبو عبد الله محمد الرابع (ابن الحمرة) للمرة الثانية

(٨٣٣هـ–١٤٢٩م)

٢٠ – أبو العباس أحمد – العاقل بن أبى حمو الثانى (٨٣٤هـ–١٤٣٠م)

٢١ – أبو ثابت محمد الخامس المتوكل على الله (٨٦٦هـ–١٤٦١م)

٢٢ – تاشفين بن محمد الخامس (٨٩٠هـ–١٤٨٥م)

٢٣ – أبو ثابت محمد السادس (٨٩٠هـ–١٤٨٥م)

٢٤ – أبو عبد الله محمد السابع (٩٠٢هـ–١٤٩٦م)

٢٥ – أبو زيان أحمد الثانى المسعود (٩٠٩هـ–١٥٠٣م)

٢٦ – أبو حمو موسى الثالث (٩٠٩هـ–١٥٠٣م)

٢٧ – أبو زيان أحمد الثانى عودة للحكم مرة ثانية

(سقوط مصر تحت الحكم التركى) (٩٢٣هـ–١٥١٧م)

٢٨ – أبو حمو موسى الثالث تولى الحكم للمرة الثانية (٩٢٤هـ–١٥١٨م)

٢٩ - أبو محمد عبد الله الثانى بن المتوكل (٩٢٤هـ-١٥١٨م)

٣٠ - أبو سرحان مسعود (٩٢٥هـ-١٥١٩م)

٣١ - أبو محمد عبد الله الثانى (للمرة الثانية) (٩٣٠هـ-١٥٢٣م)

٣٢ - أبو عبد الله محمد الثامن (٩٤٩هـ-١٥٤٢م)

٣٣ - أبو زيان أحمد الثالث (٩٤٩هـ-١٥٤٢م)

٣٤ - أبو عبد الله محمد الثامن (عاد للحكم مرة ثانية) (٩٥٠هـ-١٥٤٣م)

٣٥ - أبو زيان أحمد الثالث (عاد للحكم مرة ثانية) (٩٥٠هـ-١٥٤٣م)

٣٦ - الحسن بن عبد الله الثانى (٩٥٧هـ-١٥٥٠م)

وكان السلطان ابن عبد الله آخر سلاطين أسرة بنى زيان كما سبق القول؛ فهو الذى شهد عهده انضمام حكومة تلمسان إلى حكومة الجزائر التركية وسقوط دولة بنى زيان نهائيًا من على مسرح الأحداث فى المغرب عام ٩٦٢هـ/١٥٥٤م، وصارت ولاية تركية تخضع لحكم الأستانة.

* * * *

الباب الثالث

بنى زيان على مسرح الأحداث فى المغرب الأقصى

قبيلة بنى مرين من القبائل الزنانية التى لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين على عكس أبناء عمومتهم بنى زيان، ولهذا أثروا الهجرة إلى الصحراء جنوباً على الدخول فى طاعة الموحدين وحياة الصحراء تلائمهم لأنهم من البدو الرحل. وكانوا يرحلون فى فضل الربيع إلى شمال المغرب الأقصى لرعى ابلهم ومواشيهم فيقضون شهوراً من السنة نازلين بين فكيك وملوية حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم فى الزاب أفريقية إلى سجلماسة.

وكان موطنهم الأصلى فى المغرب الأوسط ثم دفعتهم قبائل بنو هلال العربية غرباً، ولم يرغبوا أن يدخلوا فى طاعة الموحدين على عكس بنى عمومتهم بنى وطاس الذين دخلوا فى طاعة الموحدين وساهموا فى بناء الدولة، لكن بنى مرين منذ البداية كانت أحاسيسهم نحو الاستقلال، فانحدروا مع نهر ملوية إلى الجنوب حتى منابعه عند وادى نهر زيزا أحد منابع المولودية شمال تاقللت وسجلماسة، وهناك عاشوا مستقلين وإن كانوا مخالفين للموحدين. وقد اشتركت منهم قوة كبيرة فى معركة الأراك التى انتصر فيها الموحدون على الفونسو الثامن ملك قشتالة، وفى تلك المعركة أصيب شيخهم محبو بن حمامة بجراح خطيرة مات فيها وخلفه فى رياسة القبيلة ابنه عبد الحق الذى سيقع عليه عبء بناء دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى والذى استطاع باتفاقه مع الموحدين أن يدخل برجال قبيلته بلاد المغرب الأوسط ويمتد حتى آخر سيف على نهر المولوديه.

ولم يجد بنو مرين بدًا من الانسياح جنوبًا حتى أصبحت ديارهم فى النصف الثانى للقرن السادس بين قبيلة زاب أفريقية وسجلماسة وكانت قبائل مرين بدوية كثيرة النقلة طلبًا لمواطن الكلأ ومساقط المياه فيرتحلون شمالاً وربما يصابون إلى أجر سيف وما أن ضعفت دولة الموحدين بعد معركة العقاب فى الأندلس حتى وجدوا الفرصة السانحة فتدفقوا إلى سهول البلاد الغربية باسطين سلطانهم على بوديها بالقوة طوراً وبالمهادنة أحيانًا أخرى.

وهم قبيلة قوية من قبيلة زنانة البترية، ولم تكن قبيلة مرين قبيلة عادية من قبائل زنانة؛ بل كانت تمثل قسماً قويًا له عراقة وسطوة ونفوذ وقوة باسم القبائل الزنانية، بل كانوا أعلاها حسبا وأشرفها نسبًا. ورغم هذا الأصل الزنانى البربرى .. فإن المرنين يرفعون نسبهم إلى مضر؛ حيث يجتمعون بنسب الرسول ﷺ ، والبعض ينسبهم إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب.

ولم يكن لهذه القبيلة مكان محدد تستقر فيه؛ حيث كانت قبيلة بدوية أخذوا يشنون الغارات على حدود المغرب الجنوبية، ولم تزد أهدافهم عن كونها غارات بدوية تقصد السلب فى المناطق الحضرية، ولم تكترث الدولة الموحدية لهذه الغارات، ذلك لأنه لم يكن لهم مكان استقرار معلوم ودائم؛ بل تعددت أماكن استقرارهم فقد يستقرون فى بلاد القبيلة من أقليم الزاب الأفريقى، وذلك قبل دخولهم إلى بلاد المغرب الأقصى فى المنطقة الممتدة من جنوب مدينة القيروان إلى صحراء بلاد السودان، وكانت طبيعتهم البدوية تجعلهم ينتقلون من مكان إلى آخر، وهذه طبيعة القبائل البدوية التى ما تكاد تستقر فى مكان حتى ترحل إلى مكان آخر، وبهذا لم يكن لهم مكان معلوم ومحدد للسكنى والإقامة. لكن من الممكن القول أنهم كانوا يتحركون فى نطاق المنطقة الممتدة من بلاد الجريد شرقًا إلى المغرب الأقصى غربًا؛ حيث أنه يكاد

يكون معلوماً لدى الدارسين لتاريخ هذه القبيلة، وتحركاتها قبل أن تصبح دولة ذات كيان سياسى أنها بسطت نفوذها وسيطرتها الفعلية على المنطقة الممتدة من بلاد الزاب إلى تاهرت وبالتحديد ما بين تلمسان وتاهرت وأنها كانت قبل دفعها غرباً تسيطر على منطقة تلمسان وهى بؤرة التجمع القبلى لبنى مرين، والذين تحركوا منه شرقا وغربا.

وعلى هذا .. فإن المكان الأول الذى كانت تستقر فيه قبائل بنى مرين هو المغرب الأوسط وليس المغرب الأقصى الذى أقاموا فيه دولتهم فيما بعد ذلك لأن المنطقة الأولى التى انتشروا فيها كانت إلى الشرق من تلمسان فى اتجاه مدينة تاهرت ثم تقدموا فى الاتجاه الجنوبى الغربى؛ حيث أماكن المعيشة أكثر وفرة فى بلاد الزاب والجريد، ثم كانت الاندفاعة الأخيرة نحو بلاد المغرب الأقصى، ومن ثم .. أصبحوا يقفون على أعتاب المغرب الأقصى الشرقية.

ولقد كانت بنو مرين فى فترة إقامتها فى المغرب الأوسط من القبائل النشطة ذات الفعالية فى الأحداث التاريخية، ومن هنا اضطرت دولة المرابطين فى فترة بسط نفوذها على المغرب إلى احتوائهم ومهادنتهم وتقديم الهدايا لهم. ولما كان جدهم الأكبر مرين بن ماخوج الزناتى قد نشأ فى بيت الزعامة للقبيلة؛ فقد كانت شخصيته من القوة والصلابة؛ بحيث تؤهله للقيادة وانجب ولدين، هما حمامة وعسكر، وفى عهد محبو بن حمامة بن مرين شارك بنو مرين فى أحداث المغرب مما دفع المنصور الموحدى أن يسند قيادة القبائل المتطوعة من زناتة ومرين إلى محبو بن أبى بكر بن حمامة. وبذلك ساعد بنو مرين الموحدين فى تأسيس دولتهم وعملوا على تدعيم كيانها السياسى وتوطيد أقدامها من بلاد المغرب؛ بل أنهم لم يكتفوا بذلك داخل المغرب؛ بل شاركوا فى حركة الجهاد فى الميدان الأندلسى.

ويعتبر أبو محمد عبد الحق بن محبو بن بكر بن حمامة بن زيان بن محمد بن

محمد بن على بن تاشفين بن يحى بن على بن ابراهيم بن اسماعيل بن عمر بن الحسن بن على بن أبى طالب (ابن خلدون) مؤسس هذه الدولة.

وقد تقلد أبو محمد عبد الحق بن محبو زعامة قبيلة بنى مرين بعد وفاة والده ويعتبر عبد الحق أول من قاد قبائل بنى مرين إلى داخل بلاد المغرب الأقصى.

وأن عبد الحق مؤسس الدولة المرينية حاول الانتساب إلى الأصل العربى والنسب القرشى النبوى وأظهر ذلك صراحة عن طريق كتابهم وشعرائهم وعقد أواصر القربى والمصاهرة مع زعماء القبائل العربية المستوطنة بالمغرب وإن كان ذلك لا ينفى بأى حال من الأحوال أصلهم المغربى من بربر زناتة، ولعل هذه السياسة العربية التى انتهجتها هذه الدولة المرينية كان وازعاً ضرورياً لاكتساب الشرعية القانونية فى مواجهة اعتدائها من الموحدين واحتواء القبائل العربية واخضاعها بجوارهم من جهة أخرى إضافة إلى النسب القرشى فنجد أن مؤسس الأسرة المرينية عبد الحق بن محبو يتزوج بشريفة عربية من بنى على الحسنين الشرفاء اسمها «سوط النساء»، وأنجب منها الاوده عبد الله وادريس وعبد الرحمن، ومن ثم حذا حذوه معظم أمراء بنى عبد الحق فى الدولة المرينية؛ فقد تزوجوا من النساء العربيات واستخدموهم فى الحجابة والكتابة.

ولقد كان الفراغ السياسى والعسكرى وسوء أحوال الدولة الموحدية بعد هزيمة معركة العقاب التى وقعت بالأندلس يوم الإثنين ١٥ صفر ٦٠٩هـ، ١٧ يونيو ١٢١٢م، والتى هلك فيها ألوف من خيرة محاربى المسلمين وعشرات الألوف من أبناء البربر. ففى أعقاب هذه الهزيمة فاء يعقوب المرينى إلى دخول المغرب الأقصى وفكروا جدياً فى الاستقرار النهائى ذلك لأن اضطراب الأحوال فى الدولة الموحدية من أثر تلك الهزيمة القاسية فى واقعة العتاب، وما ترتب على ذلك من أحداث قاسية واضطراب الأمور، وما أصاب الحياة من خلل فى جميع النواحى الإدارية، والسياسية، والعسكرية

فى جميع الأحوال فى نواحى البلاد؛ حيث أنه لم تمض على هذه الواقعة خمسة شهور إلا ومات الخليفة الموحدى الرابع أبو محمد الناصر فى ١٠ شعبان ٦١٠هـ/ ٥يناير ١٢١٣م. وبموته تعتبر نهاية الدولة الموحدية بهذه الكارثة العسكرية أصبح بنى عبد المؤمن من الموحدين عاجزين عن حماية دولتهم. ومن ذلك فقد كان ذلك الميعاد والفوضى هو الوقت المناسب لبنى مرين لكى يدخلوا البلاد فى ظل الفوضى السياسية والضعف العسكرى ووفاة عاهل الموحدين وأن يقيموا إقامة دائمة لأنهم كانوا قد دخلوا المغرب قبل هذه الأحداث؛ فإن الموحدين لاشك فى أنهم كانوا سوف يطاردونهم ويقاومونهم ويقضون على وجودهم داخل نطاق الدولة الموحدية. وهكذا كانت أحداث الأندلس والشرخ السياسى فى البيت الموحدى ونتيجة الهزيمة القاسية من الأسباب القوية لدخول بنى مرين إلى المغرب الأقصى.

ولما كانت بنى مرين من القبائل الكثيرة العدد القوية الشكيمة العنيدة ذات الصلابة الحديدية نظراً لظروف المعيشة السابقة؛ فكان لابد لهم أن يستغلوا الظروف الحالكة التى تعيش فيها الدولة الموحدية أحسن استغلال فكانت أنظارهم تتجه لبناء دولة كما أقام المرابطون والموحدون دولا لهم على أرض المغرب.

وبعد أن طاب لهم المقام والاستقرار فى المغرب الأقصى، وعدم تفكير الدولة المنهارة سياسياً وعسكرياً فى طردهم أو القدرة على مقاومة وجودهم فإن بنى مرين بدورهم أرسلوا إلى أشياخ القبائل من بنى مرين فأجمعوا أمرهم وشدوا رحالهم هابطين إلى بلاد المغرب الأقصى للانضمام لإخوانهم ولكى يشدوا أزر إخوانهم ويعملوا سوياً لإقامة الكيان المرينى المرتقب الذى كان يخالج فكر عبد الحق ولما كان دخولهم فى هذه الظروف يجعلهم على حذر وخوف من الدولة التى كانت قادرة فى أقصى ظروف الضعف أن تطردهم فقد عملوا على عدم التركيز فى مكان واحد حتى لا يكونوا تحت

بصر ورقابة الدولة؛ فكانت حركة انتشار واسعة شملت الريف من أقليم تازة وفضلوا الاستقرار فى النواحى المرتفعة من المغرب الأقصى لأنها توفر الحماية لهم.

لكن ظروف إقامتهم جعلتهم يتصادمون مع القبائل العربية ومحاولة الحد من سطوة العرب بعد ما أصاب الموحدين من ضعف واضطراب وعدم قدرة على تيسير الأمور وحكم البلاد بالقوة.

وكان أن نشب الصراع بين بنى مرين وبين عرب رياح وجشم حلفاء الدولة الموحدية التى بدأت عوامل التفكك والانحلال تدب فى أوصالها إذ أنه عندما تمكن الأمير المرينى من الاستيلاء على رباط تازا عام ٦١٣هـ / ١٢١٦م، وأخذ يغير غرباً على بلاد الهبط فى شمال المغرب دفع الموحدون بأنصارهم من القبائل العربية، وهم عرب رياح التى كانت أشد قبائل المغرب قوة وأحدهم شوكة وعنفاً لحداثة عهدهم بالبداوة والقدرة على مقاومة النفوذ المرينى الذى بدأ يظهر. ورحبت رياح بذلك دفاعاً عن بلادهم التى هى بلاد الهبط، والتى استقروا بها. ثم زحف عرب رياح وبربر بنى عسكر الذين هم أبناء عمومة بنى مرين إلى مقاتلة بنى مرين وتقابلوا «بوادى سيو» فانتصر العرب وتمكنوا من قتل الأمير عبد الحق وابنه الأكبر ادريس عام ٦١٤هـ/١٢١٧م. وتولى قيادة القبائل المرينية الأمير عثمان بن عبد الحق.

ويعتبر عبد الحق المرينى أول من نقل بنى مرين من عيشة البداوة إلى التفكير فى بناء دولة فى المغرب الأقصى وكان اشتراك بنى مرين فى القوات التى يرسلها الموحدون للقتال فى الأندلس والمغرب قد اكسبهم خبرة قتالية واطلعهم على الازدهار والعمران فى المدن، ومن هنا .. تاقت أنفسهم إلى تكوين دولة، وقد ظل بنو مرين طيلة ثلاث سنوات حتى موقعة وادى سيو يعملون على توسيع رقعة نفوذهم فى المغرب الأقصى. وقد أدرك الموحدون أن هذا التوسع يهدد دولتهم ومن هنا .. عملوا على القضاء عليهم

فكانت معركة وادى سيو التى لم يتم الانتصار النهائى فيها لبنى مرين. ذلك لأنه أثر قتل عبد الحق وابنه ادريس فإن ابنه السعيد عثمان قرر عدم دفن والده وأخيه إلا بعد أخذ ثأرهما من عرب رياح وفعلاً تمكن من إيقاع الهزيمة بهم وشردهم فى أماكن كثيرة، وغنم معسكرهم وأذعن عرب رياح للخضوع لبنى مرين وفرضوا عليهم اتاوة سنوية، بعد أن استطاع الأمير أبو سعيد عثمان بن عبد الحق أن ينهى الحرب الدائرة بينهم لصالح بنى مرين.

وازدادات قوة بنى مرين بعد هذا الانتصار مما مكن أبا سعيد عثمان بن عبد الحق أن يبذل جهوداً كبيرة لبسط نفوذ بنى مرين على أراضٍ جديدة بعد أن بدأ المرينيون حياتهم السياسية بصراع طويل وسريع ومدمر مع الموحدين استمر ثمانية وخمسين عاماً، ذلك لأن خصوم الموحدين قد دخلوا فى دائرة نفوذ بنى مرين.

وكان انتصار بنى مرين على الموحدين ذا دلالة سياسية أكثر منها دينية لأنه لم يكن لهم مذهب دينى يدعون له كالمرابطين والموحدين، حقيقة أنهم ادعوا أنهم حماة الدين ولكن الفضل فى انتصارهم فى وادى سيبو يعود إلى قوة جيشهم، إضافة إلى أنهم عملوا على استتباب الأمن والعمل لصالح الرعية، ومن هنا كسبوا محبة الناس لهم أكثر مما يعود إلى اعتقاد الناس بأحقيتهم فى العرش، ولم يحصلوا على اثامة كيانهم السياسى نتيجة هذه المعركة؛ بل نتيجة خطوات طويلة ومعارك طاحنة أخذت وقتاً طويلا.

* * * *

الفصل الأول

بداية ظهور الدولة

فى عام ٦١٦هـ/١٢١٩م بلغت الأحوال فى المغرب الأقصى درجة شديدة من سوء الإدارة وانتشار الأمراض وعم الغلاء جميع أوساط الشعب وعجز أمراء الموحدين عن ممارسة سلطاتهم السياسية والدينية وحدث تذمر شديد بين القبائل فى أنحاء المغرب مما دعا الأمير أبا سعيد عثمان بن عبد الحق المرينى زعيم قبائل بنى مرين والطامع فى انشاء كيان سياسى على نمط المرابطين والموحدين دعا كبار القوم فى قبيلته وأشياخ العشيرة من بنى حمام لكى يتدارس معهم الأوضاع الاقتصادية والسياسية وما آلت إليه الأمور فى البلاد، وبعد نقاش طويل أعلن المجتمعون خلع طاعة الموحدين خاصة وأن الموحدين فقدوا سيطرتهم تماماً على القبائل. ولم يعد لهم نفوذ إلا فى المدن الكبرى التى تخضع لحكم الولاة من قبلهم، ولقد كان من السهولة بسط نفوذ بنى مرين على القبائل فى ظل غياب قوة الدولة وضعف مندوبيهم وعدم قدرتهم على تحصيل الجباية والزكاة.

بل إن الأمير أبا سعيد عثمان اتخذ خطوة حاسمة فى سبيل إضعاف كيان الموحدين وبسط نفوذه على المدن توطئه لتوسيع دائرة الكيان المرينى والانطلاق به من السيطرة على القبائل إلى السيطرة على المدن الكبرى؛ فنجد أنه صالح أشياخ مدن قابس ومكناسة ورباط ووتازى وغيرها من المدن وتعهد لهم بأن يقف حائلا دون غارات القبائل البدوية على هذه المدن فى نظير الاعتراف بنفوذه السياسى عليهم.

ولقد كان الموقف القوى الذى وقفه أبو سعيد عثمان بن عبد الحق من الخليفة

الموحدى الرشيدى بعد أن عمل الأخير على دفع بنى مرين خارج الأقاليم التى أوغلوا فيها حتى ممرتازا شرق وادى سيبو والنصر الكبير الذى حققه ودخول بنى مرين السهول شمال مراكش ووادى سيبو دافعًا لأن يتحرك أبو سعيد لمحاولة وضع اللبينات الأولى نحو بناء دولة؛ بل أنه لم ينته عام ٦٢٥هـ/١٢٢٨م. حتى كانت جميع قبائل المغرب قد خضعت لهم وتملكوا جميع بوادى المغرب من وادى ملوية التى رباط الفتح.

لكن إزاء هذا التوسع فى دائرة بنى مرين وخضوع القبائل والمدن الكبرى لهم فإن الخليفة الموحدى، وقد أحس بخطورة السعيد بن عثمان المرينى على كيان دولة الموحدين لم يجد أمامه وسيلة إلا الثأر والاغتيال فأرسل فى عام ٦٣٧هـ/١٢٣٩م من يقتل أبا سعيد عثمان غدرًا. وهكذا تولى بعده أخوه محمد بن عبد الحق بن حمام المرينى قيادة المرنين نحو تحقيق هدفهم الذى طال أمده أكثر من خمسين عامًا حتى استطاعوا إسقاط دولة الموحدين وبناء دولتهم، ومن هنا .. فقد كان يتحمل عبء الدفاع عن كيان بنى مرين وحمل راية الكفاح ضد الكيان الضعيف للموحدين أن يسير على نهج سلفه، ومن هنا منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها محمد بن عبد الحق نجد أنه سار على نهج أخيه أبى سعيد عثمان فقام بفتح الكثير من قلاع بلاد المغرب وأخذ يؤمن المكاسب التى حصل عليها بنو مرين من هدف القبيلة فى عبد الحق، وأخيه أبى سعيد عثمان وانطلق نحو هدف القبيلة فى بناء الدولة.

ودخل محمد عبد الحق مع بنى عسكر الذين هم فرع من بنى مرين فى معارك كثيرة ودارت معركة معهم انتصر فيها ابن عبد الحق على جيش بنى عسكر، لكن هذا الانتصار أفزع الخليفة الموحدى الرشيد الذى بادر بإرسال جيش من الموحدين (بربر مصمودة) والقبائل العربية والفرنجة والمرتزقة وفرسان من الأسبان حتى بلغ الجيش الذى أرسله عشريه ألف مقاتل لقتال بنى مرين، لكن بنى مرين انتصروا للمرة الثالثة على

قوات الموحدين وإزاء هذه الانتصارات لم يجد الخليفة الموحدى الرشيد من سبيل سوى المسالمة والمهادنة لبنى مرين وقد شهد عهد محمد الأول بن عبد الحق استعادة نفوذ بنى مرين فى شمال المغرب واستطاع أن يتغلب على بنى زيان وأخرجهم من أقليم تلمسان؛ حيث قامت دولتهم وقد دامت فترة حكم محمد الأول بن عبد الحق خمس سنوات (٦٣٧هـ-٦٤٢هـ) ؛ حيث قتل فى معركة مع قوات الخليفة الموحدى السعيد، وذلك أثر ازدياد قوة المرينين واتساع دائرة نفوذهم فإن الخليفة الموحدى جهز جيشاً للانتقام منهم فما كان منه إلا أن جهز جيشاً من العرب والغز والروم والمصامدة والموحدين ورجال القبائل، والتقى الجيشان بالقرب من فاس وقتل الأمير المرينى محمد الأول الشهير بأبى معروف عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م، ولحقت الهزيمة ببنى ممرين وتركوا فاس وارتدو إلى البوادى والصحراء.

ولقد وضعت هذه المعركة حداً مؤقتاً لاندفاع بنى مرين للاستيلاء على المدن والتدخل فى شئون الحضر والاكتفاء بسيطرتهم على سكان البوادى والصحراء إلا أنهم رغم الهزيمة القاسية وقتل أميرهم إلا أن أشياخ القبيلة وعليه القوم بها بايعوا خليفته وأخاه أبا يحيى أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢-٦٥٦هـ/ ١٢٤٤-١٢٥٨م).

ولقد كانت فترة أبى بكر من أهم الفترات التاريخية فى حياة بنى مرين إذ وقع على كاهله مسئولية الحفاظ على كيان بنى مرين والإبقاء على قوة الدفع لبناء وتأسيس دولتهم وحمايتها من المخاطر، ومن هنا .. كان عليهم الوقوف أمام الموحدين والكيد لهم انتقاماً لقتل العديد من رؤسائهم (عبد الحق وابنه ادريس، والسعيد عثمان ابن عبد الحق ومحمد الأول بن عبد الحق)، ولقد كان عهد أبى بكر عهداً شهد حسم الصراع مع الموحدين إذ أن ذلك الأمير قد جعل استقلال بنى مرين أمراً طبيعياً وواقعياً؛ حيث دخل فى صراع طويل مع الموحدين تمكن فيه من التغلب عليهم ودخل قابس

ومكناس ووصل سلطانه إلى شاطئ البحر واحتل سلا والرباط وعلى يديه قامت دولة مرين وعاصمتها فاس.

لكن السعيد الموحدى تبعه بحشود من العرب، والتقى به بالقرب من تامسينا وانتهى الأمر بهزيمة بنى مرين وانسحابهم من أرض المعركة، لكن بنى مرين استغلوا فرصة مقتل السعيد الموحدى فى صراعه مع بنى زيان وتمكنوا من استعادة رباط تازا ومكناسة وفتح فاس وضواحيها حتى أنه لم يبق بيد الموحدين غير بلاد الحوز الجنوبية.

وفى ظل هذه الانتصارات التى كان لابد من تأمينها والحفاظ عليها فاستعمل أبو بكر أسلوباً سياسياً بارعاً، وهو الاعتراف بالتسمية للخلافة الحفصية فى تونس والتعاون معهم للتعاون فى وقف خطر بنى زيان وادخال قوى جديدة فى الصراع فى المغرب الأقصى هى قوة بنى حفص واستخدامها فى ضرب التعاون الزيانى الموحدى، بعد أن ظل خلفاء الموحدين يحكمون ٦٤٦هـ/١٢٤٨م.

وفى حقيقة الأمر .. فإن الأمير أبا بكر بن عبد الحق يعتبر أول الكبار من أمراء بنى مرين وهو أول سلاطين بنى مرين وإن كان هو رابع شيوخهم الذين قامت على أكتافهم اللبنات الأولى لبناء الدولة وكان أبو بكر من الذكاء والحكمة والكياسة السياسية؛ حيث أنه وجد نفسه بين قوتين بنى زيان والموحدين فما كان منه إلا الاحتماء والالتجاء إلى بنى حفص فى أفريقية وقام بنو حفص من جانبهم بمساعدة بنى مرين وتدمير تحالف (بنى زيان – الموحدين) والاستيلاء على تلمسان عاصمة بنى زيان عام ٦٤٠هـ/١٢٤٣م. ومن ذلك الموقف والتاريخ بدأ بنو مرين يحافظون على مظهر التبعية لبنى حفص.

وخلال فترة حكم أبى بكر عبد الحق التى امتدت أربعة عشر عاماً .. فإنه عمل

على توطيد دعائم حكمه داخلياً بعد أن آمن خطر بنى زيان خارجها فعمل على تأمين الجبهة الداخلية وتقسيم مناطق النفوذ المرينى فى المغرب الأقصى بين القبائل وأنزل كل قبيلة فى مكان محدد لها ومسئولية كل قبيلة فى حماية منطقتها ثم العمل على تقليص النفوذ الموحدى والاستيلاء على ما تبقى من المدن الكبرى. ووحد أبو بكر صفوف بنى مرين وحشد الخليفة الموحدى السعيد جيشاً كثيفاً يعاونه زعيم بنى زيان يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان بقوة تزيد على الألف فارس وحشد الموحدون جمع القبائل المعادية لنفوذ بنى مرين معهم فى القتال لكن ذلك التحالف لم يجعل أبا بكر يتخلى عن موقفه فى ضرورة الاستيلاء على مدن الموحدين والتمكين لبناء الدولة.

الأمير عبد الحق وخطوات الإعداد لإنشاء الدولة المرينية
٦٤٢هـ - ٦٥٦هـ / ١٢٤٤م - ١٢٥٨م

لم يمض عام واحد على تولية أبى بكر قيادة المسيرة المرينية نحو بناء دولة وكيان سياسى لهم حتى استطاع السيطرة على مدينة مكناس ذلك أنه فى عام ٦٤٣هـ/١٢٤٥م خضعت المدينة لبنى مرين وخلعت طاعة الموحدين وفتحت المدينة أبوابها لبنى مرين سلماً وأرسل أهل مكناسة بيعتهم إلى الأمير الحفصى أبى زكريا نكاية الموحدين ومحاولة اصباغ الشرعية على ما يقوم به بنو مرين من الاستيلاء على أراضى الموحدين ومحاولة كسب التأييد الشعبى ببيعتهم لبنى حفص فى أفريقية وكان استيلاء بنى مرين على مكناسة ضربة قوية للخليفة الموحدى السعيد وها هو يشاهد دولة الموحدين تتمزق اربا أمام عينيه فالحفصيون سيطروا على أفريقية وبنو زيان يسيطرون على المغرب الأوسط ويبسطون نفوذهم على أبواب المغرب الأقصى وأقاموا هذه الأرجاء

الدعوة لبنى حفص وبنى هود واقتطعوا أجزاء من الأندلس وأقاموا الدعوة لبنى العباس وبنى الأحمر فى غرناطة وأقاموا الدعوة لبنى حفص وهؤلاء بنو مرين لا يمر عليهم يوم دون اقتطاع أجزاء من المغرب الأقصى فسيطروا على ضواحى المغرب الأقصى ثم فتحوا مكناسة أخيراً وأقاموا فيها الدعوة لبنى حفص حكام أفريقية.

لكن لم ينته عام ٦٤٦هـ/١٢٤٨م، حتى كان الخليفة الموحدى السعيد قد قتل، ومن معه على أيدى بنى زيان وكان مقتل السعيد الموحدى فاتحة أمل لبنى مرين لأنه بعث جديد لهم وكان على أبى بكر بن عبد الحق أن يعترض فلول الموحدين المشحبة من المغرب الأوسط أثر مقتل سلطانها؛ حيث فروا إلى مراكش وتم له ذلك واستطاع أن يضم عدداً أكبر من جيش الموحدين إليه ثم يتجه نحو مكناسة للمرة الثانية وفتحها واتجه إلى رباط تازا وفتحه مسرعاً قبل أن يتجه إليه يغمراسن بن زيان لفتحه وضمه لأملاكه فى المغرب الأوسط.

لكن أهداف بنى مرين لم تتوقف عند فتح مكناسة وضمها إلى ديارهم ولكن كان الهدف هو السيطرة على كل أرجاء المغرب وأقصاء الموحدين من البلاد فكانت الخطوة الثانية مدينة فاس للعمل على انتزاعها بكل السبل والوسائل من أيدى الموحدين فحاصرها الأمير أبو بكر يحيى بن عبد الحق حصاراً شديداً وشدد عليها الحصار حتى خرج إليه أشياخها وتمت مبايعته خارج أسوارها ثم دخلها أبو بكر فى ربيع ثانى عام ٦٤٦هـ/١٢٤٩م، وبذلك خضعت فاس لسيطرة بنى مرين، وخلعت طاعة الموحدين وظل الأمير أبو بكر المرينى مقيماً بالمدينة أكثر من عام، لكن بعد مغادرته المدينة خلع أهلها البيعة والارتضاء ببيعة الخليفة الموحدى المرتقى، وعاد الأمير المرينى إلى المدينة لفتحها عنوة، لكن الأحداث لم تكن فى صالح أبى بكر وبنى مرين، ذلك أن يغمراسن بن زيان زعيم بنى عبد الواد فى المغرب لاأوسط انتهز فرصة ثورة

سكان فاس وخلعهم طاعة المرنين فأراد الاستيلاء على أقليم رباط نازى الذى كان يخضع فى الماضى لحكم بنى زيان أيام الموحدين وحكموه فترة طويلة، وفى نفس الوقت كان الخليفة المرتضى الموحدى قد راسل سراً حاكم المغرب الأوسط يغمراسن ابن زيان ليقف فى وجه بنى مرين، لكن زعيم عشائر بنى مرين غير اتجاه الحملة العسكرية من طريقها إلى فاس إلى الاتجاه المضاد نحو رباط تازى بدلاً من فاس وليقابل يغمراسن الذى سيطر على وجده ودارت معركة شرسة عند مدينة (اسيلى) فر بعدها يغمراسن إلى تلمسان وكانت هذه المعركة أول لقاء مباشر بين قوات بنى مرين وقوات بنى زيان وبعد هذا الانتصار عاد الأمير أبو يحيى المرينى عام ٦٤٧هـ/١٢٥٠م إلى فاس وأحكم قبضته عليها وطلب أهلها الصلح فدخلها الأمير المرينى فى جمادى الآخرة عام ٦٤٨هـ/١٢٥٠م، وشدد على أهلها وتوطد النفوذ المرينى والسلطة المرينية فى هذه المدينة.

الخطط العسكرية :

ثم بعد ذلك كان على بنى مرين أن يسيروا فى نفس المنهج الذى اختطوه لأنفسهم بمتابعة فتح المدن والحصون والقلاع التى تخضع للموحدين وضرورة حصر الموحدين فى نطاق ضيق حول عاصمتهم مراكش فكان عليهم أن يوسعوا دائرة المدن تحت قبضتهم ففتحوا مدينة سلا ورباط الفتح وكانت خطة بنى مرين العسكرية فى ذلك الاستيلاء على هاتين المدينتين والهدف منها قطع الصلة بين الموحدين وبين شمال المغرب الأقصى وبذلك لايكون لهم أدنى صلة بهذه النواحي والبقاء محاصرين فى منطقة جنوب المغرب الأقصى.

ولكن على الجانب الآخر لم يكن الخليفة المرتضى الموحدى غافلاً من خطط

المرينين وما يريدون القيام به فقرر أن يبدأ بالهجوم بهدف إيقاف زحفهم نحو سلا ورباط الفتح والتقى المرتضى الموحدى ومعه قواته من بنى مرين بالقرب من مكناسة واستطاع المرينيون هزيمة الموحدين بسهولة، وكان ذلك بخدعة وحلت بالموحدين هزيمة دون قتال وكان ذلك دليلاً على ما أصاب القوى الموحدية من انهيار وتحاول الوقوف أمام بنى مرين، وسيطروا على بلاد زناتة وسلا ورباط الفتح عام ٦٤٩هـ/١٢٥١م.

وكان خضوع هاتين المدينيتين (سلا ورباط الفتح) قد دفع موسى بنى زيان التوكاسى وأخاه على بن زيان بالالتجاء إلى المرتضى الموحدى محرضين إياه على قتال أبى يحيى بن عبد الحق وإزاء حشود المرتضى طلب بنو مرين السلام والصلح، ولم يقبل المرتضى ذلك بتأثير وزرائه الذين أفتوا بعدم جواز وجود ملكين فتقابل الجيشان فى (أمان ليملول) وانسحب بنو مرين من ميدان القتال وخاف الموحدون أن يكون الانسحاب خدعة فلم يتبعوهم.

وفى عام ٦٥٣هـ/١٢٥٥م حشد المرتضى جيشاً ضخماً بلغ تعداده مائتى ألف مقاتل وسارية حتى وصل إلى قرب فاس وجبال بهلولة والتقى بالأمير المرينى أبى بكر يحيى وللمرة الثالثة يهزم الموحدين بدون قتال، وفر الخليفة إلى مراكش وترك قواته وعدته وعجلت قواته بالانسحاب تاركين خلفهم بعض آلاتهم ومضاربهم فضمها بنو مرين بدون قتال. وازدادت قوة بنى مرين بما غنموه فسارعوا بمهاجمة بلاد تادلا وقضوا على حاميتها من عرب جشم وقدمت له القبائل خضوعها ومنذ هذا الوقت صار اضمحلال دولة الموحدين وانهائها من مسرح الأحداث سريعاً واستعادتها بنو مرين.

وكانت هزيمة الموحدين فى موقعة جبل بهلولة ضربة قاضية للموحدين مما اضطر الأمير المرتضى إلى طلب الصلح مع المريين وأرغموه على دفع الجزية واكتفى

بما لديه من من مناطق يحكمها تمتد إلى جنوب المغرب الأقصى لكن بنى مرين كانت لديهم أمالهم وطموحاتهم باقتلاع جذور الموحدين تمهيداً لإقامة دولتهم بالمغرب الأقصى دون أن تنازعهم فى تلك الأماكن قوة أخرى وتمكن بنو مرين بفضل مساعدة ومخالفة عرب المعقل من الاستيلاء على درعه وسجلماسة جنوباً عام ٦٥٥هـ/١٢٥٧م.

وقد استغل بنو مرين الصلح مع المرتضى وتم الاستيلاء على سجلماسة ودرعه، وكان الاستيلاء على سجلماسة عن طريق انقلاب ضد حاكم المدينة وليس عن طريق القتال والحشد العسكرى والحصار. وكان يعمراسن بن زيان حاكم تلمسان قد تحرك لأخذ سجلماسة؛ حيث راسله بعض أهلها ولكن يغمراسن فوجئ بوصول الأمير المرينى أبى بكر يحيى بن عبد الحق ودارت بينهما معركة انسحب بعدها يغمراسن بعد أن تأكد من تمكن بنى مرين من سيطرتهم على المدينة.

وبعد أن سيطر بنو مرين على سجلماسة ودرعه ظل الأمير أبو بكر يعمل طوال العامين ٦٥٥هـ، ٦٥٦هـ على تثبيت أقدام بنى مرين فى سلا ورباط الفتح وسجلماسة حتى توفى فى جمادى الآخرة عام ٦٥٦هـ/١٢٥٨م. وبوفاة الأمير أبى بكر بن عبد الحق انتهت مرحلة استيلاء بنى مرين على المدن الكبرى فى المغرب الأقصى وبدأت مرحلة جديدة لها أهميتها فى بناء قواعد الدولة الجديدة التى ستمارس دورها على مسرح الأحداث فى المغرب والأندلس وفى عالمها المعاصر.

بويع عمر بن أبى بكر بن عبد الحق المرينى بعد وفاة أبيه ليتولى أمر بنى مرين، لكن أشياخ بنى مرين وأهل الحل والعقد وقادة الفكر والدين لم يقبلوا تولية أمر الإمارة رغم رضاء عامة الشعب وقادة الجيش ذلك لأن الخاصة من أهل الرأى كانوا يرون أن عمه يعقوب بن عبد الحق الذى كان خارج فاس فى مدينة تيازى عند وفاة أخيه هو

الأحق بقيادة مسيرة بنى مرين للقضاء نهائياً على دولة الموحدين، لكن الأمور لم تستقر وظلت طوال أربعة شهور ولم تتفق الأمة على عمر بن أبى بكر مما دفع الأمير يعقوب ابن عبد الحق للقدوم إلى فاس ساعياً لإنهاء الأوضاع المتردية بالمدينة وتهدئة الأحوال بين بنى مرين وحسم الأمر الذى كان مقسماً بين عمر وعبد الحق وتنازل عن الحكم لابن أخيه عمر ليتولى العرش على أن تكون له بلاد نازى يحكمها إضافة إلى ملوية وبطوية، لكن شيوخ بنى مرين لم يقبلوا بالتنازل وأصروا على مبايعة يعقوب وأمام أمراء المشايخ والخاصة وأهل الرأى والقرار القوى من جانب مؤيديه فإنه قبل تكليفهم له فلما علم عمر بن أبى بكر بذلك خرج لقتال عمه عبد الحق لكنه انهزم وتنازل عن قيادة بنى مرين لعمه يعقوب وتولى عمر حكم إمارة مكناسة، فصار يعقوب بن عبد الحق أميراً منتخباً من قبل الخاصة، وأهل الحل والرأى، وهكذا .. وطد وضعه وشرعيته أمام الشعب.

بنى مرين تحت قيادة يعقوب بن عبد الحق
٦٥٧ – ٦٨٥هـ / ١٢٥٩ – ١٢٨٦م

بوفاة الأمير أبى بكر عبد الحق كان نفوذ الموحدين ينحصر فى المنطقة الواقعة بين وادى أم الربيع وبين عاصمتهم مراكش وأما بنو مرين فقد امتد سلطانهم ما بين ملوية وأم الربيع وسجلماسة وكانت القبائل العربية فى المغرب الأقصى تميل أحياناً إلى الموحدين وأخرى إلى بنى مرين وجدير بالذكر أن قيام دولة بنى مرين لم تعتمد على سواعد ومساندة العرب؛ بينما كان الموحدون يعتمودن كثيراً على القبائل العربية.

وكان الأمير يعقوب سيد بنى مرين من الشخصيات القوية، وكان له باع طويل

فى الحركة السياسية والبناء السياسى فى بلاد المغرب والأندلس وأنه ما كادت أوضاع بنى مرين تستقر فى بلاد المغرب حتى عمل على حفظ السلام وخدمة أهداف بنى مرين والوقوف بحزم وقوة ضد محاولات طرد المسلمين من الأندلس، وقد تعرض بنو مرين إلى عدة هجمات من جانب بنى زيان.

وكان يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان يرى فى الصراع الدائر بين عمر بن أبى بكر وعمه يعقوب بن عبد الحق فرصة مناسبة للقضاء على يعقوب وتحقيق أهدافه فى التوسع غرباً فى المغرب الأقصى وأن تقسيم المغرب بين فاس (عبد الحق بن يعقوب) ومكناسة (عمر بن أبى بكر بن عبد الحق)، قد تمزق، وأن هناك عداء مستحكماً بين عمر بن أبى بكر حاكم مكناسة وعمه يعقوب فى فاس، وأن هذه الفرصة تمكنه من القضاء عليهم فجمع يغمراسن بن زيان جيشاً كبيراً، وضم إليه القبائل من بنى توجين ومغراوة البربرية وبنى عامر حلفائه من القبائل العربية ووصلت أنباء هذه الحشود إلى الأمير يعقوب بن عبد الحق فخرج بجيشه من بنى مرين والتى بيغمراسن عند بلدة، كلديان، وانهزم بنو زيان وانسحب يغمراسن بن زيان.

وكانت الجبهة الداخلية قد أصابها التصدع أثر الصراع بين عمر بن أبى بكر وعمه يعقوب؛ فعمل الأخير على تأمينها لكى يستطيع أن يواجه الموحدين وكان قد تم قتل منافسه عمر بن أبى بكر عام ٦٥٨هـ/١٢٥٩م. وبمقتل الأمير عمر بن أبى بكر عادت مكناسة إلى حكم يعقوب وجددت له البيعة وبذلك توحدت الأراضى المرينية تحت حكم يعقوب. واستطاع يعقوب بعد ذلك أن ينزع مدينة سلا من حكم أحد أفراد بنى عبد الحق الذى استعان بالأسبان فتم طردهم منها عنوة، وهكذا .. خضعت سلا ليعقوب بن عبد الحق، وبعد أن أتم الأمير يعقوب بن عبد الحق تنظيم شئون سلا وأصلح ما تخرب فيها وأمر بإعادة الحياة إلى مرافقها عين أحد رجاله عليها.

وبعد ذلك زحف بنو مرين بقيادة يعقوب بن عبد الحق إلى تامسينا شمالاً فواجهتهم القوات الموحدية فانسحبوا إلى وادى أم الربيع بعد أن اتفقوا مع عرب بنى جابر من جشم بالتخلى عن الموحدين عند نشوب المعركة ووقع الموحدون فى الفخ وانهزموا وانضم شيخ عرب الخلط إلى السلطان يعقوب المرينى الذى استولى على مدينة تامسنا وكذلك مدينة آنفا وهى المسماة حالياً بالدار البيضاء ثم استمر فى زحفه جنوباً حتى انتهى إلى جبل الجلبرا بالغرب من مدينة مراكش عام ٦٦٥هـ/١٢١٢م، وهكذا سيطر بنو مرين على معظم بلاد المغرب وبذلك وصل النفوذ الفعلى لبنى مرين حتى وادى أم الربيع، ومن هنا .. فقد قربت نهاية الخليفة المرتضى بالله الموحدى ودب الذعر فى صفوف الموحدين وارتاب المرتضى فى أنصاره من العرب واعتقل بعض زعمائهم وقتل جملة منهم ثم عهد لابن عمه أبى ديوس بقيادة الجيش الموحدى واستطاع أبو دبوس أن يوقف زحف السلطان يعقوب المرينى ويقتل بعض كبار قواده.

لكن صلحاً تم بين الخليفة المرتضى والسلطان يعقوب اعترف فيه خليفة الموحدين بالوجود المرينى وما وصل إليه من سيطرة على المدن والأراضى التى تحت يديه. وبعد معاهدة الصلح هذه مع الموحدين اتجه السلطان يعقوب بن عبد الحق إلى الشرق؛ حيث دولة بنى زيان فى تملسان فعقد صلحاً مع يغمراسن بن زيان والتقى الطرفان عند مكان يسمى (جوهربان) وأسفر هذا اللقاء عن صلح آخر مع بنى زيان قصد معه المحافظة على السلم بين الطرفين ووضع نهاية للصراع العسكرى بينهما.

والذى يدرس تاريخ تلك الفترة، وما تم فيها من معاهدات للصلح بين الأطراف الثلاثة يدرك أن الكيان السياسى لبنى مرين قد توطد واعترفت به القوى الأخرى وأن ما تم هو توزيع لمناطق النفوذ بين القوى الثلاث المتصارعة فى المغرب الأوسط والأقصى (بنى زيان، الموحدين، بنى مرين).

لكن الصلح مع الموحدين لم يدم فترة طويلة ذلك لأن المرتضى الموحدى كان يشعر بالخطر المرينى المحيط به ويدرك نوايا أبى يعقوب بن عبد الحق فى القضاء على دولته وأن نوايا بنى مرين لم تكن إلا تحقيق أهدافهم، ومن هنا .. فلا بد من جولة جديدة من القتال مع بنى مرين ولم يأت عام ٦٥١هـ/١٢٦٠م إلا وكانت قوات الطرفين تلتقى للقتال مرة أخرى عند مضيق أم الربيع وكعادة الموحدين كان اعتمادهم على العرب فشملت هذه الجولة جميع القبائل العربية فى المغرب الأقصى والتى منها قبيلة شعبان والخلط والاثبج وبنى جابر والعاصم وقوات من الروم والموحدين وكان ميدان المعركة فى مكان تنحسر عنه مياه الوادى ودارت الدائرة على الموحدين ولحقت بهم الهزيمة بسبب انسحاب عرب بنى جابر. وتركت هذه الهزيمة آثارها النفسية على سكان العاصمة مراكش وخشى القوم زحف قوات بنى مرين إليها؛ حيث تركت العاصمة دون حماية عسكرية، ودون دفاعات قوية، ولم تمض إلا أيام قليلة حتى كان السلطان أبو يعقوب بن عبد الحق بعد قواته وسار بها نحو العاصمة مراكش وكانت قوات الموحدين بقيادة أبى العلاء ادريس بن عم الخليفة المرتضى والمشهور بأبى ديوس الذى كان قد أبلى بلاء حسنا فى المعركة.

غير أن الهدف الهنائى لبنى مرين كان اسقاط خلافة الموحدين والسيطرة على دار الخلافة فى مراكش، ومن ثم .. فإن جهودهم لم تتوقف ففى عام ٦٦٣هـ/١٢٦٤م تقدم أبو يعقوب بن عبد الحق وخلفه جيش جرار نحو العاصمة بهدف الاستيلاء عليها، وهناك بايعته القبائل التى تقطن بالمناطق المحيطة بالعاصمة من عرب ومصامدة واكتفى أوى يعقوب بإظهار قواته وإرهاب الخليفة، ومن ثم .. عاد أدراجه مرة ثانية إلى فاس غير أن مثيرى الفتن سعوا عند الخليفة المرتضى وأوهموه بأن أبا دبوس بن عمه يطلب الأمر لنفسه وشعر أبو دبوس بهذه الوشاية، وخشى من بطش

الخليفة المرتضى فقر إلى فاس وأن الخليفة المرتضى أدرك عن رجاله بأنه مراسلات سرية متداولة بين بنى مرين وأبى دبوس وأن أبا دبوس عقد مفاوضات بينه وبين ابن أبى يعقوب عام ٦٦١هـ/١٢٧٣م، وطلب منه أن يعينه بقوة من عنده تعينه على دخول العاصمة مراكش على أن يشركه بعد ذلك فى الفتح والغنيمة فاستجاب السلطان يعقوب إلى طلبه وأمده بخمسة آلاف من بنى مرين وأهاب بالقبائل والعرب من أهل مملكته أن يكونوا معه يداً واحدة وسار أبو دبوس بهذه الكتائب ومعه زعماء القبائل العربية وافتتح أبواب العاصمة واستقل بالحكم فيها عام ٦٦٥هـ/١٢٦٦م، وتلقب بالواثق بالله؛ بينما فر المرتضى إلى مدينة أزمور واستتب الأمر لأبى دبوس وأصبح خليفة الموحدين ووصلت أنباء استيلاء أبى دبوس على السلطة فى مراكش فأرسل أبو يعقوب إليه طالباً الدخول فى طاعته لكن رفض طلبه فقرر أبو يعقوب يوسف الهجوم على مراكش وحشد قوات ضخمة وأطلق جيشه المرينى فى جهات مراكش، لكن أبى دبوس لما رأى أنه لاقبل له بتلك القوات أرسل إليه، بالوفاء بما عاهده عليه، لكن القبائل العربية بايعته وأيضاً يغمراسن بن زيان وشعر أبو دبوس أنه يستطيع مواجهة بنى مرين، ومن ثم .. ذهب أبو يعقوب لحصار مراكش للمرة الثانية وضيق الحصار على الموحدين، مما جعل أبا دبوس يستمد العون من بنى زيان وقامت قوات بنى زيان من توها بالهجوم على أطراف المغرب الأقصى وخاصة ملوية، فرفع أبو يوسف الحصار عن مراكش وسار للقاء بنى زيان وتقابل الطرفان فى وادى تلاغ ولحقت الهزيمة ببنى زيان.

بعد أن آمن أبو يعقوب مكر بن زيان خرج فى شعبان ٦٦٦هـ/١٢٦٨م فى حشود كبيرة وعبر وادى أم الربيع ودمر كل عناصر الحياة الاقتصادية لإضعاف أبى دبوس واستمرت هذه العمليات حتى نهاية ٦٦٦هـ/١٢٦٨م.

معركة وادى غفو ومولد دولة بنى مرين

فى أواخر عام ٦٦٧هـ/١٢٦٨م استعد أبو دبوس للحرب ولقاء أبى يوسف وخرج من مراكش بعد أن استدرجته قوات بنى مرين وتظاهر أبو يوسف بالفرار حتى يتم ابعاده عن عاصمته، ومن ثم .. قطع الطريق عليه للعودة والاحتماء بأسوار العاصمة ونزل أبو دبوس بوادى غفو، بعد أن كان الخليفة الجديد قد نقض العهد وتنكر لاتفاقه الأخير مع أبى يعقوب بن عبد الحق المرينى فتحرك الآخر لمحاصرة مراكش بهدف القضاء النهائى على نظام حكم الموحدين ومهد لذلك لغزو عرب الخلط من جشم ببلاد تادلا فأوقع بهم وانحاز على أحواز مراكش مما أغضب شيوخ العرب والمصامدة على أبى دبوس واتهموا بالخوف من مقاتلة بنى مرين رغم ما أنزلوه من دمار ببلادهم وما سلبوه من أموالهم فاضطر أبو دبوس إلى القتال وكان وادى غفو هو المكان الذى احتدم فيه القتال بين الطرفين وحاول أبو دبوس الفرار من المعركة إلى مراكش لكنه قتل، وكان ذلك فى يوم الأحد ٢ محرم ٦٦٨هـ/١٢٦٩م، وتعتبر معركة وادى غفو نقطة تحول فى تاريخ دولة بنى مرين إذ كان ذلك إيذانًا بمولد دولة جديدة وإنهاء دولة الموحدين من مسرح الحياة السياسية فى بلاد المغرب والأندلس، وتقدم أبو يوسف إلى العاصمة مراكش فدخلها بعد سبعة أيام من المعركة، وكان ذلك فى التاسع من المحرم ٦٦٨هـ/١٢٦٦م، وأصبح دخول العاصمة إعلانًا رسميًا بقيام الدولة المرينية التى أصبحت تسيطر على سائر بلاد المغرب الأقصى من وادى ملوية وجبال الأطلس الوسطى شرقًا وحتى المحيط الأطلنطى غربًا، ومن رباط تازى وجبال غمارة شمالاً حتى مراكش ووادى تتسبقت جنوبًا وغدت هذه الدولة تقوم بدورها فى خدمة الإسلام وبناء صرح الحضارة الإسلامية فى بلاد المغرب وتلقب أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بلقب أمير المؤمنين ورغم اتساع دولته ونجاحه فى القضاء على دولة الموحدين إلا أنه ومن جاء

بعده من بنى مرين لم يحملوا لقب الخلافة واكتفوا بلقب أمير المسلمين، ناصر الدين، المجاهد فى سبيل رب العالمين، ملك البحرين، وملك العدوتين.

ويعتبر أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المحارب الولى الذى بنى صرح هذه الدولة.

وقام أبو يوسف يعقوب باستكمال بناء الدولة بجهود ضخمة وقوية من أجل تثبيت دعائم البناء الجديد وفرض سيطرتها وقوتها على كافة الأقاليم وقد نجح بنو مرين فى ذلك فى فترة سريعة لأن حركتهم كانت حركة سياسية بحتة لم تكن ذات طابع دينى أو فكر إسلامى تدعو له كما فعل المرابطون والموحدون من قبل فلم يتخذ بنو مرين وسيلة لإثارة المشاعر الجماهيرية، وإنما كان شعارهم هو إقامة دولة ذات حكم سياسى يراعى مصلحة البلاد ويحافظ عليها وشعور الأهالى بالأمن والأمان فى ظل حكم الدولة الجديدة، وفى ضوء هذا الشعار الذى رفعه بنو مرين سار أمير المؤمنين أبو يوسف بن يعقوب وبذل جهوداً لإخضاع بقية الأقاليم، والتى منها أقليم السوس ودرعه وفضلاً عن طنجة وسبتة التى كانت تقع خارج منطقة نفوذ الموحدين، وكان لابد من تأسيس الدولة ضد أية مخاطر خارجية وكان الخطر الزيانى وزعيمه يغمراسن بن زيان يمثل حجر عشرة أمام انطلاق بناء الدوة الجديدة، والذى كان يسعى لبسط نفوذه الفعلى على أقليم سجلماسة، والذى كان تابعاً لبنى مرين.

وكان أبو يوسف يعقوب هو الذى نظم القبائل العربية ودفع بها إلى محاربة الأقاليم التى لازالت خارجة عن طاعته فنزلت قواتهم حتى واجه توات، وتأقللت، وضموا إليه أودية المولوية ودرعه وتوغلوا فى بلاد السوس الأعلى، وكان أبو يوسف يعقوب قد أرسل ابنه على رأس حملة كبيرة إلى بلاد السوس وتمكنت من اخضاع الأقاليم وقام هو بنفسه بغزو وادى درعه، ومن به من العرب، ونقل هؤلاء العرب إلى

مراكش ليكونوا تحت رقابة الدولة ثم قام عام ٦٦٦هـ/١٢٧١م بحملة إلى رباط الفتح وغادرها إلى سلا وهناك أصابه المرض وطلب ولاية العهد لابنه مالك بن عبد الواحد وهذه أول مرة يتم فيها مراسم تعين ولى عهد فى الدولة الجديدة، وعمل أبو يوسف وابنه مالك على إخضاع القبائل العربية، وطلب الثوار مغادرة الأراضى المرينية إلى تلمسان وانتقل بعضهم إلى تلمسان وغادروها بعد ذلك إلى الأندلس.

وبعد عودة أبى يوسف إلى فاس توفى ولى عهده أبو مالك فى صفر ٦٦٧هـ/١٢٧٢م، ومن ثم .. أخذت البيعة من أشياخ بنى مرين والعلماء والفقهاء والقاضى وعمال الأقاليم بولاية العهد لولدة الأمير يوسف وكان لهذه الجولة التى قام بها أبو يوسف يعقوب فى هذه المناطق حديثة الانضمام للدولة الجديدة أثرها فى استقرار الأمن والأمان وإحساس القبائل وسكان المدن بالولاء للدولة الجديدة، ومن ثم اتجهت أنظار ابن عبد الحق إلى الاستيلاء على سبتة وطنجة وذلك لما لهما من أهمية كبرى نظر لأنها ثغر العدوة المغربية ومرفا السفن والأساطيل وبها دور صناعة السفن والآلات البحرية كما أنهما المعبران الوحيدان إلى الأندلس؛ حيث ميدان الجهاد الإسلامى الذى كان ينتظر بنى مرين؛ ففى عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣ تحرك أبو يوسف نحو طنجة ووصل أمير المسلمين ابن عبد الحق إليها أوائل عام ٦٧٢هـ/١٢٧٣م، وثم فتح طنجة وبعد الانتهاء من تنظيم الأوضاع الداخلية بالميناء الهام أرسل أبو يعقوب ابنه يوسف للاستيلاء على سبتة ودخل حاكم المدينة ابن الغرفى فى طاعة بنى مرين. وكان ضم سبتة وطنجة مفتاحاً للعبور إلى الأندلس أمام بنى مرين وتم للمرة الأخيرة ضم أقليم سجلماسة للدولة فى صفر ٦٧٣هـ/١٢٧٤م، وبسقوط سجلماسة أكمل بنو مرين سيادتهم على جميع أراضى المغرب الأقصى واتخذ ابن عبد الحق من فاس عاصمة للدوة المرينية الجديدة، كما أنه رأى ضرورة وجود عاصمة جديدة له؛ حيث بنى قصراً

ومستقراً له وحاشيته ومركزاً لإدارته ومعسكراً لقواته فما كان منه إلا أن أصدر فى شوال ٦٧٤هـ/١٢٧٥م أمره ببناء عاصمة جديدة، سماها فاس الجديدة، وقد أطلق على هذه المدينة البيضاء بينما ظلت فاس القديمة مركزاً للتجارة والعلم وأتاح بناء فاس الجديدة لفاس القديمة أن تحافظ على سكانها القدامى المستقرين بها.

* * * *

الفصل الثانى ـ الفصل الثالث

جهاد بنى مرين فى الأندلس

سارت دولة بنى مرين على سياسة أسلافها المرابطين والموحدين التى تقوم على حماية الأندلس ومسلميه من أطماع جيرانهم المسيحيين وكانت الأندلس على عهد الدولة المرينية قد اقتصرت حدودها على مملكة غرناطة فى جنوب شرق الأندلس، وكان ملوك بنى الأحمر أبو بنى نصر الذين يرتفع نسبهم إلى سعد بن عبادة الأنصارى سيد الخزرج على عهد الرسول ﷺ يحكمونها. ولا شك أن مملكة صغيرة محاطة بالأعداء مثل غرناطة كانت فى حاجة إلى مساعدة جيرانها وأخوانها فى الدين والعقيدة بالعدوة المغربية، ولقد استجاب سلاطين بنى مرين إلى هذا النداء وقادوا الجيوش وأرسلوا الحملات عبر المضيق لمساعدة أخوانهم الغرناطيين من جهة والاحتفاظ ببعض القواعد الجنوبية الأندلسية التى تضمن لهم السيطرة على مضيق جبل طارق من جهة أخرى.

ولقد كانت نظرة بنى مرين إلى ميدان الأندلس مباشرة بعد إتمام سيطرتهم على المغرب الأقصى فى استئناف سياسة الجهاد الإسلامى ضد نصارى الأندلس، والمرينيون بهذه السياسة يتميزون عن معاصريهم من الحفصيين، وبنى زيان، فالحفصيون وبنو زيان لم تكن لديهم هذه السياسة للعمل والجهاد فى الميدان الأندلسى. وقد بدأ بنو مرين عملهم فى الميدان الأندلسى فور عودة أبى يوسف من فتح سجلماسة إذ أنه أثر عودته وصل وفد من السلطان محمد الفقيه سلطان غرناطة شرح تدهور أوضاع المسلمين فى الأندلس ويطلب المدد والعون والمآزرة من بنى مرين.

وكان الأمير عبد الحق قد وجه قوات مرينية بقيادة أبناء أخيه عام

٦٦٠هـ/١٢٦١م إلى الجهاد فى الأندلس؛ حيث كانت هذه أول قوة مرينية عاملة فى الميدان الأندلسى وبذلك وجهه الأمير يعقوب المرينى طاعة الثائرين عليه من البيت المرينى إلى حرب أعداء الإسلام فى الأندلس.

وكانت قوات قشتالة بقيادة ألفونس العاشر قد قامت بمهاجمة الأراضى الأندلسية فقام ابن الأحمر قبل وفاته عام ٦٧١هـ/١٢٧٢م بتوجيه نداء إلى أمير المسلمين السلطان المرينى أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الملقب بالمنصور يطلب عوناً ومساندة، لكن العون والمساندة لم يصلا إلا بعد وفاة ابن الأحمر أيام ولده محمد الثانى الملقب بالفقيه (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م)، وكان عهده قد أصاب بعض الضعف فى الصف الإسلامى وأحس محمد الثانى بأنه لم يعد يستطيع الاعتماد فى قواه وحدها فراسل أبا يوسف يعقوب بن عبد الحق أمير بنى مرين وطلب منه أن يعاونه بقوة عسكرية.

ورأى أبو يوسف أن يبدأ جهاده فى الميدان الأندلسى بحملة جعل ابنه أبا زيان قائدا عليها . وخرجت الحملة من فاس فى شوال ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م قاصدة الى طنجة وكانت الحملة من أنجاد بنى مرين وفرسان العرب وهيأهم للقتال ودفع اليهم رأيته المنصورة وعبرت الحملة ونزلت بطريف من بلاد الأندلس وكان قوامها خمسة آلاف مقاتل وشنت غارات على ديار النصارى ووصلت فى تقدمها الى شرش . ولقد لعبت أساطيل بنى الغرفى حكام سبتة دورا هاما فى عمليات العبور ونقل الجنود والمعدات من قصر المجاز الى مدينة طريف .

وقد شجعت نتائج الحملة التى قادها الأمير أبو زيان السلطان أبو يوسف يعقوب على العبور بنفسه الى الميدان الأندلسى، وذلك فى صفر عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٥ م . ولما كان السلطان المرينى رجل حرب وسياسة ودهاء فانه قبل أن يعبر الى الأندلس قام

بارسال حفيده تاشفين بن مالك الى يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان طالبا عقد صلح معه وذلك تأمينا لحدوده الشرقية من خطر غارات بنى زيان ، وقد أشاع جو الصلح الذى تم بين الطرفين جوا من الاستقرار فى المغرب الأوسط والأقصى وساد الهدوء سائر بلاد المغرب العربى واستطاع بنو مرين أن ينقلوا عملياتهم العسكرية لصلح أبى يوسف حتى أنه تصدق بالأموال ونحر الذبائح ، وعمل على الاستفادة من القبائل العربية فى حركة الجهاد الاسلامى فى الميدان الأندلس . فقد حشد أبو يوسف مع قواته العديد من فرسان.القبائل العربية من شعبان والخلط والعاصم وبنى جابر وجشم واثبيج ودوى وحسان والشباتات من المعقل وقبائل رباح وغيرهم وقد بذلوا جهودا كثيرة فى هذا الميدان وطوائف من المتطوعين البربر . ودخل بجيوشه فى الأراضى الأندلسية وكان بنو الأحمر قد تنازلوا عن طريف والجزيرة الخضراء ورندة وأنزل بها القوات المرينية واتجه أبو يوسف من طريف الى الجزيرة الخضراء ثم الوادى الكبير وتوغل فى الأراضى التابعة لملك قشتالة الفونسو العاشر يدك حصونها وقلاعها ويقاتل جنودها حتى بلغ نهر الوادى الكبير قرب أشبلية بل أنه وصل الى الغرب من قرطبة واستولى على حصن بالمة بالقوة واقترب أبو يوسف من مدينة استجه ووصلت الأخبار بتقدم النصارى واستطاع أبو يوسف أن يقتل قائده نونو مع عدد كبير من من خبرة ضباطه وجنوده وبلغ عدد القتلى من مسيحى أسبانيا فى هذه المعركة ثمانية عشر ألف وخمسمائة جندى . وقد قاتلت القبائل العربية ببسالة وتحملت عبء المعركة .

وبعد عدة أيام اتجه أبو يوسف الى أشبلية بعد الانتصار الأول فى ربيع الأول ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م وقد قدرت المصادر الاسلامية (ابن أبى زرع ، ابن خلدون ، عدد جيش قشتالة بتسعين ألف ، وكان استعداد الجيش القشتالى ضخما فى العدد والعدة مقبلا على الحرب بقوة وبقيادة بحرية بهرت الحروب فى تلك المناطق بالإضافة

الى أنها تقاتل فى أرض تعرفها شبرا شبرا ، غير القوات المرينية كانت تقاتل فى أماكن لم تطأها من قبل وباشر الأمير أبو يوسف القتال بنفسه وابنه يوسف على المقدمة ثم استعد للقتل وجاهد المسلمون صابرين محتسبين ونادى على المسلمين بالقتال ، حازت الجيوش الاسلامية المغربية والأندلسية نصرا حاسما فى هذه المعركة التى أعادت ذكريات الزلاقة والارك وتشتت الجيش القشتالى وقتل قائده ، وكان حصار أشبلية العاصمة قد أتى بثماره فطلبت الأمان والصلح ، وبعد أن قضى فى الأندلس خمسة شهور عاد الى المغرب فى أواخر رجب ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م بعد أن ترك فى الجزيرة الخضراء ثلاثة آلاف فارس لمعاونة اخوانهم الاندلسيين فى رد اعتداء قشتالة .

وكان هذا الانتصار قد ساعد محمد الفقبة على تثبيت أمره وتم الاتفاق على أن نقيم هذه القوة من المقاتلين الزناتين بنى بين مرة فى مملكة غرناطة ويرأسهم قائد يسمى شيخ الغزاة ومن ذلك التاريخ سيصبح شيخ الغزاة من كبار الشخصيات فى مملكة غرناطة .

وكانت أخبار انتصاراته قد سبقته الى المغرب ، وقد كتب أبو يوسف أمير المؤمنين الى جميع بلاد المسلمين بالأندلس والمغرب يشرح تفاصيل انتصاراته . وقد أسفر العبور الأول هذا الذى قام به أبو يوسف الى تلك الاراضى الاسلامية عن رفع الروح المعنوية للمسلمين اذا ساهم اخوانهم فى المغرب فى تحقيق هذا الانتصار كما أن هذا الانتصار أطاح بأحلام نصارى الأندلس فى تخطيطهم لطرد المسلمين من هذه الديار حيث أدركوا أن هناك قوة شابة جديدة تقتحم ميدان القتال جهادا فى سبيل الله ونصرا اخوانهم فى العقيدة .

كما أن هذا العبور قد أتاح للدولة الجديدة أن تجد لها رأس قدم فى الأراضى الأندلسية تستطيع أن تعتمد عليه فى العبور مرات أخرى قادمة حيث سيطرت قوات

بنى مرين على ثلاث قواعد هامة هى ، الجزيرة الخضراء ، طريف ، رندة ، وبذلك أتت هذه الغزوة المباركة التى قتل فيها اكثر من ثمانية عشر ألفا من قوات النصارى بثمارها.

أما العبور الثانى بميدان الجهاد فى الأندلس فقد تم فى المحرم من عام ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧ م حيث عبر أبو يوسف للأندلس وكانت حملته الى أشبلية وقد شاركت فيه كما هى العادة القبائل العربية التى يقتصر عملها فى هذه الحملة على تنفيذ ما يصدر اليها من أوامر عسكرية كما هو الحال فى الحملة الأولى بل شارك شيوخها كستشارين فى المجلس الحربى للسلطان المرينى لابداء الرأى حول الخطط العسكرية وأفضل الطرق لملاقاة العدو وقد نجحت هذه الحملة فى تحقيق أهدافها اذ حاصرت قواتها المرينية والعربية أشبلية وشريش وقرطبة وجبان وأنزلت بضواحيها الدمار واقتحمت بعض حصونها عنوة مما اضطر ملك قشتالة الفونسو العاشر الى عقد هدنة مع سلطان المغرب أبى يوسف يعقوب .

وكان السلطان يعقوب المنصور قبل توغله فى أراضى قشتالة قد التقى بابن الأحمر حيث قامت القوات المغربية والأندلسية المشتركة بالقضاء على كافة الحصون المحيطة بها وتدمير كل مظاهر العمران حول أشبلية ونالت شريش ضربات لا تقل عن ضربات تلقتها أشبلية .

ولقد كان أبو يوسف يهدف الى احتلال قرطبة واعادة الأمور الى سابق عهدها للاسلام والمسلمين ، الا أن الأمر كان يحتاج الى تكاتف جهود سائر القوى الاسلامية فى بلاد الأندلس وبخاصة قوات غرناطة واستجاب ابن الأحمر لهذه الخطوة والتقى به عند قرطبة وقامت الجيوش الاسلامية بمهاجمة قرطبة ولم تستطع الجيوش النصرانية الصمود أمام هذا التحالف القوى فتراجعت وتحصنت بالمدينة وأرسل ملك النصارى

وفدا يطلب الصلح من أبى يوسف لكن أبا يوسف ترك لابن أحمر حكم غرناطة وابرام عقد الصلح مع نصارى فشتاله والأكثر من ذلك فإن أبا يوسف عند عودته إلى الجزيرة الخضراء، وفى طريقه بغرناطة تنازل عن جميع الغنائم لابن الأحمر، لكن ابن الأحمد توجس خيفة من الوجود المرينى وتشكك كثيراً فى مسلكهم. وكان تنازل أمير مالقة لأبى يوسف عن بعض المدن الصغيرة سبباً فى تحالف ابن الأحمر ضد أبى يوسف مع ملوك قشتالة.

ولا أدرى لماذا تحالف محمد بن نصر بن الأحمر مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة على مساعدته فيما كان يفكر فيه من العدوان على بلاد المغرب وبالفعل قام الأسطول القشتالى بمهاجمة أصيلة على الساحل المغربى كما احتل سبتة بمعاونة قوة من ملك غرناطة. ولعل تحالف غرناطة مع ملك قشتالة يعود إلى أن السلطان أبا يوسف كان يترك فى كل غزوة يقوم بها عددا من قواته؛ فقد ترك فى الغزوة الأولى ثلاثة آلاف مقاتل، وها هو يترك فى هذه الغزوة ألف مقاتل من بنى مرين والعرب.

وقد يكون الدافع لتخوف سلطان غرناطة محمد الثانى الفقيه من أطماع سلطان المغرب، وظن به الظنون وخشى أن يغلبه على بلاده كما فعل يوسف بن تاشفين مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف فلجأ إلى جيرانه المسيحيين، وعقد مع سانشو الرابع ملك قشتالة (بعض المصادر ذكر ألفونسو العاشر ملك قشتالة) وخايمى الثانى، ملك أراجون معاهدات دفاعية ضد ملك المغرب واستطاع كل من الملكين سانشو وخايمى أن يقنع سلطان غرناطة بضرورة احتلالهما بصفة مؤقتة لبعض قواعد المضيق مثل طريف والجزيرة الخضراء التى كانت فى يد المرينيين لأنها تعتبر رأس جسر لعبور القوات المغربية إلى الأندلس ووافق سلطان غرناطة على ذلك بشرط أن تسلم له هذه القواعد بعد ذلك. وكان هذا تصرفاً شاذاً من حاكم مسلم يسمح لحكام أعداء

للإسلام بإنزال قواتهم فى الجزيرة الخضراء. وقد جعل هذا الموقف سلاطين بنى مرين يأخذون حذرهم فى التعامل مع بنى الأحمر وأحسوا بأنه لابد لهم أخذ الحيطة والاحتياطات فأصبح من شروطهم للاشتراك فى القتال فى الأندلس أن يكون بيدهم الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقة.

والذى ينظر إلى ما فعله حكام غرناطة من بنى الأحمر يدرك أن حكام غرناطة وساستها كان خوفهم على أملاكهم هو الشغل الشاغل لهم بل المصلحة الشخصية فوق مصالح المسلمين، وأنه كان لا يعينهم فى المقام الأول الدفاع عن الإسلام ضد الزحف المسيحى لابتلاع أملاك المسلمين بالأندلس وكانت أكبر فرصة عند قشتالة وأرجون للتفرقة بين المسلمين نقض الصلح مع أبى يوسف، ومن ثم أرسلا أساطيلهما إلى الجزيرة الخضراء لقطع الامدادات أمام وصولها إلى الأندلس.

وفى نفس الوقت هاجمت هذه الأساطيل الجيش المرينى الرابض فى هذه المناطق، وأسرع الأمير يوسف بن السلطان يعقوب لمباشرة حربهم ومنيت أساطيل أراجون وقشتالة بهزيمة فادحة أمام الأسطول المغربى واضطرت إلى الإقلاع عنها خائبة السعى وتمكن المغاربة من السيطرة على هذه المناطق الهامة، وهكذا .. خسر الأسطول القشتالى قواته البحرية وأصبحت هذه المناطق محطات وقاعدة للقوات المرينية التى تعبر إلى الأندلس للجهاد فيه.

ونعود إلى ابن الأحمر فنجد أنه لم يكتف بما فعله بشأن الإسلام والمسلمين وتحالفه مع أعداء الدين؛ بل أنه أغرى عامل أبى يوسف على مالقه واتفق معه على أن يتنازل عن مالقه مقابل أن يجعله حاكماً على أقليم آخر؛ بل وصل به الأمر بغدره بأبى يوسف الذى قدم له كل العون إلى آخر مدى بأن راسل يغمراسن بن زيان حاكم تلمسان والعدو اللدود لبنى مرين وتبادل معه الهدايا واتفقا على أن يقوم يغمراسن بن

زيان بمهاجمة حدود الدولة المرينية الشرقية حتى يصرف أبا يوسف عن العبور إلى الأندلس، لكن كل ذلك لم يفت فى عضد أبى يوسف إذ كانت قواته المؤلفة من سبعين سفينة قد حققت النصر ودمرت الأسطول القشتالى، لكن ابن خلدون يدافع عن بنى الأحمر ويذكر أن أسطولهم عاون الأسطول المرينى بعد أن أدرك حكام غرناطة خطورة تحالفهم مع القشتالين ضد أبى يوسف.

وكان لهذا النصر البحرى المرينى صداه الكبير فى الأندلس والمغرب.

ولما كان الجهاد فى بلاد الأندلس هو الهدف الذى ارتضته الدول المرينية سيراً على سياسة اسلافها من المرابطين الموحدين فإننا نجد باستقرار الأوضاع فى بلاد المغرب (صراعات المغرب الأوسط مع الأقصى) عاد الميدان الأندلسى يشغل بال أبى يوسف واهتمامه وشكل عنصراً هاماً فى السياسة المرينية. ولما كانت الانتصارات السابقة قد جعلت من دولة بنى مرين محور اهتمام الجميع فلجأ إليها فى عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م، وقد من قبل ذلك الأسبانى «هراندة» ليطلب معاونته فى استرجاع عرشه الذى استولى عليه ولده شانجة، وكان شانجة الرابع قد ثار على أبيه عام ٦٨١هـ/١٢٨٢م ألفونس العاشر مما أثار السخط عليه فى مملكته، ولقد لبى السلطان المرينى المنصور طلبات الوفد وعبر إلى الأندلس (العبور الثالث) لمعاونة ألفونسو العاشر، وهرع إلى لقاء السلطان باحواز الفجوة قرب رندة، وأمده أبو يعقوب بالمال والجيش.

ولقد كان العبور الثالث فى ربيع ثانى ٦٨١هـ/١٢٨٢م. والتقى به ألفونسو العاشر ورأى المنصور المرينى مساعدته ضد ولده شانجة، أو سانشو لتعميق الخلاف داخل البيت الحاكم فى قشتالة واضعاف الجبهة المسيحية وأحداث تصدع بها وانقسام بين قواتها العسكرية، وأمده بمائة ألف دينار وقوات رمزية إسلامية، مساعدة له فى حربه ضد ولده وتدخل المنصور معه فى إدارة الحرب التى دارت بين الأب وابنه حول

قرطبة وطليطلة وحصن بربط، ثم عاد إلى الجزيرة الخضراء عام ٦٨٢هـ/١٢٨٣م لاسترجاع مالقة والحصون الغربية من بنى الأحمر، وقام أبو يوسف بجولة حربية أخرى امتدت من طليطلة وقرطبة حتى وصل إلى أيديه ويابسة وجبال ألبرت ثم عاد إلى المغرب بعد أن ولى أحد أحفاده والياً على هذه الأماكن التى حررها من النصارى.

والذى ينظر إلى العبور الأول والثانى يدرك بعد الاستعداد الذى استعده المسلمون لهذه المعارك؛ حيث كان لديهم حماس عظيم لاسيما أن السلطان المنصور المرينى كان يخطبهم ليزيد حماسهم؛ فنجد أنهم كانوا ينقضون على القوات النصرانية فى حماس بالغ أعاد إلى الأذهان حماسهم فى موقعتى الزلاقة والأرك على اختلاف فى حجم القوات الإسلامية فى كل من هذه المعارك وانتصر المسلمون انتصاراً كبيراً ومزقوا قوات قشتالة فى كل مرة شر ممزق، وهذا خير دليل على أن قوة الإسلام فى الأندلس كانت لاتزال قادرة على الدفاع عن نفسها وأنه لو أتيحت للمسلمين فرصة توحيد الصفوف والوعى والإداراك الكامل لخطورة ما يجرى على أرض الأندلس لاستطاعوا أن يصمدوا ويحافظوا على ما بقى بأيديهم من أراضٍ ولاستعادوا ما استولى عليه الأسبان من أراضٍ احتلت من قبل.

وعبر السلطان المنصور المرينى أبو يوسف للأندلس للمرة الرابعة فى صفر عام ٦٨٤هـ/١٢٨٥م. وهذه أقوى الحملات التى واجهها القشتاليون إذ بلغت الجيوش أربعة منها ثلاثة من المتطوعين وجيش بنى الأحمر لمعاونة أبى يوسف وقد بلغ أحد جيوش المتطوعين فى هذه الحملة ثلاثة عشر ألف من المصامدة وثلاثة آلاف من بربر المغرب وكان دور القبائل العربية هاماً فى هذه المعركة، وتظهر هذه الحملة مدى الضربات التى وجهها أبو يوسف لدولة قشتالة خلال هذه الحملة، وكان الجهد الحربى مركزاً لمدينة أشبلية باعتبارها عاصمة قشتالة ومدينة شريش باعتبارها مصدر خطر مباشر

على المسلمين، كما اشترك الأسطول المرينى فى هذه الحملة وكانت مهمته منع الأسطول القشتالى من الاقتراب من ممر العبور من المغرب والأندلس. واستطاعت سفن الأسطول المرينى أن تقوم بواجبها على خير أداء.

تذكر المصادر أنه عند وصول المنصور المرينى إلى مدينة شريش وانضمام بقايا حاميتها من بنى مرين والعرب بالأندلس له، قام فرسانه عرب العاصم بمنع الإمدادات من الوصول إلى المحاصرين وقتل الفارين والإغارة على حصن شالوقة وقتلوا حاميته وقام عرب الخلط بالحراسة حول شريش مع عرب العاصم ليل نهار. وعندما أرسل الأمير يعقوب حفيده أبا على المنصور بن عبد الواحد للإغارة على أشبلية كان معظم فرسانه من عرب العاصم والخلط والأثبج ومجلس الحرب يضم رؤساء العرب ولقد كانت للعرب اليد الطولى فى جميع الإمدادات التى وصلت من المغرب إلى الأندلس ورغم عجز الجيش المرينى من احتلال شريش وتحقيق نصر عسكرى كنصر المنصور الموحدى فى معركة الأرك عام ٥٩١هـ/١١٩٥م إلا أن المؤرخين تناولوا دور القبائل العربية بالتمجيد والفخار.

ولقد رأى ملك قشتالة شائجة أنه لا قيل له بجيوش المسلمين فأرسل وفداً من الأحبار والرهبان يفاوض السلطان المرينى عما يراه ويطلب الصلح وتم الصلح على أساس شروط رفعها أبو يوسف وقبلها شانشو ومنها مسالمة المسلمين كافة وعدم الاعـتداء على الأندلس، واعترف الجميع بسيادة بنى مرين على الموقف فى الأندلس واستكمالاً لمظهر السيادة المرينية على ما بأيدى المرينين من أراضى أندلسية أرسل المنصور المرينى ابنه الأمير أبا زيان ليقف بجيوشه على الحدود من بلاده وبلاد ابن الأحمر.

وعاد أبو يوسف يعقوب إلى الجزيرة الخضراء بعد إقراره الصلح مع مملكة قشتالة

وقام بتنظيم حاميات الثغـور وأسند إلى عرب العاصم حمايم اسطبونه والاستقرار بها مكافأة لهم.

ومـات أبـو يوسـف فـى الجـزيـرة الخـضـراء فـى العـشـريـن مـن المحـرم عـام ٦٨٥هـ/١٢٨٦م، ونقل جثمانه فى الثانى والعشرين من نفس الشهر إلى المغرب إلى مدينة رباط الفتح؛ حيث دفن بمسجد شالة، وهى الجبانة الملكية لبنى مرين بالقرب من مدينة الرباط. وكانت وفاته قبل العودة إلى المغرب، بعد حياة حافلة بالجهاد فى المغرب والأندلس. ويعتبر أبو يوسف المنصور من أعظم سلاطين المغرب؛ فقد كان من طراز يوسف من تاشفين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى؛ وكان حريصاً على الجهاد فى الأندلس، ومن هنا .. قام بأربع جولات فى هذا الميدان استطاع أن يوسع رقعة دار الحرب فى الميدان الأندلسى فوصل إلى طليطلة وقرطبة؛ بل وصل إلى مجريط وهى قريبة من آخر معاقل وصل إليها الإسلام فى بلاد الأندلس كما وصل إلى جبال البرت وهو الذى أنقذ مملكة غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات قشتالة وأرجون وأن موته قد ترك سمعة خفاقة فى المجال الأندلسى والمغربى والعالم الإسلامى فى ذلك الوقت إذ كان شخصية تجلت فيها عمق العقيدة الإسلامية والغيرة على مصالح الإسلام والمسلمين والعمل على حماية الديار الإسلامية وتجهيز القوات بسرعة فائقة وإعلانه حالة التعبئة فى جميع أنحاء البلاد، وقت الاستعداد للحرب ومروره على القبائل والمدن والأعراب لجمع القوات والمؤن والذخائر، ولقد كان من الشخصيات التى يذكرها تاريخ بنى مرين بكل فخار؛ فقد وقع عليه عبء إنهاء سلطة الموحدين فى المغرب وورث دولة كانت مقسمة بين عديد من الحكام وقبائل عربية وبربرية، واستطاع أن يوحدها وأن يجعل من كل أراضى المغرب الأقصى دولة ذات سيادة واحدة وأخضع الموانى التى كانت مستقلة فى عهد الموحدين مثل سبتة وطنجة ورفع لواء الإسلام دفاعاً عن حق المسلمين فى ديار الإسلام فى الأندلس.

ولى يوسف بن يعقوب المرينى الحكم فى ٥ صفر ٦٨٥هـ/١٢٨٨م خلفاً لوالده وبايعته جميع قبائل بنى مرين والقبائل العربية فوزع الأموال والهدايا على الجميع وعين أخاه الأمير أبا عطية حاكماً على ممتلكات بنى مرين بالأندلس وأسند قيادة الجيش المرينى فى هذه البلاد لأبى الحسن على بن يوسف وكانت بها قوات من إثنى عشر ألف رجل ما بين فارس وراجل، وقد لقب بالناصر لدين الله، وهو من السلاطين الأقوياء ولازم والده يوسف بن يعقوب بن عبد الحق فى جميع أعماله الحربية والسياسية والإدارية وخاصة الحروب فى المغرب والأندلس.

ولقد كان له شأن فى الجهاد فى الأندلس إلى جانب إخوانه مسلمى غرناطة. ولقد أثرت الثورات المتتابعة فى بلاد المغرب فى عهد يوسف بن يعقوب فى مدى الجهد من جانبه فى الميدان الأندلسى؛ فلم يكن جهده يقاس بالنسبة لجهد أبيه لكنه حاول الإبقاء على العلاقة بينه وبين بنى الأحمر. قوية لا سيما وأن ابن الأحمر محمد الفقيه كان له نشاط واضح فى ميدان الجهاد ومهتماً به، لكنه صار أحياناً إلى المسلك الشاذ فى مهادنة بعض ملوك النصارى فى أسبانيا ضد آخر منهم؛ بل وأحياناً ضد بنى مرين ولقد شهدت فترة حكم يوسف هذا تنازلات عن بعض الأراضى التى تسيطر عليها الدولة المرينية فى الأندلس وذلك حرصاً على صمود وقوة وقدرة الجبهة الإسلامية على الوقوف أمام القشتالين ووحدتها والقضاء على كافة المشاكل والخلافات مع بنى الأحمر وطلب من ابن اشقليولة ترك الأندلس والانتقال إلى المغرب، وأنهى مشكلته مع بنى الأحمر. وكانت هذه الخطوات يتنازل بنى مرين لحكام غرناطة من بنى الأحمر عن العديد من الحصون من شأنه تقوية العلاقات بين فاس وغرناطة وذلك لكبح جماح قشتالة ولا تفكر فى الهجوم على المسلمين فى الأندلس. وقد نحجت سياسة يوسف فى تهدئة الأحوال فى الأندلس.

حتى كان عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م عندما نقض كل من سلطان غرناطة وسانشو الرابع ملك قشتالة اتفاقهم السابق مع بنى مرين وهاجم سانشو النخوم والثغور الأندلسية وأرسل يوسف إلى قائد بنى مرين بالأندلس بالهجوم على مدينة شريش؛ إلا أن ابن الأحمر هاجم مدينة اسطبونة، وتمكن من الاستيلاء عليها بعد انتصاره على واليها وتعاونت كل من قوات قشتالة وأرجون فى محاصرة طريف والاستيلاء عليها بعد حصار دام ستة شهور، لكن قائد بنى مرين شن الغارات على حدود قشتالة وجهز يوسف قوات للعبور بها من قصر المجاز، إلا أن القوى المسيحية بقيادة سانشو عندما أحست بذلك أرسلت أسطولاً قشتالياً لمنع بنى مرين من العبور ونجح هذا الأسطول فى تحطيم أسطول بنى مرين الذى تصدى له فى بحر الزقاق عام ٦٩٠هـ/١٢٩١م، وأدى ذلك إلى تأخير العمليات العسكرية فى الأندلس، لكن بعد إصلاح السفن وتعويض الفاقد منها استطاع الأسطول المرينى إنجاز علمية العبور بنجاح دون أن يجرؤ الأسطول القشتالى على الاقتراب من الأسطول المرينى.

وعبر السلطان يوسف إلى الأندلس ونزل بطريف وأشعل جبهة القتال وشن الغارات على أشبيلية وشريش كما حاصر حصن كبير ثلاثة أشهر وأصدر السلطان يوسف أوامره لفرسان بنى مرين والعرب بشن الغارات على المسيحين قبل عبوره بقواته وبعد عبوره قامت قوات بنى مرين والقبائل العربية بالهجوم على الأماكن المحددة لها وأحرزت بعض الانتصارات، ومع ابتداء فصل الشتاء القارص بالأندلس عادت تلك القوات إلى المغرب فى أول المحرم عام ٦٩١هـ/١٢٩١م.

ولقد كانت مهمة المرينين هناك هى معاونة المسلمين والحفاظ على وجودهم بالأندلس واستمرت العلاقات الطيبة بين غرناطة وفاس حتى وفاة السلطان محمد الفقيه عام ٧٠١هـ/١٣٠٢م، وقد كسب محمد الفقيه معركة استجه بالتعاون مع القوات

المرينية، ولم يكن الفقيه ليقل كفاية عن أبيه فقد تمكن خلال الفترة الطويلة التى حكمها (٦٧١-٧٠١هـ/١٢٧٣-١٣٠٢م) تمكن أن يحافظ على مملكته ويزيد من قوتها إلا أنه كان يتخوف من بنى مرين وحاول الانضمام الى ملوك قشتالة ضدهم وهو أمر سيلجأ اليه ملوك غرناطة فيما بعد مما أدى فى النهاية الى وقوع القشور بين بنى مرين وبنى الأحمر وكان كل ذلك فى النهاية وبالأعلى الاسلام المسلمين فى الأندلس ولقد كان اختلاف المسلمين قادة وحكاما فيما بينهم واستعانة بعضهم بالعدو على البعض أشد وبالا ووطأة بالاسلام وأهله ودياره فقد فقدت ديار الاسلام فى الأندلس عبر تاريخها الطويل بسبب قصر نظر حكام غرناطة وغيرهم وعدم تفهمهم للمخطط الذى يحاك ضدهم ودخولهم فى تحالفات مع أعداء الاسلام ضد اخوانهم فى الدين والعقيدة والوطن الواحد .

وفى أيام محمد الفقيه بدأت مشكلة النزاع على مضيق جبل طارق تأخذ شكلها الحازم لأن كلا من مملكة غرناطة ومملكة قشتالة وسلطنة بنى مرين ومملكة أرغون ثم الجمهوريات الايطالية البحرية تدرك أهمية ذلك الزقاق الذى يعد مفتاح البحر المتوسط والسيطرة عليه تتيح لصاحبه قوة بحرية عظمى فينفذ الى المحيط الاطلسى والساحل الغربى لشبه الجزيرة الايبيرية . وكانت فى عهد ولده محمد المخلوع قد ساءت العلاقات مع بنى مرين وجرت أحداث داخلية فى مملكة غرناطة انتهزها ملك قشتالة فأرسل جنده لحصار جبل طارق ومدينة المرية بمعونة ملك أراغون (حايمى الثانى) بالرغم من المعاهدة القائمة بينه وبين سلطان غرناطة وجرت قرب المرية معركة قادها عثمان بن أبى العلاء شيخ الغزاة ضد جند أرغون هزم فيها قوات النصارى ورفع الحصار عن المرية الا أن جبل طارق يعد الحصار الشديد أرغم على التسليم .

وقد صمدت غزوات بنى مرين بالأندلس منذ دولة السلطان يوسف بن يعقوب

لانشغاله بالحروب مع بنى زيان وانشغال حفدته من بعده بأمور المغرب الداخلية . والصراع حول السلطة فى الدولة مع قصر مدة ولايتهم الى أن تولى عرش بنى مرين السلطان أبو الحسن المرينى (٧٣١ هـ / ١٣٣١ م – ٦٤٩ هـ / ١٣٤٨ م) . وكانت له رغبة فى الجهاد فى الأندلس ورغم اشتراك أبى الحسن المرينى فى التوقيع على معاهدة السلام بين هذه الدول الثلاث ومدتها أربع سنوات ووقعها بنو الأحمر ومملكة قشتالة على ألا تمر قوات مغربية الى الاندلس وكذلك اشتراكه فى معاهدات سلمية مماثلة مع ملك أرغون وتسابق ملوك أسبانيا والمغرب مستغلين فرصة السلام فى التسليح والاستعداد للحرب وكان اهتمام كل فريق موجها نحو تقوية بحريته لأنها الضمان الأساسى للسيطرة البحرية بعد ذلك ، وكان ملك قشتالة قد استولى على جبل طارق ومن ثم أراد السلطان أبو الحسن المرينى انتزاعه من يديه وعودته للحكم المرينى الاسلامى وبدأت المعركة بينهما فى ربيع الأول سنة ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م فى مياه الجزيرة الخضراء انتهت بغرق معظم الاسطول الأرغونى وقتل قائده وانسحاب فلولة الى برشلونة وهزيمة الأسطول القشتالى أمام أسطول المغرب واستولى المسلمون على بعض قطعه وبهذا النصر التاريخى أصبح السلطان أبو الحسن المرينى سيدا بلا منازع على جبل طارق وصار من السهل عليه نقل قواته الى الأندلس فى سهولة ويسر .

ولقد كانت مجهودات السلطان أبى الحسن فى جمع كلمة قبائل زناتة (بنى زيان وبنى مرين) وتوحيد قوى المغربين الأوسط والأقصى له مدى بعيد فى استئناف حركة الجهاد فى سبيل نصرة المسلمين فى الأندلس بصورة لم يسبق لها مثيل فى تاريخ الدولة المرينية اذ أصبح بنو مرين بتوحيد البلاد (الأقصى والأوسط) لديهم طاقات هائله سواء أكانت اقتصادية أو عسكرية وبشرية مما تمكنهم من العمل فى ميدان الجهاد بالأندلس ، كما أن الجبهة الشرقية زمن بنى زيان زال خطرها بعد

التوحيد وأصبح بنو مرين فى مأمن ، وكان السلطان أبو الحسن المرين يبدى استعدادا للجهاد أكثر من أى سلطان سابق فيما عدا أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق والده ، ولقد كانت رؤيته السياسية تصل الى مدى بعيد حيث كان يدرك بثاقب نظرته أن الخطر المسيحى لا يهدد الأندلس فقط بل يهدد كيان المغرب وسواحله قبل الأندلس لأن الأندلس هى خط الدفاع الأول عن المغرب ، بل أن الأندلس هى جناح المغرب وكان يرى ضرورة تأمين هذا الخطر والعمل بكل جهده لسلامة ودفع الأخطار عنه وحصر النفوذ المسيحى ومنعه من تحقيق أهدافه فى طرد المسلمين من الأندلس .

وكان السلطان أبو الحسن قد استقبل فى بلاطه بمدينة فاس عام ٧٣٢ هـ / ١٣٣١ م . السلطان محمد بن اسماعيل الأحمر سلطان غرناطة وكان سقوط جبل الفتح فى يد نصارى الأندلس عام ٧٠٩ هـ / ١٣١٠ م اعظم نكبة منيت بها الأندلس وتم الاتفاق مع سلطان غرناطة لاستعادة جبل الفتح وكان سلطان غرناطة يعاونه الأمير مالك بن أبى الحسن والأسطول المرينى قد تمكنوا من استعادة جبل الفتح عام ٧٣٣ ه / ١٣٣٢ م بعد ثلاثة وعشرين عاما على احتلاله وبعد استعادته ثم تحصينه تحصينا قويا وباشر السلطان هذه العمليات العسكرية بنفسه وذلك نظرا لأهميته الاستراتيجية وكانت أحداث غرناطة والقشتالين من أجل العرش قد أسفرت عن مقتل السلطان محمد بن اسماعيل الأحمر عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م . وتولى عرش غرناطة السلطان يوسف الأول الذى حرص على توطيد علاقته مع بنى مرين لأجل الدفاع عن الدين والأهل والعرض والديار واستنجد بالسلطان أبى الحسن الذى كانت لديه رغبة فى الجهاد ، وتحرك الأمير أبو مالك بن السلطان بقواته الى الأندلس وعبر المضيق واقتحم بلاد الثغور وتوغل فى الأراضى القشتالية وحقق انتصارات عظيمة ولما كان بعد المسافة داخل الأراضى الأسبانية قد جعل القوات المسيحية تحاول قطع خط الرجعة

عليه وأبدى كبار قادة بنى مرين الرغبة فى الانسحاب والعودة لكن الأمير مالك رفض ذلك ودارت معركة انتهت بمقتل الأمير مالك حيث تم الهجوم على المؤخرة أثناء الانسحاب وكانت معركة غادرة .

ولقد عمقت وفاة ابن السلطان أبو الحسن الاحساس لديه بضرورة العبور للميدان ليتولى بنفسه قيادة العمليات العسكرية ضد نصارى الأندلس وتمت استعدادات كبيرة وحشدت كل الطبقات فى المغرب الأقصى وبعث السلطان أبو الحسن الى أصهاره وحلفائه بنى حفص فى أفريقية يطلب منهم ارسال نجدة – فأرسلوا اليه أسطولا من ست عشرة سفينة بقيادة قائد بجاية وضم ضد الأسطول الحفصى سفنا من طرابلس وفاس وجرية وغيرها وبلغ عدد السفن التى تجمعت لهذه الحملة مائة سفينة وحشدت الجيوش البحرية وانتقل هو الى سبتة ومنها الى الأراضى الأندلسية وأصدر أوامره للأسطول المرينى بالهجوم على الأسطول الأسبانى وتمكن الأسطول الاسلامى من سحق أسطول قشتالة وبهذا الانتصار أصبح الطريق مفتوحا للعبور أمام القوات البحرية دون أدنى خطر وبلغ عدد القوات الاسلامية ستين ألف وعبر السلطان أبو الحسن فى أواخر عام ٧٤٠ هـ / ١٣٤٠ م ، وفى عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م وجهت ضربات الى طريف يعاونه سلطان بنى الأحمر أبو الحجاج يوسف الذى كان أبرع ملوك بنى الأحمر بعيد الهمة عالى الخلال شاعرا عالما وحاميا للعلوم والفنون واسع المطامع جم النشاط .

ولكن القوات البحرية القشتالية تمكنت من السيطرة على الطريق البحرى وقطع الطريق من المغرب والأندلس وثم قطع خطوط الامداد والتموين وقد اشتركت فى هذه المعركة قوات من قشتالة وأرغون والبرتغال والانجليز ، وقد بارك البابا هذه المعركة البحرية .

وفى جمادى الأولى ٧٤١ هـ / ١ أكتوبر ١٣٤٠ م جمع ملك قشتالة قوات ضخمة من القشتالين وانضمت اليهم قوات اخرى من الأراغون والبرتغاليين والمتطوعين الأوربين (انجلترا أو بحر الشمال) وسار الجميع ووجهتهم مدينة طريف للاستيلاء عليها بصورة نهائية لقطع الطريق من الأندلس والمغرب وقد اتخذ فى هذه الظروف أبو الحجاج يوسف بن نصر والسلطان أبو الحسن المرينى أدركاا منهما لأهمية هذه المعركة الاستعدادات اللازمة والحشد القوى نظرا لأن أنظار هذا المجاهد الكبير كانت تتجه الى مدينة طرف القاعدة الباقية فى أيدى غرناطة من ثغور المضيق فلو أنه استولى عليها لصار المضيق كله فى يده كما صار الطريق مفتوحا الى أشبلية لهذا عول على السيطرة عليها وأجاز اليها العساكر القوية . ولما تكاملت العساكر وكان عددها ستين ألفا تم عبورها فى يسر وسهولة نظرا لسيطرة الاسطول ونزل بساحة طريف ووفاة سلطان غرناطة أبى الحجاج يوسف عبد المؤمن العرب فى قرطبة وشريش وأشبلية وأسكن العرب فى بلنسية وفى شرق الاندلس وكذلك فى بطليموس ، وقد قلل هذا من انتشار الهلالية فى المغرب الاقصى مما ساعد على بقاء نسبة المتكلمين باللغة البربرية حاليا دون غيرها فى الجزائر وتونس .

الا أن اظلالة الزحف الهلالى قد جعلت من بلاد المغرب قطرا عربيا خالصا وأصبحت فيه مراكز للثقافة والحضارة والعلوم الاسلامية المختلفة فى مدن مثل القيروان وفى مسجد القرويين بفاس وفى تلمسان وغيرها من مراكز العلوم الاسلامية وهذا الانتعاش الثقافى والعلمى فى القرن الخامس والسادس الهجرى دون ما سبق من عهود ربما كان ما أسبابه تقارب فى السلالات أو نوع من القرابة الوحية والامتزاج الجنسى والسلالى .

وهكذا لم تكن الوحدة اللغوية قائمة دون أن تستند الى شئ من القرابة الروحية من العرب الهلالية وسكان المغرب ، ولما كان من الممكن أن تحدث استجابة من سكان

المغرب للمؤثرات العربية والاسلامية دون احساس بوحدة الجنس والتقارب السلالى .

وهكذا كانت المعجزة التى تحققت على أرض المغرب من وحدة الدم والجنس والسلالة واللغة والعقيدة والعادات والتقاليد والقيم والمفاهيم الاجتماعية والتراث الحضارى ولم يكن ذلك الا من أجل القرابة ، وهكذا لم يبق من أرض المغرب الواسعة الا جزر بسيطة فى قمم الجبال العالية الشاهقة لم تكن تتلاءم وطبيعة سكنى العرب الهلالى الذى زحف فى كل بقاع المغرب مواطنا متجاوبا متفاهما مع أخيه فكان الوجه الحضارى الذى تنعم به المغرب ، بل الاكثر من ذلك انتشار اللغة العربية كثيرا وأن قوة تأثير هذه اللغة يظهر فى اللهجات الريفية فى القرى المغربية فقد تفرعت من لسان عربى مغربى وهكذا قدمت الغروة الهلالية للغة العربية مكسبا كبيرا اذ ضمت أهل المغرب الى لسان القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف الذى أحبه أهل هذه الديار ودافعوا عن عقيدتهم ولغتهم وبهذا أفادت الغزوة الهلالية أهل المغرب بتقديم لغة حضارية ذات أصول عريقة يستعملونها ويفكرون بها ويقدمون عن طريقها عصارة تفكيرهم العلمى ليضاف الى الحضارة الاسلامية .

كما اننا نلاحظ أن المناطق الأقرب من المغرب الاسلامى الى المشرق كانت أكثر تأثرا بالعرب فى العادات والتقاليد واللغة حيث نجد فى ليبيا معظم سكانها كانوا ينتسبون الى قبيلة أولاد على وهو فى هذا يعد امتدادا لما نحده فى الجانب المصرى من القبيلة حيث نجد الفروع الشرقية من تلك القبيلة التى تمتد بطونها غربا حتى تصل الى طرابلس وقد يرجع ذلك الى تغلغل نفوذ عرب الزحف الهلالى وزيادة تأثيرهم فى المغربين الأدنى والأوسط ، بل اننا نجد أن من ينظر الى أقوال علماء علم الانساب (النسابة) وأقوالهم فى المغرب يرى انهم يدخلون بعض البربر فى العرب أو يفعلون العكس . فيدخلون بعض القبائل العربية كهوارة فى النسب البربرى أو نرى بعض القبائل العربية تدعى النسب العربى (صنهاجة ، المصامدة) ونرى من يقول بالاصل

الوافد للعرب والبربر وهكذا فان الخلط بين نسب العرب والبربر دليل على أن الفروق بينهما كانت تختفى . كما تعتبر محاولة البربر الانتماء الى العرب دليلا على نية صادقة ونزعة قوية للتعريب وكان التقارب هو الذى ساعد على اندماج العرب مع البربر وعدم اندماج البربر بمن سبق العرب فى الوصول الى المغرب من الرومان والقرطاجيين وغيرهم من المستعمرين .

وقد وجد البربر أنفسهم بعد الفتح العربى الاسلامى ازاء شعب من بنى عمومتهم يشاطرونهم ويشاركونهم مثلهم وعاداتهم وتقاليدهم فهنا امتزج العنصران ولم يزد توالى القرون التماذج الا قوة وعمقا ومن معابر انتشار العروبة نجد ان الزحف الهلالى كان له انجاز ضخم فى اقليم المغرب من الناحية الحضارية فقد ضموا الى العروبة أمة عظيمة هى أمة البربر وأضافوا الى الرقعة العربية منطقة واسعة هى منطقة المغرب العربى بأقسامه المختلفة (ليبيا – تونس – الجزائر – المغرب – موريتانيا) ولم تتم هذه الانجازات فجأة وانما تمت فصائل الزحف الهلالى بالتدريج وتغلغلت آثارها فقد تمت الهجرة ببطء وملأ العرب بلاد المغرب بالتدريج فقد جاوز العرب طرابلس الغرب بعد أن مكثوا بها سنين وزحفوا خطوة خطوة وسكنوا قد بدأت تتجمع فى أسبانيا والبرتغال واستمرت قشتالة على سياستها من العبث فى الأراضى الأندلسية ناقضة العهود لكن صلحا عقد بين الأندلس غرناطة وبين ملك أرغون بدور الرابع لكن ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر تجهز عام ٧٥٠ هـ للاستيلاء على جبل طارق وضرب بجيشه حوله حصاره الشديد ، لكن الوباء تفشى فى الجيش وكان الفونسو من ضحاياه وأنقذ الله العلى القدير جبل طارق من خطر جيشه بعد قرابة سنة من بدء الحصار الى الانسحاب وقد وجهت بهذه المناسبة رسائل كثيرة الى الأندلس والمغرب ومصر ، وترك المسلمون موكب الملك يحتاز غرناطة الى أشبلية ، لكن أحداثًا ظهرت كانت تهدف الى تصفية غرناطة وتوزيع أراضيها بين حكام أسبانيا النصرانية وباركها البابا لكنها

فشلت .

وكان استيلاء البرتغال على مدينة سبتة عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ نذيراً بانهيار دولة بنى مرين وهكذا انقلب الوضع بالنسبة للمسلمين وتحولت الحرب المقدسة على أرض الأندلس الى أرض المغرب وتمكن البرتغاليون من الاستيلاء على جزء كبير من ساحل المغرب .

والملاحظ هنا على دور بنى مرين فى الجهاد فى الميدان الأندلسى انهم لم يحرزوا انتصارا فى تلك البلاد كتلك الانتصارات السابقة التى كان لها بعدها السياسى والعسكرى على الساحة الأندلسية كمعركة الزلاقة فى عهد المرابطين على يد يوسف بن تاشفين ، ومعركة الاراك فى عهد الموحدين وذلك لان بنى مرين كانوا يقاتلون بامكانيات المغرب الاقصى فقط دون المغرب الادنى والأوسط وقد استنفذ منهم العمل فى هذين الميدانين كثيراً من الجهد والعمل مما أعاق التفرغ الكامل للعمل فى ميدان الجهاد فقد صرف النزاع المرينى - الزيانى الوقت الكبير من سياسة بنى مرين وربما كان خط الجبهة الشرقية مكشوفاً أمام بنى زيان رغم معاهدات الصلح ، وحاول بنو مرين التوسع فى المغرب لتحقيق الوحدة المغربية كسابق عهدها أيام المرابطين والموحدين وذلك دفعا للنشاط العسكرى فى الأندلس الا أن ذلك لم يعد بالنتائج المرجوة الا أن الوحدة لم تكن لتدوم الا لسنوات قليلة لوجود قوة بنى حفص فى أفريقيا وبنى زيان فى المغرب الأوسط ، الا أن جهود بنى مرين فى الأندلس ودورهم لا ينكر فقد حافظوا على بقاء الاسلام أطول فترة ممكنة ، بل أن مجرد وجودهم على الطرف الآخر للمضيق جعل نصارى أسبانيا يفكرون كثير قبل القيام بعمل عسكرى ضد مسلمى الأندلس .

وتبقى كلمة أخيرة فى هذا الفصل وهو أن جهل حكام بنى الأحمر بالخطر المحدق بهم وبديارهم وتعاونهم مع الأعداء وهم نفس الأعداء ضد أخوانهم فى العقيدة وكذلك طموحات بنى مرين فى الأندلس وعدم تفضيل المصلحة العليا وهى مصلحة

الدين والعقيدة والشعب جعلت الأعداء يجدون الثغرات للنفاذ منها حتى حققوا الهدف النهائى وهو طرد جميع المسلمين من ديار الأندلس ذلك الفردوس المفقود .

وغضب وحيق وحرق وتقوم بتأييده ونصرته وكان الجوارمعترفا به قبل النزوح الى المغرب لكنه أصبح جزءا من العرف السائد بين القبائل وقد أخذت به القبائل البربرية كصنهاجة وكتامة وزناتة وهوارة ومغوارة وغيرها من القبائل البربرية الأخرى اذ رأت فى ذلك العرف نوعا من الشجاعة والكرم والبأس والقدرة على حماية المستجير .

والتاريخ العربى الهلالى فى عصر بنى زيرى والموحدين وبنى حماد ملئ بأمثلة جوار وقدسيته فقد آثر عرب افريقية قتل أبنائهم على تسليم جارهم والغدر به ولو أتى القتل على كل القبيلة وكيف كان الامراء المتصارعون على الحكم والثوار فى وحه الدولة يلجأون الى القبائل العربية لحمايتهم من بطش السلطان أو قواته وكيف كان العرب يحسنون جوار من يلجأ اليهم .

هذه صفات وأعراف عربية أصيلة فمن يتمسك بها يأبى عليه وازعه الضميرى أن يقوم بالسلب والنهب والقتل والتدمير كما صور ذلك ابن خلدون .

وقد أجار عرب الزواودة بأفريقية المغضوب عليهم من أبناء الدولة الزيرية والحمادية أو الهاربين خوفا من بطش حكامها واللاجئين اليها طلبا للحماية مما جعل القبائل العربية فى صراع دائم مع الدولة بسبب الجوار الذى أخذه البربر عن اخوانهم العرب . ونتيجة لانتشار القبائل العربية بالمغرب وتعدد مواطن استقرارها فى جميع أنحاء البلاد امتزجت بقبائل البربر وصاهرتها مما أدى الى تطور مفاهيم القبيلة العربية فيما يختص بالعلاقة التى تربط الرجل بالمرأة والزواج والحلف والجوار والشعر والغناء والزى وحركة التنقل والارتحال ومساكنهم وحكامهم وعلمهم واختيارهم لشيح القبيلة ومساعديه وتأثرهم فيما يختص بالعادات والتقاليد وتأثر ثقافتهم بطريقة التعليم فى المغرب لحاجة

القبيلة المستمرة الى زعيم القبيلة والقاضى والمفتى لمساعدة الزعيم فى حكم القبيلة .

وكذلك الى جانب كل هذا كان المظهر الدينى الاخلاقى الذى تجلت صورته بوضوح فى حياة بعض رؤساء القبائل وأفرادها الذين كرسوا حياتهم للعلم والدين وبناء المساجد والاربطة والزوايا وعمل الخير .

كذلك فانه عندما استولى الموحدون على بجاية من أيدى بنى غانية فان بعضا من سكانها خافوا على أنفسهم من بطش الموحدين فلجأوا كمجموعات كبيرة الى القبائل العربية المجاورة لمدينة بجاية فأجارتهم وحسن جوارهم حتى استقرت الأمور فى البلاد وعادوا الى مساكنهم ولقد تحملت القبائل العربية ضغط الدولة عليها من أجل تسليم من سبق اجارته وكان الرفض طابع العرب فى معظم الحالات .

كذلك نقل العرب الى المغرب ظاهرة التحالف والاحلاف التى كانت تتم بين القبائل عملا على الوقوف فى وجه عدو مشترك ، ذلك لان القبيلة منفردة وحدها قد لا تقوى على مواجهة أعدائها فكان لابد أن تنضوى تحت لواء حلف قوى يضم العديد من القبائل مما يدعم قوتها ويحافظ على وجودها وقد تكون الاسباب العسكرية من أهم مظاهر ظهور الاحلاف أو تكون عوامل اقتصادية أو تجارية والحلف أن يحلف الجميع على عهد يعاهدون عليه أن يكونوا يدا واحدة وصفا واحدا فى مواجهة الاخطار المحدقة لهم فقد تحالفت قبائل زناتة مع رياح وتحالفت بنو توجين مع الاثيج وتحالفت مغراوة مع بنى المعقل وظهر تحالف كثير من قبائل البربر مع العرب الهلالية فى مواجهة الأخطار الجسيمة التى تتعرضس لها البلاد كما أن العرب وقبائلهم وبطونهم كانت تضمهم الاحلاف ساعة العسرة والشدة فقد تحالفت عرب رياح وزغبة وبنو قرة والاثيج وتناسوا ما فيهم من عدوان وتأثرات فى مواجهة زحف الموحدين على أفريقية واستطاعوا بهذا الحلف هزيمة قوات عبد الله بن أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، كذلك تحالفت القبائل الهلالية فى المغرب الأقصى من عرب العاصم والخلط وسيفان وبنى

جابر والحارث فيما بينهم ضد استبداد الوزير عمر بن عبد الله وغمس العرب أيديهم في الماء ، بل أكثر من ذلك فانهم كانوا يعقدون الحلف عند قبر أحد الشيوخ الصالحين المشهود لهم بالكرامات لكى يكون للحلف طابع الاخلاص والقدسية ويأخذ صبغة دينية ، ثم يتصافحون بعد ذلك على التمسك بالحلف وقد سرى نظام كما أنه أنشأ الأبراج العالية فى داخل البحر أمام ميناء مدينة سبتة للمراقبة وليحول دون دخول سفن الأعداء فى مرساها ؛

والذى يطالع الفصل السابق عن جهاد بنى مرين فى الأندلس يستطيع أن يتبين الدور الذى قامت به البحرية المرينية فى حركة الجهاد وما ساهمت به سفنه وكيف كانت تتصدى لسفن الأعداءَ وقد حدثت معارك كبيرة وكثيرة وكانت الغلبة فى معظمها للاسطول الاسلامى الذى كان يشارك فيه أسطول الحفصين وبلاد الأوسط مع أسطول بنى مرين .

ولقد كان السلطان أبو الحسن المرينى الذى تمت فى عهده واقعة طريف ٧٤١هـ / ١٣٤٠ السلطان الذى فاق غيره فى الاهتمام بالأسطول والبحرية ورجالها وذلك لأنه ربما كان يخطط للمدى البعيد للاستفادة منها فى غزواته المتعددة فى الأندلس . حتى أنه كان أول سلطان فى المغرب يستخدم الأسلحة النارية ومدافع النفط والبارود وهى المدافع التى كانت تقذف النيران لكن معركة طريف خذلته وأفسدت كل الخطط التى كان يسعى لها لتحرير الأندلس من قبضة الذين أهانوا الاسلام والمسلمين حيث أنه كانت له رؤى تختلف عن غيره من حكام بنى مرين اذ كان يرى أن الأندلس هو جناح المغرب ، بل هو خط الدفاع الأول عن المغرب . ومن هنا اهتم السلطان أبو الحسن المرينى بتحصين القواعد البحرية التابعة لبنى مرين سواء فى الأراضى المغربية أو الأراضى الأندلسية على الضفة الأخرى وأهمها جبل طارق الذى

حرره من من أيدى القشتاليين عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٣ م وازدهرت صناعة السفن فى عهده وتعددت أنواعها ، وعمل على تزويد السفن بالبحارة المهرة والعدد والآلات وجدد دار صناعة السفن وزودها بكل ما تحتاج اليه .

وخاض السلطان أبو الحسن بأسطوله معارك بحرية عديدة ضد أساطيل قشتالة وأرغون وانتصر فى العديد منها كما انهزم فى المعركة البحرية التى دارت عام ٧٤١ هـ حيث اشتركت فى ذلك قوات بحرية من الانجليز وأرغون والبرتغال وقشتالة وسفن المدن الايطالية وقد بارك البابا انتصار هذه الحملة .

وقد كانت كل هذه المعارك تدخل فى نطاق الصراع حول السيطرة على مضيق جبل طارق . وآلت الأمور فى بلاد المغرب الأقصى بعد الصراع بين أبى الحسن وابنه أبى عنان الى أبى عنان فارس (٧٤٩ – ٧٥٩) والذى اهتم باعادة بناء الأسطول المغربى وأعاد توسيع وصناعة السفن وعمل على تعويض ما تفقدته البحرية المرينية من سفن بعد هزيمة القيروان التى هزم فيها العرب والده والعاصفة المدمرة التى أتت على معظم الأسطول . بعد أن كانت دار الصناعة فى سلا تساعد دار صناعة سبتة فى الأمداد بالسفن اللازمة للبحرية وكانت ذات شهرة عالية فى بناء السفن اضافة الى أن أهلها كانوا من المقاتلين والملاحين المهرة .

وقد سار أبو عنان على سياسة والده فى توجيه عنايته نحو جبل طارق باعتباره قاعدة بحرية هامة لبلاده ولقد اهتم بهذه القاعدة اهتماما كبيرا وزاد فى تحصينها وبناء سور يطرق جبل الفتح وبعث اليه العدد الوافرة والأقوات والرجال والسلاح ، واهتم ببناء أسواره وأبراجه وحصنه وأبوابه ودار صنعته ، وقد حظى الأسطول فى عهد السلطان أبى عنان بعناية خاصة وأهتمام زائد حتى أن هذه السفن كانت تصل الى ميناء الاسكندرية بمصر ولقد ترأس قيادة الأسطول المرينى عدد من كبار قواد البحر فى ذلك

العصر كان منهم من سبتة أو من الأندلس حيث كان مشهودا لهم بالعراقة فى القيادة البحرية لا سيما بنى العزقى .

وفى عهد السلطان أبى الحسن المرينى كان قائد البحر محمد بن على بن أبى طالب العزقى الذى تولى القيادة العليا للأسطول وانتصر على أسطول قشتالة وأرغون والبرتغال فى مياه الجزيرة الخضراء عام ٤٧٠ هـ / ١٣٤٠ م واستمر هذا القائد فى منصبه الى أن قتل بعد وقعة القيروان عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٩ م .

وكانت القوات البحرية تقوم فى أوقات مناسبة من السنة بالمناورة البحرية التى كانت تتم مرة أو مرتين الى ثلاث مرات كل عام وذلك طبقا لحالة الاستعداد العسكرى وكانت المناورة البحرية يشرف عليها السلطان بنفسه ثم يتقدمهم القائد الأعلى للبحرية .

وكانت المناطق من القبائل العربية والبربرية لا يستطيعون الاعتماد على موارد الاقليم القاطنين فيه فيضطرون الى النقلة والارتحال انتجاعا للكلا وطلبا للمرعى والمعيشة المشهودة .

ومن هنا كان الظاهرة الاجتماعية فى ظل هذا المجتمع اليدوى أن يشتد التناحر فيه بين السكان وتكثر الهجرات من مكان الى آخر وتثور الفتن وتنتشر الغارات ولا تتعلق القبائل وبطونها بالارتباط بالارض بالصورة التى نجدها فى مجتمعات السهول والوديان حيث الاستقرار الدائم وانهم لا يدافعون عن أرض معينة طالما أنه من الممكن الانتقال الى مكان آخر توجد فيه وسائل المعيشة ميسورة انما كان الدفاع عن الاسرة والعشيرة والقبيلة فأصبحت القبيلة محور الحياة فى المجتمع المغربى العربى .

ومن هنا كان السكان يرتحلون صيفا وشتاءا الى جهات تتوافر فيها مصادر الرزق

والمعيشة ومصادر الحياة وهذه الحركة المستمرة شمالا وجنوبا فى مختلف مناطق المغرب فى أنحاء أماكن العشب والكلا كمرعى للأبل والماشية كثيرا ما كان يترتب عليها حروب نظرا لقيام قبيلة لسلب مرعى قبيلة أخرى وأراضيها .

ولقد كانت القبائل البربرية أكثر معرفة ودراية بأماكن المرعى والكلا والعشب ومصادر المياه لان هذه أوطانها ، ومن هنا كانت تترك أماكنها للقبائل العربية وتندفع زاحفة غربا وجنوبا فى حركة اخلاء تامة لاماكن استقرارها بعيدا عن مواطن العرب فى بداية الزحف الهلالى ، لكن لم يمض وقت طويل حتى عاد البربر الى أماكن واحدة وما صحب الاستقرار من انصهار وامتزاج وحسن جوار ونقل كل القيم والعادات والتقاليد .

لكن ظاهرة النقلة والحل والترحال كانت مرحلة أولى من مراحل الاستقرار الهلالى ذلك لان الزحف الهلالى كما جاء فى أقوال الكثير من المؤرخين كان يتميز بأن العرب المستقرين فى بلاد المغرب كانوا من بدو العرب انتقلوا بأحيائهم وحللهم وخيامهم وجاوروا أهل البلاد من البربر الذين لم يكونوا يعرفون الخيام والتى كان يصحبها العرب معهم والتى كانت تصنع من الوبر والصوف ويسهل هدمها عند غزوهم أو حروبهم .

لكن لم يمض على دخولهم المغرب الا فترة يسيرة حتى بدأوا يستقرون ويتأثرون بالمظاهر الحضارية العمرانية وانتقل بعض زعمائهم من سكنى الخيام الى سكنى القصور وحياة النعيم والرفاهية واتخذوا من الخيول العربية الأصيلة مطية لهم بدلا من الجمال ، ودخلت حياة الرفاهية بين فصائل القبائل العربية وانهم كانوا يعتمدون كثيرا على أنعامهم التى كانت تهتم بها القبائل العربية الهلالية فهم لا يستطيعون أن يستغنوا عنها فى جمع التصاريف .

وكان لكل قبيلة شيخ يتولى ادارتها ورياستها ويكون صاحب القول الاول فى شئونها واليه يلجأ أفراد القبيلة فى كل أمر من أمورها وهو كبير القبيلة أو البطن أو الفخذ ويكون زعيم أو رئيس المجلس القبلى أو ما يسمى رياسة القبيلة التى تتكون من مجموعة من الأفراد يعاونون شيخ القبيلة وكان شيخ القبيلة يعاونه فى ادارة أمورها أحد أقاربه أو أبنائه أو اخوته بناء على تزكية من أفراد القبيلة أو وجود اجماع عليه ويتم الاختيار لهؤلاء الاشخاص لتمتعهم ببعض الصفات المتميزة كالثروة والوجاهة والفراسة والصفات القتالية أو حسن الأخلاق والسيرة والقدرة على حل المشاكل وايجاد السبل للتغلب عليها .

وقد كان للقبيلة حق تغيير زعيمها وشيخها اذ ما أساء التصرف وأدى من الاعمال مالا يتلائم مع مصالح القبيلة أو عرض وجودها للخطر أو تسبب فى مذلة أو شرف القبيلة أو أدى من الاعمال ما يمس شرف القبيلة بل أن الأمر كان يصل الى حد القتل والاغتيال عندما يحاول كبار القبيلة عزله ولم يستجب فكان يتم الاتفاق على اختيار من يثق فيه ويجوز الاجماع ويتم خلع من يتولى اذ كانت أفعاله تحقق أهدافًا شخصية وكانت الشجاعة القتالية والحربية وكثرة الجمع حوله من أبنائه وأقاربه واخوته الهامه بشتى الطرق ولكن المحاولات باءت بالفشل وانتهى الأمر باستسلام الجزيرة الخضراء فى ربيع أول ٧٤٤ هـ / ١٣٤٤ م .

وهكذا نرى كيف أن الأسطول البحرى المرينى قد لعب دورا هاما فى حركة الجهاد الاسلامى فى الميدان الأندلسى ، ذلك لان دور الاسطول كان يتوقف عليه كل التحركات ولذا فقد كانت سفنه دائما فى أقصى درجات الاستعداد طوال العام وكانوا يختارون من خيرة رجال البحرية المشهود لهم بحسن القيادة والشجاعة والخبرة الطويلة والمران الشديد كما أن توفير المواد اللازمة للصناعة قد أبدى سلاطين بنى مرين اهتماما

شديدا بتوفيرها وامداد السفن المقاتلة وحشدها بالجنود والمعدات والآلات والاستعانة بالخبرة البحرية من الدول المجاورة حتى لو كانوا من دول الاعداء (قشتالة ، أرغون ، جمهوريات ايطاليا) ولقد كانت الاستعانة بالمرتزقة فى البحرية والجيش ثغرة استطاع أن ينفذ منها الأعداء الى أسرار الدولة وقوتها حيث أن هؤلاء لم يكن ولاؤهم على درجة عالية للدولة التى يخدمون فيها ولكن ولاءهم كان لأوطانهم الأولى وعقيدتهم السابقة وربما كانوا ولايزالون عليها .

لكن استطاعت البحرية المرينية أن تقوم بدورها بقدر الظروف العالمية المحيطة وبما توفر لها من امكانيات وطاقات محلية أو عالمية وشاركت أعظم مشاركة وأدت دورها وواجبها ونفذت كل الأعمال التى كانت توكل إليها أما أسباب الهزائم التى كانت تحدث لها فلم تكن ضعفا أو عدم قدرة على القتال ولكن كانت الظروف فوق قدرتها ولا تستطيع مقاومتها وفوق طاقتها ومن هنا كانت تحدث الهزائم التى كانت أقل كثيرا مما تحقق من انتصارات ومن يتصفح المواقف يدرك قوة أسطول بنى مرين والواجب الملقى على كاهل البحرية المرينية .

* * * *

الفصل الرابع

المد المرينى فى المغربين الأوسط والأدنى

منذ أن دخل أبو يوسف يعقول عبد الحق مراكش عاصمة الموحدين وازال ملكهم فى التاسع من محرم عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م والدولة المرينية ترى نفسها أنها أحق بأملاك الموحدين فى المغرب الأوسط والأدنى وأن خروج بنى زيان فى تلمسان وبنى حفص فى تونس عن الدولة الأم فى مراكش يجب أن يعود الى سابق عهده وأن يتم السيطرة على هذه الدول لكى يقوم المغرب الموحد كما كان فى سابق عهده أيام حكم المرابطين والموحدين وقد كان هذا خطا ثابتا فى السياسة المرينية سار عليه كل السلاطين بدءا من أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق الذى رأى أنه لابد من وقف خطر بنى زيان وزعيمهم يغمراسن بن زيان على حدود دولته الشرقية ومن هنا كانت معركة وادى تلاغ فى ربيع الأول ٦٦٦ هـ / ١٢٦٧ م التى هزم فيها قوات بنى زيان ومن ثم كانت الأنظار تتجه شرقا لتوجيه ضربات لخصمه العنيد يغمراسن الذى كان يهدد دولته وانتصر عليه مرة أخرى فى معركة (اسيلى) بالقرب من وجدة عام ٦٧٠ هـ / ١٢٧١ م وحاصر تلمسان وحصن قادولت القريب من بنى زيان وشحنه بالقوات والعتاد والمؤن ليقف مركزا متقدما لمراقبة يغمراسن بن زيان وتحركاته وكان قبل ذلك قد أمر بهدم مدينة وجدة وتحطيمها حتى لا يحتمى بها يغمراسن مرة أخرى .

وفى عهد يوسف بن يعقوب (٦٨٥ - ٧٥٨ هـ / ١٢٨٦ - ١٣٠٨ م) فر محمد بن ادريس احد أبناء أسرة بنى مرين الى تلمسان ثم ثورة عمر بن عثمان بن يوسف الهسكورى وقد تم نفيه أيضا الى تلمسان وثم ثورة الأمير أبى عامر بن السلطان يوسف وكان السلطان قد عين أحد أبنائه فى اقليم مراكش للحيلولة دون قيام أية حركة انفصالية به خاصة انه كان موطن الموحدين ، لكن الأمير أبا عامر خلع طاعة

أبيه وأخذ الدعوة لنفسه إلى مصر رغم مروره بمناطق استقرار القبائل العربية ببلاد المغرب وكان الركب يحمل معه الهدايا والأموال الكثيرة التى وصلت فى احدى الرحلات الى مائة وخمسين ألف دينار ذهبا وكسوة للكعبة الشريفة ومصحف مكلل بالجوهر والياقوت والاموال السائلة التى كانت ترسل لتوزع على أهل مكة المكرمة والمدينة المنورة وهى أموال كان يسيل لها لعاب قطاع الطرق والمفسدين؛ بل أن الركب كان ينعم بوفائه وكرمه وضيافة واستقبال القبائل العربية التى تسكن على طريق الحج.

وهكذا يتضح لنا دور العرب الهلالية فى نشر الطمأنينة والأمان والعلم والإيمان والعمل بما جاء به القرآن الكريم ومن كل هذه الخصال والصفات الاجتماعية التى انتقلت الى المغرب وسادت الحياة اليومية لأهل المغرب نجد ذلك التلاحم والامتزاج والانصهار بين عناصر العرب والبربر مما ساعد على وجود تلك الفرشة العريضة والواسعة من البناء السكانى العربى والاجتماعى فى السلوك والعادات والقيم والتقاليد والاعراف التى لا زال يتصف بها الانسان المغربى الذى يبدو فى تصرفاته ملامح الانسان العربى المغربى الهلالى الذى نقل مفاهيم وحضارة الجوار الحجازى للمدينة المنورة ومكة المكرمة الى أرض المغرب .

فانتقلت مفاهيم وأعراف وقيم وعادات لم تكن سائدة فى البوادى والجبال والسهول حيث كانت الزحفة العربية الاولى قبل منتصف القرن الخامس الهجرى / الحادى عشر الميلادى يقتصر دورها على العرب المستقرين بالمدن والأمصار والدين أسسوا المدن الاسلامية وأقاموا الدويلات العربية الاسلامية ببلاد المغرب وذلك حتى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وهكذا كان انتقال القبائل العربية من هلال وسليم ومعقل الى بلاد المغرب وانتقالها وامتزاجها مع العناصر المستقرة من البربر مظهرا من مظاهر التغير الاجتماعى الذى عرضنا له فى هذا الفصل وخدمة للاجيال اللاحقة التى

ورثت مفاهيم اجتماعية ذات أصول عربية راسخة عاشت على تربة المغرب فأتت ثمارها فى ذلك الرصيد الحضارى الاجتماعى الزاخر فى أوجه الحياة المغربية .

البعد الاقتصادى للزحف الهلالى

لقد أتيح لعرب الهلالية عندما استقرت جموعهم فى مناطق استقرارهم بعد أن هادنوا السلطة السياسية واندمجوا مع الكيان السياسى للبلاد التى استقروا بها سواء بنى زيرى أو بنى حماد وتعاونهم مع المرابطين والموحدين وانتشارهم فى شتى أرجاء المغرب أن تسهم هذه القبائل فى تنمية اقتصاد البلاد التى وطنوا فيها حيث أن كثيرا من مدن المغرب المختلفة قد اتخذها الهلالية أوطانا استقروا بها أو كانت ضواحيها ومراعيها موقع استقلالهم وسيطرتهم ، لقد شارك الهلالية فى البعد الاقتصادى للدول التى استقروا فيها فقد كانوا يتحركون فى يسر وسهولة كما سبق القول ومن هنا ساهموا فى الحركة الاقتصادية وساهموا فى تنمية موارد الدول التى استقروا بها سواء كانت زيرية أو حمادية أو مرابطية أو موحدية ثم فى العصور اللاحقة مع بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين .

وقد أدخل الهلالية الى المغرب تربية الخيول العربية الأصيلة التى انتقلت معهم من مصر والجزيرة العربية ولقد كان من الطبيعى أن تهتم القبائل العربية فى المغرب بأنواع الحيوانات المختلفة التى جلبتها معها من مصر وبلاد العرب حيث أنها لا تستطيع أن تستغنى عن ممتلكاتها من الأغنام والمواشى والأنعام وقد استفادوا بخبرتهم فى الاحتفاظ بسلامة أنساب الخيول والابل وكانوا يدافعون عن ثروتهم الحيوانية أكثر مما يدافعون عن أى شئ آخر فقد كانوا يحمون بها حريمهم وتعينهم على الاغارة والنجاة وتصحبهم حيثما يكونون حتى أصبحت هذه العلاقة الحيوية بين الفرسان والخيل يضرب بها المثل فى التعاطف والتآلف واشتهر بنو سليم وهلال بنى عامر بتوليد وتكثير

الخيول الاصيلة وارتباطهم بهذا الحيوان فقد اعتمد الهلالية على الخيول فى فتوحاتهم فى هذه البلاد المترامية الاطراف فى أواخر القرن الخامس وقبل وفاة المعز بن باديس الزيرى كانت له هديته الى قرطبة خمسين فرسا ثم ألحقها بتسعمائة بعد عودة ابنه من قرطبة، لكن رغم دور الهلالية فى كثرة وانتاج الخيل الى المغرب إلا أنه قتل داخل بلاد المغرب الأوسط بندرومه وانسحبت جميع قوات بنى مرين من جميع بلاد المغرب الأوسط وعلى الرغم من أن السلطان أبا ثابت نفذ مطالب بنى زيان الا أنهم بادروا الى تدمير مدينة المنصورة .

وفى عهد السلطان أبا الربيع سليمان (٧٠٨ – ٧١٠ هـ) وهو شقيق أبى ثابت وحفيد السلطان يوسف بن عبد الحق ، وكان قد عقد اتفاقا لحسن الجوار بينه وبين موسى ين عثمان بن يغمراسن حاكم تلمسان ونفذ موسى الاتفاق ورفض أن يساعد اعداء أبى الربيع سالم عندما راسلوه بعد أن خلعوا طاعته وأحجم عن مساعدتهم.

وفى عهد أبى سعيد عثمان (٧١٠ – ٧٣١ هـ) تعرض لبعض المتاعب اثناء حكمه كان بعضها من جانب بنى زيان فى تلمسان ، ذلك لان بنى زيان بمقتضى الصلح الذى تم بين موسى بن عثمان بن يغمراسن وأبى الربيع سالم كان يقوم على أساس تسليم الثائرين والفارين الى بلاده ، لكن سلطان تلمسان الجديد أبا حمو سهل طريق وصول الثائرين الى الأندلس ومن ثم رأى السلطان أبو سعيد عثمان ضرورة القيام بحملة ضد بنى زيان استطاع بها اكتساح بلاد المغرب الأوسط ومحاصرة تلمسان لكنه عاد مسرعا الى تازى دون أن يحقق أهدافه .

ويعتبر عهد السلطان أبى الحسن بن يوسف وابنه أبى عثمان أزهى عصور بنى مرين فى المغرب الأوسط ، ذلك لأن سياسة بنى مرين فى عهد أبى الحسن كانت

قائمة على امتداد رقعة الدولة والتوسع على حساب من يجاورونه شرقا سواء بنى زيان أو بنى حفص والمغرب الأوسط وأفريقية ، وذلك لتحقيق وحدة المغرب أملا فى أن يصبح الحاكم الوحيد فى المغرب وكان بنو مرين يشعرون أنهم أحق من غيرهم بتلك الزعامة لأنهم هم الوحيدون من سائر القوى فى بلاد المغرب الذين حملوا العبء الأكبر للقضاء على دولة الموحدين ، وكانت أحقيتهم تعود الى أنهم أقوى القوى الثلاث ولما حققوه من الاستقرار والازدهار الحضارى والاقتصادى وكان عهد أبى الحسن على بن عثمان ، وابنه أبو عنان فارس بن أبى الحسن والذى دام قرابة الخمسة والثلاثين عاما هما اللذان أخضعا هذه البلاد ، وأما الجهود التى بذلت قبلهما فلم تكن الا بمجرد غزو أو عمليات تأديبية .

ولقد ساعدت العلاقات القوية التى توطدت بين دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى ودولة بنى حفص فى أفريقية بعد زواج السلطان أبى الحسن من بنات الأسرة الحفصية ، ساعد ذلك القيام بمشروعاته التوسعية فى أفريقية (المغرب الأدنى) بعد أن كان بنو حفص يتعرضون للهجوم والغارات من قبل بنى زيان ، ولقد واتت الظروف المناسبة لأبى الحسن عندما رفض بنو زيان الصلح والتعاون مع بنى مرين وخلف جوا من حسن الجوار والتعايش السلمى بين القوى الثلاث فى بلاد المغرب ولو لفترة مؤقتة ، وتمت سفارة بين أبى الحسن المرينى والسلطان أبى تاشفين الزيانى وكانت هذه السفارة تحوى مطالبة أبى الحسن لبنى زيان بالتخلى عن مدينة تدلس « وأن يرجع الى حدود بلاده شرقا ولو لعام واحد فقط لكن أبا تاشفين أساء الرد ومن هنا بدأت سياسة التوسع المرينى وامتداد السيطرة على المغرب الأوسط وتحركت قوات أبى الحسن ونزلت عند تاسالت فى شعبان ٧٣٢ هـ / ١٣٣٢ م الى الشرق من تلمسان وفى نفس الوقت كان الأسطول المرينى الحربى يتحرك نحو تلمسان لمعاونة القوات البرية ونجح

الأسطول المرينى فى حمل مدد من جنود الجيش المرينى من وهران الى بجاية حيث اشتركت هذه القوات مع الجيش الحفصى فى الاستيلاء على بعض المدن ومنها بعض الثغور الهامة لبنى زيان وبفضل المساعدة السريعة للاسطول المرينى تمكن بنو حفص من اكتساح بعض المدن وأبعدوا عن بجاية خطر بنى زيان ، ولم يتحرك أبو الحسن من مكانه انتظارا لوصول صهره السلطان الحفصى أبى يحيى للاشتراك فى الهجوم على تلمسان ، لكن أخبار أخيه عمر حاكم سجلماسة وتعاونه السرى مع بنى زيان بقيادة أبى تاشفين وكانت بنود الاتفاق تقضى بتعاون كل من الطرفين ضد أبى الحسن وانسحب أبو الحسن الى سجلماسة مع ترك قوات تحمى المؤخرة بقيادة ابنه وتمكن من دخول سجلماسة فى ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م وقتل أخاه عمر وتوقفت أعمال بنى مرين فى المغرب الأوسط مع انشغال القوات المرينية فى الأندلس الا أنه فى منتصف عام ٧٣٥ هـ / ١٣٣٥ م . حاصر بنو مرين مدينة وجدة وتغلب بنو مرين على وهران ومليانة وتنيس والجزائر وقام حلفاء أبى الحسن بالاستيلاء على شرق المغرب الأوسط حتى مدينة لمدية ومضى السلطان أبو الحسن فى يسط نفوذه على المغرب الأوسط واقاليمه واستمر حصار تلمسان ثلاث سنوات حتى سقطت فى يد أبى الحسن فى العشرين من رمضان ٧٣٧ هـ / ١٣٣٧ م . ودافع عنها أبو تاشفين الزيانى دفاع الأبطال لكنه قتل.

واتخذ أبو الحسن خطوات ادارية لدمج المغرب الأوسط بجميع سكانه مع الدولة المرينية واستطاع أبو الحسن أن يجمع كلمة بنى وابين مع بنى مرين وهم أبناء عمومه وبنى عبد الواد وبنى توجين وسائر زناتة وانزلهم بلاد المغرب وأصبح سلطان زناتة .

ولم يكتف السلطان أبو الحسن بما تحقق له فى المغرب الأوسط بل أخذ يرنو ببصره متطلعا الى أفريقية رغم المغامرة وحسن العلاقة والصلة . الا أن الفكر السياسى

لهذا القائد الذى دمرته معركة طريف عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م بل وقتلت طموحاته كان الاتجاه نحو المغرب الأدنى ولذا كان يتحين الفرص للتوسع فى المغرب الأدنى للقضاء على بنى حفص حيث كان بنو حفص القوة الوحيدة الباقية التى تحول دون توحيد المغرب كله تحت حكم بنى مرين بزعامة أبى الحسن . وآتت الفرصة مواتية له عندما توفى الخليفة أبو يحيى الحفصى عام ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م . واحدثت وفاته خلافات كثيرة فى البيت الحفصى اذ تولى الأمير عمر بن يحيى عرش البلاد بدلا من أخيه أبى العباس أحمد الذى كان وليا للعهد والذى كان شاهدا عليه لدى السلطان أبى الحسن المرينى واستطاع الحاجب ابن تافراجين أخذ البيعة للامير عمر لكنه أخيرا اضطر للفرار الى المغرب الأوسط لدى السلطان أبى الحسن مما أحدث خللا فى صفوف الأمير عمر بن يحيى الحفصى ومن ثم واصل الأمير أبو العباس أحمد تقدمه نحو تونس ودخلها فى ٩ رمضان ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦ م . ولكن الأمير عمر بن يحيى دخل بقواته من بجاية ودخل المدينة تونس وقتل أخاه الأمير أبا العباس وأخويه خالد وعبد العزيز ، وكانت نهاية هذه الحرب الأهلية لهذه المأساة بداية تدخل بنى مرين العسكرى فى المغرب الأدنى(أفريقية) ذلك لأن السلطان أبا الحسن قد وقع وثيقة ولاية العهد باعتباره صهرا أو شاهدا ، تحرك أبو الحسن فى صفر ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م . الى تونس بعد أن أسند الى ابنه أبى عنان ادارة شئون المغرب الأوسط ، ولم يكد أبو الحسن يدخل أرض أفريقية حتى انهالت عليه مبايعة حكام الأقاليم .

وكان أبو الحسن قد استجاب لتحريض القبائل العربية الثائرة على الحفصين بتونس فبعد أن احتل وهران زحف الى أفريقية بقواته من بنى مرين والعرب وأصبح على باب بجاية واثناء ذلك وفد عليه شيوخ عرب أفريقية وامراؤها من نسل عرب الفتح المستقلين ذاتيا بامارات بلاد الجريد الزاب وبسكرة مبايعين ومؤيدين فأقرهم على بلادهم واقطاعاتهم ودخل أبو الحسن المرينى تونس فى موكب حافل من شيوخ

القبائل بالمغرب وأفريقية، وهكذا .. استطاع السلطان أبو الحسن المرينى أن يعيد للمغرب الكبير وحدته وكذلك وصلته بيعة حاكم طرابلس وكما بايعه عدد من أمراء الحفصيين فان القبائل العربية أدت دورا كبيرا فى تأييد السلطان أبى الحسن فبايعوه ومنهم أمير الزواودة وعرب الكعوب وقتل الأمير عمر بن يحيى الذى سرق عرش البلاد من أخيه أبى العباس أحمد وكان السبب فى السيطرة المرينية وأصبح الطريق مفتوحا أمام أبى الحسن للدخول الى تونس ودخلها فى ٨ جمادى الآخرة ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م حيث تلقاه أهلها وأعلنوا مبايعتهم وبهذه الجهود استطاع أبو الحسن المرينى أن يجعل المغرب موحدا كما كان أيام المرابطين والموحدين وامتد من مسراته شرقا الى السوس الأقصى غربا والى رندة من عدوة الأندلس وبدأت هذه الانتصارات تحدث آثارها بين سائر القوى فى العالم الاسلامى لكن فى محرم من نفس العام ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧ م حدثت ثورة على أبى عنان فى تلمسان وخرجت عن طاعته مما اضطر أبا عنان الى الفرار منها وزحف أبو الحسن المرينى الى تلمسان وحاصر المدينة وأثناء تفقده لحصونها ومعاينته أبوابها فاجأه فرسان بنى زيان بهجوم خاطف مقلدين ما فعله زعيم الأسرة اليغمراسنية ، يغمراسن بالخليفة السعيد الموحدى وكادوا يقتلون أبا الحسن لولا موقف أمير عرب سويد الذى دافع عنه ودخل بنو مرين تلمسان مرة أخرى .

ثم عاد الى أفريقية لكى يعيد تنظيم البلاد وتسليح ثغور أفريقية بالقوات والآلات الحربية واعادة النظر فى اقطاعات العرب فأراد أن يطبق نظام المغرب الأقصى وترك لهم ما كان فى حدود المعقول أما اقطاعات الأرض للضواحى والتى تؤدى الى الاستقلال الذاتى ومنافسة الدولة فقد عوضهم عنها برواتب من ديوان الجند والغى الاتاوات والتى كانت تفرض بالحفارة نظير الحراسة وعدم الاتجارة . وبذلك واجهته الأوضاع الاقتصادية فقد كان الخلفاء الحفصيون يبذلون العطاء للاعراب وترك لهم الحفصيون

حرية التصرف ، لكن هذه التصرفات أفزعت السلطان أبا الحسن واسترجع هذه الاقطاعيات من العرب وكان ذلك يتعارض مع مصالح القبائل العربية . وأدت هذه الاجراءات الى تذمر بعض القبائل العربية بأفريقية فثاروا وأغاروا على معسكرات بنى مرين وقواتهم بثغور المغرب الأدنى وامتدت أيديهم الى أملاك السلطان بضواحى تونس وتآمر العرب والحفصيون لطرده من أفريقية ، وبدأت القبائل العربية حركة مقاومة للغزو المرينى فى أنحاء أفريقية وتطورت معارضتهم الى احياء الخلافة الحفصية لكى يعملوا من خلالها على مقاومة بنى مرين ، لكن قوات بنى مرين استطاعت أن تحرز انتصارات أولية على جيش القبائل العربية وقام السلطان أبو الحسن بالقبض على شيوخ العرب الوافدين على تونس للتهنئة بعيد الفطر وتوحدت جميع القبائل العربية وتبايعوا على الموت وصاروا يدا واحدة رغم ما بينهم من عدوات وتأرات ضد بنى مرين وتمكنوا من الحاق هزيمة لأن جيش القبائل العربية كان يزيد عن ثلاثين ألف مقاتل ونجا السلطان بنفسه وتحصن بالقيروان وكانت الهزيمة انتكاسة خطيرة لبنى مرين بعد موقعة طريف الأندلسية فقد قاومته بنو زيان وبنو يوجين ومغراوة وغيرهم وانسحبت من تحالفها مع بنى مرين وحاصر العرب القيروان فى ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م .

وكانت القبائل العربية قد استطاعت أن تستميل ابن تافراجين حاجب بنى حفص وعين العرب أحد سلالة الموحدين وآخر خلفائهم وهو أحمد بن أبى دبوس الموحدى خليفة لهم ودفعوه لحرب بنى مرين داخل تونس ، وما ان شاعت أخبار هزيمة أبى الحسن المرينى ومحاصرته بالقيروان وكان السلطان وهو محاصر يقضى وقته فى تلاوة القرآن الكريم الذى كان يحفظ جزءا كبيرا منه وفى سماع الأحاديث الدينية والمحاضرات من مختلف العلماء الذين حرص على تقريبهم وتوالت عليه المشاكل فثأرت تونس وقامت العامة من أهل المدينة بمحاصرة بنى مرين بقلعتها ومن بها من

أبناء السلطان وحريمه ووجوه قومه وامناء بيت المال ولم تستطع القوات المرينية المرافقة للأمير أبى سالم ابراهيم بن السلطان والوافدة من المغرب الأقصى كمدد لوالده أن تصل الى القيروان لفك الحصار حيث انقضت عليها قوات القبائل العربية فلجأ الى تونس لينضم الى المحاصرين من بنى مرين وتخلى حاجب الحفصيين ابن تافراجين عن السلطان أبى الحسن وبدلا من مفاوضة القبائل العربية لصالح سيده أبى الحسن وضع يده فى يدهم فقلدوه حجابة سلطانهم أحمد بن أبى دبوس ، وحاول السلطان أبو الحسن التفاهم مع القبائل العربية وعقد عدة اجتماعات مع رؤسائهم وأسفرت هذه الاجتماعات عن حماية القبائل العربية له حتى خروجه من القيروان ، لكنه سرعان ما ظهرت الخلافات العربية القديمة بين القبائل العربية المتحالفة وأنفرط عقد الوحدة وعملت كل قبيلة على الاستفادة من نكبة بنى مرين فوافق أولاد مهلهل على الإفراج عن أبى الحسن مقابل مبلغ من المال ، لكن أولاد أبى الليل لم يكن يعنيهم المال لأنه كان اتفاقهم مقابل اطلاق سراح بعض زعمائهم وشيوخ العرب المعتقلين بالمدينة فوافق أبو الحسن المرينى على ذلك ودعم هذا الاتفاق زواج ابنه الأمير أبى الفضل بابنه زعيم عرب الكعوب فأخرجوه من القيروان سرا الى سوسة وركب الى تونس وأفزع دخول أبى الحسن الى تونس ابن تافراجين حيث فر الى الاسكندرية بمصر وتم القبض على سلطانهم أحمد بن أبى دبوس وسلموه لأبى الحسن وأودع السجن وظل أبو الحسن فى تونس ولجأ الى القبائل العربية تدعيما لموقفه وظل طيلة عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م وفى شوال ٧٥٠ هـ / ١٣٤٨ م تحرك لاستعادة نفوذه بأفريقية لكن نظرا لهزيمة القيروان وما أشيع عن وفاة أبى الحسن فان ابنه أبا عنان كان قد أخذ البيعة لنفسه واستصدر وثيقة بذلك وأصبح لأبى عثمان الحق فى تولية واعتلاء عرش بنى مرين وبويع سلطانا عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، وعندما علم أبو عنان بأن والده لازال حيا

أرسل الى عماله بأن يصدوه عن المغرب وبادر بارسال الولاة الحفصين الى بلادهم ليحاربوا أبا الحسن والده ويكونوا حائلين بينه وبين العودة الى بلاده فى المغرب الأقصى .

واستغلت القبائل العربية جو الاقتسام وانضمت الى الأمير الحفصى أبى العباس الفضل تعاونه على استرجاع ملك أبائه ودخلت فى طاعة الأمير الجديد وطلبت العون من بلاد الجريد وقفصة وقابس وجربه وغيرها من المدن واكتملت الحلقة على أبى الحسن حيث بقايا بنى زيان الذين اجتمعوا فى عاصمتهم تلمسان ليبايعوا أميرهم عثمان بن عبد الرحمن بن يحيى ابن يغمراسن سلطانا لاحياء دولة بنى زيان وتمكن عثمان هذا من الاستيلاء على العاصمة تلمسان وطرد بقايا بنى مرين منها فى جمادى الآخرة عام ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م ، وهكذا حصلت أفريقية والمغرب الأوسط على استقلالها بفضل الدور الذى لعبته القبائل العربية فى مساندة الحفصين فى المغرب الأدنى ومساندة بنى زيان فى المغرب الأوسط . أما المغرب الأقصى فقد كانت تتصارعه قوى أبى عنان بن أبى الحسن وحفيده منصور بن مالك والمغرب يمر بظروف سيئه وتتقاذفه الأمواج فقرر أبو الحسن الرحيل الى بلاده . وألقت به الأمواج على ساحل الجزائر وتمكن من تجميع بعض قواته وأنصاره واتجه بهم الى تلمسان لكنه هزم شر هزيمة على يد قوات بنى زيان بقيادة أبى ثابت شقيق السلطان الزيانى عثمان بن عبد الرحمن وهزمه عند شدبونة وفر أبو الحسن الى سلجماسة ثم منها الى مراكش ودخل فى حماية واستجارة القبائل العربية لكن أبا عنان قاد حملة ضد والده وهزمه وفر الى جبل هتاتة ومات عام ٧٥٢ هـ / ١٣٥١ م .

وفى كل هذه الأحداث التى جرت على أرض المغرب الأوسط وأفريقية كان للعرب دورهم فى الصراع الدائر بين أفراد البيت المرينى والذى انتهى بتنصيب الأمير

أبى عنان سلطان فى ٧٤٩ هـ / ١٣٤٨ م وتأرجحت طاعة العرب فى مدينة المغرب بين أبى الحسن وابنه أبى عنان وحسم الصراع بينهما على أرض المغرب الأوسط وقامت عرب سويد بالقضاء على ثورة أبى العنان وحلفائه من بنى زيان وعرب بنى عامر . .

وزاد الأمر سوءا بتحول عرب أولاد أبى الليل الى الحفصين ومحاصرتهم لأبى الحسن المرينى بتونس عدة مرات ومبايعة امارات الجريد للأمير الفضل الحفصى فلم يسع السلطان أبى الحسن الا أن يقرر العودة الى المغرب ويترك تونس وركب البحر فى أسطول ضخم (خمسمائة قطعة) فى فصل الشتاء قاصدا المغرب . فلم يلبث أن هاج البحر وغرق الأسطول بمن فيه من علماء وجنود وخلص السلطان على قطعة خشب من بقايا سفينة غارقة ونجا بنفسه الى الجزائر تاركا ابنه فى تونس فحاصرته القوات الحفصية وكادوا أن يتفكوا به وبأنصاره لولا تدخل عرب ابن حمزة الذين من عرب الكعوب اصهاره الذين أخرجوه الى مخيماتهم وأوصلوه الى أبيه عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م ، وهناك فى الجزائر اجتمعت عليه ووالده أبى الحسن قوات كبيرة من عرب سويد والديالم والحرث وحصين وغيرهم ، والتف حوله عرب الثعالبة فزحف بهم نحو تلمسان والتقى بقوات بنى زيان وحلفائهم من عرب بنى عامر بقيادة الأمير أبى ثابت شقيق الخليفة الفضل الحفصى ودارت الدائرة على القوات المرينية ومن تحالف معها وفر أبو الحسن وولده الى الصحراء حتى بلغ سجلماسة بالمغرب الأقصى عزما على استرداد ملكه .

وتولى أبو عنان بن أبى الحسن المرينى الحكم (٧٥٢ – ٧٥٩ هـ / ١٣٥١ – ١٣٥٨ م) وكان يخطط للتوسع فى المغرب الأوسط وأفريقية ومحاولة استرداد ما فقد فى عهد أبيه وكانت العلاقة مع بنى زيان فى تلمسان فى صراع دائم حيث كان بنو زيان يمثلون فى نظر أبى عنان قوة لا يستهان بها رغم تحالفه معهم وقد بقى بنو زيان

يثبتون أقدامهم فى المغرب الأوسط بعد هزيمتهم لأبى الحسن وابنه أبى الفضل . ولمحاولة اعادة بناء دولتهم فانه كان لابد من كسب رضا ومودة أبى عنان ومن ثم قاموا بارسال وفد كبير على رأسه مشايخهم للتهنئة بالعرش ولتوقيع معاهدة السلام وتعاون وحسن جوار وكان بنو زيان فى تلك الفترة يشعرون بنوع من التبعية ، لكن عندما استردوا أنفاسهم وأقاموا صرح دولتهم وتكون جيشهم وتحسنت أحوالهم الاقتصادية ونمت حركة التجارة الخارجية والداخلية أحسوا بكيانهم السياسى وقوتهم فرفضوا طلب أبى عنان فى شفاعة كبير قبيلة مغراوة واعتبروا ذلك تدخلا فى شئونهم الداخلية وأن فى هذا مساسا بسيادة الدولة وغضب أبو عنان من ذلك الرفض ومن ثم كان يحس أنه القوى عدة وعتادا فاتخذ للأمر عدته وحشد قواته للاستيلاء على المغرب الأوسط ، وفى أوائل عام ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢ م . رفع درجة الاستعداد القصوى وتحركت قواته وعلى الجانب الآخر كان السلطان الزيانى أبو سعيد عثمان بن عبد الرحمن وأخوه أبو ثابت عن طريق جواسيسهم وعيونهم التى كانت ترصد كل هذه الاستعدادات على علم بكل هذه الحشود واتخذ للامر عدته وأهبته واستعدا لملاقاة أبى عنان والتقى الجمعان فى « أنكاد » فى ربيع ٧٥٣ هـ / ١٣٥٢م . والحق بهم أبو عثمان هزيمة قاسية وسقط سلطانهم أبو سعيد عثمان أسيرا وفر أخوه الأمير أبو ثابت بعد أن حافت بهم الهزيمة لكن أبا ثابت يثبت لبعض الوقت لكنه هزم عند مدينة شلف وفر الى شرق المغرب الأوسط ولكنهم فى النهاية قتلوه واستقر الأمر لبنى مرين وأبى عنان فى المغرب الأوسط مرة ثانية .

وكان زعيم قبائل عرب سويد والمعقل سببا فى هزيمة بنى زيان حيث قام ومعه أتباعه من العرب بمتابعة الفارين من ميدان المعركة حتى تمكنوا من أسر وقتل الأمير أبى ثابت وانتقموا لهزيمتهم السابقة التى أوقعها بهم هذا الأمير فى عهد أبى الحسن

المرينى وكافأه أبو عنان فأقطعه بلاد السويد وقلعة أبى سلامة وكثيرا من بلاد توجين .

وكان على أبى عنان أن يتابع السير للسيطرة على بلاد الحفصيين فى المغرب الأدنى حيث كان ينظر الى امراء البيت الحفصى الذين يتولون حكم الولايات والاقاليم ما هم الا عمال عاديين شأنهم شأن بقية عمال الدولة فى المغربين الأوسط والأقصى بحيث يمكن عزلهم واقصاؤهم من وظائفهم واحلال آخرين بدلا منهم أو نقلهم الى ولايات أخرى بدلا من التى يتولون حكمها ، وكانت بعض المشاكل الداخلية فى أعوام ٦٥٤ – ٦٥٥ هـ تحول دون الاتجاه أكثر بعدا الى الشرق فاكتفى بالسيطرة على بجاية وقسنطينة ، لكن لم يأت عام ٧٥٧هـ/١٣٥٦م حتى كانت الاستعدادات فى المغرب الأقصى تجرى على قدم وساق لقيام بنى حفص بالاعتداء على بعض ولاة بنى مرين وعزلهم وطردهم من البلاد وكان ذلك يشكل انتهاكا صارخا للنفوذ المرينى واعتداء على الوجود المرينى فى أفريقية وتحركت القوات المرينية نحو قسنطينة وعزل السلطان الحفصى أبو العباس أحمد بن محمد بن أبى بكر وأرسله أبو عنان الى سبتة وأحدث استيلاء أبو عنان على قسنطينة رد فعل عنيف فى أفريقية ، حيث قام امراء المدن والأقاليم من فورهم بارسال البيعة لأبى عنان وكذلك شيوخ القبائل العربية وزعماؤها وقبائل البربر الكبيرة وخطب لأبى عنان فى سائر أنحاء أفريقية فيما عدا مدينة سوسة والمهدية وتوزا ، ثم رحل أبو عنان الى تونس ودخل فى صراع مع القبائل العربية وحاول السيطرة عليها الا أنها أعلنت عصيانها وحاول أبو عبان القضاء عليهم الا انهم توغلوا فى الصحراء ولم تجرؤ جنود بنى مرين على التوغل وراء المجهول فى الصحراء الواسعة حتى لا يصيبهم ما أصاب أبا الحسن وقواته من قبل وعادوا الى المغرب الأقصى ورفضت بعض القبائل التبعية لبنى مرين مفضلة عليهم بنى حفص لكنهم يتمتعون بكثير من الحرية ولأن بنى مرين كانوا يطبقون فى المغرب

الأدنى نفس الأساليب الادارية والتنظيمية التى كانوا يطبقونها فى بلاد المغرب الأقصى ومن هنا فان تحقيق وحدة المغرب بين الأقاليم الثلاثة قد فات أوانه وبات ضربا من المستحيل ولم يمض وقت طويل على عودة أبى عنان الى المغرب الأقصى حتى مرض ومات فى ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م .

وبوفاة أبى عنان انتهت آخر مرحلة من مراحل توحيد المغرب ومن النفوذ المرينى فى بلاد المغربين الأوسط والأدنى كما أن وفاة أبى عنان كانت آخر حلقة من سلسلة سلاطين بنى مرين الأقوياء وأسدل الستار على النفوذ المرينى شرقا فلم يحاول أى من السلاطين الذين حكموا من بعده القيام بأية غزوة فى الأقاليم وأكتفوا بالقبوع فى قصورهم ولم نعد نسمع عن حشود مرينية بعد حدود المغرب الأقصى شرقا فى اتجاه بنى زيان أو بنى حفص .

* * * *

الفصل الخامس

مظاهر حكم بنى مرين وانجازاتهم فى المغرب الأقصى

٦٥٦ – ٨٧١ هـ / ١٢٥٨ – ١٤٢٧م

تكون مجتمع المغرب الأقصى فى عصر حكم بنى مرين فى مجموعات بشرية ساهمت فى بناء هيكل وشكل الدولة ولعب كل منهم دورا فى قيام هذه الأسرة بالحكم طوال ما يقرب من قرنين من الزمان وقد شكل البربر بصفة عامة وبنو مرين بصفة خاصة السواد الأعظم للمجتمع المرينى لأنهم كانوا عماد الدولة بل العمود القوى الذى ارتكزت عليه الدولة فى قيامها حيث أنهم هم الذين بسطوا نفوذهم على الحكم بالقوة وكانوا هم صفوة المجتمع وبسطوا نفوذهم على قبائل البربر الأخرى فهم الطبقة الحاكمة والوزراء والقادة والحجاب وعلية القوم لا سيما بن حمامة وكان لهذه النزعة أثر كبير فى غلبة عناصر بنى مرين فى مدن البلاد المغربية وفى الحواضر الكبرى كفاس وبفضل اعدادهم الكبيرة استطاعوا السيطرة على كل المدن اضافة الى بوادى البلاد وأصبحوا حكام للولايات ونجحت كل قبائلهم فى حفظ التوازن مع القوى الأخرى سواء كانت عربية أندلسية أو قوى أخرى اصبحوا هم من بيوتات فاس الكبرى وتغير حالهم من البداوة الى حياة المدينة بصورة واسعة وقد كان ذلك أكثر الأشياء ألما على نفوس الأندلسين الذين كانوا أسبق فى مجال الحياة المدنية والحضارة لان تجمع بنى مرين ضم بعض الأندلسين حيث كانوا قلة فى أول عهد بنى مرين ثم ازداد عددهم مع جهاد بنى مرين فى الأندلس وقد بدأت هجرتهم الى البلاد المغربية فى القرن السادس وأصبحت مراكش مركز الشغل السياسى للأندلسيين ثم كانت فاس وكانت هجرة الأندلسين الى المغرب الأقصى أكثر منها الى البلاد الشرقية كالمغرب الأوسط والأدنى .

ولقد حاول بنو مرين جمع طاقات الأندلسين للاستفادة بهم ضد نصارى الأندلس المتربصين الدوائر بالاسلام فى تلك الديار كما ضم مجتمع المغرب الأقصى فى عصر بنى مرين بعض العرب وقبائلهم الكثيرة وقد بدأت هذه القبائل العربية فى التوسع نحو المغرب الأقصى بعد الفتح الموحدى فى هضبة الشطوط واستعان بهم بنو مرين فى مجابهة نصارى الأندلس وكانت قبائل رياح من الجشم تسكن بلاد الهبط من قصر كنانة والمحيط وجشم وهم الخلط وسفيان وجابر بلاد تامسينا وغمارة مما يلى ساحل طنجة الى سلا وظل لهذه القبائل وجود قوى لا سيما فى حوض سيو ووادى أم الربيع وأزمور وأصبح لهم كيان فى المناطق الساحلية والسهول وانتشر عرب المعقل قرب فج تازا ونتيجة لهذا الوجود العربى فقد تعربت بادية المغرب الأقصى وطبعت بالطابع العربى .

ولم يعتمد بنو مرين على القبائل العربية حتى التى حملت لواء المعارضة ضد الوجود المرينى فى بلاد المغرب الأوسط والأدنى وساهمت فى اعادة بنى حفص فى افريقية وبنى زيان فى تلمسان مرة ثانية وقد ارتبطت الأسرة المرينية الحاكمة ببعض القبائل العربية برباط النسب فتزوج يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦ – ٦٨٥ هـ) أرملة أمير عرب سفيان الثائر عليه بعد وفاته ٦٨٠ هـ ، كما تزوج بنت أمير عرب الخلط صاحب الدور الشهور فى غزوات الأندلس وأنجب منها ابنه عثمان الذى تولى حكم المغرب ٧١٠ – ٧٣١ هـ وقد تمركزت هذه القبائل فى المواضع المشار اليها وفى كثير من أماكن المغرب الأقصى ، ولقد كانت هذه العناصر الثلاثة (البربر – العرب– الأندلسين) تشكل عصب المجتمع المرينى اضافة الى أقليات أخرى كثيرة منها الغز أو الأتراك أو الأكراد ويطلق عليهم الأغزاز وهم من المماليك المصريين وقد ظهروا فى المجتمع المغربى فى عهد المرابطين وكانو مصدر خطر فى عهد الموحدين ثم أصبحوا

يشكلون عنصرا قويا فى الجيوش نظرا لشجاعتهم ونكايتهم فى عدوهم حتى التى دفعت الموحدين لاستخدامهم فى الجيش الموحدى ثم جاء بنو مرين واستفاد منهم استفادة كبيرة وظل ذكرهم يتردد فى الأعمال العسكرية ويبدو أن بعضا منهم قد تولى امارة بعض الولايات ويأتى بعدهم الروم وقد شهد القرن السادس حركة تجارة واسعة فى الرقيق الرومى وكانت بجاية المركز الرئيسى لهذه التجارة مع حركة الحروب فى عهد المرابطين والموحدين وبسبب المعارك ازدادت أعدادهم فى بلاد المغرب الأقصى وقد عملوا عبيدا أو خدما اضافة الى عملهم كجنود فى الجيش وكخصيان فى القصور وكثير منهم الجند الرومى وطبيعة عملهم العسكرى فرضت وجودهم فى المدن الكبرى مثل فاس ومراكش ومكناسة ولاسوس ويبدو أن بعضهم أسلم أو تظاهر بالاسلام وكانوا يشكلون فرقة من فرق الجيش وكان قائدهم يطلق عليه قائد جند النصارى .

ويأتى بعد ذلك اليهود ، وقد برع يهود المغرب فى التجارة فكثر ثراؤهم لا سيما فى فاس فى عهد بنى مرين وقد كان القرن السادس والسابع الهجرى عصر الازدهار المالى لليهود فى المغرب وقد استأنفوا مسيرتهم مع بنى مرين بعد تنحية الموحدين وكان لهم دور فى الحياة السياسية فى الدولة المرينية حتى كان منهم صاحب السلطان يعقوب بن عبد الحق وقد أدى تحكم اليهود فى مقاليد الأمور فى دولة بنى مرين الى مقتل آخر سلاطينهم وهو عبد الحق المرينى وقد كانوا أكثر عملا فى الخطط الادارية واشتغلوا فى الادارة المالية والوزارة والحجابة وقد غدوا أصحاب أموال ممدودة وأنهم عملوا فى الصياغة المصرفية وكان لهم الدور الرئيسى فى الأعمال المصرفية (طبيعة اليهود فى كل العصور) اضافة الى عناصر أخرى وغيرهم من الأقليات فى المجتمع المرينى .

ومن هنا يتضح أن سكان المغرب فى العصر المرينى كانت الغالبية العظمى من

البربر والعرب وأن تعددت بعض العناصر الأخرى نتيجة هجرة الأندلسيين والغزوات المستمرة من نصارى أسبانيا والنزاع من قبائل المغرب الأوسط والأقصى والأدنى ولا شك أن هذه الأحداث قد أثرت على شكل ونظام الدولة والنشاط الحضارى والثقافى وغيره من الأنشطة الأخرى للدولة .

النظام السياسى :

ظهر بنو مرين على المسرح السياسى فى بلاد المغرب الأقصى كقوة سياسية وعسكرية منذ عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م عندما اسقطوا نظام الخلافة الموحدية وقضوا على آخر سلاطينهم أبى دبوس فى مراكش ، ولقد كان نظامهم فى الحكم والسياسة يختلف كل الاختلاف عمن جاورهم شرقا من بنى زيان الذين استقلوا عن الموحدين بالمغرب الأوسط عام ٦٣٣ هـ / ١٢٣٥ م وعن بنى حفص الذين استقلوا بالمغرب الأدنى عام ٦٣٤ هـ / ١٢٣٦ م لكن كفاح بنى مرين ضد الموحدين لم يكن بين ليلة وعشاها بل استغرق خروجهم على الدولة الموحدية حتى اسقاطها ما لا يزيد عن خمسين عاما ، ولما كانت ثورتهم لتحقيق العدالة الاجتماعية وشعور المواطنين بالأمن والأمان ولم تكن لهم أهداف دينية أو فكر دينى يدعون له كالمرابطين أو الموحدين بل كانوا أصحاب فكر سياسى أكثر منه فكر دينى .

وقد كان السلطان هو رمز الحكم والسياسة فى البلاد واتخذ بنو مرين نظام السلطنة شعار الحكم بدلا من الخلافة التى كان يتخذها الموحدون وبنو حفص فقد عمل الأمير عبد الحق منذ أن شغل فكرة قيام دولة مرينية فى أن يكون لقبه السلطان بدلا من الخليفة وقد سار رؤساء بنى مرين على هذا الخط فتلقبوا جميعا بلقب سلطان

وقد كان السلطان يتولى عن طريق البيعة ولا تصح له السلطة الا بعد مبايعته

فكانت البيعة تتم أولا عن طريق أشياخ بنى مرين وأهل الحل والعقد وعليه القوم وقواد الجيش وكبار رجال الدولة على بيعة خاصة وهؤلاء يكونون مجلس وصاية على العرش وبعد ذلك تتم البيعة العامة ويقوم بها كبار رجال القبائل والقبائل جميعها التى تفد الى القصر السلطانى بالعاصمة وجموع الشعب وقد ظل بنو مرين يتخذون لقب أمير المؤمنين أو أمير المسلمين حتى اسقاط الدولة الموحدية فى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م .

وكان السلطان يعاونه مجلس استشارى مكون من أشياخ ويضم رؤساء بعض القبائل العربى وكان نظام الحكم شورى وليس ملكيا استبداديا كما صور ذلك كتاب الغرب اذ كان السلطان يرجع الى مجلس الأشياخ فى كل الأمور التى تهم الدولة كاعلان حالة الحرب والتعبئة العامة وجمع الضرائب وارسال السفارات أو عقد المعاهدات وذلك تطبيقا لقوله تعالى : (وشاورهم فى الأمر ، وأمرهم شورى بينهم) .

وكان يلى منصب السلطان مباشرة ولى العهد وهو من المناصب الهامة فى الدولة وكان الغرض من تعيين ولى العهد وأخذ البيعة له هو المحافظة على تسلسل الحكم فى البيت الميرينى ، وكان ولى العهد يقوم بمنصب نائب السلطان ويقوم أحيانا بقيادة الجيوش نيابة عن السلطان ويتولى الحكم فى البلاد عندما يغادرها السلطان الى الأندلس أو المغرب الأوسط (السلطان أبو الحسن واختار ابنه أبا عنان حاكما على المغرب الأقصى أثناء حملاته على المغرب الأوسط وبلاد أفريقية) ، وكانت ولاية العهد تسبب كثيرا من الخلافات من أفراد الأسرة الحاكمة عندما يموت السلطان فجأة وتحدث الاختلافات .

وكان يلى منصب ولى العهد الوزير أو كبير الوزراء الذين كانوا دائما من أصحاب السيف وكان الوزير رابطة السلطان والرعية ، وكان ديوان الانشاء والكتابة من أهم وأخطر الوظائف المعاونة للسلطان المرينى وكان ذلك الديوان يضم عددا كبيرا من

الكتاب الذين يقومون بكتابة الكتب والرسائل وكان سلاطين بنى مرين يسندون الى كتابهم بعض المهام الأخرى التى رفعت من شأن الوظيفة وأصحابها .

وكانت وظيفة الحاجب وظيفة تنظيمية وهى أن يقوم الحاجب بباب السلطان ليكون صلة ربط بينه وبين الرعية حيث لا يتداخل ذلك مع وظيفة الوزير وهو يترأس مجموعة الحرس السلطانى بباب السلطان وكان سلاطين بنى مرين يعينون بعض حجابهم أما من عبيدهم المخلصين أو من أهل الذمة أو من الخصيان من أهل الثقة .

وعندما تولى السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق السلطة كاملة فى البلاد فانه عمل على اعادة التنظيم الادارى للبلاد وأقاليمها المختلفة فبدل النظام الموحدى الذى كان معمولا به فى السابق والذى كان يقسم البلاد الى ستة أقاليم رأسية فأضاف عليها بنو مرين ثلاثة أقسام أخرى ليصبح تسعة أقاليم وجعلوا كل اقليم مستقلا بذاته عن الأقاليم الأخرى وكانت سبتة الميناء الهام لها وضع خاص اذ أسندت ادارة هذه الأقاليم والأنحاء التابعة له لأسرة العزفى ، وكان كل حاكم اقليم له مسؤليات محددة ملتزم بتنفيذها وعليه واجبات لابد أن يؤديها قبل الدولة والعاصمة فاس وضمت ادارة الحكم دواوين مختلفة كل ديوان عليه مسؤليات محددة مثل ديوان العسكر وتولى أمور الجيش والبحرية وديوان الخراج والأراضى الزراعية وديوان الأنشاء ، وغيرها من الدواوين المختلفة والى جانب هذه الدواوين كانت هناك وظائف لها نظارات كنظارة الأحباس والأوقاف .

كذلك أبدى سلاطين بنى مرين اهتماما خاصا بالقضاء وذلك لاشاعة العدل بين الرعية والحكم بالكتاب والسنة المطهرة واحساس الناس بالطمأنينة والأمن على حياتهم وممتلكاتهم والشعور بالأمن والأمان ولقد كانت هذه فلسفة حكمهم التى قام عليها النظام ذلك لأن تنظيم القضاء والعيش فى جو من العدالة يحقق الاستقرار

الادارى للدولة وتسير الحياة وفق متطلبات القيادة السلطانية ، وكان منصب قاضى الجماعة فى المغرب الأقصى والذى يعادل منصب قاضى القضاة فى بلاد المشرق من أخطر الوظائف فى الدولة لأنه يلى منصب السلطان مباشرة ولأنه منصب الفصل فى القضايا بين الناس ولقد حرص سلاطين بنى مرين على تعين أكثر قضاة دولتهم بأنفسهم لا سيما قاضى الجماعة نظرا لأهمية المنصب وجلاله .

وكان قاضى الجماعة (قاضى القضاة) يتبعه من حوله القضاة الذين يتوزعون فى الولايات والأقاليم والذين كان يتم اختياره لفترة معينة لا تطول حرصا على عدم الالتزام بالمبادئ التى عينوا عليها وكان يوجد بجانب القضاة القضاء العسكرى وكان السلطان يعينه للفصل فى القضايا الهامة بالجيش وللفصل فى القضايا داخل هذا الجهاز الحاكم الهام والحيوى للدولة وكانت السمة الغالبة فى القضاء هو الصلاح والتقوى والتفقه الشديد فى قضايا الدين والفقه والخوف الشديد من الله والحرص على التزام العدل والنزاهة .

وقد أسند الى القاضى احيانا القيام بمهمة السفير لدى الدول الخارجية كبلاد المشرق العربى ، لبنى زيان وبنى حفص وبنى الأحمر وقشتالة وأرغون وغيرها من الدول ذات العلاقة بالغرب الأقصى فى العصر المرينى .

اضافة الى أن سلاطين بنى مرين قد حرص العديد منهم على الجلوس للنظر فى المظالم التى ترفع اليهم والتى تتطلب حكمهم . وكان السلطان أبو الحسن المرينى يجلس يومى الأثنين والخميس من كل أسبوع للنظر فى المظالم بنفسه وأبدى سلاطين بنى مرين حرصا شديدا على اشاعة جو من العدل بين الرعية تمكينا لهم للعمل خارج القطر وحماية للجبهة الداخلية .

كما أن نظام الشرطة كان معمولا به فى دولة بنى مرين وكان صاحب الشرطة فى كل اقليم من أقاليم الدولة يأتمر بأمر الوالى أو حاكم المدينة وكان يوجد الى جانب ذلك ديوان الحسبة وهو معاونة للقضاء والشرطة ووظيفة المحتسب هى البحث عن المنكرات والمحافظة على المصالح العامة وقد اهتم بنو مرين بهذه الوظيفة اهتماما كبيرا وكان صاحب الحسبة أحد عناصر الادارة الهامة فى كل مدينة من مدن الدولة المرينية .

وأقام بنو مرين نظامهم الحالى من الجباية على أساس أن كل والٍ من ولاة الاقاليم مسئول مسؤلية كاملة عن الجباية فى اقليمه والاتفاق فى ولايته ثم يبعث بما تبقى للادارة المركزية فى العاصمة وكانت الولايات التسع المقسمة اليها الدولة تخضع لاشراف دقيق من الناحية المالية وكان المشرف على الجباية يسمى كاتب الجباية أو صاحب الأشغال وقد أطلق على هذا الديوان فى عهد أبى عنان بن أبى الحسن اسم ديوان الجند والحساب .

* * * *

الحركة الثقافية والفكرية فى عهد بنى مرين

شهد القرن السادس والسابع الهجريان نموا ثقافيا فى بلاد المغرب الأقصى فى ظل حكم بنى مرين فقد أدى طرد الكثير من المسلمين من الأندلس وفرار الكثير منهم الى المغرب الأقصى بفنهم وعلمهم وثقافتهم احتماء فى جو الاستقرار الذى فرضه بنو مرين على بلادهم ولقد كان طبيعيا ان يعتصم هؤلاء ومن بينهم العلماء بأقليم بعيد عن متناول أيدى نصارى الأندلس اضافة الى حركة الهجرة من الشرق حيث تابع العلماء نشاطهم الثقافى فالتجأ أغلبهم الى مدارس المغرب الأقصى فى فاس ومراكش وسبتة وطنجة واغمات (تلمسان تحت حكم بنى مرين) فكانت الثقافة والحضارة الاسلامية فى أشد قوتها وعنفوانها فى عصر بنى مرين وبرزت فاس عاصمتهم متفوقة على جميع مدارس المغرب وبرزت فى ميدان الحضارة وتألق نجمها فى عالم الفكر والثقافة .

ولقد ساعد على ذلك حصاد قرنين من النشاط العلمى والثقافى بفعل جهود المرابطين والموحدين وجاء بنو مرين ليجدوا حقلا خصبا ومجالات ثقافية وعلوما وآداب نزهو بها بلاد المغرب الأقصى ولكن بنو مرين عملوا من حانبهم على الانطلاق بخطوات أوسع فى تلك المجالات الفعلية التى أتاحت للعقلية المغربية أن تبدع فى عطائها . والذى ساعد على ذلك أن سلاطين بنى مرين لم يقيموا دولتهم على فكر دينى معين ولم يفرقوا بين العلماء واحتضن السلاطين فى مجالسهم العلماء على اختلاف مستوياتهم ولذلك شهد عصر بنى مرين بالمغرب الأقصى وجود أكبر حركة ثقافية وعلمية وفكرية شهدتها البلاد طوال تاريخها الاسلامى .

فقد شهد المغرب الأقصى ذلك العدد الضخم من المدارس العالية المتخصصة التى انتشرت فى طوال البلاد وعرضها على نحو لم تشهده البلاد من قبل إضافة إلى أن

هذه المدارس قد امتدت الى المغرب الأوسط تحت سيطرة بنى مرين .

ولقد أسدى سلاطين بنى مرين للعلم والحضارة الثقافية الاسلامية اليد الطولى ومكنوا المدارس العليا وعلماءها لا سيما مدرسة الطب العليا فى سلا ، من متابعة الرسالة المقدسة للعلماء بعيدا عن كل ما يهددهم أو يقطع عليهم جهودهم فى البحث والعطاء لا سيما أن السلاطين أجزلوا لهم فى العطاء ومنحوهم كل الفرص للابداع وقد أدى ذلك الى اختراع وانتاج المدافع الحربية التى تقذف النيران وغدا هذا السلاح مستعملا فيما بعد واخترع العلماء الأسلحة الجديدة والتى تشبه المدفع وكانت مجهزة بآلات قاذفة وهى النفط .

وقد صان المرينيون تراث الحضارة الاسلامية الذى ورثوه عن المرابطين والموحدين وعملوا على دفع هذه الحركة للأمام استفادة منها فى كل المجالات وبسطوا ظل حمايتهم على العلماء واخذت مدارس المغرب الأقصى لا سيما مدارس فاس وسبتة وسلا فى كنفهم تزداد تفوقا ويتألق نجمها حتى لقد قيل ان جامعة فاس هى أقدم الجامعات العلمية (أنظر كتابنا : الاسلام والثقافة العربية فى أوربا . القاهرة ، ١٩٧٩) فى العالم وأنها ورثت تقاليد مدرسة القيروان وصار لهما السبق فى مضمار الثقافة الاسلامية وقد ظلت هذه الجامعة التى شد اليها المغاربة والمشارقة الرجال تغذى الحياة الثقافية فى العالم الاسلامى طيلة أربعة قرون .

ولم يضع سلاطين بنى مرين أدنى العوائق أمام العلماء المغاربة وغيرهم من علماء الأندلس وأدبائهم المهاجرين الى المغرب الأقصى وتمتعوا ببعض المميزات التى يتمتع بها أبناء المغرب بل لقد انضم كثير من هؤلاء العلماء الى مجالس سلاطين بنى مرين وشغل بعضهم مناصب عليا فى الدولة وقد أدى ذلك الى تطعيم الحركة الفكرية والعلمية وتعميق جذورها فى المجتمع المغربى حتى غدت فاس عاصمة الفكر والعلم

والحضارة والثقافة الى جانب أنها العاصمة السياسة وكانت مجالس السلاطين عبارة عن ندوات علمية تطرح فيها الأفكار وتناقش وكان شغف السلاطين بالعلم وحبهم العلماء دافعا لعقد هذه المجالس العلمية وكانوا يعقدون هذه المجالس للمناظرة والمحاضرة ومطارحة الأفكار بين الأدباء والعلماء ورجال الدين والفقه والشعراء .

وكان السلطان أبو الحسن وابنه أبو عنان من محبى هذه المناظرة ومجادلة العلماء وكان الأخير عارفا بالمنطق وعلوم الرياضة والفلك وأصول الدين ، وقد شهد البلاط المرينى فى عهد أبى الحسن أعظم مجالس العلم والعلماء التى شهدتها الدولة حيث احتضن البلاط المرينى فى عهده حشدا من العلماء لا يحصى عددهم ، حتى أن المصادر تذكر أن أسطول أبى الحسن عندما غرق فى مياه تونس فى فصل الشتاء كان من بين سفنه الغارقة (خمسمائة قطعة) عدد من العلماء لا يقل عن أربعمائة عالم فى التخصصات المختلفة .

وكانت المساجد تقوم برسالتها كما قصد هذه المساجد العلماء والعباد وقاموا بدورهم فى تقديم الفتوى والفقه وعلوم الدين للناس اضافة للمدارس المتخصصة . وكان السلطان أبو الحسن من أبر سلاطين بنى مرين بالعلماء وأعرفهم بقدرهم وكان يحرص أشد الحرص على تتبع أخبار العلماء فى أنحاء البلاد وكان يضم النابهين وأصحاب الاختراعات العباقرة منهم الى مجلسه وأجرى عليهم العطايا وقد شجع سلاطين بنى مرين حركة التأليف والوراقة وساعدوا العلماء على الاكثار من المخطوطات حيث كانوا يجزلون ويزيدون لهم العطايا على مؤلفاتهم الجديدة وتشجيعا لهم على مواصلة الحركة العلمية وكانت جوائز السلاطين لهؤلاء العلماء سخية .

كما اهتم سلاطين بنى مرين بخزانات الكتب وتعين الموظفين عليها ووقف الأموال عليها وفتحها للطلاب للبحث والدراسة واهتم أبو الحسن وابنه أبو عنان بتزويد

هذه المكتبات بالمخطوطات وشرائها من دول المشرق والأندلس والاعتزاز بهذه الخزانات من الكتب .

وقد اهتم بنو مرين بالمدارس وتعتبر المدارس المرينية أبلغ دليل على روعة الحضارة الاسلامية المغربية والأندلسية ذات الطابع المرينى حيث قدموا اللوازم لهذه المدارس ومتطلباتها حيث كان الطلبة يقيمون فيها على نفقة السلطان المرينى واهتموا بها لاتخاذها ميدانا لتدريس الفقه المالكى عملا على القضاء على مذهب التوحيد (الموحدين) وقد أنشأ المرينيون مدارسهم على نمط جديد لم يعهده المغرب من قبل وهى مدارس التعليم العالى المتخصص والسكن الداخلى للطلاب بعد أن كانت العصور السابقة تشهد القاء العلماء لدروسهم فى المساجد وبصفة خاصة مسجد القروين وقد بنى سلاطين بنى مرين مدارسهم فى العاصمة فاس وغيرها من مدن المغرب الأقصى .

وكانت مدرسة الصغارين أولى المدارس التى أنشأها السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق بالقرب من السوق الذى يضع فيه النحاس الأصفر وجاء السلطان أبو سعيد عثمان المرينى فاهتم ببناء المدارس فى فاس وخاصة مدرسة العطارين ومدرسة المدينة البيضاء وغيرها الكثير من المدارس الأخرى ولم يكتف سلاطين بنى مرين بانشاء المدارس فى العاصمة فاس بل أنشأوها فى سائر بلاد المغرب الأقصى والأوسط وانشأ السلطان أبو الحسن مدرسة فى مدينة تازى ومكناسة وسلا وطنجة وسبتة وانفا وأزمورواسفى واغمات ومراكش والقصر الكبير وبالعباد بالقرب من تلمسان وبالجزائر مدارس أخرى وأنشأ أبو عنان بن الحسن المدرسة العنائية وكانت متخصصة فى الطب وأنشأ أبو عنان بن الحسن المدرسة العنائية عام ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م . وقد أراد بنو مرين التوسع فى العلم بأنشاء المدارس الكثيرة على نحو لم تعرفه بلاد المغرب من قبل وذلك لاغلاق جميع المنافذ أمام مذهب التوحيد ونشر المذهب المالكى وأقام بنو مرين

نظام السكنى والاقامة الداخلية للطلبة ليتسنى لهم التحصيل ولخلق جيل من الطلاب ليس من أهل المدن وانما من أهل البوادى والجبال والصحراء فانتشر التعليم على نطاق واسع بفعل هذه السياسة وشهدت عصور بنى مرين أزهى عصور المغرب الأقصى فى مجال الفكر والثقافة والأدب والتعليم الجامعى الذى أدخل لأول مرة فى تاريخ المغرب وحرص بنو مرين على تنشيط حركة التعمير والبناء وشعروا بحاجتهم الى المدن الجديدة سيما وقد انتقلوا من حياة البداوة الى المدن ونزحت القبائل وازداد عددها وضافت عليها المدن القديمة فشهدت فترة حكمهم ظهور الكثير من المدن الجديدة ومنها فاس الجديدة (المدينة البيضاء) وتم بناؤها عام ٦٧٤ هـ / ١٢٧٥ م فى عهد أبى يعقوب بن عبد الحق وبقيت ملاصقة لمدينة فاس القديمة ونزل فيها السلطان بحاشيته وذويه وأصبحت هذه المدينة من أعظم مدن الدولة ، ثم مدينة البنية وأمر ببنائها السلطان يعقوب بن عبد الحق واختار لها مكانا ملاصقا لمدينة الجزيرة الخضراء (مدينة ذات هدف عسكرى) وكذلك مدينة منصورة تلمسان وبنيت فى عهد يوسف بن أبى يعقوب فى أثناء حضارة تلمسان عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م . وكذلك مدينة قطاوين وأسسها أبو ثابت المرينى عام ٧٧ هـ / ١٣٠٧ م . وكان الهدف من بنائها عسكريا وكما اهتم بنو مرين ببناء المدن الجديدة وحرصوا أيضا على تجديد المدن القديمة وبناء الأسوار لها وتوصيل الحياة اليها .

واهتم سلاطين بنى مرين وعلاة القوم من الأسرة الحاكمة وأشياخهم ببناء المساجد الجديدة فاحتوت كل مدينة من هذه المدن الجديدة على مسجد كبير كالمسجد الجامع بفاس الجديدة الذى بنى عام ٦٧٧ هـ / ١٢٧٨ م ، وغير هذه المساجد فى المدن الجديدة ، مساجد أخرى لا تقع تحت الحصر بنيت فى جهات الدولة المختلفة اضافة الى الزوايا والأربطة وبنى العديد من المساجد فى المدن الجديدة فى عهد السلطان

أبى الحسن المرينى وكذلك ابنه أبى عنان واهتم سلاطين بنى مرين بترميم المساجد القديمة واصلاحها وتزويدها بكل ما تحتاج اليه حفاظا على الطابع الاسلامى للمساجد ، وفى عهد السلطان يعقوب بن عبد الحق زود مسجد القروين بكل ما يحتاج اليه ونال مسجد الأندلس نفس العناية التى لقيها مسجد القروين وعمل سلاطين بنى مرين على تهيئة المساجد فى دولتهم كى تؤدى رسالتها فى نشر المذهب المالكى الذى استعاد مكانته التى كان عليها قبل ظهور الموحدين وكان سلاطين بنى مرين يهتمون بأنفسهم بفهم هذا المذهب واتاحة الفرصة له لأنه المذهب المفضل والمحبب عند شعبهم وكان السلطان أبو الحسن يحرص على أن يوضع بين يديه مؤلفات المذهب المالكى والذى يعتبر أكبر من غيره من المذاهب الأخرى واجتذب سلاطين بنى مرين على المذهب المالكى وقام أبو عنان بتجديد ضريح الشيخ (أبو ميمونة دارس بن اسماعيل) وهو من أوائل حملة المذهب المالكى ، لدرجة أن عبد الرحمن بن عفان الجزولى وهو من أكبر علماء المذهب المالكى فى ذلك العصر كان يحضر مجلس علمه أكثر من ألف فقيه مالكى كانوا يدرسون المدونة لابن سحنون وقام العلماء بتدريس المذهب المالكى فى المدارس والمساجد حيث كان هذا المذهب هو محور التعليم فى العصر المرينى ذلك لأن المسلمين ببلاد المغرب شديدو التمسك بسنة رسول الله ﷺ معرضين عن اتباع المذاهب الأخرى التى تعتمد على الرأى والتأويل وهذا هو سر انتشار المذهب المالكى الذى لقى قبولا من الفقهاء المغاربة لاعتماده اساسا على نصوص القرآن الكريم والأحاديث . ولقد أصبح المذهب المالكى فى بلاد المغرب هو الحصن الذى اعتصم به سكان البلاد . بل أمعنوا فى تعصبهم للمذهب المالكى فمن كان مالكا قبلوه ومالوا اليه ومن كان غير ذلك حاربوه والمالكية وافقت طبيعة المغاربة ، كما ان الفقهاء المالكين سموا فى نفوس المغاربة الى مرتبة الزعماء الذين يعارضون الحكام فى سبيل

اعلاء كلمة الحق وانتصرت المالكية على مذهب الموحدين وصمدت رغم محاربة الموحدين لها وازداد انتشارها فى العصر المرينى .

وشهد العصر المرينى ازدهار العلوم الاسلامية والدينية من تفسير القرآن الكريم وعلم الحديث وتأثرت هذه العلوم بالمذهب المالكى واصبحت هذه العلوم تواكب هذا المذهب وتشبعت به واهتم العلماء والمفسرون فى العصر المرينى بدراسة القرأن الكريم باعتباره المصدر الأول للتشريع الاسلامى واهتم السلاطين أيضا بحفظ القرآن الكريم وتفسيره وكان السلطان أبو عنان حافظا للقرآن الكريم كله وازدهرت بعض العلوم المتصلة بالقرآن كعلم القراءات وازدهر علم الحديث باعتبار الحديث هو المصدر الثانى للتشريع ولقى علم الحديث رواجا كثيرا حيث كان بعض العلماء من المتصوفة يتكسبون من نسخ كتب الحديث . لذلك كانت كتب الحديث أوسع انتشارا من غيرها من المؤلفات الأخرى وحرص الأهالى على تعليم أولادهم الحديث وحفظه بجوار القرآن الكريم لاحظ حب الشعب للرسول ﷺ ولأحفاده ، الأسرة الادريسية والسعدية ، والعلوين الحكام الحالين فى المغرب .

أما الفقه فى العصر المرين فقد لقى تقدما كبيرا وكان الفقه فى الدولة يسير وفق المذهب المالكى وبرع كثير من العلماء فى علم الفرائض والأصول وذلك بظهور كثير من الفقهاء فى العصر المرينى الذين نبغوا وتفقهوا فيه وظهرت كثير من المؤلفات التى ألفت فى مختلف فروع الفقه كما يدل على ذلك أن الفقهاء أصبحت لهم المكانة السامية فى البلاد وفى مجالس العلم التى كانت تعقد فى البلاد السلطانى كما تولى الفقهاء أرفع المناصب فى الدولة ومنها القضاء والافتاء والحجابة وكان القضاء مستقلا حيث أن قضاة الأقاليم فى المغرب لم يكونوا مستقلين عن الادارة أو السلطة فقط بل عن سلطة قاضى الجماعة بفاس .

ولم تكن العلوم الفقهية فى عصر بنى مرين قاصرة على العلوم الدينية فقط وانما شملت مختلف العلوم الأخرى العلمية كاللغة العربية وعلم النحو والتاريخ والسير والرحلات والجغرافيا والفلك والطب والرياضة والعلوم والمنطق وغيرها من العلوم الأخرى التى قامت بدورها فى اذكاء الحركة العلمية والفكرية والثقافية والتعليمية فى العصر المرينى الذى كان المجتمع يتقدم نحو الرقى والرفاء وعم النمو والتقدم كافة المرافق والجوانب وغدت فاس درة فى جبين الحضارة المغربية والاسلامية وتقدمت العلوم والفنون وكثرت المدارس والجامعات وعمرت الدور بالكتب وانشئت المكتبات الكثيرة ووصفت فاس بأنها جوهرة العلم والعلماء وكانت فاس أعظم علما وأكثر فضلا بالنظر الى غيرها من الممالك لاتصال الحضارة العظيمة والدولة المتوارثة منها .

وتابع علماء اللغة العربية جهودهم فى العصر المرينى التى بذلها علماء اللغة السابقين وظهرت فى بلاد المغرب طائفة من الكتاب المجدين فكانت فاس بها جوهرة العلم والعلماء وكانت فاس أعظم علما وأكثر فضلا وبرعوا فى الكتابة وأحاطوا بأسرار اللغة فتهافت عليهم السلاطين والرؤساء يستخدمونهم فى دواوين الانشاء وزاد نشاط حركة البحث فى العلوم الدينية من تفسير وقراءة وفقه وحديث وسار العلماء الدارسون الى فهم أسرار اللغة العربية وكان أكثر علماء العصر المرينى على صلة كبيرة بالدراسات اللغوية وقد أدى هذا الى دعم اللغة العربية وصار علماء اللغة يجمعون الى براعة الفقهاء براعة الشعراء والنبهاء ويتصرفون تصرف المطبوعين ويتكلمون بألسنة المجيدين وقد أدى ذلك الى نهضة كبرى فى علم النحو وظهر الكثير من علماء النحو اضافة الى ظهور العديد من كتاب التاريخ والسير وقد أرخ هؤلاء للدولة المرينية ومنهم ابن أبى زرع وابن عذارى المراكشى ، وابن خلدون وابن الخطيب والجرنائى وغيرهم من علماء التاريخ ، كذلك من الرحالة المشهورين ابن بطوطة الذى أصدر السلطان أبو

عنان أمرا بتدوين رحلته التى كانت أحسن ما كتب من أدب الرحلات وظهر العديد من الجغرافيين ونشط علم الرياضيات ، وكما ارتفع شأن الفقه والحديث والأدب والشعر فقد تألق نجم علوم الفلسفة والطب حيث لقى هذا العلم جانبا كبيرا من اهتمام السلاطين الذين أنشأوا له مدرسة عليا اسمها مدرسة الطب العليا فى سلا وقد زاد ذلك من اهتمام بنى مرين بصحة المواطنين وكثرة البمارستانات والمكتبات التى كانت تضم العديد من الكتب والمخطوطات .

وظهر علم المتصوفة والذين كان لهم دورهم فى الحركة الفكرية سيما أنهم لقوا تقدير سلاطين بنى مرين واحترامهم وقد تركت هذه الحياة العقلية والعامية والفكرية اثرها البعيد فى حياة شعب المغرب فى العصر المرينى اذا أقبلت طوائف الشعب على الثقافة الاسلامية بجوانبها المختلفة ينهلون منها ما طاب لهم وأصبحت عقول شبابها وطلابها أكثر استعداداً لحياة علمية رفيعة (المدارس العليا المتخصصة) وتفتحت عيونهم على آفاق جديدة فى ميدان العلم حتى شاع العلم بين أفراد الرعية لا سيما بعد انتشار العديد من المدارس واقبل الجميع على التعليم بعقول واعية حتى أنه لم تمض خمسون عاما (نصف قرن) على حكم بنى مرين حتى ظهر هناك جيل من العلماء برع فى العديد من المجالات واحتلوا مكان الشيوخ المعلمين الذين جلسوا فى المدارس بدلا من المساجد يخدمون الناس والتلاميذ وينفعونهم وأخذ الطلاب يختلفون الى مدارسهم ويروون عنهم ، وبذلك انتشرت الثقافة العربية الاسلامية وكثر الانتاج العلمى وشاعت المعرفة حيث نشأ العلم وانتشر وعم وتشهد على ذلك المؤلفات الكثيرة والمكتبات العامة والخاصة وازدهار صناعة الوراقة وكثرة الوراقين .

واهتم سلاطين بنى مرين بالنواحى الصحية حرصا على علاج أفراد الشعب ومن هنا اهتموا بانشاء البمارستانات لعلاج المرضى وكان السلطان أبو يوسف يعقوب بن

عبد الحق أول بنى مرين الذى قام ببناء مستشفى للمرضى والمجانين ورتب عليها الأطباء ليتفقدوا أحوال المرضى وتابع بنو مرين هذه السياسة فأنشأوا العديد من المستشفيات فى المدن الكبرى وليس فى العاصمة فاس واهتموا بالرعاية الاجتماعية وبنوا معهدا للفقراء والضعفاء واليتامى وأقاموا مدارس لتعليمهم واهتموا برعاية الشيوخ والفقهاء الذين لا يستطيعون النفقة على أنفسهم وكذلك اهتموا ببناء الفنادق لازدهار الحركة التجارية فى البلاد حيث لعبت الفنادق دورا كبيرا فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب وانتشرت على طول الطرق فى أنحاء الدولة المرينية ما يشبه الفنادق الصغيرة وهذه كانت تقوم بخدمة المسافرين والمحافظة على أمتعتهم وقد تواجدت هذه الفنادق الصغيرة على مسافات ثابتة يعلمها المسافرون وتقدر باثنى عشر ميلا .

كما اهتم بنو مرين ببناء القناطر وانشأوا القناطر وجددوها بين عدوتى الأندلس والقروين فى فاس القديمة وأصلح السلطان أبو سعيد عثمان المرينى العديد من القناطر واعتنى السلطان أبو الحسن المرينى ببناء المزيد من القناطر داخل فاس وغيرها من مدن المغرب ووصل المياه للعديد من المدن (مدينة تلمسان) وزاد اهتمامه بمشروعات المياه وقد انفق السلطان أبو الحسن أموالا طائلة لتوصيل المياه الى مدن سلا وتلمسان .

واهتم بنو مرين بانشاء الحصون والأسوار لا سيما المدن الساحلية حيث المدن التى هى مرفأ للأسطول الذى نما وزاد قوة وفنا فى عصر بنى مرين واكثروا من القلاع والحصون لان دولة بنى مرين تميزت بكثرة الحروب التى خاضتها وتركزت أهم هذه التحصينات الدفاعية على الحدود الشرقية للمغرب الأقصى لمراجهة خطر بنى زيان وفى بلاد الأندلس وعلى طول خط السواحل المطلة على البحر المتوسط لمواجهة خطر الأسطول الأسبانى المسيحى على ساحل البحر المتوسط والمحيط . وقد ذكر مارسى أن أثار هذه القلاع والحصون لا تزال باقية حتى اليوم ، وكانت المنشآت الصناعية

العسكرية مثل مدينة البنية التى كانت ميناء هاما للأسطول المرينى والتى بنيت ملاصقة للجزيرة الخضراء وأعيد بناء مدينة وجدة وحصنت أسوارها كما بنى السلطان يوسف بن أبى يعقوب حصن « تاوديت » على الحدود الشرقية فى مواجهة بنى زيان وقرر السلطان أبو الحسن المرينى بعد استيلائه على جبل الفتح ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م تحصين جبل الفتح لأهميته الاستراتيجية حتى أنه كان يشرف عليه بنفسه واستغرق بناؤه سبع سنوات ولم يكن اهتمام أبى الحسن بجبل الفتح فحسب وانما اهتم ايضا بجميع القلاع والحصون التى للمسلمين فى الأندلس فشحنها بالرجال والعتاد والذخيرة والزاد والأقوات وما تحتاجه الحصون من الآلات والعتاد وذلك توطئة للتوسع فى حركة الجهاد ويدل على ذلك ما رواه المؤرخون من أن أبا الحسن أقام الحصون فى بلاد الأندلس وشحنها بالأسلحة والأطعمة ورتب فيها عسكرا نقيا من نخبة رجاله وأسكنهم بها كما بنى قلعة حصينة قرب فاس ليحتمى بها الجند عند الخطر .

الحياة الاقتصادية :

تركت الحياة التى تمخضت عن قيام دولة بنى مرين أثر سقوط الموحدين اثارا بارزة فى الميدان الاقتصادى ، فان الأحوال الاقتصادية فى البلاد كانت أكثر تأثرا بالظروف التى أدت الى قيام الدولة من أى ناحية من نواحى الحياة فى المغرب فى القرن السادس الهجرى والسابع الهجرى .

وقد اعتمدت الدولة على عدة مصادر لتمويلها وهى الزكاة والخراج والجزية والضرائب والغنائم والصادرات وكانت هذه الموارد تصب فى خزينة الدولة ويضاف اليها المكوس وقد حرص سلاطين بنى مرين على استعمال ذوى العدل والسمعة الطيبة فى جميع هذه الجهات التى تقوم بجمع هذه المصادر لتمويل الدولة وكانوا يلتزمون جانب العدل فى تحصيل هذه الموارد وقد طبق سلاطين بنى مرين القواعد الشرعية لتوزيع هذه

الموارد وكانت الزراعة من المصادر الرئيسية التى تدر دخلا للدولة فقد كان المغرب الأقصى فى القرنين السابع والثامن الهجرى الثالث عشر والرابع عشر الميلادى مجتمعا زراعيا على الوجه الأغلب وكان سكانه يعتمدون اعتمادا كبيرا على الزراعة وتتفشى البداوة فى أرجائه وقد ازدهرت الزراعة فى العصر المرينى بفضل ما تمتع به المغرب الأقصى من دعائم ضرورية للزراعة وأهمها جودة التربة وتنوع المناخ ووفرة المياه والمغرب الأقصى به عدة أنهار تسهل عملية الزراعة منها ملوية ، نهر أم الربيع أو أبو الرقراق ، نهر السوس الأقصى ، نهر درعة ، نهر سيو ونهر بهتا ، نهر تسفيت ، ومن هنا ازدهرت الزراعة ومن هنا كثرت المحاصيل الزراعية وكذلك الخضر والفاكهة والى جانب ذلك كانت الغابات التى كانت مصدرا يمد أهالى المغرب الأقصى بالأخشاب المستخدمة فى صناعة السفن وساعدت الغابات على وفرة الثروة الحيوانية وكذلك الثروة الداجنة (الدواجن والأسماك) .

وكان بنو مرين لما بسطوا سلطانهم على المغرب الأقصى لما استقر مفهوم التوحيد واطمأن الناس على أموالهم فاقتنوا الدور والضياع والأراضى الزراعية وزاد زحف الأندلسيين نحو الأراضى المغربية مشترين للضياع بسبب الاستقرار الذى شهدته البلاد وقد ازداد ذلك من التقدم الزراعى واقبل الناس على شراء الأراضى الزراعية واستثمارها وقد أولى أهلها عناية خاصة بالزراعة وقد أمر سلاطين بنى مرين باشاعة الاستقرار دائما واتخاذ المحاريث والاتساع فى الزراعة وحرموا على الجند السير فى الأرض المزروعة وهكذا ظل الاعتماد على الزراعة فى بلاد المغرب الأقصى كمورد من موارد الدولة فى عهد بنى مرين كما كان الحال فى عهد الموحدين وقبلهم المرابطين وكانت الصناعة من الأنشطة الاقتصادية الهامة التى يعتمد عليها سكان الدولة اذ امدت الأهالى بكل ما يحتاجون اليه من صناعة وموارد . ويعنى بالصناعة تصنيع الانتاج الزراعى وما يتصل

به واستخراج المعادن وتصنيعها وقد ازدهوت الصناعة فى العصر المرينى عما كانت عليه فى عصر الموحدين بسبب اتساع العمران وتدمت الصناعة بسبب توافر المواد الخام اللازمة لصناعة . وكان الغالب على المغاربة طوال القرن التاسع وما بعده أنهم معجبون بالصناعة ويحبون تعلم حرفها الجديدة ولقد ساعدت النهضة الزراعية على قيام صناعات جديدة فى بلاد المغرب الأقصى حيث مركز السلطان السياسى ومكان الصناعات الجديدة ، وقد اهتم سلاطين بنى مرين بالصناعات الحربية لحاجة الجيوش المغربية لها والتى يدافعون بها عن البلاد وصد العدوان عن الاسلام فى الأندلس وقد استخدم المرينون السلاح النارى فى الدفاع عن الجزيرة الخضراء التى هاجمها القشتاليون فى عام ٧٤٣ هـ / ١٣٤٢ م . واستخدموا مدافع البارود ، وازدهرت صناعة الأزياء العسكرية وازدهرت الصناعات المساعدة التى يحتاج اليها الجيوش واهتم سلاطين بنى مرين بالصناعة اللازمة للاسطول المرينى وخاصة صناعة السفن لاهميتها فى الصناعات الحربية فى الميدان الأندلسى للدفاع عن سواحل دولتهم وازدهرت صناعة السفن وتعددت أنواعها وقد حرص سلاطين بنى مرين على حماية الصناع لأنهم الذين ينتفعون بهم وشجعوا الصناعات الحربية لحاجة الدولة لهذا النوع من الصناعات واتساع نطاق الموارد وزاد الطلب على أشياء الترف واستجلبوا الخبرات الصناعية الأندلسية فى مختلف الصناعات مثل الصناعات الطبية والصيدلية والكمياء . وقد برز من أهل المغرب العديد فى مختلف الصناعات فى البناء وهندسة الرى والمعمار والهندسة.

وتقدمت صناعة النسيج والصوف وكثرت الثياب المتخذة من الأصواف والبسط وصناعة الورق والوراقة وكان المغاربة يتخذون ثياب الصوف فى الشتاء وثياب القطن والكتان فى الصيف وازدهرت صناعة الكتان المغربى وادت العناية بالكتب التى تطور

صناعة التجليد وازدهرت الصناعات الجلدية والصباغة ، والصناعات الخشبية والنهضة المعمارية وصناعة الآلات الموسيقية ، وكثرت المطاحن وصناعة الزيوت والصابون ، وصناعة السكر ، والعقاقير الطبية والعطور وكثر استخراج المعادن ورادت معرفة أماكن التعدين وطرق البحث والتنقيب والصناعات الفخارية وصناعة الزجاج .

وانعكست حالة الأمن والاستقرار التى سادت الدولة على نشاطها التجارى ، وقد حرص سلاطين بنى مرين على توفر الأمن حماية للتجار فى المغرب كما شهد عصر بنى مرين تأمين المواصلات بين مدن الدولة وتنظيم فرق لحراسة الطرق بين المدن واداء الخدمة للقوافل وحمايتها من أى خطر يهددها وتوافرت الأسواق الداخلية وازداد النشاط التجارى الخارجى وكانت الأسواق تمد الأهالى بكل ما يحتاجون اليه .

ولقد كان من الطبيعى أن تتأثر التجارة فى عهد بنى مرين بما طرأ من متغيرات على الأنتاج الزراعى والصناعى لا سيما أن المغاربة قد شغفوا بالتجارة لا سيما أن التجارة كانت مصدرا أساسيا لدخل الدولة وقد ازدهرت التجارة الداخلية فى عهدهم .

وكانت تجارة المرور من أهم أنشطة التجارة الخارجية فى الدولة المرينية ولعبت الموانئ أهمية كبرى فى التجارة الخارجية وكان ميناء سبتة ترد اليه معظم التجارة الخارجية وكانت السفن تتردد بين موانئ المغرب الأقصى وكانت مدينة مرية الأندلسية قاعدة الاتصال الاقتصادى بين أوربا وبلاد المغرب الأقصى لذلك حرص سلاطين بنى مرين وسلاطين بنى الأحمر فى غرناطة على تأمين طرق التجارة البحرية بين البلدين واحترام تجار النصارى من أسبانيا ومن المدن الايطالية . وعدم الاعتداء عليهم أو على أموالهم وتجارتهم وانشاء الفنادق لسكناهم والعمل على توفير الأمن والراحة لهم وكانت قوافل الحج البحرية والبرية هى الوسيلة الرئيسية لربط المشرق العربى ومصر بالدولة المرينية فى مجال التجارة الخارجية وكان التجار ينظمون القوافل التى تحمل

التجارة المغربية والأوربية الى بلاد السودان الغربى والأوسط وجنوب الصحراء الكبرى ونشطت الحركة التجارية مع بلاد الأندلس ودول جنوب أوربا الا أن الحروب الطاحنة مع نصارى أسبانيا فى بعض الفترات جعلت التجارة معهم وغيرهم الى أوربا تزدهر الى فى سنوات الهدنة وهذه كانت كثيرا ما تخرق . وكانت علاقات بنى مرين ممتازة جدا ببلاد السودان الغربى والأوسط (انظر علاقات بنى مرين ببلاد السودان الغربى) وقد حرصوا على أن تكون الطرق الخارجية ببلاد السودان مفتوحة والحركة بها سهلة حسبما يذكره الادريسى وابن بطوطة ولم تكن علاقة بنى مرين بصقلية والمدن الايطالية بأحسن منها مع نصارى الأندلس .

وكان بنو مرين يبنون الأسواق فى المدن الجديدة أو عندما تتسع المدينة وكانت شديدة الحرص على تشييد الفنادق للتجار وتعبيد الطرق وتجهيزها بما تحتاج اليه . ويلاحظ الدارس للتجارة الخارجية المغربية على الرغم من توتر العلاقات مع الدول المعاصرة الهامة فى حوض البحر المتوسط خلال القرن السابع والثامن الهجريين ، ان التجار المغاربة كانوا يدخلون صقلية والمدن الايطالية وأسبانيا المسيحية كما كان تجار تلك الدول يدخلون الى المغرب فى أوقات الهدنة والصلح وكان التجار المغاربة يصلون الى ايطاليا وجنوب فرنسا ويدخلون الى بلاد المشرق ومصر كما كان التجار المشارقة يدخلون الى المغرب ، وعمل اليهود فى بلاد المغرب فى الصيرفة والتعامل بالدرهم والدينار وقد مهد انتشار اليهود فى أوربا وبلاد الشرق وعمل اليهود فى المغرب فى التجارة الخارجية ، الا أن دور المدن الايطالية كان أكثر من دور اليهود .

ولقد ترك تزايد أعداد الأجانب فى التجارة المغربية خاصة فى النصف الثانى من القرن السابع الهجرى تأثيرا كبيرا على أوضاع التجار المغاربة وبسبب نفوذ تجار المدن الايطالية فى تجارة البحر المتوسط والتجار السودانيين وأهل غانة فى تجارة السودان فقد

تأثر وضع أرباب الأموال الكبيرة من التجار المغاربة وواجه التجار المغاربة صعوبات كثيرة فى التجارة الخارجية وبصفةخاصة فى مراكز التجارة الساحلية الا أن دورهم فى العصر المرينى كان لا يزال له وضعه المؤثر فى الحركة التجارية الخارجية والداخلية بوجه خاص .

وتعتبر السكة الوجه الاقتصادى للدولة اذ يتوقف على قيمة السكة (العملة) القوة الشرائية والاستقرار الاقتصادى وكانت السكة المستعملة فى الدولة المرينية تصنع من الذهب والفضة وكان معظم الذهب يأتى من بلاد السودان والفضة من داخل البلاد حيث المناجم المحلية .

وكانت السلطنة المرينية تتخذ دور ضرب للعملة وقد تعددت دور الضرب فى المغرب وكانت توجد دور سكة للعملة فى عدوة القروين بفاس وأخرى فى عدوة الأندلسين وكانت هناك دار أخرى فى مراكش واغمات وتلمسان وفاس وسجلماسة وتول لمطة وسبتة وسلا . وجعل بنو مرين لكل دار سك نقود أمانة وكان السلطان أبو يوسف يعقوف بن عبد الحق أول من اهتم بإنشاء دارا لسلك العملة المرينية وغير شكل الدينار الموحدى واعادة الى شكله قبل الموحدين وقد ارتفعت القيمة الشرائية للدينار المرينى واستعمل الى جانبه الدرهم وكان دينار الذهب يساوى ستين درهما الى جانبها كانت توجد عملات أصفر تصنع من النحاس وقد تميز العصر المرينى بقوة نفوذه وكان للانتعاش الزراعى والصناعى والتجارى أثره الكبير فى تقدم الدولة .

وتلك هى صورة مبسطة وموجزة للأحوال العامة لعهد بنى مرين وانجازاته فى جميع الأصعدة التى عرضنا لها فى ذلك الفصل الذى أوجزناه بقدر المستطاع دون الدخول فى تفاصيل لأن كل مجال من هذه المجالات التى عرضنا لها تحتاج الى دراسة مستقلة وهذا ما نتركه للباحثين والدارسين الذين يسيرون على الدرب .

الفصل السادس

السياسة الخارجية لسلطنة بنى مرين

بعد أن أسقط بنو مرين خلافة الموحدين فى عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩ م وأصبحت لهم شخصيتهم الدولية المستقلة فقد ارتبطت دولتهم بعلاقات سياسية (دبلوماسية) وثقافية واقتصادية مع دول العالم المعاصر ولقد كان لهذه السياسة أثرها الكبير فى دعم الدولة المرينية سياسيا واقتصاديا وحضاريا وثقافيا ، بل أن علاقاتها شملت معظم العالم الاسلامى فقد كانت العلاقة مع بلاد المشرق وبالذات مصر علاقة ود ومحبة الناس فى المغرب على صلة بأخوانهم يرتادون بلدان كل منها للسفر والحج ولتلقى الدرس كما استقبل بالترحيب علماء المشرق ورجالهم فى بلاد المغرب ووجدوا فيها الأمل والتشجيع وكذلك استقبل ابناء المغرب (ابن خلدون) فى بلاد المشرق وتولوا المناصب العليا وبعض مشايخ الأزهر كانوا من أهل المغرب ، ولم يحدث مع بلاد المشرق على المستوى الرسمى صدام ، ومواجهة بينهما بل حدث تعاون يدل على حسن الصلة فالعقيدة تجمع بين هذه الأطراف وكان لذلك أثره فى ألا تتخذ العداوة شكلا عنيفا بين الجهات الرسمية .

وكانت علاقتهم وطيدة مع مصر والشام والعراق والجزيرة العربية ومع بلاد السودان الغربى جنوب الصحراء الكبرى وارتبطت بعلاقات مع الحفصين فى المغرب الأدنى وبنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى الأحمر فى غرناطة وكانت لهم علاقات مع القوى المعادية فى قشتالة وأرغون .

علاقات بنى مرين مع مصر :

تطلع سلاطين بنى مرين الى مصر باعتبارها قلب العالم العربى الاسلامى وكانت

مصر محط أنظار سلاطين بنى مرين لأنها الواجهة التى تطل منها بلاد المغرب على بلاد المشرق العربى ، من ذلك سعى سلاطين بنى مرين الى توطيد علاقاتهم بمصر والمشرق العربى وكانت مصر مرتبطة بقوافل الحج ولقد تنوعت العلاقات فى العصر المملوكى الذى ظهر على أشدة بعد انتصارات مصر على المغول والتتار والصليبيين ولقد كان لمصر دورها فى توجيه بعض الأمور الداخلية والمبادلات الرسمية فى الرسائل بين الاطراف السياسية فى كل من الحجاج المغاربة الى الأراضى المقدسة ، وفى ظل حكم المماليك الجراكسة والبرجية واتسمت العلاقات مع بنى مرين فى فاس بروح المودة والاخاء فقد قبل السلطان العباسى أحمد بن أبى سالم المرينى شفاعة السلطان برقوق فى الشيخ يوسف بن على بن غانم أحد شيوخ العرب بالمغرب وكان يوسف قد لجأ الى القاهرة عام ٧٥٣ هـ / ١٢٣٩ م تأجيا من سخط السلطان أحمد بن أبى سالم بعد قيامه بثورة عربية ضد نظام الحكم .

وفى عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م كان السلطان يوسف بن يعقوب بن عبد الحق قد استولى على المغرب الأوسط الذى كان يحكمه بنو زيان الذين كانوا يعوقون تقدم القوافل نحو مصر والمشرق العربى وقد خرجت أول قافلة تحمل حجاج بنى مرين الى الأراضى الحجازية عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣ م ، وأرسل هدية قيمة أكثرها من الخيول وحمل هذه الهدية أحد المماليك المصريين العاملين فى البلاط المرينى وهو (ايدغدى الشهير زورى) ووصلت الهدية عام ٧٠٤ هـ / ١٣٠٤ م . وتعتبر هذه الرسالة أول صفحة فى العلاقات المصرية المغربية فى العصر المرينى .

وقد رد السلطان الناصر محمد بن قلاوون على هدية السلطان يوسف بهدية عظيمة وقد وصلت هذه الهدية الى مدينة المنصورة بالمغرب الأوسط عام ٧٠٦ هـ / ١٣٠٦ م . وقد احتفل السلطان يوسف المرينى بالوفد احتفالا عظيما وأرسله الى بلاد

المغرب الأقصى لتفقد معالم هذه البلاد وآثارها ، وفى هذا الأثناء توفى السلطان يوسف فقام خلفه السلطان أبو ثابت عامر بن أبى عامر بمتابعة اكرام الوفد المصرى وقدم لهم عند عودتهم هدايا قيمة وعاد الوفد المصرى الى بلاده فى ذى الحجة ٧٠٧ هـ / ١٣٠٨ ، لكن اللصوص سطوا على القافلة المصرية ونهبوا ما معهم مما أدى الى تأثر العلاقات وفتورها بين البلدين ولم ترسل مصر أدنى وفد بعد ذلك رغم ارسال بنى مرين للعديد من الوفود وربما يكون بنو زيان فى المغرب الأوسط وراء هذه الحادثة ليتعكر جو العلاقات الودية بين مصر وبنى مرين (ابن خلدون) .

وقد أرسل السلطان المصرى الناصر محمد بن قلاوون هدية صغيرة مع رسالة عتاب لما أصاب القافلة المصرية فى بلاد المغرب وقد غضب السلطان أبو ثابت من ذلك وأرسل خطابا يلوم فيه سلطان مصر على ما جاء فى رسالته وهديته وأدت هذه الرسالة الى قطيعة استمرت حتى عهد السلطان أبى الحسن المرينى وكانت سياسته المعتدلة وقيمه الاسلامية قد أدت الى اعادة العلاقات مع مصر مرة ثانية بل وصلت الى عهدها الذهبى وكان انتصاره فى بلاد المغرب الأوسط قد أعاد مكانته والمغرب فى مصر وبلاد المشرق العربى والعالم الاسلامى ، وكان السلطان أبو الحسن هو الذى بدأ بأرسال سفارة الى مصر وسلطانها الناصر محمد بن قلاوون يخبره فيها بالفتح وكان حامل رسالة بنى مرين فارس بن ميمون بن وردار وأرسل سلطان مصر رسالة تعزية فى وفاة السلطان أبى الحسن .

وفى عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٧ م . خرجت قافلة من بنى مرين وبها والده السلطان وكان سفير البلاط المرينى الى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (عثمان بن جرار) وارسل معه السلطان أبو الحسن هدية ضخمة كانت حديث المجال فى المشرق والمغرب وكانت بها ٥٠٠ خمسمائة من عتاق الخيل بسروج من الفضة والذهب ووصل الركب الى مصر فى عام ٧٣٨ هـ / ١٣٣٨ م . وأمر الناصر محمد بن

قلاوون باستقبال الوفد أحسن استقبال وقدرت قيمة الهدية بما لا يزيد عن ألف دينار وقد أدى ذلك الى حسن العلاقة ، ولما عاد موكب الحجاج المرينى من الأراضى الحجازية الى مصر جهز لهم السلطان الناصر هدية تعادل فى قيمتها وفخامتها الهدايا التى أرسلت الى مصر .

وظلت العلاقات قائمة بين أبى الحسن والسلطان الناصر محمد بن قلاوون حتى توفى الأخير عام ٧٤١ هـ / ١٣٤٠ م وقد شهد الناصر ملكا طويلا عاصر فيه ستة من سلاطين بنى مرين ، ابتداء من أبى يعقوب يوسف الى أبى الحسن المرينى .

وقد شهدت العلاقات المصرية المرينية توتراً ملحوظاً أواخر عهد السلطان أبى الحسن حين فر الوزير الحفصى ابن تافراجين الذى كان يمثل المقاومة الحفصية ضد بنى مرين من أفريقية إلى مصر، أرسل السلطان أبو الحسن الميرينى إلى السلطان المملوكى حسن بن الناصر قلاوون للقبض على ابن تافراجين وارساله إلى المغرب؛ إلا أن السلطات المصرية رفضت ذلك باعتباره فى حماية مصر وأن ابن تافراجين فى حماية أحد المماليك الأقوياء.

ولم يقتصر دور قوافل الحج على دعم العلاقات الدينية السياسية بين مصر وبنى مرين لكن تدعمت خلال هذه الفترة العلاقات الاقتصادية فقد حملت قوافل الحج فى عودتها منتجات هذه البلاد إلى الديار المصرية؛ حيث كان الحج وسيلة لتصدير السلع المغربية إلى مصر وبلاد المشرق الإسلامى كما أنها أدت إلى انتعاش الصناعات المغربية التى كانت تحملها القوافل وكانت الخيول لها حظ كبير فى هذه التجارة لحاجة مصر الشديدة إليها حتى كان يدفعهم إلى إرسال الرسل لطلبها فقد بعث السلطان برقوق برسائله وهداياه إلى سلطان فاس أبى العباس بن أبى سالم لشراء أعداد من الخيول المغربية.

وعن العلاقات الثقافية فقد كان لها نفس الحظ من النشاط فقد رحل علماء بنى مرين إلى مصر وبلاد المشرق الإسلامى الذين كان منهم الكثيرون كما رحل إلى العاصمة المرينية فاس بعض علماء مصر والمشرق؛ حيث كان سلاطين بنى مرين يحرصون على استقبال هؤلاء العلماء وضمهم إلى مجالسهم العلمية؛ فقد وفد من مصر والعراق ومكة المكرمة والمدينة المنورة وفود كثيرة إلى أبى الحسن الميرينى.

وقد حفظ ديوان الإنشاء المصرى (القلقشندى) : صبح الأعشى فى صناعة الانشا (ج٨، ص١٠٣، ص١٠٦) نص رسالة متبادلة بين السلطان المصرى المملوكى فرج بن أبى سعيد برقوق فى شعبان (٨٠٤هـ/١٤٠١م) إلى السلطان عثمان بن أبى عباس المرينى، وكانت الرسالة تعرض رغبة السلطان المرينى لتقديم المساعدات العسكرية لصد أعدائها من الصليبيين وبقايا التتار وتعنى هذه الرسالة أن بنى مرين وقفوا من السلطات المصرية موقف المترقب للتعاون ضد خطر التتار والمغول أيام تيمور لنك ٨٠٣هـ/١٤٠١م، ويبدو أن السلطان المرينى كان يتابع موقف الجبهة المصرية أمام التتار ويدل على ذلك الرسالة التى أرسلها السلطان فرج للانسحاب من دمشق والعودة إلى مصر بعد أن علم بوجود مؤامرة للاستيلاء على الحكم فى مصر أثناء غيابه فى دمشق لإقامة سلطان جديد. وهذه بعض من أوجه العلاقات بين مصر المملوكية وبنى مرين فى فاس للاستزادة حول هذا الموضوع. راجع كتابنا دور مصر الحضارى فى القارة الأفريقية، فضل دور مصر السياسى فى بلاد المغرب.

علاقات بنى مرين مع حلفاء بنى الأحمر فى غرناطة :

إن نظرة عامة على سير العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر فى غرناطة بعد أن تدخل السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق فى الصراع الدائر بين غرناطة والممالك النصرانية فى الأندلس ودور بنى مرين فى حركة الجهاد الإسلامى يدرك منها

أن تلك العلاقة لم تكن تسير على وتيرة واحدة؛ بل كانت تخضع للمتغيرات فهى علاقات يشوبها الحذر والترقب ومرجع ذلك إلى تشكك سلاطين بنى الأحمر كثيراً فى نوايا بنى مرين وتطلعهم إلى حكم بلاد الأندلس، ولهذا كان يغلب على هذه العلاقات التذبذب بين الود المتبادل أو العداء والتنافر فى بعض الأحيان ولذا .. فإننا نجد أنه ما أن استتب الوضع السياسى لبنى مرين باستيلائهم على آخر المعاقل فى المغرب سجلماسة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م. حتى استجابوا للنداء ولحضور رسول سلطان غرناطة محمد الثانى الفقيه طالباً معاونته ضد زحف نصارى الأندلس للاستيلاء على ممتلكات المسلمين، ونظر بنو الأحمر للعالم الإسلامى فلم يجدوا أمامهم سوى بنى مرين، وذلك لقرب دولتهم منهم ولشعورهم بمكانة بنى مرين العسكرية بين سائر القوى فى المغرب (بنى زيان، بنى حفص)، وقد استجاب يعقوب بن عبد الحق للجهاد فى الأندلس معتمداً على قواته وعلى بنى اشقيلولة الذين نظراً لحرصهم على الإسلام أكثر من حرصهم على مصالحهم الذاتية وضعوا أنفسهم تحت تصرف بنى مرين؛ بل من أجل الإسلام والمسلمين تركوا الأندلس نهائياً وقبلوا العيش فى المغرب (روح إسلامية خالصة للدين عكس بنى الأحمر)، وأدى خلاف بنى الأحمر مع بنى اشقيلولة إلى حدوث نوع من الجمود فى العلاقات خلال العبور الأول للسلطان المرينى إذ ترك محمد الثانى الفقيه السلطان يقاتل منفرداً فى العبور الثانى ٦٧٦هـ/١٢٧٥م اعادة الجسور مع بنى الأحمر لمهاجمة قرطبة، وتم التفاهم وأسفر التقارب عن هزيمة الجيوش المسيحية وتحصنها بمدينة قرطبة وطلب الصلح مع المسلمين وترك سلطان المغرب الأمر لبنى الأحمر وتنازل لهم عن الغنائم، لكن شكوك حكام غرناطة ودرس يوسف بن تاشفين والموحدين ماثل أمامهم فى تعاملهم مع بنى مرين، لكن تنازل بنى اشقيولة عن مالقة والغربية فجر الموقف ووصل العداء بينهم إلى درجة أن بنى الأحمر

سعوا للتحالف مع أعداء الإسلام وطاردى المسلمين من ديارهم فى الأندلس، تحالفوا مع النصارى فى قشتالة وتحالفوا مع بنى زيان أعداء بنى مرين وجعل عامل مالقة من قبل بنى مرين يعلن الخروج عن غرناطة بنى مرين، لكن أبا يوسف أفشل هذا المخطط، وقام بنو الأحمر بمعاونة أسطول بنى مرين القوى بتحطيم الأسطول القشتالى ودخل بنو مرين الجزيرة الخضراء بالقوة وأسفر التقارب الذى حدث بينهما خلال العبور الثالث إلى تلاحم القوتين وخلال العبور الرابع نجح بنو مرين وبنو الأحمر فى إبعاد النصارى خلف نهر الوادى الكبير وراء الخط الذى يمتد من قرطبة إلى أشبليه وشرش كما أسفرت معارك العبور الرابع عن صلح بين المسلمين ونصارى الأندلس أقره كل من سلطان الأندلس (غرناطة) والمغرب وملك قشتالة.

وقد لعب شيوخ الغزاة من بنى مرين دوراً هاماً فى تاريخ العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر، وكانت العاصمة غرناطة هى مقر القيادة العامة لهذه القوة المغربية.

وبعد وفاة يعقوب بن عبد الحق حاول ابنه يوسف تلاحم القوتين فتنازل لبنى الأحمر عن كثير من الأراضى والقلاع والحصون، ولم يحتفظ إلا بالقواعد اللازمة للعبور، وهى طريف ورندة والجزيرة الخضراء عملاً للقضاء على المشكلة التى تشغل بال بنى الأحمر، وهى الخوف على ممتلكاتهم، لكنه رغم هذه التنازلات فقد تحالف بنو الأحمر مع ملك قشتالة ضد بنى مرين، وكان ذلك سبباً فى ضياع مدينة طريف وعدد من الحصون التى كان يملكها بنو الزحمر ورفض ملك قشتالة تسليم ذلك فيما بعد.

وقد أدرك محمد الفقيه الثانى سلطان غرناطة خطأ هذه السياسية فعاد يطلب ود بنى مرين فلم يتردد المرينيون وعادت العلاقات معهم ودية حتى وفاة السلطان محمد الفقيه (٧٠١هـ/١٣٠١م)، ورغم أن العلاقات سارت سيراً حسناً فى بداية عهد خليفته أبى عبد الله المخلوع إلا أنه تحالف مع ملوك قشتالة؛ بل أنه اعتدى على مدينة

سبتة الخاضعة لحكم بنى مرين وقد أحدث ذلك شرخاً فى العلاقات، ومات أبو يوسف فجأة (٧٦١هـ/١٣٠٦م)، وجاء بعده أبو ثابت الذى مات هو فجأة عام (٧٠٨هـ/١٣٠٨م)، ولكن أخوه السلطان أبو الربيع سلمان المرينى قد تمكن من إلحاق الهزيمة بعثمان بن أبى العلاء الذى ساعده بنو الأحمر، وتمت السيطرة على سبتة وضمها نهائياً للدولة المرينية وظلت العلاقات غير ودية حتى اعتلاء السلطان أبى الحسن العرش عام (٧٣١هـ/١٣٣٣م).

وكانت فى الفترات السابقة على تولية أبى الحسن قد اقتصرت العلاقات على العون المادى وبعض المساعدات بل القوات والخيول فى عهد السلطان أبى الربيع، لكنها تجمدت نهائياً فى عهد السلطان أبى سعيد عثمان المرينى الذى أصر على ضرورة تسليم قائد شيخ الغزاة الذى سبب كثيراً من المشاكل للأسرة الحاكمة، وقد رفض بنو الأحمر تسليمه.

لكن الأحوال تبدلت فى عهد السلطان أبى الحسن إذ صادفت دعوة بنى الأحمر لبنى مرين لمعاونتهم فى وقف زحف النصارى عليهم؛ فقام المسلمون بالاستيلاء على جبل الفتح فى ذى الحجة عام (٧٣٢هـ/١٣٣٣م). لكن أبا الحسن منى بهزيمة فادحة عند طريف عام ٧٤١هـ/١٣٤٠م، وقد صرفت نتائج هذه المعركة القاسية أنظار المرينين عن القيام بأى جهد عسكرى بعد ذلك. وفى ربيع عام ٧٤٤هـ/١٣٤٤م تم عقد معاهدة سليمة بين قشتالةوغرناطة والمغرب مدتها عشر سنوات، وما كادت حركة الجهاد ضد المسيحيين فى أسبانيا تهدأ حتى دب نزاع جديد بين سلطان المغرب أبى عنان فارس المرينى ٧٤٩هـ/١٣٤٨م. وبنى الأحمر فى غرناطة والسبب فى هذا النزاع يرجع إلى أن اثنين من أخوة أبى عنان وهما الأمير أبى الفضل وأبى سالم خرجا عن طاعة أخيهما السلطان وهربا إلى سلطان غرناطة ملتمسين

حمايته وقبل الحجاج أبو يوسف طلبها وأواهما فى بلاطه وقد أثار هذا العمل غضب السلطان المرينى فأرسل إلى سلطان غرناطة خطاباً شديد اللهجة مليئاً بعبارات الاحتجاج والتهديد، وكان رد حاكم غرناطة واضحاً إذ أوعز إلى الأمير أبى الفضل بالسفر إلى قشتالة وطلب معونة من ملكها. بدور الأول لمحاربة أخيه وانتزاع الملك منه ووافق ملك قشتالة على طلب الأمير المغربى أبى الفضل لأنه كان متخوفاً من أطماع أبى عنان فأمده بالأموال والأساطيل والجنود وأنزله بنواحى السوس فى جنوب المغرب كى يشعل حرباً أهلية ضد أخيه وثارت ثائرة السلطان أبى عنان لهذا العمل العدائى، غير أن الظروف سرعان ما هدأت من روعه عندما قام واليه على درعه بمقاومة حملة أبى الفضل بمساعدة حلفائه وأعوانه من عرب المعقل وتمكن من القبض على أبى الفضل وإرساله لأخيه ليقتله عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م.

ونظراً لهذا الموقف .. فقد اقتصرت العلاقات فى عهد أبى عنان على العلاقات الدبلوماسية، والتى انحصرت فى تبادل الرسائل والسفارات، أو رسائل ترافقها الهدايا من بنى الزحمر لأبى عنان، بعض هذه الرسائل كان للتهنئة بفتح تلمسان وبجاية أو الانتصار على الثورات الداخلية، ورغم هذه الرسائل إلا أن بنى الأحمر طلبوا من أبى عنان مساعدة بحرية لحماية السواحل الأندلسية، وقد استجاب أبو عنان لطلبات سفير بنى الأحمر عام ٧٥٥هـ/١٣٥٤م، وكان فى مقدمة هذه المطالب العون الحربى لمقاومة أطماع القشتاليين.

بعد وفاة السلطان أبى عنان قويت العلاقات بين الطرفين وخاصة فى عهد أبى سالم المرينى الذى أعطى السلطان الغرناطى محمد الغنى بالله الأحمر ووزيره حق اللجوء السياسى للمغرب بعد الانقلاب الذى أطاح به، وقد وصل إلى فاس عام ٧٦١هـ/١٣٥٩م، وفى عهد السلطان أبى زيان محمد بن يعقوب الذى تولى أمر بنى

مرين عام ٦٧٣هـ/١٣٦١م أصدر مرسوماً يعنى بالاهتمام بوزير السلطان محمد الغنى بالله وهو ابن الخطيب الذى عمل على ربط علاقة فاس، وبنى الأحمر بنوع من المودة والإخاء، وارضاء سلاطين بنى مرين فى كل ما يطلبونه من ساسة غرناطة.

وقد استقل الغنى بالله محمد بنى الأحمر بعد استرجاعه للعرش فى غرناطة مرة ثانية ضعف سلاطين بنى مرين بعد أن أقام بينهم فترة طويلة عرف خبايا الدولة، وذلك أثناء نفوذ الوزراء للتدخل فى الشئون الداخلية لهم، وكان ذلك عن طريق استغلال الأبناء المرشحين لتولى حكم بنى مرين والموجودين تحت اشرافه ورعايته فى بلاط بنى الأحمر فى الأندلس، وكان سلطان بنى الأحمر فى غرناطة يمارس هذه السياسة مع بنى مرين لإجبار سلاطينهم على السير فى تلك السياسة، وفى حالة عدم طاعة أوامره كان الغنى بالله يدفع إلى المغرب بشخصية أخرى من بنى مرين ويساعده بالمال والسلاح والرجال حتى تنجح هذه الشخصية فى الاستيلاء على زمام الأمور فى الدولة، وكانت تعقد معهم معاهدات تتضمن نصوص هذه المعاهدات تصرف بنى الأحمر فى الأراضى المغربية، وقد كان هؤلاء السلاطين يقومون بعقد اتفاقيات مع ملك قشتالة، وأرغون بناء على طلب سلطان غرناطة، وأصبح بنو مرين مطية لغرناطة وحكام النصارى فى الأندلس. ولقد بدأت هذه السياسة بعد وفاة السلطان عبد العزيز المرينى عام ٧٧٤هـ/١٣٧٢م، وانتهت بوفاة السلطان محمد الغنى بالله بن الأحمر ٧٩٣هـ/١٣٩٠م، واستمرت تسعة عشر عاماً. وبعد انقضاء هذه المرحلة لم تشر المصادر إلا إلى حادثتين فقط، وهى تدخل بنى مرين فى شئون بنى الأحمر بمؤامرة دبرها أبو العباس أحمد المرينى لاغتيال أبى الحجاج يوسف الثانى سلطان غرناطة والثانية مساعدة السلطان المرينى أبى سعيد عثمان بنى أبى العباس أحد ثوار جبل الفتح ضد بنى الأحمر وأرسل لهم قوات مغربية بقيادة أخيه عبد الله بن أبى العباس أحمد،

ولكن تم أسره ثم أطلق سراحه واغتيل أخوه أبو سعيد، وتولى عرش بنى مرين، والذى يلقى نظرة فاحصة على العلاقات بين بنى مرين وبنى الأحمر فى غرناطة يدرك تمام الإدراك أن المصلحة الشخصية ربما لدى الطرفين كانت هى الغالبة عليها دون النظر لصالح المسلمين والإسلام؛ فلقد كان على بنى مرين ألا يحتفظوا بقواعد لهم، وأن تكون قواتهم تحت سيطرة بنى الأحمر، وأن بنى الأحمر لم يعنهم فى المقام الأول إلا المحافظة على عرشهم فالأرض إسلامية سواء للمغرب أم للأندلس والقوات الإسلامية، سواء كانت أندلسية أو مغربية لكن حب السيطرة والتملك دون النظرة البعيدة بالأخطار المحدقة وسياسة النفس الطويلة التى اتبعها الأسبان فى حركة الاسترداد لم تكن تخطر على بال مخططى السياسة الإسلامية فلو أنهم أدركوا بثاقب نظر بعيد خطر المخطط لما تم عقد مصالحات، ولا اتفاقيات، ولا تعاون بنى الأحمر مع قشتالة وأرغون ضد بنى مرين ولا تحالف بنى زيان وقشتالة على حساب بنى مرين. أنها أمور تدعو للأسف؛ فقد كانت الضحية دائماً هى الشعوب والأرض والديار، وفقد الإسلام أرضاً عمرها أكثر من ثمانية قرون.

ولقد ازدهرت العلاقات الثقافية بين الطرفين ذلك لأن حركة الانتقال بين البلدين كانت ميسورة للعلماء والأديان والفقهاء، ولم تكن الخلافات السياسية تحول دون تدفق الأندلسيين إلى المغرب أو انتقال علماء المغرب إلى غرناطة؛ فقد رحل الكثير من العلماء والفقهاء والسفراء والشعراء والصالحين والمتصوفة والذين كان لهم دور ثقافى وتأثير حضارى فى بلاد المغرب واستعان بهم السلاطين وكانت عدوة الأندلسيين بفاس خير شاهد على ذلك، وقد شجع حق اللجوء السياسى الذى سار عليه بنو مرين وبنو الأحمر الكثير من علماء الدولتين على الرحيل من بلد إلى آخر وساعد ذلك على ازدهار حركة الفكر والثقافة والحضارة وتقدم العلوم والكيمياء والطب والصيدلة، وظهور

الاختراعات، وقد كانت فاس وغيرها من المدن الكبرى فى المغرب الأقصى ملاذاً خصباً لطلبة العلم الأندلسيين الذين حولوا بها، والذين كانوا يرحلون بدورهم إلى تلمسان؛ حيث تقدمت دراسة الطب فى مدرسة تلمسان.

ولقد أسهم بنو مرين فى حركة التجارة الخارجية بينهم وبين من بقى من المسلمين فى الأندلس خاصة وأن هناك أجزاء من مدن جنوب الأندلس كانت تخضع لهم مما سهل حركة النقل مثل رندة، وطريف، والجزيرة الخضراء، ومن ثم .. كانت سبتة ميناءاً هاماً وحلقة الاتصال الرئيسية مع أسواق الأندلس لتنقل منها البضائع المغربية والسودانية وبلاد الشرق الإسلامى إلى دول أوربا ودول حوض البحر المتوسط، لكن هذا النشاط التجارى قد قل عن مثله أيام المرابطين والموحدين نظراً لضيق الرقعة التى كان يسيطر عليها المسلمون فى بلاد الأندلس ولخطر الأسطول القشتالى والأرغونى لكن فترة المعاهدات والصلح كانت تدعم حركة التبادل التجارى مع مسلمى الأندلس لكنه فى نهاية العلاقات بين الطرفين نلاحظ أن بنى مرين لم يحرزوا انتصارات مدوية فى الأندلس كتلك التى أحرزها المرابطون فى معركة الزلاقة والموحدون فى معركة الأراك، وذلك لضعف امكانيات المرينيين وتوحد صفوف نصارى الأندلس، ولقد كان الفكر المرينى يرى فى التوسع فى تحقيق الوحدة المغربية بضم بنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى حفص فى المغرب الأدنى، قد يدفع نشاطهم ويزيد من قوتهم وقدرتهم على الوقوف أمام الخطر الصليبى فى الأندلس إلا أن ذلك كان على العكس؛ فقد استنفذ طاقاتهم وقدراتهم القتالية، ولم تدم انتصاراتهم فى الميدان الأندلس، بل إن وحدة المغرب لم تدم إلا لفترات قصيرة جداً نظراً لوجود بنى زيان وبنى حفص، إلا أنه يمكن القول إنصافاً للحق أن دور بنى مرين فى الأندلس كان دوراً مشهوداً له على مر التاريخ؛ فقد دخلوا ميدان الجهاد دون سائر القوى الإسلامية الأخرى وحافظوا بقدر إمكانياتهم على بقاء الإسلام لأطول فترة ممكنة؛ بل إن مجرد وجودهم فى عدوه المغرب فى عصر

نفوذ الوزراء قد جعل نصارى الأندلس يفكرون كثيراً قبل القيام بأى عمل من الأعمال العسكرية ضد بقايا المسلمين فى غرناطة التى كانت مساحتها تقل يوماً بعد يوم.

علاقات بنى مرين مع قشتالة وأرغون فى الأندلس :

اتسمت علاقة بنى مرين مع هاتين الدولتين بسمة عدم التوافق والتنافر وليس بسمة العداوة لأن الإسلام لا يعادى أحدا ولا يحارب إلا من اعتدى عليه، ومن هنا كان موقف بنى مرين مع ملوك قشتالة وأرغون الذين هددوا الوجود الإسلامى بالأندلس وحاصروا أهله وعملوا على طردهم من ديارهم التى أقاموا بها أكثر من ثمانية قرون هو موقف دفاع ولقد عمل بنو مرين على خوض المعارك والاشتراك مع حكام غرناطة ضد القوتين اللتين كانتا تتمسكان فى مصير الأندلس وهما قشتالة التى توحدت عام ٦١٤هـ/١٢١٧م ودولة أرغون التى ظهرت كقوة فى أسبانيا عام ٧٣٢هـ/١١٣٧م ، ورغم العداوة التى كان يكنها حكام المملكتين للإسلام والمسلمين إلا أن قشتالة كانت أكثر إيجابية فى عداوتها من أرغون، ولقد علا نجم الدولة الميرينة فصار قوة عالمية نظراً لاشتراكهم فى حركة المقاومة، لكن حالة الحرب والعداوة لم تكن لتدوم، إذ كانت تتبعها أحياناً فترات من السلم والصلح عن طريق المعاهدات التى كانت تتم بين الطرفين؛ حيث كانت حركة التجارة والتنقل تتم بينها وبين ما يسمى مسيحيى أسبانيا وتجارة صقلية وجنوب إيطاليا وكان التجار المسلمون يقومون بعبور أراضى هذه الدول بتجارتهم أو الوصول إلى موانيهم للتجارة دون أدنى اعتراض؛ حيث واجهت التجارة المغربية مع بلاد البحر المتوسط صعاباً كثيرة لأن علاقة بنى مرين ببلاد البحر المتوسط الأوربية كانت متوترة؛ فالحروب الدائرة رحاها على أرض الأندلس جعلت التجارة لا تزدهر إلا فى حالة الهدنة، وهذه كانت كثيراً ما تخرق.

كذلك .. فإن الصراع المسلح والحرب العسكرية كانت لا تؤثر على التبادل

الثقافى بين أصحاب الإسلام والمسيحية من رجال الدين وصلة الحضارة حيث سماحة الإسلام وعمق حضارته ورغبة رجال العلم فى أسبانيا المسيحية فى الاستزادة من العلوم الإسلامية، وقد تدعمت العلاقات الثقافية والحضارية خلال فترة السلم وازدهرت الثقافة الإسلامية فى الجانب المسيحى، ووفد طلاب أسبانيا المسيحية وجنوب أوربا إلى جامعة فاس للدرس والتحصيل وتلقى علوم المسلمين على أكبر علماء العصر فى ذلك الوقت واستخدم حكام بنى مرين أسلوب المهادنة والاحتواء والمصالحة لكسب ود طرف على حساب الطرف الآخر من ذلك نجد أن السلطان أبا يوسف يعقوب استغل الخلاف بين قشتالة وبين أرغون لتكوين محور يضم بنى مرين وحكام غرناطة وأرغون ضد قشتالة لكن هذه المحاولات باءت بالفشل لرفض حكام أرجون الدخول فى معاهدة مع المسلمين ضد اخوانهم المسيحيين فى قشتالة لاحظ موقف بنى الأحمر فى غرناطة من بنى مرين.

وقد كان خوف حكام غرناطة من تزايد النفوذ المرينى مدعاة لتحالفهم مع نصارى الأندلس مما أضعف موقف بنى مرين، محمد الثانى الفقيه سلطان غرناطة تحالف مع سانشو ملك قشتالة ويدور الثانى ملك أرغون مع بنى مرين فى عام ٦٩١هـ/١٢٩١م، وكذلك تحالف نفس السلطان مع سانشو الرابع ملك قشتالة وخايمى الثانى ملك أرغون ضد يعقوب بن عبد الحق وأسفر ذلك عن ضياع مدينة طريف وسبتة وعدة حصون من أملاك بنى الأحمر.

وفى نفس الوقت دفع موقف بنى الأحمر العدائى لبنى مرين إلى التقارب بين المرينيين والأرغونيين فقد ثارت سبتة على أبى يعقوب المرينى بتحريض من بنى الأحمر ووجه أبو يعقوب طلباً إلى خايمى الثانى ملك أرغون لتقديم بعض المساعدات البحرية لمعاونة القوات المرينية فى سبتة من البحر لكنه لم يستجب لطلبه لأن يعقوب عقد صلحاً مع فرناندو الرابع ملك قشتالة وكان ٧٣٤هـ/١٣٣٤م قد شهد توقيع معاهدة

بين فاس وقشتالة المرينى بتقديم عون بحرى له مكن بنى مرين من الاستيلاء على سبتة عام ٧٠٩هـ/١٣٠٩م، وقد عقدت معاهدة أبرمها أبو الحسن سلطان المغرب وغرناطة مع ملك قشتالة بعد معركة طريف بثلاث سنوات وكان عام الثانى ملك أرغون بعد ذلك من مساعدة السلطان أبو الربيع سليمان هذا الصلح شاملاً لمحمد الثالث سلطان غرناطة. وقد تمكن خايمى وغرناطة مدتها أربع سنوات وقد انضمت أرغون إلى هذه المعاهدة، وبعد معركة طريفة أصبح بنو مرين وبنو الأحمر فى موقف صعب بعد هزيمتهم، وقد رفضت مقترحات المسلمين لدى النصارى، ولم يعقد الصلح إلا بعد استيلاء قشتالة على الجزيرة الخضراء، وفى عهد أبى عنان المرينى أكد التزامه ببنود المعاهدة، وفى عام ٧٥٩هـ/١٣٤٧م جددت المعاهدة بين بنى مرين وملك قشتالة لمدة خمس سنوات أخرى وفى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م احتج يبدور الرابع ملك قشتالة لدى أبى عنان المرينى لعدم وفاء محمد الخامس سلطان غرناطة بنصوص الاتفاقية المبرمة بينهم.

وكانت آخر المعاهدات التى أبرمت بين بنى مرين وبنى الأحمر وأرغون وقشتالة هى معاهدة عام ٨١٦هـ/١٤١٥م. وقد جرى تجديدها والعمل بها عام ٨١٧هـ/١٤١٤م، وعام ٨١٨هـ/١٤١٥م. كما أنه بالنسبة لباب العلاقات بين البلدين تجدر الإشارة إلى أن بعض أبناء البيت المرينى قد لجأ إلى ملوك قشتالة مثل أبى الفضل شقيق السلطان أبى الحسن والذى أمده ملك قشتالة بالمال والسلاح والأسطول لكن تم القضاء على محاولته، وكذلك من الشخصيات الأخرى الأمير أبو سالم أحمد المرينى الذى تولى عرش بنى مرين لجأ إلى بلاط قشتالة، وقد عاونه ملك قشتالة؛ حيث حملته احدى القطع البحرية القشتالية مثلما فعلت سابقاً مع الأمير أبى الفضل وأنزلته ساحل المغرب ليطالب بعرش بنى مرين، ومن هذه الشخصيات أيضاً الأمير أبو زيان محمد بن عبد الرحمن بن أبى الحسن المرينى، وقد استدعاه الوزير محمد بن عبد الله

من بلاط قشتالة وأقامه على العرش المرينى عام ٧٦٣هـ/١٣٦١م.

من هذا ندرك مدى الضعف الذى أصاب البيت المرينى فى عصر تحكم الوزراء، وكيف أصبح لقشتالة كما كان لغرناطة نفوذ قوى على سلاطين بنى مرين، وهكذا وصل الهون والضعف بحكام المسلمين فى تلك الحقبة حتى كان تسلطهم يتم عن طريق قوى خارجية تعمل لغير صالح الإسلام، ومن هنا .. بات الوجود الإسلامى فى خطر حتى تم القضاء على غرناطة نهائياً عام ٨٩٧هـ/١٤٩٢م. ومن ثم تداعت أحوال المسلمين، وذلك نتيجة لجهل الحكام وتحكمهم فى الرعية، وقيام الخلافات والابتسامات بين حكام المغرب الأدنى والأوسط والأقصى، وما أصاب المسلمين من بلاء فى الأندلس إنما يعود إلى تلك الانقسامات والأهواء الشخصية ودائماً الشعوب هى الضحية والحكام يعيشون حياتهم كما يتراءى لهم ووفق المزاج الشخصى اللهم الا ما ندر من حكام المسلمين العقلاء النبهاء العارفين بكتاب الله وسنة رسوله والذين ساروا على نهجه ومن هنا كان لهم مقام مرفوع فى مسيرة التاريخ على مر الأزمان والأجيال .

علاقات بنى مرين مع بلاد السودان الغربى
جنوب الصحراء الكبرى

حرص سلاطين بنى مرين كما حرص أسلافهم من المرابطين والموحدين على أن تكون علاقاتهم ببلاد السودان الغربى طيبة وممتازة كما حرصوا على أن تظل الطرق الصحراوية مفتوحة لحركة التنقل والانتقال وأن تظل هذه الطرق دائمة ومتصلة . وكانت دولة مالى الكبرى تعاصر قيام دولة بنى مرين (انظر إبراهيم طرخان ، دولة مالى الإسلامية.

القاهرة، ١٩٧٣)، وقد ارتبطت معها بأوثق الروابط وأهمها وكانت مالى تمثل أكبر الوحدات السياسية جنوب الصحراء الكبرى وكانت المسالك الصحراوية (انظر رسالة المؤلف الدكتوراه سياسة سنغاى الاسلامية الخارجية ١٩٨٣) التى تربط المغرب بهذه البلاد وكانت هذه الطرق تخرج من بلاد المغرب الأقصى الى مصب نهر السنغال أو من جنوب مراكش الى مصب نهر السنغال (منحنى)نهر النيجر وحتى المناطق الجنوبية وجاءت أول اشارة العلاقات السياسية بين مالى وبنى مرين خلال عهد السلطان أبى الحسن المرينى حيث أرسل السلطان منساموسى سفارة ترأس أحد رجال البلاد المالى ومعه أحد المترجمين من صنهاجة .

وفى زمن مسنامفا (١٣٧٧ – ١٣٤١) كانت فى تمبكنو عاصمة مالى سفارة من قبل السلطان أبى الحسن المرينى أعظم سلاطين بنى مرين فى فاس وتضم السفارة عددا من كبار البلاط المرينى برياسة الزعيم الشهير ابن غانية وجاءت هذه السفارة ردا على بعثة التهنئة التى كان السلطان موسى قد بعث بها من قبل لتهنئة السلطان أبى الحسن أثر انتصاره ومنح تلمسان ، وكانت السفارة المغربية تحمل معها هدية فاخرة الى مساموسى ولكنها وصلت بعد وفاته فاستقبلها ابنه مغان وتسلم الهدية وقد أحسن السلطان مغان اكرام الوفد المرينى وعند العودة ارسل وفدا من كبار بلاط الدولة المالية . وقد احدثت وفاة السلطان أبى الحسن المرينى دويا فى بلاد مالى وشعبه حيث جلس السلطان لتقبل العزاء .

وفى عهد السلطان منسا سليمان شقيق منسا موسى وليس ابنه كما تذكر المصادر والمراجع التى تقع فى أخطاء قاتله رحل الى بلاط تمبكتو عاصمة مالى الرحالة المعروف ابن بطوطة مرسلا من قبل سلطان بنى مرين فى فاس وهو السلطان أبو عنان فارس المتوكل على الله (٧٤٩ – ٧٥٩ هـ / ١٣٤٨ – ١٣٥٨ م) وكان

سلطان فاس قد اغتصب العرش من ابنه أبى الحسن على بن عثمان صاحب السفارة السابقة وكان هدف أبى عنان من سفارة ابن بطوطة فى بلاد مالى دراسة الطرق التجارية والوقوف على حجم تجارة الذهب المتبادلة بين هذه الأقطار وبين مصر وذلك للعمل على تحويل ما يستطاع تحويله بها الى بلاده نظرا لأهمية الذهب وتجارته فى ذلك القطر واستمرت العلاقات الودية بين مالى وبين بنى مرين حتى سقوط دولتهم وكان تبادل الهدايا بين البلاطين يحظى باهتمام سلاطين الدولتين وأرسل مسنا سليمان هدية الى أبى الحسن ، كذلك أرسل مسنا سليمان مستشاره « زاطة » بالهدايا الى السلطان أبى سالم المرينى .

ولقد صاحب هذه العلاقات السياسية الودية علاقات ثقافية واقتصادية وحضارية تتمثل فى انتقال العلماء والطلاب وازدياد الحركة التجارية ونمو الاقتصاد وازدهاره فى كلا الجانبين وانتقال المؤشرات المغربية من اللغة العربية والكتابة والخط المغربى والمذهب المالكى والتنظيمات الادارية والمعمارية والمالية وظهور أحياء التجار العرب والمغاربة فى العاصمة تمكيتو لاتخاذ السلاطين الماليين للمستشارين المغاربة ، وكان مسنا موسى وأخوه مسنا سليمان قد جعلا من مالى مركزا حضاريا جنوب الصحراء الكبرى بالاضافة الى أنها مركز تجارى (علاقات المغرب السياسية الثقافية والاقتصادية مع هذه البلاد فصل فى رسالة الدكتوراه (١٤٠ - ١٨٦ ، للمؤلف ٢٦١ - ٢٨٧ - ٣٤٨ - ٣٧٥) ، رسالة الماجستير للمؤلف سلطة البرنو الاسلامية بها فصول عن العلاقات) .

وكانت رحلة الحج التى قام بها مسنا موسى للأراضى المقدسة فى الحجاز ومروره بالقاهرة أثرها فى انخفاض سعر الذهب وزادت سمعة مالى لدى أوربا ورسمت خريطة للعالم الاسلامى ظهرت مالى بها ومن ثم صارت جزءاً من العالم الاسلامى ترتبط مع

أقطاره بشتى الروابط وبجاحه مع بلاد المغرب حيث كانت القوافل التجارية القادمة من المغرب تزود مالى بكل ما تحتاج اليه من منتجات أوربا وبلاد المغرب وخاصة الكتب والمخطوطات والمؤلفات العلمية وظهر فن البناء المغربى فى بلاد مالى ومارس التجار المغاربة كثيرا من الصفقات التجارية .

وربط الاسلام وعمق الصلات الحضارية والثقافية والدينية والعلمية فقد حمل التجار العرب ولا سيما المغاربة رسالة الاسلام الى تلك الديار ووقع عليهم العبء الأكبر فى ايصال المؤثرات الحضارية والثقافية الاسلامية الى مالى ولقد كان التجار هم أنفسهم علماء وسرعان ما كانت القوافل التجارية يلحق بها العلماء كرحيل الشيخ جلال الدين السيوطى الى بلاد غرب افريقيا ، الشيخ محمد عبد الكريم المغيلى وغيرهم من علماء المغرب ومصر الى مالى وسنغاى فيما بعد . .

واشتهرت اللغة العربية على نطاق واسع وكتب مؤرخو بلاد مالى باللغة العربية (عبد الرحمن السعدى ، تاريخ السودان) ، أحد باب التمبكتى : قبل الابتهاج بتطريز الديباج ، محمود كعت : تاريخ الغتاشى) .

لقد صار كل شئ اسلاميا عربيا فى بلاد مالى وتأثرت بالتجارة والثقافة والحضارة الاسلامية ولا سيما المغربية كما أن بلاد مالى وسنغاى جنوب الصحراء الكبرى قد رحل اليها كثير من علماء الأندلس (الساحلى) الذى قام ببناء المساجد فى مالى السلطان مسنا موسى ومسنا سليمان) وغيره من السلاطين .

أن الصلات الدبلوماسية (السياسية) والثقافية والاقتصادية مع بلاد السودان فى عصر بنى مرين قد شهدت ارتباطا وثيقا ونموا وازدهارا فى مختلف المجالات والأصعدة حتى أن هذه الروابط والصلات كانت مقدمة لقيام السلطان المنصورى السعدى عام

٩٩٩هـ/ ١٥٩١م بإرسال حملة عسكرية بسطت نفوذ المغرب على بلاد السودان الغربى.

هكذا نرى أن الروابط الأخوية الاسلامية كانت تسود فى جو من التكافل الاقتصادى والتعاون الاسلامى فى شتى المجالات ولم تكن العلاقات الدبلوماسية وتبادل السفارات والوفود والهدايا الاجزءا بسيطا فى هذه الصلات التى كانت تدعمها حركة الشعوب لاداء فريضة الحج وطلاب العلم والمعرفة والتجار الذين ساعدوا على خلق الجو الاسلامى الذى عاشته مالى وأن حسن الجوار والعلاقة كنت دائما هى الطريق للروابط الأخوية الاسلامية التى تميزت بها الدولة المرينية طوال حكمها الذى زاد عن قرنين ونصف من الزمان .

* * * *

الفصل السابع

العلاقات السياسية والثقافية والاقتصادية بين بنى مرين وبنى زيان وبنى حفص (الدويلات الثلاث)

كان انفصال أبى زكريا الحفصى عن الدولة الموحدية عام ٦٢٦هـ / ١٢٢٩م واعلانه الاستقلال التام بالمغرب الأدنى عن الدولة الأم فى مراكش وكذلك استيلاء يغمراسن بن زيان على تلمسان وإعلانه عام ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م قيام دولة بنى زيان فى المغرب الأوسط وكذلك أستيلاء يعقوب بن عبد الحق على مراكش عاصمة الموحدين وقتله الخليفة أبى دبوس ودخوله عاصمة الموحدين عام ٦٦٨ هـ / ١٢٦٩م نهاية للدولة الموحدية كانت تحكم المغرب الكبير من حدود برقة (بنى غازى) شرقا حتى المحيط الأطلسى غربا وبالأعلى هذه الدويلات الثلاث بمقدار ما كان نكسة ونكبة للمسلمين فى بلاد الأندلس.

ذلك لأن التشرذم الذى شهدته هذه الدويلات والدخول فى صراعات داخلية وحروب كثيرة فيما بينها وتحالفات مع أعداء الديار والدين كل هذا قوض من دعائم الدولة الاسلامية بالأندلس كما زاد من مطامع الأوروبين فى تلك البلاد فكانت الحملات على أفريقية والمغرب الأوسط والمغرب الأقصى والاخلال بالتوازن العالمى وتعرض سواحل هذه الدول لعدوان دول أوربا واحتلالها للعديد من المدن ودفعها للجزية وهى صاغرة للقوى الخارجية واستعانة بحكام بعض من هذه الدويلات بالمسيحين بعضهم على بعض والدخول فى تحالف ضد أخوانهم فى العقيدة والوطن والمصير.

العلاقات المرينية الحفصية

لم تكن العلاقة بين بنى حفص فى تونس (المغرب الأدنى) وبنى مرين فى المغرب الأقصى تسير على وتيرة ثابتة بل كانت تتحكم فيها الظروف والمواقف ومن ثم مرت هذه العلاقة بعدة مراحل كانت كل منها تعنى نهاية فترة معينة من العلاقات بحيث اذا أنتهت حلقة حققت فيها بنو مرين أهدافها غايرتها مرحلة أخرى تختلف كل الاختلاف عما سبقها من مراحل وفى النهاية يسعى بنو مرين إلى تحقيق ذاتهم والاعتراف بكيانهم ثم سيادتهم فى المغرب كله ففى حالة اعلان الدولة واسقاط دولة الموحدين أى قبل عام ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م كانت بنو مرين تتبع اسميا الخلافة الحفصية وتدعو لها. وفى هذه المرحلة أعلن بنو مرين تبعيتهم لبنى حفص وكان الهدف اضفاء لون من ألوان الشرعية على حركتهم ضد الموحدين وكان بنو مرين يبعثون ببيعة البلاد التى يتم فتحها إلى الأمير أبى زكريا الحفصى وكان بنو مرين يرسلون الهدايا والأموال لبنى حفص فى سبيل مساندتهم على صاحب مراكش وكذلك كسب التأيد الشعبى فى بلاد المغرب الأقصى وتمت فى ذلك سفارات متبادلة بينهما كان لها أثرها المباشر فى تقريب وجهات النظر وتوحيد الأهداف، ومن تلك السفارات السفارة التى أرسلها الأمير يعقوب بن عبد الحق عام ٦٦٥هـ / ١٢٦٦م إلى البلاط الحفصى وقد رد عليه المستنصر الحفصى بأرسال سفارة مماثلة عام ٦٦٧هـ / ١٢٦٨م فأرسل هدية عظيمة للأمير المرينى يعقوب بن عبد الحق.

وقد ظل المرينيون خاضعين لهذه التبعية حتى بعد فتحهم لمراكش لكنها كانت تبعية اسمية وقد بدأ ذلك منذ عهد السلطان أبى يعقوب ويوسف بن يعقوب فعندما حاصر تلمسان خرج عليه راشد بن محمد فأتبعه جنود بنى مرين حتى دخل الأراضى الحفصية فى أفريقيا وهنا وقف الحفصيون فى وجه القوة المرينية وقامت الدولة الحفصية

بحمايته كذلك لجأ الثوار الحفصيون إلى بلاط بنى مرين عام ٧٠١هـ / ١٣٠١م. ومن ثم ساءت العلاقات بين الطرفين واتخذ بنو مرين ذلك ذريعة لاحتلالهم بجاية ومن ذلك نجد أنه منذ أن قوى أمراء بنى مرين وهم يتطلعون إلى المغربين الأوسط والأدنى فلما تمكنوا من السيطرة على المغرب الأوسط نظروا إلى أفريقية طامعين فى بناء دولة المغرب الكبير.

وأصدر السلطان يوسف أوامره لأخيه أبى يحى بن عبد الحق بالاستيلاء على بجاية ونجح الأمير فى مهمته ودخل المدينة وكان ذلك بمثابة أعلان حرب على بنى حفص ونهاية تبعية بنى مرين الاسمية. لكن ذلك لم يؤثر فى العلاقات ففى عام ٧٠٣ هـ / ١٣٠٣م أوفد سلطان تونس الحفصى الملقب بأبى عصيدة بن يحيى الواق وفدا للزيارة وزيادة الصلة مع السلطان يوسف بن يعقوب وتعددت السفارات وتحسنت العلاقات وأدى ذلك إلى توطيد دعائم الصداقة مما دعا السلطان يوسف بن يعقوب إلى الاستعانة بالأسطول الحفصى لاحكام الحصار حول تلمسان وتعاون الطرفان ضد بنى زيان وقد لقى أفراد الأسطول الحفصى حفاوة كبيرة من حكام وهران المرينى وبذلك تنوعت العلاقة وأختلفت بين الطاعة والاستقلال حتى وصل الأمر إلى استعانة الدولة الحفصية بالدولة المرينية وتطلب عونا منها للقضاء على اطماع بنى زيان فى أفريقية. وكان السلطان أبو يحى بن زكريا الحفصى قد طلب معاونة السلطان أبى سعيد عثمان المرينى لدفع خطر بنى زيان الذين اقتحموا تونس ونصبوا على ملك الحفصين محمد بن عمران، أحد عملائهم ولكن الحفصيين نجحوا فى استعادة العاصمة تونس قبل وصول المدد المرينى وقد وجد السلطان أبو سعيد عثمان المرينى فى ذلك فرصة لتقوية العلاقات فأرسل فى خطبة أبنة السلطان الحفصى أبى يحيى لولده الأمير أبى الحسن ولقد شعر أبو الحسن بأهمية أرتباطه بعلاقة المصاهرة مع الحفصين فى تونس، لذلك كان أصراره على مصاهرتهم مرة ثانية ولقد ربطت علاقة المصاهرة بين الدولتين المرينية

والحفصية برباط قوى متين ومن ذلك ان السلطان أبا يحيى الحفصى جعل الأمير أبا الحسن أحد شهود عقد ولاية العهد فقد شهد هو العقد عندما أرسل أبو بكر الحفصى حاجبه أبا القاسم بن عيو » فى سفارة إلى بنى مرين. وبذلك جعل السلطان الحفصى السلطان أبا الحسن فى منزله الوصى على العرش عند وفاته عندما كتب وصيته لابنه أبى العباس أحمد وكان اختلاف بنى حفص بعد مقتل أبى العباس أحمد (٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م) سببا فى تدخل أبى الحسن فى أفريقية ومبرراً لتنفيذ التوسع المرينى وكان حجة بنى مرين أن الأمير أبى الحسن كان أحد شهود عقد الولاية.

وهكذا .. طمع أبو الحسن المرينى فى ملك أفريقية بعدما أحس بضعفها وبعدما لجأت إليه الدولة الحفصية وإلى أبيه طالبة العون لحمايتها من بنى زيان وبعد ما استطاع أبو الحسن أن يفرض سلطانه على المغرب الأوسط ومحاولة أبى الحسن أن يكون الوارث للدولة الموحدية وكان أبو الحسن يحدث نفسه بحكم تلمسان وأفريقية.

وكان التوسع المرينى سببا فى قيام علاقات من العداء بدلاً من الود والاخاء وقد رحب بعض الأمراء الحفصيين بسيطرة أبى الحسن على أفريقية وكانت الفترة الأولى، الاحتلال الأول (٧٤٨ – ٧٥٠ هـ / ١٣٤٧ – ١٣٤٩ م) وكان أبو الحسن قد أعد قواته واستعان بقوات من بعض ولاة بنى حفص وبعض القبائل العربية وقدمت له العون العديد من الولايات والتى منها قابس ونوزر، قفصة والزاب، طرابلس وقسنطينة، وتمكن جيش أبى الحسن من القبض على الخليفة أبى حفص عمر وعلى قائده، وتم قتلهما ودخل أبو الحسن المرينى تونس فى ٨ جمادى الآخرة عام ٧٤٨هـ ليكون قد أعلن توحيد المغرب الكبير تحت سيادته.

لكن القبائل العربية استطاعت هزميته فى عام ٢ محرم ٧٤٩هـ قرب القيروان؛ حيث قاد حركة المقاومة أحد الأمراء الحفصيين الذى تعاون مع العرب وانقضت

أفريقية على السلطان أبى الحسن المرينى فى أوائل ٧٥٠هـ مما اضطره إلى ترك أفريقية. وانتهت فترة الاحتلال المرينى التى استمرت عامين وخمسة عشر يوما.

وتحسنت العلاقات لفترة قصيرة بين الدولة الحفصية ودولة بنى مرين عقب انتهاء فترة الاحتلال السابقة فتبودلت الهدايا بين الخليفة الحفصى والأمير المرينى ولكن أطماع أبى عنان فى ملك أفريقية أفسدت هذه العلاقات لأنه يفكر فى أن تظل تحت سيطرته فيما لم يستطيع أن يطيقه أبوه فبدأ عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م فى إفساد العلاقة بالخليفة الحفصى وتوطيد علاقته بوالى بجاية الأمير الحفصى أبى عبد الله بن محمد وبجاحه بعد أن تمكن من إعادة سيطرته على المغرب الأوسط، وقد استغل أبو العنان فرصة وجود والى بجاية الحفصى فى بلاطة فجعله يتنازل عن ولاية بجاية دون اراقة دماء، وبعد أن تمكن أبو عنان من بجاية، وبعد أن فرض أبو عنان سيطرته على بجاية استولى على قابس وطرابلس .. فإنه نظر إلى أفريقية والى قسنطينة لأنها قاعدة قوية ومن يستولى عليها يمكنه الاستيلاء على تونس وحتى عام ٧٥٣هـ زحفت جيوشهم على قستنطينة إلا أنها اضطرت للانسحاب لكن عام ٧٥٥هـ شهد المحاولة الثانية لأخذ قستنطينة لكنه فشل، وفى عام ٧٥٨هـ استولى على قسنطينة بعد حصار دام أربعين يوما.

وحشد أبو عنان قوات برية وبحرية للاستيلاء على تونس واستطاع فى رمضان ٧٥٨هـ أن يدخل عاصمة بنى حفص وتمت البيعة له حتى أغلب أجزاء أفريقية فيما عدا المهدية وسوسة وتوزرز، وبدأ العرب المقاومة الثانية للاحتلال المرينى وحدث انشقاق فى الجيش المرينى وانصرف كثير من قواته إلى المغرب حتى كان ابن أبى عنان إلا أنه تراجع –هو نفسه– إلى المغرب وأسرع أهل تونس بالثورة على من بقى من بنى مرين ودخلوا المدينة وعادت إلى ملك الحفصين (٧٥٣هـ–٧٦١هـ) وبعد وفاة السلطان أبى

عنان عام ٧٥٩هـ/١٣٥٧م أخذت العلاقات بين الطرفين تسير فى اتجاه جديد يقوم على الود المتبادل لاسيما أن العلاقات بين أفراد البيت المرينى كانت علاقة صراع للوصول إلى العرش ففى عام ٧٦٠هـ/١٣٥٨م أطلق منصور بن سليمان بن عبد الحق المرينى سراح أبى العباس الحفصى صاحب قسنطينة. وكانت هذه المدينة آخر ما تبقى للمرنيين فى أفريقية وقدم أبو العباس أحمد الحفصى مساعده الأمير أبو سالم بن أبى الحسن المرينى فى تولية عرش البلاد، وفى مقابل ما قدم أبو العباس الحفصى حفظ أبو سالم المرينى الجميل للأمير الحفصى أبى العباس فتنازل له عن قسنطينة وأمر واليها المرينى بالانصراف عنها وتسليمها لأبى العباس الحفصى وبعودة قسنطينة إلى الدولة الحفصية انتهى الاحتلال المرينى الثانى، والذى لم يتمكن من فرض نفوذه على البلاد الحفصية واستمرت العلاقات ودية طيلة عهد أبى العباس أحمد الحفصى حتى وفاته عام ٧٩٦هـ/١٣٩٤م، واستمر ذلك الود حتى كان عام ٧٩٧هـ/١٣٩٤م عندما وصل إلى البلاط المرينى ثائر حفصى هو أبو عبد الله محمد بطلب معاونة السلطان المرينى أبى فارس عبد العزيز ضد السلطان الحفصى وقد أرسل معه السلطان المرينى حملة عسكرية سرعان ما عادت ادراجها إلى المغرب الأقصى دون أن تحقق أهدافها، وقد أدت هذه الحملة إلى جو من سوء العلاقة إذ أنه بعد نجاح السلطان الحفصى فى قتل الأمير أبى عبد الله محمد أرسل رأسه سراً وعلقت على أحد أبواب العاصمة فاس إلا أن العلاقات قد تحسنت؛ ففى عام ٨٠٤هـ/١٤٠١م أرسل السلطان المرينى أبو سعيد عثمان بعض الرسل والهدايا إلى البلاد الحفصى ورغم ذلك فإن السلطان الحفصى أبا فارس عبد العزيز عندما قام بحركته التى استولى فيها على تلمسان بالمغرب الأوسط عام ٨٢٧هـ/١٤٢٣م حرص على التوجه بقوات بنى حفص نحو فاس لإخضاعها لنفوذ بنى حفص واعتبارها مناطق نفوذ لكن الأمير المرينى أبا سعيد عثمان

صاحب فاس أحق البيعة والتبعية له ووصلت البيعة إلى تونس، وكان السبب فى بيعة بنى مرين يعود إلى ما كان يعانيه بنو مرين من ضعف وظلت علاقات التبعية حتى أرسل عام ٨٦٤هـ/١٤٥٩م. السلطان عبد الحق المرينى آخر سلاطين بنى مرين هدية عظيمة إلى السلطان الحفصى، وقد استقبل الحفصيون رسول بنى مرين أحسن استقبال.

كذلك .. فإن العلاقات الثقافية لم تتأثر كثيراً بالأوضاع السياسية التى كانت قائمة بين بنى حفص وبنى مرين لقد كان جو للعلم والعلاقة الثقافية والتعاون بين تلمسان وفاس والمدارس التى أنشأها سلاطين بنى مرين فى المغرب الأوسط ومدنه المختلفة وحركة التنقلة فى المخطوطات بين البلدين ومدارس الزيتونة والقروين وتعاون تونس وفاس واستقبال الطلاب للدراسة والعلماء للتدريس كل هذا كان يجرى على قدم وساق فى أقصى الظروف فنجد أن أبا الحسن المرينى عندما أبحر من تونس عائداً إلى بلاده أثر فشله فى البقاء فى أفريقية اصطحب معه نحو أربعمائة عالم منهم ابن الصباغ والظمى، وكان يتنقل العلماء من أفريقية إلى المغرب الأقصى فى يسر وسهولة دون أدنى اعتراض ووصل بعض طلاب بنى مرين الدراسة فى تونس وفى مدرسة الشماعين، وكذلك وصل بعض من علماء بنى مرين للتدريس فى هذه المدرسة إلا أن العلاقات الاقتصادية كانت تتأثر بجو العلاقات السياسية، بين بنى حفص وحكام بنى مرين وبنى زيان؛ فكانت العلاقات الاقتصادية تنشط عندما كان جو العلاقات يسوده الود والسلم بين بنى زيان وبنى حفص ففى تلك الحالة يصبح الطريق آمناً أمام حركة القوافل التجارية، وكانت قوافل الحج المتجهة إلى مصر والمشرق العربى تقوم بدور رئيسى فى هذا النشاط الاقتصادى بين أفريقية الحفصية والمغرب الأقصى. لذلك .. حرص المرينيون على تثبيت أقدامهم فى المغرب الأوسط تسهيلاً للحركة التجارية

وتأميناً لطريق الحج، ومهما يكن من أمر هذه العلاقة فإن صلة الدم والعرق والدين والجوار والعقيدة الإسلامية جعلت هذه العلاقات تتسم بروح التسامح والتوافق أحياناً كثيرة، وأن سحابة الصيف التى كانت تسود العلاقات سرعان ما كانت تتقشع ويتم الصفاء وتاريخ البلدين الطويل به سمات ولمحات من التعاون والتضافر من أجل الصالح العام؛ فقد اشتركت قوات بحرية وبرية من بنى حفص فى مساعدة بنى مرين فى حركة الحياد الإسلامى فى الأندلس هذا دليل على قوة العقيدة وتلك لمحة بسيطة عن العلاقات.

العلاقات المرينية الزيانية

طبعت العلاقات بين بنى مرين وبنى زيان بطابع العداء المتواصل والمتوارث، والذى ظل تتوارثه الأجيال حتى أنه لم يهدأ عبر تاريخ الدولتين إلا لفترات قليلة لا تحسب فى عمر الدولتين والتى كانت تسود فيها المودة والسلم، والذى كان يفرض على بنى زيان من مركز قوة بنى مرين وانهزام بنى زيان، لكن بنى زيان سرعان ما كانوا يسارعون إلى نقض الصلح وعودة العلاقة إلى حالتها الطبيعية، وتاريخ العداوة بين الطرفين رغم رابطة العقيدة والجوار والانتماء لقبيلة واحدة عداء قديم؛ فقد كان بنو زيان الذين هم بطن من بطون بنى زيادين فى صراع دائم مع بنى مرين، وكانت الغلبة دائماً لأجداد بنى زيان نظراً لكثرة عددهم مما اضطر بنى مرين للإقامة الدائمة فى الفيافى والقفار والصحراء فى المغرب الأوسط وبعد زوال المرابطين أصبح بنو زيان من أصدقاء الموحدين فى المغرب الأوسط وقاتل بنو زيان المرينين عام ٥٤٠هـ/١٢٤٥م، وألحقو بهم هزيمة فادحة وقتلوا زعيم بنى مرين، وكان بنو مرين يشعرون بالمرارة لما يلاقونه من أبناء بنى عمومتهم بنى زيان حتى اضطر بنو مرين للرحيل من المغرب

الأوسط عام ٦٠١هـ/١٢٠٤م فى أعقاب حرب دارت بينهما واستقر بنو مرين عند مدخل المغرب الأقصى عند وادى ملوية ودخلوا بلاد المغرب الأقصى عام ٦١٠هـ/١٢١٣م، وكانت هذه الأحداث من أسباب العداوة.

واستغل الموحدون هذا العداء منذ عام ٦١٠-٦٦٨هـ/١٢١٣-١٢٦٩م طوال هذه الفترة التى تزيد عن خمسين عاما تحالف الموحدون مع بنى زيان عندما تحالف يغمراسن بن زيان مع السعيد الموحدى وبنى عسكر لكن أبا يحيى المرينى قضى على هذا التحالف عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. وعاد بنو زيان، وقام يغمراسن بمحاصرة رباط تازى، ولكن الأمير يحيى لاحق يغمراسن حتى ألحق به هزيمة قاسية عند أيبسلى وتحالف يغمراسن بن زيان مع أبى دبوس آخر سلاطين الموحدين وشن غارات كثيفة على أطراف المغرب الأقصى وخاصة أقليم ملوية للتخفيف من حصار أبى يعقوب بن عبد الحق حول مراكش مما دفع يعقوب بن عبد الحق إلى توجيه ضربة انتقامية إلى يغمراسن فهزمة وقتل ابنه عند وادى تلاغ وعلا نجم بنى مرين بانتصارهم على أعدائهم من بنى زيان واسقاط خصومهم الموحدين.

ولقد حاول بنى مرين بكل الطرق ضرب القوة الزيانية، وكانت الوسيلة العسكرية أهم وسائلهم ثم بذر بذور الشقاق بين أفراد البيت الزيانى الحاكم واستخدام الإغراء بالمال، وكانت خطة بنو مرين العسكرية هو حصار تلمسان عاصمة الدولة ثم تخريبها وتدميرها وكانت خطة بنى زيان الانسحاب من العاصمة تلمسان والتوغل داخل حدود بنى مرين بالمغرب الأقصى وتدمير ممتلكات بنى مرين ولاسيما فى الحدود مما كان يضطر بنى مرين للإقلاع عن تلمسان لكنهم كانوا يعيدون الكرة أكثر من مرة وبهزيمة بنى زيان زادت الثقة لدى بنى مرين فأصبحوا بعد إقامة دولتهم يطمعون فى إسقاط دولة بنى زيان كما اسقطوا دولة الموحدين والسيطرة على المغرب كله والقضاء على

أعدائهم التقليديين بنى زيان، وفى الوقت نفسه يلاحظ أن بنى زيان كانوا لا يتركون فرصة إلا واغتنموها فى سبيل ضرب قوة بنى مرين.

ونهض بنو مرين قاصدين تلمسان (٦٣٠هـ/١٢٧١م) لتحقيق غرضهم ولجأ بنو مرين إلى القوة العسكرية فزحفوا صوب بنى زيان والتقى الجمعان وانتهت المعركة بهزيمة بنى مرين وفرار يغمر اسن إلى تلمسان فحصارها المرينيون ثم عادوا إلى بلادهم واستخدم بنو مرين وسيلة أخرى فى ضرب بنى زيان وفى تأليب قبائل المغرب الأوسط عليهم فأكثروا فى اكرام قبيلة بنى يوجين البربرية وبالفعل وقف بنو يوجين معهم فى حربهم ضد بنى زيان.

وفى عام ٦٦٩هـ/١٢٧٠م مد بنو مرين أيديهم إلى بنى زيان يطلبون الصلح معهم ليتفرغوا للعمل ضد نصارى الأندلسيين ولكن يغمر اسن رفض الصلح وأصر على موقفه المعادى لهم وقام أبو يوسف يعقوب بحملة ضد يغمر اسن بن زيان هزمته وحاصرت العاصمة تلمسان ورغم هذا أصر السلطان أبو يوسف على التصالح مع بنى زيان فى المغرب الأوسط قبل عبوره الأول إلى الأندلس وأرسل حفيدة أبا يوسف بن تاشفين فى وفد من بنى مرين لعقد الصلح مع يغمر اسن والرجوع للمودة ووضع أوزار الحرب تفرغا الجهاد فى الأندلس فأكرم يغمراسن الوفد وأرسل مشايخ بنى زيان إلى فاس ومعهم الهدايا وتم عقد الصلح بين الطرفين عام ٦٧٣ هـ / ١٢٧٤ م وأضطر بنو زيان لقبول الصلح لكن بنى زيان نقضوا الصلح واتفقوا مع بنى الأحمر فى غرناطة الأندلس لمهاجمة أملاك بنى مرين الشرقية لصرف أبى يوسف عن العبور للأندلس للمرة الثالثة وكان هذا الموقف سببا فى قيام أبى يوسف بحملة تأديبية وهزم فيها يغمر اسن عند موقع يقال له الملعب بالقرب من تلمسان عام ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م وقضوا على هذا التحالف بحربهم الحاسمة ضد بنى زيان هذه وحاصروا تلمسان وعادوا إلى بلادهم.

ووقف بنو زيان موقف المدافع عن أنفسهم عام ٦٩٥ هـ/ ١٢٩٥ م حتى عام ٦٩٨هـ / ١٢٩٨م وبلغ الوضع مداه بين الطرفين عندما قدم بنو مرين أمير مفراوة بالمغرب الأوسط مستصرخا من اعتداء بنى زيان ومستنجدا ببنى مرين ووصلت الحملات التأديبية ضد بنى ز يان زروتها عام ٦٩٨ هـ / ١٢٩٨ م عندما حاصر السلطان أبو يعقوب يوسف تلمسان طيلة ثمانية أعوام وحاصروا تلمسان حصارا شديدا حتى آستولوا فى أثنائه على غالبية المغرب الأوسط واستخدم بنو مرين كل الطرق لاحكام الحصاو فقاموا ببناء سور حول تلمسان كما قاموا ببناء مدينة أطلقوا عليها المنصورة على أحسن طراز وأستمر الحصار ثمانية أعوام وأنقذ المدينة مقتل السلطان أبى يعقوب يوسف و انسحب المرينيون من المغرب الأوسط. واختلف بنو مرين بين تأيد أبى ثابت بن أبى عامر وبين أبى سالم بن يعقوب وفى هذا الأثناء راسل أبو ثابت بنى زيان فى تأييدهم له ووعدهم بالافراج عن تلمسان فى حالة أنتصاره وبعد توليه العرش وفى بنى زيان بما وعد به وتنازل عن البلاد التى أخضعها بنى مرين لسلطانهم داخل حدود المغرب الأوسط وارتحل بنو مرين واشترطوا على بنو زيان عدم دخول تلمسان الجديدة ومن ذلك فان بنى مرين أصبح لهم موطن قدم فى المغرب الأوسط للاطلاع على أخبار بنى زيان، ولكن بنى زيان هدموا المدينة ووقفوا بالمرصاد لبنى مرين فأووا اليهم الخارجين على سلطة فاس. ووقفوا بجانب آخرين فى حروبهم ضد بعضهم البعض ورفض بنو زيان تسليم الخارجين على دولة بنى مرين، وكانت آخر الحملات التأديبية التى قام بها أبو سعيد عثمان المرينى عام ٧١٤ هـ / ١٣١٤م. وكان سببها أن السلطان الزيانى أبا حمو سهل فرار الثأئر عبد الحق بن عثمان إلى الأندلس فغزا تلمسان أيام أبى حمو وكذلك ساعد بنى زيان فى عهد أبا تاشفين، الأمير أبا على بن السلطان أبى سعيد عثمان المرينى عندما خرج على أبيه وبعثوا إليه بقوات إلى نواحى تازى ليشغل أبا سعيد عن حرب أبنه.

وعلى هذا .. فإن بنى مرين لم يلجأوا للصلح مع بنى زيان الا لتأمين جبهتهم الشرقية لبعض الوقت وكان صلحا مؤقتا ثم يعودون للهجوم على بنو زيان ولذا لم يرضخ بنى زيان للصلح.

ولذا .. فإن بنى مرين فى المراحل الأولى لم يستطيعوا ضرب بنى زيان وساروا على المنهج الذى رسمه لهم مؤسس دولتهم يغمرا سن بن زيان بمنع بنى مرين من التوسع شرقا وجعل كل المغرب الأوسط أرضا لبنى زيان فاستولى بنو زيان عام ٧٢٩هـ/ ١٣٢٨م على تونس فلم يجد بنو حفص بدا من الاستعانة ببنى مرين أعداء بنى زيان التقليدين فكانت فرصة لسلطان بنى مرين للقضاء على دولة بنى زيان والاستيلاء على المغرب الأوسط لكى تكون خطوة تقربهم إلى أفريقية فرفضوا طلبهم ومن ذلك أتخذ بنو مرين هذا الرفض ذريعة للزحف نحو تلمسان وكان السلطان أبو الحسن الموينى الذى خلف أباه أبى سعيد عثمان قد فشل فى أقامة علاقات من الود والتفاهم مع بنى زيان وحسن الجوار بين القوى الثلاث فى المغرب بنى حفص وبنى زيان وبنى مرين وجاءت هذه الجهود بعد قيام أبى الحسن بدور بارز بجانب اصهاره بنى حفص حيث قام أبو زيان بن تاشفين باحتلال أجزاء من ممتلكات الحفصين الذين كانت تربطهم بهم علاقات مودة وعاد بنو زيان لأسلوبهم القديم فى التعامل فأساء أبو تاشفين سلطان بنى زيان معاملة رسول أبى الحسن المرينى وقد فجرت هذه الأحداث تطلعات أبى الحسن فى التوسع فى المغرب الأوسط فرآى القضاء نهائيا على بنى زيان ففى عام ٧٣٧ هـ / ١٣٢٦م قام أبو الحسن بغزو شامل للمغرب الأوسط وافتتح تلمسان وقتل أبا تاشفين وبذلك سيطر على المغربين الأوسط والأقصى وتلاشت دولتهم وأصبح المغرب الأوسط أقليما من أقالم الدولة المرينية، لكن بنى زيان لم يستسلموا للضرب فانتهزوا الفرصة لضرب القوة المرينية وانسحبوا من أرض المعركة التى

دارت بين بنى مرين وبين القبائل العربية أثناء قتاله القبائل العربية بالقرب من القيروان (٧٤٩ هـ / ١٣٤٨م) فانهزم بنو مرين شر هزيمة وتمكنوا فى نفس العام من أحياء دولة بنى زيان وبايعوا أميرهم عثمان بن عبد الرحمن بن يحى بن يغمر اسن سلطانا على تلمسان وأقاموا دولتهم من جديد وانتقلوا من الخضوع إلى الاستقلال واستفاد بنو زيان فى تدعيم موقفهم من الصراع الدائر بين أبى الحسن فى المغرب الأوسط ثم فى سلجماسة وولده أبى عنان. وقد ساعد أبو عنان بنى زيان ضد أبيه للوصول إلى السلطة بعد أتفاق أبى عنان معهم بالسيطرة على بلادهم واستطاع أبو عنان هزيمة أبيه عام ٧٥٢هـ/ ١٣٥١م، ثم عاد أبو عنان للسيطرة على المغرب الأوسط مرة ثانية عام ٧٥٣هـ/ ١٣٥٢م. واستولى عليه وقتل سلطان بنى زيان وبسط نفوذه من جديد وظلت بيعة بنى زيان للمرينين قائمة واستمر ذلك طوال ست سنوات حتى وفاة أبى عنان عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م حتى أستطاع أبو حمو موسى بن يوسف أحياء الدولة من جديد وأعاد استقلالها مرة أخري. وظل بنو زيان خلال عصر تحكم الوزراء فى سلاطين بنى مرين فى عدائهم التقليدى مما دفع بنى مرين لاحتلال المغرب الأوسط فى عام ٧٧٢ هـ / ١٣٧٠ م. وكان أبو حموا فى تلك الفترة يترك تلمسان ويهاجم أطراف المغرب الأقصى حتى يجعل قوات بنى مرين تترك تلمسان واستطاع بنو مرين اغراء بنى عامر العرب بالمال وكذلك تفريق شمل البيت الزيانى والوقوف مع أمير ضد آخر واشعال الفتنة كذلك سيطروا على تلمسان عام ٧٩١هـ/ ١٣٨٨م. فى عهد السلطان العباسى أحمد، قد أنهكوا قوى الدولة بل أن بنو مرين أخذوا يتدخلون فى تولية سلاطين بنى مرين هادفين من وراء ذلك انهاك القوى الزيانية والذى يلاحظ سير هذه العلاقات يدرك أن بنى مرين حاولوا عدة مرات ضرب القوة الزيانية لكنهم لم يستطيعوا توجيه ضربة قاصمة لهم الا بعد تحالفهم مع بنى حفص كما أن بنى مرين عند تحالفهم مع بنى حفص كانت نظرتهم أشمل فأنهم يعتبرون الاستيلاء على

تلمسان خطوة لاستيلاءهم على أفريقية والدليل على ذلك أن أبا الحسن المرينى بعد أن أستولى عن المغرب الأوسط استغل الخلاف الدائر داخل البيت الحفصى وزحف إلى أفريقية وأستولى عليها ٨٤٨ هـ / ١٣٤٧ م كذلك فأن بنى زيان أستغلوا انشقاق بنى مرين على أنفسهم وأعادوا اقامة دولتهم بينما أستغل بنو مرين الانشقاق لذا لم يواجهوهم فى زحفهم نحو تلمسان أنما أتبعوا الهجوم المماثل فكانوا يتركون تلمسان لبنى مرين ثم يزحفون إلى المغرب الأقصى مما يضطر بنى مرين للاقلاع عن تلمسان.

وعلى هذا فإن علاقة الدولة الزيابانية بدولة بنى مرين قد تأرجحت عدة مرات بين الخضوع والاستقلال والتبعية وكان بنو مرين فى كل هذه الحالات فى مركز القوة يستخدمون كل الوسائل لضرب بنى زيان.

لكن مما يلفت النظر أنه خلال سيطرة بنى مرين على المغرب الأوسط كانت تلمسان المنصورة طوال احد عشر عاما مقرا للحكومة المرينية يمارس منها أبو الحسن تسير أمور الدولة فى المغرب الأوسط والأقصى وأنشأ بنو مرين بها القصور والمساجد والمدارس والبيمارستانات وأهتم السلطان والأشياخ بمجالس العلم والعلماء ونشروا التعليم وأكثروا من بناء المدارس فى المدن الكبرى وكانت مجالس أبى الحسن تضم كثيرا من العلماء والأدباء وكثر عدد الطلبة بالرحيل إلى فاس لتلقى العلم على أئمتها وعلمائها ومن هؤلاء الذين عادوا إلى فاس أبو عبد الله محمد السلوغى الذى اصبح رائدا علميا فى بلاد المغرب الأوسط حيث أسس له أبو تاشفين ابن آبى حمو الزياتى مدرسة يدرس فيها ما حصله من علوم فاس كما اهتم المرينيون باعادة تعمير مدينة المنصورة التى سبق انشاؤها فى عهد السلطان أبى يعقوب يوسف.

وتلك هى لمحة مختصرة عن العلاقات بين بنى مرين وبنى زيان رالتى كانت فى مجملها صراع متواصل أضر بقضايا الأسلام والمسلمين فى الأندلس.

علاقة الحفصين مع بنى زيان

كانت القوى الثلاث التى ظهرت على أنقاض الدولة الموحدية تحاول كل منها بسط نفوذها على المنطقة فكانت تصطدم بالدولة الزيانية عندما يحاول بنو حفص الامتداد غربًا ، وعندما يحاول بنو مرين التوسع فى المغرب الأوسط شرقا ومن ثم كانت الدولة الزيانية هى الأخرى تحاول تثبيت أركانها.

ولقد كان بنو زيان فى بداية قيام دولتهم يتعاونون مع الموحدين مما أغضب الحفصيين وبنى مرين فى آن واحد وقد كان بنو زيان فى حاجة إلى الموحدين لان بنى زيان ينظرون إلى بنى حفص وبنى مرين على أنهما قوتان شابتان يؤثر وجودهما على الدولة الزيانية مستقبلا.

ولقد أغضبت علاقة بنى زيان بالموحدين بنى حفص فى المغرب الأوسط وظهر ذلك فى هجومهم على تلمسان عام ٦٤٠هـ / ١٢٤٢م ولا شك فى أن هجوم بنى حفص على تلمسان أثر فى أنجاز الدولة التوسعية، ومن ثم فانه بعد قيامها بسبع سنوات ٦٣٣هـ تراها تخضع لنفوذ بنى حفص وكان الخضوع شكليا لا يتعدى الدعاء لبنى حفص على منابر تلمسان والمغرب الأوسط ورغم محاولة بنى زيان التوسع شرقا الا أنهم اصطدموا ببنى حفص عندما حاول ابن تاشفين اخضاع قسنطينة وبجاية وحدث صراع بين القوتين الحفصية والزيانية فانتصر بنو زيان ودخلوا تونس العاصمة واستولوا عليها عام ٧٣٠هـ/١٣٢٩م. لكن أثناء توسع بنى زيان فى عهد ابن تاشفين استنجد بنو حفص ببنى مرين لضرب القوة الزيانية ونتج عن ذلك حصار بنى مرين لتلمسان عام ٧٣٥هـ/٧٣٧م، ولم يستطع بنو زيان مواجهة قوة بنى حفص فى الشرق وبنى مرين فى الغرب فسقطت تلمسان وفرض النفوذ المرينى على سكانها.

وتحسنت العلاقات بين الحفصيين وبنى زيان عندما وقف بنو حفص إلى جانب أبى حمو الثانى صاحب تلمسان وساعدوه لطرد بنى مرين من المغرب الأوسط والذين كانوا يتطلعون إلى بسط نفوذهم على أفريقية والمغرب كله واستطاع أبو حمو بمساعدة جيش حفصى تم تسليحه عن طريق بنى حفص استعادة تلمسان مرة أخرى، ولما حاول بنو زيان توسيع مناطق نفوذهم فى عهد أبى حمو الثانى وقف لهم بنو حفص وكانوا دائمًا يحاولون ضرب نفوذ أية قوة بالمغرب الأوسط يشم منها رائحة تهديد نفوذهم فى أفريقية مساعداً بنى مرين للاستيلاء على تلمسان لكبح جماح القوة الزيانية ثم ساعدوا أبا حمو الثانى فى القضاء على نفوذ بنى مرين بالمغرب الأوسط لمنعهم من التوسع شرقًا على حساب ممتلكات الحفصين، ثم ساعدوا أبا زيان بن أبى سعيد فى مزاحمة أبى حمو الثانى على عرش تلمسان، وهى محاولات تهدف إلى إضعاف النفوذ الزيانى سلبًا وإيجابًا.

وقد خاض جند بنى حفص حربًا ضد أبى حمو الثانى فى بجاية؛ حيث أن هذا الانتصار قلل من شأن الدولة بين عرب المغرب الأوسط وأضعف جانبها أمام أبى زيان المنافس على العرش والذى أصبح لأول مرة ذا قوة لا يستهان بها فى المغرب الأوسط.

ولما تولى أبو مالك عبد الواحد بن السلطان أبى حمو الثانى الحكم فى الدولة الزيانية استطاع أن يعيد للدولة كيانها وسمعتها السياسية واسترجع كل ما كان بين الحفصيين عام ٨١٤هـ/١٤١١م من أملاك بنى حفص فى شرق سلطنتهم؛ بل أنه لم يقف عن هذا الحد بل توسع غربًا فى المغرب الأقصى؛ حيث استطاع أن يستولى على فاس عاصمة بنى مرين وأن يعين عليها أميرًا زيانيًا من قبله.

ولم يقف بنو حفص أمام توسع بنى زيان فى المغرب الأقصى الذين شنوا حملة على بنى مرين وانتصروا فيها، لكن بنى حفص استطاعوا عام ٨٢٧هـ/١٤٢٧م أن

يدخلوا تلمسان وأن يعينوا عليها أميراً من أسرة بنى زيان لكنه كان من قبلهم وخاضعاً لهم هو أبو عبد الله محمد المعروف بابن الحمزة ين السلطان تاشفين الثانى وخضع بنو زيان لسلطة الدولة الحفصية وأخذ بنو حفص منذ ذلك الحين يلعبون دوراً هاماً فى أمور الدولة الزيانية فى تولية الأمراء وعزلهم وكلما ازداد النفوذ الزيانى كان عاملاً على التوسع، وكانوا يعملون على وقف هذا التوسع لأنه كان دائماً يكون على حساب أراضيهم وديارهم فى بجاية وقسنطينة.

ومن ثم .. فإنه يمكن القول أن العلاقات بين الطرفين فى أغلب فتراتها كانت صورة من الصراع الدائم؛ حيث تصارعت أفكار كل منها عكس الآخر كان بنو زيان يريدون التوسع شرقاً وبنو حفص يريدون التوسع غرباً، وهذا جعل المجابهة بين الطرفين قوية وكانت زيان تابعة ثم استقلال ثم تفوق عسكرى ثم تبعية بنى زيان للحفصيين شكلية، ولم تنشأ العلاقة صراعاً عسكرياً، وكانت تبعية بنى زيان للحفصيين شكلية، ولم تنشأ العلاقة من فراغ فعندما استقل بنو حفص بحكم المغرب الأدنى عن الموحدين عام ٦٢٥هـ/١٢٢٧م كان هدفهم الاستيلاء على المغرب كله وتطورت العلاقة بين الطرفين كل يحاول الاتساع على حساب الطرف الآخر، ومن ثم كان تحالف بنى زيان مع أعداء بنى حفص، وهكذا .. وجد بنو حفص أنفسهم أمام قوة تقف حائلاً دون استقرارهم وتوسعهم وحاول بنو زيان التوسع داخل حدود المغرب الأوسط بإخضاع شلف، ومن ثم .. استنجد بنو يوجين ومغراوة ببنى حفص للظهور على قوة بنى زيان، وكانت بنو حفص أكثر قوة فى جعل بنى حفص يستولون على تلمسان عام ٦٣٩هـ/١٢٤١م. ومن ثم وضعنا تحت حماية حفصية كما فعلوا بقسنطينة وبجاية من قبل. وكان أبو زكريا الحفصى قد أرسل إلى يغمراسن بشأن عقد صلح أو اتفاق بينها على أن يدين بنو زيان للدولة الحفصية فأبى يغمراسن، ومن ثم استولى بنو

حفص على تلمسان بينما لحق بنو زيان بالصحراء وأرسل يغمراسن بن زيان إلى أبى بكر الحفصى بشأن التفاوض وقبل بنو حفص التفاوض وعاد بنو زيان إلى تلمسان شريطة أن يقيموا الدعوة لبنى حفص على منابرهم بدلاً من الخليفة الموحدى وأن يعاونوهم ضد الخليفة الموحدى بمراكش، وهذا الاتفاق بين بنى زيان وبنى حفص أخذ شكلاً عملياً بالدعاء للحفصيين على منابر تلسمان واضطر زعيم بنى زيان بالاعتراف بسيادة الحفصيين وأصبحت بلاد المغرب الأوسط تحت وصاية وحماية الحفصيين.

وكان بنو زيان يتلقون الأوامر من سلطان بنى حفص وكانت الأمور فى تلمسان تسير بيد بنى زيان، ومن ذلك حربهم ضد العرب الذين ساعدوا أبا زكريا وكذلك معاداتهم الموحدين أعداء بنى حفص ضد بنى مرين عام ٦٤٢هـ/١٢٤٤م. ولقد استولى الأمير الزيانى محمد بن محمد بن أبى ثابت الملقب بالمتوكل على تلمسان وطرد سلطان بنى زيان أبا العباس أحمد إلى الأندلس عام ٨٦٦هـ/١٤٦١م. وهنا نهض بنو حفص إلى تلمسان بجيوش ضخمة وأدرك بنو زيان أنهم فى مأزق فطلبوا الصلح واستطاع الوفد الزيانى أن يعقد الصلح على أن يدخل بنو زيان فى طاعة بنى حفص وعاد بنو حفص إلى تونس مرة أخرى، ولم يهنأ بنو زيان باستقلالهم وسويد (قبيلة عربية) إلى تلمسان ونصب الحفصيون على جيش العرب قائداً لهم وحاصرت الجيوش تلمسان (٨٧١هـ/١٤٦٦م) وهدم بنو حفص أسوار المدينة وأرسل المتوكل وفداً يطلب الصلح وزوج ابنته للخليفة الحفصى ودخل فى طاعتهم إلى أن توفى عام ٨٩٠هـ/١٤٨٥م.

وبلغ بنو زيان درجة من القوة جعلتهم يهاجمون بنى حفص فى عقر دارهم ويستولون على تونس وتعاون بنو حفص مع بنى مرين، وتم اخضاع تلمسان واستخدم بنو حفص طريقاً آخر لضرب القوى الزيانية بعد احيائها من جديد، وهى حرب بنى زيان

بعضهم لبعض فوقفوا بجانب أمير ضد آخر ثم كانوا يتركون هذا الأمير ويقفون مع الآخر وهم يأملون فى كل هذه المواقف أن يقضى بنو زيان بعضهم على البعض الآخر.

واستخدم بنو حفص القوة الحربية فى حرب بنى زيان، لكن فى عام ٨١٤هـ/١٤١١م استطاع بنو زيان أن يسترجعوا ما بين الحفصيين شرقًا مما دفع بنى حفص للهجوم على تلمسان وبعد معارك طاحنة استطاعوا تحريك مقاليد الأمور فى تلمسان ويعينون أمراء بنى زيان كما يشاءون ويخلعون كذلك كما يريدون وتتجلى هذه التبعية الرسمية لبنى زيان فى إرسال أبى مالك السلطان المخلوع والقاطن بالمغرب الأقصى إلى بنى حفص لكى يتم إعادته مرة ثانية للعرش الزيانى وذلك دليل على أن بنى حفص كانت لهم اليد الطولى فى تسيير الأمور فى تلمسان وإلا لماذا أرسل أبو مالك إلى بنى حفص بصدد إعادته ووعده بنو حفص بالعودة.

وعندما ساءت الأمور فى تونس وحدث الانقسام بين الأمراء من الناحية الغربية؛ حيث عمل أمراء هذه الناحية على الاستقلال عن أفريقية فقد استغل ذلك بنو زيان وأعلنوا استقلالهم عنهم؛ حيث كانت علاقة بنى زيان بأمير بجاية الحفصى طيبة، وهذه العلاقة لم يرض عنها سلطان بنى حفص فلم يتحركوا لنجدة بنى زيان أثناء حصار بنى مرين لهم وأكثر من ذلك فإن سلطان بنى حفص أرسل لسلطان بنى مرين أثناء حصارهم تلمسان وفدًا لتجديد الصلة والصداقة وأدى هذا الموقف إلى إعلان بنى زيان استقلالهم الذاتى فخرج بنو زيان عن طاعة بنى حفص وأعلنوا استقلالهم فلم يعد يذكر بنى حفص على منابر تلمسان ولقد حاول السلطان أبو بكر شقيق أبى البقاء خالد السيطرة على الأقاليم القريبة لكنه عاش فى صراع مع بنى زيان الذين حاولوا بدورهم اخضاع نايبين بنى حفص من أراضى داخل المغرب الأوسط.

وإذا كانت العلاقة بين بنى زيان وبنى حفص قد ساءت منذ هجوم بنى مرين

على تلمسان مما أدى إلى تطور العلاقة من التبعية إلى الاستقلال، لكن في عهد أبي تاشفين الأول الزياني؛ فإنه قد استغل فرصة الخلاف بين أبناء البيت الحفصي في أفريقية، وكذلك خروج بني سليم على بني حفص واستغل بنو زيان فرصة الانقسام والصراع الداخلي ووجهوا عدة ضربات قوية بدأوها بمحاولتهم للاستيلاء على بجاية وقسنطينة عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م - ٧٢١هـ/١٣٢١م، وتكررت هجمات بني زيان على بجاية وقسنطينة واستطاع بنو زيان بناء مدينة تاز بزدكت بالقرب من بجاية وجعلوها بمثابة القاعدة العسكرية للمساعدة في الزحف على الأقاليم الشرقية واستطاع بنو زيان هزيمة بني حفص هزيمة قاسية والاستيلاء على تونس ثم تركوها لزعيم عرب بني عمران الذي لم يستطيع صد أبي يحيى الحفصي واستردادها مرة ثانية.

ولقد كان هدف بني زيان الاستيلاء على بجاية وقستنطينة فقط، دون زحفهم على تونس نظراً لصراع عرب بني سليم وأبي يحيي الحفصي.

لكن طابع العداء والصراع سرعان ما تبدد وأخذ طابع الهدوء النسبي يسود العلاقات وذلك في الاتفاقيات التي تمت بين بني زيان وبني حفص والمصاهرة التي تمت بين الطرفين، وفي الهدايا المتبادلة والسفارات مثلما حدث في عهد يغمراسن بن زيان، وساعد بنو زيان على استعادة سيطرتهم على قبائل المغرب الأوسط ولم يفكروا في محاربة بني حفص والصلح الذي تم في عهد المتوكل الحفصي بين بني زيان وبني حفص عندما حاصر بنو حفص تلمسان عام ٨٧١هـ/١٤٦٦م؛ حيث عاش بنو زيان في هدوء وإن كانوا تابعين لبني حفص وكذلك حالة الزواج السياسي التي تمت بالمصاهرة عندما خطب يغمراسن ابنة أبي اسحاق بن أبي زكريا الحفصي لابنه عثمان وكذلك تبادل الهدايا أثناء حكم أبي العباس أحمد بن أبي حمو موسى الثاني وكذلك تم عقد معاهدة صلح وحسن جوار عام ٨٣٤هـ/١٤٣٠م، وحدث نوع من الاستقرار

بين الطرفين ووردت رسل من قبل السلطان أحمد العاقل عام ٨٦٢هـ/١٤٥٧م إلى سلطان بنى حفص حاملاً هدية فرد السلطان الحفصى بهدية مع الرسول المذكور وحدث مثل ذلك فى عهد السلطان الزيانى محمد المتوكل فبعد أن تم الصلح بين بنى زيان وبنى حفص تحسنت العلاقات بينهم إلى حد تبادل الهدايا.

كما أن العلاقات الثقافية بين الطرفين لم تتوقف؛ فقد كانت تلمسان فى الظروف العادية قبلة العلم والعلماء يشد إليها الرجال طلاب العام من أفريقية والمغرب الأقصى، ومن مصر وبلاد المشرق وسائر العالم الإسلامى وكثير من العلماء الذين كانوا يلقبون بالتلمسانى والذين رحلوا إلى المغرب الأقصى وبلاد السودان الغربى والسودان الشرقى وبلاد الشام والحجاز ونشطت العلاقات الثقافية بين القيروان وتلمسان وكانت قوافل الحج تنقل طلاب المعرفة للحج والدرس والتحصيل وارتبطت القيروان مع تلمسان وغيرها من بلاد المغرب الأوسط بروابط وعلاقات ثقافية.

كما أن حركة التبادل التجارى والعلاقات الاقتصادية بين البلدين كانت تزدهر لاسيما أوقات السلم وكانت الصلات بين البلدين قوية وساعدت فترة السلام والهدوء بين البلدين على ازدياد الروابط الاقتصادية بين المغرب الأدنى والأوسط ونعم سكان البلدين بتبادل منتجات كل منهما كما أن منتجات بلاد المغرب الأقصى وأوربا كان يتم نقلها إلى أفريقية (تونس) ومصر وبلاد المشرق العربى (عبر بلاد بنى زيان).

وهكذا .. نرى كيف كانت تسير العلاقات السياسية والاقتصادية بين بنى زيان فى المغرب الأوسط وبنى حفص فى المغرب الأدنى.

وتلك هى صورة العلاقات التى كانت تتم بين البلدين الشقيقين والمتجاورين والتى لم تكن فى معظم فتراتها إلا صراعات من أجل السيطرة وبسط النفوذ، لكن

الذى يلاحظ حركة العلاقت وتطورها يدرك أن بنى زيان كانوا دائماً وفى معظم فترات التاريخ هم الطرف الأضعف سواء فى علاقتهم مع بنى حفص أو مع بنى مرين. لذا .. كان المغرب الأوسط دائمًا يتعرض للهجوم من الشرق والغرب رغم حرص بنى زيان على الحفاظ على استقلالهم إلا أن تلمسان عاصمتهم لم يكن يمر عليها زمن قصير إلا وتهاجم من بنى حفص أو بنى مرين.

* * * *

الفصل الثامن

نهاية الدولة وسقوطها

بعد وفاة السلطان أبى عنان فارس المرينى فى عام ٧٥٩ هـ / ١٣٥٨ م استبد بأمور الدولة وزيره حسن بن عمر فترة من الوقت الى أن تولى السلطان أبى سالم ابراهيم سلطة المغرب عام ٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م فأبعد هذا الوزير الى مراكش تحفظا منه وريبة بمكانته فى الدولة غير أنه لم يلبث أن ثار ضد السلطان أبى سالم فى عام ٧٦١ هـ / ١٣٦٠ م ولجأ الى عرب جشم ببلاد تادلا فأجاره كبيرهم فأرسل أبو سالم جنوده للقضاء على ثورته فاحتلت بلاد جشم واعتصم الوزير حسن بن عمر بالجبل بجوار بربر صناكة الذين قبضوا عليه وسلموه وقتل بفاس .

وفى النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى تمزقت الدولة المرينية بين الأمراء المتنافسين على السلطة بين فاس ومراكش وقام زعماء العرب بدور نشيط بن المتنافسين سعى زعيم عرب بنى صبيح فى الصلح بين الوزير ابن عمر بن عبد الله بفاس وعامر بن محمد الهنتاتى بمراكش وفى عام ٧٦٨ هـ / ١٣٦٧ م . ثار عامر بن محمد الهنتاتى على سلطانه أبى الفضل بمراكش وهرب خوفا من بطشه الى فاس مبايعا سلطانها عبد العزيز وعندما علم السلطان أبو الفضل زحف عبد العزيز وانسحب الى بلاد تادلا وترك فاس واعتصم بحماية أهل تادلا من عرب بنى جابر من جشم فأتبعه عبد العزيز وانهزم أبو الفضل وهرب الى قبائل صناكة وتم أسره ونقله الى عبد العزيز الذى أمر بقتله وقتل مستشاره مبارك بن عطية فى عام ٧٦٩ هـ / ١٣٦٨ م .

وفى عصر قوة الوزراء (٧٥٩ - ٨٦٩ هـ / ١٣٥٧ - ١٤٦٥ م) أصبح سلاطين بنى مرين العوبة فى يد الوزراء حيث ضعف السلاطين وضعف تأثير أهل

الحل والعقد على هؤلاء الوزراء وانفرد الوزراء بترشيح السلاطين ولم يكن أحد يجرؤ على الاعتراض على ما أفسده الوزراء المستبدون وقد أدى ذلك الى ضعف الدولة ومن فان مقتل السلطان أبى عنان وما تم فى أعقاب مقتله قد أصبح تحولا كبيرا فى النظام السياسى وكان هذا التحول هو انتقال السلطة الفعلية الى أيدى الوزراء بدلا من السلاطين وأصبح هذا التحول دلالة على انتهاء عصر القوة المرينية وأنها فى طريقها الى الانهيار والسقوط وصاحب ذلك تقلصها داخل حدودها السابقة فى المغرب الأقصى حيث استرد الحفصيون أملاكهم فى قسنطينة وبجاية وتمكن أبو حمو موسى الزيانى من استعادة تلمسان (٧٦٠ هـ / ١٣٥٩ م) . بمعاونة عرب بنى عامر وكانت هذه نهاية السياسة التوسعية لبنى مرين وكانت هذه الخسائر أهم أسباب ضعفهم واندفاع الدولة نحو الانحلال والتفكك ومارس الوزراء سلطانهم الواسع .

كذلك فانه فى عصر نفوذ الوزراء الذى امتد الى مايقرب من مائة عام وعشرة هجرية ومائة وثمانية عام ميلادية لم يعد لولاية العهد قيمة كبيرة فكثير من سلاطين بنى مرين فى هذه الفترة لم يجرؤ على تحديد ولى عهده فى حياتهم لأن مقاليد الأمور والسلطة كانت فى يد الوزراء ولم يكن من صالح الوزراء تحديد ولى العهد حتى يصبح فى امكانهم اختيار السلطان الذى يريدون .

ولقد كانت الدولة المرينية فى المغرب الأقصى فى أواخر القرن الثامن الهجرى ، وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى تعانى اقتصادا متدهورا وانعكست أثار التدهور الاقتصادى على الحياة السياسية اذ أدى ذلك الى اضمحلال الدولة المرينية وسقوطها وتركت آثار التدهور الاقتصادى بصماتها على الحياة السياسية منذ النصف الثانى من القرن التاسع الهجرى وفى الفترة التى صاحبت نهاية المرينين فى بلاد المغرب .

وبدأت هذه الفترة بتولى السلطة أبى سعيد بن أبى العباس أحمد الذى بويع عام ٨٠٠ هـ / ١٣٩٨ م وصار للحجاب نفوذ أقوى من الوزراء حتى أصبح الحجاب فى يدهم جميع الخيوط والوظائف السلطانية ومفاتيح باب القصر وصار الحاجب هو صمام الأمن والأمان للسلطان الجالس على العرش وأدت هذه السيطرة من الحجاب الى المؤامرات داخل القصر السلطانى والى مقتل أو هروب السلاطين بأنفسهم خوفا على حياتهم فى القصور ، وقتل السلطان أبو العباس ثم وقف السلطان مكتوف الأيدى ولم يقدر على الدفاع عن حدود دولته أمام خطر الحفصين .

فقد منح السلطان أبو سعيد عثمان بعض القبائل العربية من بنى سليم وهى الثائرة على الدولة حق اللجوء للمغرب الأقصى والاستقرار وضمها الى جانب الجيش المرينى لمحاربة أبى فارس الحفصى وجعل قيادتهم فى يد الأمير أبى عبد الله محمد بن أبى زكريا صاحب بونة وكان ثائرا على أبى فارس الحفصى ولكن السلطان الحفصى أبا فارس رأى فى ذلك عداوة له فبادر الى لقاء قوات بنى سليم وبنى مرين وهزمهم وأرسل رأس قائدهم الى فاس وتقدم أبو فارس الحفصى واستولى على تلمسان ثم تقدم لتأديب سلطان بنى مرين أبى سعيد عثمان ولم يكن فى استطاعة السلطان المرينى أن يواجه سلطان بنى حفص وأرسل له البيعة وبذلك امتد نفوذ بنى حفص الى المغرب الأقصى وبايعت فاس للخلفاء الحفصين وبهذه البيعة الأخيرة تعنى أن المرنين صاروا من الناحية السياسية تابعين لبنى حفص فى تونس وتوفى أبو سعيد عثمان عام ٨١٨ هـ / ١٤١٥ م بعد أن حكم ثمانية عشرة عاما وخلفه أخوه عبد الله المعروف سيدى عبو . وكان هذا السلطان هو آخر سلاطين بنى مرين وأطولهم مدة وفى أيامه ضعف أمر بنى مرين وتداعى الى الانحلال وكان مصير الدولة بين الحجاب والوزراء .

وفى هذه الفترة كان للقبائل العربية دور خطير فى توجيه أحداث المغرب فقد كانت القبائل العربية تجتمع لنصرة أمير مرينى ضد آخر حتى انتهى الأمر الى استقرار أبى العباس أحمد بن أبى سالم المرينى بفاس . ومنافسة ابن أبى يغلوسن بن أبى على المرينى بمراكش تفصل بين أملاكها ولاية أزمور العربية شبه المستقلة ويلاحظ هنا فى أثناء ضعف السلاطين وظهور ولايات عربية شبه مستقلة داخل الدولة ، ولقد أصبح الوزراء فى هذه الأحوال حتى سقوط الدولة وزراء تفويض لأن السلاطين تركوا للوزراء تدبير الأمور برأيهم وتوجهاتهم وفق اجتهادهم واستبد هؤلاء الوزراء بالدولة وعلى نفوذهم على نفوذ السلاطين وقد جمع هذا الصنف من الوزراء جميع مقاليد السلطة فى أيديهم ولم يبقى لمعظم السلاطين فى عصر نفوذ الوزراء سوى شكليات السلطة ولذلك لم يكن هناك فى الدولة فى الغالب سوى وزير واحد ووزيرين فى معظم الأحوال .

واشتد الصراع بين العاصمتين فاس ومراكش وأصبحت الدولة تنقسم فيما بينها قسم يناصر فاس والآخر ينحاز الى مراكش ، لكن القتال اشتد وطال حتى تمكن أبو العباس أحمد من الاستيلاء على مراكش فى أواخر فترة حكمه فى عام ٧٨٤ هـ / ١٣٨٢ م ، ووحد المغرب غير أن أبا العباس لم ينعم بالحكم طويلا اذ بعد عامين فقط من توحيده للبلاد قام موسى بن أبى عنان بطرده من الحكم عام ٦٨٦ هـ / ١٣٨٤م ففر الى الأندلس . وهرب وزيره الى عرب المعقل لكنه أرسل الى السلطان موسى وسلموه له فقتله .

وحينما ضاقت الحاشية والاتباع بالسلطان موسى بن أبى عنان وتأمرت عليه وعملت على ضرورة استبدال سلطان جديد به يأتى من غرناطة (لاحظ تحكم الأندلس

فى تعيين سلاطين بنى مرين وتغير الأحوال) وكانت غرناطة قد أصبحت ملجأ للمطالبين بالعرش المرينى والمبعدين عن السلطة بالمغرب وكان زعيم القبائل العربية محمد الصبيحى على رأس الوفد المرسل الى الأندلس لاحضار السلطان الجديد معتمدا على ازدياد نفوذ جنده .

وساءت العلاقة بين الدولتين المرينية ومملكة غرناطة فأعاد ابن الاحمر سلطانها السابق أبا العباس أحمد الى المغرب وأعلنت القبائل العربية تأيدها له المغرب واجتمعت على مبايعته وساعدته ودخل فاس عام ٧٨١ هـ / ١٣٨٧ م . وقتل من تردد فى مبايعته وتحكم بنو وطاس فى مقاليد الأمور وازداد نفوذهم .

وفى عهد آخر السلاطين بنى مرين عبد الحق بن أبى سعيد بن أبى العباس (٨٢٣ – ٨٦٩ هـ / ١٣٢٠ – ١٤٦٥ م) غزا الوزير أبو زكريا يحيى بن زيان الوطاسى عرب الشاوية لتمردهم على الدولة ففرق شملهم .

واضطربت أحوال الدولة المرينية بتعدد الثورات وتدهورت الأمور بفاس بعد أن سيطر الحجاب غير المسلمين على مقاليد الأمور مما اضطر شيوخ المرنين ورؤساءها الى الدعوة للثورة التى عمت أحياء فاس كلها واضطروا الى مبايعة سلطان جديد هو الشريف أبى عبد الله محمد بن على الادريسى نقيب الأشراف بفاس فى رمضان (٨٦٩هـ/ ١٤٦٥م) الذى استمر فى الحكم يعاونه ابنه وسار الناس خلف سلطانهم الجديد نقيب الاشراف بعد أن تحكم غير المسلمين فى السلطان عبد الحق وكان مطية لأهدافهم ومنفذا لأوامرهم وكان يعمل برأيهم ومشورتهم وتم انتزاع خاتم الملك من يده وضربت عنقه لسيره وراء أهواء غير المسلمين فى رمضان ٨٦٩ هـ / ١٤٦٥ م . وبهذه النهاية انتهت آخر صفحة من صفحات الدولة المرينية بعد أن عاشت فى بلاد

المغرب أكثر من قرنين من الأزمان جادت بعطائها الفكرى والعلمى والحضارى فأحسنت العطاء ووقفت قواتها على أرض الأندلس تجاهد فى سبيل دفع العدوان عن أخوة الاسلام بقدر ما أتيحت لها من امكانيات فى ذلك العصر وبقدر ظروفها السياسية فانها لم تبخل عن الذود والعطاء والدفاع .

والذى ينظر الى تاريخ سلاطين بنى مرين الذين حكموا البلاد من هذا القرن ويزيد قليلا منذ ازدياد نفوذ الوزراء يدرك أنهم زادوا عن سبعة عشر سلطانا كان بعضهم يتولى السلطة ثم يعزل ثم يعود اليها مثل السلطان أبو العباس أحمد أو أنه هؤلاء السلاطين أصبحوا مطية لتنفيذ أوامر الوزراء أو الحجاب أو تنفيذا أوامر دولة خارجية مثل غرناطة بل الذى زاد الطين بلة أن ملوك قشتالة وأرغون كثيرا ما ساعدوا بعض السلاطين وأمدوهم بالسلاح والمال والرجال لاستعادة سلطانهم فى بلاد المغرب الأقصى ومن السلاطين الذين تولوا عرش البلاد من كان منهم يقيم لدى ملوك قشتالة .

لكن حكم نقيب الأشراف لم يدم طويلا ذلك لاننا نجد أن محمدا بن الشيخ زكريا الوطاسى يعين نفسه سلطانا على المغرب عام ٨٧٦ –٨٩٠ هـ/ ١٤٧٢–١٥٠٤م مؤسساً بذلك الدولة الوطاسية ، وهكذا انتهت دولة بنى مرين الدولة التى أسسها عبد الحق المرينى وكافح بنو مرين طويلا حتى استقرت على أيدى أبناء عمومتهم من بنى وطاس .

وتلك هى لمحة موجزة ومختصرة عن تاريخ دولة بنى مرين خلال حكمها للمغرب الأقصى نضعها بين يدى رجال البحث والتاريخ والدارسين .

* * * *

سلاطين بنى مرين الذين تولوا حكم المغرب الأقصى

١ - أبو محمد عبد الحق أبو خالد محبو بن أبى بكر بن حمامة المرينى (٥٩٢هـ-١١٩٥م)

٢ - أبو سعيد عثمان بن عبد الحق (أدرغال) (٦١٤هـ-١٢١٧م)

٣ - محمد الأول بن عبد الحق (٦٣٧هـ-١٢٣٩م)

٤ - أبو يحيى أبو بكر بن عبد الحق (٦٤٢هـ-١٢٤٤م)

٥ - أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق (٦٥٦هـ-١٢٥٨م)

٦ - أبو يعقوب يوسف بن يعقوب بن عبد الحق (الناصر لدين الله) (٦٨٥هـ-١٢٨٦م)

٧ - أبو ثابت عامر بن أبى عامر (٧٠٦هـ-١٣٠٦م)

٨ - أبو الربيع سليمان بن أبى عامر (٧٠٨هـ-١٣٠٨م)

٩ - أبو الحسن على بن عنان (٧١٠هـ-١٣١٠م)

١٠ - أبو الحسن على بن عنان (٧٣٢هـ-١٢٣١م)

١١ - أبو عنان فارس المتوكل بن أبى الحسن على (٧٤٩هـ١٣٤٨م)

أبو زيان محمد بن أبى فارس أبى عنان، وتم عزله فى الحال (٧٤٩هـ-١٣٥٧م)

١٢ - محمد السعيد بن أبى عنان تولى وعمره خمس سنوات

(٧٥٩هـ-١٣٥٧م)

١٣ - أبو سالم إبراهيم بن على (٧٦٠هـ-١٣٥٨م)

١٤ - أبو عامر تاشفين بن على (٧٦٢هـ-١٣٦٠م)

١٥ - عبد الحليم بن أبى على عمر (حكم سلجماسة منذ ربيع)

(٧٦٣هـ-١٣٦١م)

١٦ - أبو زيان محمد الثانى المستنصر بن أبى عبد الرحمن

(٧٦٣هـ-١٣٦١م)

١٧ - أبو فارس عبد العزيز المستنصر بن على (٧٦٨هـ-١٣٦١م)

١٨ - أبو زيان محمد الثالث السعيد بن عبد العزيز (٧٧٤هـ-١٣٧٢م)

١٩ - أبو العباس أحمد المستنصر بن إبراهيم (حكم بقابس)

(٧٧٦هـ-١٣٧٤م)

٢٠ - عبد الرحمن بن بغلوسن (٧٧٦هـ-١٣٧٤م)

٢١ - موسى بن أبى عنان المتوكل على الله أبو فارس (٧٨٦هـ-١٣٨٤م)

٢٢ - أبو زيان محمد المنتصر بالله بن أحمد (٧٨٨هـ-١٣٨٦م)

٢٣ - أبو زيان محمد الرابع الواثق بالله بن أبى الفضل المستنصر

(حكم للمرة الثانية) (٧٨٨هـ-١٣٨٦م)

٢٤ - أبو فارس أحمد (٧٩٦هـ-١٣٩٣م)

٢٥ - عبد العزيز بن أحمد (٧٩٩هـ-١٣٩٦م)

٢٦ - عبد الله بن أحمد (٨٠٠هـ-١٣٩٧م)

٢٧ - أبو سعيد عثمان الثانى بن أحمد (٨٠١هـ-١٣٩٩م)

٢٨ - أبو محمد عبد الحق بن أبى سعيد الثانى

(نهاية أسرة بنى مرين) (٨٣١-٨٦٩هـ/١٤٢٧-١٤٤٥م)

* * * *

الخاتمة

إن الذى يتصفح طيات هذا الجزء من الموسوعة يدرك تمام الإدارك كيف ظهرت هذه الدويلات على مسرح الأحداث السياسية فى المغرب العربى، وكيف أن الخليفة المنصور الموحدى ٥٩٥هـ/١٦١١هـ قد أقطع عبد الواحد بن أبى حفص حكم المغرب الأدنى (أفريقية) على أن يظل تابعاً، وتحت نفوذ الموحدين بالمغرب الأقصى إلا أن ابنه أبا زكريا الحفصى استطاع الخروج على طاعة الدولة الموحدية وإعلان المغرب الأدنى إمارة مستقلة ويسقط اسم الخليفة الموحدى من الخطبة؛ بل أن الحفصيين لم يكتفوا بذلك؛ فقام المستنصر بالله بن أبى زكريا الحفصى بإعلان الخلافة وتلقب بلقب الخليفة مثله مثل خلفاء الموحدين وبدأت التوسعات الحفصية فى المغرب الأوسط على حساب الوجود الموحدى؛ بل أن نفوذهم قد وصل إلى الأندلس وبلاد المغرب الأقصى نفسها مقر حكم الموحدين، ولم يأت عام ٦٢٦هـ/١٢٢٩م إلا وكانت أفريقية تمارس سيادتها بنفسها دون أن تعبأ بالوجود الموحدى وكان ذلك من أسباب ضعف الخلافة الموحدية.

بل إن انفصال الحفصيين لم يكن كافياً لإقطاع أحد أوصال الخلافة فتمرد المغرب الأوسط؛ حيث قامت قبائل بنى عبد الواد الزيانية بالاستيلاء على تلمسان عاصمة الإقليم وإعلانهم عام ٦٣٣هـ/١٢٣٦م قيام دولة لهم فى المغرب الأوسط، وعلى الرغم من أنهم لم يعادوا الموحدين منذ ظهور دولتهم حتى سقوطها عام ٦٦٨هـ على يد أبى يعقوب يوسف بن عبد الحق المرينى .. إلا أنهم بإعلانهم الاستقلال عن

الموحدين واقتطاع المغرب الأوسط لنفوذهم فإن ذلك أضعف دولة الموحدين أكثر فأكثر وفقدت هيبتها ونفوذها لدى الأهالى. فما كان من القبائل المرينية التى كانت تحلم ببناء الدولة على نمط المرابطين والموحدين إلا أن تستخدم المعاول لهدم البناء الموحدى والانقضاض عليه دفعة دفعة فأخذوا فى شن الهجمات على الدولة أو بقايا دولة الموحدين فى المغرب الأقصى منذ عام ٦١٠هـ حتى عام ٦٦٨هـ تاريخ سقوط مراكش فى أيدى الموحدين أكثر من خمسين عاما فى استنزاف موارد الدولة الموحدية.

وهكذا ظهرت للعيان ثلاث دويلات فى المغرب الأدنى بنو حفص ، وفى المغرب الأوسط بنو زلمان ، وفى المغرب الأقصى بنو مرين على أنقاض الدولة الأم الموحدين .

والذى يتابع الأحداث السياسية التى مرت بها هذه الدويلات منذ ظهورها حتى سقوطها ونهاية وجودها السياسى يعلم أن قيام هذه الدويلات لم يكن فيه فائدة ترجى للعالم الاسلامى والمسلمين بقدر ما أضر بالمصالح الاسلامية فالتمزق والتشرذم والتفكك أضعف من هيبة المسلمين أمام القوى الخارجية فالدولة الواحدة صارت ثلاث دويلات مما مكن عدو الاسلام أن يتابع تنفيذ خططه فى ظل الكيانات الصغرى محققا أهدافه البعيدة فى أضعاف الوجود الاسلامى فى الأندلس وفى غرب حوض البحر المتوسط وفى الهجوم على السواحل الاسلامية وانتزع زمام المبادرة من أيدى المسلمين والاخلال بالتوازن العسكرى بعد أن كان تفوقا عسكريا للمسلمين طوال خمس قرون .

ولهذا كان قيام هذه الدويلات وبالا على قضايا المسلمين ولم يكن قيامها الا خسارة للقضية الكبرى فى الأندلس . كذلك فان هذه الدويلات لم تكن الأحوال والعلاقات السياسية بينها الا كما هو الخلاف والسيطرة وبسط النفوذ وكبح جماح آية قوة تحاول السيطرة على حساب القوى الأخرى .

فالحفصوين كانوا يريدون التوسع غربا على حساب بنى زيان وبنو زيان يريدون التوسع شرقا على حساب الحفصيين وبنو مرين يريدون التوسع شرقا على حساب بنى زيان وبنى حفص وكل منها تحاول الادعاء بأنها وريثة العرش الموحدى ، الحفصيون يرون أنهم أحق باعتبارهم فرع من الأسرة الموحدية وبنو زيان يرون أنهم أحق باعتبار صداقتهم وصلة المودة طوال تاريخ الموحدين والوقوف معهم فى خندق واحد ضد كل الأعداء فى سقوط الدولة فى عهد أبى دبوس والدولة المرينية ترى أنها أحق بالسيطرة على المغرب كله باعتبار أنها الوريثة الوحيدة لملك الموحدين وأنها التى أسقطت خلافة الموحدين ومن ثم يكون لها السيطرة على المغرب الأوسط والأدنى ومن ثم اشتعلت الحروب واحتشدت الجيوش ودامت الحروب فترات طويلة استنفدت موارد وطاقات كل منها فالذى نظر الى تطور الاحداث يرى أن تلمسان عاصمة الزيانين لم تكن الا مطية للحفصين وبنى مرين فتارة تخضع للحفصين وتخطب ودهم وتقدم البيعة للخلفاء الحفصيين وتارة اخرى تخضع لنفوذ وسيطرة بنى مرين وتارة أخرى تسيطر قوات بنى مرين على الحفصيين وبنى زيان وتبسط نفوذها على المغرب الأوسط والأدنى وتارة أخرى نجد قوات الحفصيين تصل الى فاس عاصمة بنى مرين ويقدم سلطانها البيعة للسلطان الحفصى وفى فترات أخرى من تاريخ هذه الدول يقوم بنو زيان بالسيطرة على تونس ودخول قواتهم الى العاصمة تونس واخضاعها لسيادتهم وفى حقب تاريخية اخرى يدخل بنو زيان عاصمة المرينين وكأن المنطقة كانت ميدان صراع داخلى بدلا من التوحد وجمع الصف ومعرفة الهدف ومساندة أخوة الاسلام فى الميدان الأندلسى .

ولم نجد الا أن عبء الجهاد يقع على بنى مرين للدفاع عن قضايا المسلمين فى الأندلس ومساندة بنى الأحمر فى غرناطة ، وتقديم العون البشرى والمادى والمعدات والعبور عدة مرات لوقف الزحف المعادى القادم من الشمال بمساندة دول أوربا وقيام

قشتالة وأرغون بقيادة حركة الاسترداد وطرد المسلمين من ديارهم وأوطانهم . بل أن بنى الأحمر لم يحفظوا لبنى مرين موقف الأخوة الاسلامية فتعاونوا مع أعداء الأندلس من النصارى وقدموا لهم الأراضى الاستراتيجية للوقوف فى وجه بنى مرين ، بل أنهم فى بعض الحقب التاريخية تدخلوا فى شئون بنى مرين وأصبحت لهم ولقشتالة اليد الطولى فى تعيين وعزل السلاطين الذين صاروا العوبة فى يد الوزراء والحجاب .

وهكذا صار تاريخ هذه الدويلات من سئ الى أسوأ صراعا وتنافرا وتطاحنا وتباعدا فالمسلم يستعين على أخيه عدو الاسلام ويحارب أخاه من أجل السلطة أو تعدى على الحدود وضم المدن والأراضى وخادم يقتل سيده أو يضع له السم ويقطع رأسه ويصلبها على أبواب فاس .

صحيح أنى ركزت أكثر على الجانب السلبى فى هذا الغرض الا أن هناك وجها مشرفا من تاريخ هذه الدويلات لقد قدمت هذه الدويلات للاسلام وللحضارة الاسلامية حركة علمية وثقافية وحضارية وعمرانية شهد بها الأعداء قبل الأصدقاء فلقد تطورت النهضة الاسلامية وأبدع علماء الاسلام فى كل حقل من حقول العلم والنهضة الفكرية والثقافية وابدع طلاب العلم وصارت مدن فاس ومراكش وتلمسان والقيروان وسبتة واغمات وسلجماسة ووهران وطرابلس مدنا علمية تشد اليها الرحال طلبا للعلم والاستزادة من الأبحاث التى يقدمها الأساتذة وبذل السلاطين جهودا مشكورة فى انشاء المساجد والمدارس العلمية والمدارس العليا المتخصصة ووفروا الامكانيات تحت تصرف الأساتذة والطلاب وقدم لهم السكن والاقامة والمنح والعطايا وضمت مجالس السلاطين صفوة رجال العلم والفكر والثقافة وكانت المناظرات ومن هنا قدمت القيروان وتونس وتلمسان وفاس وغيرها من مدن المغرب الأدنى والأوسط والأقصى عطاء فكريا وعلميا لا يزال حتى يومنا هذا يشهد بعظمة هذه الدول فى هذه المجالات المختلفة .

لكن العطاء قد يكون أكثر خصبا ونماءا فى حالة الوحدة والتعاون نحو وجهة واحدة ومعرفة الهدف البعيد والاحاطة بما يدور من أحداث وتحرشات أودت بالأندلس ذلك الفردوس المفقود فى ظل قيام هذه الدويلات .

وذلك ما تم التوصل اليه فى تلك الدراسة .

تم بحمد الله

* * * *

المصادر والمراجع

أولا – المصادر :

١ – الادريسى : محمد بن عبد العزيز الشريف : المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس . لندن ، ١٩٨٦ م .

٢ – ابن الأحمر : أبو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين فى دولة بنى مرين : الرباط، ١٩٦٢ م .

٣ – البكرى : عبد الله بن عبد العزيز : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب : دى سلان ، الجزائر ، ١٩١١ م .

٤ – التيجانى : أبو محمد عبد الله بن محمد : رحلة التيجانى ، نشرة حسن حسنى عبد الوهاب : تونس ، ١٩٥٨ م .

٥ – ابن الخطيب : لسان الدين : أعمال الاعلام . جزء المغرب وصقلية ، نشرة أحمد مختار العبادى ، الدار البيضاء ، ١٩٦٤ م .

٦ – ابن الخطيب : لسان الدين : الاحاطة بأخبار غرناطة . تحقيق محمد عبد الله عنان . القاهرة ، ١٩٦٥ م .

٧ – ابن خلدون : المقدمة . بيروت . ١٩٧٨ م .

٨ – ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد : العبر وديوان المبتدأ والخبر فى أيام العرب والعجم . القاهرة ، ١٩٨٤ م .

٩ – ابن خلدون : أبو زكريا يحيى . بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد – الجزائر – ١٩٠٣ م .

١٠ – ابن أبى دينار : محمد بن أبى القاسم القيروانى . المؤنس فى أخبار أفريقية . تونس ، ١٢٨٦ هـ .

١١ – الجزنائى : أبو الحسن على : زهرة الأس فى بناء مدينة فاس – الجزائر – ١٩٢٣ م .

١٢ – ابن أبى زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار تاريخ المغرب وتاريخ مدينة فاس – ١٨٤٢ م .

١٣ – الدباغ : عبد الرحمن بن محمد : معالم الايمان فى معرفة أهل القيروان . تونس ، ١٣٢٠ هـ .

١٤ – الرقيق القيروانى : تاريخ أفريقية والمغرب . تونس ، ١٩٦٨ م .

١٥ – ابن عذارى المراكشى : البيان المغرب . قطوان ، ١٩٦٣ م .

١٦ – الزركشى : أبو عبد الله محمد بن ابراهيم : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تحقيق محمد ماضور – تونس – ١٩٦٦م .

١٧ – ابن القاضى : احمد بن محمد بن احمد ، جذوه الاقتباس فيمن حل من الاعلام بمدينة فاس . د . ت .

١٨ – السلاوى : أبو العباس أحمد الناصر : الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى : القاهرة ، ١٩٥٤ م .

١٩ – ابن القنفد : أبو العباس احمد بن الخطيب : الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية – تونس – ١٩٦٨ م .

٢٠ – القلقشندى : أحمد بن على : صبح الأعشى فى صناعة الانشا : القاهرة ، ١٩٦٣م .

٢١ – المالكى : أبو بكر عبد الله : رياض النفوس فى طبقات علماء القيروان وأفريقية . نشرة حسين مؤنس ، القاهرة ، ١٩٥١ م .

٢٢ – موسى أبو يوسف : أبو حمو بن زيان العبد الوادى واسطة السلوك فى سياسة الملوك – ١٢٧٩ م .

٢٣ – مؤلف مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية . الجزائر ، ١٩٢٠م.

٢٤ – مؤلف مجهول : مفاخر البربر ، نشرة ليفى بروفيسال – الرباط – ١٩٣٤ م .

٢٥ – النويرى : شهاب الدين بن عبد الوهاب : نهاية الأرب فى فنون الأدب . القاهرة – ١٩٥٤ م .

٢٦ – مؤلف مجهول : نبذة العصر فى أخبار ملوك بنى مضر . تحقيق الفريد البستانى– المغرب – ١٩٤٠ م .

ثانيا : المراجع :

١ – ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ – الدار البيضاء – ١٩٦٥ م .

٢ – ابراهيم احمد العدوى : المجتمع المغربى – القاهرة – ١٩٦٤ م .

٣ – ابراهيم احمد العدوى : مصر الاسلامية – القاهرة – ١٩٧٥ م .

٤ – ابراهيم بيضون : الدولة العربية فى أسبانيا – بيروت – ١٩٨٥ م .

٥ – ابراهيم على طرخان : دولة مالى الاسلامية – القاهرة – ١٩٧٣ م .

٦ – ابراهيم على طرخان : امبراطورية البرتو الاسلامية – القاهرة – ١٩٧٥ م .

٧ – أحمد الزواوى : تاريخ الفتح العربى فى ليبيا – القاهرة – ١٩٥٤ م .

٨ -- أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس – الاسكندرية – ١٩٦٨ م .

٩ -- احمد محمد كانى : الجهاد الاسلامى فى غرب أفريقيا – القاهرة – ١٩٨٧ م.

١٠ – احسان عباس : تاريخ ليبيا من الفتح العربى حتى مطلع القرن التاسع الهجرى– بيروت – ١٩٦٧ م .

١١ – الحبيب الجنحاجى : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الاسلامية فى المغرب العربى – تونس – ١٩٦٨ م .

١٢ – زاهر رياض : استعمار افريقية – القاهرة – ١٩٦٥ م .

١٣ – زاهر رياض : شمال افريقية فى العصور الوسطى – القاهرة – ١٩٨١ م .

١٤ – زاهر رياض : الممالك الاسلامية فى غرب افريقية – القاهرة – ١٩٦٨ م .

١٥ – الحسن الوزان : ليو الأفريقى : وصف أفريقية ، ترجمة – عبد الرحمن حميده– الرياض – ١٣٩٩ م .

١٦ – جمال حمدان : العالم الاسلامى المعاصر – القاهرة – ١٩٧١ م .

١٧ – حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين -- القاهرة -- ١٩٥٦ م .

١٨ – حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى أفريقية – القاهرة – ١٩٦٣م .

١٩ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والأندلس -- القاهرة -- ١٩٨٠ م .

٢٠ – حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب -- القاهرة -- ١٩٤٧ م .

٢١ – حسن حسنى عبد الوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية – تونس – ١٩٧٢ م .

٢٢ – حسن على حسن : دراسات فى تاريخ المغرب العربى – القاهرة – ١٧٩٩ م .

٢٣ – حسن ابراهيم حسن : انتشار الاسلام فى القارة الأفريقية – القاهرة – ١٩٨٤م

٢٤ – سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربى – القاهرة – ١٩٦٥ م .

٢٥ – صلاح العقاد : المغرب العربى : ١٩٦٩ م .

٢٦ – عبد العزيز السيد سالم : المغرب الكبير – القاهرة – ١٩٦١ م .

٢٧ – عبد العزيز السيد سالم : تاريخ البحرية الاسلامية فى المغرب والأندلس – بيروت – ١٩٦٩ م .

٢٨ – عبد الرحمن على حجى : التاريخ الاسلامى للاندلس من الفتح حتى سقوط غرناطة – القاهرة – ١٩٨٣ م .

٢٩ – عبد العزيز بن عبد الله : معطيات الحضارة المغربية – المغرب – ١٩٥٧ م .

٣٠ – عبد القادر الصحراوى : جولات فى تاريخ المغرب : الدار البيضاء – ١٩٦١ م.

٣١ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والثقافة العربية فى أوربا – القاهرة – ١٩٧٩ م .

٣٢ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : الاسلام والعروبة فى السودان – القاهرة – ١٩٨٦م .

٣٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : حركة المد الاسلامى فى غرب أفريقية – القاهرة – ١٩٨٥ م .

٣٤ - عبد الله على علام : الدولة الموحدية بالمغرب - القاهرة - ١٩٧١ م .

٣٥ - عبد الله جنون : مدخل الى تاريخ المغرب - الدار البيضاء ، د . ت .

٣٦ - عبد الوهاب منصور : قبائل المغرب - الرباط - ١٩٧٠ م .

٣٧ - عبد الرحمن الجيلالى : تاريخ الجزائر العام - الجزائر - ١٩٥٥ م .

٣٨ - عز الدين احمد موسى : النشاط الاقتصادى فى المغرب الاسلامى - القاهرة - ١٩٨٣ م .

٣٩ - محمد عبد الله عنان : عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس - القاهرة - ١٩٦٤ م .

٤٠ - محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير - القاهرة - ١٩٦٤ م .

٤١ - محمد عبد السلام بن عبود : تاريخ المغرب - تطوان - ١٩٥١ م .

٤٢ - محمد عوض محمد : الشعوب والسلالات الأفريقية - القاهرة ، د . ت .

٤٣ - مراجع عقيلة الغنامى : قيام دولة الموحدين - بنغازى - ١٩٧٠ م .

٤٤ - الميلى : مبارك بن محمد الهلالى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث - الجزائر ، د . ت .

٤٥ - مصطفى أبو ضيف أحمد : أثر العرب فى تاريخ المغرب - الاسكندرية - ١٩٨٣ م .

٤٦ - محمد محمد أمين : العلاقات العربية الأفريقية (فضل) - القاهرة - جامعة الدول العربية - ١٩٧٨ م .

٤٧ - يسرى الجوهرى : افريقية الاسلامية - القاهرة - ١٩٨٠ م .

٤٨ – ارنولد ، توماس : الدعوة الى الاسلام . ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرين . القاهرة ، ١٩٧٠ م .

٤٩ – أوليفر ، رولاند ، جون فج : موجز تاريخ افريقية .ترجمة دولت صادق – القاهرة – ١٩٦٥ م .

٥٠ – جوليان ، شارل اندريه : تاريخ افريقية . ترجمة طلعت عوض اباظة – القاهرة – ١٩٦٨ م .

٥١ – ستودارد الوثروب : حاضر العالم الاسلامى . ترجمة وتعليق شكيب ارسلان – بيروت ، د . ت .

٥٢ – لاند ، روم : تاريخ المغرب . ترجمة نقولا زيادة – بيروت – ١٩٨٣ م .

ثالثا : رسائل جامعية :

١ – زين العابدين السراج : دولة الكانم الاسلامية . رسالة ماجستير – آداب القاهرة – ١٩٧٥ م .

٢ – طاهر راغب حسين : الدولة الحفصية . رسالة ماجستير – دار العلوم .

٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة البرنو الاسلامية . رسالة ماجستير – جامعة القاهرة – ١٩٨٣ م .

٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية . رسالة دكتوراه – جامعة القاهرة – ١٩٧٥ م .

٥ – عبد المرضى محمد عطوة زايد : دولة بنى زيان بالمغرب . ماجستير – دار العلوم – جامعة القاهرة – ١٩٨٢ م .

٦ – محمد عيسى صابر سليم : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة بنى مرين بالمغرب . رسالة دكتوراه دار العلوم – ١٩٧٩ م .

المراجـع الأجـنبيـة

1 - Barth, H. : Travels and discoveries in North and Central Africa, London, 1875.

2 - Baulin, J. : The Arab role in Africa, London, 1962.

3 - Baur T. : West Africa trade, Cambridge, 1950.

4 - Brunschrig, W. : La Berberie orientale sous les Hafsides, Paris.

5 - Cooley, W.P.: The Negro Land of the Arabs, London, 1940 - 1947.

6 - Despois, T.V.: Afrique du Nord, Paris, 1964.

7 - Doutte, E.F.: Notes sur l'Islam Maghribin, Paris, 1960.

8 - Dozy, L.R.: Recherches sur l'histoire d'Espagne, Amsterdam.

9 - Gautier, E.F.: Notes sur l'Islam Mag, du Nord, Paris, 1927 - 1965.

10 - Gautier, E.F.: Le passe d'Afrique du Nord, Papot, 1940.

11 - Hopkins, J.P.: Medieval Muslim government in Barbary, London, 1948.

12 - Levi-provenciel, E.: Histoire d'Espagne Musulmane, Paris, 1960.

13 - Marcais, G.: Les Arabes en Berberie, Paris, 1930.

14- Marcais, G.: La Barberie Muslmane et l'Orient au Moyen Age, Paris, 1942.

15 - Mussignon, L.: Le Maroc dans les premières années du XVI siècles, Aleg, 1906.

16 - Hamet, L.: La Civilisation arabes en Afrique, Paris, 1911.

17 - Julein, A.: Histoire de l'Afrique du Nord, Paris, 1931.

18 - Scolt, S.P.: History of the Morish Empire in Europe, London, 1940.

19 - Terasse, H. : Histoire du Maroc des origines, Casablance, 1949 - 1954.

20 - Warmington, B. : The North African provences, Cambridge.

21 - Westerman, D. : Les peuples et les civilisation de l'Afrique, Paris, 1949.

22 - Piquet, V. : Les civilisations de l'Afrique du Nord, Paris, 1956.

23 - Kjein, J. : La Tunisie, Paris, 1960.

24 - Antichan, P.H.: La Tunisie son passe et son avenir, 1824.

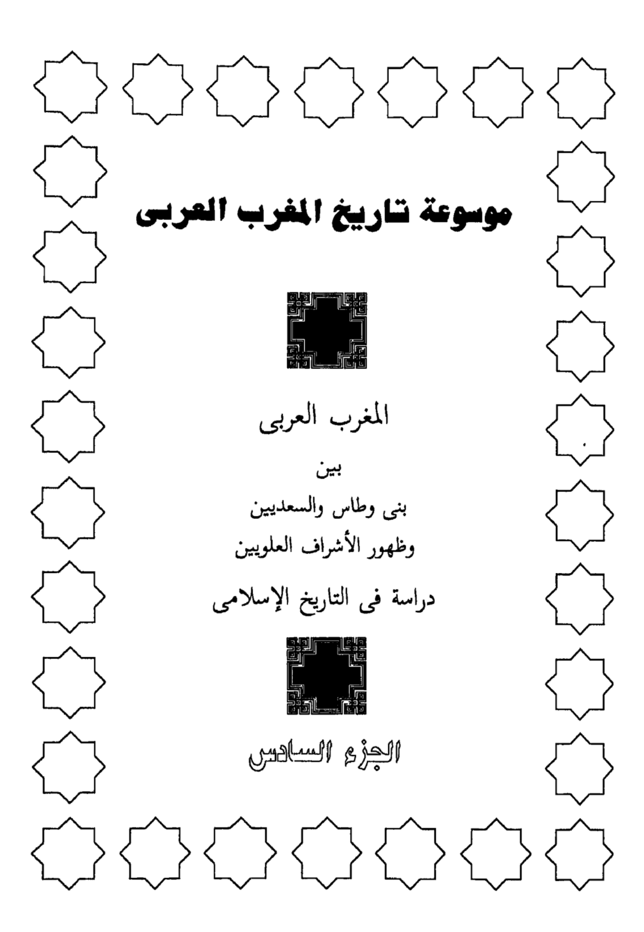
25 - Martin, St. : Le Nord de l'Afrique dans l'Antique, Paris, 1863.

* * * *

الفهـــرس

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــوع	الصفحة



موسوعة تاريخ المغرب العربى

المغرب العربى

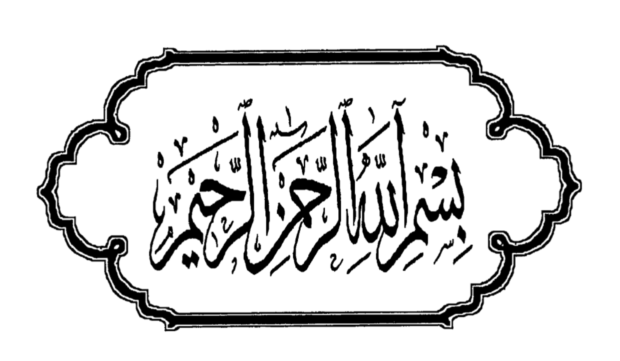
بين

بنى وطاس والسعديين

وظهور الأشراف العلويين

دراسة فى التاريخ الإسلامى

الجزء السادس


بسم الله الرحمن الرحيم

الاهداء

إلى زوجتى

منة الله... وهبة السماء وعطاء القدر ونعمة الأيام ، بداية البداية ونهاية النهاية... مسك الختام وعنبر المسك، فإليها الفضل كل الفضل بعد المولى عز وجل فى ظهور هذا العمل المتكامل بأجزائه الست، فكان هذا الإهداء عرفاناً بما أُتيح لى من وقت حتى كان هذا الجهد على تلك الصورة.

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمى

التمهيد

هذه سادسة الأخماس فى موسوعة المغرب العربى الإسلامى بل نهاية التتمة بعد رحلة مشوار طويل عبر تاريخ الإسلام العريق العتيد العبق بالمغرب عبر عشرة قرون زمنية طويلة، بدأت مع الفتح العربى الإسلامى وطرق الجيوش الإسلامية من صحابة رسول الله ﷺ بقيادة عمرو بن العاص عام ٢٣هـ/٦٤٣م وانتهى هذا المشوار الطويل بظهور الأسرة العلوية الشريفة النبوية الحسب والنسب لكى تكون خاتمة هذه الدراسة بأجزائها الست خاتمة طيبة ارتضت بالحسب النبوى الشريف أن يكون نهاية هذه المسيرة عبر أغوار التاريخ ذلك لان العمل العلمى المضنى والبحث الطويل والذى بذل طوال عشر سنوات أو يزيد بحثا متواصلا بل تفرغا كاملا عبر العديد من المؤلفات والأبحاث والمكتبات والمراسلات والدوريات وما اليها من الوسائل المختلفة التى عولت عليها كثيرا فى تلك الدراسة .

ذلك لانه لم يكن من السهل إزالة العديد من الاستفهامات التى كانت تقابل الكثير من المؤرخين والباحثين على اختلاف ما تناولوه من دراسات سابقة عن المغرب العربى ورفع اللبس عن العديد من الحقائق العلمية التى لم يتم التوصل إلى إجابة شافية لها مثل الحديث عن الأسرة الوطاسية وندرة ما كتب عنها، بل أننا لم نجد الكثير من التأكيدات التاريخية والشواهد التى تعطى هذه الأسرة حقها فى تاريخ المغرب رغم الاعتراف بأنها اضعف حلقات التاريخ المغربى الطويل، وقد يكون لاغلب المؤرخين عذرهم فى عدم الكتابة نظرا لاقتصارهم على معلومات كانت ضرورية فى تلك الدراسة بل أن هناك العديد من الحلقات الضائعة فى أبحاثهم لاسيما بعض الرسائل الأكاديمية للماجستير والدكتوراه والتى لم تكن على النحو المطلوب فى معالجة الأحداث وعدم الروابط بينها وبين الأماكن التى جرت فوقها مثل معركة القصر الكبير فى عهد عبد المالك بن محمد الشيخ ١٥٧٨م .

ومن هنا فقد بدت تلك الدراسة وكأنها سلسلة مترابطة الحلقات وهى تدفع أمامها المعلومات لكى يتصل كل فصل بالفصول التى تليه ومن هنا جاءت بهذه الصورة الواضحة، ولاشك أن بعض الصفحات فى تلك الدراسة قد تكون بها متناقضات أو صفحات معتمة التاريخ نظرا لكتابات المؤرخ المجهول عن الدولة السعدية والتى كان لابد من الأخذ بما جاء بها ولكن ليس بالصورة التى ذكرت فكان لابد من التحليل والتمحيص نظرا للتفاعلات القبلية فى حركة التاريخ المغربى المؤرخ المجهول من أنصار الأسرة الوطاسية وقد انعكس ذلك على وجود انقسامات سلبية فى حركة التاريخ المغربى نظرا لان العامل التاريخى كان يخضع لبعض الأغراض والتوقعات وأن بعضا من هذه الكتابات لم تكن بالصورة الموضوعية بحيث تستطيع أن تمسك بخيط التاريخ فى حركة زمنية يحتفظ خلالها كاتب التاريخ بثبات دورة ولا يتعدى الخط الموضوعى لكى يحتفظ بالرؤية الواضحة فكان لابد من أخذ هذا الاعتبار عند دراسة كل فترة من فترات التاريخ ذلك لان الفترة الزمنية التاريخية قد تخضع للهوى بين مؤيد ومعارض، هدام وبناء، بين مغرض ومزايد ولكن كان علينا أن تتمثل العامل التاريخى وصولا للحركة المغربية عموما .

ومن هنا فنحن نطالب قارئ التاريخ أن ينظر من منظار حضارى للصورة الإسلامية المغربية لقياس قدرة هذا البلد الإسلامى العظيم العريق فى دراسة أحداثه، ذلك لان المغرب الإسلامى بأقطاره المختلفة له خصوصية مغايرة عن غيره من الأقطار الإسلامية الأخرى فهو لا زال إلى اليوم يحمل عبق الأندلس ذلك الفردوس الإسلامى السليب الذى يتواكب مع كتابة هذا الجزء مرور خمسمائة عام على سلبه رغم محاولات المغاربة المتعددة للعودة بالإسلام اليه مرة أخرى، لكن نصر الله وفتحه قريب.

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

أول أيام عيد الفطر المبارك ١٤١٢هـ/٤ أبريل ١٩٩٢م

المقدمة

الحمد لله رب العالمين الذى له العزة والجبروت وبيده الملك والملكوت يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء بيده مقاليد الأرض والسموات والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله النبى الخاتم العربى القرشى المكتوب عندهم فى التوراة والإنجيل، وعلى آله وأصحابه واتباعه وأحفاده وذريته إلى يوم الدين.

أما بعد فهذا هو الجزء السادس من موسوعة التاريخ المغربى تتمة العمل وخاتمة المشوار الطويل نتحدث فيه عن كيفية ظهور الأسرة الوطاسية وحكمها لبلاد المغرب الأقصى وكيف انتهت هذه الأسرة من مسرح الأحداث السياسية وكيف تمهد الطريق إلى صعود الأسرة السعدية الشريفة لتقود مسيرة العمل الوطنى والجهاد الإسلامى فى أقصى ديار المغرب وكيف ارتدت عباءة الشرافة لتتولى الحكم وما هى مراحل الحكم وكيف انتهت إلى كهولة متهالكة ثم جاءت الأسرة العلوية الشريفة القرشية الهاشمية لتحمل راية العمل الإسلامى والحكم الشريف فى بلاد المغرب منذ عام ١٠٧٥ – ٤٩٢اهـ ١٦٤٦ – ١٩٩٢م .

وفى حقيقة الأمر فقد قسمت تلك الدراسة إلى ثلاثة أبواب كل باب منها يؤدى إلى الباب الذى يليه بحيث تكون تلك الدراسة وحدة متكاملة فى تاريخ المغرب فى ضوء الحركة العالمية فى القرنين الخامس عشر والسادس عشر وكيف كانت تلك الحقبة من علامات النصر المغربى جهادا إسلاميا قطع دابر المد الصليبى وانقذ القطاع الغربى للعالم الإسلامى من حركة استعمارية متعصبة حيث شهدت هذه الدراسة انصع صفحات التاريخ المغربى عبر ادواره التاريخية منذ وطئت أرضه أنوار الدعوة الإسلامية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها فقد شهدت أرض المغرب فى ٣٠ جمادى الأولى عام ٩٨٦هـ الرابع من أغسطس عام ١٥٨٧م نصرا إسلاميا مؤزرا على أرض المغرب

على كل القوى الاوربية فى معركة القصر الكبير بقيادة المجاهد الإسلامى عبد المالك ابن محمد الشيخ العربى الشريف .

ولقد كانت تفاصيل هذه الأبواب الثلاث كما يلى حيث عالجت فى الباب الأول نهاية دولة بنى مرين وظهور بنى وطاس وقسم هذا الباب إلى خمسة فصول كان الفصل الأول عن بنى وطاس على مسرح الأحداث السياسية بالمغرب الأقصى ومن حكم من هذه الأسرة بدءا من محمد الشيخ مؤسس الأسرة. وامتدادا إلى ابنه أبو عبد الله محمد الشيخ ثم إلى أحمد الوطاس ثم إلى يوحسون الوطاس آخر سلاطين الأسرة وفى حقيقة الأمر لقد لاقيت صعوبة جمة فى تحديد فترات حكم كل منهم وفى تباين وتداخل فترة حكم كل منهم نظرا لان الذين كتبوا عن هذه الأسرة التى دام حكمها ثمانين عاما لم يزيلوا الغموض الذى أحاط بفترة حكمها فكان على أن اقدم ما قدرت عليه من عمل .

ثم الفصل الثانى عن الاتراك العثمانيين وظهورهم فى المغرب وسيطرتهم على بلاد الجزائر وتونس وطرابلس ومقاومتهم للاستعمار الابيرى البرتغالى الأسبانى وطردهم له من كل هذه الديار وتطلعهم إلى السيطرة على بلاد المغرب الأقصى وإعادة فتح الأندلس .

وكان الفصل الثالث عن الاستعمار الابيرى لبلاد المغرب وكيف انتقل الصراع مع منتصف القرن الخامس عشر الميلادى إلى سواحل المغرب والسيطرة البرتغالية الأسبانية على موانى المغرب الأقصى وموقف بنى وطاس المتخاذل من قوى الاستعمار .

ثم كان الفصل الرابع عن الطريقة الصوفية ودورها فى إذكاء روح الجهاد الإسلامى ومحاولة رد الاعتبار للوطن السليب ورفع الروح الإسلامية لطرد الغزاة وموقف بنى وطاس من التيار الإسلامى المجاهد .

ثم كان الفصل الخامس وهو نهاية الباب الأول عن القاء نظرة أخيرة على محاولة الأسرة الوطاسية العودة لحكم المغرب الأقصى بمساندة الاتراك وعودة يوحسون الوطاسى وحكمه البلاد ستة شهور ثم قضاء السعديين على حكمه .

ثم يأتى بعد ذلك الباب الثانى فى هذه الدراسة هو عن الأشراف السعديين وظهورهم ككيان سياسى على مسرح الأحداث بالمغرب وقد قسمت هذا الباب إلى تسعة فصول متصلة كل فصل يعالج موضوعا متصلا بما سبقه من فصول وما يليه من فصول أخرى طبقا لتسلسل الأحداث وعرض الموضوع. وكان الفصل الأول عن الدولة السعدية بعد مؤسسها محمد القائم بأمر الله ومن تولى مقاليد الأمور من بعده أمثال احمد الاعرج، محمد الشيخ، عبد الله الغالب بن محمد الشيخ ومحمد المتوكل بن الغالب ودور كل منهم فى حكم المغرب والأحداث التى تمت فى خلال هذه الحقبة التاريخية فى المغرب .

ثم الفصل الثانى عن أمير المؤمنين عبد المالك بن محمد الشيخ وكيف اضطلع بمقاليد الأمور والصراع بينه وبين ابن أخيه محمد المتوكل وكيف استطاع أن يستولى على الحكم بمساعدة الأتراك .

ثم كان الفصل الثالث عن معركة القصر الكبير عام ٩٨٦هـ/١٥٧٨م وماحققته المغرب من انتصارات كبيرة حقق لها دورا بطوليا رائدا فى الدفاع عن حياض الإسلام وديار المسلمين .

وبعده كان الفصل الرابع وهو عن احمد المنصور السعدى الذهبى وقد شهدت البلاد أزهى عصورها وأعظم إنجازاتها وكيف لعبت دورا كبيرا فى المجال العالمى وكيف راودته فكرة العودة بالإسلام إلى دياره بالأندلس .

ثم الفصل الخامس عن احمد المنصور الذهبى وفتح بلاد السودان الغربى (فتح سنغاى) وكيف تم تكوين الوحدة الإسلامية فيما وراء الصحراء الكبرى وظهور كيان إسلامى قوى استمر فى حكم هذه البلاد منذ عام ١٥٩٠ إلى ١٧٦٠م .

والفصل السادس عن الدولة السعدية بعد حكم احمد المنصور وكيف كان الصراع بين أبناء المنصور وأحفاده من أجل السيطرة على الحكم سببا فى تمزق البلاد وقيام كيانات صغيرة مستقلة تتصارع من أجل توسع دائرة كل منها على حساب الأخرى وازدياد حدة المطامع الأجنبية والتنازلات عن الأرض والعرض والدار. وما ترتب عليه من أحداث وبعده كان الفصل السابع عن أحوال المغرب فى عهد الأشراف السعديين وكيف حققت البلاد خطوات واسعة فى مختلف المجالات والاصعدة والانتقال إلى العصور الحديثة وما تم إنجازه فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى وتطور الجيش والأسطول والشرطة وأثر الحضارة الثقافية التى طبع بها البلاد العصر السعدى وكيف أن هذا العصر يعتبر نقلة حضارية للمغرب وبصفة خاصة عصر أحمد المنصور الذهبى الذى دام أكثر من ربع قرن .

وجاء الدور على الفصل الثامن وهو قبل الأخير فى هذه الفصول ليكون عن السعديين وعلاقاتهم بالقوة المعاصرة وكانت العلاقات السعدية التركية والسعدية الإنجليزية والسعدية البرتغالية والسعدية الأسبانية ثم الفرنسية والهولندية لكنها تسير فى نسق واحد وهو الحفاظ على وحدة المغرب واستقلاله والتبادل التجارى والاقتصادى مع محاولة الدخول فى معاهدات بما يحفظ للمغرب دوره، لكن كانت هناك نقط ضعف كثيرة من الجانب المغربى لم يحاول أن يستغلها أو يملأ فراغها والإستفادة منها لتحقيق أهدافه الكبرى فى أنهاء الجيوب الاستعمارية من فوق أرضه .

ثم تتمة الباب الثانى وهو الفصل التاسع والأخير فى هذا الباب عن انهيار الدولة

السعدية وسقوطها وكيف أن عوامل الضعف والانهيار أنشبت أظافرها فى كل الجسد السعدى فانها كسابق عهد الدول السابقة لم تستطع أن تحرك ساكنا إزاء قوة الدفع القوية المنطلقة إلى بناء كيان إسلامى قوى فكان الباب الثالث والأخير فى هذه الأبواب الثلاث صلب الدراسة وهو عن الأشراف العلويين حكام المغرب الأقصى ودورهم فى قيام حركة الإصلاح الدينى فى المغرب وتحرير البلاد وإعادة وحدتها والقضاء على كل الولايات والإمارات الصغيرة وصهرها من جديد فى كيان قوى واحد وتطلع قادة الأسرة العلوية إلى بناء المغرب الكبير وكيف كان تطلعهم إلى المغرب الأوسط (الجزائر) ليكون نقطة انطلاق للمغرب الأقصى وكيف أن الاتراك تقاربوا مع العلويين باسم الإسلام والدين وكيفية تطلعهم إلى هذه الديار وكيف شهد المغرب عصرا قويا فى عهد المستنصر بالله أبى النصر إسماعيل بن الشريف بن على (١٠٨٢ - ١١٣٠هـ / ١٦٨٢ - ١٧٢٧م) وكيف طرد الإنجليز من طنجة عام ١٦٨٤م وكيف أن هذه الأسرة لازالت تحكم باسم الإسلام وشريعة القرآن وذيلت هذا الباب بالنسب الشريف للملك الحسن الثانى ملك المغرب منذ على بن أبى طالب رضى الله عنه وأرضاه وصولا بذلك النسب إلى الحسن الثانى ملك المغرب الحالى (١٩٩٢) .

ثم كانت خاتمة البحث وهى خلاصة ما توصلت اليه من نتائج فى هذه الدراسة وتلاها خاتمة بالمصادر والمراجع العربية والأجنبية والرسائل العلمية الأكاديمية التى عول عليها فى هذه الدراسة حتى كانت على هذه الصورة .

والله نسأل أن أكون قد سددت فراغا وأضفت جديدا علما بأن الكمال لله وحده والله من وراء القصد .

دكتور

عبد الفتاح مقلد الغنيمي

أول أيام عيد الفطر المبارك ١٤١٢هـ/١٤ أبريل ١٩٩٢م

الباب الأول

نهاية بنى مرين وظهور بنى وطاس

بوفاة السلطان أبى عنان المرينى فى عام ٧٥٩هـ/١٣٥٨م استبد بأمور الدولة الوزراء ومع حلول النصف الثانى من القرن الثامن الهجرى تمزقت الدولة المرينية بين الأمراء المتنافسين على السلطة بين فاس ومراكش وأصبح الصراع يدور بين العاصمتين فاس ومراكش إلى أن تمكن أبو العباس أحمد المرينى من الاستيلاء على مراكش فى أواخر فترة حكمه فى عام ٧٨٤هـ/١٣٨٢م ووحد المغرب غير أن هذه الوحدة لم تدم طويلا وفى عهد آخر سلاطين بنى مرين السلطان عبد الحق بن أبى سعيد ابن أبى العباس ٨٢٣ – ٨٦٩هـ/١٤٢٠ – ١٤٦٥م ضعف أمر بنى مرين وانتقلت السلطة إلى الوزراء والحجاب وصار للحجاب نفوذ أقوى من الوزراء حتى أصبح الحجاب فى أيديهم جميع الخيوط والوظائف السلطانية وأصبح الحاجب هو صمام الأمن والأمان للسلطان الجالس على العرش ولم يكن باستطاعة السلطان المرينى مواجهة الأحداث .

وكان السلطان أبو سعيد والد عبد الحق قد توفى عام ٨١٨هـ/١٤١٥م وخلفه أخوه عبد الله المعروف سيدى عبو، وثارت العامة عليه فى فاس واعتورته رماحهم وسهامهم حتى قتل ولما قتل تنازع أمر السلطنة بعده اثنان من إخوته وبعد قتال شديد لم يستطيع أحد منهما أن ينتصر على صاحبه، اتفق أهل الحل والعقد ومن يؤخذ برايهم من العلماء وكبار رجال الدولة على مبايعة عبد الحق بن أبى سعيد عثمان وهو آخر سلاطين بنى مرين فى حكم المغرب وأطولهم مدة وفى أيامه ضعف أمر السلطنة وتداعت للإنحلال وأحدقت بها المخاطر من كل جانب وأصبحت البلاد مطمعا للاتراك العثمانيين والفرنجة الأسبان والبرتغاليين وأمسك بزمام الحكم الوزراء والحجاب ولم يكن لعبد الحق أدنى سلطة أو اتخاذ قرار ينفرد فى الدولة إلى حكمها كآبائه وأجداده

من قبل، وفى عهد عبد الحق هذا زاد استبداد الوزراء وطرأ على منصب الوزير شئ من التعديل لخطورة وضعه وجمعه السلطة الكلية للقصر فى يديه وأصبح للوزير مهام الحاجب وأصبح يطلق على الوزير اسم الحاجب وعلى الحاجب اسم الوزير وقد تولى منصب الوزارة بهذا المعنى والوضع القوى والمتحكم فى مقاليد القصر السلطانى مجموعة من أبناء البيت الوطاسى ومنهم يحيى بن زيان الوطاسى وكان لهذا الوزير الفضل الكبير فى القضاء على تمرد عرب الشاوية وكان الوزير هذا قد قام بغزوهم فى ديارهم لتمردهم على سلطان البلاد وتزايد ضررهم وزحفهم على احواز مكناس وفاس سالبين أهلها أموالهم وماشيتهم منزلين الرعب والدمار بالناس حتى اضطروا الناس إلى الرحيل جنوبا، فما كان من الوزير أبى زكريا يحيى بن زيان الوطاسى إلا أن قضى على سلطانهم وفرق شملهم وخرب منازلهم الشاوية هؤلاء بطن من بطون سويد، وسويد هى أحدى بطون بنى مالك من زغبة الهلاليين وكان نفوذهم قد زاد فى الدولة المرينية واستبدوا بكثير من الأمور، لكن الوزير الوطاسى هذا قد أغتيل غدرا بين عرب انكاد فى عام ١٤٤٨/٨٥٢م .

وبعد قتله آلت أمور الوزارة فى فاس لعلى بن يوسف الوطاسى ويحيى بن يحيى ابن زيان الوطاسى وكان تولى هذا الوزير للوزارة بداية نذر شؤم على أسرته وعلى الدولة المرينية إذ أخذ يغير كثيرا من معالم الحكم فى الدولة المرينية. وذلك لانه استقل بالحجابة وأخذ فى تغيير مراسم السلطنة وعوائد الدولة ولم يعد للسلطان عبد الحق أدنى أهمية لانه أنقص فى عدد قوات الجند التى كانت تعتمد عليه الدولة ودخل فى عداء مكشوف مع أقارب السلطان من البيت المرينى ونقض كل ما أبرم من معاهدات وإتفاقيات قبل توليه الوزارة ولم يعد مسؤلا عن تنفيذ أدنى بند من بنود هذه الإتفاقيات وحمل مسؤلياتها على الوزراء الذين سلفوه فى هذا المنصب وعامل الرعية بالعسف

والشدة وتدخل فى كل كبيرة وصغيرة فى البلاد ومنها تدخله فى أمر القضاء الذى كان مستقلا عن شئون الوزارة ويتبع مباشرة السلطان المرينى واختلف فى أمور فقهية وقضائية مع قاضى قضاة فاس الفقيه أبى عبد الله محمد بن عيسى المصمودى الذى كان يريد أن يطوعه لأهدافه فلما قضى بعزله من منصب القضاة وجاء بقاضى من قبله ينصاع لما يريده الوزير الوطاسى وهو الفقيه يعقوب التسولى وكان القاضى السابق المصمودى من الذين يشهد لهم بالعدل والنزاهة والقوة فى الحق، لكن إزاء كل هذه التصرفات التى كان يقوم بها يحيى بن يحيى الوطاسى كانت تصل مسمع السلطان عبد الحق الذى كان يدبر فى الخفاء أمرا للتخلص من كل ما هو وطاسى بعد أن أفزعته هذه التصرفات وجرحت وضعه السلطانى بين أفراد الأسرة المرينية الذين كانوا يتوجسون خيفة من مطمع بنى وطاس فى ملك بنى مرين وتولى حكم المغرب بدلا منهم غير أنهم ليسوا من بنى عبد الحق وكان مما ضاعف من مخاوف الأسرة المرينية والسلطان عبد الحق بن أبى سعيد بصفة خاصة أن جميع أفراد الأسرة الوطاسية كانوا يؤيدون الوزير يحيى بن يحيى الوطاسى فى جميع الخطوات التى كان يتخذها للحد من سلطة السلطان وتدعيم وضع الأسرة الوطاسية وشعر السلطان وأفراد البيت المرينى أن بنى وطاس بالتقافهم حول الوزير يحيى كادوا أن يغلبوه على أمر السلطنة وشئون الحكم فاتخذ من جانبه قرارا بالقبض عليهم والتنكيل بهم ونكل بهم وقبض على كل من تدور حوله شبهة من بنى وطاس وكان منهم الوزير يحيى بن يحيى وإخوته أبو بكر وأبو شامة وعلى وعمهم فارس بن زيان وقريبهم محمد بن على بن يوسف وذبحهم جميعا ويذكر السلاوى فى أخبار هذه المذبحة التى أوقع بها السلطان عبد الحق المرينى ببنى وطاس أنه لم ينج منها إلا إثنان من أفراد الأسرة الوطاسية هما محمد الشيخ (مؤسس الأسرة الوطاسية فيها بعد) ومحمد الحلو حيث لم تصبهما النكبة وكان محمد الشيخ الوطاسى قد خرج للصيد فاتصل به الخبر قبل أن يصل إلى فاس عائدا من صيده

فذهب على وجهه لا يلوى على شئ، أما محمد الحلو الآخر فقد إختفى بعيدا عن العيون حتى إذا سكنت العاصفة تسلل ولحق بمحمد الشيخ فسارا جنوبا إلى جهة الصحراء وجعلا يترددان فيما بينها وبين البلاد الهبطية (بلاد الهبط المغربية) حتى ملكا أصيلا وخضعت لهما قبل استيلاء البرتغال عليها فى العهد المرينى .

وبعد مذبحة بنى وطاس ظل منصب الوزارة شاغرا لا يقبل على تولية أحد خوفا من بطش السلطان وكذلك تخوف السلطان عبد الحق من ظهور نفوذ الوزراء وسطوتهم فى الحكم بعد ذلك واستبدادهم بأمور السلطنة دونه كذلك فان ما قام به عبد الحق المرينى من مذبحة بشعة لبنى وطاس لم يلق قبولا من قبل الشعب المغربى عامته وخاصته وجميع طوائف الشعب وكان ذلك يصل إلى مسامعه وأنهم نقموا على سلطانهم لإيقاعه بالوطاسيين وأن أنظار الشعب المغربى تعطى آذانا صاغية إلى محمد الشيخ الوطاسى وابن عمه محمد الحلو اللذين يحكمان أصيلا، لذا اضطرم حقد السلطان عبد الحق على رعيته بعد أن رفض الكثير من رجال البلاط تولى أمر الوزارة تحسبا للأحداث المستقبلية وخوفا من أن تصل الأمور بهم إلى ما وصل اليه بنو وطاس ولما لم يجد يدا من ذلك ونكاية فى رعيته التى أبدت تعاطفا شديدا مع بنى وطاس قام بتعين إثنين من اليهود فى منصب الوزارة والحجابة فكان هارون الوزير اليهودى وشاويل حاجب السلطان وكان هذا التصرف الأحمق غير الملتزم بالشريعة الإسلامية ونصوصها قد أثار سخط كافة طوائف الشعب المغربى لا سيما رجال القضاء والفقه ورجال الدين والعلماء وأصحاب الحرف المهنية وعلية القوم ونقم عليه الكثير من أبناء البيت المرينى الذين رأوا فى تعيين الوزير هارون، والحاجب شاويل إهانة لكرامة المسلمين لأنه تصرف بمس الشعور الدينى ويجرح كرامة الوطن المغربى ومن هنا فقد عبد الحق كل تأيد شعبى له بين عامة شعبه وخاصته لاسيما أنه كانت هناك قلة من عليه القوم ترى فى

استبداد الوزير الوطاسى يحيى بن يحيى ومحاولته التفكير فى الانفراد بالحكم والسلطة دون السلطان مبررا للمذبحة التى قام بها السلطان عبد الحق، لكن مما زاد فى حنق الشعب المغربى وحقده وسخطه على سلطان بلاده أن الوزير اليهودى هارون أظهر من الشدة والعسف والبطش وسوء المعاملة والضرب والمصادرة وعدم احترام المشاعر الإسلامية والتصرف الأحمق وتحكمه فى أمور المدينة وسيطرة اليهود على جمع مقاليد الأمور وإهدار كرامة الانسان لاسيما النساء من آل بيت الشرافة العلوية الإدريسية، وساد البلاد حالة من التذمر التى نجمت عن الإجراءات المالية الجديدة التى سنها السلطان عبد الحق ووزيره اليهودى هارون والتى مست بشدة مجتمع الأشراف فى فاس وكان هذا اليهودى يخرج فى زى الملوك ويخدمه المسلمون ويحكم بين أهل الإسلام فى شكاياتهم ويأمر وينهى ويصفد بالحديد ويقتل ويضرب وهذا من أكبر مصائب الدهر التى وصلت بالبلاد المغربية من قبل تصرف سلطان أحمق لا يقيم وزنا للقيم الإسلامية التى ينتمى اليها، بل أكثر من ذلك أن هارون وشاويل تحكما فى الأشراف والفقهاء ومن دونهم من الرعية وكان اليهودى هارون قد ولى على شرطته رجلا يقال له الحسين وأمره بأن يستخدم كل وسائل العنف والشدة وجميع وسائل التعذيب واستيلاء الأموال بآية طريقة وفى عهد هذين الوزيرين (هارون) والحاجب شاويل وصلت الدولة المرينية إلى درجة كبيرة من الضعف والانحلال والتفكك ولم يستطيع السلطان عبد الحق الذى فقد هيبته وسمعته بين رعيته وضعف قوته العسكرية أن يدافع عن طنجة التى هاجمها الأسبان بقوة صغيرة واستولوا عليها عام ٨٦٩هـ/١٤٦٤م .

وإقتربت نهاية السلطان ومعه نهاية الدولة ومن عينهم فى الوزارة والحجابة، ذلك لأن الوزير اليهودى كان قد أصدر أمره بالقبض على امرأة شريفة من الأشراف الحسنيين فى احدى أحياء مدينة فاس وأثقل عليها بالضرب الشديد بل أوسعها ضربا

وزاد عليها فى المهانة شدة الأسواط فجعلت تتوسل اليه بالرسول محمد ﷺ لكن اليهودى لما سمع اسم رسول الله ﷺ زاد فى ضربها وبالغ فى عقابها (السلاوى) وانتشر الخبر فى المدينة وأسرع كبار القوم بالذهاب بها إلى خطيب مسجد القرويين الفقيه أبى فارس عبد العزيز بن موسى الورياكلى وكانت له صلابة شديدة فى الحق وشرح له المجتمعون تحكم اليهود فى رقاب المسلمين واتفق الجميع بعد أن تعاهدوا على كتاب الله مع الشيخ الورياكلى على التخلص من السلطان والفتك بالوزير اليهودى هارون جزاء فعلته وبيعة الشريف أبى عبد الله الحفيد وهو محمد بن على بن عمران الإدريسى الجوطى نسبه إلى جوطة وهى قرية على نهر سيوفى العدوة الجنوبية لم يبق منها الا آثار نزلها جدهم يحيى بن محمد بن يحيى العدام بن القاسم بن إدريس فنسب اليها وهو من بيت بنى عمران وهى فرقة من أدارسة فاس استقروا ببيت جدهم إدريس وكانت لهم السيادة الروحية على أهل المغرب (كافة) وهم من آل البيت العلوى ووافقوا على ذلك وبايعوا الشريف ودعوا له على المنابر، وهكذا اضطربت الأمور بدرجة نهائية فى المدينة المرينية فاس وتدهورت الأمور من جراء سيطرة اليهوديين على مقاليد الأمور مما اضطر شيوخ المدينة ورؤساءها إلى هذه المبايعة للشريف أبى عبد الله ضد السلطان عبد الحق فخرج الثائرون إلى فاس الجديدة وهاجموا الوزير هارون والحاجب شاويل وتم قتلهم والاستيلاء على أموالهما نكاية بما ارتكبا فى حق الإسلام والمسلمين، وعلم السلطان عبد الحق بأنباء الثورة وكان فى ذلك الوقت خارج مدينة فاس يؤدب بعض قبائل الهبط الثائرة (الزركشى، تاريخ الدولتين) فعاد إلى فاس مسرعا واضطرب حال المدينة وثار عليه الجند وأيقن بالنهاية وساروا به إلى فاس حتى إذا وصلوا اليها خرج اليه أهلها ومعهم سلطانهم الجديد الشريف أبو عبد الله الحفيد، ثم أخذت عتقه يوم الجمعة ٢٧ رمضان ٨٦٩هـ/١٤٦٥م. هذا الشريف الحفيد وكان يتولى أمر نقابة الأشراف بفاس فاستدعوه فحضر وكانت فترة حكمه منذ وفاة والده أبى سعيد عثمان ستة

وأربعين عاما وانقرضت بموته دولة بنى مرين فى المغرب، وكما سبق القول فان رؤساء فاس كانوا قد اجتمعوا إلى الفقيه الورياكلى وأجمعوا رايهم على مبايعة هذا الشريف الحفيد وكان تولى أمر نقابة الأشراف بفاس فاستدعوه فحضر وبايعوه فى العشر الأواخر من رمضان عام ٨٦٩هـ وتم أمره، وكان مقتل عبد الحق نهاية الدولة المرينية فى حكم المغرب وبداية ظهور كيان سياسى جديد ستؤول إليه مقاليد الأمور فى البلاد فى ظل الصراعات الدولية العنيفة التى كانت تعصف بالمغرب الأقصى وتقضى على إستقلاله وكيانه السياسى فى خضم الصراعات الدولية العنيفة من الشرق والشمال وكل منها يتربص بالمغرب للانقضاض عليه .

الفصل الأول

بنو وطاس على مسرح الأحداث بالمغرب الأقصى
الأمير محمد الشيخ بن أبى زكريا بن زيان الوطاسى
٨٧٦ – ٩١٠هـ/١٤٧٢ – ١٥٠٤م

بمقتل عبد الحق بن أبى سعيد المرينى عام ٨٦٩ آلت أمور فاس إلى الشريف أبى محمد عبد الله بن محمد الادريسى الذى ظل يحكم البلاد ويعاونه ابنه كوزير له وفى نفس الوقت فان بنى وطاس تمكنوا من استغلال الأحداث الجارية وقاموا بخلع الشريف أبى عبد الله عن الإمارة والإمامة فى مدينة فاس عام ٨٧٥هـ بعد حكم دام ست سنوات فى ظل الأشراف العلويين وكان الذى خلعه أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى لكن فترة حكم منصور الوطاسى هذا لم تدم الا عاما واحدا حيث انقض على الحكم محمد الشيخ بن أبى زكريا وزير عبد الحق المرينى وقائده وأعلن نفسه سلطانا على المغرب منذ عام ٨٧٦هـ/١٤٧٢م مؤسسا للأسرة الوطاسية بعد أن أخذ العرش لنفسه من ابن عمه وكان محمد الشيخ الوطاسى فى ذلك الوقت يحكم مدينة أصيلا وكان شجاعا مقداما وأحس فى نفسه بالقدرة على الاستيلاء على كرسى العرش الفاسى والعمل على تنحية الشريف أبى عبد الله عنها لاسيما وأن كلمة الناس فى المدينة لم تكن قد اتفقت بعد عليه وكان الناس يعيشون على افتراق كلمتهم بين مؤيد ومعارض فجمع محمد الشيخ جندا كثيفا وزحف إلى فاس يريد السيطرة عليها فبرز اليه الشريف بقوات والتقوا بالقرب من مدينة مكناسة ووقعت بينهما حرب عظيمة دارت الدائرة فيها على الشيخ الوطاسى فأضطر إلى العودة إلى أصيلا، لكنه عاود الكرة مرة ثانية وجمع جندا آخر وزاد فى العدد والعدة وزحف به إلى فاس العاصمة وحاصرها نحو عامين (حولين كاملين) والشريف محاصر فيها مع أرباب

دولته، لكن أثناء فترة الحصار وصلت اليه الأخبار بتقدم قوات برتغالية واستيلائها على مدينة أصيلا وعلى بيت ماله وأهله وأولاده فرفع الحصار عن فاس ورجع مسرعا إلى أصيلا يريد استعادتها من أيدى البرتغاليين وحاصرها حصارا شديدا لكنها امتنعت عليه فاضطر إلى عقد هدنة مع البرتغال لاسيما أنه لم يستطيع دخول أصيلا ولا السيطرة على قاس وعاد مسرعا إلى فاس وضيق الحصار على الشريف ومن معه فخرج فارا بنفسه وسلمها اليه فدخلها محمد الشيخ وتمت بيعته وتفرغ لقتال القبائل التى تعيش باحواز فاس وغيرها من المدن فدخلت جميعا فى طاعته ومن ثم بدا يمارس مسئولياته كأمير للبلاد هذا ما رواه السلاوى، ولكنه هو الذى يذكر بنفسه إن الذى خلع الشريف فى فاس أبو الحجاج يوسف بن منصور بن زيان الوطاسى، لكن ربما يكون ابن منصور الوطاسى كان أحد قواد محمد الشيخ الوطاسى وانه ربما كان قد دخل المدينة قبل ابن عمه محمد الشيخ ثم سلم مقاليد الأمور له وفى حقيقة الأمر فانه إذا كان الوطاسيون قد نجحوا فى القضاء على دولة الأشراف التى قادها الورياكلى وتعين أبى عبد الله الشريف الجوطى إماما وحاكمها لفاس وعزلهما له والقضاء على كيان الأشراف فى ذلك الوقت وعودة لنفوذهم المفقود أثر الهزيمة التى قام بها السلطان عبد الحق المرينى فان ذلك لم يكن الا هدنة مؤقتة لكى يتحرك الاشراف قادمين من الجنوب لكى تكون نهاية دولة بنى وطاس على أيديهم. وهكذا تصاعد دور الوطاسيين بعد أن كانوا وزراء أوصياء على أبناء عمومتهم أبناء الأسرة المرينية وهكذا ظهر المغرب الوطاسى على انقاض المغرب المرينى .

على أن المغرب لم يلبث بعد قليل أن قتل سلطانه عبد الحق المرينى فى رمضان ٨٦٩هـ مايو ١٤٦٥م وبموته انقرضت الدولة المرينية فى المغرب وقام نزاع على الملك بين الشريف الادريسى محمد بن على وبين قائد مدينة أصيلا محمد الشيخ الوطاسى

وهو ابن الوزير السابق أبى زكريا وامتد الصراع بين الطرفين سبع سنوات (١٤٦٥ – ١٤٧٢م) اضطر خلالها محمد الشيخ إلى ترك أصيلا ومحاصرة خصمه فى فاس وانتهز ملك البرتغال الفونسو الخامس هذه الفرصة وهاجم مدينة أصيلا بأسطول ضخم مكون من ٤٧٧ سفينة بها ثلاثون ألف مقاتل وذلك فى أغسطس ١٤٧١م وبعد مقاومة عنيفة تمكن من احتلال المدينة وأسرع عدد كبير من أهلها من بينهم زوجات وابن محمد الشيخ كانوا معتصمين بحصن المدينة، وعندما علم محمد الشيخ بأخبار هذه الحملة ترك جزءا من جيشه لمواصلة حصار فاس واتجه نحو أصيلة لنجدتها ولكنه ما كاد يصل إلى مدينة النصر الكبير حتى بلغته الأنباء بسقوط أصيلة ووقوع أسرته فى أسر البرتغالين. ورأى محمد الشيخ أن الاتفاق مع ملك البرتغال هو الحل الوحيد للخروج من هذه الأزمة والتفرغ لمحاربة خصمه فى فاس على الرغم من أن نصوص هذه الاتفاقية لم نصل الينا الا انه يوجد فى المدونة الخاصة بقصر الفونسو الخامس بعض شروطها وهى تنص على أن تمتد الهدنة عشرين سنة وأن يحتل البرتغاليون مدينة العرائش إلى جانب أصيلة (أصيلا) وأن يطلق سراح ابن السلطان محمد الشيخ وزوجاته

على أن ملك البرتغال رغم شروط هذه الهدنة اتجه بقواته وأساطيله نحو مدينة طنجة التى خاف سكانها أن يكون مصيرهم مثل مصير سكان أصيلة فأخذوا فى الجلاء عنها مما سهل على الجيش البرتغالى مهمة احتلالها فى أغسطس ١٤٧١/٢٩م بعد خمسة أيام من احتلال أصيلة. وكان محمد الشيخ فى ذلك الوقت منهمكا فى محاربة خصمه الشريف محمد بفاس ثم انتهى الأمر بفرار هذا الأخير إلى تونس بعد أن تخلى عنه أتباعه ودخل محمد الشيخ العاصمة فاس عام ٨٧٧هـ/١٤٧٢م مؤسسا بذلك دولة بنى وطاس .

ولقد كان الوطاسيون فرعا من بنى مرين من القبائل الزيانية وكانوا ينزلون فى ضواحى بلاد الريف حيث آلت اليهم جباية أمصاره ورعاياه وكانوا أول الأمر يحكمون بلاد المغرب الأقصى فى مدينة بنى مرين وعندما ضعف أمر بنى مرين كما سبق القول سيطر أبو زكريا يحيى بن أبى زيان الوطاسى وحاشيته على الأمير الصغير عبد الحق بن أبى سعيد بن عثمان المرينى وخلعه من الوزارة أبناؤه وعندما انتهى أمر بنى مرين عام ٨٧٥هـ/١٤٧٠م وصار السلطان الفعلى فى شمال المغرب الأقصى بيد الجماعات الصوفية أقاموا أميرا من أبناء الادارسة لكن الوطاسيين أصبحوا أصحاب السلطة الفعلية فى البلاد عام ٨٧٦هـ/١٤٧٢م .

وهكذا انتقلت مقاليد الأمور إلى دولة جديدة باسم أسرة جديدة هى الأسرة الوطاسية لكنها لم تكن تملك مقومات الأسرة القوية ولا القدرة على تجديد الدماء فى كيان الدولة لاسيما أن هناك أحداثا كثيرة فى ذلك الوقت تجرى على أرض المغرب لم تكن لتواكب حركة السير البطئ والمتهاون مع الأسرة الوطاسية والتى كانت تعتقد أن العامل الدينى والقومى القبلى والاقتصادى هو أساس بناء الدولة ومن هنا فان كل الارهاصات التى كانت تحيط بها لم تكن تقدر لهذا الكيان الهش الذى استغل ظروفا ليقيم كيانا سرعان ما تلاحقه الأحداث لكى ينذر بسقوط الإمارة الوطاسية البالية لعدم قدرتها على مواجهة الصدمات الخارجية وان كان محمد الشيخ الوطاسى قد حاول بقدر ما سمحت له امكانيات الدولة إخضاع القبائل المحيطة بفاس لاسيما أن محمد الشيخ كان قد عقد إتفاقا مع البرتغالين ولم تكن هناك دوافع إسلامية دينية وراء الحركة السياسية للاستيلاء على السلطة فى فاس وخلع الاشراف ولاسيما ان محمد الشيخ هذا مؤسس الأسرة الوطاسية طور علاقاته مع القوى الاستعمارية المحتلة لبلاده ولم يحاول ان يستغل المبرات التاريخى فى العلاقات الخارجية والذى كان الدور المرينى قد رسمه

لنفسه بالدخول فى حركة الجهاد الإسلامى ضد القوى الابييرية التى كانت تحاول كبت النفس الأخير لدولة بنى الأحمر فى غرناطة واتخذت لها مواقع على أرض المغرب ومن هنا فقد بات القضاء على الأسرة الوطاسية امرا واردا لاسيما انه لم يكن لها أدنى مضمون ترتكز عليه مثل الفاطميين والمرابطين أو الموحدين أو بنى مرين أو غيرها من الأسر التى ظهرت على أرض المغرب لكن هناك آراء تدافع عن محمد الشيخ الذى أسس الحكم الوطاسى عام ١٤٧٢م وذلك انه كان مضطرا ان يتفق مع البرتغاليين ويترك لهم أصيلا من أجل الاستيلاء على فاس فى العام التالى حيث أنه ترك أصيلة للبرتغاليين عام ١٣٧١م حيث بدأ تاريخ الدولة الوطاسية التى سيكون سقوطها على أيدى الأشراف السعديين لكن بدأ من هذا التاريخ تصاعد التوسع البرتغالى ومحاولة الوجود العثمانى التركى للرد على هذا التوسع ومحاولة السيطرة على المغرب وقد ظل الأمير الوطاسى محمد الشيخ يحكم البلاد فى ظل هذه الصراعات حتى عام ١٩١٠هـ/١٥٠٤م بعد أن حكم البلاد ما يقرب من اثنين وثلاثين عاما كانت حافلة بالأحداث والصراعات الدامية على أرض المغرب وكان على محمد الشيخ أن يكسب شرعية لحكمه فقام عام ١٤٧٢م بالدخول فى طاعة الخلافة الحفصية والدعاء للخلفاء الحفصيين وتقبل فكرة الدخول فى طاعة الخلافة الحفصية رغم ما كان يتهدد هذه الخلافة من تفكك وتدهور وفد قامت الدولة الوطاسية منذ نشأتها وهى ضعيفة وعاجزة عن حماية البلاد وصيانة الامن والدفاع عن البلاد ضد الفرنجة الأسبان والبرتغاليين المحتلين وقد أدى هذا إلى انتشار الفوضى والفتن وإلى انقسام المغرب بحيث صار بنو وطاس يحكمون فى عاصمتهم فاس وهناك العديد من الموانى المحتلة من قبل الأسبان والبرتغاليين وكذلك ظهرت فى البلاد أمارات شبه مستقلة وان كانت تخضع اسميا للدولة الوطاسية مثل أمارة شفاوتين والقصر الكبير وتطوان والتى ظهرت ككيان قوى النشأة بسبب مجاهدة المحتلين الأسبان والبرتغال الذين سيطروا على العديد من موانى

وسواحل المغرب وقد ظهرت هذه الإمارات والمدن بسبب ضعف وقيادة محمد الشيخ الوطاسى وعدم قدرته على مجابهه الخطر الذى بات يتهدد أرجاء المغرب من قبل القوى الصليبية المحتلة، وحيث قامت هذه الإمارات والمدن شبه المستقلة بدور كبير فى صد المحتلين وكسر شوكتهم .

كما أن عصر الوطاسيين قد شهد ظهور بعض الإمارات فى جنوب وشرق المغرب كأمراء هنتانة وإمارة أسرة هنتانة فى مراكش تنتمى إلى قبائل مصمودة البربرية وفقد امتد نفوذها على جنوب بلاد المغرب فى البلاد الواقعة من مراكش حيث سواحل البحر المحيط (المحيط الأطلسى)، وقد كانوا فى منافسة شديدة مع الوطاسيين من الشمال الا أنهم كانوا يخضعون ويعترفون بالولاء لحكام فاس الوطاسيين وكانت تشاركهم فى ذلك أغلب الإمارات والوحدات المستقلة بالمغرب والذين كانت عاصمتهم مراكش والذين يعترفون اسميا بالإمارة الوطاسية إلى فاس ويرسلون لها الأموال كل عام اتقاء لشرها. وكذلك إمارة دريد التى تقع فى شرق المغرب وكانت هذه الإمارة لا تزال تخضع لحكم بنى مرين الفارين من وجه الوطاسيين منذ دخولهم فاس وقد ساعد على بقاء هذه الإمارة مستقلة عن نفوذ الوطاسيين انها كانت بعيدة عن فاس العاصمة ولم تستطع قوات الوطاسيين ان تصل اليهم وتدخل فى صراع مباشر معهم وكذلك بسبب ضعف حكم الوطاسيين بصفة عامة، بالإضافة إلى أن الأمراء المرينين حكام إمارة دريد ظلوا يتحينون الفرصة للقضاء على مغتصبى السلطة من أيديهم وظلوا على هذه الحال إلى ان سقطت دولتهم وإمارتهم بأيدى الاشراف السعديين، إضافة إلى وجود بعض القلاع والحصون ومراكز الاحتلال البرتغالى والأسبانى التى كانت تمتد على سواحل المحيط الأطلسى والبحر المتوسط وكانت هذه الموانى والحصون تتخذ كمراكز لتموين السفن والأساطيل البحرية البرتغالية والأسبانية فى طريقها إلى الهند والشرق الأقصى

كما أن هذه المراكز كانت نقاطا للتوسع إلى المناطق الداخلية ببلاد المغرب وقد امتد نفوذ هذه المراكز إلى القبائل والأهالى الذين كانوا يتعاملون معهم وكانوا يقبلون الخضوع لهم .

وهكذا فانه كان من الطبيعى أن يكون هذا التفكك والانحلال السياسى الذى عانت منه المغرب قد أطمع المحتلين الفرنجة للاتجاه إلى مزيد من توطيد أقدامهم والاستيلاء على أرض المغرب وسواحله ذلك لان المغرب الأقصى وقد انهكته الفتن والحروب الداخلية وضعف حكام بنى وطاس الذين استولوا على السلطة من أشراف فاس ولذا فانه كان يعانى من حكومة ضعيفة فى فاس وتفكك سياسى وضعف اقتصادى وانهيار الوحدة السياسية بسبب قيام الوحدات والإمارات المستقلة كما أنه كان يعانى من حالة كساد وضعف اقتصادى بسبب الحصار وفرض السيادة الأسبانية والبرتغالية ومنع تعامل الدول الاوربية مع داخل البلاد ومن هنا نشأ تخلف اجتماعى بسبب سيادة الروح القبلية فى البلاد، كما أن الكساد والفكر والجمود الثقافى وحالة الانهيار الحضارى ويأس العامة من أحوال الأمراء لاسيما وان بلادهم لا ينفك يوم الا وتقع مدينة جديدة أو ميناء ساحلى جديد فى أيدى المحتل الغاضب الأوربى القادم من شبه جزيرة ايبيريا وغلب الجهل وتفشت الأوبئة والأمراض والسذاجة التى غلبت على عقول العامة حيث كان المغرب كله مهددا بالسقوط تحت أقدام القوى الأوربية المحتلة نتيجة لغيبة القوى الوطنية المسلحة بالجهاد الإسلامى والقادرة بما لديها من امكانيات فى الوقوف فى وجهة القوى الخارجية وعدم وجود جبهة قوية متماسكة تستطيع أن تقود البلاد ضد هذه القوى .

وهكذا فان فترة تولى الأمير الوطاسى محمد الشيخ السلطة فى شمال المغرب الأقصى مؤسسا للأسرة الوطاسية الذى يذكر عنها الدكتور حسين مؤنس أنهم كانوا

أصحاب سلطة اسمية فى فاس ولم يكن بيدهم فى حقيقة الأمر شئ من السلطة أو السلطان ويذكر كذلك عنهم أن الوطاسيين لم يكونوا فى حقيقة الأمر أسرة حاكمة بالمعنى الصحيح لكن فترة وجودهم على قمة الجهاز السياسى الحاكم فى فاس قد شهدت أكبر وأخطر تطور فى الأوضاع السياسية فى المغرب الأقصى ذلك لانه خلال تلك الحقبة وهى الربع الأخير من القرن التاسع الهجرى، والخامس عشر الميلادى كانت أوراق اللعبة السياسية على ارض المغرب غير واضحة فقد كانت الكيانات السياسية متداخلة والقوى السياسية تتصارع على ارض المغرب لاسيما بعد التواجد التركى العثمانى فى المغربية الأوسط والأدنى وماتلا ذلك من أحداث بالنسبة للخلافة الحفصية فى تونس وبنى زياد فى تلمسان وكيف توطد النفوذ التركى العثمانى والصراع مع القوى الأسبانية من اجل القضاء على نفوذها فى السواحل المغربية وما تم بعد إسقاط هاتين الدولتين وما آل اليه أمر بنى وطاس من ضعف وعجزهم من مواجهه التحديات الخارجية ورد فعل القوى الأيبيرية واتخاذهم مواقع متعددة توطئة للقضاء النهائى على الوجود الوطاسى فى المغرب .

وهكذا كانت الدولة الوطاسية تعيش كهولتها منذ نشأتها وتشهد سقوط إمارتها كل يوم بعد أن عاشت حالة التشرذم حتى نهاية نفوذها فهى لم يكن لها أمر من تحرر الثغور التى يسيطر عليها الأسبان والبرتغال والذين كانوا قد وضعوا أيديهم على العديد من المدن فى عهد بنى مرين وتوسعوا فى بسط النفوذ أيام حكم محمد الشيخ الوطاسى حيث سقطت بعض المدن التى نشير اليها فى فصل لاحق عند الحديث عن الوجود الإستعمارى الأسبانى البرتغالى فى المغرب الأقصى .

وهكذا دامت فترة حكم الأمير محمد الشيخ الوطاسى اثنين وثلاثين عاما لم يستطع فيها التوسع الأيبيرى أن يخضع البلاد فى كيان سياسى واحد وكانت الأحوال تنذر بالخطر لاسيما ان بلاد المغرب كانت تموج بتيارات فكرية ستلعب دورها فى

حركة الجهاد الإسلامى هى فترات تاريخية لاحقة .

أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى الشهير بالبرتغالى
٩١٠هـ - ١٥٠٤م/٩٣٢هـ - ١٥٢٥م

آلت اليه الأمور بعد وفاة أبيه مؤسس الأسرة الوطاسية حيث كان أكبر إخوته وكان البرتغاليون قد اسروه وهو صغير عندما استولوا على أصيلا عام ١٤٧١م وتم اطلاق سراحه مع إخوته بعد ان قام والده بعقد هدنة مع البرتغالين .

وفى عهده كانت الطرق الصوفية قد بدأت تمارس دورها وتحاول أن تجد لها مجالا فى العمل السياسى بعد ان زاد نفوذها وتجمع الناس حولها وفى عهده ظهر اسم سيدى عبد الله الغزونى الذى وفد إلى مراكش من الشمال لكى يتولى رياسة الطريقة الجزولية وكانت له مساجلات وجولات مع السلطان أبى عبد الله البرتغالى الذى أمر بالقبض عليه سبب وشاية الشيخ أبى عبد الله محمد بن غازى .

وكان السلطان أبو عبد الله البرتغالى قد كلف الحسن الوزان ليو الأفريقى عام ١٥١٠ - ١٥١٧م القيام برحلات فى الممالك الإسلامية المجاورة وخاصة جنوب الصحراء وقد أخطأ يوفل فى كتابة (الممالك الإسلامية وتجارة الذهب) فى القول أن الذى كلف ليو الأفريقى عام ١٥١٠م بالقيام برحلات إلى الممالك الإسلامية المجاورة هو الشريف السعدى محمد القائم بأمر الله ولكن حقيقة الأمر أن الذى كلفه بهذا العمل هو الشيخ الوطاسى الشهير بالبرتغالى .

وفى عهد النفوذ الإستعمارى الأسبانى البرتغالى زيادة كبيرة ذلك لان الأسبان حاولوا عام ١٥٠٥م احتلال ساحل اغادير على المحيط الأطلسى، كذلك فان البرتغاليين نجحوا فى نفس العام ١٥٠٥م فى احتلال نفس المنطقة، ثم حدث اتفاق

بين أسبانيا والبرتغال أعطت أسبانيا بمقتضاة الحق للبرتغال فى التوسع فى مناطق سواحل المغرب الجنوبية الأطلسية فى مقابل اعتراف البرتغال لأسبانيا بمشروعيته فى التوسع فى الجزء الشرقى على ساحل المغرب الشمالى فى المنطقة الممتدة من باديس حتى مليلة وربما يكون فشل البرتغال فى احتلال المدن الساحلية الشمالية التى تقع تحت سيادة سلطنة فاس هو الذى حدا بها إلى الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش ولكن عن طريق خلق العطاء الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش ولكن عن طريق خلق العملاء والذين قدم لهم خدمات جليلة .

والجدير بالذكر أن البرتغاليين نزلوا عام ١٥٠٤م على مقربة من ميناء أزمور وهو ميناء كبير على المحيط الأطلسى ولكن لم يتم لهم احتلاله الا عام ١٥١٣ كما استولوا عام ١٥٠٧م على ميناء اغادير واسفى، ولما قام البرتغاليون باحتلال أزمور توغلوا منه جنوبا لفرض سيطرتهم على مازكان، وقد حاول البرتغاليون التقرب إلى حاكم مراكش فى ذلك الوقت الأمير الناصر على الهنتانى لاستمالته إلى صفوفهم وتحالفهم معهم ولكنهم فشلوا وفى نفس الوقت وصلت الأوامر من حكومة البرتغال فى لشيوته إلى قواتها المرابطة فى اسفى وازمور ان تتهيأ لاحتلال مراكش وفى مطلع عام ١٥١٥م كانت مراكش محاصرة بالقوات البرتغالية، لكن المحاصرة فشلت بسبب المساعدة التى قدمها حاكم فاس ابو عبد الله محمد البرتغالى الوطاسى للمجاهدين وكان فشل احتلال البرتغال لمراكش وافعالها للاتجاه إلى محاربة القوى الاسلامية الكبرى فى فاس الممثلة فى قوات الوطاسى والقضاء على نفوذ وسلطان الوطاسين فى فاس، فأرسلوا اسطولا عظيما إلى ميناء المعمورة فى يناير ١٥١٥م ولكن اجبروا على الانسحاب فى نفس السنة ونتيجة لفشل البرتغاليين فى احتلال مراكش والمعمورة فانهم اتجهوا إلى محاولة ايجاد الاعوان والعملاء مثل اولاد عمران والقواد مثل يحيى بن أوتاقوت ومع

ذلك لم تسقط المعمورة فى أيديهم الا بعد مقاومة شعبية عنيفة اواخر عام ١٥١٥م وادى تقاعس بعض قبائل الجنوب وعدم مشاركتها فى الدفاع عن هذه المدن إلى ان تسقط المعمورة فى أيدى القوات البرتغالية وضعف حركة المقاومة، كذلك؛ تحالف الاسبان مع الوطاسيين .

وهكذا شهدت فترة حكم السلطان محمد البرتغالى تدهور الاوضاع فى المغرب الاقصى وانقسام البلاد من طرابلس شرقا حتى رباط الفتح غربا فقد تداعى الحفصيون فى تونس وبنى زيان فى تلمسان إلى التدهور والسقوط واستبد الاعراب وزعماء القبائل بالداخل وانتقلت مدن الساحل فى المغرب الاقصى إلى ايدى اعداء الاسلام وكان هناك صراع داخلى عنيف يدور بين بنى وطاس والثائرين عليهم لاسيما ان الوطاسيين ادركوا منذ اليوم الاول لتولى الحكم ان مقاتلة المسيحيين من أسباب تدعيم حكمهم بالمغرب غير ان الاحداث المتوالية التى حلت بمسلمى الاندلس بعد النكسة عام ١٤٩٢م وطرد المسلمين من الاندلس نهائيا وعدم قيام الامير محمد الشيخ بن ابى زكريا الوطاسى امير فاس فى ذلك الوقت بمساعدتهم وانجادهم نظرا للطبيعة الانعزالية فى تركية ضد الامير وعدم وجود النخوة والنجدة الاسلامية فقد اثارت هذه المواقف استياء الشعب المغربى واهاليه ضد نظام الحكم الجديد بالرغم من المحاولات التى يذلها الامير محمد البرتغالى هذا ابن محمد الشيخ لمقاومة المسلمين فى شمال البلاد .

وقد دارت مراسلات بين السلطان الوطاسى والملك البرتغالى يطلب فيها السلطان أبو عبد الله البرتغالى وقف تعدى حاكم البرتغال فى المغرب مانويل ومنعه من التعرض لسفن الوطاسين التى يرسلها السلطان الوطاسى إلى الجزائر ثم إلى تونس ولكن هذه المراسلات لم تؤد إلى ما كان يطلبه أبو عبد الله البرتغالى وقد دارت هذه المراسلات عام ١٢٩٠هـ/١٥١٤م .

وازاء ضعف موقف الوطاسيين من الاطماع الايبيرية فان كيانهم السياسى من قبل الاهالى أصبح امرا مشكوكا فيه لاسيما أنه لم يعد هناك تأييد قبلى بعد أن تقلص دورهم فى المقاومة الجادة للخطر الصليبى فى الاندلس والذى ادى تخاذلهم فيه إلى سقوط غرناطة وضعف المقاومة على الارض المغربية، ومن ثم فقد بدات المشاعر المغربية تبحث عمن ياخذ بيدها وينفقذ كرامة الوطن والاسلام من ازدياد الضغط الايبيرى على المدن الساحلية والتوسع للداخل فكان أن اتجهت إلى الوحدات السياسية الصغيرة بعد ان فقدوا أمالهم فى حاكم فاس فكانت الانظار إلى شمال البلاد حيث مدينة شفا وثن، بعد ان شاهدوا تفكك بلادهم واقتتطاع اراضيها خلال الحكم الوطاسى وما اصاب البلاد من التدهور بحيث لم يبقى فى ايدى الوطاسين غير عاصمتهم فاس وبعض مدن المغرب التى تعد على اصابع اليد الواحدة فقد أصبح تغير الاوضاع والقيادة امرا ضروريا. فى هذه الظروف التى تجثم فيها القوى الايبيرية البرتغالية والاسبانية على ارض البلاد وفشلت القيادة الوطاسية فى مواجهه العدو التاريخى الذى خلص من تصفية المجتمع الاسلامى فى الاندلس فى الوقت الذى يعمل فيه المستعمر الابييرى فى الهجوم على المجتمع الاسلامى المغربى ويواصل هجماته لاكثر من نصف قرن وعجزت الدولة الوطاسية فى اتخاذ موقف الدفاع الذى غلب الدولة المغربية فى الدفاع عن الكيان الاسلامى بعد أن سيطر البرتغاليون فقط على جملة مدن من البلاد بالمغرب الأقصى فيها ما بين سبته والقصر وطنجة واصيلا وافقا (الدار البيضاء) والجديدة وحصن البريحة مازكان والعرائش واغادير واسفى والمعمورة (المهدية) وبالجملة فانه لم يبق من ثغور المغرب الاقصى بيد المسلمين الا القليل مثل سلا ورباط الفتح وفوجئ المسلمون بهذا التوسع البرتغالى حيث دهموا به فى بلادهم واستحوذوا على بلاد الهبط وضايقوا الاهالى حتى اضطر السكان إلى النزوح إلى الاطراف الداخلية والقرى النائية بعيدا عن السواحل .

فكان ان ظهرت الحركة السعدية التى ادرك الوطاسيون ان شعار الجهاد الاسلامى الذى رفعته هذه الحركة فى الجنوب قد انقلب إلى حركة سياسية تهدف إلى القضاء على ملكهم حيث سيتم فى النهاية القضاء على حكم الاسرة الوطاسية فعلا بعد الدخول إلى فاس، وفى بادئ الامر فان الحكام الوطاسين أيدوا الدعوة السعدية وامامها القائم بأمر الله واعانوه وأرسلوا له من فاس بالمعدات والمؤن وساعدوه فى جهاده ضد البرتغاليين ولكن فى ذلك لم يكن يتبادر إلى فكر الامام القائم العمل على خلع السلطان الوطاسى فقد كانت الحركة السعدية لاتزال تمر بمرحلة الدعوة والاستقطاب لقبائل المغرب وسكانها ومن هنا فان العلاقات السعدية الوطاسية فى ذلك الوقت كانت علاقات طيبة وحسنة وكان بنو وطاس يمدون أهل السوس بالمال والعتاد الحربى وتروى المصادر أن الشريفين احمد الاعرج واخاه محمد الشيخ لما خرجا للجهاد مع أهل السوس فبرزت جهودهما فى ميدان الجهاد ولما وفدا إلى فاس لدى السلطان محمد البرتغالى تلقاهما بالترحاب واقبل عليهما لتفوقهما فى الجهاد ضد الصلبين ومنحهما حاكم فاس عتادا وفيرا وخيلا كثيرة وعادا إلى بلاد السوس ثم عادا اليه فأعطاهما مثل ذلك ولما كثرت معاوكهما ضد الايبيرين المحتلين وارتفعت رايات انتصارهما حتى صارت القبائل تقدم اليهما واخذت هذه القبائل تساعدهما، حينئذ خلعا طاعة الوطاسى واعلنا ذلك ببلاد السوس ومهما تكن حقيقة الروايات السابقة فان دوام الحال من المحال فى العلاقات السياسية لاسيما بين كيان قد أصابه الوهن وكيان ناشئ من قلب الجنوب المغربى برفع لواء الجهاد الاسلامى وبحشد قواته لطرد الغاصب من أرضه المحتلة بالعتاد الحربى والعمل على انهاء الاحتلال بالقوة العسكرية ورفض الاحتلال المباشر الذى سلمت به القيادة الوطاسية وباسم الجهاد الاسلامى واحياء الدولة الاسلامية تصاعدت القوة العسكرية للامامة والامارة السعدية ونمت قدراتها القتالية وبدأت تخطوا خطوات ناجحة فى تحرير بعض الموانئ الساحلية من قبضة الاسبان والبرتغال وبدأ

الانتصار الايبيرى يضعف امام قوة الاسلام المتجددة واحياء حركة الجهاد الاسلامى يدعم الاسرة الشريفية وقبائل الجنوب المؤيدة لها بالدعم والمساندة بعد أن حرر السعديون بعض المعاقل المغربية الاسلامية من القوات الايبيرية وما قام به الاخوان احمد الاعرج ومحمد الشيخ ونزعوهما إلى بناء كيان سياسى ومن ومن كل هذا فان العلاقة لابد أن تسوء بين الوطاسين والسعدين بعد أن وضحت النوايا وأحس الوطاسيون ان الكيان الجديد يستند إلى أسس ومبادئ ودعوة تختلف عما عليه حال حكام فاس .

ولقد كان من الطبيعى أن يحدث الصدام بين الطرفين وأن تنشأ الحروب والمعارك ولابد أن يخلو الميدان لأحد منهما حتى يستطيع أن يمارس دوره وكانت كل الشواهد تشير إلى ان كل المعارك سوف تكون لصالح الامارة السعدية لأنها تسعى إلى توحيد المغرب وخوض هذه المعارك من اجل الحفاظ على وحدة المجتمع المغربى الذى تريد ان يتخلص المجتمع من أمراضه وتنمو الدولة صحيا وهى فضلا عن ذلك تقوم بعمل بطولى وقلب الاوضاع وجمع الشتات ونقل حركة التاريخ من الكهولة ورفض الهيمنة التاريخية التى تحاربها القوى الايبيرية على حساب بلدان المغرب الاسلامى وعودة تاريخ المغرب إلى الحيوية والتفتح وعودة الدولة إلى دولة جديدة تحمل شعار الشرافة القرشية النبوية العلوية الحسنية الهاشمية لكى يكتب لتاريخ المغرب الاسلامى بعد جديد فى معركة التاريخ وبمعنى آخر ممارسة الدور الدينى القرشى النبوى فى تاريخ البلاد وجعل عباءة الشراقة القرشية مرحلة تتواكب تحت هذه العباءة التفاعلات المغربية حيث يتحول العامل الدينى إلى عامل تاريخى ويضم اليه العامل الاقتصادى والسياسى وتتكفل كل هذه العوامل فى احداث الدولة السعدية التى تحاول الوصول بالمغرب إلى لم شمله والدخول فى صراع حقيقى مع الوطاسيين وان يحدث الصدام وتتحمل القيادة الشابة خسائر بشرية والكثير من المصاعب والوصول إلى نهاية المطاف فى اسقاط هذا الكيان

الوطاسى لاسيما ان الانظار كانت قد اتجهت إلى القائم بأمر الله الادريسى الحسنى الشريف والدكل من احمد الاعرج ومحمد الشيخ اللذين احرزا فى اقليم السوس انتصارات واسعة ضد البرتغالين مما دفع الكثير من المغاربة إلى الالتفاف حولهما. لاسيما ان السعديين عملوا علانية على القضاء على الحكم الوطاسى وكذلك الوحدات الانفصالية الصغيرة فى البلاد ثم العمل على توسيع رقعة المغرب وتكوين دولة مغربية على طراز دول الموحدين وقبلهم المرابطين لاسيما وقد استجاب السعوديون لرغبات القبائل والاهالى والمجاهدين وظهروا كقادة يلتحمون مع المشاعر الاسلامية ويذكون روح الجهاد مختلفين كل الاختلاف عن الوطاسين وبعض رؤساء الامارات المحلية الذين قبلوا التحالف مع القوات الايبيرية البرتغالية أو الاسبانية فى سبيل الابقاء على مصالحهم الخاصة ومن هنا سوف يحدث التصادم الذى يقع نهاية للاسرة الوطاسية .

أبو العباس احمد بن ابى عبد الله بن محمد بن الشيخ
آخر سلاطين بنى وطاس
٩٣٢هـ - ٩٥٦هـ - ١٥٢٥ - ١٥٤٩م

آلت الامور فى بلاد المغرب الشمالى بعد وفاة محمد البرتغالى الوطاسى إلى اخيه ابى حسون بن محمد الشيخ لكنه لم يدم فى تولى السلطة الا أشهرا قليلة اذ ثار عليه ابن أخيه احمد بن ابى عبد الله وذلك بتايد ابن الشريف مولاى ابراهيم امير شرافة شغشاون حيث انه ايد احمد بن السلطان الوطاسى محمد البرتغالى فى عام ١٥٢٦م ضد عمه ابى حسون، بل انه لم يكتف بذلك بل قام بالزواج من ابنه محمد البرتغالى. ومن هنا عمل هؤلاء الاشياخ المحليين على مساعدة اسرة بنى وطاس فى الحكم حيث قام بين هذه الاسرة حاكم شغشاون بدور الوسيط والحاجز بين القوى البرتغالية والوطاسية حيث ارتضى شريف شغشاون ان يصل دوره السياسى والحربى الذى كان يرفع لواء الجهاد الاسلامى بان يلعب لعبة التوازن إلى درجة بلغت حسن التفاهم مع البرتغال فى سبته واصيلة والعراش وكذلك علاقات طيبه مع الوطاسين فى فاس .

كذلك فان مولاى ابراهيم الشريف قام تحت ضغط المشاعر الاسلامية بالعمل تحت راية الجهاد الاسلامى واعلن فى اعوام ١٥٢٣، ١٥٢٥م جهادة وهجومه على اصيلة ومحاولة انتزاعها من ايدى البرتغالين، بل ان دور هذا الشريف قد تجاوز حدود امارة شقشاون إلى حد انه فى مجرد الاحداث فى تاريخ المغرب الوطاس قد شغل منصب الوزير بل قام مقام الوزير للسلطان احمد الوطاس، بل ان حكم الوطاسين قد تضاءل إلى جانبه حيث انه اقام اقامة دائمة فى فاس وترك اخاه مولاى محمد بن على يتولى حكم امارة شغشاون وشرافتها وذلك حتى موت مولاى ابراهيم على عام ١٥٣٩م .

ولقد كانت السلطة الحقيقية للسلطنة الوطاسية فى يد مولاى ابراهيم ابن على إلى حد أن نفوذه قد زاد على نفوذ السلطان بحيث اعتبر الايبيريون (البرتغال والاسبان) انه السلطان الحقيقى للبلاد وعولت عليه السياسة البرتغالية الكثير من الامال وذهبت من اجل هذا إلى اصدار اوامر بضرورة مراعاة مشاعر الدين الاسلامى لدى رجل الدين المسيحى عند زيارتهم للغرب .

بل ان مولاى ابراهيم بن على وزير السلطان احمد الوطاس قد لعب دورا كبيرا فى توقيع معاهدة عام ١٣٥٨م بين سلطان فاس السلطان احمد الوطاس وبين جان الثالث ملك البرتغال وتتلخص بنود هذه المعاهدة التى تعطى صورة واضحة عن طبيعة التطور الذى طرأ على العلاقات البرتغالية الوطاسية ومدى تحكم القوى الايبيرية فى السياسة الوطاسية مما يكون له اثر بالغ فى تحرك القوات السعدية المجاهدة فى محاولة منها للقضاء على السلطة للوطاسية بعد ان ثبت تعاونها الفعلى مع البرتغالين بتوقيع هذه المعاهدة ولقد نصت هذه المعاهدة على ان يستمر سريان هذه المعاهدة احد عشر عاما تنتهى فى عام ١٥٤٩م. والاعتراف بان البرتغال ليس لها الا الحصون والمدن التى تحتلها مثل طنجة وسبتة والقصر الصغير وأصيلا .

أما المغاربة الذين يقطنون خارج هذه المدن والموانئ ويعيشون بجوارها فانهم يخضعون لسلطة وسلطان امير فاس. كما انه يمكن لهؤلاء الرعايا التنقل فى حرية فى الاماكن المذكورة، كما نصت الاتفاقية على تحريم الاتجار فى الاسلحة وعدد من السلع مع الاتراك والفرنسين اذا ما حدث ورست على ارض برتغالية (لاحظ هنا الديار الاسلامية المغربية صارت ارضا برتغاليه) سفن تركية أو فرنسية أو أى سفن مسيحية غير اسبانية أو برتغالية بغرض التعامل التجارى مع المغاربة، فان البرتغالين لن يسمحوا بالشراء منها وبالمثل لن يسمح للمغاربة بالتعامل أو الشراء مع المسيحين او الاتراك

وكذلك تتوقف الغزوات من جانب الطرفين ويتم مناهضتها كى لا يتاح لقوى العدو مهاجمة احدهما وقد استخدم البرتغاليون اسلوب المهادنة وكسب الصداقة فى تعاملهم مع شريف شنشاون ومع السلطان الفاسى الوطاسى وذلك للدور الذى قام به حاكم اصيلة البرتغالى لكسب ود الشريف وبذل كل ما فى وسعه الحيلولة دون محاربته، بل ان التعاون قد امتد بين الطرفين إلى حد استخدام الاطباء البرتغالين فى علاج بنت السلطان محمد البرتغالى الوطاسى زوجة مولاى ابراهيم بن على الشريف .

ولقد عم السخط ارجاء المغرب من جراء هذه التصرفات من قبل اشراف شنشاون وحكام فاس الوطاسية مما دفع محمد الناصر المنتانى امير مراكش ان يراسل الامير محمد الاعرج واخاه محمد الشيخ بالدخول فى طاعتهما والثورة على الحكم الوطاسى بعد ان كان امراء هنتاذة المصمودون ناقمين على الحكم الوطاسى ومن هنا لبى السعديان دعوة امراء مراكش المصمودين ولم ياتى عام ٩٣٠هـ حتى دخل الامير السعدى مدينة مراكش وجعلها مركز القيادة بنطلق منها إلى سائر البلاد المغربية وباستقرار الامراء السعديين فى مراكش ايقن السلطان احمد الوطاسى ان السعدين لم يكن قصدهم الجهاد بل كان قصدهم القضاء على مملكة فاس وتأسيس دولة لهم فى المغرب مستغلين ظروف البلاد والاحتلال الابيرى وتزعمهم حركة الجهاد المقدس ضد المحتل الاوربى .

غير ان السعدين إلى عام ٩٣٦هـ لم يكونوا فى امارة مراكش والسوس سوى امارة تتمتع بالولاء الاسمى للسيادة الوطاسية فى فاس حيث انهم لم يكونوا حتى ذلك الوقت قد وضعوا امام نظرهم تكوين الدولة المغربية الكبرى الشمولية التى عرفها المغرب فى عصور سابقة ذلك لانشغال الامارة السعدية منذ دخولها مراكش ١٥٢٠م / ٩٢٦هـ بمشكلات علاقات المحلية مع بلاد الجنوب وامارات السوس التى تابى الخضوع لامارة السعدين الامر الذى شجع البرتغالين على الخروج على سياستهم

الاستراتيجية فى التوسع وهى سياسة الالتزام بالسيطرة على القواعد الساحلية والموانئ بعد ما وصات اليهم الاوامر من البرتغال بالعمل والتحرك للداخل لاحتلال مراكش فى عام ١٥١٥م، وكان البرتغاليون قد نجحوا فى عام ١٥١٢م فى بسط نفوذهم السياسى بين القبائل فى اقليم السوس حتى دانت لهم بالخضوع قبيلة اولاد مطاوع قرب مدينة مراكش بعد ان فقدت هذه القبائل الحماية التى كانت توفرها لها قبيلة هنتانة التى كانت تحكم فى مراكش وقبل أن يثبت السعديون مقدرتهم على تحمل عبء السيادة على البلاد ورأى البرتغاليون فى أشياخ هنتانة المصامدة ملوك مراكش طوال القرن الخامس عشر الميلادى فرصة لبسط سلطانهم على المدينة وانتزاعها من أيديهم حيث ظلت السيادة إلى هنتاتة على القبائل فى التلال المحيطة ومع ذلك لم تتعد سلطة سلطان مراكش من أشياخ هنتاتة حدود المدينة واحوازها وصارت له السيادة الاسمية حتى دوكالة عندما كانت قبائل هذا السهل الساحلى تتجه بأنظارها إلى قبائل مراكش المحابة أثناء توسع البرتغال على الساحل الاطلسى، لكن الحملة البرتغالية التى كان قوامها ثلاثة آلاف جندى قد فشلت فى احتلال مراكش، مما دفع الامير احمد الاعرج السعدى إلى محاولة الاستيلاء على المدينة لرفع مكانتة فى بلاد المغرب ولاسيما اهل السوس، وفى عام ١٥١٨ اغتيل يحيى ابن تعافقت الحليف المغربى البرتغاليين وواصل أبناء الشريف السعدى هجومهم على رجاله وفى هعام ١٥١١، ١٥٢٠م تمكن أبناء الشريف من دخول مراكش دون قتال بعد أن هجرها جانب كبير من أهلها من جراء ظروف المجاعة .

وتزوج احمد الاعرج من ابنة الامير محمد بن ناصر بوشتنوف والى مراكش ثم نقل رفات الشيخ الجزولى مؤسس الطريقة الجرولية فى عام ١٥٢٤م وفى حقيقة الامر فان مجئ السعدين برفات الشيخ الجزولى إلى مراكش كانت البداية الحقة للعصر

السعدى وبهاتين الخطوتين ضمن تأييد الاسرة الشرعية الهنتانية المالكة فى مراكش واستقطاب انصار الجزولية، لكن رغم ذلك فلم يخل الامر من محاولة لاقصاء السعدين عن مراكش بعد شهور قليلة من ذهاب احمد الأعرج لاقتسام الخراج مع أخيه محمد الشيخ فى بلاد السوس حيث حاول حاكم مراكش السابق استردادها لكنه سرعان ما اذعن من جديد ودخل فى طاعة روج ابنته بعد ان عاد اليها بقواته فى عام ١٥٢٤، وازاء الدخول الثانى فان السلطان الوطاسى أبو العباسى أحمد تأهب لمحاربة السعدين فى المناطق الشمالية وكان على السلطان الوطاسى ان يتجه إلى مراكش لانتزاعها من ايدى السعدين فلما أحس احمد الاعرج بنية الوطاسى ورأى انه لا طاقة له بمقاتلة قوات حاكم فاس فانه حصن المدينة وشحن حصونها بالاسلحة وملأها بكل ما تحتاج اليه المدينة وقت الحصار وزحف الوطاسى إلى مراكش وحاصرها حصارا شديدا لكن اثناء الحصار وردت انباء للعباس احمد بان بعض ابناء عمه قاموا عليه بثورة فى فاس فارتحل عائدا إلى مراكش، ويعد هذا الحصار الطويل لم تمض شهور معدودة حتى قضى الاشراف السعديون على الامير الهنتاتى ابى شنشوف) مقتولا بالسم لانهم ربما احسوا فيه رغبة للخضوع للسلطان الوطاسى وبذلك صار احمد الاعراج السعدى حاكما وحيدا وسيدا لمراكش وتلقب بالامير واختار اخاه محمد الشيخ خليفه له فى حكم بلاد السوس .

وكان على السلطان احمد الوطاسى ان يجعل هدفه الاول محاربة الاشراف السعدين الذين يكادون ينزعون منه ملكه وملك اجداده ومن هنا فقد وقعت بين الطرفين حروب جسيمه كان النصر فيها متبادلا بين الطرفين لكن السلطان احمد الوطاسى لم يستطع الدخول إلى مراكش وانتزاعها من ايدى السعدين فتركها لهم، ومن ذلك فقد صارت مراكش حاضرة الامارة السعدية الشريفة، وازاء عدم قدرة السلطان

الوطاسى على السيطرة على مراكش فقد سعى الاخوان السعديان إلى دخول مراكش للمرة الثانية إلى كسب رضى السلطان الوطاسى وارسلا إلى فاس مبعوثا من قبلهما للتعبير عن ولاء التبعية والبيعة للسلطان الوطاسى وكان هذا الاسلوب الماكر الذى اتبعه احمد الاعرج فى رسالة مع مبعوثه إلى السلطان الوطاسى يقول. ما أنا الا واحد من عمالك على هذه المدينة وما كان يعطيه أهل هذه البلاد كل عام ابذله لك مضاعف) وسواء أكان ذلك صدقا ام باطلا لكن هذا الاسلوب رأى فيه السلطان ابو العباس احمد نوعا من الخداع والتمويه فسارع إلى حصار مراكش .

وقام على حصارها فى وقت كانت فيه المدينة تعانى من آثار سيول مدمرة لامطار هذا العام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م ولم تسقط المدينة فى ايدى الوطاسين بسبب صمود أهل مراكش ومساندة الشيخ الغزونى للسعدين وكان الشيخ الغزنونى (عبد الله) شيخ الطريقة الجزولية فى مراكش وخليفة الشيخ عبد العزيز بن عبد الحق التباع الذى خلف الشيخ محمد الجزولى فى شياخه الطريقة والذى احضر رفاقه احمد الاعرج ودفنه فى مراكش، ومن هنا قام رجال الطريقة الجزولية بمساندة ومساعدة السعديين على يد الشيخ عبد الله الغزونى وأنصاره مما اضطر الوطاسى إلى رفع الحصار عن مراكش للمرة الثانية فى يونيو ١٥٢٧م وفر عائدا إلى فاس .

ويتحدث الناصر السلاوى فى كتابه الاستقصاء عن اخبار هذه الغزوة الوطاسية وحصار مراكش فيقول ان الحصار دام على المدينة فترة طويلة وتحدث العامة إلى الشيخ ابى محمد عبد الله الغزونى وكان قد استوطن مراكش وراء رفات شيخه الجزولى بان الحصار قد طال عليهم وان الناس قد سئموا الحصار، فركب الشيخ فى جماعة من اشراف الطريقة الجزولية الذين كان لهم زى خاص وسار وسط اصحابه حتى خرج من باب فاس (احد ابواب مراكش) فوجد رماة السلطان الوطاسى ابى العباس الوطاس يرمون

اهل البلد بالرصاص فوقف الشيخ وجاءت رصاصة فى صدره قبض عليها بيده ثم عاد إلى منزله ولم يات الليل الا والسلطان الوطاسى يرفع الحصار عن المدينة ورحل إلى فاس بسبب قيام ابناء عمومته بالثورة عليه تأييدا لعمهم المخلوع ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى .

لكن سرعان ما يتجدد النزاع الحربى بين الوطاسيين والسعدبن ويعود السلطان احمد الوطاسى بجيش اكبر عدة ورجالا ومجهز بكل ما يحتاج اليه حصار المدن وذلك فى الوقت الذى كان فيه السعديون قد اعادوا تنظيم قواتهم الحربية واستعدوا بدورهم لقتال الوطاسين والتقى الجيشان فى بلدة انماى قرب دنمات فى عام ١٥٢٩م/ ٩٣٥هـ ولكن المعركة لم تكن حاسمة وكذلك من اشهر المعارك التى وقعت بين الوطاسين والسعدبن وقعه ابى عقبة والتى لم يتحقق الانتصار فيها لاى من الطرفين وازاء هذه الاحداث فقد اضطر السلطان ابو العباس احمد الوطاسى تحت الحاح الفقهاء والعلماء إلى الدخول فى مفاوضات مع السعديين وعقد صلح بين المتحاربين وكان علماء البلاد ورجال الفقه والدين لما روا ما وقع بين السلطان ابى العباس احمد الوطاسى صاحب فاس وبين الشريف السعدى احمد الاعرج المعروف وصاحب مراكش من القتال من اجل السيطرة على مراكش واقصاء كل منها للاخر والقتال الشديد وفناء الكثير من القوات فتدخل الفقهاء والعلماء من اجل الصلح والتراخى بينهم حقنا للدماء وعدم ايجاد ثغرة لتدخل الاعداء لذلك كانت مبادرة العلماء والصالحين لكن العلماء عندما دخلوا على ابى العباس الاعرج واخيه ووزيره محمد الشيخ لم يجدوا عندهم قبولا للصلح وامتنعا عن مساعدتهم فى الوصول إلى بر الامان بالبلاد بدلا من حالة الحرب الطويلة، لكن هذه المساعى سوف توتى ثمارها بعد فترة من الزمن ويتم عقد الصلح بين الطرفين لكن ازاء الرفض السعدى فان الامير الوطاسى اضطر إلى عقد

معاهدة صلح مع البرتغالين الذين يحتلون البلاد ضد السعدين وذلك للمحافظة على مصالحه وعرشه والقضاء على القيادة الناشئة لكن كان من نتيجة هذا التحالف بين الوطاسين والبرتغالين ان تاججت نار الثورة فى قلوب المغاربة ضد الاحتلال البرتغالى على شواطئ المغرب الجنوبية وضد حلفائهم الوطاسين الذين ازدادوا ضعفا وكان لقيام البرتغالين باخلاء مراكزهم فى اسفى وازمور واصيلا اثره فى ان تعطى ابا العباس احمد الاعرج السعدى قوة تمكنه من انتهاز فرصة الاضطرابات التى تسود مدينة فاس فاندفع بقواته جنوب بلاد تادلا فحدث بينه وبين السلطان الوطاسى معركة ابى عقبة قرب وادى العبيد عام ٩٤٢هـ/ ١٩٣٦م انتهت بهزيمة الوطاسى الذى تخلى عن بلاد تادلا وتامسنا للامير السعدى، ثم تدخل كبار القوم ورجال الدين والعلماء للمرة الثانية بعد ما راوا من الخسائر التى حلت بالبلاد ولاسيما وان اجزاء كبيرة منها تقع فى ايدى المحتلين الايبيرين وما تعانيه بلاد المغرب من جراء هذا الصراع الدامى، وهكذا نرى انه عندما بدات الوقائع الفاصلة فى التاريخ الحربى للسعدين ضد الوطاسين وتوجس السلطان احمد الوطاسى خيفة على دولته ومصير ملكه لاسيما بعد واقعة ام الربيع وانكسار قواته امام الزحف السعدى الجارف فانه امام ضغوط قوى النزاع المحيطة بعرشه كان سعيه من جديد إلى رفع لواء الجهاد الاسلامى ومناشدة الوحدة الجهادية والتحالف مع العثمانين ودعوة لخير الدين بابروسيا إلى التحالف معه باسم تحرير الاراضى الاسلامية من قبضة المحتل الايبيرى وتحرير طنجة واصيلا وهكذا سعى الوطاسيون إلى العثمانين الاتراك مع ظهورهم فى الحوض الجنوبى للبحر المتوسط واتجهوا إلى العمل تحت لواء الوحدة الاسلامية معهم املا فى الحد من الاخطار التى تحدق ببلاد المغرب من جراءء الخطر الايبيرى .

ومن هنا فقد صار يقع على جانب الوطاسين كامر واقعﷺ التسليم بالامارة

السعدية وحكمها للجنوب وسيطرتها على مراكش بعد ان كانت مقدمة ظهورها امارة محلية تابعة لسلطنة فاس لكن منذ هذه الواقعه صارت امارة مستقلة تقع حدودها تبعا لتطور الاحداث وكان هذا التطور عام ١٥٣٦م بعقد صلح تادله بعد ان انزل احمد الاعرج هزيمة كبرى بالوطاسين فى معركة وادى العبيد وكان تدخل العلماء وراء اتفاق الصلح الاخير وبمقتضاه سلم السلطان الوطاسى باقتسام البلاد مع الامير السعدى وذكر السلاويى ان وقعة وادى العبيد كانت اواخر عام ٩٤٢هـ وادت إلى هزيمة الوطاسين على حين ذكر أن وقعة أبى عقبة كانتيوم الجمعة ٨ صغر ٨٤٣هـ وقد تم الصلح بين الطائفتين على ان يكون للاشراف السعدين حكم البلاد من تادلا شمالا إلى بلاد السوس جنوبا ويكون لبنى وطاس من تادلا شمالا إلى بلاد المغرب الاوسط وقد حضر هذا الصلح قاضى القضاة بفاس ابا الحسن على بن هارون المطغرى والامام الشهير ابو مالك عبد الواحد بن احمد-الوانشريس وغيرهما من مشايخ فاس ومراكش. وان كانت بعض المصادر تذكر ان الاتفاق تم على ان يكون من ام الربيع شمالا للوطاسيين ومن ام الربيع جنوبا للسعدين واقتسم ابناء القائم بالله السعدى هذه المنطقة فيما بينهما واستقر أبو العباس احمد الاعرج فى مراكش واستقر اخوه محمد الشيخ فى زودانت وقام الوطاسيون بعد ذلك بعقد معاهدة تحالف مع البرتغالين فى ٢٤ يوليو ١٥٣٨م/ ٩٤٤هـ وتهدف هذه المعاهدة إلى حماية الوطاسين والحيلولة دون انقراض ملكهم ومع تنظيم التعاون العسكرى بين الطرفين وهكذا سعى السلطان احمد بن محمد الشيخ نحو البرتغالين اذ نجد ان السلطان احمد الوطاسى يسعى إلى البرتغال ويقوم بارسال سفيره يعقوب اليهودى للشبونة العاصمة البرتغالية فى ٢٣ سبتمبر ١٥٣٤م من اجل اجراء مفاوضات طويلة لم يكتب لها ان تظهر الا فى عام ١٥٣٨ حيث عقدت الهدنة المشار اليها سابقا ومدتها احد عشر عاما والذى ينظر إلى تطور الاحداث بهذه الصورة وارتماء الوطاسين فى احضان الايبيرين ولاسيما البرتغالين الذين

يحتلون بلادهم طلبا للحماية من أبناء وطنهم فى العقيدة والدين واللغه يشعر باسف شديد اذ ان المصالح الشخصية والعروش جعلت هؤلاء الامراء يتحالفون ضد الاسلام والمسلمين والارتماء تحت اقدام العدو الذى دنس ارض الاسلام ومتناسين روح الجهاد المقدس وكان من الافضل ان تتحد الجهود وتتوحد الاهداف ليصبح ذلك قوة للاسلام والمسلمين على الاقل فى بلادهم المغرب وتكون لديهم القدرة على تحرير البلاد لاسيما الموانئ والسواحل التى تمثل شريان الحياة للبرتغال فى طريقها إلى مستعمراتها فى الهند والصين وافريقيا لكن هذه المعاهدة التى عقدت بين الوطاسيين وحلفائهم البرتغاليين للعمل سويا ضد السعديين لم تفت فى عضد السعدين بل زادت من حماسهم لصد عدوهم فحاربوا وطردوا البرتغالين عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤١م من حصن سانتا كروز وتبعه اخلاء المراكز البرتغالية الجنوبية ووطد السعديون اواصر العلاقات الطيبة مع قبائل الاطلس. وذلك يعنى ان السلام والامن سادا علاقات القبائل بجنوب المغرب فى رحاب الامارة السعدية وان الاخلال بضوابط السلام يعود إلى الوطاسين والبرتغالين .

وكان نجاح محمد الشيخ عام ١٥٤١ فى تحرير اغادير (سانتا كروز) من أيدى البرتغالين قد اكسبه شهرة وسمعة طيبة فى جميع انحاء المغرب حيث تطلعت اليه الانظار باعتباره بطل المستقبل الذى يحفظ المغرب من كل عدوان .

وكان هذا النصر قد دعم لقبه من الشيخ إلى المهدى هذا بينما انزعجت البرتغال من هذا الانتصار على ممتلكاتها بالمغرب فكان قرار الجلاء خوفا من هزيمة اخرى فقررت الجلاء عن اسفى وازمور مع الاحتفاظ بالبريجة الجديدة وكان البرتغاليون قد فكروا فيما قيل ذلك فى اعوام ١٥٣٣، ١٥٣٤م فى اخلاء مدينة اسفى وازمور عقب حصار الامير احمد الاعرج لميناء اسفى عام ١٥٣٤ فى مايو ويونيو من هذا العام وما

انزله الشريف الاعرج بالحاميه البرتغالية من هزائم فى هاتين المدينتين، لكن ظهور الصراع وشدته بين الوطاسين فى فاس والسعدين فى مراكش عام ١٥٣٦م جعل البرتغالين يؤجلون فكرة الاخلاء لكن هزيمة اغادير عام ١٥٤١م جعلت من الاجلاء امرا محتوما .

ويحدث نزاع بين الاخوين السعديين تنتهى فى النهاية بنجاح محمد الشيخ الاخ الاصغر ويتمكن من أسر شقيقه احمد الاعرج ويتم اطلاق سراحه بعد الاتفاق بين الاخوين بعد اتفاق عائلى ولكن سرعان ما عاد النزاع بين الاخوين ولكن محمد الشيخ تمكن من القبض من جديد على اخيه ويتم نفيه واسرته إلى مدينة سجلماسة (تافيلالت) وبذلك ينفرد محمد الشيخ بامارة السعديين فى المغرب المراكشى ودانت له مراكش عام ٩٥١هـ/ وازاء التحالف بين الوطاسين والبرتغاليين فإن محمد الشيخ لم يعترف بالمعاهدة التى بين الوطاسين ولا بالصلح الذى تم بينهم وبين اخيه احمد الاعرج وبين السلطان ابى العباس احمد الوطاسى فقرر الاستيلاء على بقية بلاد المغرب وخاصة مدينة فاس للقضاء نهائيا على حكم الوطاسيين بالمغرب الاقصى وفتح حصن فونتى عام ٩٤٧هـ واخذه من البرتغالين وفتح راسفى عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤٥م واثناء المعارك بين محمد الشيخ والوطاسين والبرتغالين واخيه احمد الاعرج كانت مدينة مراكش قد تردد اهلها لفترة فى اعلان البيعة لاى من الاطراف المتحاربة والتردد فى الدخول فى طاعة محمد الشيخ ودعوته واقصاء الوطاسين وخوفا من عودتهم إلى حكمها بعد ان يسفر تنازع الاسرة السعدية عن عودة السطوة لسلطان الوطاسين، لكنها اعلنت له الطاعة وبايعه اهلها عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م وقدم اليها محمد الشيخ الملقب امغار او المهدى .

وفى سبيل تحقيق هدف السعدين فى الاستيلاء على بقية بلاد المغرب واسقاط

حكم الوطاسين نهائيا استطاع محمد الشيخ ان يجمع جموع القبائل المغربية والمتطوعة ورجاله لزوايا والاربطة الصوفية والمجاهدين لمحاربة الوطاسين وفى طريقه من مراكش إلى فاس استطاع ان يستولى على البلاد والامصار التى كانت بايدى الولاة وان ياتى عليها جميعها ففتح مكناسه عام ٩٥٥هـ بعد حصار طويل ولم يعد امام محمد الشيخ سوى الاستيلاء على فاس عاصمة الدولة الوطاسية وذلك لكى يتفرغ للقضاء على بنيه الوحدات السياسية الصغيرة فى البلاد وخاصة الامارات المنتشرة فى المناطق الشمالية والشرقية بالمغرب ويتم له توحيد البلاد .

وكان الشيخ ما زال فى شباب العمر (اربعة وخمسين عاما) حيث ذكر لسلاوى ان ولاة ابى عبد الله محمد الشيخ الملقب بالمهدى كانت عام ستة وسبعين وثمانمائة هجرية (١٤٩٠م) مما مكنه من تنظيم قواته وحشدها واعادة تنظيمها على القتال الهجومى والاتجاه بها إلى فاس بعد ان جمع كل حشوده وحاصر المدينة حاضرة بنى وطاس وكان على الحاكم الوطاسى ابى العباس احمد بن محمد البرتغالى ان يعد للامر عدته مما جعل فترة الحصار تطول لتصل إلى اربعة عشر شهرا والمدينة لاتزال تقاوم بشدة وكان على محمد الشيخ السعدى ان يجد من وسيلة لاخضاع المدينة بعد ان طال عليه الزمن فى حصارها ودخلت عامها الثانى فأخذ يراسل عن طريق وسطاء ورسل السلطان احمد الوطاسى ويعطيه العهد ان هو بايعه بالولاء والتنازل عن حكم البلاد بانه سوف يعوضه عن فاس ويعطيه حكم مدينة سجلماسة فى الجنوب على ان تكون له ولمن يخلفه من ذريته ولكن السلطان الوطاسى رفض ذلك بعد ان زين له الامور وقال له انما جاء إلى الشمال ودخول فاس من اجل محاربة الايبيرين الذين يحتلون ديار الاسلام .

ولما طال الامر على محمد الشيخ واعيته الحيل فى فتحها بحثا عن سبيل وسبب يمكنه من فتحها بعد ان رفض الوطاسى كل الشروط، فقيل له لاسبيل إلى ذالك الا

اذا بايعك الشيخ ابو محمد عبد الواحد بن احمد لوانشرس نظرا لحالة من دور فى المدينه وقوة نفوذ الفقهاء العلماء وتاثيرهم على العامة فى هذه الاحوال لاسيما انهم يشدون من آزر سلطانهم احمد الوطاسى ويتحملون كل ويلات الحصار الطويل فأرسل السعدى إلى الفقيه الوانشرس رسالة سرية يعده فيها ويمنيه بان تكون له اليد الطولى فى البلاد ويعينه قاضى القضاه لكن الفقيه الفاسى رد على المهدى السعدى بانه فى حالة بيعته للسعدى فان بيعة ابى العباس احمد الوطاسى فى رقبته ولا يحل لى شرعها الا لمجب شرعى وهو غى موجود، اذ ان الدفاع عن المدينة لا ينقضى من نقض البيعة له، وفشلت هذه المراسلات وكان من امر الوانشرس ما كان وهو الذى كان يلقى دروسه اليومية بمسجد القرويين بفاس .

ولم يجد ابو العباس الوطاسى آخر الامر بدا من التسليم بعد الحصار الطويل فاتفق مع محمد الشيخ المهدى على تسليم فاس ودخلها السعديون وقبضوا على آخر سلاطين بنى وطاس وحاشيته واهله واتباعه وساقوهم إلى مراكش بعد ان عاد بهم محمد الشيخ فى صحبته وجميع افراد اسرته حيث لاقوا جميعا حتفهم بالسم بعد اربعين يوما من وصولهم إلى العاصمة السعدية بعد ان ساقوهم معهم فى نحو اربعة عشر خباء واذنوا لخدامه ان يمشوا معه واجروا عليهم الاتفاق والاقامة إلى ان ارسلوهم إلى مراكش فى نحو اربعمائة رجل من بنى وطاس وخاصة السلطان واتباعه وخدامه ووصفاته ورحل من فاس والناس يبكون معهم حتى وصلوا إلى مراكش واجروا عليهم الضيافة والاتفاق مدة اربعين يوما ثم اصبح السلطان الوطاسى يوما ميتا هو وخاصته ونحو الاربعين رجلا مسمومين ودفنوا فى يوم واحد .

ولم ينج من افراد الاسرة الوطاسية غير العم يوحسون الذى كان قد تمكن من الفرار من الاسر فى فاس وقبل رحيل الاسرة الحاكمة إلى مراكش وكان ابو حسون بن

محمد الشيخ قد فر بعد النجاة من الاسر إلى الجزائر للاستنجاد بالاتراك ويعتبر دخول فاس عام ٩٥٦هـ هو الدخول الاول للسعدين بعد القضاء على الوطاسين .

ومن ناحية اخرى لم يبق امام محمد الشيخ غير تاكيد امارته فى ربوع المغرب وذلك بضمان بيعة العلماء والفقهاء وعليه القوم واعيان البلاد وحواضرها وولاء تايد اشياخ القبائل العربية والبربرية المقيمة فى الشمال فى زمن عرف بالتدخل الاجنبى الايبيرى ومحاولة التاثير على قوة الدولة وجعلها تعيش فى انقسام وتفكك وتشرذم كما كان سابق عهدها اثناء حكم الوطاسين مما يؤثر على الهدف الاسمى للدولة السعدية فى السعى للوحدة ويقطع الطريق على النزوع للقوى المحلية لمحاولة خلق وحدات صغيرة والاستعانة بالقوى الاجنبية، وها هو بوحسن بن محمد الشيخ الوطاسى الذى استطاع ان ينجو بنفسه من القتل يسعى مسعاة بين القوى الخارجية سواء كانت تركية عثمانية او اوربية برتغالية او اسبانية يستعين بها ضد محمد الشيخ السعدى لكى يستعيد ملك الوطاسين وكان الاهداف الشخصة ومصالح الذات كانت هى طابع تلك العصور بغض النظر عن الاهداف العليا لمصلحة الشعوب وقضية التراب الوطنى وصون الوجود الاسلامى والدفاع عن العقيدة من الاخطار التى تتهددها .

الامير ابو حصون بن محمد الشيخ الوطاسى
آخر بقايا الوطاسين
٣ صفر ٩٦١هـ– ٢٤ شوال ٩٦١هـ

كان ابو حسون الوطاسى هو الوحيد الذى استطاع الفرار من فاس قبل ان يتعرض جميع افراد الاسرة الوطاسية بالموت سما فى مراكش وقد فر إلى مليلة الميناء الذى يقع على البحر المتوسط والذى يخضع للسيطرة والاحتلال الاسبانى وذلك سعيا وراء الاسنعانة وطلب النجدة من القوات الاسبانية للعودة إلى الحكم الذى انتزعه السعديون من اسرته، لكن طلبه لم يجد صدى عند الاسبان ولم يقدموا له ادنى معونة ثم اتصل بالبرتغالين حلفاء الوطاسين والذى كانت هناك معاهدة صداقة بين الطرفين منذ عام ١٥٣٨م وتنتهى فى عام ١٥٤٩م وهو للعام الذى انهى فيه السعديون الوجود الوطاسى فى فاس وطلب منهم مساعدته فى استعادة ملك آبائه واجداده من السعدين ولكن الاسبان كانوا مشغولين بمشاكلهم الداخلية اضافة إلى حركة الكشوف الجغرافية التى كانت تتجه إلى امريكا والشرق الادنى واكتشافاتهم البحرية التى كانوا يولونها جل اهتمامهم قد حازت على التصبب الاكبر من الاهتمام لانهم لم يجدوا جدوى من مساعدة خليفهم لاسيما وان اوضاع السعدين فى البلاد قد تكون مناسبة لهم لاسيما وانهم امارة ناشئة وصغيرة ويمكن التعامل معها افضل من الوطاسين ولكنهم اشارا عليه بالاستعانة بالاتراك العثمانية والذهاب إلى الجزائر لاسيما وان الوطاسين قد سبق لهم طلب العون والمساندة من الاتراك العثمانين ضد التوسع

البرتغالى وقيام العثمانين بارسال سفارة إلى محمد الشيخ السعدى لاطلاق سراح السلطان احمد الوطاسى الامير بعد وقفه تادلا عام ١٥٤٧م وقد استجاب الامير السعدى لطلب السلطات العثمانية وقام باطلاق سراح احمد الوطاسى فى المرة الاولى.

ها هو بوحسون الوطاسى يسعى مسعاه إلى العثمانين تارة اخرى ويتوجه إلى الجزائر ويقابل حاكمها واخذ ينرين للاتراك والجزائرين ما يعود عليهم بالنفع والفوائد ان ساعدوه ودخل فاس عاصمة اجداده بالمغرب الاقصى واخذ يلح عليهم فى المساعدة وطال مقامه بهم ورأى الاتراك الفرصة سائحة لهم لبسط نفوذهم على المغرب وتحركت القوات التركية بقيادة صالح التركمانى مع ابى حسون الوطاس قاصدين مدينة فاس لاستعادة السيطرة الوطاسية على البلاد. تحقيقا لاهدافهم السياسية والاقتصادية واملا فى ضم المغرب الاقصى إلى السلطنة العثمانية تحقيقا لمقولة السلطان سليمان الاول القانون العثمانى (انا عبد الله وسلطان هذا العالم ويبركه الله انا على رأس العالم المحمدى الاسلامى) ارادة الله وسلطان هذا العالم، وما ذكره سليمان الاول من هذه المقولة تعبير صادق عن قوة هذه السلطنة التى اضحت امبراطورية الخلافة الاسلامية ولم يعد سلاطين آل عثمان حماة الحدود الاسلامية فحسب وناما اضحوا حماة العالم الاسلامى باكمله والمتحدثين باسمه فى العلاقات الدولية والشئون السياسية والتجارية.

ويتحرك صالح الرئيس التركمانى على رأس الحملة التركية العثمانية لابى حسون الوطاس والمولى عمر فى عام ١٥٥٣م وذلك لاستعادة فاس من ايدى الوطاسين ولكن التدخل التركى العثمانى كان قد تأخر خمس سنوات من بدء حصار فاس عام ١٥٤٩م إلى قيام حملة صالح رايس التركمانى فى صحبة بوحسون عام ١٥٥٤م هذا بينما ورد فى تقرير أسبانى من جبل طارق ما يفيد بأن الشريف السعدى يعد جيشا قوامه عشرة آلاف جندى ثم تحركوا إلى باديس ووجدة ومنها إلى تاترا ثم إلى فاس التى

دخلوها فى ٨ يناير ١٥٥٤م، ٣ صفر ٩٦١هـ بعد ان انهزم محمد الشيخ السعدى فى حروب كثيرة خاضتها معه القوات التركية الوطاسية ومنازلتهم له وطرده من فاس وعودة السلطة الوطاسية ودخل بوحسون عاصمة مملكة منتصرا وعاد محمد الشيخ إلى مراكش واخذ يعد العدة لجولة اخرى من القتال مع الوطاسين والاتراك الذين ساعدوه، لكن الوطاسين والاتراك كانوا قد تسيدوا على شرق المغرب ومناطقه الوسطى من فاس ودبدو عدة شهور. وكان دخول الاتراك وبوحسون الوطاسى إلى فاس للحكم باسم ولى العهد ناصر الوطاسى (القاصرى أو ابو قصرية) والسلطان العثمانى .

وقد نجح الاتراك العثمانيون فى هذه المرة بالاحتفاظ بخدمتهم كحامية عسكرية بين قوات المغرب اذ ابقى بوحسون فرقة تركية مكونة من اربعمائة فارس بعد رحيل القوات العثمانية التى شاركت فى فتح فاس ولم يكن الاتراك يريدون فى هذه المرحلة سوى توطيد نفوذهم العسكرى وهو فى توفير حامية عسكرية ذات كفاءة ودراية قتالية عالية والالمام باستخدام كافة الاسلحة لاسيما الاسلحة النارية منها لتضاف إلى الحامية التركية او تحل محلها وهى الحامية التى كانت بالبلاط المغربى منذ ايام ابى حسون الوطاسى (٤٠٠ جندى ومن اضيف اليهم من مرتزقة ومتطوعين وافدين) .

وهكذا تشابكت الخيوط حول اخبار المغرب فى هذه السنوات فالسعديون يدخلون فاس وينهون الحكم الوطاسى وبوحسون الوطاسى يستعين بالقوات التركية ويستعيد فاس من السعدين والاتراك ينسقون جهودهم بالسلطنة الوطاسية المغربية عن طريق الجهاد الاسلامى ضد الاستعمار الايبيرى لاسيما وان ابا حسون كان قد فطن إلى غدر الاسبان عندما طلب من حاكم مليلة الاسبانى اعانته ضد محمد الشيخ السعدى، وكانت رسالة قد وردت من ملك الاسبان إلى الامير الوطاسى بوحسون تقول له.. ياسلطان ان اعطيتك جيشا من النصارى نسير به لم يبق لك فى المغرب ناصر ولا فى المسلمين حبيب فتجمع كلمة المسلمين عليك ويتفق رايهم على قتالك فيقاتلونك

ويجاهدون فيمن معك ويقاتلك الصديق قبل العدو والذى يليق بك ان تذهب إلى الجزائر وتنعم لهم بالمال وتخرج معك بحملة من الترك من اربعة آلاف واكثر، وهكذا اسرها لهم بوحسون وربما يكون قد اخذ بنصيحتهم وذهب إلى الجزائر .

ويذكر المؤرخ المجهول ان العلماء والفقهاء ورجال الدين وعليه القوم استقبلوا السلطان الوطاسى بوحسون احسن استقبال والقى الشيخ الزقاق احد كبار علماء فاس خطبه فى استقبال السلطان الوطاسى وانصاره من الاتراك العثمانين قال فيها «هذا بقية امرائكم الذين شيدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنوا المدارس وقاموا بامر الدين والدنيا» .

وتلك الخطبة تدل دلالة قاطعة على حب العلماء للوطاسيين لانهم ربما روا شدة وعنفا فى الحكم السعدى لاسيما ان فقهاء فاس ومكناس كانت لهم مواقف من الامارة السعدية لانهم لم يكونوا على وفاق معهم مما يدفع السعدين للقضاء فيما بعد على قادة الحركة الفقهية والعلمية والفكرية بالبلاد جملة واحدة، لان هؤلاء كانوا يؤلبون الناس عليهم من فوق المنابر ويوقدون عليهم نار الفتنة عند اكابر القوم وأهل الحل والعقد لكن محمد الشيخ السعدى أعد للامر عدته واستنفر جميع قبائل بلاد السوس والاجزاء الجنوبية من المغرب وانتهز فرصة الخلاف الذى نشب بين الوطاسين والاتراك من اجل الاموال التى كان يطلبها الجند والهدايا والمنح والعطايا فزحف إلى فاس ودارت بينه وبين الوطاسين معركة حاسمة وشديدة الوطأة وكان الظفر فيها لخليفة السعدين وقتل ابو حسون فى ٢٤ شوال ٩٦١هـ واستولى السعديون على فاس واراد الخليفة السعدى قتال مولاى عمر حاكم ديدو الذى استعان بالاتراك وكان ضمن حملة بوحسون، وديدو هذه مجموعه من القرى الواقعه على الهضبة المطلة على سهل تقرطا والتى تمتد على طول الضفة اليمنى لنهر ملوية وكان رئيس أو شيخ هذه المجموعه

يشمل بنفوذه وادى ظا حتى تازة وكان يدين بالولاء للوطاسين وقد بدا مستقلا اواخر عهدهم وقد لقبه الاسبان بلقب ملك حسبما لقبوا بوحسون بنفس اللقب اثناء وجوده فى بادس غمارة ومنذ عام ١٥٤٢م قام على حكم ديدو الشيخ عمر (عمار) بعد مقتل اخيه لكن فى اكتوبر ١٥٥١م طرده عبد الله بن محمد الشيخ وكانت عودته إلى ديدو فى نهاية عام ١٥٥٣م اثناء مسيره حملة بوحسون وصالح رايس التركمانى إلى فاس لكن فى يوليو ١٥٥٤م بعد مقتل بوحسوم فى فاس أعلن ولاء التبعية للشريف السعدى إلى حين كانت وفاته عام ١٥٦٠ م .

لكن سقوط فاس هذه المرة ودخول محمد الشيخ اليها انهت الدولة الوطاسية نهائيا واصبح محمد الشيخ الخليفة الاوحد بلا منازع داخل بلاد المغرب وهكذا كان عام ٩٦١هـ نهاية الاسرة الوطاسية .

الفصل الثانى

الاتراك العثمانيون ببلاد المغرب

شهدت بداية القرن السادس عشر الميلادى تحولا كبيرا فى ظهور الاتراك العثمانين باعتبارهم اقوى الدول الاسلامية لاسيما فى عهد سليم الاول وسليمان العظيم القانونى حيث حمل السلطان العثمانى لقب خليفة المسلمين الذى حصل عليه من الخليفة العباسى بالقاهرة كما حملوا لقب خليفة الحرمين الشريفين ومن هنا فى ظل ما يواجه المغرب الاسلامى تطلع اليه اهالى هذه الديار كمنفذين لهم بعد ان ارهقتهم غارات الايبيرين المسيحية (البرتغال والاسبان) ومن هنا كان على الاتراك العثمانيين مواجهة الوجه الصليبى بروح الجهاد الاسلامى لوقف المظاهر الاستعمارية للديار الاسلامية ومحاولة وضع مراكز قوة ونفوذ لها ببلاد المغرب والدخول فى سباق مع البرتغال واسبانيا ووقف التوسع الايبيرى لاسيما انه استطاع ان تكون له قواعد وجيوش استعمارية على الساحل التونسى والليبى وكان على الاتراك العثمانين ان يقفوا امام وجود البرتغال والاسبان مع مطلع القرن السادس عشر وان يعملوا على بناء سلطنة عثمانية فى بلاد المغرب فى مقابل انحسار الوجود العسكرى الاسبانى والبرتغالى والعمل على تقوية روح التضامن الاسلامى ورفع الروح الدينية للدولة الاسلامية العثمانية مع الامارات التى كانت توشك على النهاية والسقوط ومقتضيات التبعية لهذه الدويلات للدولة الاسلامية الكبرى والولاء للخلافة الاسلامية الشرقية التركية العجمية على حساب الوحدات السياسية الصغيرة للمغرب والاحتواء فى ظل الخلافة العثمانية وقوفا لحركة الاستيطان الاوربى الايبرى التى ترفع راية الصليب من اجل الاستغلال والسيطرة وكان العثمانيون قد دخلوا مصر عام ١٥١٧م ومن ثم فعن طريق موقع مصر الجغرافى سوف يتمكن العثمانيون من التقدم إلى بلاد المغرب العربى ولذا فقد

اصبحت طرابلس وتونس والجزائر كلها ولايات فى الامبراطورية العثمانية ولقد كان مجئ الاتراك العثمانين إلى بلاد المغرب بمثابة نجدة انقذت البلاد من الغزو الاوربى الايبرى وعلمت على توحيد البلاد سياسيا .

وكان الوجود العثمانى فى بلاد المغرب بداية بالدور العسكرى الذى قام به اخوان بربروسا الذين استقروا فى ميناء جيجلى الجزائرى وتسيدوه وكانوا اربعة عروج واخوته الياس واسحق وخير الدين ويصل نسبهما إلى اب تركى وام اندلسية عاشا حياة الجهاد العثمانى فى جزيرة مدلى من جزء بحر الارخبيل اليونانى وقد انجب هذا الاب المدعو يعقوب ابن يوسف والتى تروى بعض المصادر أيضا (الاوربية) انه كان مسيحيا واسلم وعمل فى صفوف الانكشارية، لكنه انجب من الام الاندلسية اولاده الاربعة اسحاق وعروج، خير الدين، محمد الياس. واختار محمد الياس طريق العام ودراسة الفقه وحفظ القرآن الكريم ثم لحق باخوته الثلاثة الذين اختاروا طريق الجهاد الاسلامى البحرى (وليس القرصنة كما اطلق الاوربيون على حركة الجهاد الاسلامى كرد فعل لطرد المسلمين من الاندلس) فى غرب البحر المتوسط حيث ذكريات الاندلس والمغرب الاندلسية التى كانت تلقى بذكريات وطنها الاندلس والارض السليبة وما زالت الانباء تتردد عن مزيد من المعارك الخاسرة امام القوى الابيرية وكان ان لقى عروج (اشتقاقا من المعراج المقدس ليلة الاسراء والمعراج) من الجهاد المقدس البحرى على الساحل التونسى ثم الجزائرى من فرص النجاح ما لم يصادفه غيره من رجال الجهاد البحرى فى شرق البحر المتوسط وقد اتخذ مدينة جربة (جزيرة جربة التونسية) اولى قواعده فى بلاد المغرب ولحق به فيها اخوه خير الدين واسحق ومحمد الياس ونظرا لدورهما فى الجهاد الاسلامى اقطعهما السلطان الحفصى ابو عبد الله محمد مرفأً حلق الوادى عام ١٥١٠م ومنذ عام ١٥١٢م كان انتقالهما إلى المغرب الاوسط حيث بنى زيان حكام

تلمسان او الجزائر متخذين من مدينة جيجل على بعد ١٠٢ كيلوا متر غرب بجاية قاعدة ينطلقان منها إلى أنحاء المغرب الاوسط فى اتجاه المغرب الاقصى حيث فاس ومراكش وكانت جيحل فى يد حامية جنوه الايطالية قبل ان يحررها عروج عام ١٥١٤م وهكذا تجلى الوجود العثمانى بوجود هؤلاء الاخوان العثمانين فى جيجل الواقعة على الشاطي الشرقى لخليج بجاية وبعث عروج إلى السلطان العثمانى بهدايا من غنائهم انتصاره فى جيجل ورد السلطان بارسال اربع عشرة سفينة حربية ببحارتها واسلحتهم وعتادهم ورجال عسكريين اى هكذا كانت باكورة الحامية العثمانية التى ترمز إلى السيادة العثمانية مع ارسال المير السنوى إلى تركيا والخطبة للخليفة فى الصلاة باسم السلطان العثمانى وسك السكة (العملة) العثمانية بالجزائر إلى سمات السيادة العثمانية والتبعية لسلطانها وفى عام ١٥١٦م بعد محاولات متكررة للاستيلاء على بجاية ونقل عروج قاعدته إلى الجزائر بناء على دعوة جاءته على لسان وفد من جزائر بنى مزنة يمثل المجتمع الاندلسى بالمدينة وهكذا وقفت القبائل لمناصرة نشاط هؤلاء الاخوة وعرفت طبيعة دورهم الجهادى الاسلامى والسياسى فى بلاد المغرب. وكانت المحاولة الاولى للاخوين العثمانين فى المغرب الجزائرى عندما هاجما بجاية بالرغم من فشل هجومها فقد مكنت معركة بجاية رجال القبائل المحيطين بالمدينة بالتعرف على القوة الحربية الحقيقية التى يتصف بها الجند الانكشارى العثمانى ولقد اعجب اهل البلاد لاول مرة بهذه الشجاعة التركية النادرة وهذه الحمية التى يتحلى بها المقاتل التركى مع اصابة قائدهم بجروح خطيرة اثناء المعركة مما اكسب الاتراك كل مودة وعطب وتعاون اسلامى .

ولقد كانت بجاية فى هذه الفترة الزمنية التى تدور فيها المعارك ذات اهمية استراتيجية وقتالية ودفاعية فهى تقع على مجرى وادى الصمام الذى يخترق الجبال

القبلية تحت اسم وادبى الصمام عند مدينة اقبو ومن هنا فلم يكن الاستيلاء عليها سهلا لاسيما انها كانت مسورة واسوار المدينة كانت عالية والمواقع الجبلية حصينة وقد قاتل الاسبان دفاعا عنها قتالا مميتا، لكن هذه المحاولة كانت مقدمة لعدة محاولات ناجحة فيما بعد وقد ادى هذا الموقف القتالى إلى مساندة قبائل مكناسة وزواوة المقيمة بالتلال المحيطة بالمدينة والذين وضعوا انفسهم تحت تصرف عروج واخوته. ورفضت هذه القبائل كلها التعامل مع الاسبان ورفضت التعامل الاقتصادى مع اسواقهم مما سبب عزلهم عن النشاط التجارى .

وهكذا كان ظهور الاتراك بهذه الصورة المشار اليها عن طريق نشاط الاخوة عروج على مسرح الاحداث فى المغرب العربى يمثل حلقة فى سلسلة حلقات تلك الدراسة التى كان المغرب الاقصى على الصورة والتى عرضنا لها تحت السيادة الوطاسية لكن المغرب الاوسط كانت الاسرة الزيانية التى يلقب شيوخها بل كهولها يحكمونه بعد ان عمرت ثلاثة قرون واجهت فيها ضغوط كل من الحفصين فى المغرب الادنى وبنى مرين فى المغرب الاقصى وكانت آواخر القرن الخامس عشر الميلادى قد شهدت تقلص كيان بنى زيان بحيث لم يبق لهم سوى العاصمة تلمسان وبعض الاحواز التى تحيط بها ولقد كانت البلاد من جراء النزاع الطويل مع بنى حفص وبنى زيان (انظر الجزء الخامس من هذه الموسوعة) معرضة للحصار من جانب القوتين عبر تاريخها الطويل مما كان له أكبر الاثر على تدهور الدولة ودورها السياسى وتعرضها للغزو الاسبانى والبرتغالى وادى ذلك إلى تفكك الدولة مما ساعد الاسبان على احتلال المدن الساحلية وتعامل شيوخ القبائل فى السهول الساحلية للمغرب الادنى والاوسط (الحفصى الزيانى) مع سلطات الاحتلال الاسبانى وذلك بحكم سيطرة الاسبان على المداخل الساحلية وتحكمهم فى حركة تجارة البحر المتوسط وبعد ان سلم السلطان

الزيانى ابو حمو الثالث بالتبعية لاسبانيا بعد نكبة وهران عام ١٥٠٩م التى انتصر فيها الاسبان بتاريخ ١٧ مايو ١٥٠٩م على المدينة التى بلغ عدد القتلى فيها اكثر من اربعة آلاف قتيل واستولى الاسبان على ما لا يقل عن ثمانية آلاف اسير ولم يقتل من الاسبان الا اعداد قليلة ومن جراء هذه المعركة سلم السلطان الزيانى ابو حمو الثالث بالتبعية المباشرة لاسبانيا، كذلك خضع للتبعية الاسبانية قبائل بنى عامر العربية الهلالية وغيرهم من القبائل التى تقيم فى انحاء وهران وهذا عن كيان دولة بنى زيان وما يترتب على ذلك من التدخل العثمانى التركى الذى سنرى صورته الفعلية فى الصفحات التالية والذى سيرفع راية الجهاد فى وجه الغزو الاسبانى محررا هذه البلاد من قبضة الحكم الاوربى الايبيرى الصليبى وهكذا سقطت السلطة الزيانية ودانت بالتبعية للسلطات الاسبانية وكما سلم سلطان تلمسان بالتبعية للاسبان فقد جاء الدور على السلطان الحفصى فى تونس ابى عبد الله لكى يسلم بالتبعية أيضا للاسبان بعد ان عمات عوامل الضعف والانهيار فى دولتهم وقبوله احتلال بجاية بعد كارثة غزوها عام ١٥١٠م وبعد قبول شيخ الجزائر الشيخ سلم بن تومى استرضاء الاسبان وقبول احتلالهم حجرة الجزائر عام ١٥١١م وبعد ان توج الاسبان انتصاراتهم بالجمع بين الاميرين الحفصين المتحاربين عبد الرحمن مغتصب السلطة وعبد الله السلطان المخلوع فى معاهدة واحدة استسلامية مما دفع الاسبان إلى احتلال طرابلس الليبية فى نفس العام وقد دفع ذلك ملك اسبانيا فرديناند إلى تعاونه مع فرسان جزيرة رودس من أجل الاستيلاء على مصر .

لاسيما وان المدن والبلاد المغربية فى تونس والجزائر كانت تعمل على كسب رضا الاسبان ومن ذلك ما قامت به شياخة الثعالبة بالجزائر بعد ان وقعت احداث احتلال بجاية بارسال وفد من اعيان المدينة الجزائرية إلى بجاية استرضاء للاسبان (بدلا

من اعداد انفسهم وقواتهم للجهاد والقتال يرسلون للاستلام) وعقد اتفاقا مع السلطات الاسبانية اعترافا بالتبعية وفيه سلم الوفد الجزائرى للاسبان باكبر جزر الجزائر التى يدعوها اسطفله والتى بنى الاسبان على انقاض مسجد اسلامى (ومنارته قلعتهم البحرية المسماه بصخرة الجزائر) كذلك عندما وقع سلاطين الذل والمهانة الحفصيين عبد الرحمن وعبد الله وملك اسبانيا فردناندو، وفيها اعترف عبد الله لعبد الرحمن (لاحظ اسماء كل منهما عبد الرحمن، عبد الله) بملكه نظير تسليم عبد الرحمن لاحتلال اسبانيا لمدينة بجاية وصخرة الجزائر وتدليس وكل المراسى البحرية وتوابعها كل ذلك فى وقت انهارت فيه الجبهه الاسلامية بعد سقوط غرناطة عام ١٤٩٢م .

كذلك يقوم الحفصيون بتسليم جميع الاسرى المسيحيين إلى اسبانيا دون مقابل مالى والتعهد بتزويد الاسبان فى بجاية بالمؤن التى يحتاجون اليها وحددت الاتفاقية مقاديرها السنوية مجانا وكذلك ضمانا لتنفيذ بنود هذه الاتفاقية يقوم كل من الأميرين المسلمين بابقاء رهينة فى البلاط الاسبانى وحدث اثناء توقيع تلك الاتفاقية ان كان ابن عبد الله الحفصى صغير السن ونشا وشب على يد الرهبان ومنحه ملك اسبانيا لقبا من القاب العائلة المالكة فعاش حياته ومات مسيحيا .

ومن تلك المحن فقد تعرض الاسلام ودياره للخطر فكان ان استدعى الامير الحفصى عام ١٥١٢م عروج طالبا معاونته ومدافعا عن ديار الاسلام بعد ان اضطر إلى ترك العرش حتى جعل كثيرا من المسلمين ينضمون إلى حركة الاتراك العثمانين دفاعا عن الاسلام ودياره وكان ان سيطروا على جيجل عام ١٥١٦م ورات هذه المدن التونسية والجزائرية فى الوجود التركى حصنا لها بعد ان كانوا قد اضطروا إلى دفع الجزية للاسبان وخضعوا لتهديد مستمر من مدافع السفن الحربية من القاعدة الاسبانية فى نبون الجزائرية واستعدت الجالية الاندلسية التى ذاقت الوان العذاب على ايدى

الاسبان من جراء التهديدات الاسبانية ان تؤيد عروج لاسيما انه كان يوجد من الاندلسيين خمسة عشر الف يحسنون استخدام الاسلحة النارية من بينهم عشرة الاف رجل من العرب الذين زحفوا من الاندلس فى السنوات الاخيرة وهم من خيرة الجند في الجزائر وقد دعم ذلك الوجود العثمانى وشد من ازره واعطاه دفعة قوية لمحاولة ايجاد قاعدة قوية للقوة الاسلامية انطلاقا منها لطرد المحتل الاسبانى ومن هنا بدا تنظيم عروج العسكرى لاسيما بعد دخول القوات العثمانية التى اقلتها اربعة عشر سفينة حربية اشبه بتحالف عثمانى عربى اندلسى يقود راية الجهاد الاسلامى ضد الوجود الاسبانى، بينمارات قوات التخاذل والانهزام التى تخضع للاسبان من الامير الحفصى احمد امير بونه والشيوخ الثعلبى وامير نيس الزيانى (الامير يحيى) فى هذا التحالف الجديد ما هو الا سطوة قبلية بربرية باسم السلطنة العثمانية .

لكن التوسع العثمانى الاندلسى الزواوى الذى رفع راية الجهاد الاسلامى محاربا لفكرة السيطرة البرتغالية الاسبانية نجح فى ان يوسع دائرة الوجود والتوسع بحدود الدولة الصغيرة التركية فضم اليه مدينة تنيس والمدية ومليانه والبليدة وهكذا لم يات عام ١٥١٧ وهو عام سقوط القاهرة فى ايدى السلطان سليم الاول الا وكان عروج قد تمكن من فتح مدينة تلمسان وضمها للباشوية التركية الجزائرية وهكذا قبلت بعض القبائل القتال بجانب العثمانين وقبول سيادتهم الاسلامية والانطواء تحت راية الاسلام وجهادا للاسبان لاسيما وان قبائل زواوة استطاعت ان تكلف الاسبان ما بين ثلاثة آلاف قتيل او اكثر عند محاولتهم احتلال جزيرة قرقنة مما رفع الروح المعنوية لدى مسلمى الساحل بعد ان كبدوهم خسائر فادحة فى الارواح .

لكن على الجانب الآخر كانت هناك عقبات تواجه التوسع التركى العثمانى وترك فى ذلك خطرا على نفوذها القبلى والذين ينظرون إلى الامور نظرة ضيقة وبروح

قبلية تتناقض مع الروح الاسلامية التى كان يجب ان تسود ارجاء العالم الاسلامى فى ذلك الوقت لاسيما وان الطرف الآخر كانت سفنه ترفع راية الصليب عاليا ومن هنا ظهرت مقاومة شيخ الثعالبة الذى كان رمز القبيلية الضيقة لكن هذا الشيخ القبلى الذى قبل الخضوع ودفع الجزية السنوية للاسبان برفض الانطواء تحت راية الاسلام لكنه لقى حتفه عام ١٥١٥م. وكان هذا الشيخ هو (السالم القومى) الذى قتل بامر عروج نظرا لتحالفه مع الاسبان لكن ابنه يحيى بن سالم التومى ذهب إلى وهران بطلب عون الاسبان لمساعدته فى استرجاع شياخة ابيه وقد راى الاسبان فى ذلك فرصة لتوسع دائرة نفوذهم ومن ثم امدوه بقوات كبيرة استطاع عروج العثمانى ان ينتصر عليها فى معركة باب الواد (سبتمبر ١٥١٦م) ويذكر ان ضحايا الاسبان بلغوا ثلاثة آلاف قتيل واكثر من ٨٠٠ اسير اسبانى وهكذا استطاع النفوذ التركى ان يحرز انتصارا باهرا على الاسبان وقد راى عروج ان الاوضاع غير مستقرة بالمغرب الاوسط فنهض إلى محاربة قبائل بنى يرتلاسن لكنه هزم وقتل عام ١٥١٧م بالقرب من تلمسان وقد تم دفن عروج بمدينة الجزائر العاصمة حيث دفن بجوار ضريح سيدى رمضان وقبره عن يمين الداخل متصلا بجدار المسجد .

وقد ادت وفاة المجاهد البحرى العثمانى إلى نكسة فى حركة المد العثمانى حيث ادت إلى نكسة كبرى لهذه الباشوية الجزائرية مما دفع خير الدين إلى التخلى عن بعض المدن التى كان يسيطر عليها الاتراك ومن ثم يتنقل إلى مدينة جيجل محاولا جمع صفوف قواته التركية وانتظارا لوصول امدادات تركية جديدة وقد استمر ذلك الوضع حتى عام ١٥٢٥ بعد ان تزعمت قبيلة بنى عامر العربية التى تسكن بجوار تلمسان حركة المقاومة للسيطرة التركية لاسيما وان اهل تلمسان قد سلموا سيطرة الاتراك بعد ان عاملوهم بالشدة والقسوة وصادروا اموالهم فكانت العودة إلى جيجل .

والذى يعود إلى النظر فى الجزء الخامس من هذه الموسوعة يدرك ان امارة بنى زيان حتى هذا التاريخ كانت تتنازعها القوى التركية ممثلة فى عروج واخيه خير الدين والحماية الاسبانية ممثلة فى اعلان التبعية والسيطرة على بعض القواعد والمدن الساحلية وكذلك وجود قوى الثعالبة وبنى عامر العربية وقوى الاندلسيين والبربر من امازيغ وزواوة وذلك حتى عام ١٥٣٤م عند وفاة الامير عبد الله الثييتى الذى خلف ابا حمو الثالث على الامارة الزيانية .

لكن عام ١٥٤٨م شهد بعدا جديدا فى قوة القبضة التركية على الامور فى تلمسان اذ استطاعت ان تضع الامير الحسن بدلا من ابناء ابى عبد الله محمد الاخيرين وان يكون الحاكم الفعلى للبلاد بيد القائد محمود التركى مع وضع حامية كبيرة من الاتراك فى تلمسان لاسيما ان ابناء السلطان الريانى كانوا يلجاون إلى الجزائر طلبا للنجدة من خير الدين والتزاما بالبيعة والولاء للسلطان العثمانى .

وهكذا كان عام ١٥٤٨م هو عام العودة التركية بصورة قوية وهكذا كانت الفترة السابقة من اعوام ١٥١٠– ١٥٤٨م هى فترة تمهيد يقوم بها رجال الجهاد الاسلامى العثمانى توطئه للسيطرة التامة التركية على بلاد المغرب الاوسط والادتى (الزيانى– الحفصى) .

ولقد كان دخول القوى الاسلامية البحرية المجاهدة بتايد الخلافة التركية العثمانية يهدف فى المقام الاول إلى تخليص بلاد المغرب من المحتلين الايبيرين (الاسبان والبرتغال) والقضاء على نفوذ الفرنجة، ثم ضم واطوء هذه الديار فى ظل الخلافة العثمانية التى سيطرت على بقية العالم الاسلامى الشرقى وكان من الطبيعى ان يمتد نفوذ الاتراك إلى بلاد المغرب وخاصة بعد سقوط بلاد الشام عام ١٥١٦ ومصر عام ١٥١٧م وذلك لمجاورة المغرب لمصر من كل هذا للنشاط الذى قامت له اسرة بابا روسا

من رجال الجهاد الاسلامى البحرى المشهورين فى ذلك العصر وهو القرن السادس عشر الميلادى العاشر الهجرى .

ولقد كان نشاط القوى الاسلامية فى بلاد الجزائر الرامية إلى توحيد الجهود مع السلطان البحرية المجاهدة التى اتخذت لها مواطن قدم فى جيجل وبجاية والتى عملت بالتعاون مع عروج واخوته على التخلص من القيادات الوطنية من بنى زيان وفيما بعد من بنى حفص بعد ان عجزوا عن مقاومة الخطر الاسبانى والذين كانوا يحتلون وهران والمدن الكبيرة فى ذلك الوقت بل ان اسرة بنى زيان قد تهاونوا وخضعوا للنفوذ الاسبانى وطلبوا حمايتهم والحكم فى ظل التاج الاسبانى ودفع الجزية السنوية لملك اسبانيا، بل تمادوا فى دور السلبية والمهانة التى لا تتلائم ابدا مع الروح الاسلامية والاصول العربية وطلبوا حمايتهم من خطر الثائرين من الاهالى ورجال الجهاد الاسلامى المتطلعين للقضاء على حكمهم بالبلاد وبعد تعاونهم مع قوى الاحتلال الايبيرى .

وسار عروج إلى تلمسان حيث اقام حاميات اسلامية تركية عثمانية بتشجيع من القبائل فى مدينة مدية ومليانة وامتد حكمه حتى وصل إلى حدود بلاد المغرب الاقصى وقضى عروج على حكم بنى زيان فى تلمسان ولكن آخر حكام بنى زيان (عبد الله السلطان المخلوع) استنجد باعداء البلاد والاسلام والعروبة الاسبان وارسلت اسبانيا قوات قوامها ١٥ الف رجل تمكنت من التوغل فى اراضى الجزائر ومحاصرة تلمسان ولقد صمد عروج امام هذا الحصار ثم تمكن من ان يخترق خطوط الحصار بعد ان اعلن اعداؤه من بنى زيان الثورة ضده وواصل فراره الا ان الاسبان تعقبوه وتغلبوا عليه وقتلوه عام ٩٢٤هـ/ ١٥١٨م وقد سبق الاشارة إلى ذلك فى الصفحات السابقة .

وبعد مقتل عروج تولى قيادة عمليات الجهاد فى المغرب الكبير اخوه خير الدين بابار رسا الذى اتصل بالدولة العثمانية يعرض على سلطان الخلافة العثمانية التركية الدخول فى طاعته وضم المغرب الاوسط تحت نفوذها فامده السلطان سليم الاول بالفين من خيرة الجنود الانكشارية وسمح له بتجنيد الاهالى والاتراك من تركيا نفسها حتى يتمكن من مواجهة قوى الاستعمار الايبيرى التى تريد السيطرة على القوى الاسلامية فى بلاد المغرب كما سبق لها ان طردت المسلمين من ديارهم فى الاندلس .

وبهذه المبادرة التى قام بها خير الدين اصبحت الجزائر منذ عام ١٥١٨م احدى الولايات العثمانية ولكن بقى على خير الدين ان يبذل جهودا مضنية قبل ان يؤسس ولاية قوية فى حين اننا نجد على الجانب الآخر فان القوى الايبيرية الاسبانية استطاعت ان تعيد إلى عرش الحضرة الزيانية فى تلمسان السلطان أبا حمو الثالث عام ١٥١٨ وهو نفس العام الذى طلب فيه خير الدين دخول المغرب الاوسط تحت لواء الخلافة العثمانية والذى استطاع بفضل المساعدة الاسبانية ان يظل فى حكم البلاد ثم استمر هذا الخضوع للقوى الاسبانية إلى وقت وفاة من خلفه على العرش الزيانى (الامير عبد الله الثبتى) عام ١٥٣٤م. ولقد كانت السنوات الخمس عشرة (١٥١٨– ١٥٣٤م) بعد وفاة أبى حمو الثالث فى نفس العام الذى عاد فيه للسلطة سنوات نزاع اسرع فى تلمسان بين ابى محمد عبد الله الثيتى واخيه ابى سرحان مسعود، والذى استطاع ان ينتصر على اخيه ابى سرحان مسعود وحاول ان يتخذ فى سياسته الخارجية موقفا محايدا بين القوى العثمانية التركية فى الجزائر وبين القوى الاسبانية، لكن اخاه أبو سرحان مسعود ثار عليه وطلب الاعانة من خير الدين، القوات التركية فى عام ١٥١٩م واستطاع بمساعدة القوى التركية الجزائرية ان يستولى على تلمسان ويطرد اخاه عبد الله الثانى وبايع السلطان العثمانى سليم الاول ثم نكث بالبيعة واعلن تمرده على

القوات وطردها من تلمسان والباحث حين يقلب فى صفحات تلك الحقبة واقوال المؤرخين لاسيما المعاصرين او المقربين من الاحداث يدرك مدى قصر النظر الذى كان يحكم عقلية بعض الحكام اذ كيف يبرر سلطان البلاد تعاونه مع القوى الخارجية الاجنبية غير المسلمة والتى لاتضمر سوى الشر بالاسلام واهله .

ويتعاون معها على قوى اسلامية تركية عثمانية مهما يكن نوع الحكم وطبيعة العلاقة بين الحكام الاتراك والحكام السابقين وان الذى يقلب صفحات تاريخ اسبانيا والبرتغال وانجلترا وفرنسا وايطاليا وصقلية فى تلك الحقبة من القرن السادس عشر الميلادى يدرك انه مهما تكن الخلافات بين القوى الكاثوليكية والبروتساتنتية فى عدم السماح للقوى الاسلامية باحتلال شبر من الارض الاوربية مهما كانت درجة التعاون، لكن القوى الاسلامية لم تكن تفطن لاساليب القوى الاوربية التى كانت تسعى للتفرقة بين القوى الاسلامية وجعلها تتصارع مع بعضها البعض حتى نظل ضعيفة وغير قادرة علبى مواجهة الاحداث منفردة بعد استنزاف ثرواتها والعوز العسكرى لحمايتها وهذا ما كان يتجلى فى ارتماء القوى المغربية سواء فى المغرب الاوسط والاقصى فى ظل الحماية الاسبانية او البرتغالية مما دفع الاتراك لاتخاذ مواقف حاسمة ازاء هذا الصراع وضرورة تدخل الدولة المباشر بدلا من القوات البحرية الاسلامية المجاهدة فى غرب البحر المتوسط التى مارست دورها بقوة وفاعلية بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين فى الاندلس عام ١٤٩٣م والتى اطلق عليهم الاوربيون قراصنة البحر وللاسف الشديد سار على نهجهم بعض المؤرخين العرب واطلقوا اسم القراصنة على حملة الجهاد الاسلامى التى كانت قوة تعمل لرد فعل طرد المسلمين من الاندلس واحتلال الموانئ والمدن على السواحل المغربية .

السيادة التركية العثمانية المباشر للمغرب

بعد ان طلب خير الدين من السلطان سليم الاول دخوله فى طاعة الدولة فانه اخضع الملاحة فى غرب البحر المتوسط للاساطيل التركية لذا هابته جميع الدول الاوربية واصدر السلطان العثمانى قرارا بترقيته عسكريا واستطاع ان يثار للاندلسين والمورسكين الذين تعرضوا لاقصى انواع العذاب والاضطهاد على ايدى القوى الاسبانية بالقيام ببعض الغارات على ثغور البلاد المسيحية وعلى قواتهم وسفنهم الذاهبة فى طريقها إلى الشرق الاقصى او فى طريق عودتها فى ان واحد حتى انه فرض على كل سفينه تمر من سفن الاعداء ضريبة لابد من دفعها ولم تكن اهداف خير الدين ورجال الجهاد البحرى الاسلامى تقف عند حد ضم بلاد المغرب الاوسط إلى الدولة العثمانية والحكم باسمها بل كان السعى إلى توحيد بلاد المغرب تحت التاج العثمانى لاسيما ان القوات البحرية العثمانية كانت تجد فى ذلك الوقت معاونة من عدد من رؤساء القبائل وحكام المدن المغاربة، ولما توفى خير الدين اسندت ولاية الجزائر إلى ابنه حسن باشا الذى واصل سياسة ابيه فى تدعيم السيطرة العثمانية فى بلاد المغرب، لذا عملت القوى الاوربية إلى محاصرة نشاطة والقضاء عليه، لذا قاد حاكم اسبانيا وامبراطور الامبراطورية الرومانية عام ١٥٣٥ حملة لاستعادة سلطان الحفصين بتونس والذين كانوا يحكمون فى اواخر عهدهم باسم الاحتلال الاسبانى وكانت تونس قد سقطت عام ١٥٣٤م فى يد خير الدين، ونجح شر لمان فى اعادة النفوذ الاسبانى على تونس .

لكن عام ١٥٤٨م شهد عودة القوى التركية إلى ممارسة دورها بقوة فى تلمسان واقاموا على امارتها الامير حسن ابن الامبراطور أبى عبد الله محمد كواجهة للحكم الزيانى لكن كان يخضع لحماية القوات التركية، لكن القوى الاسبانية استطاعت عام

١٥٤٤ ان تعيد السلطان محمد السابع ابن ابى عبد الله محمد الزيانى إلى عرش البلاد، لكن ثورة عارمة قامت فى تلمسان استطاعت ان تنهى حكم هذا السلطان الذى تعاون مع الاسبان وان تعبد أخاه احمد الثالث بن ابى عبد الله محمد. غير انه اعلن تقربه إلى السلطات الاسبانية وابتعد عن الاتراك لكنه خلع من السلطان لكن الاحداث لم تكن لتظل والصراع يدور بين الاخوة على عرش البلاد وكان ان اضطرت القوات التركية ١٥٤٧م بقيادة حسن باشا بن خير الدين ونائبة على حكم الجزائر إلى خوض معركة بموقع بالقرب من مستغانم حيث دارت معركة استمرت لمدة اسبوع او يزيد اضطر الاسبان بعد هزيمتهم إلى الانسحاب إلى وهران وهكذا ظلت لعبة الصراع بين الاخوة والصراع على تولى السلطة الزيانية إلى ان استطاعت امارة الجزائر العثمانية ان تعيد تثبيت كيانها السياسى والادارى وتصدر تنظيماتها التى تكفل لها ادارة هذا الاقليم على اسس واضحة وثابتة لاتسمح بتكرار الاحداث التى تدور بين امراء بنى زيان وذلك بعد ان كان قد مضى الوجود التركى اكثر من نصف قرن .

وكما حدث للاسرة الزيانية فى تلمسان حدث للاسرة الحفصية فى تونس التى سقطت فى ايدى الاسبان عام ١٥٣٥م بعد ان حكمت اكثر من مائتى عام (انظر الجزء الخامس من الموسوعة) (اسرة بنى حفص فى المغرب الادنى) .

وكانت هذه الاسرة قد اصابها الضعف نظرا لعدم قدرة سلاطين هذه البلاد على مواجهة الاخطار الداخلية والخارجية وعدم قيامهم بالمسئولية التاريخية للقاة على عاتقهم حيث استطاع الاسبان فى ذلك العام ١٥٣٥م دخول تونس العاصمة بعد معركة استمرت ما يقرب من الاربعين يوما استباح الاسبان العاصمة مدة ثلاثة ايام حتى بلغ عدد القتلى اكثر من سبعين الف نسمة وتبددت ثروات المدينة واثارها ونفائسها واموالها وخضع السلطان الحسن بن محمد لحكم الاسبان بمقتضى معاهدة

نصت على اعتراف السلطة الحفصية بتتبعها للدولة الاسبانية وملكية الاسبان ملكية مطلقة لمرسى حلق الوادى وقرطاجنة وعنابة والمهدية والزام السلطان بدفع مبلغ مالى سنويا للسلطات الحاكمة فى اسبانيا، وان يغلق بلاده امام المهاجرين الاندلسين المسلمين واليهود، ولقد كان انشغال هذا السلطان بما يلبى رغباته الشخصية دون مصالح الرعية والبلاد والدين سببا فى ما اصاب البلاد من فساد فكان ان هيا الله القوى التركية العثمانية لكى تقوم بواجبها الاسلامى مهما يكن نوع الحكم الذى تمارسه لكنها كانت دولة اسلامية تحترم مشاعر البلاد والعباد ولاترفع راية الصليب فوق قصر الحاكم، لكن تونس كانت قد خضعت للحكم العثمانى فى الفترة من ١٥٣٣م/ ١٥٣٥م ثم اضطرت إلى تركها لكى تعود إلى دائرة الحكم الاسبانى المباشر عام ١٥٧٣م على الرغم من انتصار تركيا على الاسبان فى معركة جربة عام ١٥٦٠م التى حلت بالاسبان ككارثة حربية عظمى انتصر فيها العثمانيون انتصارا ساحقا على القوى الايبيرية فى اكتوبر من نفس العام وكانت جربة التى درات فيها المعركة تقع فى خليج قابس التونسى وكانت تخضع لحماية اسبانية من قوة بحرية مكونة من ٦٥ سفينة حربية وقد حاصرها الاتراك حصارا محكما دام طوال ستة اسابيع متواصلة لم يكتب لاحد من القوات او السفن النجاة حيث تم ابادتهم نهائيا مما دفع اسبانيا لكى تطلب المساندة من فرنسا ازاء القوة التركية التى باتت تهدد كل القوة الاوربية فى حوض البحر المتوسط مما دفع القوة الاسبانية ان تعمل ما بوسعها العمل على الانتقام لهذه الهزيمة المخربة التى حلت بها ومحاولة الوقوف امام الخطر العثمانى الذى بات يرسم صورة المستقبل البحرى فى حوض البحر المتوسط منفردا لاسيما وان خطط الاتراك كانت ترمى إلى ضرب القوى الاسبانية فى المغرب وسواحله ومالطة وصقلية وجنوب ايطاليا والعمل على اعادة النفوذ الاسلامى إلى الاندلس لكن العلاقات التركية المغربية لم تكن تسير على نفس النهج لاسيما بعد نكسة الاسطول العثمانى عام ١٥٧١م فى

معركة ليباتو التى انتصر فيها الاسطول الاسبانى على الاسطول التركى العثمانى كرد فعل على هزيمة جربة المخزية .

لكن الباشوية التركية بعد انتصار جربة عام ١٥٦٠م بدات تمارس حكمها المباشر وفق الرواية التركية التى عملت على انهاء الوجود الاييبرى والاسرتين الزيانية والحفصية والتبعية للامبراطورية العثمانية التى نصت باى للبلاد تنفيذا للحكم العثمانى الذى عمل على اخضاع كل الاملاك الزيانية والحفصية لتنظيمات الحكم العثمانى المباشر .

فى اطار الحكومة بين الاستانه والولايات العثمانية فى اطار الحكم الذى تم فيه تقسيم الامبراطورية العثمانية إلى ولايات فقد كان تحطيما للاسطول الاسبانى وكسرا للهجوم الاسبانى فى نفس الوقت والتوسع غربا على سواحل المغرب غرب شرشال بنحو ١٢٠ كيلو متر باتجاه وهران. كذلك تم لهم الاستيلاء على طرابلس وكانت طرابلس- ليبيا قد وقعت تحت سيطرة الاحتلال الاسبانى فى الفترة من عام ١٥١٠- ١٥٢٥م ولما كان الاهالى قد كرهوا الحكم المسيحى وكانوا قد سمعوا عن سيطرة الاتراك على مصر عام ١٥١٧م وقيام دولة الاتراك القوية التى استولت على القسطنطينية عام ١٤٥٣م بل انهم استولوا على الشرق الاسلامى كله وحمل سلطانهم لقب الخلافة وادركوا فى نفس الوقت عدم قدرتهم على محاربة الاسبان فسافر وقد منهم إلى تركيا وكان ذلك عام ١٥٢٥م مستجدين بالخلافة الاسلامية فاستجاب السلطان لطلب الوفد الليبى وأرسل مراد أغا على راس قوة عسكرية ثم امده باسطول بحرى تحت قيادة سنان باشا استطاع ان يستولى على مدينة طرابلس عام ١٥٥١م وعين ورغون باشا واليا عليها وهكذا سقطت تحت السيطرة التركية واصبحت بلاد المغرب منذ ذلك الوقت ثلاث ايالات تركية طرابلس، تونس، الجزائر وكانت القوة الحفصية فى يد خير الدين ثم ابنه

حسن والتوسع غربا حتى ساحل اسبانيا ورفع شعار انقاذ الاندلسين الفارين والعمل على تحرير الاندلس وتهديد خطوط الملاحة البحرية الاسبانية فى المحيط ولاسيما الممتلكات الاسبانية الامريكية ولقد كانت هذه التوسعات والانتصارات دفعا للحدود التركية العثمانية إلى حدود المغرب الاقصى ووقوفا على بوابة المغرب الوطاسى الذى كانت يتهدده فى تلك السنوات الزحف السعدى القادم من الجنوب والذى كان يدخل فى صراع مع بنى وطاس حول السيطرة على مراكش .

ومن هنا كانت الفترة التى استغرقها العمل العسكرى العثمانى فى توطيد نفوذه فى الجزائر اولا ثم تلمسان من عام ١٥٤٨ حتى عام ١٥٦٠م وانتصاره على الاسطول الاسبانى فى جربه ثم ما تلى ذلك من بسط النفوذ التركى على تونس وضم هذه الولايات إلى تركيا وتقسيمها كولايات ما هو الا مقدمة للسيطرة الكاملة على كل بلاد المغرب وتوحيده تحت السيادة التركية بعد فترة زادت عن ربع قرن من الزمان تم فيه اخضاع تونس وتلمسان نهائيا إلى امارة الجزائر كانت فيها القوى الاسلامية التى ترفض الخضوع للسيادة الاسلامية التركية تجد لها مبررا قويا للاتجاه نحو طلب المساندة من اسبانيا بحجة الولاء القبلى او الاقليمى والمحافظة على كياناتها الصغرى التى كانت قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والشيخوخه والتى لم يعد وجودها على رأس السلطة مبررا تحكمها للبلاد. ولقد كان من عوامل تاخر فرض السيادة التركية على هذه البلاد هو تخلص القيادات فى بنى زيان وبنى حفص من كل تعهداتها للاتراك وكمحاولة كسب ود السلطات الاسبانية مثلما حصل فى حملة شرلمان نفسه على تونس ١٥٣٥م وفى مقابل ذلك تنازل السلطان الحفصى عن مدينة عنابة وقد ادى هذا التداخل إلى صراعات قوية بين القوى التركية التى نرى فى وجودها فى البلاد الاسلامية باعتبارها مقر الخلافة وفى الخلافة نفسها سندا شرعيا لكى تمارس نفوذها ولكى ذلك كان

يجعل مصير القيادات الزيانية والحفصية بلا ضمان مما كان يدفعها إلى طلب الحماية الاسبانية وقد اخر هذا من فرص النظر إلى مشاكل مسلمى الاندلس ومحاولة ايجاد مخرج لحل قبضاتهم التى كانت تتفاقم فى ظل محاكم التفتيش والاجبار على التنصر او ترك البلاد واغراق السفن التى تنقلهم إلى بلاد المغرب أو دفع حكومات بنى زيان وبنى حفص إلى اغلاق بلادهم فى وجه للاجئين الاندلسين .

ولقد وضعت السلطة العثمانية نصب عينها ضرورة السيطرة الكاملة على جميع بلاد المغرب من طرابلس شرقا إلى المحيط الاطلسى غربا فكانت السيطرة على طرابلس وبجاية وحلق الوادى ثم اخيرا حجر ماديس من أراضى السلطنة الوطاسية بفاس ومن ثم بات واضحا ان سياسة الغزر العثمانى قد حققت اهدافها فى ايجاد مواقع متقدمة لها فى المغرب الادنى والاوسط والاقصى، ولكن هذا لم يكن هدفها النهائى فى امتلاك هذه المعابر حيث انها كانت ترى فى القضاء على كل الجيوب التى اقامتها القوى الايبيرية الاسبانية والبرتغالية عائقا يقف امامها تحد من تطلعاتها إلى الاندلس فى وقت كان العالم الاوربى يموج فيه بالصراعات مما كان سيدفع بالقوى العثمانية بالتدخل لولا انها وجدت تخاذلا من قوى الزيانين فى تلمسان والحفصين في تونس والذين كانوا يلجأون إلى هذه القوى للاستنجاد بها وكذلك كانت القوى الوطاسية تتخاذل فى تعاونها مع الاتراك العثمانيين من أجل انهاء الوجود الاستعمارى ولم تكن تلجأ إلى طلب المساعدة من القوى العثمانية الا لحظة الاحساس بالخطر الدائم لاسيما فى وجود قوى نامية ناشئة تسعى لكى تجد لها مكانا فى الصراعات التى تجرى على ارض المغرب لاسيما ان القوى التركية بعد ان بسطت لواءها على المغربيين الاوسط والادنى كانت تتطلع إلى المغرب الاقصى الذى كان فى تلك الحقبة من السيطرة العثمانية على بلاد بنى زيان وبنى حفص يواجه صراعا بين الوطاسيين المعاصرين لكل هذه الاحداث وبين

السعدين القادمين من الجنوب لانشاء دولتهم على حساب بنى وطاس كما كان للاتراك كلمتهم على حساب بنى زيان وبنى حفص وهكذا كان الوجود التركى معاصرا لحكم بنى وطاس فى المغرب الاقصى .

الفصل الثالث

الاستعمار الايبيرى (البرتغالى- الاسبانى) وموقف بنى وطاس

أ- الاحتلال البرتغالى

كانت معركة طريف التى دارت رحاها فى جمادى الاولى عام ٧٤١هـ/ ٣٠ اكتوبر ١٣٤٠م بين القوات الاسلامية بقيادة سلطان بنى مرين ابى الحسن على بن عثمان بن يعقوب وبين ملك قشتالة الفونسو الحادى عشر والتى تطلق عليها المصادر الاسبانية واقعه نهر سلادوا على اسم النهر المجاور لطريف فى جنوب اسبانيا بداية النهاية للوجود الاسلامى فى بلاد الاندلس حيث كانت كارثة طريف قد وضعت حدا للمساعدات الاسلامية القادمة من المغرب لاخوة الاسلام فى الاندلس لانه توالى على حكم بنى مرين سلاطين لم تكن لهم قوة اسلافهم ولا حذرهم وحيطتهم وشعورهم بالخطر المحدق بالاسلام واهله ودياره على ارض الاندلس وعاشوا عيشة ترف ولهو ومن تصاريف القدر العجيبة انه فى الوقت الذى كانت فيه عوامل الضعف تدب وتضرب باطيانها فى فاس والمغرب كانت القوة تتجمع فى كل من اسبانيا والبرتغال لكى تأخذ بيدها زمام المبادرة بعد احراز الفونسو نصره الحاسم فى معركة سلادو والذى يقال ان سلاح المدفعية استخدم فيها لاول مرة فى تاريخ أوربا .

ومن هذه المعركة بدات حرب الاسترداد تأخذ بعدا آخر وبدأت حرب الغزو الخارجى ترسم فى اذهان الاوربيين وقيامهم بالحرب المقدسة ضد الوجود الاسلامى وبدات موازين القوى تميل لصالح هذه القوى التى رات فى نفسها القدرة على الامساك بزمام الامور فى الصراع الدائر على أرض الاندلس والعمل على نقله للمغرب من منظور حصار غرناطة بالاستيلاء على الموانئ المغربية وقطع الصلة بينها وبين الامدادات التى قد تصلها من الجانب المغربى فى المستقبل القريب .

ولما كانت القوى الايبيرية البرتغالية تتربص بديار الاسلام وانتهاز الفرص لتحقيق اهدافها فان حكمومة البرتغال انتهزت واستغلت الاحداث والظروف السياسية والاقتصادية السائدة بالمغرب فى عام ١٤١٥م حيث كان الطاعون منتشرا على نطاق واسع بالبلاد والمجاعة تسود الديار من جراء النزاع الدموى الحاد الذى يدور حول تولية عرش البلاد بين السلطان المرينى ابى سعيد عثمان واخيه مولاى يعقوب. وكان ان قامت البرتغال فى سرية تامة ومطلقة باعداد حملة حربية كبيرة احاطتها بكل وسائل الكتمان من اجل تحقيق اهدافها المنشودة بعد أن اعدت لها اعدادا ضخما من اسطول مكون من مائتين وعشرين سفينة حربية تقل ثلاثين الف جندى واستطاعت فى نفس يوم وصول الحملة ١٢ اغسطس عام ١٤١٢م احتلال المدينة والسيطرة عليها. وبذلك سقطت سبتة فى ايدى البرتغالين .

ولقد كان نقل ميدان الصراع من الاندلس إلى الشواطئ المغربية هو انهاء الوجود الاسلامى بالاندلس وبداية مرحلة جديدة من الصراع وهى المرة الاولى فى تاريخ الصراع بين القوى الاسلامية فى حوض غربى البحر المتوسط وبين القوى المسيحية بزعامة اليايوية يتم فيها احتلال مدينة اسلامية وقد كان هذا الاحتلال بداية للتوسع البرتغالى فيما وراء البحار نحو انشاء امبراطورية على حساب الديار الاسلامية بعد ان استطاع ملوك المسيحين فى شبه جزيرة ايبيريا التغلب على القوى الاسلامية من اجل الاسترداد ونجح هؤلاء الملوك فى تحقيق اهدافهم بفضل الخلاف الذى كان يدب بين قادة المسلمين وسوء الظن الذى ساد بين ملوك المسلمين فحرمهم نعمة الاتحاد والتآلف من اجل الوقوف فى وجه هذا الخطر، بل نجح الامراء المسيحيون فى أن يخرجوا باساطيلهم البحرية وجيوشهم البرية ليغزوا الشاطئ المغربى المقابل لاسيما ان الملك جون الاول الذى ارتقى عرش البرتغال عام ١٣٨٥م قال لاولاده ليس هناك ميدان يكسبهم الفخر

من حملة ضد المغاربة فى بلادهم فشرع فى اتخاذ العدة لهذه المغامرة العظيمة التى اثارت كثيرا من القلق لدى ملكى قشتالة وغرناطة (لاحظ تحالف ملوك المسلمين فى غرناطة مع قشتالة التى ابادت ديار المسلمين وقضت على الوجود الاسلامى بالاندلس ولكنه ارسل يهدئ من روعهما ويطمئنها ان الهدد الرئيسى من عزواته ليس الا الوقوف فى وجه رجال الجهاد الاسلامى البحرى والتى اطلقت عليهما المصادر الاوربية ظلما وعدوانا اسم قراصنة البحر المسلمين والذين كانوا يهاجمون المراكب المسيحية، لذا فان الهجوم على سبته ليس الا هجوما على احد معاقل هؤلاء الغزاة البحرين المجاهدين فى سبيل الدفاع عن العقيدة الاسلامية وذكرت بعض المصادر الاخرى ان الاسطول الذى اعد للغزو كان مكونا من اثنين واربعين ومائة قطعة حربية كلها برتغالية الجنسية الا عددا قليلا منها ولم يأت عام ١٤١٥م حتى كانت سبتة قد سقطت فى أيدى البرتغالين وعين حاكما عليها الامير هنرى الابن الثالث للملك جون وهو الذى حمل اسم هنرى الملاح .

وكانت سياسة القضاء على الوجود الاسلامى فى المغرب واتباع سياسة الارض المحروقة واخلاء البلاد من سكانها وشهوة التوسع قد دفعت هنرى الملاح واخيه فرنانند والذين نهضا من اجل المزيد من التوسع فى بلاد المغرب وتوسيع دائرة نفوذهما والعمل على احتلال مدن جديدة فكان ان اعدا بعد أحد عشر عاما من احتلالهم سبتة وفى عام ١٤٣٦م حملة للاستيلاء على ميناء طنجة الهام لكن هذه الحملة فشلت فى تحقيق الهدف التى تحركت من أجله وذلك للدور الهام الذى قام به الوزير الوطاسى ابو زكريا يحيى بن زيدان الوطاسى وزير السلطان عبد الحق آخر سلاطين بنى مرين حيث كانت هذه الحملة قد تسربت انباء تحركها إلى مدينة طنجة وكانت الحملة مكونة من ثمانية آلاف جندى حيث لاقوا هزيمة منكرة على ايدى حامية المدينة والاهالى الذين

دافعوا عن ديارهم وعقيدتهم بالاضافة إلى القوات التى قدمت من فاس وبعث بها الوزير الوطاسى واوقع المغاربة بالبرتغالين هزيمة قاسية وتم حصار القوات من الخلف والامام بعد وصولهم بثلاثة ايام مما دفعهم إلى رفع الحصار والاعتراف بالهزيمة والانسحاب ودارت محادثات اظهر فيها الجانب المغربى الاسلامى روح التسامح والمحبة التى عرف بها المسلمون وتركوا الحملة تعود إلى ميناء سبتة والتى وعد البرتغاليون الانسحاب منها فى مقابل تركهم يعودون إلى سفنهم والمدينة المحتلة وكانت روح التسامح التى تعامل بها المسلمون المغاربة قد جعلت البرتغاليين ينكصون بعهدهم وهذه طبيعة الانسان الاوربى الكارهة والحاقدة للاسلام وعقيدته السمحة على مر التاريخ والازمان بعد ان احتفظ المغاربة بشقيق هذا الملاح وهو الابن الرابع والاصغر للملك جون الاول ملك البرتغال رهينة لديهم لكن الروح الصليبية ضحت بابن الملك وتركته سجينا فى سجون فاس فى مقابل تحقيق الهدف والمبدأ الذى تصر اليه الروح الصليبية وهى تدمير ديار الاسلام وطردهم منها وقد ظل فرناندو سجينا حتى مات فى يونيو ١٤٤٣م اى بعد اسرة بسبع سنوات وهكذا كانت هذه الروح الصليبية مشبعة بالكراهية للاسلام .

وفى عهد الملك البرتغالى الفونسو الخامس تمكن البرتغاليون من احتلال ميناء القصر الصغير وهو الميناء الذى يقع فى المسافة بين ميناء سبتة المحتل وميناء طنجة التى حاول البرتغاليون احتلالها ويبدو ان الذى دفع البرتغالين لهذا هو قرب الميناء من سبتة وذلك فى عام ١٤٥٨م وهكذا سارت الحركة الاستعمارية البرتغالية فى طريقها المرسوم نحو التوسع والعمل على امتداد الدائرة الاستعمارية وانتهاز الفرص للاستيلاء على اراضى جديدة فى وقت كان المغرب فيه يعانى من المشاكل الداخلية والصراعات مما دفع الامير هنرى الملامح للعمل على تحقيق هدفه بضرورة الوصول إلى تحالفات جديدة

للعمل على محاربة المسلمين لكن الامير هنرى الملاح مات عام ١٤٦٣م بعد استيلائه على ميناء القصر الصغير، لكن فى نفس العام الذى مات فيه الامير هنرى قام الملك الفونسو الخامس فى السنة المذكورة بقيادة حملة حربية قادها بنفسه من اجل توسيع دائرة السيطرة البرتغالية على بلاد المغرب وذلك عودة للاستيلاء على طنجة لكن هذه المحاولة باءت بالفشل كما باءت قبلها حملة عام ١٤٣٦م وفشلت فى احتلال المدينة رغم المحاولات المتعددة التى قام بها البرتغاليون لكن صمود الحامية المغربية حال دون تحقيق الهدف الصليبى بل ان كارثة حلت الاسبان اذ وقع فى الاسر اكثر من ١٠٠ شخص من النبلاء وعلية القوم ورجال البلاط وقتل اكثر من ٢٠٠ مائتى من نفس الطبقات العليا فى القيادة البرتغالية واطلق البرتغاليون على طنجة مقبرة نبلاء البرتغال لكن رغم المحاولات الفاشلة التى منى بها البرتغاليون الا أنهم وقد رسموا لانفسهم هدفا لا يمكن ان يحيدوا عنه قاموا فى اعوام ١٤٤٨، ١٤٤٩م باعداد حملة للاستيلاء على الدار البيضاء التى كان يطلق عليها فى السابق مدينة انفا واستطاعت الحملة البرتغالية ان تدخل المدينة التى وجدوها خاليه من اية دفاعات مغربية لكنهم اضطروا إلى تركها وان كانوا قد احتلوها دون مقاومة تذكر لما احتلوا القصر الصغير قبل ذلك بعشر سنوات دون مقاومة من المدينة بعد ان جربوة عام ١٥٤٨م على القصر الصغير حملة مكونة من اسطول ضخم به اكثر من مائتى وثمانين سفينة قتالة تصل قواتها خمسة وعشرين ألف رجل وسيطر البرتغاليون على المدينة بعد قتال طويل وضادٍ لان الامدادات المغربية لم تصل إلى سكان المدينة فى الوقت المناسب حيث جاءت متأخرة أربعة شهور عن ميعاد التسليم ولم يجد لها وسيلة لطرد الحامية البرتغالية التى قاومت الحصار المغربى حتى اضطر المغاربة إلى رفع الحصار عن القصر الصغير فى يناير ١٤٥٩م ويبدو ان الهدف من التوسع البرتغالى فى بلاد المغرب عن طريق ساحل البحر المتوسط وليس عن طريق ساحل مراكش المطل على المحيط الاطلسى هو العمل على

شطر المغرب الاسلامى إلى قسمين حتى يمكن التمكن من اراضيه والقدرة على اجتياح الداخل فى يسر وسهولة .

وازاء تضارب وتضاد الاهداف التوسعية البرتغالية الاسبانية فانه قد تم فى عام ١٤٩٤ وذلك بعد نجاح حركة الاسترداد المسيحية من تصفية كل الوجود الاسلامى بعامين اثنين ١٤٩٢م والقضاء نهائيا وللابد على امارة غرناطة الاسلامية بالاندلس ان عقدت البرتغال واسبانيا اتفاقية فيما بيهما لتقسيم خطوط الاحتلال والسيطرة على ديار المسلمين وقد عرفت هذه الاتفاقية باسم اتفاقية توردسلاس وتم بموجبها تقسيم المستعمرات بحيث كانت الاقاليم الشرقية من نصيب البرتغال والمستعمرات الغربية من نصيب اسبانيا هذا بينما بلاد المغرب الاسلامى قد اضيفت لها اتفاقية اخرى عام ١٥٠٩م تم بمقتضاها جعل المستعمرات الاسبانية تقع فى الشرق فى الجزائر وتونس وطرابلس والمستعمرات الغربية تقع فى المغرب الاقصى متخذه من خط طول ٢ شرقا الحد الفاصل مع امتداد ساحلى فى المغرب يجعل مليلة وباديس وغمارة تدخل ضمن الاملاك الاسبانية وكذلك قلعة سانتا كروز فى الجنوب المراكشى .

ولقد كان ظهور السيادة التركية العثمانية فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط وكذلك القضاء على غرناطة الاسلامية والنجاح الباهر الذى احرزه التوسع الايبيرى واستكمال حركة الاسترداد المسيحى كل حلقاتها دافعا وراء هذه الاتفاقيات تقسيما لديار الاسلام بالمغرب وارضاء للروح البابوية والمتعطشة للديار الاسلامية وبسبب تحريض رجال الدين المسيحى الكاثوليكن لهذه النشاطات التوسعية فى ذلك الوقت وقد كانت فكرة القفز وراء البحار فلسفة استعمارية ذات شقين فاما الشق الاول فهو ضرب المسلمين فى ديارهم وابعادهم عن اخوانهم فى الاندلس والهدف الثانى العمل على الحيلولة دون تفكير المسلمين بالعبور مرة اخرى لاعادة فتح شبه جزيرة ايبريا مرة اخرى،

كذلك للقضاء على الروح القتالية العالية التى كان يبديها المقاتل المسلم فى شبه جزيرة ايبيريا جعلهم يتتبعون المسلمين فى اى مكان يعيشون فيه لاسيما فى المغرب حيث كان المغرب له النصيب الاكبر من مهاجرى الاندلس. وهكذا كان انتقال الصراع بهذه الصورة التى عرضنا لها انتقالا من شبه جزيرة ايبريا إلى الاراضى المغربية وتلقت المغرب الضربات المسيحية المستمرة والمتواصلة نظرا لما تملكه المغرب من سواحل طويلة على البحر المتوسط وساحل المحيط الاطلسى وبحكم موقعها الجغرافى قريبا من البرتغال واسبانيا وهكذا شهد اواخر القرن الخامس عشر الميلادى بل ربعه الاول انتكاسة اسلامية وتحول سياسة الهجوم الاسلامى إلى الدفاع امام القوى الايبيرية بسبب الضعف والوهن والتدهور الشديد اللذين اصابا جسد هذه الدول وكان المخطط الاستعمارى الايبيرى قد عمل على تطويق بلاد المغرب واحتلال موانيه المطلة على البحر المتوسط ولقد كانت اقدم محاولة استعمارية للشواطئ المغربية هى التى قد قام بها البرتغاليون عام ٦٥٨هـ/ ١٢٥٥م حين قدم البرتغاليون فى هذا العام وفى عهد الامير المرينى أبى يوسف بن عبد الحق المرينى واحتلوا مدينة سلا، لكن المغاربة نجحوا فى طردهم منها بعد اربعة عشر يوما ثم انهم دخلوا مدينة مراكش عام ٦٦٨هـ/ ١٢٦٥م .

ومن هنا فقد استطاع البرتغاليون معرفة مراكز الضعف فى البلاد المغربية. وقد استطاع البرتغاليون ايضا السيطرة على ميناء اصيلا عام ٨٧٦هـ/ ١٤٧٣م. واستولوا فى نفس الوقت على طنجة، ومن حسن نية حكام المسلمين فقد تحالف المسلمون فى المغرب بقيادة الوطاسين مع الاسبان واشتركوا فى الهجوم على مدينة سبتة عام ٨٧١هـ/ ١٤٧٦م بعد احتلالها من قبل البرتغالين باكثر من نصف قرن لكن الهجوم فشل بعد خذل الاسبان للوطاسين، وفى عام ١٤٨١هـ بسط البرتغاليون حمايتهم للمرة الثانية على مدينة اسفى وفى عام ١٤٨٦م/ ٨٨١هـ سيطروا على مدينة ازموا

وفى عام ١٤٩٧/ ٨٩٢هـ احتلوا مدينة ساء الواقعة على المحيط الاطلسى وفى عام ١٥٠٥م نجح البرتغاليون ايضا فى احتلال ساحل اغادير على المحيط الاطلسى وكان ان حدث اتفاق عام ١٥٠٩م بين البرتغال والاسبان ثم بمقتضاه اعطاء الحق للبرتغال للتوسع فى مناطق سواحل المغرب الجنوبية الاطلسية فى مقابل اعتراف البرتغال لاسبانيا بمشروعية التوسع فى الجزء الشرقى من ساحل المغرب الشمالى فى المنطقة من باديس حتى فضاضة ومليلة وربما كان فشل البرتغال فى احتلال الموانئ الشمالية التى تتبع مملكة فاس هو الذى حدا بها إلى الاتجاه إلى البلاد الجنوبية أو مملكة مراكش .

لكن هناك آراء تذكر ان التقسيم الذى تم بين البرتغال واسبانيا قد احيى الدور القديم لقشتالة وحصلت على نصيبها فى بلاد المغرب وان هذا التقسيم قد نبع من مشاعر العداء المتحكم للمسلمين ومن دوافع صليبية كارهة لكل ما هو اسلامى ومن دوافع حركة الاسترداد المسيحى فى ايبريا التى كانت تحكمها قحة المشاعر الصليبية فى اواسط القرن الخامس عشر الميلادى، لاسيما ان البرتغال قد سعت مبكرا إلى البابوية فى روما للحصول منها على البراءة المقدسة لاضفاء الشرعية الكنسية على التوسع البرتغالى وراء البحار وذلك فى اعقاب الدوى الهائل فى الاوساط المسيحية الاوربية اثر نجاح محمد الفاتح الخليفة العثمانى فى احتلال القسطنطينة عام ١٤٥٣م/ ٨٤٨هـ فكان البابا نيقولا الخامس بابا الفاتيكان فى روما قد منح البرتغال فى الثامن من يناير عام ١٤٥٤ وبعد سقوط القسطنطينة بعد شهور حق التاج البرتغالى فى احتلال سبتة باسم المسيحية والبابوية وغيرها من الممتلكات الساحلية فى شاطئ للغرب وما بعدها .

وهكذا كان فكر العصور الوسطى تحكمه روح التعصب المسيحى والتسامح الاسلامى ومن هنا تلاقت كل الاهداف البابوية مع الاهداف البرتغالية والاسبانية فى خط واحد وهو ضرب الديار الاسلامية لاسيما بعد سقوط القسطنطنية عام ١٤٥٣م .

وهكذا اتخذت الروح الصليبية شعارا ترفعه البرتغال بالتعاون مع اسبانيا وبمباركة من البابوية .

ولقد كانت كل السفن الحربية والاستطلاعية والكشفية ترفع شعار الصليب فى حين لم يكن شعار المسلمين المصحف او السيف او شهادة لا اله الا الله محمد رسول الله ترفع وكانت الروح الصليبية واضحة كل الوضوح مهما حاول مؤرخو العصور الوسطى وكتاب الحوليات المسيحية ربط دفاع الحركة الاستعمارية بدوافع سياسية او اقتصادية او غيرها من الدوافع فتاريخ الحركة الاستعمارية فى بلاد المغرب لايمكن ان تتسع له بضع صفحات فى ثنايا هذا البحث الموجز الذى يقدم للقارئ العادى والمتخصص يحتاج إلى جهد جهيد للتوسع فى هذه الحركة التى رفعت شعار الابادة التامة لكل ما هو مسلم والا لما لجأت البرتغال للحصول على براءة من البابوية الا لكى تكون الروح المسيحية هى الدافع وراء كل هذا النشاط وكانت براءة البابوية هى الوسام الاكبر فى حركة الانتشار السريع للقوى البرتغالية بل كانت حافزا مشجعا لالهاب روح الصليب فى نفوس الجند الذين كانوا يندفعون تحت شعار الصليب للتوسع فى اراضى المغرب كلما سنحت لهم فرصة مناسبة وكلما وجدوا ضعفا فى الصف الاسلامى المغربى المسالم الذى كان يتخذ من القرآن الكريم وسنه رسول الله ﷺ منهاجا فى تعامله مع القوى المسيحية التى كانت تنكث بالعقود والمواثيق ما دامت تقف فى طريق تحقيق اهدافها ولم يكن يهمها الا الهدف وهو السيطرة على كل ديار المسلمين .

ولقد كان كل هذا النشاط الاستعمارى البرتغالى يتم فى أواخر عهد الاسرة المرينية وفى سيادة عصر الوزراء الوطاسين الذين كانت بايديهم مقاليد الامور فى البلاد، لكن ضعف السلاطين والوزراء كان وراء كل هذه النكسات الاسلامية والسيطرة الاستعمارية البرتغالية فى ديار المغرب الاسلامية .

وقد اتساع نطاق الغزو البرتغالى للمغرب فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى حيث شملت هذه الفترة موانئ البحر المتوسط والاطلسى على السواء .

وفى فترة سيطرة اليهوديين هارون وشاويل على عبد الحق المرينى تمكن البرتغاليون من تحقيق اهدافهم فى السيطرة على البلاد الواقعة على الساحل ان تولى الوزارة هذان اليهوديان فى الفترة من عام ١٤٢٠– ١٤٦٥م وقد استولى البرتغاليون على ازمور عام ١٤٦٨ فى ظل فترة حكم نقيب الاشراف أبى عبد الله محمد الادريسى فى فاس (٨٦٩– ٨٧٦هـ/ ١٤٦٥– ١٤٧٢م) ومن هنا فقد استغل البرتغاليون فترة الفوضى والصراع الداخلى واستطاعوا السيطرة على الموانئ الهامة وكذلك وقبل سيطرة الوطاسين بعام عام ١٤٧١م سيطر البرتغاليون على ميناء اغادير فى الساحل الاطلسى الجنوبى وكذلك استولوا على أصيلا فى نفس العام وبعد عامين ١٤٧٣م استولوا على أزمور وكذلك على اسفى عام ١٤٨٨ فى ظل حكم الوطاسيين .

وهكذا بسطت البرتغال نفوذها على جميع بلاد المغرب الساحلية ومنها سبتة والقصر الصغير وطنجة وأصيلا وانفا (الدار البيضاء) ومازكان حصن البريجة والعرائش واغادير واسفى والمهدية ومن هنا فلم يبق فى ايدى المسلمين اصحاب الديار الا اعداد قليلة من الثغور المغربية مثل سلا ورباط الفتح وطارد البرتغاليون المغاربة بعيدا عن المدن الساحلية مما دفع الاهالى إلى الانطواء فى اطراف الصحراء والقرى النائية وكان فرض السيطرة البرتغالية على بلاد الهبط الجنوبية وساحل مراكش الجنوبى قد اصبح اكثر وطأة منها فى شمال البلاد واكثر توغلا فى الاراضى الداخلية اذ امتد نفوذهم إلى مدينة مراكش نفسها كما اسسوا هم انفسهم ميناء مزعان ولقد كانت محاولة التدخل فى داخل البلاد عام ١٤٨٩ ردا على حركة الجهاد الاسلامى لطرد البرتغالين من بلاد المغرب والتى قادها اشراف شفشاون مما دفعهم إلى الزحف إلى مراكش والجدير

بالذكر ان البرتغاليين كانوا قد نزلوا عام ١٥٠٢م على مقربة من ميناء ازمور وهو ميناء كبير على المحيط الاطلسى ولكن لم يتم لهم احتلاله الا عام ١٥١٣م كما استولوا عام ١٥٠٧ على ميناء اغادير للمرة الثانية بعد ان كانوا قد احتلوه عام ١٤٧١م لكنهم طردوا منه وعادوا اليه وقد اتاحت الفرصة للبرتغالين عند احتلالهم لميناء ازمور بالتوغل منه جنوبا لغرض سيطرتهم على مازكان وقد حاول البرتغاليون استمالة بعض زعماء القبائل والمدن الداخلية ولكنهم قوبلوا بالرفض الامن فئة صغيرة من ضعاف النفوس وطلاب السلطة من العملاء الماجورين وازاء الفشل فى تحقيق الاهداف صدرت الاوامر من لشبونة العاصمة البرتغالية إلى قواتها المرابطة فى اسفى وازمور ان تتهيأ لاحتلال العاصمة الجنوبية للبلاد مراكش وفى مطلع عام ١٥١٥م كانت مراكش محاصرة بقوات برتغالية لكن المحاولة منيت بالفشل الذريع بسبب المساعدة التى قدمها حاكم فاس السلطان محمد البرتغالى الوطاسى للمجاهدين وكان فشل احتلال البرتغالين لمراكش دافعا للاتجاة لاحتلال فاس العاصمة والقضاء على الحكم الوطاسى فارسلوا اسطولا برتغاليا عظيما إلى ميناء المعمورة فى يناير عام ١٧١٥م ولكنهم انسحبوا بالقوة فى نفس العام نتيجة لفشلهم فى احتلال مراكش والمعمورة وقد ادى التقاعس عن الجهاد إلى فتح المجال امام الاحتلال البرتغالى فى ارسال حملاته إلى مراكش والمعمورة بل انه استطاع ان يمد نفوذه إلى اقليم السوس ودرعه ومن اسقى إلى مراكش وهكذا فان العهد الوطاسى قد شهد سقوط معظم الموانئ الشمالية إلى نهر سبو وموانئ الجنوب من مصب ام الربيع إلى السوس كانت كلها بيد البرتغالين فما عدا سلا ورباط الفتح كما ذكر سابقا التى تحولت إلى حصون اسلامية قوية وقد استغرق البرتغاليون نحو ثلاثة ارباع القرن (٧٥ عام) فى احتلال الموانئ الشمالية ومثلها فى ضم الموانئ الجنوبية وهكذا حصلت البرتغال على النصيب الاكبر من الموانى من الموانى المغربية فى الشمال والجنوب سعيا للدخول إلى داخل البلاد .

(ب) «السيطرة والاحتلال الاسبانى»

لم تكن اسبانيا قد دخلت ميدان السيطرة على بلاد المغرب الاسلامى الا بعد توقيع اتفاقية «توردى سلامى» فى يونيو ١٤٩٤م والتى بمقتضاها تخضع اقاليم طرابلس وتونس والجزائر للسيطرة الاسبانية ومن هنا بدات اسبانيا تمارس سيطرتها وتوسعاتها وكما اتجهت الغزوات إلى تونس ومدن المغرب الاوسط فانها اتجهت إلى طرابلس بليبيا بسبب محاربة المسلمين بها وما كان يتردد عليها من قوافل قادمة من داخل افريقيا وخاصة برنو وتشاد وكانم وكانت تزخر بنشاط تجارى بعد ان استعادت ثقة التجارة البحرية مع الموانئ الايطالية ومع ميناء مرسليا الفرنسى، لذا اغار عليها الاسبان واستولوا عليها فى بداية القرن السادس عشر ولكن هذا لم يدم اكثر من خمس عشرة سنة (١٥١٠– ١٥٢٥م) اقاموا خلالها سورا حول المدينة وما زالت اثاره باقية ولم تلبث اسبانيا ان تنازلت عنها لفرسان القديس يوحنا الذين كانوا يسكنون جزيرة مالطة وظلت سيطرتهم عليها من عام ١٥٢٥ إلى عام ١٥٥١م إلى ان طردهم منها الاتراك ايام سليمان القانونى .

وليس معنى هذا ان الاسبان لم ينافسوا البرتغالين فى السيطرة على بلاد المغرب الاقصى لاسيما جنوب مراكش اذ تذكر المصادر الاسبانية ان حاكم الجزر قد اقام محطة للصيد وتجارة الرقيق فى مكان سموه (سانتا كوردى ماركيبا) وانهم احتلوه عام ١٤٧٧م إلى عام ١٥٢٤م ولا يعرف المغاربة اسم هذا المكان كما انه يصعب تحديد موقع هذه المحطة غير انه بسبب تحديد الاسبان للمطالبة بهذا الموقع فقد تحايل الخبراء الاسبان فادعوا انها تقابل منطقة سيدى افنى، ولكن على اية حال فقد انصرف اهتمام الاسبان بالساحل الغربى منذ القرن الخامس عشر وذلك إلى ساحل البحر المتوسط وذلك اثر الاتفاقية المشار اليها والتى قسمت المغرب إلى قسمين الاولى تقع غرب حجر

باديس وقد تركت البرتغال والثانية تقع إلى شرق هذه النقطة ويتولى الاسبان فيها مهمة حرب الاسترداد وكان الاسبان فى ذلك الوقت يحتلون مينائى سبتة ومليلة ومن ثم اتجهوا شرقا إلى ساحل الجزائر ثم تونس وطرابلس .

ولقد قامت اول محاولة لتنفيذ خطة الاسبان فى شمال افريقيا (المغرب العربى) عندما نزلت اول الحملات الاسبانية فى ميناء المرسى الكبير فى غرب الجزائر غير ان التغلغل الحقيقى على سواحل المغرب لم يبدأ الا فى عام ١٥٠٨م عندما استولى الاسبان على حجر بادس وفى العام التالى سقطت وهران وبجاية فى ايديهم وفى عام ١٥١٠م دمر ميناء طرابلس واضطرت موانى دلس الجزائر إلى دفع جزية للاسبان وكانوا قد اقاموا امام هذه الموانئ حصنا على صخرة مواجهة وبعد ذلك عقدت مملكة تلمسان معاهدة صلح فى عام ١٥١٢م اعترفوا فيها باستيلاء الاسبان على عدة موانئ فى غرب الجزائر .

كما ان اسبانيا استولت على مليلة ويونة (وعنابة) ووهران وكان لها وجود على الساحل الاطلسى للمغرب فيما ادعته من حقوق فى الاراضى المقابلة لجزر كناريا وبالتحديد فى النطقة الممتدة ما بين راس كانت وراس تؤيد (اسفى وافنى) ووضح نشاطها فى تجارتها من ميناء ناركوكو (شمال اغادير) استنادا إلى حماية القلعة الاسبانية فى سانت كروز عند عين فوتى .

ولقد كان ضعف بنى وطاس وغيرهم من سلاطين بنى حفص وبنى زيان سببا فى نجاح الحملات الحربية الاسبانية فى الاستيلاء على اجزاء من الشاطئ ثم بناء حصون فيها تقيم بها حاميات اسبانية لعرقلة الكيان الاسلامى وتعطيل مصالحها وكانت الغيرة المسيحية سببا فى قيام كثير من هذه الحملات لاسيما وبعد ان الحرب تنتقل إلى بلد خارجى غير بلادهم، كما ان حصونهم وحامياتهم تمنع الاساطيل الاسلامية من

الخروج من الموانئ الاسلامية لجندة مسلمى الاندلس هذا إلى ان الصراع الدينى للاسلام وقوته يضاف اليهم طمعهم فى الاستيلاء على الذهب والتوابل وملح البارود وغيره من منتجات هذه السلطنات الاسلامية والتى كانت تحمله سفنهم من هذه البلاد ومن هنا كانت تلك الحركة الاستعمارية الواسعة التى تزعم بابا روما الدعوة لها وحمل رايتها ورفع الصليب اعلانا بمحاربة المسلمين فى عقر دارهم وكان ذلك فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى وبالتحديد عام ١٤٥٣م .

لكن القوى التركية العثمانية والقبائل المؤيدة لها دفعت الحركة الاستعمارية الاسبانية إلى ان تتوقف عن التوسع بل تنحسر عن مستعمراتها ولم يبق لها سوى قاعدة مليلة ووهران بعد ان تخلت عما كان بيدها من قواعد ساحلية سيطرت عليها على الساحل التونسى والليبى ولم يبق فى يدها الا القواعد الغربية من السواحل المغربية والقريبة للاساطيل الاسبانية. والتى تكون على مقربة من مضيق جبل طارق بحيث لا يكون الفاصل بعيدا عن الساحلين المغربى والاسبانى فكان لها ميناء سبته وطنجة ولم يكن هذان الميناءان سوى جيوب استعمارية مقطوعى الصلة بالاحواز (الاماكن) المجاورة لهما وسكانها بسبب العداء التاريخى بين القوى الاسبانية المستعمرة وبين شعوب المغرب الاسلامى لاسيما بعد نمو القوى التركية العثمانية كما سبق ان عرضنا سابقا على حساب الانحسار الاسبانى الذى راى فى الوجود التركى لاسيما بعد ترحيب اهالى البلاد به خطرا يتهدده فكان ان انسحب بالقوة، او انصرف الممتكاته فى جزر البحر الكاريبى .

وكان الاسبان قد اتخذوا قبيل طردهم من بلاد المغرب الاوسط وتونس وطرابلس من ميناء المرسى الكبير قاعدة حربية للهجوم على الشواطئ واستمر الاسبان فى هجماتهم فاستولوا على مدينة فضاضة عام ١٥٠٦م ووسعوا من نطاق تحركاتهم

العسكرية فى شمال بلاد المغرب وسقطت العديد من الموانئ والسواحل وهكذا فانه على مدى قرن ونصف من الزمان سقطت المغرب الاقصى فى ايدى الاسبان والبرتغالين واصبح المغاربة تحت رحمة الاسبان والبرتغالين بعد احتلال معظم ديارهم .

وقد كان للاسبان وجود فى ميناء عنابة منذ عام ٨٦٧هـ/ ١٤٦٣م ومعه بداوا هجومهم الكبير إلى المغرب الجزائرى او التلمسانى باحتلال مدينة المرسى الكبير عام ١٥٠٥م وبمجرد تمركزهم بالمدينة نشطت حركتهم التجارية واقاموا سوقا تجاريا وتعاملت معها القبائل المحيطة بالمدينة وتوسعت دائرة هذا التعاون مع احتلال وهران عام ١٥٠٩م لكن لما احكم الاسبان سيطرتهم على هذه البلاد فانهم فرضوا قيودا شديدة على الحركة التجارية لاضعاف قوة البلاد اقتصاديا ومن ذلك نجد الملك فرديناند فى عام ١٥٠٥م يصدر قرارا بوقف التجارة مع باديس وجميع مغاربة افريقيا وفى عام ١٥٠٦م حرمت الملكة التجارة مع تلمسان وغيرها من المدن المغربية فيما بين مضيق جبل طارق وتونس، لكن الحكومة الاسبانية قررت فى عام ١٥٣٠م احتكار حركة التجارة والتبادل التجارى وسحبت من حاكم وهران وغيره من حكام المدن سلطة البت فى المسائل التجارية التى تخص بادس وتلمسان وتنسى .

وقد استخدم الاسبان اقصى درجات القسوة فى تعاملهم مع السكان المغاربة على الساحل ومن ذلك فانه عندما دخلوا مدينة وهران الجزائرية قتلوا من سكانها اكثر من اربعة آلاف نسمة وبلغ عدد الاسرى الذين سيقوا إلى السفن لبيعهم كرقيق اكثر من ثمانية آلاف رجل بينما لم تخسر اسبانيا غير ثلاثين رجلا وقد كتب قائد الحملة إلى ملك اسبانيا يقول له ان احتلال المدينة كان سهلا والعملية العسكرية كانت ميسورة وهذا الانتصار الميسور للاسبان جعل المسلمين يعتقدون ان الاسبان ما جاءوا إلا من اجل السلب والنهب وانهم متى ادركوا غايتهم وبلغوا هدفهم فانهم سوف يغادرون

البلاد مع الاسلاب وهذا ما جعل الخسائر فى القتلى والاسرى تكون كثيرة حيث ان الاسبان كان هدفهم هذه المرة السيطرة والاحتلال الدائم للبلاد بعكس التوقع الذى كان يدور فى اذهان الاهالى وكان من القبيل ان تكون هذه المدن الساحلية على اتم استعداد للقتال والمقاومة لاسيما وانه قد سبق ان سقطت بعض الموانئ المجاورة فى ايدى الاسبان وكان الامر الطبيعى يقتضى الحذر والحيطة حتى لاتتكرر مثل هذه الاحداث وتقع اعداد كبيرة من القتلى والاسرى فى ايدى الاسبان .

لكن القبائل العربية والبربرية سكان الجبال كانوا دائما يقفون بالمرصاد للقوات الاسبانية لاسيما وانهم عرفوا ان الاسبان لا يستطيعون التوسع خارج المدن الساحلية التى يسيطرون عليها بعد ان حاولوا التوغل للداخل فلاقوا هزيمة نكراء عام ١٥٠٧م على ايدى رجال قبائل دوار العربية عندما كانت حملة اسبانية تتجه إلى مدينة «مسرغين» التى تبعد ثلاث مراحل عن المرسى الكبير فى اتجاه وهران. وكان يقود هذه الحملة قائد القلعة الاسبانية فى المرسى الكبير بقوة من رجال حامية القلعة وبعض اعوانه من القبائل المجاورة حول المرسى الكبير ووهران واستطاع اهالى الجبال المحيطة بمدينة مسرغين بمساعدة قوة من وهران هزيمة الحملة الاسبانية مما دفع حكومة اسبانيا ان ترسل نجدة عسكرية كبيرة خوفا من ان تسترد حامية وهران الاسلامية مدينة المرسى الكبير، ثم حقق الاسبان دخولهم وهران واعقب انتصارهم فى وهران واحتلالهم لمدينة عنابة (يونة) بعد مقاومة لاتكاد تذكر واعقبوه باحتلال طرابلس ثم قام الاسطول الاسبانى بالهجوم على جزيرة جربة لكن الاسبان هزموا وظلت محاولاتهم المتكررة لكسر المقاومة الاسلامية فى جربة وانزلوا بها خمسمائة جندى لاقوا جميعهم حتفهم على ايدى حامية المدينة ومساعدة رجال المقاومة الاسلامية الذين ابدوا مقاومة نادرة للوقوف امام الخطر الاسبانى الذى كان يتفوق عليهم فى قوة اطلاق النيران وحداثة السلاح

المستخدم والمدفعية التى تطلقها السفن والتى لم يكن لاهل السواحل علم بها وهكذا استطاعوا كسر حركة المقاومة .

ولما كانت تركيا العثمانية الاسلامية قد دخلت بلاد المغرب الاوسط والجزائر فانها كانت من جانبها تعمل على طرد الوجود الاسبانى من وهران والمرسى الكبير تحقيقا للسيادة الاسلامية وقام حاكم الجزائر بالكتابة إلى المولى محمد الشيخ السعدى حاكم مراكش واقترح عليه القيام بعمل اسلامى مشترك لطرد الاسبان من وهران والمرسى الكبير وكانت القبائل العربية الاسلامية من سكان المغرب الاوسط قد سبقت إلى حصار وهران والتى كانت ترى فى قدوم القوات التركية والمغربية املا فى تحرير المدينة التى اتخذ حاكمها الاسبانى الاستعدادات الحربية اللازمة لملاقاة الحملة وذهب إلى اسبانيا فى نهاية عام ١٥٤٩م حتى طالت غيبته فى اسبانيا لمدة تزيد عن اربع سنوات حيث اناب عنه فى حكم وهران ابنه «دوين مارتن» وكان ذهابه إلى اسبانيا استكمالا للاستعدادات الحربية وربما كانت فترة غيابه الطويلة عن المدينة هو خوفه من العقاب فى حالة فشل الدفاع عن المدينة وسقوطها فى ايدى القوات الاسلامية المشتركة التركية السعدية لكن تحرير المدينة لم يتم فى هذه الفترة .

كما ان القوى المغربية المجاهدة التى رات فى الوجود الاستعمرى الاسبانى والبرتغالى لارضيها اهدارا لكرامتها العربية الاسلامية فانها لم تطق السيطرة الايبيرية على اراضيها مما كان له صدى قوى فى نفوس سكان البلاد وتبلور ذلك فى حركة الجهاد الاسلامى وجمع الاموال لاسيما أن القوات التركية استطاعت طرد المحتل الاسبانى من طرابلس وتونس والمغرب الاوسط ولم يبق فى يدها الا وهران والمرسى التى سيتم تحريرها مستقبلا على ايدى القوات التركية وكان سكان المغرب الاقصى يرون ضعف الحكام الوطاسين وعدم قدرتهم على الدفاع عن البلاد، بل ان هذه القيادة

الوطاسية سوف تضطر إلى التعاون مع القوى المسيحية فى الوقت الذى تشعر فيه بتهديد قيادات وطنية مجاهدة اخرى فى اقليم المغرب الاقصى ولم يكن لسلاطين بنى وطاس حول ولا قوة لان طبيعة نظامهم لم تكن لتسمح لهم بالاعتماد على الاهالى حتى فى قواتهم المحاربة الا كجنود مرتزقة وبذلك فانهم كانوا منفصلين عن شعوبهم لذا لم يجدوا بدا من الخضوع للغزاة المسيحيين يرتمون فى احضانهم ويحتمون بنفوذهم وكانت البلاد فى تلك الاحوال فى نزاع داخلى بين القوى الجديدة وبين بنى وطاس الذين ارتموا فى أحضان الاسبان والبرتغال حيث كانت حركة الكفاح الاسلامى ضد القوى الاستعمارية الصليبية تجد لها صدى رائعا فى اركان البلاد ولاسيما الجزء الجنوبى الذى رفع راية الكفاح خلف القيادة السعدية الشريفة التى رات فى الوجود الايبيرى اهدارا لكيان البلاد وللروح الاسلامية الوثابة التى ترى فى حرية ديارها املا لابد من تحقيقه بعد ان رات هذه القوى مع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر الاختلال الكبير فى قوى الصراع وميل التوازن العسكرى إلى صالح القوى المسيحية بعد ان بدات القوى الاسلامية تتعرض للغزو والانكسار بل والانحسار فى عقر الدار بدلا من سياسة الفتح والغزو والجهاد والاستيلاء فكان ان بدات الامواج البشرية المسيحية محاولات التغلب على القوى الاسلامية وكان لها لابد ان تنتقل من اسلوب الدفاع عن اسبانيا وبقايا الاندلس والبرتغال إلى الهجوم فكانت الاحداث التى مرت على ارض المغرب والتى كان يقع على القوى الاسلامية المجاهدة التصدى لها ومحاربتها والقضاء على الجيوب الساحلية الاستعمارية الاسبانية والبرتغالية وهذا ما كان من عمل القوى الوطنية المغربية .

واذا كانت القوى الوطنية المغربية فى بلاد المغرب قد استطاعت فى فترات تاريخية لاحقة من رفع راية التحرير من كل القوى المحتلة الا ان الاوضاع فى بلاد

المغرب الاقصى قد تقف مغايرة لحركة التاريخ اذ اننا لا نزال نجد بعض الجيوب الاستعمارية القديمة تتمثل فى الوجود باحتلال ميناء سبتة ومليلة حتى وقتنا الحاضر وانه من السذاجة التسليم بالواقع الحالى وهو عدم تحرير سبتة ومليلة حتى تاريخ كتابة ذلك البحث وذلك كظاهرة قائمة للحركة الاستعمارية التى قادتها البرتغال واسبانيا فى القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر، لكن ماذا يعنى استمرار احتلالها من قبل القوى الاسبانية وماذا يعنى مفهوم بقاء هذه الظاهرة فى وقت تم فيه تحرير بلاد العالم من قوى الاحتلال انه ربما تكون العلاقات الدولية المعاصرة فى غرب البحر المتوسط تدفع بالموقف الحالى بين المغرب واسبانيا ان يكون على وضعه لاسيما بعد ان تم تحرير بلاد الريف الاسبانى من قبل القوى الاستعمارية وضمها للديار المغربية .

ان الاسرة العلوية الشريفة الحسنية النسب السلالية المحمدية والتى تتمثل حاليا فى جلالة الملك الحسن الثانى بن الملك الجليل العظيم السيرة العطر التاريخ محمد الخامس لابد انه بذل من الجهود المكثفة مهما تكن مضنية وطويلة للعمل على انهاء الوضع الشاذ لمدينة سبتة ومليلة فى ظل السيادة الاسبانية وذلك لكن تزيل الضجر المستحوذ على نفوس العديدين فى عالمنا العربى والاسلامى وتدخل بدلا منه السرور والفرحة لاسيما على ابناء المغرب نظرا للمكانة الرفيعة التى يمثلها جلالة الملك الحسن الثانى وشعب المغرب العريق فى نفوس ابناء الامة العربية والاسلامية .

الفصل الرابع

«الطرق الصوفية ودورها فى اذكاء روح الجهاد»

كانت الطرق الصوفية من الملامح الهامة فى التاريخ المغربى وثمة وثائق تدل على ازدهارها منذ القرن الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى)، ذلك لان الدين وثيق الصلة دوما بالحياة اليومية لكل مغربى ومن ثم لم تلبث الطرق الصوفية ان اخذت تقوم بدور هام فى الحياة الوطنية فى البلاد وثمة يضعه من الذين انشأوا الاسر المغربية الحاكمة بداوا زحفهم نحو العرش من احدى هذه الزوايا وذلك فى الزمن الذى تؤرخ له اواخر القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر عندما كان يحاول الاسبان والبرتغال ان يحتلوا المغرب الاسلامى كانت الزوايا والاربطة نقط الالتقاء الرئيسية للحياة الوطنية وللمقاومة .

ولقد كان مؤسسو هذه الطرق عادة أولياء يحترم الناس تقواهم وورعهم وكان بعضهم صوفيين اصولين بما فى كلمة التصوف الاسلامى من معنى تقليدى عظيم ومع ان اكثرهم كانوا يعلنون انهم يسيرون على كتاب الله وهدى السنة النبوية المطهرة ونشر الشريعة الاسلامية الا انهم لم يتورعوا فى نشر تعاليم خاصة بهم بالرغم من ان هذه التعاليم كانت تقع ضمن الاطار الواسع لتعاليم الاسلام السمحة، الا انها كثيرا ما كانت تنحرف عن الاصول الدقيقة فى نواح عدة، وقد وقع المغرب لقرون عدة تحت سلطان فرق تركزت فى الطرق الدينية وقد تباينت هذه الطرق فكان منها طرق ترتفع إلى غاية السمو وطرق لم يكن يهمها سوى التطور الروحى والانتماء الصوفى والتقرب إلى الله بالعبادة والعمل الصالح وترويض النفس على تحمل المشاق ومنها طرق كانت تهبط إلى صعيد من الخرافة والشعوذة ومثل ذلك يقال عن شيوخ الزوايا وقد كانت هذه الطرق تضم العديد من افراد الشعب المغربى والذين كانوا ينضمون إلى هذه الزوايا وكان

لابد ان يؤثر بعض من هؤلاء تأثيرا قويا فى شئون الدولة .

وفى ظل ظروف الاحتلال الاسبانى والبرتغالى خاب ظن الشعب المغربى فى الوحدات السياسية التى كانت تعيش بجوار حكم الوطاسين كامارات مستقلة بالمغرب اذ اتجه رؤساء هذه الوحدات إلى لتمكين نفوذهم الداخلى والعمل على الاستقلال عن حكم الوطاسين فى فاس، كما ان حركة الجهاد البحرى الاسلامى لم تستطيع ان تخلص الموانى المغربية من ايدى المسيحين. وفى هذه الظروف الحالكة التى تحيط بالمغرب من جراء خطر القوى الاستعمارية الايبيرية التقت القوى الوطنية المغربية المجاهدة باتجاه صوفى جديد نما وترعرع ضمن ثورة قادها العلماء الصوفية والاشراف وقد اصبح اقطاب التصوف فى هذه الفترة جهابذة العلوم بحيث اضافت إلى ازدهار الثقافة العلمية الاسلامية اشعاعا روحيا جعل من الامة المغربية كتلة متراصه فى وجه العدو الايبيرى وقد اقيمت مراكز المقاومة على طول السواحل المغربية الشمالية الغربية تحت امره الاولياء والصالحين والاشراف والمرابطين .

وكانت الطريق الصوفية التى سادت المغرب فى اواخر عهد الدولة المرينية والعهد الوطاسى الذى نحن بصدد دراسته هنا ان ظهر التنظيم الدينى للطرق الصوفية متمثلا فى طريقتين كبيرتين كانتاهما سمة الطابع الصوفى فى الحياة المغربية وهى الطريقة الشاذلية والقادرية وتعد الطريقة القادرية التى تاسست فى القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى على يد عبد القادر الجيلانى اوسع الطرق الصوفية انتشارا، اما الطريقة الشاذلية فقد كانت فى القرن السادس عشر الميلادى يقوم على رعايتها ويحمل اسمها البيت الجزولى وقد انتمت الاسرة السعدية بعد هجرتها إلى اقليم السوس لهذا البيت طريقته وآهلها دعوى الانساب للاشراف للتطور بالتنظيم الصوفى الدينى الجزولى إلى الدور السياسى فى قيادة احداث النزاع الاسرى والقبلى والطائفى بين جمع المغاربة

واحداث القتال ضد البرتغالين والاسبان وان كانت الدعوة الصوفية قد تاخرت فى المغرب الاقصى كى نرى فى التدهور السياسى والاقتصادى الذى اصاب البلاد فى القرن الخامس عشر فرصة لقيادة المسيرة الجهادية الا ان ذلك لاينبغى على الاطلاق ان المغرب الاقصى منذ القرن الثانى عشر الميلادى (السادس الهجرى) قد شهد ظهور العديد من رجالات الطرق الصوفية الذين ذاع صيتهم فى ارجاء المغرب والذين منهم الشيخ القطب الصوفى ابو مدين الغوث المتوفى عام ١١٩٥ وتلميذه القطب الروحى ابو محمد صالح المتوفى ١٢٣٣م وكذلك عبد السلام بن مشمش المتوفى ١٢٣٨م ورغم دور هؤلاء الاقطاب فى الحركة الصوفية الشاذلية الا ان دورهم كان صوفيا روحيا لم يكن لهم ادنى عمل سياسى ولم يستطيعوا ان يثتثمروا نشاطهم الدينى إلى نشاط سياسى وربما لان لظروف السياسية فى ظل حكم اسرة عبد المؤمن بن على قائد الموحدين متعتهم هذا الدور السياسى الذى كانت تتطلع به خلافة الموحدين فى حكم المغرب، ومن ثم كان ان تعاون شيوخ الشمال المغربى مع اخوانهم فى الطريقة الشاذلية مع شيوخ الجنوب التى عرفتها مراكش وحواضرها وشهد العصر المحودى ظهور شيخ الصوفية مولاى بوشعيب الازمورى (ت ١١٦٦هـ) حيث تعاظمت الحركة الصوفية بالمغرب إلى ان جاء القرن الخامس عشر الميلادى لكى تلعب دورها الذى اختارته لنفسها فى ظل ظروف الاحتلال الايبيرى ولكن نجد فى البيت السعدى الشريف سندا يبعث روح المقاومة الاسلامية والدور السياسى الذى تقوم به الطريقة الصوفية الجزولية .

وشهد النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى ذيوع صيت وشهره الشيخ محمد بن سليمان الجزولى ودعوته الصوفية فى جنوب المغرب بصورة لم تشهد مثلها تلك النواحى المغربية حيث جمع تعاليم طريقته فى كتاب باسم «دلائل الخيرات» وينتمى هذا الشيخ إلى جزولة احدى القبائل السملالة البربرية فى بلاد السوس وقضى

بعضا من عمره فى مدينة فاس استطاع ان يؤلف كتابه المشار اليه. وقد مات الشيخ محمد الجزولى بين اعوام ١٤٦٥ او ١٤٧٠م. وسوف يكون لقصة موته باعث للجهاد ضد بقايا اسرة بنى مرين ودفعا لحركة الجهاد الاسلامى .

ولقد كان موته فى مدينة اقفال على بعد ثلاثين كيلو مترا من مدينة الصويرة فى وقت كانت تتساقط فيه البلاد فى ايدى الاسبان والبرتغاليين وقبل ان تتولى اسره بنى وطاس عرش المغرب بعامين او سبع اعوام. وكان فى ذلك الوقت قد ترك مدينة فاس عائدا إلى بلاد الجنوب حيث ذهب إلى قرية تيست بالقرب من مدينة مازكان وتقابل بها مع شيخ زاوية لمغار ثم تركها بعد ذلك ووتجه للفاء اتباع طريقته إلى مدينة اسفى التى لم يمكث بها طويلا بسبب عداء حاكمها الشديد له فعاد ادراجه إلى الصحراء البادية ليدعو لطريقته بين قبائل حاجة وشياظمة فتبعه كثير من زوايا الصوفية لكنه مات فجأة وقد قيل انه قتل بالسم ومات الجزولى عام ٨٧٠هـ/ ١٤٦٥م وهو المؤكد وليس عام ١٤٧٠م كما ذكرت بعض المصادر وقام على دعوته من بعده عمرو ابن سليمان المغيطى المعروف بالسياف ويقال له المريدى ويبدو ان الذين اطلقوا عليه اسم السياف نظرا لانه استخدم سيفه فى قتل من وضعوا السم لشيخه والانتقام منهم فردا فردا لاسيما ان الذين سموه هم بعض فقهاء عصره والذين كانوا يخشون نفوذه وظل عمرو المغيطى فى تتبعهم وقتلهم وقضى عليهم وقد اتهم تلميذه السلطان عبد الحق المرينى آخر خلفاء بنى مرين (٨٢٣- ٨٦٩هـ/ ١٤٢٠- ١٤٦٥م) وربما يكون قد وضع له السم فى فترة تولى الاسرة الشريفة حكم فاس (٨٦٩- ٨٧٦هـ/ ١٤٦٥- ١٤٧٠م) وذلك لانه ربما كان قد رفض ان يبايع محمد بن على الادريسى الجوطى الذى تولى السلطه فى فاس بعد قتل عبد الحق المرينى لان الشيخ الجزولى ترك فاس فجأة وقد اتهم عمرو السياف فقهاء السلطنة بدس السم لشيخه وقتله وقاد البلاد لثورة مستغلا حالة

التذمر الناجمة عن الاجراءات المالية الجديدة التى سببها السلطان ووزيره اليهودى هارون والتى ضاق بها واثرت فى مجتمع الاشراف فى العاصمة فاس وظل السياف على ثورته هذه مدة عشرين عاما حاملا معه رفات شيخه اينما حل وجعل من الجزولية طريقة صوفية ثم تجاوزت شهرة عمرو السياف انحاء المغرب الاقصى وصار يدعو الناس إلى تعاليم الجزولية كما ذكرها شيخه فى كتابه دلائل الخيرات وجذب الانصار والمريدين إلى مقر رفات شيخه فى افغال حيث دفن بعد ان قتل عمرو السياف عام ١٤٨٥م فى عهد مؤسس الاسرة الوطاسية أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى وكان سبب قتل السياف انه ادعى النبوة وزعم انه يعلم الغيب وانه مثل الخضر مع موسى عليهما السلام. وان يلقى الخضر ويأخذ عنه ومن ثم تم قتله .

ومما يذكر ان ثورة عمرو السياف هذه التى دامت عشرين عاما كانت اثرا مباشرا من اثار دعوة الشيخ الجزولى. والتى مهدت للطريق لان تتواصل المسيرة فان موت الجزولى والسياف لم يمنع مواصلة الحركة الصوفية سعيها للانتشار بين اهالى المغرب لاسيما وانه قد اشتهر من رجالاتها الشيخ عبد العزيز التباع الذى توفى فى مراكش فى فترة حكم ثانى حكام بنى وطاس أبى عبد الله محمد البرتغالى. ثم خلفه على الطريقة الجزولية الشيخ الصوفى عبد الله الغزونى والذى وفد إلى مراكش قادما من الشمال وكانت قد آلت اليه زعامة الحركة خلفا للشيخ عبد العزيز التباع وكانت الوشايات كثيرة من مشايخ عصره لدى السلطان ابى عبد الله البرتغالى الوطاسى لاسيما بعد ان امر بالقبض عليه ورجال طريقته بعد ان وشى به الشيخ أبو عبد الله محمد بن غازى لكن الشيخ التباع استطاع الهرب واستطاع ان يواصل العمل فى طريقته حتى بداية ظهور العهد السعدى .

والذى ينظر إلى ثورة عمرو السياف التى ظلت عشرين عاما وزيادة انصاره ومريدية ثم مواصلة السير على نهج الطريقة بعد وفاته وقيام الشيخ عبد العزيز التباع ومن بعده الشيخ الغزونى انما يدرك ان هذه الثورة كانت بداية احياء طريق العمل السياسى وربطه بالعمل الدينى لاسيما انه فى الجنوب فى اقليم السوس وبالقرب من مراكش كان المجتمع الشريفى الادريسى العلوى السعدى قد بدا يدرك البعد الحقيقى للخطر الذى يتعرض له المغرب من جراء الانقسامات الداخلية والاخطار الايبيرية التى سيطرت على جميع المدن الساحلية ولم تترك للمغاربة غير مدينتى سلا ورباط الفتح، وكان دور الحركة الشريفة فى النصف الثانى من القرن الخامس عشر الميلادى محاولة اطواء حركة الصوفية وزعامتها تحت لوائها وكذلك السيطرة على القبائل الجنوبية والعمل على اقصاء الحكم الوطاسى الذى لم يكن له ادنى سند روحى او صوفى او دبنى ولم يكن له عون الا مساندة بعض القبائل وان الاسرة الوطاسية قد فقدت مقومات الكيان السياسى الحاكم وانها قد وصلت إلى مرحلة الكهولة والضعف يجعل الطريقة الصوفية تبحث لها عن قيادة تستطيع ان تمسك بزمام الامور والوصول بالشعب المغربى إلى اهدافه فى المحافظة على كيانه السياسى الممزق فى غرب العالم الاسلامى لاسيما انه كان ما يزال ممسكا بمقومات الدولة والعمل على رفع روح الاحياء الوطنى لاسيما بعد ان تحالف الوطاسيون مع البرتغاليين المحتلين وهذا كان يسقط عنهم صفة الحكم الشرعى للبلاد .

وفى الجنوب حيث اقليم السوس كان الجو الصوفى والدينى والجهادى والسياسى ومؤهلا لان تلعب هذه البلاد دورها فى اذكاء روح الجهاد فى سبيل كرامة التراب المغربى ودفع العدوان عن ديار الاسلام لاسيما بعد ان ادركت قبائل هذه الاقاليم ما أحاط البلاد من اخطار وما ساد المجتمع من تفاقم الاحوال سواء فى ظل الحكم

الوطاسى والسيطرة الاجنبية الاوربية واحتلال العدو وطمعه فى بلادهم والسيطرة على مقدراتهم ولم يكن امام زعماء القبائل الا ان يلجأوا إلى رجال الطرق الصوفية والعلماء ورجال الدين لكى يجدوا لديهم الحلول المناسبة التى يستطيعون من خلالها ايجاد السبل الملائمة للخروج من ذلك المازق التاريخى الذى تعيشه البلاد ولم يكن امامهم فى ذلك الاقليم الا الشيخ الصالح ابى عبد الله محمد المبارك الاقاوى االذى يحمل اسم الاقاوى نسبه إلى قرية فى اقليم السوس ووضعوا حالة البلاد التى كانت امامه صورة متكاملة من التمزق السياسى وتفرق كلمة القبائل وخضوع بعضها للسيطرة الاجنبية الايبيرية وقبول تعاملها مع الاسبان والبرتغالين وقيام القوات الاوربية بالهجوم عليهم ومواصلة محاربتهم للسيطرة على بلادهم واجبارهم على التعامل التجارى معهم لاسيما فى السكر الخام الذى كان يكثر انتاجه فى بلاد السوس. وكانت الطريقه الجزلية قد جذبت اليها رجال القبائل مما جعلهم يهرعون إلى راس الرباط وزعيمه أبى عبد الله بن مبارك فى مدينة تارودانت، ومن ثم كان على راية الجهاد التى رفعتها الطريقة الشاذلية الجزولية منذ عام ١٥١١م لاسيما فى مناطق الجونب حيث اقليم السوس واهله الذين يعانون وطأه الاحتلال البرتغالى وسيطرته على اراضيهم الساحلية فى ميناء اغادير والتغلغل منها إلى المناطق الداخلية ومن هنا فقد كان كان على هذا التغلغل ان يواجه من قبل رجال الطريقة الصوفية الجزولية التى كانت قد ضربت بجذورها العميقة فى المجتمع الجنوبى حيث بلاد الهبط والسوس وان الطريقة قد مضى عليها ما يقرب من نصف قرن من الزمان وكانت الظروف التاريخية المعاصرة للاحتلال البرتغالى وكذلك الاحوال السياسية السيئة التى تمر بها الاسرة الوطاسية والمعاناة الاقتصادية التى يعانى منها الشعب المغربى من جراء صد ابواب المدن الساحلية امام التجارة المغربية وما تركه اسلوب الغزو البرتغالى على الحياة الاقتصادية وتصاعد السيطرة التوسعية البرتغالية بعد ان بلغت اقصاها فى الجنوب. فكان على الراية الصوفية ان

نبحث لها عن من يقود حركة الجهاد السلامى ضد القوى المحتلة التى بدات تشكل حاجزا منيعا للعمل على ترويض روح الجهاد وكبح جماع الحماس الشعبى خلف الطريقة الجزولية ولكن كان لابد ان يحدث المخاض الذى ينتج عنه مولد حياة شابة لاسرة جديدة تقود النضال السياسى رالدينى والصوفى من احساس بالخطر البرتغالى المباشر على مركز اقامتها فى مدينة واحة آقة وراء جبال الاطلسى حيث تنطلق القوافل التجارية المتجة جنوبا إلى بلاد السودان الغربى وحيث محاولة البرتغالين تهديد العلاقة التجارية بين مدينة تيدس واقة لاسيما ان مدينة تيدس لها مكانة دينية لدى الطريقة الجزولية الصوفية وانها كسوق تجارى هام وكبيرة تلعب دورا فى رفع روح الجهاد للحركة الجديدة وكانت هذه السوق تعقد سنويا والتى كانت تنافس فى شهرتها تارودانت والتى كانت الطريقة الجزولية ممثلة فى زعيم اقة رؤية فى ضرورة مواجهة هذه الاخطار الخارجية بعد ان فزع الناس من الساحل وبات الهروب للداخل حيث الواحات الجبلية الاطلسية وكان تجمع رجال القبائل حول الطريقة التى كانوا يرون فى الانتماء لها هروبا من الواقع الاليم ونظرة للمستقبل بعد ان فشل حكام بنى وطاس فى القدرة على مواجهة الخطر الخارجى بل وصل بهم الامر إلى التعاون مع المحتل الاجنبى من اجل الكيان السياسى الذى باتت قوى الانهيار تتكالب عليه خارجيا فكان على الداخل ان يعول على اسرة عريقة ذات اصول تاريخية ودينية وبيت شريف لكى تكون المبادرة بيدها لاسيما وان هذه الاسرة او البيت الشريف قد انتمى إلى البيت الجزولى وطريقته منذ مطلع القرن السادس عشر بعد ان هاجرت إلى اقليم السوس وكانت الصلة الشريفة بالبيت النبوى الشريف وطوق الشرافة القرشية المحمدية التى تحملة فى رقبتها دافعا لها لان تتقدم الصفوف لكى تاخذ بالتنظيم الصوفى الدينى الجزولى إلى بعد آخر غير البعد الدينى وهو البعد السياسى الجهادى لكى تعمل على احتواء الازمات التى تنشب من القبائل والاسر والطوائف التى كانت تمزق الكيان السياسى للمغرب لاسيما

ان القتال يدور على ارضه والمطامع البرتغالية والتركية العثمانية تحاول الانقضاض على البقية الباقية حول فاس أو مراكش.

وهكذا كان النسب القرشى المحمدى الحسنى الطالبى هو الركيزة القوية بل هو السند الذى لا سند بعده وغاية ترتكز عليها حركة الجهاد الاسلامى كى تبعث دورا سياسيا جديدا بعد تدهور الدور الوطاسى وبعد حالة القتال والصراع القبلى، فكان ان رفعت الطريقة الجزولية الشاذلية راية الجهاد للاسرة السعدية الشريفة لكى تعود مسيرة المغرب بروح جديدة واسرة جديدة وبدا المغرب عصرا جديدا يعد من امجد واشرف واعظم صفحات تاريخ المغرب طوال عصوره المختلفة حيث يخلد السعديون تاريخ بلادهم بالكفاح الاسلامى .

الفصل الخامس

نظرة اخيرة على الاسرة الوطاسية

حكمت الاسرة الوطاسية بلاد المغرب الاقصى طوال فترة زمنية تصل إلى ثمانين عاما هجريا (٨٧٦– ٩٥٦هـ) وما يقرب من ثمانية وسبعين عاما ميلاديا (١٤٧١– ١٥٤٩م) تبادل فيها حكم البلاد اربعة من أمراء بنى وطاس بدءا من أبى عبد الله محمد الشيخ الوطاسى الذى استطاع ان يسقط حكم الاشراف الورياكين فى فاس بعد ان انهى حكم الشريف محمد بن على الادريسى الجوطى الذى حكم ست سنوات (١٤٦٥– ١٤٧١م) وانتهت الاسرة الوطاسية بسيطرة السعدين على فاس عام ١٥٤٩م بعد القضاء على حكم أحمد الوطاسى وان كان ابو حسون قد عاد بمساعدة الاتراك إلى عرش البلاد الا ان فترة حكمه لم تدم الا ثمانية شهور ٣ صفر ٩٦١ إلى ٢٤ شوال ٩٦١هـ) الا ان هذه الفترة قد حفلت بالاحداث السياسية والاجتماعية والعسكرية التى لم تشهدها بلاد المغرب فى مرحلة من مراحل تاريخها السابق فعلى الصعيد الداخلى شهدت البلاد تحرشا سياسيا لم تشهده من قبل اذ تكالبت القوى الخارجية البرتغالية والاسبانية على احتلال جميع الموانئ والمدن الساحلية على ساحل البحر المتوسط وكذلك الساحل المغربى المطل على المحيط الاطلسى بحيث لم يبق فى ايدى المغاربة سوى ميناء سلا ورباط الفتح وتحكم العدو الايبيرى فى مداخل البلاد ومخارجها ولم يعد للكيان السياسى الوطاسى قدرة فعالة للتصدى لهذا الغزو الخارجى وإن كان قد حاول ان يجد سبيلا للتعاون مع القوى الخارجية للمساعدة فى تحرير بلاده فقد تعاون احمد الوطاسى وقبله والده محمد البرتغالى مع الاتراك العثمانين من أجل طرد البرتغالين من بلاده وكذلك تحالف مع الاسبان من اجل طرد البرتغالين لكن هذه المحالفات لم تجد ادنى وسيلة للتغلب على قوى الاحتلال الذى بات يتهدد البلاد بعد

ان تحكموا فى رقاب العباد وبدا نفوذهم يمتد للداخل وقيامهم بغزو العاصمة فاس وقبلها العاصمة الجنوبية مراكش لكن هذا الغزو لم يحقق واصيب بالفشل .

كذلك فان ظهور بعض الكيانات المستقلة الصغيرة داخليا وان كانت تتبع اسميا السيادة الوطاسية الا انها كانت تمارس نفوذها على الاقليم الذى يخضع لها كما خضعت بعض المناطق لسيطرة القبائل وباتت الاوضاع الداخلية تنذر بالخطر اضافة إلى الخطر الخارجى .

وكان ظهور الاسرة السعدية الشريفة التى ظلت تقاوم القوى الاستعمارية الصليبية فترة تزيد عن عشرين عاما بدءا من عام ١٥١٢ حتى عام ١٥٣٢م حيث بدا الصراع ياخذا بعدا جديدا بدا بمحاولة السعدين القضاء على نفوذ الوطاسيين وكان ان احتدم الصراع من عام ١٥٣٢ حتى عام ١٥٤٩ والذى استمر سبعة عشر عاما فى حروب متواصلة مع الاسرة الوطاسية لاسيما مع احمد الوطاسى وان كانت فترة والدة محمد البرتغالى قد شهدت تصادما وطاسيا سعديا استطاع ان ينتزع مراكش من ايدى الوطاسين لكن فترة حكم احمد الوطاسى هى التى جاءت بالقوة الشابة السعدية على انقاض الدولة المترهلة الوطاسية فكانت فترة حكم الوطاسين هى اضعف حلفات التاريخ المغربى اذ انه رغم استمرار فترة حكم متصلة طوال ثمانين عاما الا ان المظاهر الحضارية والثقافية والعمرانية والاقتصادية والتعليمية لم تكن بتلك الصورة التى كانت عليها فى العصور السابقة كالمرابطين او الموحدين او بنى مرين والذين استولوا على السلطة منهم ولا كالسعدين الذين لحقوا زمنيا وامسكوا بزمام القيادة فى المغـرب الاقصـى مـن بعدهم .

لكن الذى ينظر إلى احداث هذه الاسرة التى حاول الكثير من المؤرخين عدم اعتبارها اسرة حاكمة (حسين مؤنس وغيره) واعتبارها حلقة بين مرحلتى الاسرة المرينية

والاسرة السعدية الا ان السلاوى يذكر ما يدل على ان الدولة كانت لها بعض المآثر الحضارية والثقافية العمرانية والاسلامية وكان لها دور لا ينكر فى مجال المحافظة على العقيدة الاسلامية والعمل بقدر المستطاع لكسر حركة الحصار التى كانت تفرض على المغرب لاسيما ان اول حكام الاسرة الوطاسية محمد الشيخ الوطاسى قد شهد انهيار آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس وسقوط غرناطة عام ١٤٩٢م ونزوح الهجرات الاندلسية الكبيرة إلى بلاد المغرب حيث اقرب البلاد الاسلامية قاطبة إلى الاندلس وكان على المغرب الوطاسى ان يعمل على استقبال هذه الملايين المهاجرة إلى بلادهم ومن ثم فان هذه الهجرة الاندلسية كان لها دورها فى الحياة الوطاسية لاسيما ان استمرار تدفق المهاجرين الاندلسين قد استمر طوال فترة الحكم الوطاسى بداية من عام ١٤٩٢ حتى عام ١٥٤٩م اى طوال اكثر من نصف قرن وقد كان للاندلسين فضل لاينكر فى جميع مجالات الحياة اليومية .

ومن ذلك فاننا نجد عن عودة ابى حسون بن محمد الشيخ الوطاسى عندما عاد لتولى السلطة فى فاس ويدخل عاصمة اجداده نجد المؤرخ المجهول الذى كتب كتابا سماه الدولة السعدية يذكر ان العلماء ورجال الدين وعليه القوم واهل الحل والعقد استقبلوا السلطان الوطاسى احسن استقبال ووقف الشيخ الزقاق احد كبار علماء فاس يذكر الناس بما فعله الوطاسيون اثناء فترة حكمهم للمغرب فيقول عن ابى حسون انه بقية امرائكم الذين شيدوا البلاد وسعد بهم العباد وشرفوا المساجد وبنو المدارس وقاموا بامر الدين والدنيا .

والذى ياخذ بهذه الخطبة وما جاء فيها من اقوال لا شك انها كانت على جانب كبير من الصحة والقبول لاسيما انه كان يخاطب أناسا معاصرين للاحداث ويذكرهم بامجاد وافعال الاسرة الوطاسية يدرك ان حكام بنى وطاس قد اهتموا رغم ظروف الفترة

الزمنية بالحياة الدينية والتعليمية فقاموا ببناء المساجد والاغداق عليها والاهتمام بامور رجال الدين والعلماء قربوهم اليهم واهتموا بالحركة العمرانية استفادة من خبرات اهل الاندلس وقاموا ببناء المدارس والاهتمام بالتعليم الدينى فى المدارس التى كانت تقوم على تدريس المذهب المالكى والعلوم المتصلة به وتحفيظ القرآن الكريم فى الكتاتيب التى كانت منتشرة فى طوال البلاد وعرضها وكذلك تدرس العلوم المتصلة بالحياة اضافة إلى الفقه والحديث والتفسير كانت تدرس الفلسفة والرياضيات والطب والهندسة والكيمياء وغيرها من العاوم المعاصرة .

كذلك كان الاهتمام ببناء المدن الجديدة وتحسين القديم فيها واقامة القلاع والحصون لاسيما ان البلاد كانت تتعرض للهجوم المتواصل من قبل البرتغالين والاسبان وكان على الوطاسين كسبا للرأى العام الشعبى والعمل على بناء الاستحكامات والقلاع والحصون والحصول على الاسلحة النارية الحديثة وبناء السفن الحربية وحشدها بالقوات والاهتمام بالجيش ومحاولة تجنيد العديد من ابناء القبائل والاستعانة بالسودان المرتزقة فى صفوف الجيش وكذلك العمل على الذود عن كيان البلاد والبذل والعطاء وتقديم كل عون للحركة الاسلامية المغربية المجاهدة التى تزعمتها الاسرة السعدية فى بادئ الامر وتقديم المال والعتاد والسلاح والخيل والمؤن الحربية للاسرة السعدية ومساعدتها فى جهادها وكذلك عملت أسرة الوطاسين على مساعدة اهل مراكش فى اثناء حصار البرتغالين للمدينة وعملت على اذكاء روح الجهاد الاسلامى والتقرب إلى رجال الطرق الصوفية بعد ان ثبتت فاعليتها فى تحرير بعض المدن والموانئ الساحلية من ايدى البرتغالين وان كانت بعض المواقف قد املت على حكام بنى وطاس التعاون او التحالف مع القوى الصليبية الايبيرية الا ان ذلك قد يكون ضعفا من حكام بنى وطاس فى بعض المواقف التى كانوا يعيشون فيها فى مآزق

عسكرية او دفعا لخطر يتهدد كيان العرش وربما كانت سمة الحكام الذين كانوا يفضلون مصلحة فردية على مصلحة البلاد والعباد وكانت روح العصور الوسطى تسود فيها حالة التحالف مع العدو التقليدى من اجل تحقيق هدف شخصى ادى فى النهاية إلى عزله هؤلاء الحكام ونصب الشعب المشانق لهم ومحاولة ايجاد السبل والوسائل للتخلص منهم والالتفاف حول قيادة وراية جديدة تعمل على اجلاء المحتل الغاصب والقضاء على الامارات والاقاليم المستقلة عن الكيان الشرعى فى فاس، ومن هنا فقد شهدت فترة حكم بنى وطاس فى المغرب اكبر تطور فى الاوضاع السياسية ذلك هو انتقال السلطان الفعلى من ايدى سلاطين بنى وطاس إلى ايدى الجماعات الصوفية الدينية التى انشأها شيوخ وأئمة الطرق الصوفية المجاهدة من امثال الشيخ الجزولى والجيلانى وابن عروس مدفوعين فى ذلك بالحماس الدينى الذى شمل المغرب كله نتيجه لاشنداد خطر الغزو النصرانى البرتغالى والاسبانى على سواحل المغرب، وتلك هى المقدمات التى مهدت لقيام دولة الاشراف السعدين الذين استطاعوا تزعم حركة الجهاد الاسلامى ضد العدو النصرانى والوقوف فى وجهه ووقف تقدمه لابتلاع المغرب الاقصى كله .

وعلى هذا فانه يمكن القول استنادا إلى تلك الاراء ان فترة حكم الوطاسين كانت مقدمة لظهور الدور الدينى الصوفى الذى لعبته هذه الطرق للوقوف والتصدى للخطر الصليبى الزاحف من جنوب اوربا بعد طرد المسلمين من ديارهم، كما ان الفترة الوطاسية قد شهدت تفتح قوى عالمية اخرى كانجلترا وفرنسا وهولندا وغيرهما من الدول الاوربية التى ادركت دور المغرب فى صلة الربط بينها وبين المستعمرات التى احتلتها او فى طريقها إلى تكوين مستعمرات لها وراء البحار. ومن ثم كانت محاولة ايجاد موانئ لها تكون محطات للانطلاق منها جنوبا إلى جنوب القاره الافريقية والمحيط الهندى

والاطلنطى وجزر الهند الشرقية (اندونسيا) والملايو وغيرها من البلاد التى كانت تسعى تلك الدول إلى امتلاكها او الاتجار معها. ذلك لان الاسرة الوطاسية ظات تمارس دورها السياسى فى منتصف القرن السادس عشر الميلادى وهى الفترة إلى كانت فيها هذه الدول غير البرتغال واسبانيا تحاول البحث عن اسواق تجارية لها فى ارض المغرب الغنى بموارده الطبيعية وانتاجه الوفير .

كما ان لا يمكن انكار ان الوطاسين قد حافظوا على استقلالهم فى المغرب الاقصى رغم التدخلات السياسية فى ذلك الوقت وخطر الوجود التركى العثمانى فى المغرب الاوسط والصراع الايبيرى الاسبانى البرتغالى على ارض المغرب، فان بنى وطاس عملوا قدر طاقتهم وامكانياتهم المحدودة لاطواء كل بلاد المغرب تحت الراية العثمانية لكن الوطاسيين حافظوا على عرشهم امام ضغوط قوى النزاع المحيطة به ومن هنا كانوا يهادنون الاتراك تارة والقوة الصليبية تارة اخرى وعندما كانوا يشعرون بشدة الخطر الصليبى كانوا يرفعون شعار الجهاد الاسلامى ومناشدة العمل مع الاتراك العثمانيين من اجل طرد القوى الاستعمارية من المغرب، كما انهم كانوا يلجأون إلى الاسبان متحالفين معهم ضدالبرتغالين ومع الاخيرين ضد الاسبان وكل ذلك من اجل عمل التوازن السياسى المطلوب فى منطقتهم التى تحف بها الاخطار من كل جانب مرعاة للظروف السياسية السائدة، لكن كل ذلك يجعل الاسرة الوطاسية تنجح فى البقاء طويلا فى عرش البلاد بسبب نزوع القوى المحلية التامية فى الجنوب حيث بلاد السوس وهدفها فى اسقاط بنى وطاس بعد ان خاب مسعاهم فى توحيد البلاد تحت قيادتهم وفى القضاء على البؤر الاستعمارية والجيوب الاسبانية البرتغالية التى شكلت اكبر تحدٍ حقيقى بواجه القوى الدينية فى بلاد المغرب خلال النصف الاول من القرن السادس عشر الميلادى حيث كان التنازل عن الموانئ المغربية الاسلامية للبرتغالين او الاسبان

يشكل نهاية النهاية بالنسبة للدولة الوطاسية التى كان سقوطها مؤكدا بل مؤشرا إلى تصاعد قوى السعدين حيث ان ملامح ظهور حركة جهادية جديدة بدات تاخذ زمام المبادرة رافضة للوضع الاستعمارى البرتغالى والاسبانى والامارات المحلية الصغيرة وعدم قبول الحماية المسيحية وتطلعات الطرق الصوفية إلى مراكش فى راية الشرافة الحسنية الطالبية القرشية دفعا لكى تتحرك هذه القوى من جنوب بلاد السوس حيث الاتجاه شمالا لاسقاط قوى الوطاسية التى تهاوت امام ضربات روح الجهاد السعدى وكان على بن وطاس اى يسلموا قيادة المغرب الاقصى كرها منهم للسعدين الاشراف وتلك نهاية بنى وطاس .

حكام الاسرة الوطاسية

١ – ابو عبد الله محمد الشيخ الوطاسى

٨٧٦– ٩١٠هـ– ١٤٧١– ١٥٠٤م .

٢ – ابو عبد الله محمد بن محمد الشيخ الوطاسى– البرتغالى

٩١٠– ٩٣٢هـ– ١٥٠٤– ١٥٢٥م .

٣ – ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى

٩٣٢هـ– ١٥٢٥م .

٤ – احمد بن عبد الله محمد البرتغالى ابو العباس

٩٣٢هـ– ٩٥٦هـ– ١٥٢٦– ١٥٤٩م .

فترة حكم الاسرة الوطاسية فى فاس

٨٧٦– ٩٥٦ = ٨٠ عام هجرى .

١٤٧١– ١٥٤٩ = ٧٨ عام ميلادى .

٥ – ابو حسون بن محمد الشيخ الوطاسى

٣ صفر ٩٦١هـ– ٢٤ شوال ٩٦١هـ .

الباب الثاني

الاشراف السعديون ومسرح الاحداث بالمغرب الاقصى

الشعوب المغربية وبصفة خاصة شعب المغرب الاقصى حيث البوابة الغربية للعالم الاسلامى يشتهر بحبه الشديد للنسب الهاشمى القرشى الشريف بالدوحة النبوية المطهرة وللسلالة التركية الطيبة التى تهفو اليها نفوس المغاربة حبا وبركة بوجود نسل الرسول ﷺ فى ارض المغرب التى تشرفت بالهجرة المباركة من أحفاد النسب المحمدى منذ عصور مبكرة من الدعوة الاسلامية، وعلى هذا فقد ارتبط الحب الشديد للنسب الشريف يتمسك المغاربة بتعاليم الدين الاسلامى الحنيف وتنفيذ تعاليمة بدقة وبصيره، ومن ثم فقد رات الشعوب المغربية فى هؤلاء الاشراف الذين هم نتاج الشجرة الطبية المباركة التى يتفرع منها النسل الطاهر لرسول الله ﷺ صاحب الدعوة ورسول الهدى للبشرية، أنهم أقدر وأصلح وأنسب الناس قيادة للبلاد للمحافظة على أمور الدين والدينا وان هذا الاحساس من الشعب المغربى فى النسب الشريف قد تأكد بوصول ادريس بن عبد الله العلوى الطالبى إلى المغرب وفراره من مذبحة فخ بالحجاز التى أوقعها بهم العباسيون ونجاحه فى تكوين دولة الادارسة بالمغرب (١٧٢- ٣٤٧هـ- ٧٨٨-٩٥٨م) ولقد اعتز أبناء المغرب بوجود ذوى النسب النبوى الشريف بين أحضان المغرب وتفرع سلالتهم الشريفة على أرضه .

ولقد كان وجودهم يشكل بناء أسرى اجتماعى وسياسى متميز عن بقية أنحاء الاقاليم المغربيية الاخرى، وهكذا ارتبطت الشرافة القرشية بتاريخ المغرب الاقصى واسرته الحاكمة دون أى بلد اسلامى. فسلطان المغرب هو فى نفس الوقت الامام والزعيم الدينى، وعندما كان أهل المغرب يحسون بالاخطار تتهدد أوطانهم فانهم كانوا يلجأون إلى الاشراف لكى يجدوا لديهم القدرة بما لهم من صلة النسب الشريف فى انقاذ

البلاد، ففى اواخر عهد الدولة المرينية عندما سيطر اليهوديان هارون وشاول على تقاليد الامور فى عهد السلطان عبد الحق المرينى، فان الشعب المغربى ممثلا فى شيوخ مدينة فاس ورؤساءها رؤاد فى الشريف أبى عبد الله محمد بن ادريس الجوطى نقيب الاشراف بفاس المنقذ للبلاد. (٨٦٩- ٨٧٦هـ- ١٤٦٤- ١٤٧١م) والذى ظل يحكم البلاد حتى تغلب عليه محمد الشيخ الوطاسى .

وعلى هذا فانه يمكن القول ان الشرف العربى القرشى النبوى له نماذج عديدة فى ارض المغرب قبل ظهور السعدين على مسرح الاحداث ولقد ظهرت الشرافة العربية فى تاريخ المغرب الاقصى بصفة خاصة مرتين قبل ان تاتى الثالثة على يد الاشراف السعديين وتكون بعدها الشرافة الرابعة والاخيرة وهى الشرافة العلوية التى لاتزال تحكم المغرب الاقصى حتى تاريخ كتابة هذا البحث (١٩٩٢م). وهكذا فى ظل الاحداث التى تتواكب على الساحة المغربية رأت القيادة الدينية الصوفية ان الواجب الاسلامى يحتم عليها الالتفاف حول الراية العربية الشريفة النبوية واحياء دورها التاريخى كما سبق ان كان لها نفس الدور أيام الدولة الادريسية .

ومن هنا كان السعديون يقع عليهم عبء قيادة البلاد مرتدين عباءة الشرافة العربية ويركبون موجة الجهاد والحركة الدينية الداعية إلى بناء مغرب جديدتضع نهاية لضعف الدولة المركزية فى مراكش وحالة التشرذم التى تعيشها دولة بنى وطاس لاسيما وان المشاعر المغربية وبصفة خاصة فى بلاد السوس تلتفت حول السعدين الذين لم يجدوا أدنى صعوبة فى تأسيس دولتهم بل انهم وجدوا الحماس من كل طبقات الشعب ورجال القبائل الكبرى ومشايخ الطرق الصوفية .

كما اننا سوف نرى فى نهاية هذا البحث كيف انه فى نفس الظروف التى تولى فيها السعديون حكم المغرب مدعوين بنفس المشاعر المغربية ازاء الشرافة العربية القرشية

النبوية استطاع الاشراف العلويون السجلماسيون او الفلاليون تكوين دولتهم على انقاض دولة الاشراف السعدين فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر الهجرى (السابع عشر الميلادى) ولا يزال هؤلاء الاشراف العلويون يحكمون بلاد المغرب الاقصى حتى الوقت الحالى كما سبق القول حيث كان جدهم الاكبر الحسن بن القاسم جد العلويين هو أول من ترك بلاد المغرب ثم اتجه جنوبا إلى سجلماسة وذلك بعد قدومه من بلاد الحجاز متمسكا بالنسب الشريف العلوى عاملا مد شرافة الشرق الحجازية فى محيطها العربى إلى الحركة الاسلامية فى بلاد المغرب .

وعلى هذا فان الذى ينظر للدور الذى ستلعبه الاسرة السعدية الشريفة فى تاريخ المغرب فى تلك الظروف حالكة السواء والمنعطف الخطير الذى يعصف بالحركة فى مواجهة تحديات عانية يدرك ان حركة التاريخ عبر سيرها الطويل فى المغرب وانحدار دول ونهايتها (المرابطين، الموحدين، المرينين، الوطاسين) وظهور دول غنية اخرى يدرك ان الدولة كما ذكر ابن خلدون فى مقدمته تمر باطوار عدة بين النشأة والنضج والقوة والكهولة التى تعنى فى النهاية سقوط الاسرة الحاكمة وعودة الدولة إلى دورة جديدة بدماء جديدة ممارسة لدورها باسم اسرة حاكمة جديدة تتخذ من النسب القرشى الشريف والعقيدة الاسلامية شريان حياتها الرئيسى بعد أن أودت بحياة أسرة بنى وطاس، ذلك لأنه كان للدين الاسلامى فى بلاد المغرب شأنها شأن بلاد بقية العالم الاسلامى الواسع فى ذلك الوقت أهمية بالغة فى اذكاء روح البناء الحاكم ومنطلق من منطلق دينى تتواكب تحت لوائه بل اجنحته حركة الدولة التى يكون عامل الشرافة القرشية الطالبية الحسنية الهاشمية هو المحرك الاساسى لكى تمارس نشاطها السياسى والاجتماعى والاقتصادى عبر مراحل بناء الدولة وادوار حياتها التى تمتد اكثر من قرن ونصف من الزمان .

ومن هنا كان النسب الشريف والروح الصوفية والطريقة الجزولية على الساحة المغربية ادراكا بالخطر البرتغالى والاسبانى الذى بات يتهددا دورها فى بناء الدولة السعدية لكى يعود للدين الاسلامى اطاره القوى ويستطيع ان يقف ويواجه تيار التحديات التى جاءت إلى أرض المغرب تحل دياره وتناصبه العداء والتى كانت تتحدى مقدرات الشعب المغربى التى تمس فى نفس الوقت مقومات الاسلام والعروبة بحكم مواجهتها المستمرة مع حركة التاريخ الاوربى وبحكم الاطار الزمنى والظروف السياسية التى يتحرك فيها المغرب تفاعلا مع التحركات المضادة على الجانب الآخر من مضيق جبل طارق التى قدمت إلى الساحل المغربى تحتل ثغوره الحساسة ومدنه السحاحلية الهامة انطلاقا لخنق بقايا الجهاد الاسلامى فى اراض الاندلس .

وفى ظل هذه الظروف كانت كل الاسباب تدفع الاحداث دفعا امامها لظهور الامارة السعدية الشريفة لكى تدعم قوتها وتطورها ونزعتها العربية الشريفة لكى تلعب دورا على مسرح الاحداث السياسية فى بلاد المغرب الاقصى مستفيدة من كل الظروف السابقة والاحوال المحيطة ولكن تدرك ابعاد الصدام المرتقب الذى يرنو ببصره تطلعا لابتلاع المغرب بين القوى التركية العثمانية والاسبانية والبرتغالية لاسيما بعد ان سيطرت كل من هذه القوى الثلاث على بعض الثغور الساحلية فى بلاد المغرب الاقصى .

ومن هنا لم تكن نشأة الدولة السعدية التى نعرض لها على صفحات هذا البحث حتى سقوطها على يد الاشراف العلوين ليلعب الدور الهام الا بالنسب الشريف الذى دفع بها إلى قلب الاحداث حيث كان النسب هو المحرك القوى والفعال بل والمؤثر الحاسم فى الصراع مع بنى وطاس لكى يتم بناء دولة كانت تقيم اوج البناء اعتمادا على البعد الدينى مرتديا عباده الاشراف الحسنين القرشين مضافا اليه البعد الاقتصادى

والاجتماعى ومن هنا جاء الينا الشريف السعدى قويا معتصما بالقوى العربية المغربية التى ساندته منذ الوهلة الاولى التى انطلق فيها مؤسسها الاول محمد القائم الشريف السعدى الذى رأى ان الوقت قد حان لكى يلعب الاشراف دورهم على الساحة المغربية ادراكا بالخطر البرتغالى والاسبانى الذى بات يتهددا الوطن لاسيما بعد تطلع الايبيرين لاحتلال الداخل وقيامهم بارسال حملات عسكرية لاحتلال مراكش العاصمة الثانية لبنى وطاس وبعد ذلك ارسال حملات لاحتلال فاس العاصمة الاولى. ومن هنا تصدت الاسرة السعدية للعدوان الصليبى قادمة من قلب الجنوب المغربى رافعة راية الجهاد الاسلامى ضد القوى الاستعمارية البرتغالية وباسم الجهاد الاسلامى واحياء الدولة الاسلامية على نمط المرابطين والموحدين تصاعدت القوة الكبرى للاسرة وللامارة السعدية وبدات وحدتها السياسية تحاول ان تجد لها طريقا بين القوى الكبرى الثلاث وهى الامبراطوريات المجاورة ومن هنا كان عليها ان تجد لنفسها طريقا لابد ان تلعبه وتمارس فيه وجودها مرتبطا بعلاقات مع تلك الدول .

وهكذا نشأت الامارة السعدية من التنظيم الدينى الصوفى الذى ساد المغرب مع رداء العبادة الشريفة القرشية وكان فرع من الاسرة السعدية قد هاجر فى اواسط القرن الخامس عشر إلى اقليم السوس واستقر فى قرية صغيرة تسمى (تيدس) وتقع جنوب غرب مدينة «تارودانت» وعرف عن الاسرة السعدية منذ استقرارها فى تلك المنطقة بالانتماء للاشراف الحسنين العلوين من نسل محمد بن ابى القاسم من اشراف سجلماسة من نسل محمد النفس الذكية ومن ابناء الحسن بن على .

ومحمد القائم السعدى مؤسس الاسرة السعدية ورافع لواء الجهاد الاسلامى هو محمد بن محمد بن عبد الرحمن بن على بن مخلوف بن زيدان بن احمد بن محمد بن ابى القاسم بن محمد بن الحسن بن عبد الله بن ابى عرفة بن الحسن بن ابى بكر

بن على بن حسن بن احمد بن اسماعيل بن قاسم بن محمد النفس الذكية بن عبد الله الكامل بن حسن المثنى بن الحسن السبط بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم .

ويوجه اليهم بعض الاتهامات اعداؤهم بانهم ينتسبون إلى قبيلة بنى سعد التى تنتمى اليها حليمة السعدية مرضعة الرسول محمد ﷺ، لكن الثابت تاريخيا ان الاسرة السعدية كأية أسرة عربيةمهاجرة من الشرق ظهرت فى اوائل القرن الرابع عشر الميلادى فى منطقة الوادى الاوسط لهز درعه بين مدينة زاكورا ومدينة تاكمدارات، ومن هذه المنطقة هاجر الفرع الذى ينتمى اليه محمد القائم إلى بلاد السوس .

ويذكر السلاوى فى كتابة الاستقصا فى اخبار المغرب الاقصى ان الشيخ ابن المبارك رأس الطريقة الجزولية فى بلدة اقة اجتمع بالامير الشريف أبى عبد الله القائم وذلك عام ٩١٥هـ وعهد اليه بامر قيادة حركة الجهاد، ثم عاد الشريف إلى درعه فهو الذى اتخذه لتنظيم صفوفه وجمع اعوانه ورجال القبائل من حوله ثم عاد فى العالم التالى ٩١٦هـ حيث بعث اليه رجال الدين وفقهاء البلاد وشيوخ القبائل لكى يتولى أمرهم وتسلم الامر فيهم فلبى دعوتهم وبايعه الناس على الجهاد والصبر والطاعة والولاء فى قرية تيبدس قرب تارودانت .

ولقد استفاد الاشراف السعديون بنسبهم الشريف وقت ظهورهم على مسرح الاحداث بالمغرب وقيادة أهل السوس المتضررين من الاحتلال البرتغالى على اراضيهم. ولقد دعمت القبائل العربية المقيمة بمنطقة بلاد السوس نضال السعدين ضد الاستعمار البرتغالى وكان على رأس هذه القبائل بنو شبانة وضوى منصور الذين كانوا حلفاء اقوياء لهم منذ بداية تنظيمهم السياسى فى بلاد السوس .

وهكذا كان ظهور محمد القائم بامر الله السعدى بداية ظهور دولة الاشراف

السعديين وهى الدولة التى عرفها المؤرخون باكثر من اسم فى المصادر الغربية والاوربية فأطلقوا عليها الدولة الزيدانية او الدرعية التاكمدارية أو دولة الاشراف الحسنين وذلك الاسم الاخير لان مؤسس هذه الاسرة شريف قرشى هاشمى ينسب إلى النبى ﷺ من جهة الحسن بن على بن ابى طالب وفاطمة الزهراء وقد تسموا بامراء المؤمنين .

وهكذا كان اتفاق اشياخ الصوفية ورجال القبائل والفقهاء وعليه القوم ورجال الدين فى بلاد السوس على أبى عبد الله محمد القائم بأمر الله، انما كان اشارة للتحرك بالجهاد الاسلامى واذن من الصالحين والاولياء والعلماء له بالامامة العظمى نظرا لنسبه القرشى الشريف .

ونذكر بعض المصادر ان السعدين كانوا يعيشون بقرية تسمى (بنو ابراهيم) وهى قرية من اعمال مدينة ينبع الواقعة على ساحل البحر الاحمر بالقرب من المدينة المنورة بارض الحجاز المقدسة، ثم هاجروا إلى وادى درعه بالمغرب وكان بعض من أهل الورع المغاربة من مدينة سجلماسة عند اداء فريضة الحج قد توقفوا فى مدينة ينبع وتصادقوا ان يتقابلوا مع شريف من الشرفاء الحسنين بن الحسن فخاطبوه فى أمر الرحيل معهم وحببوا اليه السير معهم إلى بلادهم بالمغرب ولقب هذا الشريف بالداخل، وعمل اهل درعه على استقدام شريف قرشى هاشمى طالبى مثل اهل سجلماسة فقدم اليهم من يتبع الشريف مولاى زيدان بن احمد وهو الاسم السادس فى ترتيب اسماء محمد القائم بالله فيكون هناك خمسة اجيال عربية قرشية هاشمية طلبية حسنية قد تناسات فى بلاد المغرب وكان زيدان هو ابن عم شقيق الحسن الداخل جد الاسرة العلوية التى تحكم المغرب حاليا) وانتشرت ذرية الحسن فى سجلماسة، أما سلالة زدان مؤسسو الاسرة السعدية فقد انتشروا فى وادى درعه وانحدر منها امراء المؤمنين السعدين. والذين نسبو إلى عشيرة بنى سعد بن بكر والذين عاشوا فيها مع ابناء زيدان سويا فى درعه

حيث كان ابناء سعد يشاركونهم المعيشة فى هذه البقاع الجنوبية من المغرب الاقصى ومن هنا فان اشراف سجلماسة (العلوين) ودرعه (السعدين) ابناء عمومه. لكن نجد اليفرانى فى كتابه النزهة يذكر لنا أيا من الرجلين دخل المغرب هل هو زيدان ام أبوه احمد ومهما تكن الآراء بشأن من كان فيهم أول من دخل المغرب فان الامر لا يعدو أن يكون هجرة عربية قرشية شريفة من جزيرة العرب إلى المغرب، بل ان الحسن بن عبد الله الذى هو جد السعدين هو نفسه– الجامع لنسبهم مع الاشراف العلوين مع جد السجلماسيون وهناك بعض الآراء يذكر ان السعدين والعلوين قد تفرعوا من الجد بعد قدومه إلى المغرب وهو الرأى الاكثر قبولا وملاءمة للواقع وللاحداث التاريخية التى دارت على ارض المغرب بعد ذلك .

اما لماذا اختار اهل الحل والعقد والطرق الصوفية والمشايخ والفقهاء هذا الشريف فان ذلك يعود إلى التيقن الكامل من النسب الشريف الذى كانت تتناقله الاجيال مشافهة جيلا من جيل وهو ان جدهم الاكبر احمد بن محمد على القاسم والد زيدان الذى يقال انه هو الذى هاجر إلى المغرب فانه قدم إلى بلاد السوس وكان يحفظ الصبيان كتاب الله الكريم وقرآنه القويم ويشتغل بالتعليم وهو أول من انتقل إلى اقليم السوس حيث قامت قبائل هوارة فى هذه المنطقة باقامة زاوية له ثم تناسلت الاجيال منه حتى كان جد الاشراف عبد الرحمن فقيها يعلم كتاب الله للصبيان وكان له ولد ابنه محمد ومحمد هذا هو والد محمد بن القائم بامر الله، ومن ثم فقد كان اجداد السعدين منذ ان وطئت اقدامهم ارض المغرب يشتغلون بالتعليم وتدريس القرآن والعلوم الاسلامية لابناء وصبيان هذه المنطقة وكان الفقه والعبادة والتعليم نهج حياتهم. ومن ثم تمضى الازمان والايام والاشراف السعديون لايحيدون عن الطريق الدينى والنشاط الاسلامى الذى اختطوه واختاروه لانفسهم وهم فرع الشجرة النبوية الطيبة الذكية ولم يكن يدور

بخلد وخاطرا أحد منهم ان يمارس نشاطا أو دورا سياسيا فى المغرب، ومن ثم جاء الدور على ابى عبد الله محمد القائم بامر الله الذى بدأ يتطلع للسلطة والسلطان والرئاسة والقيادة الدينية والدينوية وكان ان رزقه الله بولدين هما أبى العباس احمد الاعرج وأبى عبد الله محمد الشيخ وكانا يقرآن القرآن الكريم فى منطقة السوس وذاع صيتهما ونبوغهما بين أهالى المنطقة وكان رؤساء العشائر والقبائل ورجال الدين والفقهاء، يتوسمون فيهما مستقبلا باهرا واياما مباركة من أجل العمل لصالح الرعية، بل ان والدهما كان يعلن أن أمر المغرب سوف يؤول اليهما مستقبلا .

ولقد كانت احداث المغرب فى تلك الفترة تبشر بنجاح النشاط السعدى وقاد محمد القائم بأمر الله السعدى نشاط المجاهدين ضد البرتغالين واعوانهم المغاربة على السواء وبلغ نشاطه محاولة دخول مدينة اسفى عام ١٥١٥م. بعد ان كان البرتغاليون قد سيطروا على موانى وسواحل اقليم السوس نظرا لانه المدخل إلى الاراضى الخصبة المتاخمة للساحل، ومن هنا كان على الحركة السعدية واهالى المنطقة مقاومة هذا النشاط فاقاموا رباطا قريبا من مراكز احتلال البرتغالين وكان هذا الرباط يضم المتطوعين الراغبين فى الجهاد الاسلامى والذين اعتادوا الاقبال على هذا الرباط لشن الغارات المتكررة معا على اعدائهم المحتلين وسرعان ما كبر هذا الرباط وصار زاوية كبيرة اقيمت من الساحل (ساحل المحيط الاطلسى) ومدينة تارودانت ليتولى امر الجهاد ومن هذه الزاوية التى تولاها الاشراف السعديون الحسنيون بدأ التفكير فى تطهير البلاد من الاحتلال الاجنبى .

وعلى هذا فقد كان عام ٩١٦هـ/ ١٥١٠م هو مولد الدولة السعدية الحقيقى اذ ان مبايعة أبى عبد الله محمد بن عبد الرحمن باقليم السوس اميرا واملها للبلاد المغربية باسم القائم بامر الله يعاونه ولداه احمد الاعرج ومحمد الشيخ مرتكزا على النسب

الشريف والدعوى الجزولية الصوفية. ثم تأيد القبائل والاهالى، ولقد كان تحمل طوائف الشعب لهذا الشيخ بالمسئولية الجهادية يجعل هذه القيادة الجديدة ان تضع امام ثاقب نظرها ضرورة تخليص كل شبر من اقليم السوس من الاحتلال الايبيرى البرتغالى الاسبانى والقضاء على اعدائهم الخونة المغاربة الذين يتعاملون معهم ويمدونهم بالعون من اجل البقاء بالبلاد كغزاة ومحتلين بل انه ازاء مواجهة تحديات الصراع كان يتحتم تحصين مدينة تارودانت لصد أى هجوم يقع عليها وجعلها نقطة تجمع وانطلاق لفتح مراكش ثم النسيطرة على جميع اراضى اقليم السوس والعمل على تمكين السعديين من دخول مراكش لتكون عاصمتهم الاولى ثم القضاء على حكم الوطاسين فى فاس وأيضا تصفية كل الوحدات الانفصالية الصغيرة التى تتبع رسميا لحكم بنى وطاس ثم بعد ذلك كان هدف توسيع رقعة المغرب وتكوين دولة مغربية قوية كبرى تصارع فى قوتها وتوسعها دولة المرابطين والموحدين ومن هذا المنطق كان السعديون يضعون نصب اعينهم ضرورة تحقيق هذه الاهداف العظمى والسعى حثيثا إلى الوصول إلى الهدف الاكبر وهو تحرير كل الموانئ والسواحل الواقعة تحت السيطرة الاستعمارية والارتكاز على التأيد المغربى الجارف لهم كسند قوى يدفع بهم إلى تحقيق كل هذه الاهداف التى رسمها للاسرة مؤسسها الاول ابو عبد الله القائم بامر الله .

وعلى هذا فقد استطاع الامير والامام ابو عبد الله القائم يدعمه ويسانده ويشد من أزره والده احمد الاعرج ومحمد الشيخ الذى خطط لهما ملامح المستقبل السعدى فى ضوء الاحداث المحيطة والتطلعات إلى رؤية واسعة فى تثبيت دعائم هذه الاسرة الشريفة واستطاعا أن يجمعا حولهما المجاهدين والمتطوعين والراغبين فى الاستشهاد والجهاد. وان يقفوا على متطلبات حركة الجهاد الاسلامى فى اقليم السوس كله وكان المخطط الاول هو تحرير الثغور المغربية من الايبيرين والمحتلين، وبعد ان تأكد القائم بامر الله من

صدق العزيمة وقوة الارادة ونية الجهاد استفتح عمله فى مجاهدة البرتغالين وطردهم من البلاد فهاجموا مدينة نقتنت بالسوس وانتصروا على البرتغالين وكان تحرير هذه المدينة اول نجاح حربى يحققه القائم بامر الله السعدى ثم حررمدينة اغادير وجعلها دار امارته ولم يحل عام ١٥١٢م/ ٩١٨هـ حتى كان قد آخذ البيعة لابنه احمد الاعرج ونصبه خليفة له على البلاد من بعده وولى له وذلك لكى يضمن للحركة السعدية الجهادية صفة الاستمرارية ويضمن ولاء الانصار لابنه من بعده واخذ البيعة لمحمد الشيخ ابنه الثانى ايضا واتخذ ابو العباس احمد الاعرج لقب ملك بلاد السوس فى عهد ابيه وكان ذلك عام ٩١٨هـ ومنذ ذلك الوقت صار ابو العباس الاعرج زعيما لحركة الجهاد ضد البرتغالين وذلك بعد ان ذاع اسمه وبلغت شهرته انحاء الجنوب بعد انتصاره على البرتغالين فشدت القبائل ورجالها اليه الرحال تبايعه ونلتف حوله وتعاهده على الموت جهادا فى تحرير التراب الوطنى المغربى المقدس. وكانت هذه المرحلة الثانية من الجهاد إلى مدينة افغال حيث رحاب رفات شيخ الجزولية حيث طلب منه شيوخ القبائل ورجالها مساعدتهم ضد البرتغالين فنهض بهم بقواته وولده احمد إلى اغفال بلاد صاصة وترك ابنه الاصغر ابا عبد الله محمد الشيخ واليا على بلاد السوس يدير امورها فى غياب ابيه واخيه واصطدم السعديون ورجال القبائل المؤيدة بالبرتغالين وأعوانهم الخونة من أهل المغرب حيث دارت معركة بالقرب من مدينة اسفى لم يستطع السعديون الانتصار فيها بسبب دعم البرتغالين لرجالهم وخليفهم «يحين بن تافوت» بعد ان حاصرهم السعديون فى حصنهم الحصين اسفى واغلقوا عليهم الابواب، لكن احمد الاعرج استطاع ان يجدد الهجوم ويجمع قواته وان يهزم البرتغاليين وحليفهم «يحيى بن تافوت» وان ينتصر عليهم ومات يحيى بن تافوت عميل البرتغالين عام ٩١٩هـ/ ١٥١٣م وبموته فقد البرتغاليون حليفا قويا وبدأ مركزهم فى الضعف .

لكن الحركة السعدية فقدت آمالها وقائدها أبا عبد الله محمد القائم بامر الله عام ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م بعد ان استطاع ان يضع اسس بناء الدولة السعدية وان يحدد اطار العمل لولديه أبى العباس احمد الاعرج وأبى عبد الله محمد الشيخ اللذين كان عليهما ان يواصلا المسيرة السعدية انطلاقا للجهاد المحدد وسعيا وراء الهدف المنشود فى تحرير الثغور المحتلة وايجاد الظروف والسبل الملائمة للقضاء على الدولة الوطاسية التى انهكتها الحروب الداخلية والحصار الاقتصادى والسيطرة الاوربية وكان على احمد الاعرج ان يحمل راية الجهاد خلفا لابيه القائم بامر الله .

الفصل الأول

الدولة السعدية بعد مؤسسها محمد القائم بامر الله

٢٩٤– ٦٩٠هـ– ١٥١٨– ١٥٤٤م

(أ) الامير ابو العباس احمد الاعرج

بايعت القبائل المغربية ابو العباس احمد الاعرج بعد وفاة ابيه القائم بأمر الله خليفة له واماما للمجاهدين فى بلاد السوس ومن ثم استقامت له الامور وبدأ يمارس نشاطه فى محاربة البرتغاليين وجهادهم فشن الغارات على العدو البرتغالى وضيق المنافذ على القبائل السوسية المتعاونة مع البرتغالين واستطاع ان يوسع مناطق نفوذه .

وهو الامير السعدى الاول وكان قد تولى امارة السوس كما سبق القول عام ١٥١٢م ثم امارته على مراكش عام ١٥٢٤م. وكان السعديون قد نجحوا فى جعل مراكش امارة سعدية لهم منذ عام ١٥٢٠م وقبل سيطرة احمد الاعرج على مراكش فانه كان قد سيطر على مدينة تارودانت وناركوكو وحصن سانت كروز. وكانت الانتصارات التى احرزها السعديون قد جعلت البرتغالين يعيدون حساباتهم فى البقاء فى المغرب مما دفع ملك البرتغال جان الثالث عام ١٥١٨م بعد ان ادرك الخطر السعدى الزاحف فى تحرير المدن بان لجأ إلى الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا يطلب منه المساعدة بعد ان خشى البرتغاليون وطأة السعديين فكان ان تركوا مدينة ازمور ورباط واسفى وأصيلا تحت شدة الهجوم الاسلامى بعد أن لاحظوا بسالة وشجاعة الجند المغربى عند سقوط مدينة سانت كروز فى أيديهم وتركوا أغادير لان خطورة السعدين فى الجنوب قد لا تكون بتلك الصورة فى الموانئ الشمالية مما جعلهم يركزون وجودهم فى الموانئ الشمالية خوفا من الخطر التركى العثمانى او تحالف الاتراك مع السعدين .

وكان دخول أبى العباس احمد الاعرج مدينة مراكش عام ٩٣٠هـ/ ١٥٢٤م بداية تكوين دولة السعدين المركزية والاتجاه نحو توسيع الحدود التى كان يسعى إلى تحقيقها الاعرج وأخوه محمد الشيخ حاكم السوس وكانت فكرة العودة إلى بناء الدولة الكبرى تراود احلامه بعد ان رأى انه فى عام ١٥٣٦م لم تكن الدولة السعدية الا مجرد امارة صغيرة فى مراكش وسوى تتبع الولاء وتخضع للسيادة الوطاسية فى فاس. ومن ثم كانت الامارة السعدية فى تلك الآونة ترى ضرورة استقرار الوضع فى الجنوب ثم التطلع إلى الشمال. ولقد ادى الاسراع فى السيطرة السعدية على مراكش إلى ارتفاع مكانة احمد الأعرج فى بلاد المغرب بعد ان نقل فى نفس العام ١٥٢٤م رفات الشيخ الجزولى إلى مراكش لكى يضفى الشرعية على الوجود السعدى فى مراكش لكن الثورة قامت ضد الاعرج عندما عاد إلى بلاد السوس لاقتسام الخراج مع اخيه فى بلاد السوس وكان ذلك من اسباب حدوث الخلاف بين الاخوين الشريفين، لكن الاشراف السعديين عادوا إلى مراكش فى نفس العام وقضوا على الثورة ولم تمض الا شهور قليلة حتى قتل السعديون محمد بن ناصر بوشتنوف حاكم مراكش بالسم وصفا للاشراف امر مراكش وجميع الاقاليم التابعة لها .

اذ كان اهلها قد اظهروا الولاء للبيت السعدى الشريف وبعد أن تم لهم امر درعه والسوس ومراكش تلقب احمد الاعرج باسم الامير وهو اللقب الوحيد الذى حمله حتى وفاته .

وكان بعد مقتل بوشنتوف قد صار احمد الاعرج سيد مراكش الوحيد وراعى رفات شيخ الطريقة الجزولية ومن ثم كان هو الحاكم الاوحد وتولى أخوه محمد الشيخ حكم امارة السوس وتارودانت .

وكان احمد الاعرج عندما دخل مدينة مراكش قد كتب إلى السلطان الوطاس

محمد البرتغالى يقول له انه ليس الا احد العمال التابعين للسلطة الوطاسية على حكم مراكش وان ما كان يدفعه اهل المدينة من خراج فانه على استعداد ان يؤديه وان يبذله مضاعفا للسلطة الوطاسية وكان ذلك نوعا من المكر والدهـاء كمـا يذكـر ذلك السلاوى .

ولقد كان احضار السعدين لرفات الشيخ الجزولى إلى مدينة مراكش ونقله من مدينة افغال هو البداية الحقيقية للحكم السعدى حيث صارت مراكش هى حاضرة الامارة السعدية الشريفة واليها يسعى رجال الطريقة الصوفية الجزولية للترحم على شيخهم محمد بن سليمان الجزولى صاحب الطريقة الجزولية .

ولقد كانت خطة الامير احمد الاعرج واخيه محمد الشيخ عدم الدخول فى تلك الفترة من جهادهم سعيا لبناء الاسرة الحاكمة السعدية فى صراع مع السلطان الوطاس محمد الشيخ البرتغالى والسعى إلى كسب رضاه ووده. وارسلا رسولا إلى فاس لكى يعبر السلطان الوطاسى عن ولاء التبعية وارسال الخراج المطلوب والهدايا للسلطان لكن سيطرة السعدين على مراكش لم تلق قبولا من السلطان احمد الوطاسى الذى خلف اباه فى الحكم فدارت فيها معارك انتصر فيها احمد الاعرج على الوطاسين عام ١٥٣٦م. وبفضل تاثير الزوايا الصوفية ودورها فى المجتمع المغربى فى ذلك الوقت وتأثير الناس بما تدعو له فان ذلك قد ساعد السعديين على تقوية اواصر العلاقات الطيبة مع قبائل الاطلس. وكان الشيخ الغزونى وانصاره خير سند للسعدين فى مراكش وفى تهيئة الجو العام لهم بين القبائل لترحيب الشعب المغربى بنشاطهم وتضافر القبائل من حولهم مما دفعهم إلى العمل على تحرير اغادير عام ١٥٤١م. من أيدى البرتغالين واكسب ذلك صيتا قويا للاميرين السعدين وادى إلى انزعاج البرتغالين فكان قرار الجلاء عن المستعمرات الجنوبية كما سبق القول .

غير ان الامور لم تسر سيرها الطبيعى فى الحركة السعدية الرامية إلى توحيد المغرب تحت سيطرتها ذلك لان الامر كان يتنازعه قائدان احمد الاعرج الابن الاكبر لمحمد القائم بامر الله وابو عبد الله محمد الشيخ الابن الاصغر وكانت الجفوة قد حدثت بينهما منذ عام ١٥٢٤م كانت لاتزال تترك اثرها فى نفوس الاثنين لكن منذ عام ١٥٤١م ظهر الصراع وادى إلى نزاع مكشوف حيث دخل الاخوين فى صراعهما العلنى الذى استوجب القتال وحشد القوات والاستعداد للجولة النهائية لكى يتقرر مصيرايهما يحكم المغرب مستقبلا ولمن تكون الغلبة فى هذا الصراع .

وعلى الرغم من ان البيعة كانت قد اخذت للأمير أبى العباس احمد الاعرج عام ١٥١٢م فى حياة ابيه الذى لم يتوف الا بعد هذه البيعة بخمس سنوات لان الامير أبا العباس كان الابن الاكبر وكان اخوة ابو عبد الله محمد الشيخ الاصغر سنا منه ورغم صرامة وشهامة احمد الاعرج فان محمد الشيخ تمت ولايته وولى عهده فى الجنوب الا ان الاعرج كان دائما ياخذ رايه ويستشيره فى القضايا الهامة واموره ويعاونه فى المهمات ويستعين به فى المعارك ويستضئ براية فى الحوادث والقضايا الكبرى، ولقد كان الشيخ ثاقب الذهن نافذ البصيرة يصيب الرأى حازما ومن هنا كانت كلمتهما واحدة وامرهما جميعا واحدا إلى أن دخلت الوشاية من اصحاب النفوس الضعيفة ففرقت بين الاخوين وأفسدت ما بين الاخوين من مودة وانقسمت البلاد وصار الجند والجيش جيشين واخلص كل لصاحبه وبات القتال وشيكا لاشك فيه .

لاسيما ان الطومحات الشخصية كانت تلعب دورها فى هذا الصراع وكان انتصار محمد الشيخ فى اغادير فى بلاد السوس والتفاف القبائل حوله والسعى لتحقيق المزيد من الانتصارات وحمله لقب المهدى فى حين ان أبا العباس احمد لازال يحمل لقب الامير ربما يكون قد اثار حفيظة الاخ الاكبر فغير من اسلوب تعامله مع الشيخ

وانصرف إلى تامين امارته وربما يكون قد انصرف عن جهاد العدو الاسبانى والبرتغال وربما يكون هذا هو السبب القوى من اسباب الصراع الاخوى .

واستطاع محمد الشيخ (المهدى) الانتصار على اخيه الاكبر احمد الاعرج عام ١٥٤٤م فى معركة وادى الطاهرة. واصبحت كلمة اهل السوس على محمد الشيخ وتم القبض على اخيه ابى العباس احمد واودع السجن عام ٩٥٦هـ/ ١٥٤٤م بعد ان كان قد اسر فى معركة سابقة وتم اطلاق سراحه بعد اتفاق عائلى، لكن سرعان ما عاد النزاع بين الاخوين وامكن لمحمد الشيخ القبض من جديد على أخيه ابى العباس احمد الذى كان قد لجأ إلى زاوية سيدى عبد الرحمن السادس فى تنسفت وقام بنفيه واسرته إلى تاقلالت (سجلماسة) وبذلك انفرد محمد الشيخ (المهدى) بامارة السعدين فى المغرب المراكشى ودانت له مراكش عام ٩٥١هـ/ ١٥٤٤م .

وكان الامير احمد الاعراج قد حكم منذ عام ١٥١٨ حتى عام ١٥٤٤م إلى أن تم عزله فى هذا العام من الامارة وتم نفيه إلى سجلماسة لكنه استطاع ان يفر من الاسر بعد خمس سنوات وذلك عام ١٥٤٩م ولجأ إلى غوارة، لكن تمت عودته إلى تافيلالت مرة اخرى عام ١٥٥٤ بعد فراره بخمس سنوات ايضا لانه قبض عليه هذه المرة بعد ان تاكد لاخيه محمد الشيخ (المهدى) انه قام بتأييد أبى حسون الوطاسى الذى عاد لحكم البلاد ودخل فاس عام ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م. بتأيد الاتراك وكان اخوه قد احتجزه منذ هذه الفترة حتى عام ٩٦٤هـ/ ١٥٥٧م حيث تم قتل محمد الشيخ عن طريق الاتراك فى نفس العام ولما كان حاكم مدينة فاس قد خشى من احمد الشيخ فى ذلك الوقت ربما يقوم الاهالى باخراجه من السجن لكى يتولى الخلافة السعدية خلفا لاخيه محمد الشيخ بدلا من ابن اخيه عبد الله الغالب مما دفعه إلى قتله هو وابنائه واحفاده السبعة فى مذبحة اليمة عام ١٥٥٧م بعد كان عمره قد ناهز السبعين

عاما وبذلك طويت صفحة احمد الاعرج الابن الاكبر لمحمد القائم بأمر الله الذى كان قد أدى فريضة الحج قبل أن يتسلم مقاليد الامور فى بلاد المغرب كما انه كان يقوم بالتدريس فى مسجد القروين بمدينة فاس وكانت له حلقة دراسية وطلاب يتلقون العلم على يديه وقد اكسبته غزارة علمه وسعة آفاقه وقدرته على الحجة ان اكسبته سمعة طيبة وعلوا فى المكانة مما دفعت به إلى التقرب إلى السلطان الوطاسى محمد البرتغالى حتى صار مؤدبا لاولاده ولقد كان احمد الاعرج مجاهدا على الهمة سار فى طريق الجهاد كما رسمه له والده على خير اداء فهو الذى حاصر مراكش واستولى عليها وهو الذى عمل على الزواج من ابنه حاكم المدينة الامير محمد بن ناصر يوشنتوف لكى يكسب الوجود السعدى فى مراكش الولاء والشرعية وهو الذى قاد القوات ضد الوطاسين وكان صلبا فى رفضه الخروج من مراكش والقتال حتى يهلك الجميع وهو الذى وسع حدود السعدين يصلحه مع الوطاسين بأن جعل سلطة السعدين تمتد من نادلا إلى بلاد السوس وهو الذى وقع هدنة مع البرتغالين عام ١٥٣٧م من اجل التفرغ لقتال الوطاسين وبناء الجبهه الداخلية توطئه للتفرغ لقتال العدو الايبيرى .

ولقد كان ابو العباس أحمد الاعرج هو الذى وضع اسس البناء القوى لبناء الدولة السعدية المغربية كدولة وطنية ناشئة فى ذلك الجزء من العالم الاسلامى بعد ان ترسم طريق الجهاد الاسلامى عاملا على تجديد الدولة التاريخية بالمغرب الاسلامى ولقد وضع الاعرج امامه شرط الجهاد والتصدى للعدو النصرانى واستقطاب الشعور الجهادى ضد العدو المستشرك والعمل على ايجاد نوع من العلاقات المحلية والقبلية توطئه لانتزاع القيادة الرمزية من بنى وطاس .

ولقد كان لقب النسب النبوى نسل السلالة الهاشمية فرع الشجرة الذكية النبوية ذوى العصبة العلوية الشريفة هو المسار الذى سار عليه خلفا لابيه. لكن حتمية

القيادة الواحدة دفعت الاخوين لان يكون ما بينهما من اقتتال تفردا لحكم البلاد بعد ان رأى كل منها فى الآخر عائقا يحول دون تحقيق اماله الكبرى فى بناء الدولة السعدية لاسيما ان احمد الاعرج ينظر إلى اخيه محمد الشيخ كوزير له لا يجوز له التصرف فى شئون المغرب الجنوبى والانفراد بالخراج دون ان يكون للاعرج النصيب الاكبر منها. لكن محمد الشيخ رأى فى الانتصار العظيم على البرتغالين واسترداد اغادير وترك البرتغالين لجميع الجيوب الاستعمارية البرتغالية فى الجنوب وتلقبه بالمهدى حافزا له بأن يكون الحاكم الفعلى للبلاد ولا يحد من طلبه صغر سنه او بيعه المشايخ وعليه القوم ورجال القبائل لابى العباس احمد الاعرج ومن ثم كان ما حدث من احداث بين الاخوين وتم اسر احمد الاعرج ونفيه إلى تافايلات (سجلماسة) ووضع حد فى الثنائية الحكم فى المغرب بين الاخوين السعدين وكان على محمد الشيخ (المهدى) بعد ذلك ان يقود مسيرة الحركة الاسلامية السعدية التى رفعت لواء الجهاد الاسلامى. وطويت صفحة فى تاريخ المغرب لكى تبدأ صفحة جديدة يسعى فيها محمد الشيخ إلى تحقيق الطموحات الكبرى نحو بناء الكيان السعدى الواسع العريق الذى كان يسعى إلى تحقيقه على طراز الدولة المرابطية او الموحدية وهى الدول التى كانت ذات شأن وباع طويل فى توحيد المغرب الكبير وامتداد نفوذ المغرب الاقصى إلى المغربين الاوسط الادنى وسوف نرى فى الصفحات القادمة الدور الكبير الذى يلعبه محمد الشيخ المهدى على مسرح الاحداث السياسية فى بلاد المغرب وما هى مراحل حركاته نحو انهاء الوجود الوطاسى نهائيا من البلاد والدخول فى صراع مع القوى الايبيرية والتوسع شرقا عبر المغرب الاوسط والدخول فى قتال مع الاتراك ومحاولة القضاء على النفوذ التركى العثمانى فى تلك الانحاء وتوسع حدود الدولة وعلاقاتها بالقوى الخارجية .

(ب) ابو عبد الله محمد الشيخ المهدى (الامير السعدى الثانى)
٩٥٠– ٩٦٥هـ– ١٥٤٤– ١٥٥٧م

ذكر السلاوى ان مولد محمد الشيخ ابى عبد الله بن محمد القائم بامر الله كان عام ٨٩٦هـ/ ١٤٩٠م وقد لقب بالمهدى ولقبه للبربر (اسغار) أى الشيخ باللغة البربرية وقد أسبغ على الحركة السعدية ودولتها صفة المهدية وقد قصد إلى بلاد الحجاز لتأدية فريضة الحج مع شقيقه الاكبر احمد الاعرج ثم اقام بمدينة فاس العاصمة .

وكان السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ يلقب من الالقاب السلطانية بالمهدى بلغ فى العلم درجة حتى كان يخالف القضاة فى الاحكام ويرد على فتاواهم فيجدون الصواب معه وقع ذلك منه مرارا وله حواشى على تفسير القرآن كثيره ومتعددة وكان عالما بكل معانى الكلمة فى العلوم الاسلامية الشرعية وفى التفسير وكان المهدى قد نشأ عن الصلاح والتقوى منذ صباه ومهتما بالعلم فى صغره وتعلق باهداب الدين وحفظ القرآن الكريم وصحيح البخارى وآخذ عنه جماعة من الشيوخ وكان اديبا متقنا وكانت له اليد الطولى فى التفسير والفقه والحديث وكان له اهتمام بالعلماء والجلوس اليهم والاخذ باطراف المسائل العلمية وكان المهدى طموحا واستطاع بطموحاته وتفكيره أن يحقق كثيرا من اهدافه .

وقد برز اسم محمد الشيخ كبطل عظيم بعد انتصاره على البرتغالين وتحريره لاغادير وكذلك انتصاره على اخيه احمد الاعرج فى معركة وادى الكاهرة ويعتبر المؤسس الحقيقى لدولة الاشراف السعدين. وقد استطاع فتح افنى عام ٩٤٨هـ/ ١٥٤٢م واسترد مدينة أصيلا والقصر الصغير عام ٩٥٥هـ/ ٩٥٦هـ ١٥٤٩، ١٥٥٠م. ولم يبق فى يد البرتغالين سوى طنجة وسبتة ومزغان وتقوم بالدفاع عنها حاميات صغيرة لاتتجاوز فى مجموعها ٢٥٠٠ رجل .

ولقد عرفت تلك الفترة بالكفاح فى الداخل ضد الوطاسين الذين شعروا بخطر الحركة السعدية عليهم وكفاح السعدين ضد مراكز الاحتلال الايبيرى وكفاحهم لتوحيد البلاد .

وقد رفض محمد الشيخ الاعتراف بالمعاهدة التى وقعها اخوه احمد الاعرج مع الوطاسين ومن هنا فقد نظم قواته واتجه بسرعه إلى مهاجمة فاس. ومن هنا استطاع عام ٩٦١هـ دخول العاصمة الوطاسية لذا يعتبر هذا العام اهم الاعوام فى تاريخ الدولة السعدية فقد تم فيه القضاء على الحكم الوطاسى نهائيا والسيطرة على جميع البلاد الشمالية والشرقية بعد ان استجاب السعديون لامانى وتطلعات الشعب المغربى فظهروا كقادة متجاوبين مع المشاعر الاسلامية الجهادية وذلك بالقضاء على الامارات المحلية ورؤسائها الذين قبلوا التحالف مع اعداء الاسلام. ومن ثم فقد اتجه محمد الشيخ إلى تحقيق اهدافه الكبرى وبناء المغرب الكبير ولكن السعديين وجدوا انفسهم امام قوة كبرى فى الشمال هم البرتغاليين والأسبان وفى الشرق الاتراك العثمانيين وكان محمد الشيخ المهدى قد اتخذ من مراكش عاصمة له فى هذا العام ٩٦٢هـ وكان عليه محاولة تحديد علاقاته بالقوى الداخلية فى البلاد وكذلك القوى الخارجية .

ولقد كان دخول محمد الشيخ إلى فاس قد وضع حدا لحكم الاسرة الوطاسية التى تولت الحكم فى البلاد، لذا كان الرجل الذى قضى على دولة بنى وطاس يؤهله مقامه كرجل شريف ينتمى إلى سلالة الرسول ﷺ ان يتفانى الناس فى خدمته اذ اعتبره الجميع سيد مراكش اذ انهارت كل معارضة له بعد ان عمل على تحقيق كل اهدافه وبناء الدولة السعدية بالمغرب تضارع دولة المرابطين والموحدين .

وقد وضع محمد الشيخ السعدى نصب عينية ضرورة طرد الاتراك العثمانين الذين احتلوا المغرب الاوسط عام ١٥١٨م قاصدين تكوين الامبراطورية المغربية الكبرى

التى تخضع للنفوذ العثمانى وكان محمد الشيخ قد استغل فرصة اخلاء الاسبان لمدينة تلمسان وحاول الاستيلاء عليها والتى تعتبر مدخلا إلى بلاد الجزائر وكان محمد الشيخ يرغب فى ضم بلاد المغرب الاوسط إلى املاكه ثم التوسع شرقا وصولا إلى حدود المغرب الشرقية. والقضاء على النفوذ التركى لاسيما بعد ان فر اليهم ابو حسون الوطاسى ومساعدتهم له واحتلالهم فاس واعاده الوطاسى سلطانا على البلاد لذا بعد طرد الوطاسى بل قتله فان السعديين لم يسلموا بالوجود التركى العثمانى على ارض المغرب وبدا الرفض السعدى فى اظهار القوة السعدية والوقوف بحزم للمحاولات العثمانية باسراع محمد الشيخ إلى تجريد حملة إلى تلمسان بعد عام واحد من دخول فاس (١٥٥٠م) منتصرا على السلطان الوطاسى عام ١٥٤٩م وفى أعقاب الانتصارات الكبرى على البرتغالين بتحرير أصيلة والقصر الصغير من أيديهم واندفع محمد الشيخ بنفسه إلى المغرب الاوسط ودخل تلمسان دون مقاومة من أهلها بعد حصار دام تسعة أشهر وذلك عام ٢٣ جمادى الاول ٩٥٧هـ/ ١٥٥٠م وطرد الاتراك منها .

وكانت هذه الحملة السعدية من الحملات الكبرى التى اعدتها القيادة السعدية فى عهد محمد الشيخ اذا كانت قواتها تتألف من ثلاثين الف مقاتل مسلحة بالمدافع الثقيلة بقيادة محمد الحران وعبد الرحمن بن المهدى السعدى ودخلت تلميبان بل اكثر من ذلك فان تقدمها لم يقف عند المدينة بل اندفعت القوات شرقا وتعدتها فى زحفها إلى مدينة مسنغانم ودخلت مدينة وجدة ودبدو، وكان محمد الشيخ قد ارسل قبل ذلك إلى شرق المغرب قوة من ستة آلاف فارس احتلت كرسيف والتى تقع على نهر ملوية عند التقائه مع وادى فرع النهر. وبهذه الحملة الصغيرة ضمن ولاء قبيلة مديونة والتى كانت تقطن فى المنطقة الواقعة بين مدينة تلمسان ووهران والتى كانت قد أرسلت عددا من فرسان القبيلة يتراوح عددهم ما بين عشرة إلى خمسة عشر فارس

تقابلوا مع الشريف السعدى يطلبون تعيين قائد لهم للقيام بحصار وهران .

وكان فى منتصف شهر ابريل ١٥٤٩م قد شهد تقدم حملة الحران بن محمد الشيخ إلى وجده وانسحاب القائد التركى من المدينة إلى تلمسان وتردد الاخبار بان الاتراك سوف يتركون الجزائر وان باشا الجزائر سيسافر إلى تركيا ويحل محله الشريف السعدى ولقد كانت هذه الاخبار سببا فى ان حملة الحران لم تلق فى طريقها ادنى مقاومة تذكر بل انخرط فى صفوفها رجال القبائل من بنى راشد بعد ان فقدوا الهدف من عداء العثمانين ووحدوا هدفهم فى مناصرة السعدين ودخلت الحملة تلمسان دون صعوبة تذكر فى ٩ يونيو ١٥٥٠م ولقد كان فى مخطط السعدين أن يتقدموا شرقا للتوسع وضم المزيد من الاراضى لكن الحران بن محمد الشيخ قائد الحملة أصيب بمرض شديد منعه من مغادرة تلمسان وبدلا من أن يتجه شرقا اتجه فى طريق العودة إلى فاس فى يوليو ١٥٥٠م مصطحبا معه الجانب الاكبر من قواته عائدا إلى بلاده ثم توفى بعد ذلك بشهرين وآل مصير الحكم السعدى فى تلمسان إلى اخيه الاصغر عبد القادر مع قوة صغيره من رجال الحملة بينما قام على قيادة جيش الحران فى فاس أخوه عبد الرحمن .

ولقد ترك استلاء السعديين على تلمسان اثرا معاكسا فى الجانب التركى العثمانى اذ بادر باشا الجزائر فى ذلك الوقت وقد أحس بالموقف الخطر الذى بواجهه من قبل السعدين فسارع إلى جمع قواته فى أنحاء البلاد وعمل على اعادة توزيعها وتنظيمها وجعلها تتمركز فى موقع حصين على الضفة اليمنى من وادى نهر شلف حيث كانت هذه القوات التركية تحت امره أمهر قواد الاتراك فى الجزائر حسن كورسو والذى برز اسمه فى هذه المعركة بعد ان حشد خمسة آلاف جندى من حملة البنادق وثلاثين مدفعا إلى جانب فرسان من القبائل الموالية للاتراك واكتسح رجال القبائل

الموالية للسعدين، وكان خبر هذه الاستعدادات التركية الكبيرة قد افزع الخليفة السعدى محمد الشيخ فى مراكش وخاف على قواته التى تحت امر ابنه عبد القادر فارسل اليه على وجه السرعة قوة مغربية مكونة من عشرين ألف رجل وتجر معها خمسة عشر مدفعا فى مواجهة ثلاثين مدفع تركى .

ولقد كان القائد التركى فى انتظار وصول المدد السعدى بالمرصاد حيث كان بقيع بقواته عند مشارق تلمسان منتظرا قتال السعدين ودارت بين الطرفين معركة بالقرب من وادى متيجة فى ٤ سبتمبر وكانت هذه عبارة عن مناوشات ثم كانت المعركة الثانية فى اقليم تسالا ومنه انتقل القتال إلى سهل طروا بالقرب من مستغانم لى إلى تحرك القنال دون انتصار إلى تلمسان مرة اخرى دون ان يحسم القتال فى معركة حاسمة وبعد هذه الجولات كان محمد الشيخ لازال مصمما على السير فى خطته بالوقوف فى وجه الاتراك العثمانين وكسر شوكتهم ثم التوسع شرقا لذا نجده يبادر للمرة الثانية بارسال نجدة سريعة من فاس يقودها ابنه مسعود على رأس قوات من ١٥٠٠ رجل من حاملى البنادق النارية يضاف اليهم ١٥٠٠ فارس واكثر من ستة آلاف من راكبى الجمال حيث انضم إلى أخيه عبد الله فى الثانى والعشرين من اكتوبر عام ١٥٥٠م .

وفى فبراير ١٥٥١م وبالقرب من موقع قبة سيدى المرسى قرب نهر بوعزوز كانت المعركة الفاصلة حول مصير تلمسان هل تبقى فى أيدى السعدين المغاربة أم سيعود اليها الاتراك العثمانيون مرة اخرى وكان العثمانيون قد ارسلوا على وجه السرعة امهر واكفاء القادة الاتراك وهو القائد صفا الذى حل محل حسن كورسو. وكانت قواته تتكون من ٣٤٠٠ رجل من حاملى الاسلحة والبنادق النارية يضاف اليهم أربعة آلاف فارس وعدد كبير من رجال القبائل الموالية للاتراك .

وعلى الجانب الآخر كانت قوات السعدين التى قدرتها المصادر التركية بسبعة عشر الف مقاتل ضمت قوات المولى عبد الرحمن بن محمد الشيخ إلى جانب قوات اخوته عبد الله والمسعود ودارت هذه المعركة وانهزم السعديون بعد ان تلقوا هزيمة ساحقة قتل فيها المولى عبد القادر وجرح عبد الرحمن وتتبع الاتراك فلول السعدين حتى نهر ملوية ووصلت خسائر السعدين إلى ما بين اربعة الف إلى عشرين الف ما بين قتيل وجريح واسير وبعد هذه المعركة ترك السعديون تلمسان للاتراك .

ولقد كان من نتائج هذه الصراعات مع الاتراك وطردهم السعدين من المغرب الاوسط ان وجد محمد الشيخ نفسه ازاء قوى خارجية طامعة فى بلاده فكان عليه ان يحدد علاقاته بهذه القوى فتحالف مع الاسبان ازاء العداء الناشب مع الاتراك والعثمانين المتحالفين مع القوى البحرية الاسلامية المجاهدة التى تعمل تحت قيادة الاتراك العثمانين. ومن هنا كان على محمد الشيخ ان يحافظ على كيانه السعدى وأن يحفظ بلاده من خطر الانطواء تحت حكم الاتراك فاتجه إلى المسيحين وقد حاول بعض المؤرخين ايجاد العديد من المبررات ازاء التحالف السعدى الاسبانى لكن مهما تكن المبررات التى تساق فى هذا المجال فان طلب العون والمساندة بل والتحالف مع اعداء الاسلام ضد الاتراك لم يكن له ما يبرره وهكذا تم الاتفاق مع الاسبان لمساعدته فى الصراع الجديد الذى يواجه الدولة السعدية ضد الهيمنة العثمانية ولم يجد محمد الشيخ ازاء موقف رجال الدين الا ان يقوم بقتل كبار رجالهم والمناوئين لسياسته قبل البرتغالين ومنهم الشيخ ابو مالك عبد الواحد بن احمد الواتشريش من علماء فاس المناصرين لبنى وطاس والذى كان احد ثلاثة تم قتلهم فى عهد محمد الشيخ السعدى وقد قال عنهم محمد الشيخ السعدى بعد قتل كبارهم وبشأن موقف فقهاء فاس ومكناسة من سياسته الان تمهد لنا الجلوس على عرش المغرب بعد قتلنا هؤلاء الثلاثة

الواتشريشى، والزقاق بفاس وجرزور بمكناس فانهم كانوا يقطعون امعاءنا على المنابر ويوقدون علينا نار الفتنة عند الاكابر. لكن كانت هذه من الاخطاء الكبرى التى ارتكبها النظام السعدى فى عهد محمد الشيخ لاسيما ان الدعوة السعدية قد اعتمدت فى الوصول إلى الحكم على رجال الطرق الصوفية ورجال الدين الذين دفعوا بوالد محمد الشيخ محمد القائم بامر الله ليحمل راية الجهاد ضد المحتلين الايبيرين فكيف لايكون لهم موقف معارض لسياسة التقارب مع محتلى الارض وغاصبى العرض ومدمرى الديار الاسلامية. لكن المشاعر الاسلامية فى المغرب تجاه ماتم من تحالف بين السعدين والاسبانين قد اخذت موقفا مضادا من محمد الشيخ السعدى لاسيما تأييد الطرق الصوفية التى قامت على اكتافها الدعوة السعدية والتى رات فى هذا التحالف خروجا على الخط الاسلامى المجاهد وتوقف حركة الجهاد الاسلامى فى تحريرها بقية الثغور المغربية. وكان قد تم الاتفاق بين الاسبان السعدين على ارسال اسطول مغربى بعون اسبانى لكى يحتل الجزائر ثم بعد ذلك يزحف جيش مغربى إلى مدينة وجدة بالمغرب الاوسط ثم تتحرك القوات المشتركة إلى تلمسان ومن ثم تتقدم إلى الجزائر تمهيدا لطرد الاتراك العثمانين من المغرب الاوسط وهكذا يعتبر ما قام به محمد الشيخ السعدى من تحالف مع الاسبان قد وقع فى نفس الخطا الذى وقع فيه سلاطين بنى وطاس من قبل بتحالفهم مع القوى المسيحية ضد الاتراك المسلمين ورجال الجهاد الاسلامى البحرى وذلك على حساب الهدف الاسمى الذى ارتكزت عليه الدعوة السعدية وهى محاربة المحتلين الايبيرين مغتصبى الاراضى الاسلامية فى الاندلس والمغرب .

وبعد معارك تلمسان بين الاتراك العثمانين والسعدين فان الموقف التركى بدا يتغير بالنسبة للدولة السعدية الناشئة حيث ان فشل السعدين فى صدامهم مع العثمانين

قد دفع بالسلطان العثمانى سليمان القانونى ان يرى ضرورة بسط النفوذ العثمانى على كل البلاد المغربية وانه لذلك لابد من حفظ مركز الامبراطورية العثمانية السياسى والحزبى فى العلاقات المغربية التركية لذا كانت السياسة التركية ترى ضرورة ضم المغرب ولكن بصورة مرحلية سعيا لاستقطاب الشعور الاسلامى الجهادى ضد العدو المشترك الصليبى لذا حاول السلطان سليمان القانونى عقد تحالف مع محمد الشيخ ضد القوى المسيحية، لكن السلطان العثمانى كان يطلب من محمد الشيخ الدعوة له على منابر بلاده المغربية والخضوع لسلطانه بعد أن تمت مراسلات من قبل العثمانين فى أول رجب ٩٥٩هـ يناير ١٥٥٢م كانت تنطوى هذه المراسلات على اعتبار الشريف محمد الشيخ السعدى كوالى من ولاة الدولة العثمانية او حاكم من حكام الولايات بل نعتته المراسلات بحاكم ولاية فاس العثمانية او حاكم من حكام الولايات بل تنعته المراسلات بحاكم ولاية فاس واعتبار حاكم الجزائر فى مرتبة امير الامراء، لكن ورود هذه الرسالة على هذه الصورة كان دافعا للتحالف مع الاسبان والاستهجان بصاحب الرسالة السلطان التركى حيث كان رد محمد الشيخ السعدى قاسيا وعنيفا وشديد اللهجة حيث رد على سفير السلطان (العالم العلامة أبى عبد الله محمد بن على الجروبى الطرابلسى) حيث قال له «سلم على امير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازعك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه انشاء الله وياتيك إلى مصر والسلام» .

لكن الخلافة العثمانية التركية والتى كانت ترى فى ضرورة استمالة السلطان السعدى قابلت هذا الرد بروح اسلامية وارسلت له رسالة اخرى عام ١٥٥٦ .. بعد ان ردوا على الرسالة الاولى بحمله صالح باشا الرايس حاكم المغرب مع السلطان الوطاسى أبى حسون عام ١٥٥٣م حيث اجبروا السعدى على ترك فاس وتسيد الاتراك على شرق

المغرب ومناطقه الوسطى عدة شهور قبل ان يعاود محمد الشيخ هجومه وتخليص فاس وهذه الاراضى من قبضة الاتراك والوطاسين .

وكانت رسالة ١٥٥٦م التركية إلى السلطان السعدى بعد فشل خطة الاتراك فى الاستيلاء على وهران لقطع الصلة بين التقارب (السعدى الاسبانى البرتغالى) الذى تجلى فى تبادل عدد من المراسلات بين الاطراف الثلاثة منذ يناير ١٥٥٥م حيث كان وصول وفد اسبانى إلى فاس للاعداد للحملة المشتركة التى كان قد تم الاتفاق والمساعدة العثمانية فى محاربة النصارى ولكن كانت هذه الشروط تضع مقابل ذلك ان يعترف محمد الشيخ السعدى بدخوله فى طاعة العثمانين الاتراك وان يضع اسم السلطان التركى على السكة (العملة) وان يخطب له على منابر الدولة .

لكن ازاء كل هذه المراسلات التى لم تجد ادنى استجابة من السلطان محمد الشيخ، فقد قرر الاتراك ورجال السلطان العثمانى لما وجدوا من معارضة محمد الشيخ السعدى وعدم رغبته فى الخضوع للدولة العثمانية فكان تدبير مؤامرة لاغتياله وعن طريق بعض الاتراك الذين يخدمون فى الجيش السعدى وقد كانوا من بين حرسه الخاص حيث قاموا فى غفلة من رجاله باغتياله عام ٩٦٤هـ فى موضع يقال له اقلقال أو اكلكال بالقرب من مدينة ترودانت وحمل راسه فى مخلاة إلى القسطنطينة .

وقد جاءت حادثة مقتل محمد الشيخ بالمؤامرة التركية العثمانية ما هى الا مقدمة أو محاولة من السلطات التركية للسيطرة على المغرب الاقصى. ولقد كان من بين أبناء محمد الشيخ الامير السعدى الثانى ثلاثة ابناء تولوا الخلافة وكان لهم دور بالغ فى حياة الملك واولهم عبد الله الغالب. ثم أخوه عبد الملك صاحب معركة القصر الكبير ومحقق المعجزة السعدية الفريدة فى تاريخ المغرب ثم ثالثهم ابنه محمد المنصور صاحب الفتوحات الكبرى ومؤسس الامبراطورية المغربية ببلاد السودان الغربى .

ولقد كانت محاولة القتل هذه توحى بفشل السياسة العثمانية فى استمالة الامارة السعدية الناشئة وتطويع حاكمها لقبول فكرة الخضوع لسلطاتهم العثمانية والاعتراف بالحكم باسم السلطان العثمانى. ولكن نجح العثمانيون فى الخلاص من حاكم عنيد فى مقاومته لحكمهم وكانت سياسة اللجوء إلى الاغتيال هى أقصر طريقة يلجأ اليه العثمانيون بعد ان فشلوا فى اتباع اسلوب الغزو الحربى. وقد وضعت نهاية مؤلمة للمؤسس الحقيقى للدولة السعدية .

ولقد اضمر الاتراك العثمانيون شرا بالسلطان السعدى محمد الشيخ منذ ان رد كتابه إلى السلطان العثمانى مخاطبا اياه بسلطان القوارب الحوانة (الحوانة تعنى قراصنة البحر) او رجال البحر، وقد يكون هذا الانزلاق اللفظى وأسلوب الشيخ السعدى البدوى الذى عاش جو الصحراء السوسية والذى كانت لاتزال تغلب عليه سمات البداوة وهى طابع فكرة السياسى، وقد يكون المبرر المقول لخطة الاغتيال تعود إلى مخاطبة سليمان القانونى بذلك اذ انهم فشلوا فى تحقيق اهدافهم فى احتوائه واطوائه تحت رايتهم العثمانية فكان الخلاص منه بالاغتيال ووضع راسه فى مخلاة وارسالها إلى القسطنطينية حيث ظلت معلقة على ابواب المدينة بما يزيد عدة سنوات حتى طالب ابنه عبد الملك احمد المنصور السلطان مراد برفعها واعادة دفنها فاجيبا إلى طلبهما وتم لهم، ما ارادوا وبهذه الصورة طويت صفحة أمير المؤمنين محمد الشيخ السعدى .

(جـ) عبد الله بن محمد الشيخ بن محمد القائم بامر الله السعدى (الغالب بالله) ٩٦٤- ٩٨١هـ ١٥٥٧- ١٥٧٤م

بعد ان انتهت حياة محمد الشيخ السعدى هذة النهاية الاليمة على يد الاتراك العثمانين الذين دبروا قتله فان الامور فى الدولة السعدية قد آلت من بعده إلى ابنه عبد الله الغالب الذى ظل على رأس السلطة السعدية طوال سبعة عشر عاما هجرية بعد ان كادت صورة مقتل والده قد أدت إلى اندلاع نزاع دام طويل وحاد بين افراد البيت السعدى بعد ان تمت فيه تصفيات جسدية كثيرة هبت خلالها رياح فيها تنذر بالخطر والانقسام وتلاشى الكيان السعدى فى ظل الاقتتال حيث راح ضحية توليه حكم عبد الله الغالب عمه احمد الاعرج الذى كان قد تجاوزت سنه تسعين عاما وقتل جميع ابنائه ذكورا، واناثا كبارا وصغارا وذلك قبل ان تؤول اليه السلطة من أهل مراكش حيث شك فى ذلك عامل السعدين على مراكش على بن ابى بكر ازناك فقام بهذه المذبحة البغيضة .

وقد ولد عبد الله الغالب بن محمد الشيخ المهدى بمدينة تارودانت عام ٩٣٣هـ/ ١٥٢٧م وكانت سنه وقت توليه الحكم خلفا لوالده اثنين وثلاثين عاما وكان عاقلا حازما جامعا للملك محافظا على انتظام ملكه وقد صار معروفا عند الجميع عزم الامير السعدى الجديد على التخلص بالعرش ممن يثق بهم من رجال البلاط السعدى وابناء البيت السعدى فرار اخوته عبد الملك، عبد المؤمن، احمد المنصور) إلى الجزائر خوفا من بطشه وقسوته، بل ان الخوف بلغ بالناس إلى حد الاحجام عن دفن ضحايا مذبحة الحاكم آنذاك من السعدين وابنائهم، لكن بعض رجال الدين قام بدفن احمد الاعرج فى مقبرة جدهم الشيخ محمد القائم بأمر الله وشيخهم الجزولى صاحب الطريقة

الجزولية ورغم قسوة عبد الله الغالب بأمر الله الا انه كان على علم واسع بعلوم الدين آخذا بقسط وافر منه وكان الغالب ولى عهد ابيه محمد الشيخ على فاس وقت مقتله مما دفع بازناك بقتل اقاربه قبل قدومه إلى مراكش خوفا ان تقوم الرعية باخراجهم من السجن وتوليه كبيرهم احمد الاعرج خليفة على البلاد .

وقد بايعه أهل فاس فى ذى الحجة عام ٩٦٤هـ، وبدا الغالب عهده بالانتقام من الاتراك قتله ابيه محمد الشيخ فحاصرهم حصارا شديدا عنيفا وقتلهم فى حصارهم عن آخرهم وكانت تلك لطمة للاتراك العثمانين الذين كانوا يرغبون فى ان يحققوا النجاح العثمانى المنشود فى بسط السيادة العثمانية على بلاد المغرب الاقصى فى عهد ابن محمد الشيخ عبد الله الغالب بالله بعد ان فشلوا فى تحقيق ذلك الهدف فى عهد ابيه وافترض الاتراك تحقيقه لهم لاسيما انهم كانوا يرغبون فى الدعوة لسلطانهم على منابر المغرب وكتابة اسمه على سكنهم (العملة) كما كان يفعل بنو وطاس لكن فترة حكم عبد الله الغالب كانت على النقيض من ذلك تماما .

لكن تلك السياسة المعاكسة لرغبة الاتراك كلفت عبد الله الغالب كثيرا من المتاعب فى فترة حكمه ولم تكن له سياسة توسعية كوالده لكنه اكتفى بتأمين الاملاك التى تحت يديه وتحصين المدن والثغور الهامة بالعدد والعدة. ولقد ادرك عبد الله الغالب خطورة التبعية للامبراطورية العثمانية التركية الاسلامية وكذلك رفض التبعية للبرتغال والاسبان شان الامارات المغربية السابقة الصغيرة ومن هنا كان عليه ان يتمسك بخيوط السياسة السعدية فى المحافظة على استقلال البلاد وايجاد سياسة تكفل له السير بالمسيرة السعدية دون الخضوع لاى من الامبراطوريات الثلاث (العثمانية البرتغالية والاسبانية) المعاصرة لفترة حكمه لكن فترة حكمه قد شهدت العديد من الثورات والحركات الانفصالية وذلك عكس اقوال بعض المؤرخين الذين ذكروا ان ايام حكمه

لم تحدث فيها فتن ولا حروب اهلية فساد البلاد الامن والامان وعم البلاد العدل فصرف همة باصلاح الاحوال فى البلاد وقد يكون ذلك صحيحا فى اواخر فترة حكمه. لكن الصورة كانت عكس ذلك تماما عند تولية.الحكم آثر مذبحة عمه احمد الاغرج اذ نجد ان الثورات قد تجددت وقيام الحركات الانفصالية عن الامارة السعدية والتى منها الثورة التى قادها المولى عثمان فى بلاد السوس بجنوب المغرب فى عام ١٥٥٨م وكذلك ثورة المولى عمر فى شرق البلاد المغربية فى مدينة (ديدو فى عام ١٥٥٨) ايضا وثورة المولى عبد المؤمن بن محمد الشيخ فى نفس العام، ثم كانت المذبحة الثانية الكبرى التى ارتكبت فى عهده بعد مذبحة الاعرج والتى قتل فيها ثلاثة من اخوته والذين رفضوا البيعة لولاية العهد بعد ان حاول عبد الله الغالب بامر الله أخذ البيعة لابنه محمد المتوكل (المسلوخ) ليكون خلفا له من بعده واحدثت هذه البيعة انقساما حادا فى الاسرة راح ضحيتها ثلاثة من اخوته وفر أربعة من أخوته بعد قتل الثلاثة السابقين خوفا من احتمالات البطش والقتل وهم المولى عمر وعبد المؤمن وعبد المالك واحمد المنصور إلى تلمسان والجزائر حيث لاذوا بالفرارا إلى الترك العثمانين. وكذلك من الذين قتلهم عبد الله الغالب بن اخيه محمد بن عبد القادر (الذى قتله الاتراك فى معركة تلمسان سابقا) وهو ابن اخ عبد الله الغالب وحاكم مدينة مكناس والذى سار فى الناس بالعدل والحكمة وصعد نجمه بين أهالى مكناس وعلا اسمه فى أنحاء البلاد فخشى عبد الله الغالب من التفاف الناس حوله وانصرافهم عن ابنه محمد المتوكل وولى عهده حاكم فاس فقام بقتله هو ايضا ليلحق بالكثير من افراد الاسرة السعدية الذين قتلوا (هكذا ذكر المؤرخ المجهول (تاريخ الدولة السعدية) وأخذ عنه (عبد الكريم كريم– المغرب فى عهد الدولة السعدية) .

وقد صرف عبد الله الغالب كل همه فى اصلاح العمارات وبناء العديد منها

ونشطت الزراعة والصناعة وحظت مراكش فى عهده عدة خطوات نحو التقدم والازدهار وبنى بها جامع المواسين والمارستان الجديد وقد شهد عصر، أقصى تقدم شهدته من حيث العظمة المعمارية والازدهار الفكرى لاسيما انه كان يقرب اليه العلماء ورجال الطرق الصوفية والعلماء وقد ازدهرت العاصمة فى عهده بالعلماء الكبار ،الى عهده أرجع المؤرخون الكثير من المنشآت السعدية فى العاصمة السعدية وعددوا مآثره واضافوا اليه تشيدالقبة على ضريح ابيه محمد الشيخ ومجدد ابنية القصبة الموحدية والقصر والمسجد ومنارنه وقد شيد فى مراكش الاحياء الجديدة السكنية والتى كانت بها حدائقها الخاصة وينابيعها المائية وفنادقها وابوابها وطبقتها النبيلة وصناعها وهو صاحب جامع الاشراف المواسين) نسبه إلى أسرة الاشراف التى كانت تحمل هذا الاسم فى المدينة وكانت ملحقات المسجد تشتمل على نافورة عظيمة وحمام ومدرسة وهى مدرسة سعدية، اصيلة كانت من اضخم المدارس التى شيدت بالمغرب، كذلك المارستان الذى اقامه فى حى الطلعة وقد طال حكمه سبعة عشر عاما ظهر فيها السلطان الغالب عبد الله بين معاصريه بانه رجل دولة من طراز فريد محنك سياسيا بالغ المهارة وحاذق فى ادارة دفة الملك حيث ظهر كاقوى ابناء الاسرة السعدية فى تأمين حكم البلاد لابنه محمد المتوكل كمرشح وحيد يحكمها من بعده او بالقسوة والشدة فى مواجهة الانقسامات والثورات وضرب رؤوسها بكل قوة وعنف دون تردد، كما تجلت حكمه سياسته الداخلية إلى توطيد معالم الاستقرار السياسى فى الدولة السعدية والتحقق من التمسك بسياسة الجهاد الاسلامى ضد الاسبان والبرتغال حيث سار على سياسة ابيه قبل هذه الدول وعمل على مهادنتهم وعدم الدخول فى قتال معهم. لقد كان على عبد الله الغالب بالله أن يفهم حق الفهم ان الدول المسيحية الايبيرية (اسبانيا والبرتغال (وهى التى ارتكبت خطأ تاريخيا اذ أنها هاجمت المغرب دولة وشعبا وحاولت ان تثبت اقدامها على التراب المغربى مستغلة حالة انحلال الدولة الاسلامية المغربية العظمى وان

يعمل على اعادة المغرب إلى مكانته السابقة فى عهد المرابطين والموحدين او بنى مرين، كما ان الاوربى لم يكن مكروها لدى المغاربة لكونه أوربيا، ولكن بسبب أنه معتدٍ ومحتل لارض اسلامية مغربية. بل كان اكثر تشددا فى معاداة الاتراك قتلة ابيه والبعد عن انصارهم رجال الثغر والجهاد البحرى الاسلامى، ولقد كانت سياسة معاداة الاتراك من الاخطاء السياسية التى وقع فيها بعض حكام السعدين بحجة منع الاتراك من ممارسة اسلوب السيطرة على المغرب الاقصى، ولو ان السعديين تحالفوا مع الاتراك أو تظاهروا لهم ببعض التبعية الاسمية لتغير وجه التاريخ الاسلامى فى منطقة غرب البحر المتوسط ولاستطاع الاتراك بالتعاون او بالتمركز الكامل فى المغرب الأقصى لقلب الميزان العسكرى فى تلك المنطقة ولمد الاتراك العثمانيون ايديهم بكل صدق وقوة لاخوانهم فى العقيدة الاندلسين (المورسكين) الذين قاموا بالثورة عدة مرات ضد الحكم المسيحى بالاندلس المحتله ولتمت عادة الوجه الاسلامى مرة أخرى ولتم للاتراك التقدم شرقا فى اتجاه وسط أوربا بعد ان توقف زحفهم الاسلامى غربا أمام ابواب فينا ودفعت علاقة عبد الله الغالب مع الاسبان وتنازله عن ثغر العرائش واصيلا لهم بالاتراك العثمانين إلى ضرورة العمل على تأدية لاسيما وان صالح رايس قائد جيش الجزائر وحاكمه أحس بالحرج الشديد ازاء هذه العلاقات الموجهة ضد الاتراك العثمانين والتعاون السعدى الاسبانى البرتغالى فاعد حملة عسكرية للسيطرة على المغرب الاقصى لكنه مات قبل تنفيذ هذه الحملة وآل حكم الجزائر من بعده إلى حسن بن خير الدين الذى قام عام ٩٦٥هـ بتجهيز حملة عسكرية تركية مكونة من قوات كثيفة وازاء هذه التحركات التركية فقد قابلتها تحركات سعدية مضادة حيث قاد عبد الله الغالب قواته والتقى الجمعان بالقرب من وادى اللبن الذى يتبع ولاية فاس فكانت الدائرة على جيوش الاتراك فرجعوا منهزمين عن المغرب الاقصى إلى ان بلغوا مدينة بادس وكانت فى ذلك الوقت تخضع للحكم التركى ولم يقم الاتراك بادنى تدخل فى شئون المغرب

مرة اخرى طوال حكم المغالب بل التفوا باستضافة أخوته. الذين نجوا من القتل وهم عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن .

ولقد كانت سياسة الغالب السلبية ازاء الجهاد الاسلامى وتحالفه مع الايبيرين من اسباب استحكام العداء بين الاتراك العثمانين والسعدين وتسليمه الثغور المغربية للعدو الصليبى ومنها تسليمه مدينة البريجة عام ١٥٦٢هـ للاسبان بعد ان كان قد حررها المسلمون من النصارى ورحلوا عنها وكان موقف السلطان هو الاستسلام للاسبان وعدم الرد على حملتهم التى احتلوا فيها بادس عام ١٥١٤هـ وكان السلطان الغالب قد كاتب ملك اسبانيا بشأن اخلاء مدينة بادس خوفا من سقوطها بأيدى الاتراك وسكنها النصارى بعد ان تم اجلاء كل المسلمين عنها وكان اخلاؤهم فى شهر رمضان وذلك لصالح ملك الاسبان نظير مساعدته للسلطان الغالب ضد الوجود التركى .

وكانت الاوضاع قد تغيرت فى غرب البحر المتوسط بعد ان تحالفت كل الاساطيل الاوربية تحت امرة اساطيل البابوية فى روما لقتال الاتراك منفردين وقد تم لاوربا مجتمعة الانتصار على الاتراك فى معركة لبياتنو عام ١٥٧١م بعد ان أوقعت بالاسطول التركى هزيمة فاسية اشترك فيها الاسبان وجنوة والبندقية وفلوانس وغيرها من الدول الاوربية والامارات الايطالية اضافة إلى فرنسا والمانيا والقديس يوحنا العائد من الحروب الصليبية وكانوا على اهبة الاستعداد وقد انتهت بهزيمة العثمانين الذين حولت هذه المعركةسياستهم من الهجوم إلى الدفاع عن النفس امام القوى المعادية لامبراطوريتهم لاسيما وان أبا محمد الغالب قد تحالف مع الاسبان والبرتغالين والذى وقع فى أخطاء تاريخية قاتلة اذ تنازل لاسبانيا عن مدينة حجر بادس وخاب ظن المغاربة فى اسرة السعدين لانهم كانوا باملون من سلطاتهم تحرير بقية الثغور المغربية بدلا من

التنازل عن موانى وبلاد محررة وهكذا تخاذل الغالب بالله عن اسمى قضية رفع المغاربة شعارها وهى الجهاد من اجل التحرير ونصرة الاسلام وتحالف مع الاسبان وقد تنازل الغالب عن المرسى رغبة فى تامين الدولة السعدية ضد غارات العثمانية حيث ان الدولة السعدية لم يكن بها فى ذلك الوقت اسطول قوى يستطيع ان يقف فى وجهة الاسطول التركى العثمانى ويستطيع مجابهته وكانت وجهة نظر الغالب فى تنازلة عن ميناء حجر بادس هو الحيلولة دون تردد الاساطيل التركية للموانئ المغربية وخاف السلطان الغالب ان تخرج سفن الاتراك إلى تلك البلاد المغربية فكتب إلى ملك اسبانيا واتفق معه على اخلاء هذه الموانئ وباع له البلاد وتخليتها من المسلمين وتنقطع صلة الاتراك بهذه الموانئ من ناحية وتركها المسامون وسكنها النصارى برأى السلطان الفاسد فكتب أهل بادس إلى سلطانهم الغالب لعدم علمهم بالاتفاق السرى والموقف المخزى الذى اتخذه بشأن هذه البلاد واضاف صاحب تاريخ الدولة السعدية المؤرخ المجهول ان السلطان الغالب لم يكتف بذلك بان خان قضية الاندلس وشعب المورسكين المطهدين من الاندلسين بعد ان وعدهم بمساعدتهم وتقديم كل عون لهم فقاموا بالثورة تنطلق فى غرناطة عام ١٥٦٨م ويتحرك الاندلسيون منتظرين مساعدة أبى محمد عبد الله الغالب لكنه كان قد تخابر سرا مع ملك الاسبان وأعلمه بهذه الثورة ونقض تعهده لهم وتخاذل عن مساعدتهم واتفق مع الاسبان على ذلك وهكذا غش اهل الاندلس وعرضهم للهلاك فى دينهم واولادهم وممتلاتهم وكان السبب فى انتقام الاسبان النصارى فيهم وكانت هذه الفعلة الشنيعة ابشع اعمال الغالب بعد ان وعدهم بالوقوف معهم ونصرتهم وتقديم العون العسكرى والمادى والسلاح لهم فلما ظهرت الثورة الاسلامية بغرناطة تراخى عما وعدهم به من الاعانة والنجدة وكانت بينه وبين ملك الاسبان مراسلات سرية واشار على الاسبان ان يخرجوا المسلمين من الاندلس وان يتم ترحيلهم إلى المغرب الاقصى وان تتسم سكانهم فى المدن الساحلية لكى يتم تعميرها وخاصة الاكثار

من الاندلسين فى مراكش وفاس للانتفاع بهم والاستعانة بخبرتهم فى ادارة دولته وتقديم خدماتهم للشعب المغربى لاسيما فى الجيش والاسطول والصناعات الحربية ولقد حاول الغالب بالله ان يغطى سياسته المتناقضة

مع مبادئ التحرر والجهاد التى قامت عليها الدولة السعدية فحاول احتلال مدينة البريجة (مازاكان) عام ٩٦٩هـ فارسل جيشا بقيادة ولده محمد المتوكل (المسلوخ) لحصار المدينة لكن الحصار أصيب بالفشل بعد ان كتب الغالب إلى ابنه ينهيه عن احتلالها بعد ان كان النصارى قد اجلوا عنها ورحلوا عنا .

ويبدوا ان قصة تنازل الغالب عن حجر بادس وتراجعه عن احتلال ومحاصرة البريجة كذلك تراجع ابنه محمد عن مساعدة مسلمى حجر بادس واغاثتهم من الاسبان والتهاون فى المعاملة مع المحتلين قد اغضب رجال الطرق الصوفية الذين جاءوا بالاسرة السعدية إلى عرش المغرب فقام الغالب بالتنكيل بهم وبخاصة متصرفى الشرافة الذين أحس هو بنفسه بسخطهم الشديد على سياسته. وكان ميناء بادس الذى تنازل عنه الغالب يقع فى شمال المغرب على البحر المتوسط وهو قريب من مدينة فاس بل هو منقذ المدينة إلى الشمال، كذلك فان الغالب كما سبق القول كان موقفه مخزيا بالنسبة للاندلسين وكانت المراسلات السرية سببا فى فشل الثورة وطردهم من الأراضى الاندلسية .

بل انهم لم يكتف بذلك بل عمل على اسكات كل صوت وحركة تدعو للجهاد بعد ان تكل بالصوفية وكان عليه ان يقضى على مراكز الجهاد التى كانت تقاوم الاسبان وتعمل على طردهم من المغرب وقدم للعدو الاسبانى اجل خدمة بان قام بهجوم على هذه الامارات التى كانت ترفع راية الجهاد الاسلامى ومنها ولاية تفشاون فى الشمال واخرج عنها اصحابها بنى راشد وذلك فى صفر عام ٩٦٩هـ وذلك لسبب

واحد فقط هو انهم كانوا يجاهدون الاسبان والبرتغاليين ويحاربون السفن المسيحية التى ترفع راية الصليب وقد خشى الخليفة الغالب من نزعه القتال وروح الجهاد التى كانت تسود هذه الامارة وربما تكون اعمالهم سببا فى افساد ما تم الاتفاق عليه مع الاسبان وتحالفه معهم ضد الاتراك فاخلى هذه المدينة ووزع بنى راشد فى بلاد المغرب المختلفة ويتحامل ربما لاسباب خاصة المؤرخ المجهول صاحب كتاب تاريخ الدولة السعدية فيصف عهده بانه عهد الخيانة والاستسلام فقد تنازل عن ميناء حجر بادس وسلم مدينة البريجة وتخاذل عن اهل الاندلس وعدم تقديم السلاح لهم وغشهم لكى يصلح ما بينه وبين الاسبان وما يمكن القول عن عبد الله الغالب انه استطاع ان يحافظ على الكيان الذى كان تحت سيطرته كما انه قاد البلاد نحو الاستقرار رغم اختلاف المؤرخين على فترة حكمه وما حدث فيها من مواقف لاتتلائم وموقف حاكم مسلم ينتمى للاسرة السعدية الشريفة لكن الدكتور عبد الكريم كريم المغربى الجنسية والحاصل على الدكتوراة من جامعة عين شمس عن عصر المولى احمد المنصور كتب فى كتابه المغرب فى عهد الدولة السعدية محاولا الدفاع عن موقف الغالب بالله وتحالفه مع الاسبان والبرتغاليين محاولا ازالة ما اقترفه الغالب فى حق المغرب والاسلام والمسلمين ولكن دفاعه كان ضعيفا غير مقبول لاسيما موقف الغالب من رجال الدين والعلماء والطرق الصوفية الذى ادانته جميع المصادر المغربية واسلوب التعامل مع رجال الفكر الدينى وقادة حركة الجهاد الاسلامى والحماس الشعبى واقطاب الحركة الدينية والفكرية والعالمية .

حيث قام الغالب بالله كما ذكر السلاوى بقتل وصلب ابى عبد الله محمد الاندلسى وكان ذلك بامر مباشر من السلطان بسبب التفاف الشعب حوله وتنديدة بموقف السلطان من النصارى والاندلسين، كما ان السلطان الغالب امر بقتل الشيخ

ابى العباس احمد يوسف الراشدى شيخ الشرافة وكذلك بسط سيطرته على الزوايا الاسلامية التى كانت تنادى بمجاهدة الاسبان والبرتغالين لاسيما زاوية الشيخ المغازى والى كثرة الناس حوليه وقام بتدميرها والقبض على الشيخ ابى محمد عبد الله بن حسين المغازى وشتت رجاله .

وهكذا طبعت صورة الغالب بالعنف والميل إلى سفك الدماء ضد معارضى امارته فى الداخل لاسيما من آل البيت السعدى أخوته واعمامه وكل اقاربه وكذلك اهل الحل والعقد وعليه القوم وأشياخ القبائل وايضا كانت نكينة باقطاب الطرق الصوفية والمرابطين ورجال الجهاد الاسلامى فى الزوايا فى حين كانت سياسته الخارجية قبل القوى النصرانية المهادنة والاستسلام والتخاذل وتقديم كل عون ومساندة لهم وكانه بهذه السياسة قد تخلى عن الخط الاسلامى نهائيا ولم يعد عنده الا كبت كل صوت معادٍ للاسبان والبرتغالين والتعرض للمسيحين بل اكثر من ذلك سمح للنشاط التبشيرى المسيحى فى بلاده ولذا نقول انه من الصعب ان نعثر فى تاريخ تلك الفترة على بلد مسيحى رحب ببعثة اسلامية لكن البعثات التبشيرية المسيحية فى المغرب كان لها شان فى عهد عبد الله الغالب فقد ارسل ملك اسبانيا نفسه بعثة تبشيرية مسيحية استقرت فى مراكش وكان لهذه المدينة اسقف كاثوليكى لسنوات طويلة وكانت ثمة بعثات مسيحية فى اكثر المدن المغربية مثل فاس ومراكش واسفى وازمور والجديدة وكانت هذه البعثات المسيحية تقوم بعملها بموافقة وعلم السلطان الذى تسمى باسم الغالب بالله .وكانت علاقته تتصف بالتحرر بالقوى الاوربية المسيحية إلى حد طبع مواقفه منها بصمات الاتهام والشبهة فى حين تتصف بالقسوة والشدة، داخليا وكذلك بهذه الصورة مع الاتراك العثمانين وعلى النقيض نهائيا مع الاوربين الذين اتخذهم اصدقاء له وحلفائه على خط مستقيم .

لمن بعد المصادر المعاصرة (ابراهيم شحاتة حسن فى كتابه موقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب) بذكر مطلعا على بعض الوثائق الاوربية ان هناك تقاربا قد حدث بين الاتراك العثمانين والمغاربة السعدين لاسيما بعد انتصار الاتراك على الاسطول الاسبانى فى معركة جربة عام ١٥٦٠م وان فيلب الثانى ملك اسبانيا قد توقع هذا التحسن فى العلاقات ومن ثم ارسل إلى اليزابث ملكة بريطانيا سفيرها فى فرنسا اثر هذه المعركة قائلا ان الاتراك بعد انتصارهم الكبير على الاسطول الاسبانى سوف يعدون انفسهم للقيام بحملة عسكرية للاستيلاء على اسبانيا والقضاء على قوتها وسوف يزداد تحالفهم مع السعديين ويظهر اسطولهم بصورة علنية قوية على سواحل المغرب وبالتالى سيعرضون طرق الملاحة والتجارة للخطر بل ان اسبانيا نفسها لن تنجو من هجوم تركى اضافة إلى احتمال هجوم على مالطة وصقلية وجنوب ايطاليا .

وقد دفعت الروح الاسلامية المجاهدة ازاء انتصار الاتراك على الاسبان عام ١٥٦٠م بقيام السعدين بالهجوم على الاسبان بعد ان طرا تحسن فى العلاقات التركية العثمانية السعدية عام ١٥٦٢م وقيام تعاون وتحالف بين القوتين الاسلاميتين ضد البرتغال فى طنجة (مازكان والبريجة) وضد الاسبان فى قرطاجة مما دفع المغاربة بان يحاصروا طنجة ومازكان حصارا شديدا بل انهم اتخذوا العدة للهجوم على اسبانيا. وهكذا كانت رسائل السفير الانجليزى إلى ملكته الانجليزية اليزابث فى ١١ مايو ١٥٦٢م قائلا انهم اظهروا براعة فى قتال البر وتشددوا فى موقفهم مع الاسبان وان هناك مساعدات تركية كبيرة قد وصلت اليهم وانهم ابدوا ارتياحا كبيرا بهذه المساعدات التركية واانهم اتخذوا الاستعداد للهجوم الكبير على ساحل غرناطة وبداوا حصار قرطاجنة فاذا تمكن المغاربة من الاستيلاء على المدينة وهو امر ممكن جدا واستطاعوا الحفاظ بها فان الاتراك سوف يتدفقون إلى هذه الاماكن لكى يلعبوا دورهم

ويقدموا الدعم والمساندة للسكان الاندلسيين القدامى الذين لا يزالون يعيشون فى اسبانيا (المورسكين) بل انه على طول الساحل من جبل طارق حتى طرابلس توجد اعداد كبيرة من المسلمين على اهبة الاستعداد للقفز على الساحل الاندلسى ولكنهم فى حاجة إلى سلاح وقيادة .

هذه صورة كانت فى اوائل فترة حكم الغالب بالله وهكذا كان الجانب المسيحى يبدى تخوفا دائما من التحالف السعدى التركى والذى كان عام ١٥٦٣م بداية تباعد التقارب السعدى التركى لصالح القوى الاسبانية المدعمة من البرتغالين. ولكن مهما يكن الامر فقد يكون هناك تحامل شديد على الغالب او ان المؤرخ المجهول اراد ان يصور الغالب نظرا لمواقعه السياسية تجاه الاسبان والبرتغالين بصورة لم تكن مالوفه لاية شخصية سياسية سعدية وقد يكون من رأيه ان الغالب تخطى حدود التعامل كسلطان مسلم يقود بلدا اسلاميا وتنازله عن هذين الثغرين للاسبان .

لكن على الجانب المعاكس لآراء المؤرخ المجهول من سياسة السلطان السعدى ابو محمد الغالب نجد المصادر الاوربية نذكر ان اعوام ١٥٦٥/ ١٥٦٦م شهدت استعدادات مغربية تركية اندلسية وعن ارهاصات لثورة الاندلسين فى غرناطة حيث استعداد المورسكين للثورة بل ان هناك وفدا مغربيا من قبل ملك فاس قد وصل إلى اسبانيا تحت ستار جمع الخراج منهم كدليل على تبعيتهم وولائهم للسيادة السعدية المغربية وكان ذلك فى عام ١٥٦٥م. مما دفع ملك اسبانيا ان يشكل نوعا من الفرق المتطوعة لكى نقيم كل فرقة فى مدينة لمواجهة احتمالات الثورة بين المورسكين الذين استقبلوا مندوب السلطان السعدى أبا محمد عبد الله الغالب، بل ان المورسكين قد تلقوا فعلا مساعدات من المغاربة والاتراك وامدوهم بالمؤن والذخائر وان السفن كانت تصل اليهم حاملة هذه الاسلحة والمعدات وانه نظرا لهذه المساعدات فان عام ١٥٦٩م قد

شهد زيادة قوة المورسكين وان نسبتهم العددية قد صارت كل عشر مسلمين يقابلهم واحد مسيحى فقط فى مدينة قادس وان هناك مساعدات ضخمة من الاتراك والمغاربة تصل اليهم .

ومن هنا فانه يمكن القول استنادا إلى المصادر الاوربية لاسيما البريطانية (الانجليزية او الفرنسية منها) تستطيع القول ان عبد الله الغالب قد ادى دوره فى مساعدة السكان المورسكين الاندلسين وانه كان يقدم لهم السلاح والعتاد وانه لم يكن دائما على خط مستقيم كما ذكر المؤرخ المجهول معاديا للاتراك العثمانين بل انه ان كانت سياسته تعتربها بعض الفتور لكنها سرعان ماتعود إلى احسن ما يكون بل ان العلاقات المغربية التركية بين اعوام ١٥٦٠– ١٥٧١م كانت علاقات حسنة وطيبة بل ممتازة شهدت نوعا من التعاون والترابط والاتفاق بشأن قضية بقايا الاندلسين فى اسبانيا وان الاتراك العثمانين كان لهم دور رائد فى تحريك هذه العلاقات ومحاولة ايجاد تعاون اسلامى مشترك بعد ان تعاون الاسبان مع البرتغالين فى احتلال بادس عام ١٥٦٤م .

وقد تحسنت العلاقات المغربية فى هذه الفترة عام ١٥٦٠– ١٥٧١م واصبحت المواقف تكاد تكون متطابقة مع الاخذ بالحذر والحيطة من الجانب السعدى تجاه النوايا التركية الرامية إلى السيطرة على المغرب الاقصى وان كانت الاعوام السابقة التى تولى فيها الغالب الحكم منذ عام ١٥٥٧– حتى عام ١٥٦٠م قد شهدت تقاربا مغربيا اسبانيا وبرتغاليا .

لكن هناك نقطة تظهر لماذا تخاذل السعدى عام ١٥٦٢م عن السيطرة على مازاكان (البريجة) ونجد تحليلا لها ان معركة دامية قد وقعت امام ابواب المدينة عند مهاجمة المغاربة لها وان فيليب الثانى ملك الاسبان قد طلب من قواده فى المدن الجنوبية الاندلسية ضروة تقديم العون للملك البرتغالى سواء من الرجال والسلاح

والعتاد ومساعدة البرتغالين ضد الحصار الذى يضربه حولها الشريف السعدى وقدم الاسبان ما طلب منهم من المؤن والعتاد والسلاح والرجال، بعد ان كان المجلس الملكى البرتغالى قد قرر اخلاء مازاكان لولا ان القوات المغربية انسحبت وقد يكون هذا الانسحاب بناء على تعليمات سعدية واتفاق بين الاسبان والسعدين وقد يكون السعدى فى فترة تقاربه مع الاتراك (١٥٦٠- ١٥٧١م) قد لاحظ وعلم بنوايا الاتراك فاراد ان يجد توازنا فى السياسة الخارجية دون تغير موقفه العدائى للاستعمار الايبيرى وكذلك حفظ كيانه السياسى تجاه سلطنه الاتراك وصولا إلى خلق هدف يحقق له القدرة على الامساك بزمام الامور فى بلاده .

وقد كان عبد الله الغالب حريصا على علاقات التقارب تلك مع البرتغالين والاسبان حرصا على المحافظة على خلافة ابيه فى مراكش والى حد التشكك من السعى السلمى العثمانى لدى الشريف السعدى فى مراكش والخوف من ضغط المرابطين المتصوفين على الشريف للاستجابة لطلب التقارب مع العثمانين باسم الوحدة الاسلامية الجهادية لانقاذ بقية الثغور المغربية المحتلة لكن سياسة الحذر والمراوغة التى سار عليها الغالب بالله قبل العثمانيين والتى لم يقبل بها العثمانيون كانت وراء نشاطهم المعادى له والوقوف ضده وهناك بعض المصادر تذكر ان المغاربة لم يرتدوا عن حصار مدينة البريجة (مازاكان) بسبب اوامر من السلطان الغالب يرفع الحصار عنها ولكن بسبب نقص التموين والمواد الحربية اللازمة للاستمرار فى الحصار وكذلك فان المغاربة قد ارتدوا عن حصارهم بسبب الخسائر الفادحة فى الارواح والعتاد. كما ان الغالب السعدى وهو سليل الشرافة القرشية لم يكن ليرتمى فى احضان القوى الاوربية مخالفا مبادئ الاسلام والشريعة الاسلامية مهما تكن الضغوط التركية شديدة عليه لمحاولة احتوائية تحت سلطانها وهو الذى حقق فى نهاية مارس ١٥٥٨م انتصارا كبيرا

على قوات الاتراك فى موقعة وادى اللبن واوقف بهذا الانتصار التوسع العثمانى التركى فى شرق الامارة السعدية بعد ان تخطى الاسبان حدود مدينة تازة وقد كان النصر المغربى فى وادى اللبن يعود اساسا إلى مهارة المغاربة ولاسيما الاندلسين منهم فى استخدام الاسلحة النارية الحديثة من البنادق والمدافع وكان جيش باشا الجزائر قد عاد إلى تلمسان بعد هزيمته فى موقعة وادى اللبن التى سحقت فيها قواته وعاد بسرعة إلى الجزائر خوفا من انتشار الثورة ضد الاتراك فى مدينة مستغانم والجزائر وكذلك خوفا من حملة اسبانية كان يجرى الاعداد لها لاستعادة بجاية من أيدى الاتراك العثمانين، لكن مهما يكن من نتائج غزوه وادى اللبن وما ترتب عليها من نتائج فى المجال العسكرى فانها فتت فى عضد الدولة العثمانية بالرغم من آثارها السلبية .

ولقد كانت القوات التركية قادرة على احتلال فاس بعد ان كانت على مسيرة يومين منها لاسيما وان الاتراك قد احتضنوا شقيق عبد الله الغالب مولاى عبد المؤمن ابن محمد الشيخ ونصبوه حاكما على تلمسان نكاية فى الغالب وذلك منذ عام ١٥٥٩م بل انه تزوج من بنت باشا الجزائر التركى لاسيما ان عبد المؤمن كانت قد ساندته القبائل عربية وبربرية وكان متوقعا تدخل تركيا وباشا الجزائر لصالح عبد المؤمن ابن محمد الشيخ شقيق عبد الله الغالب ولكن الامور فى تركيا العثمانية كانت قد تغيرت ومات سليمان القانونى وتولى الخلافة بدلا منه السلطان مراد الثانى. الذى لجأ اليه عبد المالك بن محمد الشيخ واخوه احمد المنصور بعد اخيهما عبد المؤمن واتصلا بالسلطان العثمانى فى اسطنبول (القسطنطينة) وكان قد طلبا من السلطان العثمانى مساعدتهما فى التغلب على عبد الله الغالب لطرده من الحكم بعد تعاونه مع الاسبان والبرتغالين وعدم دخوله فى تحالف اسلامى تركى مغربى ضد القوى الايبيرية، لكن السلطان التركى مراد الثانى لم يستجب لهما وفضل ارسال سفارة إلى مراكش

للاطلاع على الامور الداخلية وفعلا قدمت السفارة التركية وقام الامير السعدى عبد الله الغالب باستقبال السفارة التركية احسن استقبال وتلقاه بالتبجيل والاحترام بما يليق بسفارة سلطان المسلمين الاعظم ودفع لها اموالا وافرة وذخائر من الذهب والياقوت وكانت هذه الهدايا سببا فى انصراف السلطان العثمانى من مساعدة عبد المالك واخيه احمد المنصور فى ذلك الوقت. وقد تكون هذه السفارة وقد قدمت إلى المغرب فى فترة تحسن العلاقات المغربية التركية (١٥٦٠– ١٥٧١م) .

وحول هذه السفارة والهدية يذكر المؤرخ المجهول ان الهدية وصلت إلى السلطان مراد الثالث مع رسوله المرسل إلى السعدين وعرض على السلطان ما اتفق عليه وهو ان الامير السعدى على استعداد لدفع المال سنويا إلى الخلافة التركية ورجع مبعوث السعدى إلى مراكش ولما علم عبد الله الغالب بما ذكر من شروط فانه قبلها ورضى بكل ما جاء فيها وقد يكون ذلك من الاسباب القوية التى ادت إلى تحسين العلاقات بين الجانبين واستعدادهما للعمل سويا من اجل طرد المحتلين ومعاونة الاندلسين المورسكين فى الاندلس ولقد كان من أثر هذه الاتفاقية ان عبد الله الغالب قد ضمن وقتيا عدم تدخل العثمانين فى شئون بلاده والوقوف عند حد القبول بشروط السلطان مراد الثالث ومن هنا فقد وجد فرصة الاستعداد لمقاومة التدخل الخارجى والوقوف بالمرصاد للتحركات الاسبانية والثورات الداخلية والمطامع الاخوية من جعل اخيه عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن اللذين تضافروا جميعا من اجل اسقاط عبد الله الغالب لكن التحسن فى العلاقات المغربية التركية فى تلك الفترة سبقته تنازلات مغربية لقوى اوربية جديدة بدات تأخذ بنصيب لها فى التجارة العالمية لمحاولة ايجاد راس قدم فى الثغور المغربية تلك القوى هى فرنسا التى عقدت معاهدة مع عبد الله الغالب من اجل تامين تجارتها فتنازل لها عن ميناء القصر الصغير عام ١٥٥٩م كامتياز

للفرنسين وقد يكون ذلك فى اطار التعاون المغربى الاوربى والتعاون الاقتصادى من اجل حصول المغرب على الاسلحة الحديثة وايجاد اسواق اوربية لعصرف منتجاته من السكر وملح البارود والمواد المغربية التى تلقى اقبالا شديدا عليها من الدول الاوربية .

وهكذا شهد عصر عبد الله الغالب وخاصة الفترة ما بين ١٥٦١– ١٥٦٥م تدخلات كثيرة فى السياسة الخارجية وعمل دؤوب من الغالب لمواجهة التحديات الخارجية والداخلية والامساك بخيوط اللعبة السياسية بتوازن شديد وقيادة فائقة للمسيرة السعدية سعيا لانقاذ البلاد من حرب اهلية لاسيما وان خطر عبد المالك بن محمد الشيخ واخويه لازال ماثلا امام الغالب وكذلك الموقف الاسبانى والبرتغالى وثورة الاندلسين المورسكيين فى اسبانيا ورغم ما تحامل به المؤلف المجهول على الغالب واتهامه له بالخيانة والتخاذل من وجهة نظره لكن الغالب كان يعمل على السير بتوازن بين القوى العالمية فى غرب حوض البحر المتوسط لاسيما بعد انتصار الاتراك على اسبانيا عام ١٥٦٠م وهى الفترة التى شهدت تقاربا مع الاتراك وتبادل السفراء والهدايا والقبول لطلبات الاتراك وتنسيق الجهود التركية المغربية الاسلامية والتوجه للعمل من اجل الموقف الجهادى الاسلامى وعدم تراجع السلطنة المغربية عن هذه السياسة .

بل ان عام ١٥٦٤م قد شهد انصراف العثمانين عن سياستهم الجهادية فى غرب البحر المتوسط وتركوا بادس وغمارة تسقط فى ايدى الاسبان فى ابريل عام ١٥٦٥م وتكبدوا فى سبيل الاستيلاء عليها من الاتراك خسائر فادحة .

كما ان فترة حكم الغالب التى انتهت عام ١٥٧٤م قد شهدت قبل وفاته بثلاث سنوات تحطيم الاسطول التركى العثمانى فى معركة لبيانتو عام ١٥٧١م مما اضاف عاملا آخر فى موقف النشاط البحرى الاسلامى فى غرب حوض البحر المتوسط لصالح الملاحة البحرية الاوربية وسيطرتها التامة على طرق الملاحة وتحكمها فى حركة

التجارة العالمية لكن الاتراك العثمانية لم يتركوا الميدان نهائيا اذ نجد انه فى عام ١٥٧٣م وقبل موت الغالب بعام واحد حققوا انتصارا اكبر على الاسبان فى معركة حلق الوادى فى ٣ سبتمبر عام ١٥٧٣م على يدى الوزير ستان باشا فى ٦ جمادى الاول عام ٩٨١هـ .

ولقد اضطربت الدولة السعدية فى مراكش بعد موت الغالب وبدات عوامل التفكك والانهيار تأخذ بعدها لاسيما بعد ان ظهر خطر عبد المالك واخويه احمد المنصور وعبد المؤمن ومساندة الاتراك لها وظهور الاتراك بمظهر القوة لاسيما بعد انتصارهم فى معركة حلق الوادى ضد الاسبان وهو الانتصار الحاسم على الاسبان فى تونس والذى قضى على نفوذهم نهائيا. وكانت ردا على انتصار الاسبان فى معركة ليبانتو وبهذا الانتصار فقد ضموا تونس نهائيا إلى امبراطوريتهم العثمانية .

ومهما يكن من فترة حكم الغالب وما شهدتها من احداث وانتصارات وصراع بين القوى الاسلامية التركية وانتصارها على الاسبان مرتين فى جربة عام ١٥٦٠ وحلق الوادى ١٥٧٣م وهزيمتها فى ليبانتو عام ١٥٧١م الا انها فرضت سيادتها فى الجزائر وتونس وطرابلس وما تم من مهادنة بينها وبين عبد الله الغالب (١٥٦٠-١٥٧١م) وكذلك فانه مهما يكن تجنى المؤرخ المجهول على فترة حكم الغالب فان اليفرانى دافع عن فترة الغالب وقال عنها من ماجاء على لسان المؤرخ المجهول انما هو من وضع اعدائهم للحط من تدرهم واخراجهم من نسبهم الشريف ووصف دولتهم باوصاف لاتتناسب مع نسبهم الشريف بتعاونهم ومهادتهم للقوى الاستعمارية. لكن ابن القاضى اضاف قائلا ان ابا محمد عبد الله الغالب اشتغل بتامين وتاسيس ما بيده من املاك سعدية وتحصينها بالعدة ولم تطمع نفسه إلى الزيادة على ما ملك ابوه محمد الشيخ من قبله .

وهكذا انتهت فترة حكم الغالب بكل احداثها الداخلية والخارجية عام ١٥٧١م لكى تؤول قيادة البلاد إلى ولى عهده محمد المتوكل (المسلوخ) وكانت وفاة الغالب فى ٢٩ رمضان ٩٨١هـ/٢٢ يناير ١٥٧٤م .

(د) الامير الرابع (محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ابن محمد الشيخ السعدى) ٩٨١- ٩٨٤هـ- ١٥٧٤- ١٥٧٦م

آلت اليه مقاليد الحكم بعد وفاة ابيه وهو الامير الرابع من امراء البيت السعدى القرشى الشريف النسب لكن المتوكل كانت امه أمه (عبدة) غير انه كان من أنبغ الامراء السعدين ثقافة وعلما وتدينا ومن اجل توليته ولاية العهد حدث الانشقاق الذى سبقت الاشارة اليه بين افراد البيت السعدى وما آلت اليه من قتل وطرد وعزل وسجن فقد تم التخلى عن سياسة ولاية العهد لاكبر الابناء الذكور من البيت السعدى وهى القاعدة التى كانت تسير عليها الدولة السعدية فى ذلك الوقت وكان يتبعها العثمانيون ايضا .

وكان المتوكل ابو عبد الله محمد بن الغالب واليا على فاس العاصمة الثانية فى البلاد ووليا للعهد قبل وفاة أبيه الغالب وقد اجتمع أهل الحل والعقد وعليه القوم ومشايخ الطرق الصوفية واعيان البلاد وشيوخ القبائل على مبايعته خلفا لوالده وارسلوا اليه فى فاس فى اوائل شوال عام ٩٨٢هـ لكى يعود إلى مراكش ليتولى خلفا لابيه ولكن اهل فاس كانوا بايعوه ايضا وتم امره وقد جمع المتوكل بين القوة العلمية والحجة الذكية وقوة الشكيمة والدهاء .

وتقول المصادر المعادية للأسرة السعدية ان الشريف الامير الجديد محمد المتوكل قد ذاع صيته منذ عهد ابيه انه يهتم بحياة اللهو والمجون وانه كان يسرف فى هذا النوع والنمط من الحياة بين اروقة القصور فى فاس وهو ولى للعهد. وانه لم يكن مقبولا عن عامة الشعب وبعض رجال الحل والعقد واشياخ القبائل .

وقد حكم عامين اثنين فقط هما (١٥٧٤- ١٥٧٦م) لم يطرا على فترة حكمه فيها ادنى تغير بل كانت انماطا سياسية كسابقة عهدها دون ادخال ادنى تغير عليها. فقد سار المتوكل على سياسة ابيه فى مهادنة المسيحين ومعاداة الاتراك العثمانين وكان حكم هاتين السنتين لم يتم فيها ادنى تغير فى الداخل او الخارج وكانت سياسة المتوكل التى سار عليها هو ووالده وجده ضد الاتراك لم تصرف انظارهم عن المغرب الاقصى بقصد الاستيلاء عليه والانتقام من حكامه الضالعين مع المسيحين اعداء الاسلام والاتراك والجزائرين من رجال الجهاد الاسلامى البحرى .

ولقد كانت مؤامرة اغتيال جدة محمد الشيخ المهدى والحملة التركية بقيادة حسن بن خير الدين لكى تؤدب الغالب ثم محاولة الاستيلاء على سياسة المتوكل الرعناء قد دفعت بالاتراك العثمانين بتجديد التدخل من الشرق فى الشئون المغربية تايدا للقوى السعدية المعارضة وهم اعمامه (عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن ابناء محمد الشيخ المهدى) والذين كانوا سينكرون سياسة التقارب والاتصال بالايبيرين (الاسبان والبرتغالين) على حساب الصداقة التركية الجهادية الاسلامية و،من هنا طالبوا الاتراك بتمكينهم من العرش السعدى مع طرد المتوكل من السلطة السعدية ومن هنا فقد قام اعمامه ينافسونه وعادت مراكش إلى ما كانت عليه الاحوال ايام بنى وطاس من الفرضى من جراء منافسات امراء البيت الحاكم السعدى والتى كان من جرائها عودة النشاط إلى اصحاب الرباطات المنصوفة والاتراك العثمانين وعودتهم إلى التدخل

المباشر فى شئون المغرب الاقصى. اضافة إلى تدخل النصارى .

وقد ساعدت الظروف كلا من عبد المالك واحمد المنصور على تحقيق اهدافهما نظرا لما طرا على علاقات عبد المالك بالعثمانين من ايام منفاة بين رحاب ضياقهم واقامتهما بالجزائر. ثم الاتصال بالسلطان العثمانى فى القسطنطينية كما انه من الثابت ان عبد الملك واخوته فى سنوات منفاهم مع امهم بعيدين عن الغرب ومسعاهم لدى العثمانين قد وجد ترحيبا فى بلاط باشا بالجزائر وبلاط السلطان بالسقسطنطينة وقد أدت هذه العلاقات إلى تزوج عبد المؤمن بن محمد الشيخ المستهدى ببنت حاكم الجزائر وتعينه قائدا على تلمسان فيها بين اعوام ١٥٥٩- ١٥٧١م وتمثل سنوات مسعاة مشاركة فى الجهود الحربية فى تونس وانتصار جربة عام ١٥٦٠م ومعركة وادى الحلق عام ١٥٧٣م ثم اقامته مع امه واخته واخويه احمد المنصور وعبد المالك وزوجته التركية وابنه اسماعيل معا فى العاصمة التركية نحو ثلاث بتونس والتى حصل بعدها على تفويض من السلطان العثمانى بغزو مراكش وفاس واعداد العدة للتوسع بالمغرب وكيف امدت الخلافة العثمانية عبد المالك بالقوة التركية التى دخلت فاس مع عبد المالك وقدرتها المصادر بخمسة او اربعة آلاف والتى لم تكن لها ان تتحرك لولا القدرة العسكرية الفائقة التى تمتع بها عبد المالك واخويه (احمد، عبد المؤمن) وارسالهما البشرى إلى السلطان بفتح تونس عن طريق قارب سريع لاحد رجال الجهاد الاسلامى، اثره المباشر فى احتفاء السلطان بهما وبذل المال والسلاح لهما واصدر الاوامر السلطانية إلى حاكم الجزائر بارسال هذه القوات معهما إلى المغرب واستغل عبد المالك واحمد ظروف الانتصار لكى يشفعوا لدى السلطان العثمانى فى دفن راس والدهما محمد الشيخ السعدى التى كانت لاتزال معلقة بالقسطنطينة وقدم الاخوان السعديان فرمان من السلطان العثمانى إلى حاكم الجزائر ونهض عبد المالك واخوه احمد إلى المغرب

ومعهما جند الاتراك العثمانى الذى سيكون العون الاساسى فى طرد محمد المتوكل من عرش المغرب واستيلاء عبد المالك على الحكم وكتب المولى عبد المالك إلى انصاره بالمغرب يعرفهم بقدومه فاخذوا الاستعدادات اللازمة لمؤازرته ونصره ساعة وصول القوات لذا فما ان دخل عبد المالك بالجيش التركى حتى انضمت اليه جموع القبائل والقواد المغاربة كما انضم اليه رئيس جند الاندلس ورجاله وذلك لان هذه القوات الاندلسية كانت تسخط على المتوكل وابيه عبد الله الغالب لسياسة المهادنة مع الايبيرين المسيحين الذين طروهم من ديارهم وبلادهم بالاندلس ولانهم كانوا يكرهون عبد الله الغالب وابنه المتوكل لخيانته لهم فى العودة إلى ديارهم .

لذا فان محمد المتوكل بن الغالب (المسلوخ) لما علم بانحياز جند الاندلس إلى قوات عمه عبد المالك ترك الميدان وفر من المعركة امام الجيش التركى المغربى بقيادة عميه عبد المالك واحمد المنصور. وكان ذلك من اسباب ضياع ملكه إلى الابد ولم يستطع مواجهة جيش عبد الملك حينما التقت القوات بالقرب من فاس وهرب إلى مراكش واستولى عبد المالك على فاس فى ذى الحجة عام ٩٨٣هـ بعد هزيمة المتوكل بخندق الريحان بسلا وتقدم المولى احمد المنصور إلى مراكش لاخذ البيعة باسم اخيه عبد المالك المعتصم وذلك بعد ان بويع الاخير بالخلافة من قبل اهل فاس وبذلك خلص الحكم لعبد المالك بن محمد الشيخ ولقب بالمعتصم ثم لحق المعتصم بمراكش ودخلها فى ١٩ ربيع ثانى عام ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م .

وبنجاح دخول عبد المالك إلى العاصمة مراكش وفوزه بعرش الامارة السعدية تاكد انتصار فكرة الجهاد الاسلامى ضد القوى الايبيرية ونجاح خط التعاون التركى المغربى وطوع البلاد للشريف الجديد ضد الامير المخلوع محمد المتوكل بل ضد خطه السياسى ومعالم حكم ابيه من قبل المعادية للاتراك وزاد من التايد المغربى الجارف التى

رضى للوالى الجديد عبد المالك اظهار المواقف المغربية المعادية للاسبان والبرتغالين. وتخوف هؤلاء من الترابط المغربى التركى العثمانى فى عهد عبد المالك الذى لم يطل به العمر فى الحكم اكثر عامين فقط .

لكن الاميرالمخلوع محمد المتوكل استمر فى مقاومته وطلبه العرش لذا فقد استطاع الدخول إلى مراكش والاستيلاء عليها فى مارس ١٥٧٧م وان كانت هذه الهجمة على العاصمة لم تسمح له بالسيطرة عليها ذلك انه لم يستطع الا دخول حى الملاح الذى اصابه هجومه بالتخريب اما القصبة مركز المدينة فقد كان بها وقت هجومه على العاصمة ستة آلاف مقاتل بقيادة القائد ابن جارمان وذلك لحماية اخت السلطان عبد المالك الاميرة مريم بنت محمد الشيخ والتى كانت مقيمة بها آنذاك .

لكن محمد المتوكل بن الغالب تمكن من الذهاب شمالا حيث القواعد الاسبانية والبرتغالية فى سبتة وطنجة ومليلة وحيث مقره الاخير فى اصيلة لكى يواصل فيها المقاومة والتى كانت فى ذلك الوقت تحت حكم صهره القائد عبد الكريم بن توده والذى سمح لحاكم طنجة البرتغالى بدخول المدينة (اصيلة) نظرا لاستنجاد المتوكل بالبرتغالين ولجوئه اليهم فى سبتة وطنجة حيث وجه من طنجة خطابا إلى علماء ورجال الدين المغاربة يشرح لهم فيه اسباب لجوئه إلى الاسبان معللا ذلك باحقيته فى عرش البلاد لكن العلماء ردوا عليه بخطاب مطول استنكروا فيه تصرفه هذا وتخليه عن مدينة اصيلة للبرتغالين. هذا وسوف نرى ان عدم استكانة محمد المتوكل ولجوئه إلى البرتغالين طلبا للعرش سوف تؤدى إلى عواقب وخيمة للعرش البرتغالى وسوف تكونخطواته مجدا وشرفا للعرش السعدى الشريف تحت حكم عبد المالك محمد الشيخ المهدى .

وكان على محمد المتوكل ان يكتفى بهزيمته النكراء فى موقعة خندق الريحان والتى سبقت الاشارة اليها وكانت سببا فى قراره من العاصمه والتى دارت رحاها فى شهر يوليو ١٥٧٦م على مقربة من وادى الشراط بين سلا وفضالة حيث كان عبد المالك قد عبر نهر ملوية سابقا وانضم اليه اثنا عشر قائدا مغربيا بقواتهم ضد المتوكل لكن قوات المتوكل كانت تزيد عن اربع وستين الف فارس (٦٤ الف) ونحو خمسين الف (٥٠ الف) من المشاة من بينهم ثلاثه وعشرون الف حاملو بنادق نارية (٢٣ الف) فرسا ومشاة مع مائة وثلاثه وخمسين مدفعا (١٥٣ مدفع) فى حين ان قوات عبد المالك التى احرزت هذا الانتصار كانت قوات محدودة العدد والعدة لكنها كانت حسنة التدريب وتتكون من اثنى عشر الف (١٢ الف) من حاملى البنادق النارية الراجلين، ٢٨ الف فارس من بينهم ثلاثة آلاف تركى ويجرون معهم ٤٦ مدفع ولم يقم عبد المالك بقيادة هذه القوات المذكورة بنفسه رغم خطورة المعركة انما كان على رأس هذه القوات اخوه احمد المنصور واثنان من ابناء عمومته هما مولاى عمر ومولاى الناصر القائد بن عبد الكريم والنص، وانتظر عبد المالك بفاس بعد ان كان قد دخلها حتى بلغته انباء الانتصار والهزيمة الفادحة لقوات محمد المتوكل التى راح ضحيتها خمسة عشر الف قتيل فى مقدمتهم كبار قادته ورجال دولته فضلا عن فقده جميع مدافعه ومعداته الثقيلة .

وكان حسن التنظيم والاعداد والتدريب والتخطيط واساليب التنظيم العسكرى العثمانى وراء هذه الانتصارات اذ بفضلها استطاع عبد المالك ان ينتصر ولم يفقد فى هذه المعركة سوى القليل من الرجال .

وكان قد تاكد فشل محمد المتوكل بن الغالب فى استعادة مراكش من ايدى عمه عبد المالك ومن كان تصميم الاخير على ضرورة القضاء على المتوكل ومنعه من

استقراره فى اقليم السوس والاجزاء القريبة من مراكش وقطع كل صلة بينه وبين القبائل التى كانت تمد له يد العون فى اقليم السوس حيث توجه محمد المتوكل إلى تلك الارجاء ومن ثم تبعه احمد المنصور وكانت بينهما حروب كثيرة ومواقع تصادمية واستطاع المنصور الانتصار فيها على ابن اخيه المتوكل وهزم كعادته فى المعارك التى خاضها ففر إلى جبل درن ثم دخل طنجة طالبا النجدة من البرتغالين والاسبان لكن عبد المالك اصدر اوامره بتضييق المنافذ عليه ومحاولة القضاء عليه نهائيا. وبعد ذلك فما كان من المتوكل الا ان طلب عون ملك البرتغال دون سباستيان الاول الذى زين له السيطرة على بعض الثغور واعادته إلى عرشه وهنا تبين ان الاتراك كما ساعدوا عبد المالك بن محمد الشيخ ومكنوه من استعادة عرش ابيه، فاننا نجد ان بعض القوات التركية تساعد محمد المتوكل وتعمل على اعادته إلى عرش مراكش ومن ذلك فاننا نجد بعض القوات التركية تقبل الانضام اليه لاسيما بعض القوات الانكشارية التى وصلت إلى اقليم السوس متضامنة ومساعدة له والذين اتخذه الاعوان والمستشارين واسدوا له النصح والمخالصة وتفانوا فى خدمته والاستماتة دونه وكانوا من عوامل قوته فى بلاد السوس واشتركوا فى حروبه الجنوبية التى خاضتها ضد قوات احمد المنصور وكذلك فان موقف القوات الاندلسية قد تغير بعد دخول عبد المالك إلى مراكش ومن ذلك نجد سعيد الدغالى قائد هذه القوات والغز واللذين كانا على صلات قوية بعبد المالك والاتراك ينقلبان على عبد المالك ويحاولان القيام بالثورة ضده والعمل تغير تاييدهم له وتأييد محمد المتوكل لاسيما وان عبد المالك بعد ان انتصر فى مراكش وتكشفت له ثرواتها العظيمة فانه اكتفى بارسال اخيه احمد المنصور فى قوة من ثلاث آلاف جندى وفارس لتعقب ابن اخيه محمد المتوكل فى الشمال ايضا بعد تعقبه سابقا فى الجنوب فى بلاد السوس ولكن هذه المرة فى جبال الاطلس الكبير مما دفع المتوكل إلى دخول طنجة والاحتماء بالبرتغالين قبل الاتصال بملكهم دون سباستيان .

وهكذا فان صفحة المتوكل بن الغالب لم تنته بسيطرة عبد المالك على مقاليد الامور فى مراكش ومطاردة محمد المنصور له فى بلاد السوس جنوبا والاطلسى شمالا، ذلك لان الاحداث لم تكن لتستقر لعبد المالك فقد كان المتوكل لازال يبحث عن مساعدة له ومعبن يستظل تحت لوائه فى اعادته إلى عرش البلاد مهما تكن هذه المظلة ومهما يكن ما يقدمه من تنازلات من ارض الاسلام والمسلمين فى مقابل شهوة شخصية واهداف ومطامع دنيوية لاتخرج عن حب الزعامة والقيادة الفاشلة بغض النظر عما يعود على العقيدة والتراث والشعب المغربى ومن هنا فسوف تكون جولة قادمة على ارض المغرب يروح ضحيتها ثلاثه ملوك من بينهم محمد المتوكل او محمد المسلوخ .

الفصل الثانى

امير المؤمنين عبد المالك بن محمد الشيخ بن القائم بامر الله السعدى
قائد اعظم انتصار فى تاريخ المغرب- معركة النصر الكبير
٩٨٤- ٩٨٦هـ/ ١٥٧٦- ١٥٧٨م

هو الامير السعدى الخامس فى سلسلة سلاطين السعدين وقائد اعظم انتصار فى تاريخ المغرب من الفتح الاسلامى حتى العصر الحديث. ولد عام ٩٥١هـ/ ١٥٤١م وكان عمره وقت وفاة ابيه ستة عشر عاما ١٥٥٧م بينما كان اخوه عبد الله الغالب الذى آلت اليه مقاليد الامور فى سن الاربعين وقد تغلب عبد المالك قبلّ انّ يلقب بالمعتصم بلقب الغازى فى سبيل الله وكان له اخ شقيق هو عبد المؤمن. وكان عمره خمسة وثلاثين عاما عندما استطاع ان يستولى على مقاليد الامور فى المغرب وعلى الرغم من أن فترة حكمه كانت قصيرة قضى معظمها فى مطاردة ابن اخيه محمد المتوكل الا أن أنها شهدت أهم احداث فى تاريخ المغرب وكانت نهايته وهو يقود القوات المغربية لتسجل امجد واعظم بطولات التاريخ الاسلامى على ارض المغرب وكما سبق القول عن عبد الملك لم يكد يستقر فى مراكش حتى أخذ فى مطاردة المتوكل الذى فشل فى استرداد عرشه فما كان عليه الا ان يتصل بالاسبان والبرتغالين حلفائه القدامى فرفض الاسبان مساعدته لانشغالهم فى حروبهم فى الاراضى المنخفضة (هولندا) وكذلك كشوفهم الجغرافية فى العالم الجديد (الامريكتين) فاتجه إلى البرتغال وقد أرسل المتوكل كما سبق القول رسالة إلى العلماء يبرر لهم ارتماءه فى احضان القوى الاوربية معللا لهم ان تحالفه مع البرتغالين انما من اجل استرداده حقه فى العرش السعدى الا ان العلماء استكبروا عليه ذلك ومن ثم كان الاتفاق مع سايستيان ملك البرتغال على أن يترك للبرتغالين جميع الموانى الشمالية المطلة على البحر المتوسط

لكى تكون تحت سيادتهم وحكمهم فى مقابل معاونته فى استعادة عرش المغرب .

وعمل عبد المالك بعد استقرار الامور له فى البلاد باعادة القوة التركية التى شاركته فى فتح فاس ومراكش إلى الجزائر بعد مبايعة البلاد له وقبل ان يطارد ابن اخيه واعطاهم الهدايا وبذل لهم الاموال وزودهم بكل مايحتاجونه اليه وركب بنفسه لوداعهم فى نهر سبو ولكن هذا الموقف لم يرض القائد التركى رمضان باشا الذى ارسل قواته للتدخل فى شرق المغرب فما كان من عبد المالك الا ان طلب تدخل السلطان العثمانى مراد الثالث الذى تدخل لصالح عبد الملك وقام بعزل رمضان باشا عن ولاية الجزائر. وكان عبد المؤمن بن محمد الشيخ مقيما بالعاصمة التركية قد عرض الامر على السلطان العثمانى الذى قرر عزل الحاكم التركى فى الحال وهم الذين ساندوا عبد المالك ضد ابن اخيه وهم الذين كانوا يسعون إلى التحكم فى المغرب الاقصى بسياسة المراحل وان المرحلة الاولى قد بدأت فى عهد الغالب فكان عليهم ان تكتمل الحلقات فى عهد عبد المالك .

ولقد كان للدولة العثمانية خطتها فى ذلك فهى التى مارست وجودها فى غرب البحر المتوسط وخسرت معركة لبيانتو وامدت عبد المالك بالقوات التى لاتقل عن خمسة آلاف مقاتل وعشرين مدفعا وعشر سفن تغامر بها فى مساعدة عبد المالك فقبل عودة هذه القوات فورا من اجل طلب الدعم المادى أو العطاء المادى الذى اطلق عليه الاوربيون الهدية او البقشيش وذلك نكاية منهم لتصوير الدور الاسلامى التركى البطولى بانه كان من اجل الاموال والهدايا والتحف وماشاكل ذلك متناسين الدور الاسلامى الجهادى الذى كان يلعبه الاتراك على الساحة العالمية فى ذلك الوقت باعتبارهم حماة الخلافة الاسلامية وسدنتها فكيف لايكون شعار الجهاد هو شعارهم والفتح الاسلامى هو غايتهم وليس الكسب المادى الذى صوره رجال السفارات والقناصل الاسبان

والبرتغالين والانجليز المقيمين فى المغرب فى ذلك الوقت ان حق الاخوة الاسلامية هو الدافع الاول فى التحرك التركى وربما ياتى بعده محاولة مد النفوذ التركى إلى المغرب الاقصى وان تقبل بعودة قواتها بهذه السرعة الا اذا كان ذلك متفقا عليه بين القيادة التركية وعبد المالك او يكون عبد المالك قد احس ان دورهم قد انتهى بدخول فاس ومن ثم فانه لايقبل بالوصاية والسيطرة التركية فما كان عليه الامر برحيل القوات إلى الجزائر وربما تكون طلبات قادة القوات التركية ولاسيما رجال الاسطول منهم قد دفعت عبد المالك إلى رفع شكواه إلى الباب العالى وربما يكون عبد المالك قد استاء من موقف الاتراك وتأييدهم لابن اخيه محمد المتوكل وهزيمة اخيه احمد المنصور امام قوات المتوكل فى درن واضطرار القوات إلى العودة إلى مراكش وقيام عبد المالك بمنع القوات التركية من العبث بمدينة مراكش وفاس وعدم اطلاق ايديهم خوفا من السلب والنهب وحفاظا على املاك الاهالى كسبا لتايدهم له ودعما لموقفه من طلب العرش لاسيما وان المتوكل كان لايزال حيا ويقاتل من اجل العودة ولقد احسن عبد المالك صنعا فى ذلك اذ كسب تأييد الشعب ونادى به سلطانا على البلاد .

ولقد كان عامة الشعب فى المغرب يحسون باحساس الدين الاسلامى الذى يربطهم بالاتراك ومن هنا كانت لهم محبة خاصة فى قلوبهم، كما ان عبد المالك والذى عاش واخوته وامه فى رحابهم فى الجزائر وتركيا والذى كان يرى فى الوجود التركى عونا له ودعما لنفوذه لاسيما وانهم امدوه بالعون من اجل استعادة الحصول على عرش ابيه ودفعوا بقواتهم فانه كان لابد ان يظهر للجانب التركى الولاء والاخلاص للباب العالى ولابد ان تكون علاقاته العسكرية والمالية بل وان تكون التعاون والتحالف ما يحقق الوجود التركى والعثمانى دوره فى عهد عبد المالك وبما يسعى اليه الاتراك من تحقيق ضم المغرب اليهم مرحليا على خطوات ولقد كان ذلك ما قام به

عبد المالك لانه ليس من المعقول ان يقوم بطرد هذه القوات فورا دون اتفاق مسبق وتقديم المبررات لدى السلطان العثمانى وارسال الهدية المطلوبة والتى قدمت سفينة تركية إلى المياه المغربية لتقوم بنقل الهدية إلى العاصمة القسنطنطنية كما أنه قد يكون قد عمل عبد المالك على كسب ود الاتراك العثمانين اثناء وجود قواتهم بان يردد الدعاء للسلطان العثمانى مراد الثالث على منابر المساجد فى فاس وايضا فى مراكش من باب الاعتراف بالعون والجميل وان ذلك كان لفترة قصيرة اثناء وجود القوات التركية فى فاس فقط لان الوجود العسكرى كان يكسب الاتراك نفودا سياسيا فى ذلك الوقت ومن هنا كان لابد من الدعاء للخليفة التركى على منابر المساجد قبل وقوع النفور والاستياء من تصرفاتهم .

ولم يكن استيلاء عبد المالك على السلطة بدعم الاتراك يمر بسهولة من جانب العدو الايبيرى من الاسبان والبرتغال اذ نجد عبد المالك يرسل السفن التركية إلى موانئ تطوان والعراش وسلا ويقوم بنفسه بتشرد القلاع الحربية فى مراكش وسلا والعرائش تحسبا لادنى تدخل من قبل القوات الاسبانية او البرتغالية وقام بتوزيع القوات التركية المتبقية على هذه الحصون وكان نصيب قلعة مراكش ٥٠٠ (خمسمائة جندى تركى) وظهرت مظاهرة بحرية تركية كبيرة تعلن فرحتها بانتصار عبد الملك على قوات محمد المتوكل والتى منه خمسون سفينة تمركزت فى شمال انطوان وثلاث وعشرون سفينة فى ميناء سلا والعراش منها ثمان سفن حربية وفدت ايضا من الجزائر وكذلك ست سفن اخرى مغربية تم الاستيلاء عليها من قوات محمد المتوكل وثلاث سفن تركية ملك محمد عبد المالك بن مراد الرئيس وست فرقاطات تركية اخرى. ومن ثم فقد تكون اسطول تركى مغربى مكون من ثمان وثمانين سفينة (٨٨ سفينة) وذكرت المصادر الغربية الاسبانية بان هذه القوات البحرية ربما تبحر إلى الاندلس وان الاوامر قد

صدرت لهذه السفن بالتحرك قبل السواحل الاندلسية لاسترداد هذه الديار وحماية اهلها المضطهدين من قبل محاكم التفتيش والقتل الجماعى للمسلمين وان هناك قائدا تركيا قد وصل من القسطنطينة إلى الجزائر لقيادة هذه القوات الاسلامية المشتركة وللقيام بعمل اسلامى يخدم قضايا مسلمى المورسكين وان هناك عشرة آلاف جندى تركى. وتوقعت المصادر الغربية الاوربية بعد سيطرة عبد المالك ان يزداد الدور التركى فى المحيط الاطلسى وسواحل المغرب الشمالية والجنوبية وان هناك اكثر من ثمانين سفينة حربية معدة ومجهزة للقيام باية مهمة تطلب منها ولقد كان وجود هذه القوات بهذه الكثرة العددية والكثافة العسكرية دافعا للطرف الاوربى الايبيرى ان يعد للامر عدته ويعيد حساباته على ضوء التحركات الجارية لاسيما وان محمد المتوكل كان لايزال يدفعهم دفعا للتدخل لصالحه وانه لازال خصما عنيدا لم يستسلم لعمه عبد المالك رغم هزائمة المتكررة وخسائره الفادحة وانصراف القبائل من حوله وكانت الدول الاوربية تدعم المتوكل لاسيما البرتغال التى افزعتها القوة التركية الحربية والبحرية وان هذا الوجود التركى يشكل تهديدا مباشرا على وجوده فى الثغور المغربية وكذلك تهديدا على الوجود الاسبانى داخل بلاده والثغور المحتلة فعلا فى الاراضى المغربية ولاسيما ان عبد المالك وتحالفه الشديد مع الاتراك قد دفع بالعلاقات مع القوى الايبيرية إلى حالة من العداء وعدم الاستقرار والتوتر لاسيما ان السفن التركية لازالت رابطة فى الموانى المغربية واخبار نقل الاسرى الاوربين إلى القسطنطينة وارسال الهدايا إلى السلطان والتحول الحاد فى السياسة المغربية قبل الاتراك وانتهاج سياسة مضادة للبرتغالين والاسبان على عكس سلفه الغالب وابنه المتوكل اللذين كانا صديقين مخلصين لهما. لاسيما وانه ظهر للعيان خير الاستعدادات التركية فى الجزائر لنجدة واغاثة الثوار المورسكين فى مدنهم الاندلسية، وقد كان هذا لابد أن يحرك المشاعر الاوربية ضد الوجود التركى وضد القيادة المغربية الجديدة المتمثلة فى شخصية عبد المالك بن محمد

الشيخ وساعده الايمن اخيه احمد المنصور اللذين تحكما فى مصير المغرب فى تلك الفترة الدقيقة من تاريخ الصراع فى غرب البحر المتوسط ومحاولة ايجاد نوع من التوازن السياسى بين القوى المتصارعة .

لكن الاحداث كانت تتلاحق من حول عبد المالك الذى اراد ان يمسك بزمام الموقف تفاديا للدخول فى صراعات كبرى عالمية لاسيما وان الموقف الداخلى لم يستقر بعد ولم يمض على تمكنه من السلطة الا فترة زمنية قصيرة لم يتمكن خلالها من اعادة ترتيب البيت المغربى استعدادا للانطلاق للخارج لدعم موقف المغرب قبل الصراعات العالمية التى تدور من حوله .

لقد كانت خصومة محمد المتوكل عقبة كبيرة تقف فى طريق عبد المالك لتحديد رؤية سياسية ثابتة لاسيما انه كان يشكل اكبر تهديد لا من وسلامة البلاد لاسيما ان عبد المالك كان يعانى ضائقة مالية من جراء الوفاء بالهدايا للاتراك وقد خطط عبد المالك لتنفيذ خطة الاستيلاء على عرش المغرب تخطيطا سليما فانه اذ قد ضمن القوات التركية لمساندته فى الغزو فانه اراد يأمن جانب الاسبان لعدم وقوع رد فعل عدائى من جانبهم ضد مشروعه الخاص بغزو المغرب بمساندة القوات العثمانية وكذلك دفع القبائل المغربية للثورة ضد المتوكل وقد افادت الانباء الواردة إلى تركيا عن انتشار الثورات ضد محمد المتوكل ومطالبة الثوار الثائرين بتولية عبد المالك بن محمد الشيخ اماما لفاس ومراكش ومن هنا فان قوات عبد المالك ورمضان باشا حاكم الجزائر لم تدخل فاس الا فى مارس ١٥٧٦م. وفى المقابل تحرك البرتغاليون والاسبان لتامين اهدافهم والثغور التى يسيطرون عليها ومحاولة تطويع القيادة الجديدة فى فاس ومراكش فكان نزول ملك البرتغال إلى سبتة وطنجة لاعداد حملة للتوسع فى الاراضى المغربية وفتح المزيد من الثغور المغربية وضمها إلى بلاده وكان تحرك الملك البرتغالى هو

الخوف من التحرك التركى ذلك لان الاسبان والبرتغالين قد احسوا بان قدوم الاتراك إلى المغرب الاقصى ليس من اجل مساعدة عبد المالك فحسب والحصول على امارة ابيه ولكن من اجل الحصول لانفسهم على ملكية بعض الثغور المغربية وربما الدخول فى قتال ضد قوات البرتغال والاسبان لتحرير طنجة فى مقابل ان يكون ميناء العرائش للقوات البحرية التركية وفى سبيل ذلك تحرك ملك البرتغال «دون سباستيان»طالبا من فيليب الثانى ملك اسبانيا مساعدته لمنع الاتراك من الحصوال على ميناء العرائش. ولقد صدق حدس الاوربين اذ تم عزل رمضان باشا والى الجزائر الذى كان يصارع السلطان السعدى عبد المالك وتم تعين باشا جديد للجزائر هو حسن اغا «البندقى» رفيق عبد المالك وصديقه ومن ثم فقد سارت العلاقات بين الباشا الجديد وعبد المالك على احسن ما يكون وتمت مراسلات تتلخص فى ضرورة التنسيق العسكرى والسياسى بين المغرب والعثمانين من اجل دعم الوجود التركى بالمغرب وتوحيد السياسة الدفاعية قبل القوى الاوربية ولقد كان الشروع التركى ينص على استقبال عبد المالك للقوات البحرية التركية فى مينائى سلا والعرائش بحيث يتمكن بمساعدة المغاربة من طرد البرتغالين من طنجة وسبتة فضلا عن ان هزائم الاسبان سوف تقوى مركز عبد المالك وتدعم مشروع الجهاد الاسلامى .

وقد استجاب عبد المالك لطلب الاتراك العثمانين ارتباطا بما تعهد به لهم ومساندته فى العودة إلى عرش المغرب وانطلاقا من دور الحركة السعدية الشريفة فى مجاهدة المحتلين ومساندة رجال البحر المسلمين المجاهدين دعما لشعار الجهاد والرافض من موقف محمد المتوكل بن الغالب المتهم من الشعب المغربى بالارتماء فى احضان سلطان الاحتلال البرتغالى والتنازل لهم عن اراضى الاسلام والمسلمين والاستعانة بهم فى قتال عمه عبد المالك لكن من الناحية الاخرى فقد كان عبد المالك يريد ان يتحرر

من القيود التركية التى ربما تحد من قدرته على اتخاذ القرار ومحاولة التقارب مع البرتغالين والاسبان ولكن ليس بالصورة التى كان عليها أخوه الغالب وابنه محمد المتوكل حتى لاينال عداوة الشعب المغربى الذى كان يرى فى كل تقارب مع الاستعمارين خيانة للمبدأ التى قامت عليه الدولة السعدية وهو جهاد المحتلين والعمل على طردهم من الديار المغربية .

لكن عبد المالك كان يرغب فى التقارب مع فيليب الثانى ملك اسبانيا لكى يحاول تقليص الوجود البرتغالى فى المغرب والقضاء على كل الجيوب البرتغالية توطئة لما سوف يكون الوضع العسكرى المغربى بالتعاون مع الاتراك والانقضاض مستقبلا على القواعد الاسبانية لتصفية كل الجيوب المحتلة، وكان عبد المالك قد حاول التقارب مع ملكة انجلترا اليزابيث لكى يستغل موقف الصراع بين الاسبان والانجليز لصالح القضية المغربية .

ولقد كان الهدف المعلن لملك البرتغال هو ضرورة اجلاء عبد المالك عن السلطة وإيعاد محمد المتوكل والتوسع فى الاراضى المغربية ذلك هو الهدف المعلن ولقد كان هدف اسبانيا، ايضا ولكن غير معلن وكان هناك ارتباط بين ملك اسبانيا وابن اخته ملك البرتغال وكان مشروع سباستيان بضرورة احتلال العديد من الموانئ المغربية على الساحل الاطلسى للمغرب والاعداد لحملة برتغالية اسبانية مشتركة بهدف امتلاك ميناء العرائش بصفة خاصة وكذلك ان ملك البرتغال لم يقتنع بمحاولات عبد المالك فى التباعد بالتدريج عن اصدقائه الاتراك العثمانين حرصا على ايجاد صيغة للتوازن فى العلاقات لكن ذلك ام يجد لدى سباستيان ملك البرتغال فكان تحركه وكانت معركة القصر الكبير .

الفصل الثالث

معركة القصر الكبير (وادى المخازن او الملوك الثلاث)

١٦ اغسطس ١٥٧٨م – ٣٠ جمادى الاولى ٩٨٦هـ

هذه المعركة صفحة مضيئة ابد الدهر فى تاريخ المغرب بل هى قمة معارك الاسلام الكيرى سجلت المجد والفخار للمغرب العربى ابد الدهر فقفزت بالمغرب مع نهاية القرن السادس عشر الميلادى إلى مقدمة الصفوف الكبرى فى المجال العالمى ووضعت حدا ونهاية للدولة البرتغالية ومات فيها ثلاثه ملوك قبل ان ينقشع غبار المعركة عن نصر كبير مؤزر لجند الاسلام لذى يقوده عبد المالك بن محمد الشيخ الشريف السعدى سليل الدوحة النبوية والشجرة الحسنية القرشية .

هى يرموك خالد بن الوليد فى بلاد الشام، وقادسية سعد بن ابى وقاس فى بلاد الفرس، ومعركة عين جالوت بقيادة السلطان قطز سلطان مصر على التتار والمغول، هى معركة حطين عام ١١٨٧م بقيادة صلاح الدين الايوبى وانتصاره على الصلبين هى بدر الكبرى فى تاريخ المغرب الكبير هى صورة حية للدورالبطولى الرائع الذى قدمه المقاتل المسلم العربى المغربى فى سبيل الدفاع عن ارضه وعرضه ودياره فكانت فتحا مبيتا ونصرا مؤزرا وضع نهاية للغطرسة الاوربية .

قاد قوات المغرب المؤمنة برسالة ربها الرافعة لقرآنها، الطائعة لمولاها الشريف بن مولاى عبد المالك بن محمد الشيخ السعدى ويعاونه أخوه وساعده الايمن حاكم فاس مولاى احمد (المنصور) وكبار قواد المغرب، وعلى الجانب الآخر كان دون سباستيان يعاونه خائن قضية الاسلام والمسلمين محمد المتوكل بن عبد الله الغالب ومعهما قوات جرارة من كل الدول الاوربية وقوات البابا فى روما والجمهوريات الايطالية وفرنسا

والمانيا وانجلترا وغيرها من المتطوعين من كل دول اوربا .

وكان سباستيان شابا برتغاليا مغروا يعادى الاسلام والمسلمين نظرا للتربية المسيحية المتعصبة على يد رجل الجزويت وما بثه فى نفسه من تعاليم معادية للاسلام فضلا عما كان يحس به من سياسة خاله الملك الاسبانى فيليب الثانى قبل مسلمى غرناطة من المورسكين ومن هنا كانت نفسه تهفو إلى نشر التعاليم الجزويتية وتربى ايضا على سياسة ان الهجوم خير وسيلة للدفاع لذا كانت خطته مهاجمة المغاربة فى عقر دارهم والعبور إلى افريقيا وخوض الحرب المقدسة شخصيا ضد المسلمين الكفار هكذا كان يتصور فى فكره الخيالى صورة المسلمين .

وكان سباستيان منذ عام ١٥٦٢م قد حاول العمل مع خاله ملك اسبانيا من اجل تنسيق وتوحيد سياستها قبل التحرك التركى الاسبانى أثر انتصارهم فى معركة جرية عام ١٥٦٠م وتحطيمهم الاسطول والوقوف بحزم ضد فكرة أحياء وحدة القوة الاسلامية التركية المغربية فى بلاد المغرب توطئه لاعادة تحرير الاندلس، ولم يكن مشروع محاربة المغاربة فى عقر دارهم ولد ابنها (المتوكل عام ١٥٧٦م و١٥٧٧م) بل ان هذا المشروع يعود فى ذهن سباستيان لبناتو امام الاسطول الاسبانى عام ١٥٧٣م لاسيما ان ملك البرتغال كان يضع فكرة الاستيلاء على ميناء العرائش فى المقام الاول لتاكيد رغبته فى السيطرة على الملاحة والتجارة المارة بالمغرب إلى بلاد السودان الغربى وكذلك الرغبة فى السيطرة الداخلية والتوسع من الموانئ البرتغالية داخل المغرب والتجوال فى الاراضى المغربية وايجاد حكومة مغربية موالية لهم كما كان فى عهد الغالب وابنه محمد المتوكل لاسيما وان فرنسا حصات على ميناء القصر الصغير لكى يكون مركزها التجارى ومحاولات انجلترا أيضا الحصول على امتياز يسمح لها بالتجارة وميناء ترسو اليه السفن الانجليزية فى طريقها عبر المحيط الاطلسى والاتجار مع المغاربة

لاسيما أن الفرنسين والانجليز وغيرهم من رعايا الدول الاوربية قد باعوا اسلحة حربية حديثة كثيرة إلى المغاربة منقذين فى ذلك تعليم البابوبية التى تحرم مبادلة الاسلحة مع المسلمين لاسيما الاسلحة الهجومية والدفاعية لاسيما الجانب الانجليزى الذى كان يجاهر بالتجارة فى الاسلحة وتصديرها إلى المغرب عن طريق ميناء العرائش ووصلت الاخبار إلى ملك البرتغال بذاك فان هناك سفنا انجليزية انزلت اسلحة نارية هجومية ودفاعية لانواع حديثة من القذائف، ولقد ساعدت الظروف الداخلية فى المغرب الملك سباستيان عام ١٥٧٤م لكن ليبدا فى تنفيذ خطواته العملية لتنفيذ مشروع احتلال ميناء العرائش لمنع دخول الاسلحة إلى المغرب وتحرم التجارة فى هذا النوع من الصادرات الانجليزية وتفتيش السفن التى تحمل اسلحة فى الدخول والخروج من ميناء العرائش واسفى .

وقد أراد ان ينفذ مشروعه هذا عمليا فقام فى نوفمبر عام ١٥٧٤م بزيارة الثغور المغربية المحتلة وهى سبتة وطنجة ووعد بتكرار الزيارة لهذه الثغور وكاتب خاله فيليب الثانى ملك الاسبان لكى يعملا سويا من اجل كسر شوكة النفوذ التركى وعدم السماح له لممارسة نفوذة فى بلاد المغرب الاقصى وضرورة الحيلولة دون سماح عبد المالك للسفن التركية بان تتخذ موانئ المغرب قواعد لها وان سيطرة البرتغالين والاسبان سويا على العرائش سوف يفرض الحصار نهائيا على السفن المغربية التركية .

وفجر الموقف وازداد اشتغالا بسيطرة عبد المالك بن محمد الشيخ على مقاليد الامور فى المغرب وزاد ذلك من احساس سباستيان الاول من ضرورة القضاء على هذا السلطان وهو فى مقتبل فترة حكمه وتمت مراسلات مع خلاله ملك اسبانيا بهذا الشأن يلتمس فيها تقديم عون عسكرى وقوات وذخيرة ومؤن لاسيما ان الاسبان قد راوا فى الصراع الدائر على ارض المغرب بين عبد المالك بن محمد الشيخ وابن اخيه فرصة

طيبة لتنفيذ المخطط دفعا للخطر التركى لانه لابد من احد من طرفى الصراع سوف يلجأ لطلب العون والمساندة من البرتغال والاسبان لكن محمد المتوكل كان هو الذى يدق أبواب الاسبان والبرتغال طالبا للنجدة من واقع هزائمه المتكررة ومطاردته من الجنوب إلى الشمال ومن ثم وجد الاسبان والبرتغاليون فى محمد المتوكل لقمة سائغة للتدخل المباشر بحجة طلب العون لتحقيق هدفهم البعيد من أجل السيطرة الكاملة على كل التراب المغربى وازاحة الوجود التركى العثمانى .

وتفيد بعض المصادر الاوربية نفسها فى رسالة إلى ملك الاسبان فيليب الثانى ان محمد المتوكل رفض فى بداية الامر طلبا برتغاليا بان يقبل مساعدة من الاوربين بحجة ان عقيدته الدينية لاتسمح له بان يتلقى العون من المسيحين) لكنه عاد فيما بعد وقبل التعاون والمشاركة فى القتال بقواته معهم ووقع معاهدة تسمح لهم بالاستيلاء على ميناء العرائش .

وعلى الجانب الآخر كان عبد المالك صديقا عظيما للاتراك على الرغم انه لاينسى لهم انهم هم الذين قتلوا ابيه محمد الشيخ وانهم ظلوا معلقين راسه مدة عامين على ابواب القسطنطينة وكان هذا شعورا خفيا بالنسبة للاتراك ولكن كيف وهم الذين ساعدوه فى الصعود إلى عرش المغرب .

ولقد شاركت اسبانيا بصورة فعلية وكاملة فى هذه الحملة وامدتها بكل العون والدعم المطلوب بل ان الهدف العسكرى من هذه الحملة قبل ان يقودها سباستيان بنفسه، كان المقترح ان تكون بقيادة احد كبار القواد الاسبان وقد وافق الملك الاسبانى على اختيار هذا القائد الاسبانى المسمى (دى اطياتو) لكن الملك الاسبانى راى ضرورة التقليل فى خط سير الحملة وعدم الاعلان عن الهدف الحقيقى واعلنت الحملة انها فى طريقها لمساعدة السلطان محمد المتوكل والتحالف معه وان طريقها هو ميناء اغادير وازمور .

وقدمت اسبانيا خمسين سفينة حربية وخمسة آلاف فارس وجندى وكميات هائلة من المؤن والذخائر يقدر ما تحتاج اليها الحملة وهكذا زاد اصرار الملك البرتغالى على تنفيذ الحملة وحصرها فى مجال العلاقات المحلية وحسم التنافس على العرش بين عبد المالك ومحمد المتوكل وان دور محمد المتوكل فى تحيقق هدف البرتغال وبعث الروح العسكرية للبرتغالين من جديد وركب ملك البرتغال رأسه ورفض كل عروض السلام المقدمة له من جانب المغاربة وكذلك الدخول فى مباحثات بين السلام المزمع توقيعها بين العثمانين والاسبان والتى تشارك فيها فرنسا وبولونيا حيث راى فى اى توقيع هذه المعاهدة حرمانه من تنفيذ حملته على المغرب والتى اعد لها طويلا وعكف على تنفيذها والح فى الاسراع فى ارسالها وقيادتها بعد ان تلقى الدعوة بالمساعدة الكبيرة من كل الدول الاوربية التى كاتبها فى شأن هذه الحملة .

وكما وعد الملك فيليب الثانى ملك اسبانيا ابن أخته فقد قدم له خمسين سفينة حربية وخمسة آلاف مقاتل وكمية كبيرة جدا من المؤن والاسلحه والذخائر وهكذا فان فيليب الثانى قد وفى بكل ما وعد به ابن اخته من توات وسفن حربية ومؤن وبذلت حكومته كل ما فى وسعها لتوفير منتجات الاندلس ونابلى لكى توضع تحت تصرف قائد الحملة الاوربية حيث كان يحلم بالمجد والانتصار وتنفيذ مخطط اوربى بابوى لضرب الوحدة الاسلامية التى باتت علائمها فى الظهور بالتعاون المغربى التركى ومع نهاية فبراير عام ١٥٧٨م اعلن دون سباستيان الاول ملك البرتغال بان الحملة على اهبة الاستعداد للانطاق لدك المغرب وانهاء حكم عبد المالك وانه سوف يقود هذه الحملة بنفسه وانه لم يعول على شئ دون ذلك سوى احتلال العرائش واسقاط عبد المالك حليف الاتراك .

وهكذا بدات مطامع الملك البرتغالى الشاب فى الاستيلاء على المغرب تدخل

التنفيذ فى ٢٥ يونيو غادرت القوات الاوربية البرتغالية الاسبانية ميناء لشبونة البرتغالى فى طريقها لاحتلال المغرب وخوض اكبر معركة فى تاريخ المغرب وهى معركة القصر الكبير او وادى المخارن او الموك الثلاث حيث كان لها نتائج خطيرة على المعسكرين الاسلامى والمسيحى . بعد ان كان سياستيان الاول يريد ان يستعيد هيبة البرتغال فى بلاد المغرب. وكان محمد المتوكل قد وعد ملك البرتغال بالتنازل له عن جميع ثغور وسواحل المغرب كما ان عبد الكريم بن تودة صهر محمد المتوكل قد تنازل للبرتغالين عن ميناء اصيلا. وكان فى ذلك الوقت قد ظهر الاسطول المغربى القوى والسفن الكبيرة التى قام عبد المالك فى مدة وجيزة بتجهيزها وتعاون مع الاسطول التركى وخشى البرتغاليون ان يفكر عبد المالك فى العبور إلى الاندلس وساعدة المورسكين وتحرير شبه جزيرة اييريا من القوى المسيحية لذا كان التصميم على الخروج إلى المغرب لاحتواء ثغورة وسواحله ومهاجمة عبد الملك فى عقر داره وكان اغراء محمد المتوكل بالتنازل عن جميع الموانى والسواحل المغربية بعمق يصل إلى ثلاثة عشر كيلوا متر وراء جميع المراكز البرتغالية قد زاد من غرور الملك البرتغالى .

وتذكر المصادر ان القوات التى تحركت من لشبونة كانت عشرين الف جندى اسبانى، اثنى عشر جندى برتغالى، الف جندى ايطالى، ثلاثة الاف جندى المانى، اربعة آلاف جندى بابوى بعث بهم بابا الفاتيكان، اضافة إلى اعداد كبيرة من متطوعى اسبانيا وانجلترا والف وخمسمائة من الخيل واثنى عشر مدفعا ونحو الف سفينة حربية ونقل جنود وتعاون الجميع اضافة إلى اعداد كبيرة من متطوعى اسبانيا وانجلترا والف وخمسمائة من آلاف جندى برتغالى عند نزوله إلى طنجة .

وقد قدر حجم القوات المشاركة فى هذه المعركة بما لايزيد عن خمسين الف جندى اوربى جاءوا جميعا من اجل احتلال المغرب بمصاحبة الملك سباستيان فى

حملته المغربية واصدر ملك اسبانيا اوامره إلى جميع السفن الاسبانية بحماية الحملة البرتغالية وفى الثانى عشر من يوليو ١٥٧٨م نزلت الحملة إلى مدينة اصيلة على مساحة مرحلة من المدينة وتقرر ان نواصل السير إلى ميناء العرائش والقصر الكبير سوى ما يقرب من الفى جندى مما يسهل عليهما احتلال الموقعين فى يسر وسهولة ومن ثم أخذت خيل البرتغالين فى الاغارة على اطراف البلاد وانضم اليه محمد المتوكل برجاله وقام الجيش البرتغالى بدخول بعض الموانئ .

وكان خليفة المغرب عبد المالك على اهبة الاستعداد لملاقاة هذه الحملة وبادر بالكتابة إلى اخيه احمد المنصور فى فاس لتجهيز الجيوش استعدادا الملاقاة البرتغالين. وفى ١٢ يوليو عام ١٥٧٨م استولت الحملة على اصيلا وبقيت فيها ستة ايام حتى يوم الاثنين ١٦ يوليو ولقد كان على الحملة ان تقضى ما بين يومين إلى ثلاثة ايام حتى تتمكن من الوصول إلى القصر الكبير فضلا عن عبور النهر قبل ان تزحف إلى داخل البلاد المغربية وان عليها عبور النهر للوصول إلى العرائش. وكان عبد المالك قد استنفر قواته للجهاد وراسل كل البلاد والقبائل المغربية وسارت كل القبائل لامداد الجيش بالرجال والعتاد والمؤن واتجهت وفود الشعب المغربى إلى القصر الكبير ولحقوا بالجيش فى سلا وجاء جيش فاس بقيادة احمد المنصور للجبهة الاسلامية والجهاد الاسلامى وكراهية الاحتلال البرتغالى ولتدخله فى شئون المغرب الداخلية وتزاحم الناس للعمل من اجل رفع راية الجهاد ولم يكن من السهل تحديد عدد القوات المغربية المشاركة فى القتال لانها كانت تضم اعدادا كبيرة من المتطوعين ورجال الطرق الصوفية وقوات الجزائر التركية وذكر المؤرخ المجهول فى كتابه تاريخ الدولة السعدية ان عدد المسلمين كان حوالى سته وثلاثين الف جندى وعدد النصارى مثلهم مرتين او ثلاث.

واستفاد عبد المالك من تاخير وصول الحملة إلى هدفها المنشود خمسة عشر يوما حتى يتم لقاء القوات المتحاربة ووصول سياستيان إلى اهدافه لاسيما وانه يتابع اخبارها منذ بداية تركها وزاد من استعداداته بعد ان بلغته الاخبار بانها تضم الف سفينة حربية وبها ٣٥ الف من رجال الحرب المحترفين فضلا عن عشرات الالاف من المتطوعين الاوربين وانها تحمل مؤنا تكفى لاكثر من ستة شهور وانها تطعم اكثر من ستين الف نسمة وانها تحمل اكثر من سبعين مدفعا واعدادا كثيرة من الحمير والتيران لحمل وجر المدافع والذخيرة التى تكفى لقتال ستة شهور وقد ذكر اليفرنى نقلا عن ابن القاضى ان هذه الحملة كانت فى جيوش جرارة بلغت مائة الف وخمسة وعشرين الف مقاتل (١٢٥ الف مقاتل) قصدرا احتلال المغرب وحصر المسلمين وادارة رحى الحرب عن الاسلام والمسلمين (أهل الدين اليقين) وذكرت المصادر الاوربيـة انهـم سـتـون الف مقاتل .

وكان عبد المالك الخبير بشئون الحرب والقتال بعد اشتراكه فى العديد من المعارك مع الاتراك فى الجزائر ولاسيما معركة تحرير تونس من ايدى الاسبان عام ١٥٧٣م قد ادرك ان الحرب النفسية والمراسلات بينه وبين دون سياستيان الاول منذ ان وطئت اقدامه ارض المغرب لابد ان تتكشف عن ابعاد جديدة فى رؤية هذا الملك الشاب لمسار الحروب ولما سيكون عليه الموقف بعد ان ابدى عبد المالك نوعا من المرونة والدبلوماسية الذكية وهو الذى كان يتمتع بالحنكة والفطانة والكياسة وحسن التخطيط والاعداد المتقن لجيشه الكبير بل انه كان ذا عقلية علية عبقرية جبارة وكان يحفظ كل القرآن الكريم والاحاديث النبوية ملما بعلوم الدين اضافة إلى انه كان حاكما عصريا يتكلم بالاضافة إلى العربية والبربرية اللغات التركية والايطالية والاسبانية ويعرف الانجليزية وكان يرتدى الزى المغربى وأحيانا كثيرة بالزى التركى، كل هذه الصفات

جعلته انسانا ذكيا يستخدم صفاته فى معرفة الاخرين لاسيما ذلك الشاب المنحمس الذى لم يصل إلى سن الثلاثين بعد فاستخدم اسلوب المراسلات حيث دارت بعض المكاتبات بين عبد المالك بن محمد الشيخ والملك البرتغالى وكان ان ارسل عبد المالك رسالتين إلى سياستيان احداهما وهو لايزال فى أصيلا بتاريخ ٢٢ يوليو ١٥٧٨م يحذره فيها من القتال لان القتال هلاك لسياستيان وقواته الكبيرة وهذا امر مؤكد الحدوث لان القوات المغربية لاتهزم وانها تملك قوة عسكرية كبيرة وان السلطان التركى ممده بقوات جرارة وانه مؤيده فى مقاومة الغزو البرتغالى وانه بامكان السلطان ان يمده بقوات كثيرة وان يكرر معه ما حدث عندما ساعده على استرداد ملكه، وانه على استعداد لان يعطى البرتغال مزايا اكثر مما وعده به محمد المتوكل ابن اخيه لان ابن اخيه لايستطيع ان يفى بما وعد به ملك البرتغال لانه لايملك شيئا من هذه الموانئ ولا الاراضى التى تحيط بالموانى وتقدر بثلاثة عشر كيلو مترا، وان عبد المالك على استعداد لان يتنازل لابن اخيه محمد المتوكل عن الاراضى التى يرغبها لتكون تحت حكمه فيما عدا مراكش والاراضى المحيطة بها .

ولقد كان اسلوب المراسلات من قبل عبد المالك نوعا من جس النبض لدى سياستيان لمعرفة ما يدور براسه من أفكار بشأن مواصلة القتال والتقدم للمجابهة والصدام ام أن هناك تراجع عن الدخول فى قتال مباشر بين القوتين .

لكن الجيش البرتغالى الذى كان يضم جنسيات اوربية عديدة تقدم إلى داخل المغرب واتجه عبد المالك إلى القصر الكبير ثم عسكر فى منطقة تسمى سوق المحتسب على بعد ست أميال جنوب وادى المخازن وكانت القوات التركية تبذل اقصى المساعدة لعبد المالك وكذلك القوات الجزائرية. وعندما كانت ترسل كتب عبد المالك إلى دون سياسيتان كان يعسكر فى منطقة شهد رات ولكنه تركها ونزل إلى وادى المخازن .

ووادى المخازن هذا الذى حملت المعركة اسمه مع اسم القصر الكبير والملوك الثلاث هو رافد من روافد نهر لوكوس الثلاث الذى يصب عند ميناء العرائش والرافدان الاخران وهما وادى وارور، ووادى ريسانة اى ان موقع المعركة قد حاصرته الروافد الثلاثة وكان المعسكر المغربى على الضفة اليمنى لوادى المخازن فوق سطح هضبة ومن هذه الهضبة اطلت الحملة على سهول القصر الكبير ما بين وادى لوكوس وروافده ووادى راوؤز حيث كانت تتجمع قوات عبد المالك وقد وقعت المعركة على مقربة من مدينة القصر الكبير على مساحة لاتزيد عن اثنى عشر كيلو متر من ارض الصراع الدامى. ومدينة القصر الكبير هى المدينة التى سميت المعركة باسمها فى بعض المصادر وازاء تصميم الملك البرتغالى على القتال وخوض المعركة فانه لم يستمع إلى التقارير التى كانت تصل اليه لاسيما من رجاله ورجال ملك اسبانيا من الجواسيس اليهود الذين كانوا يعملون لصالحه والذين اخبروه بان قوات عبد المالك تزيد عن سبعين الف جندى وانه قد وصل إلى سلا وان هناك نجدة تركية مكونة من مائة وخمسين سفينة حربية وان هناك قوات تركية تزيد عن خمسة الاف تركى قد وصلوا فعلا إلى القوات المغربية للمشاركة فى القتال وان الاوامر صدرت فعلا من الباب العالى إلى باشا الجزائر لامداد عبد الملك بالقوة التى يحتاج اليها، لكنه هو وقادته البرتغاليون والاوروبيون رفضوا تصديق كل هذه الاخبار وتوقعوا انها خديعة من عبد المالك وان قواته الحقيقية لاتزيد عن ثلاثة الاف فارس واثنى عشر الف رجل اى ان قوات الحاكم السعدى جميعها لا تزيد عن خمسة عشر الف مقاتل بما فيهم كل المتطوعين ورجال القبائل والطرق الصوفية ومن هنا استهان بالامر وكانت العاقبة وخيمة .

ولما تيقن عبد المالك ان ملك البرتغال ليس له هدف سوى الحرب وقام بالاستيلاء على القصر الكبير ليكمل هدفه فى الاستيلاء على العرائش، لكن عبد

المالك اراد ان يضعه فى موقف لاتردد بعده بعد ان يذل كل السوئل لكى يثنيه عن القتال فقد راسله بخطاب شديد اللهجة حقره فيه اشد التحقير وذلك لاستدراجه نهائيا لكى لا يرجع عن غية وكتب اليه يقول انى تقدمت اليك ست عشرة مرحلة اما ترحل إلى مرحلة واحدة وقال له اذا رحلت إلى فانت نصرانى حقيقى شجاع والا فانت كلب ابن كلب لذا غضب سياستيان لما وصله الكتاب وشاور أصحابه فاشاروا عليه بالتقدم وقال له محمد المتوكل بن عبد الله الغالب نتقدم ونملك تطوان والقصر والعرائش ونجمع فيها من العدة ونتقوى بها وبما فيها من ذخائر فتقدم جيش ملك البرتغال من موضع يقال له تهدرات ونزل على وادى المخازن وكان ذلك التقدم مكيدة مديره من عبد الملك صاحب الخطط العسكرية الباهرة .

وقامت القوات البرتغالية بعبور جسر الوادى فامر عبد المالك بهدم القنطرة وبهذا فقد نجح الخليفة السعدى فى استدراج دون سباستيان وجيشه إلى قلب البلاد المغربية وكانت مكيدة عبد المالك هى المباعدة بين الجيش البرتغالى ومراكز تموينه وكان عبد الملك قد وجه كتيبة من أربعة الاف جندى من الفرسان بقيادة اخيه احمد المنصور فهدموا القنطرة وحالوا بين العدو وبين العودة من حيث اتوا ولم يكن امامهم الا القتال. وزحف عبد المالك بجيش المسلمين إلى معركة القصر الكبير بالقرب من وادى المخازن وصار النهر على يمين القوات الاسلامية المغربية .

والتقى الجمعان ودارت معركة من أعنف المعارك التى شهدها المغرب الاقصى فى تاريخه حيث أقبل المتطوعون من كل حدب وصوب طمعا فى الشهادة وقد بدات المعركة ببعض طلقات المدافع التى لم يكن لها تأثير فى صفوف الجانبين، لكن المدفعية المغربية قد احدثت ارتباكا فى صفوف المشاة الاوربين وتراجعوا إلى الوراء لكنه نقدم الصفوف واصدر اوامره لهذه القوات بالتقدم وبدا القتال وكانت بداية القتال شديدة

الوطأة على الجانبين واظهرت القوات الايطالية والاسبانية المصاحبة للحملة بسالة كبيرة فى القتال مما أدى بالقوات المغربية إلى محاولة امتصاص الصدمة الاولى وما تلاها توطئه للهجوم الكبير الذى لايبقى ولا يذر وكانت القوات الاسلامية المغربية قد انقضت على المؤخرة فى معركة تطويق بارعة تدل على مهارة المخطط وبراعة المنفذ وجسارة المقاتل ولكن هذه القوات وقد رأت انها محاصرة من كل جانب وانه لامفر من ابادتها بدات فى التراجع حيث صب عليها المغاربة وابلا من النيران واستخدمت السيوف فى الرقاب، لكن الجانب البرتغالى لم يكن له ان يستسلم بعد ان شاهد حمى الوطيس فدفع بقوات الاحتياط إلى المقدمة لتعويض خسائره فى القتلى والجرحى. وتركزت المعركة بشدة على هذا الجانب (المقدمة) مما جعل المغاربة يندفعون بحماس شديد لقتال فرسان الصليبين ومن معهم من قوات محمد المتوكل وارغموهم على الفرار واندفع المغاربة يكبرون إلى القوات الالمانية التى تقهقرت ايضا وكر المغاربة على عدوهم عدة مرات حتى استطاعوا بقوة ايمانهم من فتح ثغرة فى صفوف المشاه البرتغال والقوا فى قلوبهم الرعب وزلزلوا زلزالا شديدا وتفرقت القوات. ولم يبق امام القوات الاسلامية المغربية سوى الميسرة التى كانت لم تفزع بعد من القتال حيث استطاع المغاربة احراز النصر على كل الاجنحة التى خاضوا قتالها وكانت الميسرة بقيادة اللواء الملكى يقوده سباستيان بنفسه وكان قد تركه ليكون لقمة سائغة للقوات المغربية حيث كان فى المقدمة والتى تدور فيها اعنف المعارك وعلى نتائجها تكون نهاية المعركة. حيث كان الايطاليون والاسبان لازالوا يقاتلون فى دفع بالقوات المغربية التى تطلب بعض التعزيزات وتحقق الانتصار وهلك معظم الجيش البرتغالى رغم ضراوة القتال وما بذله النصارى من ثبات وعزم على تحقيق النصر، لكن هيهات فقد ولى المشركون الادبار ودارت عليهم دائرة البوار وحكمت السيوف فى الرقاب وقتل الطاغية البرتغالى غريقا فى الوادى وكذلك صديقه محمد المتوكل الذى وجد غريقا أيضا .

وكان السلطان عبد المالك مريضا فى محفته وتوفى عند الصدمة الاولى ذلك لانه عندما رأى رجاله يتراجعون فى بداية المعركة ثارت حميته وغيرته الاسلامية فصاح الله اكبر وارتمى من محفته وركب فرسه واندفع بين صفوف المقاتلين. يشجعهم ويجمع صفوفهم فارتدوا يقاتلون العدو بعد ان كانوا قد تقهقروا واوقف تراجعهم وقاتل بشدة فى الوقت الذى كان فيه رجاله يتوسلون اليه بالعودة إلى محفته وحمل بعد ما كاد يسقط من فوق فرسه يتوسلون اليه بالعودة إلى محفته ووضع فى المحفة التى كانت قد حملت جثته بعد أن اسلمت الروح إلى بارئها قبل ان تنعم بيوم النصر وكان عبد المالك فطنا ذكيا اذ اشار إلى من حوله بضرورة كتمان خبر موته حتى يتجلى الموقف ويتقرر مصير المعركة، ولم يطلع على خبر موته سوى حاجبه رضوان العلج الذى كتم خبر موته .

وهكذا انتهى يوم الاثنين السادس من اغسطس عام ١٥٧٨م، الثلاثين من جمادى الاول عام ٩٨٦هـ عن انتصار اسلامى كبير ومقتل سياستيان وحليفه الامير السعدى المولى شريفه (محمد المتوكل) ابن الجارية السوداء. وموت صاحب الانتصار الكبير عبد المالك بن محمد الشيخ السعدى .

وكانت هزيمة منكرة للجيش البرتغالى الاوربى وانتصارا حاسما للمغاربة وللاسلام. وقد لعب رضوان العلج صاحب الملك السعدى دورا كبيرا فى هذا الانتصار الرائع اذ كان يتردد على خباء الخليفة عبد المالك ويعلن ان الخليفة يامر فلانا بان يذهب إلى موقع كذا ويقاتل فيه وفلانا ان يلتزم الراية ويقاتل وقاد رضوان العلج المعركة وعلم اخوه احمد المنصور بموته وكتم الخبر حتى انتصر المسلمون على معسكر النصارى وولى البرتغاليون الادبار وانجلت المعركة عن مصرع سباستيان ولم ينجو من القوة الاوربية سوى عدد قليل جدا ووجد المتوكل كما سبق القول غريقا فى وادى

لوكوس واخرجه الغطاسون وامر المولى احمد المنصور الذى خلف اخاه عبد المالك بسلخ جلده وحشوه تبنا وطيف به فى مراكش وغيره من البلاد المغربية. واسفرت هذه المعركة عن موت الملوك الثلاثة والتى اتخذت هذه المعركة فى بعض المصادر اسم معركة الملوك الثلاثة او وادى المخازن وان كانت العديد من المصادر تشير اليها على انها معركة القصر الكبير لكنه كان المعلم الكبير القريب من ميدان المعركة والذى لايبعد عن وادى المخازن باكثر من اثنى عشر كيلو متر وان كان اسم معركة وادى المخازن متعارفا عليه فى بعض المصادر .

وقيل ان عبد المالك مات مسموما وقد دس له السم غريمه المتوكل محمد بن الغالب والذى كان يهدف من ذلك إلى اعلان موته قبل بدء المعركة أو فى بدايتها. لكى يكون ذلك سببا فيفت فى عضد القوات وتسود صفوفهم الفوضى والاضطراب مما يؤدى فى النهاية إلى هزيمتهم .

وان كانت بعض المصادر قد حاولت ان تنسبب موت عبد المالك بوضع السم له إلى الاتراك العثمانين، الذين لم يكن لهم مصلحة فى سمه وهو حليفهم وقواتهم تقاتل معه وهو زوج ابنه احمد باشا والى الجزائر وعاش فترة من عمره فى تركيا هو واخوته وأمه وكان مقربا إلى السلطان مراد الثالث، بل ان عبد المالك اشترك بنفسه مع السلطان مراد الثالث فى قتال فى بلاد اليونان، لكن ابن القاضى يذكر ان رضوان العلج الذى قاد المعركة بعد وفاة عبد المالك وكان قائد الاتراك بعث لبعض قواده ان يلقاهم بكعك مسموم هدية لعبد المالك وقصد بذلك قتله، ولكن من غير المعقول اطلاقا ان يكون الاتراك وراء وضع السم له لانه ليس لهم مصلحة فى ذلك لانه كان لايزال صديقهم وقواتهم هى التى جاءت به إلى عرش المغرب وقد كان الانتصار زيادة لمكانتهم فى حين ان الهزيمة كانت ستقضى على آمالهم فى المغرب الاقصى وتضع

نهاية لوجودهم فى تونس والجزائر .

وهكذا كانت معركة القصر الكبير قد شغلت الراى العام العالمى لفتره طويلة لما لها من نتائج فهى بالسنة للمسلمين فى المغرب وبقية العالم الاسلامى بمثابة معركة بواتية – او بلاط الشهداء فى اوربا وقد اسفرت المعركة عن العديد من النتائج التى تركت بصماتها واضحة جلية على خريطة العالم المعاصر فى ذلك الوقت فقد استمرت المعركة ست ساعات هزمت فيها البرتغال وحلفاؤها جميعا فى اخر شهر من فصول العام وهو شهر اغسطس ولم ينج من الاسر والقتل الا مائة رجل (مؤرخ مسيحى زاهر رياضى) وحدد القشتالى ان عدد القتلى والاسرى بلغ ثمانين الف رجل وانهت معركة القصر الكبير اسطورة دولة البرتغال القوية وابرزت افلاس الحملات الصليبية على العالم الاسلامى والتى كان البرتغاليون يتقربون بها إلى البابوية فى بلاد المغرب او غيرها من بلاد العالم الاسلامى .

ومهما يكن من كتابات ابن القاضى او اليفرنى وغيرهم من الكتاب فان الاتراك لم تكن لهم يد فى قتل عبد المالك وهم الذين امدوه باكثر من ثمانية آلاف مقاتل منهم ستة آلاف فقط من حاملى البنادق النارية اضافة إلى اكثر من اثنى عشر مدفعا .

وهكذا انتهت المعركة التى كانت محاطة بمشاعر اوربا الصلبية مما دفعت بملك اسبانيا ان يرسل إلى دون سباستيان الخوذة التى كان يلبسها الامبراطور شرلمان اثناء حملته على تونس عام ١٥٣٥م. وقد عجلت هذه المعركة بنهاية البرتغال واندماج املاك العرش البرتغالى فى الامبراطورية الاسبانية وتسلم البرتغاليون منائر هذه الهزيمة النكراء بهذا المصير السياسى وانضمامهم للاسبان .

ولكن على الجانب المغربى فقد اكدت هذه المعركة قوة المغرب والمغاربة سياسيا واكدت استغلال المغرب كدولة محلية بعيدة عن التبعية للدول الامبراطورية المحيطة بها،

كالاتراك العثمانين والاسبان والبرتغالين وان هذا الانتصار العظيم قد دعم هذا الاستقلال ودفع المغرب إلى مصاف الدول الكبرى وبدات كل دول اوربا تخطب ودها وتقدم التهانى لها بهذا الانتصار العظيم وترغب فى اقامة علاقات تجارية اقتصادية وسياسية معها. كما ان النفوذ التركى لم يكن بالقدر الذى كان يتوقعه الذين جاءوا بعبد المالك إلى عرش المغرب .

وهكذا استطاعت الراية الاسلامية التى رفع لواءها السعديون والاتراك ورجال الطرق الصوفية والمتطوعون والتى تعلقت حولها قلوب وعيون المسلمين فى شتى بلاد المشرق والمغرب ترقب هذا الحدث التاريخى الهام الذى استطاع ان يحقق النصر الباهر على القوى المسيحية الكاثوليكية والتى ضمت البرتغال واسبانيا والمتطوعين من الالمان والايطالين والانجليز والنمساويين ومن امامهم تولت البابوية تدفع دفعا لهذا الصراع الذى كانت نهايته كما شاهدنا الهزيمة الساحقة لهذه القوات، ولقد كان من اثر تحقيق هذا الانتصار ان دفعت الاحداث العالمية بالمغرب بعد ان قطفت ثمار النصر الباهر فى معركة القصر الكبير ان تحول دوره من الدفاع الداخلى فى علاقات المغرب الدولية إلى دور يدفع المغرب إلى شغل موقع فعال فى العلاقات الدولية بعد ان علت هيبة السعديين فى العالم الاسلامى باعتبارهم قد دافعوا عن ترابهم المقدس وحفظوا وصانوا كيان المغرب، كما كان الدور الرائع الذى لعبه عبد المالك الذى ارسى فنون الحرب والقتال واحرز هذا الانتصار الباهر على الاسبان فى تونس من قبل وتدرب فى اسطنبول على مستوى الاداء والخبرة والمهارة واجاد فن التخطيط القتالى وحسن التدبير والحشد والاعداد والمهارة فى ادارة المعركة بل اية معركة انها من اخطر المعارك التى خاضها جند الاسلام فى المغرب .

ولم تكن مصيبة البرتغال فى فقد ملكها ورجال بلاطها وطبقة النبلاء وجيشها

الكبير ولكن كانت المصيبة الكبرى من اثر هذه المعركة انها ادت إلى فقدها سيادتها واستقلالها وكيانها وضمت نهائيا إلى اسبانيا وظلت تابعة لحكم الملك الاسبانى فيليب الثانى واسرته اكثر من ستين عاما ١٥٨٠م إلى ١٦٤٠م وترسخت دعائم الحكم السعدى فى نفوس الرعية واركان الدولة على الرغم من ان بعض الجيوب الاستعمارية كانت لم تزل غير محررة ولم يستطع حكام المغاربة استثمار انتصارهم بالقضاء على هذه الجيوب الاستعمارية فى الثغور، لكن المعركة اظهرتهم كحكام اقوياء يمكن الاعتماد عليهم فانهم استطاعوا حفظ التوازن بين قوى الشرق والغرب مما جعل للمغرب دورا سياسيا بارزا فى السياسة العالمية كما عادت المعركة بالشهرة والثروة للسلطان احمد المنصور واستغل ذلك فى تاسيس امبراطورية فى غرب افريقية لينافس بذلك اكبر امبراطوريتين فى ذلك الوقت هما الامبراطورية التركية والامبراطورية الاسبانية .

لكن على الصعيد الداخلى والخارجى فقد كان اولى بالسلطان الجديد احمد المنصور ان يستثمر هذا الانتصار لاسيما انه كانت توجد لديه اعداد كبيرة من الاسرى الاوربين ويكون مقابل اطلاق سراحهم هو رحيل كل القوات الاسبانية البرتغالية من جميع المدن المحتلة وخاصة سبتة وطنجة ومايلة واصيلا التى احتلت حديثا وقبل المعركة بشهر او وشهرين وظلت تحت الحكم الاسبانى حتى عام ١٨٨٩م اى انها ظلت أحد عشر عاما بعد المعركة وهى خاضعة للحكم الاسبانى. وقد تكون هذه المعركة قد اضعفت اطماع الدول الاوربية فى الموانئ المغربية ومحاولة السيطرة عليها لكن الدول الاوربية كانت لاتزال ترنو ببصرها لمحاولة ايجاد مواقع ساحلية لها كما حدث فى طلب فرنسا وانجلترا وهولندا الحصول على امتيازات تجارية لها فى المغرب والحصول على موانئ تكون مراكز لها .

لكن المغرب لعبت دورها التاريخى والعالمى فى الصراع العالمى بين القوى الاوربية انجلترا وفرنسا واسبانيا وورثت العرش البرتغالى وهولندا ومحاولة الدولة المغربية ان يكون لها دور فى تخطيط السياسة العالمية والتماس الدول الكبرى لاسيما انجلترا التى كانت ترى فى القيادة المغربية ركنا بارزا فى السياسة العالمية ولمحاولة الاستفادة من وضع المغرب العالمى فى تأييد ولى العرش البرتغالى ضد المطامع الاسبانية لاسيما انه كان لاجئا لدى المغرب .

كما ان الاستقرار الداخلى ودعم الحكومة المركزية وادارة احمد المنصور مقاليد الامور بالحكمة والرؤية واستخدامه الدهاء والدبلوماسية فى الامساك بخيوط اللعبة الدبيلوماسية وازالة الخطر الاسبانى والبرتغالى واستخدام الاسلوب البارع فى درء الخطر العثمانى التركى وكسر فكرة الغزو التركى للمغرب نهائيا وابطال مفعول هذا المخطط وعمل حاكم المغرب فى السعى إلى تحقيق التوازن والمهادنة فى علاقات المغرب الدولية والعمل على ان تلعب المغرب دورا تاريخيا جديدا يختلف عن الادوار السابقة امام ابيه محمد الشيخ او اخيه عبد الله الغالب او عبد المالك صاحب انتصار القصر الكبير لاسيما ان المنصور كان يطمع فى الانتقال بالدولة المغربية إلى الدولة الاسلامية الكبرى والذى تسمى هو باسم الامام أمير المؤمنين خليفة المسلمين بعد ان سقطت الخلافة الحفصية فى تونس وبعث فى دولته نزعة الخلافة الاسلامية التى كان يحلم باخضاع بقية بلاد المغرب وبلاد العالم الاسلامى الشرقى لهذه الخلافة القرشية الفاطمية العلوية الحسنية .

الفصل الرابع

احمد المنصور الذهبى والدولة السعدية

٩٨٦هـ- ١٠١٢هـ- ١٥٧٨- ١٦٠٨م

لقد كان من اولى نتائج معركة القصر الكبير ظهور خليفة سعدى جديد يعتبر من اعظم خلفاء الدولة السعدية قاطبة حيث قاد الدولة نحو القوة والاستقرار وشهد عصره توسعا للدولة ونموا فى علاقاتها مع القوى الخارجية الاوربية الاسلامية. ذلك هو أبو العباس احمد المنصور الذى تولى الحكم مباشرة بعد وفاة عبد المالك وتلقب بالمنصور تيمنا له بالنصر فى هذه المعركة ويعتبر احمد المنصور رابطة عقد الدولة السعدية فقد ظل متربعا على عرش البلاد قرابة ربع قرن (ستة وعشرين عاما) شهدت فيها البلاد مظاهر التقدم والحضارة والمجد والعظمة .

وقد ولد احمد المنصور عام ٩٥٦هـ وتربى بمدينة فاس حيث اخذ يدرس العلم والادب والفقه فى مدارسها ثم اقام فى بلاد الجنوب حيث سجلماسة فى اقليم السوس ولما تولى أخوه عبد الله الغالب امر المغرب رحل هو واخواه عبد المالك وعبد المؤمن إلى الجزائر ثم تركيا وقد اكسبه مقامه فى تركيا الاطلاع على شئون اوربا والبحر المتوسط واكتسب مهارة ودهاء ساعدته فى توجيه سياسة المغرب الخارجية وكان يهتم بمشكلات بلاده ويطلع على شئونها اطلاعا واسعا وكان ولوعا بالمعارف العلمية إلى جانب انه كان عالما لصيقا بالعلماء ورجال الدين مما جعل العامة والشعب يطلقون عليه عالم الخلفاء وخليفة العلماء كما كان شاعرا من اعظم الشعراء، كما كان يقول بعضهم انه اشهر ملوك وسلاطين المغرب وكان له ديوان اسماه ديوان الشرفاء. وكان لهذا الرجل الصغير دور كبير فى توطيد حكم اخيه عبد المالك بالمغرب ولذا رشحه لولاية عهده بدلا من اولاده وكان خليفته على فاس ومنها كان يرسل النجدات ويقود

الجيوش لمحاربة اعداء الدولة وكان له دور كبير فى معركة القصر الكبير (وادى المخازن) وانه كان يقود القلب الايسر (الجناح الايسر فى المعركة وصاحب الهجوم الكبير والاكبر على القوات البرتغالية بعد امتصاص الصدمة الاولى وهو الامير السعدى السادس فى سلسلة الحكامالسعدين الذين حكموا المغرب فى ظل الخلافة السعدية الشريفة .

وقد بايعه رجال البلاط وقواد الجيش بالخلافة فى ارض المعركة بعد الانتصار مباشرة ولقبه رجال الحل والعقد بالمنصور تيمنا بالنصر الكبير الذى احرزه المسلمون فى هذه المعركة وكانت بيعته فى نهاية جمادى الاول عام ٩٨٦هـ وهو نفس اليوم الذى حسم فيه مصير المعركة بالانتصار الباهر. واعلنت له البلاد بالطاعة وسارعت القبائل والمدن والاقاليم والولايات ورجال القبائل وشيوخها بالولاء وتدخل الاتراك فى تولية العرش. ومن ذلك التدخل بان حاكم الجزائر التركى حسن اغا قد تدخل فى الشئون الداخلية للبلاد وساند حق اسماعيل بن عبد المالك صاحب انتصار معركة القصر الكبير فى المطالبة بوراثه عرش الديار السعدية بعد ابيه وتدخل باسمه فى نزاع مكشوف مع احمد المنصور وكان حسن اغا باشا الجزائر يرمى فى خطته التطلع إلى توطيد النفوذ التركى العثمانى بالمغرب استنادا إلى صلة المصاهرة ومن هنا فقد تعرض المنصور لمؤامرة منهم كاد ان يفقد فيها سلطانه بعد ان علم الاتراك بامر بيعته فاتفقوا مع كبار رجال الجيش والذين كانوا من الاتراك على تنحية المنصور واخذ البيعة لاسماعيل بن عبد المالك لتولى عرش المغرب متطلعين لشعبية عبد المالك وصدى انتصاره فى معركة القصر الكبير وحق ابنه اسماعيل فى ولاية العرش كما ان الاتراك عملوا على بث روح التفرقة بين افراد الجيش المغربى مما اضطر المنصور إلى الفرار إلى مراكش ولكن المغاربة رفضوا ذلك واصروا على بيعة المنصور .

وقد استقبل المنصور وفود الملوك والرؤساء للتهنئة بالنصر الكبير وكان من بينهم الوفد البرتغالى الذى جاء بهدية قيمة وطلب تسليم جثة الملك دون سباستيان الاول والتى كان قد دفنها انصاره ورجاله فى مكان معلوم ليتم اخراجها بعد انهاء المعركة وفك اسرى المعركة وقد استجاب لهم المنصور وكان المنصور فى تلك اللحظات يتوجس خيفة من الاتراك وحقيقة موقفهم لانه لو كان يضمن مساندتهم له لطلب من رسول البرتغال رحيل القوات البرتغالية من جميع الموانئ المغربية المحتلة ولاستجاب الاوربيون لكل مطالبه نظرا للافراج عن الاسرى. وكان كذلك اول ما فعله المنصور انه قام بعد استتباب الامر له بالتنكيل ببعض كبار رجال الجيش المغربى لاسيما من تعاون مع الاتراك والتخلص من الشكوك فى افعالهم .

وبهذا فقد اصبح المنصور سيد البلاد والمطاع وكان السلطان رجلا قوى الارادة، لاسيما وان الانتصار قد ملأه بالفخر والاعتزاز والحماس وهو الذى جنى ثمرة كل هذا الانتصار اذ قبل من الاسرى دفع الفدية وقام السلطان احمد الغالب المنصور باطلاق سراحهم فامتلأت خزائنه بالمال البرتغالى والاوربى وعاد النبلاء ورجال البلاط البرتغالى بعد ان تم اطلاق سراحهم إلى البرتغال فوجدوها قد أقفرت وساد الفقر اركان البلاد من جراء دفع الفدية الكبيرة التى دفعت لهم فلم يملكوا الا أن يرسلوا سفراءهم إلى احمد المنصور يطلبون مساعدته على هيئة قروض. ووجه السلطان اهتمامه إلى كل النواحى العامة وادار المنصور سياسة بلده بنفسه بحزم ونزاهة معتمدا على جماعة من الشورى .

ونظرا للدور الذى لعبه احمد المنصور فى معركة القصر الكبير فانه كان لايزال يردد احداثها فى كل جلساته ويمجد بالدور الذى لعبه شقيقه عبد المالك قائلا ان كل الظروف التى كانت تحيط بالملك دون سباستبان كان تؤهله للانتصار ولكن حسن تدبره وقيادته للميسرة جعل نكبة البرتغالين تفوق كل احتمال ففى ست ساعات فى يوم من

ايام اغسطس الحارة ابيدت هذه القوة البرتغالية ولم ينج من الموت او الاسر الا اقل من مائة شخص ولم يكن هذا كل شئ فى نكبة البرتغال زاهر رياض المالك الاسلامية فى غرب افريقيا ص ١٧٤) .

وكما سبق القول فقد اكسبت المعركة المغاربة صيتا فى العالمين الاسلامى والمسيحى فان كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد وبالرغم من هذا فقد بدا المنصور عهده مثقلا بالمشاكل كانت السلطنة منقسمة كما كانت هناك جماعات على استعداد لان ينتصر المناوئون الثلاثة او الاربعة الذين يصارعون احمد المنصور على ولاية العرش ويدعونه لانفسهم والذين يستترون على ادعاءات اقوى من ادعاء المنصور نفسه ولذا لم تكن كل طوائف الشعب ترحب بارتقائه العرش وكانت ترى فى اسماعيل بن عبد المالك صاحب الانتصار والذى توفى وهو يقود المعركة ولذا انكروا عليه الانتصار الذى يتمتع به بطل شعبى واصبح ظاهرا ان الحزم الذى قاد به عبد المالك البلاد ربما قد يفلت من يد المنصور كما ان اوربا لم يكن لها ان تسمح ان تستمر هذه الهزيمة القاسية دون انتقام وكانت الاداة المحتملة للانتقام من قبل اوربا المسيحية هو فيليب الثانى ملك اسبانيا الذى لم يكن يفصله عن المغرب الا عدة اميال بحرية يسيرة وكَانَ الاتراك فى الجزائر اقرب من ذلك وكانوا مازالوا يحقدون على المغاربة لمقاومتهم القوية للانضمام إلى الامبراطورية العثمانية وكان المنصور الذى قد خرج لتوه من معركة ليس لديه النية فى الدخول فى معركة اخرى مع ملك اسبانيا فيلبب الثانى الذى اعلن حالة الاستعداد بين قواته عندما علم بهزيمة ابن اخته دون سباستيان ملك البرتغال وقوات اوربا من خلفه وشحن الثغور البرتغالية لانه كان يعد نفسه قائما على ممتلكات البرتغال، كما ان المنصور كان يدرك تمام الادراك ان القوى الصليبية الاوربية وقد هالها وازعجتها هذه الهزيمة لايمكن ان تترك عام الهزيمة يمر

دون الانتقام وكان تدخل الاسبان واردا فى فكرة احمد المنصور .

وبالرغم من كل هذا بدات الوفود المختلفة من الرسل تصل إلى مراكش مهنئة بالانتصار حاملة معها الهدايا وكان أولها من باشا الجزائر حيث انه ما ان استقر حكم المنصور بالمغرب حتى ارسل السلطان مراد الثالث العثمانى وسائر الممالك الاسلامية المجاورة للمغرب تهنئة بالانتصار فى معركة القصر الكسير وقد استقبل الخليفة السعدى وفود التهنئة من تركيا والجزائر واسبانيا والبرتغال وفرنسا وملكة انجلترا وسفرائهم وغيرها من الدول .

وكانت اليزابيث ملكة انجلترا توافقه لان تواصل التبادل بالسلاح مقابل ملح البارود المراكشى فقد ارسلت سفيرا لها. وكان السفير التركى أقل الجميع نصيبا من الترحيب والود اذ ظل ينتظر المقا لة وقتا طويلا ومن هنا فان الخليفة المنصور لم يحسن استقبال وفد تركيا ولم يرد على رسالة مراد الثالث مما جعل السلطان مراد لاينسى هذه الاهانة لان رسالة السلطان كانت بشأن تبعية المغرب للامبراطورية العثمانية كما ان هذا الاهمال والتصرف من جانب المنصور قد اثار خفيظه وحنق على علوج وزير البحر التركى .

وعلى هذا فان الخليفة المنصور لا يزال حاكما قويا مكتنه بعض الاجراءات ان يظهر حزما ادى إلى تقوية مركزة قبل ان تمضى فترة طويلة على توليه حكم البلاد اصبح مركزه على العرش قويا إلى حد لم يعد هناك ما يهتم به او يخشاه ولم تكن الشئون الخارجية اقل من ذلك اثرا اذ بدت الايام دون اى هجوم او تحرش بالمغرب من اى جهة سوى حملة فاشلة تركية استدعاهما مراد الثالث قبل ان تصل إلى هدفها فى مراكش بعد ان كان على علوج قد نجح فى ايغاد صدر السلطان التركى وامر بارسال حملة لمنازلة المنصور. وقد بلغ الخبر الخليفة السعدى بانه اتجه إلى فاس وشحن الثغور

واستعد للحرب وارسل هدية عظيمة إلى السلطان العثمانى واعتذر عما بدر منه فى حق رسول السلطان ووصول رسول المنصور إلى تركيا ونجح فى ازالة النفور من صدر الخليفة فقبل السلطان مراد الثالث اعتذار المنصور وتقبل هديته وصدرت أوامر السلطان بالرجوع عن حرب المنصور وقد استطاع المنصور بحنكته السياسية وحسن تدبيره ان يحافظ على استقلال بلاده. ومن ثم فان المنصور قد ادرك ان خطر الاعتداء الخارجى الاجنبى قد أصبح اقل مما كان يظنه واصبح المنصور قادرا على ان يتمتع بثمرات النصر بتحصيله الفدية عن الاسرى والتى حاول كتاب الغرب ان يضفى عليها نوعا من الثراء الفاحش الذى ظلت خزائن المنصور الشريف تفيض بالذهب الاجنبى عدة سنين (التير والذهب كان يتحصل عليه من بلاد السودان الغربى) ولقد فاض الذهب عن حاجة المغاربة وقدمت منه عطاءات وديون لملك فرنسا والدوق انطونيو المطالب بعرش البرتغال والذى اعطى كل ما كان يريده بفضل الحاح الملكة اليزابيث ملكة انجلترا .

ولقد اولى المنصور اهتماما بالميادين التجارية فاحتكر الصناعة واخرج من صناعة السكر كل من كان يعمل بها من غير المغاربة وقاوم التهريب واستغل ارباح السكر الذى كانت اوروبا تقبل على استيراده فى اثراء البلاد وجمع الضرائب وبعث بجنوده يجمعونها بكل نشاط .

واذا كانت بعض الثورات قد واجهته من بعض اعضاء البيت السعدى او زعماء القبائل الا ان ذلك لم ينقص من سيادة السلطان وامساكه بمقاليد الامور بحزم وقوة لاسيما وانه قام بالقضاء على ثورة الناصر الذى بدعى بالعرش فى عام ١٥٩٥م فى اقليم الاطلسى اذ انتهت ثورته بهروبه إلى اسبانيا عام ١٥٩٦م .

وقد اضاف سمة حضارية على العاصمة مراكش اذ جعل منها مدينة اكثر تقدما ورفاهية وفخامة اكثر مما كانت ايام الموحدين كما فعل اخوه الغالب من قبل، فاقام

كثيرا من المنشآت التى دعا لاقامتها مهرة الصناع والمهندسين من جميع البلاد الاسلامية وكانت حفلات استقبال السفرا الاجانب تفوق حد التصور فى فخامتها فقد استقبل عام ١٥٧٩م الامير جوان مبعوث ملك اسبانيا فى موكب ضخم وفخم حيث اصطف لتحيته المئات من حملة الحراب والفرسان على رؤوسهم القبعات المزينة بالريش الطويل وكان السلطان جالسا فى البهو على جاشية من الحرير بينما زين جدران القصر بتحف ثمينة ويحف به ثمانية من القضاة. وقد استفاد المنصور من الاتراك نظامهم الحربى فكان الجيش مكونا من اعداد الاسرى الذين كان حكام الاقاليم يرسلونهم اليه سنويا على ان يقوم رجال الجيش الاخصائيون فى التدريبات العسكرية على تدريبهم وقف قواعد عسكرية ونظامية دقيقة ويلقنونهم الولاء للسلطان وللعرش السعدى والموت دون السلطان والبلاد .

وتركز اسراف السلطان احمد المنصور الشخصى فى بناء قصر كبير متسع فخم كبير فى مراكش استخدم فيه الالاف من البنابين والعمال والمهندسين وقدمت السفن الكثيرة تحمل من الهند اثمن مواد الشرق لتزينه وامدته ايطاليا وايرلندا بالرخام اللازم لالاف الاعمدة حيث ذكر اليفرانى ان الايرلنديين كانوا يبادلون الرخام فى مراكش بما يوازى ثقله ووزنه من السكر واحيط القصر بحدائق واسعه تتناسب مع فخامة السلطان حتى اصبح قصر البديع كما اطلق عليه والذى اكتمل بناؤه بعد ست سنوات من المعركة (القصر الكبير) فى مظهر من الروعه والابهة التى لاتضارع لكن عند التنازع على العرش قام السلطان مولاى اسماعيل عام ١٧٠٧م بتدمير قصر البديع هذا الذى بناه احمد المنصور (ومولاى اسماعيل هذا هو المظفر بالله اسماعيل بن الشريف على المللقب بالنصر وهو من الاسرة العلوية وقد حكم البلاد فى الفترة عام ١٦٨٢ حتى ١٧٢٧م) .

وبالرغم من علاقات احمد المنصور الشريف بجيرانه ظلت علاقات صداقة الا ان الاستعدادات الحربية ظلت تشكل حاجة ملحة فالاتراك كانوا لازالوا يكنون العداء للاسرة السعدية التى حالت بينهم وبين ضم المغرب الاقصى لامبراطوريتهم العثمانية والقوى الاوربية المسيحية اعداء دائمون للاسلام لايوثق بهم مطلقا وكان فيليب الثانى ملك اسبانيا لايكف عن الالحاح بالمطالبة بميناء العرائش الصغير التى تطل على المحيط الاطلسى وهو الحارس الطبيعى للطريق الغربى المؤدى إلى المضيق وكذلك كانت عيون الاتراك والفرنسين والهولندين ترقب بحذر اى منها يفوز بهذا الميناء فقد كانوا جميعا يتمنون الاستيلاء عليه واكثر من ذلك فان انجلترا كانت لديها المخطط للاستيلاء على موانى فى جنوب المغرب حيث مناطق انتاج السكر الذى كانت انجلترا فى امس الحاجة اليه نظرا لانه مادة تجارتها مع المغاربة .

ومن هنا فانه تحت كل هذه الظروف استمرت رغبة المنصور الدائمة فى ان يكون جيشه قويا وعلى اهبة الاستعداد دائما للدفاع عن البلاد ضد اى هجوم خارجى لاسيما وانه كان يحصل على السلاح الذى يحتاجه من اليزابث ملكة انجلترا وهى الملكة المسيحية الوحيدة التى كانت تتحدى الحظر البابوى على التجارة مع المسلمين فى المواد الحربية وكانت اوربا فى ذلك الوقت بناء على تعليمات البابوية تعتبر مجرد تحالف او متاجرة فى السلاح من قبل ملك مسيحى مع ملك مسلم خيانة كبرى للعالم المسيحى يستحق الملك الذى يخرق هذه الاوامر القتل ولايعفو له ابدا من البابوية التى كانت تصدر صكوك الغفران فى ذلك الوقت لكن ملكة انجلترا والتى كانت فى امس الحاجة إلى ملح البارود اللازم لصنع الذخيرة والذى كان لايوجد الا فقط عند المغاربة والتى كانت الظروف تحتم عليها التجارة مع المغاربة، قد حاولت دائما اخفاء دورها فى هذه التجارة غير المشروعة مع العالم الاسلامى ولقد تحطم جيش اوربا بقيادة

ملك البرتغال دون سياستيان فى موقعة القصر الكبير بواسطة الاسلحة الانجليزية التى كانت ترسلها ملكة انجلترا للمغاربة وثارت حفيظة فيليب الثانى ملك اسبانيا عندما علم بذلك واعترض بشدة عندما علم برغبة البزايت ملكة انجلترا فى تقوية العلاقات التجارية مع السلطان السعدى احمد المنصور إلى حدان الشريف السعدى اضطر إلى رفض طلبها ترضيه لملك اسبانيا ولكن عودة التجارة كانت رغبة ملحه فى الحصول على ملح البارود. ولم يمض وقت طويل حتى علمت اسبانيا والعالم المسيحى ان المغاربة يحصلون على حاجتهم من السلاح والمدافع والسفن الحربية واشرعتها وخشب السفن من انجلترا التى توسعت فى تجارتها مع المغاربة .

ولما احس احمد المنصور بقوة نفوذه فى البلاد فقد عمل على اختيار ابنه محمد الشيخ وليا للعهد خلفا له من بعده ليكون خليفة البلاد فاثار ذلك سخط ابن اخيه الذى من ام تركية وهو داود بن عبد المؤمن الذى كان والده يحكم تلمسان من قبل الاتراك وكان له دور كبير فى عودة عبد المالك إلى عرش المغرب لاسيما ان أباه كان رفيق المنصور فى رحلته إلى الجزائر او تركيا فقام بثورة ضد عمه على الرغم من قيام ابيه وهو نفسه بخدمات لعبد المالك والمنصور لكن المنصور استطاع القضاء على ثورته عام ٩٨٨هـ وانتهى امر ثورته، كذلك فان المنصور ارسل حملات حربية إلى عرب الخلط نظرا لخروجهم على الشرعية فى مراكش وتكل بهم وقضى على ثورة بلاد غمارة كذلك كانت اخطر الثورات ثورة ابن اخيه الناصر بن عبد الله الغالب شقيق محمد المتوكل وثورة ابنه وولى عهده محمد الشيخ حاكم مدينة فاس وكان وراء ثورة الناصر ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان يؤيده ويقدم له كل عون ممكن، لكن المنصور استطاع القضاء على هذه الثورة عام ١٠٠٥هـ .

وقد برزت فى عصر المنصور اهم النظم الادارية اذ انه اعتمد فى ادارة البلاد على مجلس الشورى الذى كان يتكون من اثنى عشر عضوا يتم اختيارهم من عليه القوم وكبار رجال الجيش والقصر وحكام الاقاليم ويتلخص هذا النظام فى انه جعل الحكومة السعدية الشريفة مكونة من اتحاد القبائل يديرها جهاز حكام وهى التى توزع الارض وتفرض الضرائب وتتكون من الوزراء ورجال القصر والحكام وسادت البلاد مظاهر التحضر فى مختلف مرافق الدولة ومجالاتها، كما ان المنصور قد انشأ الكثير من المدارس ومعاهد العلم والمستشفيات والقناطر والحصون والقلاع والطرق وفى عهده تم تأسس العديد من المدن وتوسعه القديم منها واضافة احياء جديدة اليه فى شتى انحاء الامبراطورية المغربية .

ويعد عصر المنصور من أعظم عصور الحكام السعدين لما قام به وفعله طوال مدة حكمه التى امتدت اكثر من ستة وعشرين عاما مما ساعده على ان تكون المشروعات متكاملة نظرا لطوال فترة حكمه ولقد ازدهرت العلوم والفنون والثقافة والحضارة وترك مظاهر حضارية امتدت بعد فترة حكمه على مدى سنين طويلة .

لكن رغم هذه الانجازات الا ان التداخلات الخارجية فى شئون المغرب ومحاولة النيل من البلاد وحاكمها الشريف احمد المنصور لم تتوقف فالاتراك من جانبهم لاينفكون يساعدون احد امراء البيت السعدى كلما لاحت له الفرصة فكما ساعدوا ابن اخيه اسماعيل بن عبد المالك فى المطالبة بالعرش فانهم هذه المرة يدفعون ابنه وولى عهده محمد الشيخ وربما كانت هناك جهات اخرى تساعده ولقد كانت ثورة محمد الشيخ من الخطورة ولقد قدر لهذه الثورة النجاح نظرا للمساعدة الكبيرة التى قدمها الاتراك له ومحاولة تدخلهم فى شئون المغرب لاسيما وان محمد الشيخ لم يكن محبوبا من عامة الشعب ورجال الحل والعقد نظرا لانه لم يكن يسلك السلوك

الاسلامى فقد قام بوضع السم لوزير ابيه ابراهيم السيفانى، ولم يكترث باوامر ابيه المنصور حول ضرورة التوجه اليه فى فاس وتوجه إلى تلمسان للاستعانة بالاتراك وبلغها فعلا، لكن الابن كان يريد عرش المغرب بعد ان توسع حكمه فبلغ سجلماسة ودرعه وفاس ومعظم الاقاليم الجنوبية ولما راى المنصور ان شوكة ابنه قد باتت تهدد العرش ونظام الحكم فى البلاد خرج اليه سرا فى قوة مكونة من اثنى عشر جنديا وقبض عليه فى فاس واودعه سجن مكناسة وانتهت ثورة محمد الشيخ المامون عام ١٠١١هـ/ ١٦٠٢م وقبل وفاة المنصور بستة اعوام (توفى المنصور عام ١٦٠٨م) .

كذلك فان اسبانيا فى عهد فيليب الثانى كانت ترى خطورة كبيرة على امنها فى قوة احمد المنصور الشريف لاسيما ان الاسلحة كانت لاتزال تصل اليه من انجلترا رغم القرارات البابوية بمنع التجارة فى السلاح مع الدول الاجنبية (الاسلامية) لذا فانه عمل على شغل المنصور عن التفكير فى مساعدة المورسكين الاندلسين او التعاون مع انجلترا بشان ولى عهد البرتغال والصراع بين الكاثوليك والبروتستانت فاطلق سراح المنصور بن عبد الله الغالب وامدة بالسلاح والعون والرجال وشجعه على القيام بالثورة والقضاء على الحكم فى البلاد .

وقد كان هذا التدخل ردا على مساعدة المنصور لملكة انجلترا اليزابت والمطالبة بعرش البرتغال بعد ان ضم ملك اسبانيا البرتغال لملكه بعد معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وبالتحديد عام ١٥٨١م ولكن احمد المنصور استطاع اخضاع ثورة الناصر بعد ان اشتعلت فى البلاد المغربية طوال اكثر من عامين والصراع على اشدة، ولكن يتنازل ملك البرتغال عن مدينة اصيلا جعلت المنصور يبتعد عن مؤازرة ملكة بريطانيا وولى عهد البرتغال المطالب بالعرش البرتغالى (دون انطونيو) وكانت سياسة المهادنة مع القوى الخارجية وبخاصة الدول المسيحية قد حققت للمنصور الكثير من الاستقرار والمكاسب

مما جعله يفكر فى التوسع جنوبا فى بلاد السودان واكتساب الصحراء وذلك بعد ان تعلل المنصور بضرورة الجهاد جنوبا لقطع الطريق على البرتغالين والاسبان والقوى الاوربية الاخرى التى بدات تتدخل فى السيطرة على افريقيا وبعد ان تعذر العودة إلى الاندلس مرة اخرى ومساعدة المسلمين الاندلسين فى استعادة حقوقهم وكان المنصور على حق لمحاصرة المد المسيحى فى افريقيا وليس منعللا بذلك الهدف فهو على حق كل الحق فى ارسال حملاته العسكرية إلى بلاد السودان لمنع محاصرة الدول الاوربية له من الجنوب لاسيما وان الاسلام قد انتشر وتوسع فى حوض نهر النيجر حيال مملكة سنغاى ومالى وبعض الامارات الاسلامية الاخرى كامارات بلاد الهوسا السبع وبرنو وكانم وغيرها من الامارات الاسلامية التى كانت ترتبط بعلاقات اقتصادية وثقافية ودبلوماسية مع بلاد المغرب فمن هنا عملت مراكش على نشر الثقافة الاسلامية منها وانتشرت مع حركة الاسلام الواسعة فى هذه الانحاء معظم الحضارة العربية الاسلامية (انظر سلطنة البرتو الاسلامية رسالة ماجستير للمؤلف، ١٩٧٥) (السياسية الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية، رسالة دكتوراه للمؤلف، ١٩٨٣) .

كذلك فان المنصور وقد كان يرى انه القرشى كريم الدوحة النبوية الفاطمية العلوية الحسينية احق بالخلافة الاسلامية فى العالم الاسلامى كله مشرقا ومغربا دون الاتراك العثمانين العجم ومن هنا كانت انظاره تتجه إلى بلاد الشرق للدعوة بخلافته وكسر الطوق الذى تحاول الخلافة التركية العثمانية فرصه حوله لمحاولة احتوائه كبقية بلاد المغرب الاسلامى ولذلك فان المنصور احمد لم يكتف بما وصلت اليه دولته من اتساع فى بلاد السودان الغربى انما اتجه نحو بلاد الشرق الاسلامى لمناوأة الاتراك والدعوة للخلافة السعدية التركية لانه كان يرى انه اولى بالخلافة الاسلامية بدلا من سلاطين الاتراك نظرا لانهم من الاعاجم وليس لهم سلالة وصلة بالنسب العربى او

القرشى او الهاشمى وارسل احمد المنصور رجاله داعين له للتبشير بخلافته إلى بلاد الشام والحجاز ومصر ولتوثيق علاقاته مع رجال الدين فى هذه البلاد وعلمائها وكذلك بعض البيوتات (بيوت) المشهورة المعروفة والشخصيات البارزة فى المجال السياسى والدينى فى الشرق الاسلامى وبصفة خاصة فى الديار المغربية حيث راسل العديد من المشايخ لاسيما وان المنصور منذ فتح بلاد السودان الغربى (سنغاى) قد بدأ يفكر فى وضع يده على الطرق التجارية الرئيسية فى افريقيا وخاصة مع بلاد برتو والهوسا والكانم وغيرها من السلطنات لكن الاحداث الداخلية والمؤمرات التى ايدها الاتراك وفيليب الثانى ملك اسبانيا ضد الدولة السعدية جعلت المنصور يكون مشغولا عن تنفيذ افكاره بالنسبة لبلاد المشرق ويتجه لمحاربة المؤامرات التى دبرها ضده ملك اسبانيا، ومن ثم اتجه إلى اقامة تحالف وعقد معاهدات مع ملكة انجلترا اليزابث ضد اسبانيا لاسيما بعد تحطيم الاسطول الاسبانى مع معركة الرمادا لغزو اسبانيا فى عقر دارها وفعلا كاد ان يتم هذا التحالف بين انجلترا والمغرب الاسلامى لولا ان اليزابث ملكة انجلترا وهى الملكة المسيحية (٥٥٧هـ-١٦٠٢م) لايمكن ان تكون السبب فى تمكين حاكم مسلم مهما كانت درجة صداقته وتعاونه ومهما تكن الاسباب وتسمح له باحتلال بلاد مسيحية لان ذلك خيانة كبرى فى عرف العالم الغربى المسيحى فى حين كان ذلك العكس بالنسبة لبعض الملوك الذين كانوا يستعينون بحكام الغرب المسيحين لاحتلال بلادهم بطرد حاكم ووضع حاكم آخر بدلا منه .

ومن هنا يجب ان نلاحظ سلوك حكام المسيحية وسلوك حكام المسلمين فى الاستعانة بالمسيحين على حساب الاتراك المسلمين اخوانهم فى العقيدة من اجل البقاء فى الحكم او الاستيلاء على مقاليد البلاد نظير التنازل عن ديار الاسلام للملوك المسيحيين فى اوربا .

ولكن انجلترا بدلا من ان تساعد احمد المنصور على غزو اسبانيا والعودة بالمسلمين إلى ديارهم رات ان توجهه وجهة اخرى بعيدا عن اسبانيا والغرب وذلك بان يقوم المنصور بغزو مستعمرات اسبانيا فى العالم الجديد وافريقيا وبلاد الشرق الاقصى بدلا من غزو اسبانيا نفسها وكذلك كانت ثورة ابنه محمد الشيخ سببا فى عدم تفكيره فى الغزو الخارجى حيث مات بعد القضاء على ثورة ابنه .

وكانت العلاقات التركية المغربية وقد تحسنت تحسنا ملحوظا فى عهد احمد المنصور واستمرت الرسائل متبادلة وازاء تحسن العلاقات فان احمد المنصور وجد الفرصة سانحة امامه للانطلاق بسياسته الخارجية واعادة علاقاته مع الاسبان للحصول على مكاسب له بعد تدخله فى قضية العرش البرتغالى وكانت مسالمة الاتراك وآمن خطرهم عاملا قويا فى ممارسة سياسة التوسع فى بلاد السودان الغربى .

لكن يقع على التوجه السياسى التركى بعد معركة القصر الكبير يقع عليها العبء الاكبر فى عدم استفادة المغرب من انتصاره الكبير اذ ان العلاقات المغربية التركية لو كانت بالصورة السوية العادية لحقق المغرب مكاسب كثيرة من جراء هذا الانتصار ومنه اولا تحرير الثغور المغربية المحتله ولكنها لم تكن متعاونة ومتضامنة، وكانت حالة الحرب الطويلة بين الاتراك والفرس عاملا قويا فى درء خطر الاتراك عن المغرب حيث كانت هذه الحروب منهكة للقوى التركية حتى اصبح من الواضح انه لا خطر على البلاد من قيام مغامرة تركية جديدة لغزو بلاده، كذلك فان عرش اسبانيا والبرتغال لم تكن لهما الخطورة التى كان يظن فيها المنصور احمد لاسيما ان اسبانيا تواجه الثورة فى الاراضى الواطئة (المنخفضة) هولندا وكذلك واجه فيليب الثانى ملك اسبانيا الحرب مع اليزابث ملكة انجلترا. لذا لم يكن احمد المنصور يخشى اسبانياا كثر من الاتراك .

ازاء كل هذه الاحداث لاسيما انه عقد حلفا مع اسبانيا وملك فارس (ايران) ضد تركيا فانه وجد نفسه لابد ان يحقق حلمه فى تكوين امبراطورية مغربية واسعة ولانفاذ اخوة الاسلام جنوب الصحراء الكبرى من الوقوع فى قبضة القوى الاوربية المستعمرة التى اتخذت لها مراكز على ساحل افريقيا الغربى وصولا إلى جنوب افريقيا ولمنع حصاره من الجنوب وبناء خلافة اسلامية فكان مخططه من اجل استخدام جيشه لغزو بلاد السودان الغربى وان يستولى على هذه الديار ويقيم كيانا اسلاميا واحدا تحت رايته الشريفة القرشية حيث كان هو الوحيد الذى يحق له استخدام لقب امير المومنين وليس الاسكيا داود واسحق اسكيا سنغاى الذى تلقب بلقب امير المؤمنين ولم يكن وراء هذا الغزو كما حاولت كتب الغرب ان تصور الغزو من اجل جلب ثروة الذهب والوصول إلى مصادر هذا المعدن النفيس او تجارة الرقيق لكن المنصور صمم على الوصول إلى بلاد السودان وكانت مخاطرة جيش المغرب فى اختراق الطرق الصحرواية الصعبة حيث كانت فى فكر العديد من رجال الحكم والمجلس الاستشارى المغربى ان الغزو لهذه البلاد البعيدة التى لم يفكر احد من رجالات الحكم السابق فى الدولة المرابطية او الموحدية او المرينية او الفتوحات الاسلامية الوصول إلى تلك الديار حيث ارسال حملة كبيرة لم يكن الا نوعا من الجنون الذى لاطائل وراءه سوى اهلاك القوات المغربية عبر الطرق الطويلة الصعبة الاختراق وحيث المسافات البعيدة الطويلة وقلة المياه وندرتها وعدم وجود المحطات التى تتوقف عندها الحملة للراحة والتزود بالطعام والماء، لكن المنصور كان قد فكر فى المخاطرة واعد لها عدتها ووزنها وقدر كل حساباتها وتم اختيار قائد هذه القوات وتم الاعداد والتجهيز واختيار عناصر الحملة وتم حشد المؤن والعتاد واختيار الادلاء الذين خبروا الطرق الصحراوية ووصلوا إلى بلاد سنغاى من قبل وكان لهم اتصال بسكانها وسلاطينها وتجاروا من قبل معها وعرف مخاطر الطرق وكيفية التغلب عليها وملاقاة الصعاب واجتيار المخاطر واعد للامر عدته واتخذت

الخطوات الفعلية لانطلاق الحملة إلى غاياتها المرسومة التى لم يكن بد من المجلس الاستشارى ان يوافق على خطة احمد المنصور لغزو بلاد السودان الغربى (سنغاى) فكانت حملة احمد المنصور السعدى لغزو بلاد سنغاوى الاسلامية جنوب الصحراء الكبرى وقيام كيان اسلامى كبير يشمل هذه البلاد .

الفصل الخامس

احمد المنصور الذهبى وفتح بلاد السودان الغربى

«سلطنة سنغاى الاسلامية»

انتشر الاسلام فى بلاد جنوب الصحراء الكبرى منذ القرن الاول الهجرى بل ان هناك اقوال تذكر ان عقبة بن نافع القهرى عام ٥٠هـ قد وصل جنوبا حتى وادان، لكن الانتشار الواسع والمكثف للاسلام كان فى القرن الثالث الهجرى حيث بدات تظهر امارات اسلامية بالقرب من نهر السنغال ونهر النيجر وكان رجال الطوارق البربرية يتقدمون جنوبا فى هذه المناطق للتجارة والرعى مما ساعد على انتشار الدين الاسلامى واعتنقه السواد الاعظم من سكان تلك المناطق وظهرت سلطنات اسلامية (اودغست، غانا، مالى، كانم، برنو، الهوسا، كبيى، سلطة برنو الاسلامية، رسالة ماجستير للمؤلف عام ١٩٧٥ جامعة القاهرة) ومن ثم بدات هذه البلاد تتطلع إلى بلاد المغرب للاتصال بها حيث ان الطرق الصحراوية لم تكن تشكل عائقا يمنع وصول حركة التجارة والنقلة والترحال والتبادل التجارى والثقافى والعلمى .

ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية القرن السادس عشر ظهرت حركة الكشوف الجغرافية وما قامت به البرتغال واسبانيا فى هذا المجال واحتلال العديد من الثغور المغربية على ساحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى تامينا للوصول لبلاد القارة الافريقية ووصولا إلى بلاد الهند ومحاربة الاسلام والبحث عن مملكة الملك يوحنا الموجودة فى قلب افريقيا (الحبشة) للاتصال بها وعقد معاهدات معها لحصار البلاد الاسلامية وكانت فكرة الاستيلاء على بلاد غرب افريقيا والتوسع للداخل وصولا إلى مناطق الغابات بدلا من الارتكاز فى الساحل وحصار البلاد المغربية من الجنوب لاسيما بعد الانتصار الكبير الذى احرزه المغاربة فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م على

الجيش البرتغالى .

فكانت فكرة المنصور فى كسر الحصار من حوله والدخول إلى هذه الديار قبل ان تمتد اليها يد الاوربين رجال الاستعمار نهبا لمواردها وقطيعة لاهلها مع اخوانهم سكان المغرب وبقية بلاد العالم الاسلامى (قطع الاستعمار كل صلة مع هذه الاقطار وبلاد العالم الاسلامى عندما احتلها وسيطر عليها) .

ولقد ارتبطت اكبر هذه السلطنات واهمها فى القرن السادس عشر الميلادى وهى سلطنة سنغاى (راجع رسالة الدكتوراة للمؤلف بعنوان السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية ١٩٨٣) ولقد كان الاتصال مع بلاد المغرب يتم عبر الطرق الصحراوية. وقد اتصل سلاطين سنغاى (تقع على ثنيه نهر النيجر وتمتد غربا حتى المحيط الاطلسى) بسلاطين المغرب وخاصة خلفاء الدولة السعدية بعلاقات من المودة والصداقة. بل ان هذه العلاقات السودانية المغربية ترجع إلى عهد بعيد ذلك لان شعوب المغرب كانت اكثر الشعوب الاسلامية اتصالا بسنغاى وبقية بلاد السودان الغربى ومع نهاية القرن الخامس عشر الميلادى وبداية السادس عشر وقعت احداث خطيرة بين السعدين فى مراكش وسلاطين سنغاى جعلت السعدين ينظرون إلى سلاطين سنغاى بعين الريبة والشك وخاصة بعد ان اتخذ الاسكيا محمد الكبير لقب امير المؤمنين فقد كان هذا مصدر ازعاج للسعدين الذين كانوا يرون ان هذا اللقب حق لهم وحدهم فى المنطقة لانهم سلالة الدوحة النبوية الشريفة وليس فى افريقيا والمغرب وبلاد السودان ولكن فى كل العالم الاسلامى فهم احق بها من الاتراك العثمانين لانهم عرب اشراف وان اتخاد الاسكيا لهذا اللقب منافسة لهم فى الزعامة الروحية فى افريقيا وانه بذلك يتحدى مركزهم الروحى والسياسى، بل انهم كانوا يرفضون الدعاء للسلطان العثمانى بالخلافة ومن ثم اعتبروا حاكم سلطنة سنغاى الاسلامية معزولا شرعيا ما لم يوافق فى

الدخول فى طاعتهم والاعتراف بخلافتهم القرشية .

لذا فان العلاقات بين البلدين بدات تسوء منذ عهد السلطان السعدى الثانى احمد الاعرج والاسيكا اسحق الاول سلطان سنغاى (١٥٤٣– ١٥٤٩م) وقد يكون هذا هو جوهر الخلاف وليس الذهب ومصادرة تكوين امبراطورية ونهب ثروات بلاد السودان التى كان دائما يروج لها كتاب الغرب المعادون لادنى تقارب اسلامى او تكوين وحدة اسلامية ويؤولون هذا التقارب بما يروق لهم. وتحقيق اهدافهم ويباعد بين بلاد الوطن الاسلامى الواحد لكن مراسلات تمت بين السلطان احمد الاعرج وبين السلطان اسحق وكان هذا اول اتصال مباشر بين سلاطين المغرب السعدين وسلاطين سنغاى فى عهد اسرة الاساكى ومن هنا فقد جرى تبادل الوفود حين اختلاف المصالح مراعاة للاخوة الاسلامية والشعور الاسلامى، لكن السعدين كانوا فى حقيقة الامر يسعون ايضا إلى بعض الموارد المالية لمواجهة الاخطار التى تحدق بالبلاد لاسيما ان السلطان احمد الاعرج كان لم يفرغ بعد من تصفية مشاكله مع بنى وطاس حكام المغرب والامارات المستغلة والجيوب الاستعمارية الايبيرية فى المغرب وكان لايزال يحكم فى بلاد الجنوب حيث مملكة السوس قبل دخول فاس لذا نجد احمد الاعرج السلطان الثانى فى سلسلة سلاطين البيت السعدى يكاتب الاسكيا اسحق الاول فى ان يسلم له ملاحات تغازه وكانت ملاحات تغازه هى المصدر الرئيسى للملح الذى تحتاج اليه بلاد السودان وكان فى هذه المنطقة مخزن كبير للملح يحفر اليه وهو هنا اثمن من الذهب والمرمر وكان الملح يحمل على جمال إلى مدينة تمبكتو حيث يباع وزن الملح بوزنه ذهبا واحيانا اكثر من وزنه، وبالرغم من أن تغازه بعيدة عن السودان وقريبة من مراكش ولم يكن حكام فاس او مراكش يسيطرون عليها لان قبيلة مسوفة البربرية هم المسيطرون عليها وكانوا تابعين لسلطنة سنغاى الاسلامية، لكن احتلال تغازه كان بالنسبة

للمغاربة يعطيهم قدرا من التحكم فى اسواق الذهب ومن هذا كان ملح تغازه السبب الثانى بعد سبب الخلافة فى التدخل المغربى فى بلاد السودان اضافة إلى تكوين امبراطورية اسلامية ودرءا الخطر الاوربى عن ديار الاسلام والمسلمين .

لذا فاننا نجد فى عام ١٥٤٦م ٩٥٣هـ حاول محمد الشيخ والد المنصور ٩٥١-٩٦٥هـ أن يحمل اسكيا اسحق سلطان سنغاى على ان يتنازل عن مناجم الملح لكن الاسكيا اسحق رفض الطلب للمرة الثانية بعد ان رفضه لاخيه احمد الاعراج ولكن محمد الشيخ كان قد فرغ من حروبه الداخلية واستقر له امر المغرب فانه وجه اهتمامه إلى ما يدور على حدود المغرب الجنوبية والتى كان فى نظرة انه يجب على الاسكيا سلطان سنغاى ان يتنازل عن ملاحات تغازه لصالح المغرب على اعتبار انها اقرب للمغرب منها إلى بلاد السودان لكن هذه المرة كان رد سلطان سنغاى التحدى لسلطان المغرب اذ تمثل فى ارسال سرية من جنود الطوارق وامرهم بالاغارة على درعه حتى يصلوا إلى اسوار مراكش ان تمكنوا من ذلك وان يصلوا إلى سفوح جبال اطلس فى المغرب ثم إلى سجلماسة وامرهم ان يسلبوا منها اكبر مايستطعون وان يصعدوا حتى ابواب مدينه مراكش اذا امكنهم ذلك. ولكن المغيرين لم يتجاوزوا درعه وبالرغم من انهم سببوا خسارة جسيمة فانهم كانوا حريصين على ان لايقتلوا احدا ويبدو ان اسحق قد امر بهذا الامر غير العادى لانه لم يرغب فى ان يثير حربا مع الشريف السعدى ونجح فى ذلك .

وبعد عشر سنوات جاء انتقام مولاى محمد الشيخ قاسيا وشديدا فقد اوعز إلى قائدة الفلالى الزبيرى ومره ان يقتل حاكم تغازه فقتله مع الطوارق الذين كانوا يقدمون باستخراج الملح من تغازه ومن ثم فقد اختار سلطان سنغاى مكانا آخر غير تغازه لاستخراج الملح بدلا من تغازه يسمى تغازه الغزلان .

وبالرغم من ان المغاربة لم يكن لهم سبب للخوف على تجارتهم مع السودان من التوقت فان امتلاك تغازه كان يعطى المغاربة التحكم فى مصدر الملح والحصول على كميات كبيرة من الذهب .

وعندما ارتقى احمد المنصور الشريف عرش المغرب عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م كان اسكيا اسحق لايزال حيا لكن اسكيا داود خلفه بعد ذلك بقليل وكان قدر المغاربة قد وصل إلى القمة بعد انتصارهم الباهر فى معركة القصر الكبير وكان على المنصور ان يولى امر ملح تغازه اهمتاما اكبر بعد ان فرغ من قتال النصارى واخذت أوضاع المغرب الداخلية والخارجية تعرف نوعا من التحسن والاستقرار وثم الصلح مع الاتراك وذلك عن طريق السفارات والهدايا وكذلك امن جانب الاسبان وخطرهم فوجه اهتمامه إلى بلاد السودان بعد ان أصبح التوسع فى البلاد المجاورة امرا بعيد المنال وفى ذاكرته، كان محمد الشيخ والدة قد سبقه اليه وهو التوسع جنوبا واحتلال مواقع استراتيجية هامه فى الصحراء المغربية تشهر بواحاتها ومعادنها واهميتها فى المواصلات ومن ثم يتم اتخاذ هذه القواعد نقاط ارتكاز للتوسع فيما جاورها من بلاد السودان ولتأسيس امبراطورية مغربية فى هذه الانحاء وضم الديار الاسلامية فى وحدة واحدة .

وراى الخليفة المنصور ان الامر يستحق محاولة القيام ببعض الخطوات فى هذا الشان فاقترح على الاسكيا داود حاكم سنغاى ان يترك له ملاحات تغازه عام واحد ولعل الاسكيا ادرك قوة سلطان المغرب وانه قادر على احتلال تغازه فاتفق معه على ذلك ووضعا اساس علاقات صداقة بين الدولتين .

وكان الشريف المنصور عندما صعد لحكم بلاده لايزال شابا نشيطا طموحا نظم المملكة وكان من أهم انجازاته انه نظم الجيش المغربى وزوده باحدث الاسلحة وتدريبه على احدث اساليب القتال وتحت كل الظروف استمرت رغبة المنصور فى المحافظة على

جيشه دائما على اهبة الحرب والاستعداد ويزوال الخطر الاجنبى كان الشريف المنصور يخطط من اجل استعمال جيشه فى عمليات عسكرية جديدة فصمم ان يغزو السودان واستخدم اولا اسلوب الدبلوماسية والمهادنه فارسل سفيرا له إلى السلطان الجديد الحاج محمد خليفة داود يحمل معه هدايا ثمينة فقوبل السفير المغربى بحفاوة كبيرة ورد بهدية قيمة. ولقد اعتقد سلطان سنغاى انها مجرد استطلاع حربى والوقوف على حالة البلاد وهكذا كان التمهيد للغزو بالطرق الدبلوماسية، ولقد كان السلطان السودانى يعمل على عدم الصدام مع المغرب ويرى ضرورة مسالمة المغاربة مهما كلفه ذلك من ثمن، لكن الخليفة المنصور السعدى كان قد عقد العزم على تجهيز القوات لفتح واحات قوات وتكوراين على ان تكون محطات ينطلق منها الجيش المغربى لفتح بلاد السودان وهكذا بدا رسم خطة غزو السودان بعد احتلال هاتين الواحتين وبعد ان جرب امكانية تحرك اعداد كبيرة من القوات عبر الصحراء. وقد كانت هذه الحملة هى الغزوة الأولى لفتح السودان .

وجاءت الخطوة الثانية بعد وفاة السلطان داود صديقه فى عام ٩٩٠هـ/ ١٥٨٢م والذى كانت تربطه روابط حسنة بالمنصور فارسل المنصور وفدا إلى جاو عاصمة البلاد عام ٩٩١هـ/ ١٥٨٣م ومعه هدية قيمة ولتقديم واجب التعازى وتهنئة السلطان الجديد ثم الاطلاع على احوال البلاد كلها، ودار الحديث حول ملاحات تغازة لكن سلطان سنغاى اكد للوفد المغربى عدم تنازله عن ملاحات الملح فى تغازة .

وانه لم يطل الوقت بعد عودة سفير المنصور إلى المغرب حتى وصلت الاخبار إلى عاصمة بلاد السودان عن جيش مغربى قوامه عشرين الف خرج يقصد بلاد السودان وان قائده قد امر ان يتبع طريقا دائرية عبر واداان فى جنوب شرق موريتانيا ومنها إلى بلاد السنغال ليستولى على كل المدن التى يستطيع الاستيلاءعليها ثم يهاجم تمبكتو

اكبر المدن فى سنغاى بعد ان كان المنصور قد قرر ان يحسم النزاع عسكريا لاحتلال الملاحات المذكورة ومهد لذلك بالسيطرة على جميع المناطق الصحراوية الساحلية الممتدة من سوس إلى بلاد السودان واصبحت ظروف المنصور بعد السيطرة والتحكم فى المنفذين درعة شمالا ونهر السنغال جنوبا وقد تمكنت الحملة من المنافذ والطرق المؤدية اليها نحو بلاد السودان خبر مشجع ومساعد فى آن واحد على رسم سياسة توسعية بالسودان وخاصة ان حكام السنغاى قد رفضوا كل تفاهم حول ذلك الموضوع وهو ملاحات تغازة التى كانت حجة المنصور الظاهرة، فى حين كان بناء وحدة اسلامية قوية هو السبب غير المعلن حتى لايتعرض لمخاطر من جانب القوى الاوربية التى تعارض كل تقارب اسلامى منذ ذلك الوقت .

لذا وجه المنصور قوة عسكرية قوامها مائتا جندى مسلحين بالعتاد النارى الحديث لاحتلال تغازة وساعدت الظروف السلطان السعدى لتحقيق هدفه بوصول احد افراد الاسرة المالكة فى سنغاى وهو الامير على بن داود الذى يطلب مساعدة المنصور فى الوصول للحكم وطلب منه مساعدته العسكرية ضد اخيه الاسكيا اسحاق وكتب لذلك طلبا يطلب فيه كتابة من أمير المؤمنين الخليفة السعدى يرغب فيه امداده بالعساكر ليعود إلى عرشه بسنغاى لانه احق من اخيه اسحاق وكان المنصور قد مهد لمشروع الغزو بعدم تدخل سلطان برنو اثناء قدوم رسول تلك السلطنة إلى المغرب عام ٩٩٠هـ ١٥٨٢م بطلب العون من الخليفة المنصور (سلطنة برنو الاسلامية، رسالة ماجستير للمؤلف غير مطبوعة، جامعة القاهرة ١٩٧٥م) واعترف امير برنو بسلطة المنصور على الصحراء، وارسل المنصور إلى سلطان سنغاى يطالبه بالدخول فى طاعة الخلافة المغربية الشريفة اسوة بسلطان برنو واطلعه على طلب اخيه على بن داود الذى يطلب المساعدة العسكرية وفى هذه المراسلات اخذ يلوح له بامكانية مساعدة اخيه على الذى هو مستعد

لاعلان طاعة المنصور والاستجابة لمطالبه عند عودته إلى عرش سنغاى بدلا من الحاكم الحالى اسحق بن داود .

والذى يطلع على ما بذله المنصور فى الطريق السلمى وارسال صورة طلب على ابن داود بالمساعدة العسكرية يدرك تمام الادراك ان الهدف لم يكن طمعا فى ذهب او تكوين امبراطورية انما كان اعلانا بالطاعة والدخول فى ظل الخلافة السعدية الشريفة والانطواء فى وحدة اسلامية وان يكون هذا الاعتراف اسميا كما فعل امير برنو الذى لم تذهب الجيوش السعدية لاحتلال بلاده، لكن هكذا يحاول مؤرخو الغرب الاساءة إلى كل عمل اسلامى من شأنه ان يقوى روح الاسلام ويعمل على تضامن المسلمين ووحدتهم وتصوير الفتح من اجل السلب والنهب والحصول على الذهب والرقيق، تلك هى فريتهم على الاسلام فى كل للعصور اذ لماذا ارسل المنصور كل هذه الرسائل ما دام يريد ذهبا ورقيقا، انه كان يريد قيام وحدة اسلامية ومنع وقوع هذه البلاد فى قبضة المحتلين الغربين ذلك وان دخول هذه البلاد فى ايدى السعدين قد آخر استعمار الاوربى لاكثر من قرنين من الزمان حتى ضعفت السلطة السعدية فى هذه البلاد فوقعت فريسة فى ايدى القوى الاوربية الاستعمارية لاسيما الفرنسية والانجليزية ولقد تضافرت العديد من الاسباب لتساعد المنصور وتقنعه بارسال جيشة وقواته إلى هذه البلاد بعد ان فشلت جميع المحاولات لاطواء سنغاى تحت الولاية السعدية والاعتراف بدخولها فى طاعة الخليفة احمد المنصور السعدى .

ولكى يكسب حملته صفة الشرعية فانه استند إلى فتاوى العلماء المغاربة الذين اجازوا له التدخل حماية للاسلام وصونا للاراضى الاسلامية وعملا على الوحدة الاسلامية، كذلك فانه قام باستشارة عالمين كبيرين من علماء مصر هما ابو عبد الله محمد بن يحيى الشهير ببدر الدين القرافى والامام العارف بالله ابو عبد الله محمد

الشيخ ابى الحسن البكرى، من كبار علماء مصر فى هذا الوقت وقد اجازا له القيام بالحملة لفتح بلاد السودان وتوحيد البلاد الاسلامية فى ظل الخلافة السعدية الشريفة لذلك دعا الخليفة السعدى رجال دولته والوزراء والحكام وزعماء القبائل الكبيرة إلى اجتماع لكى يحصل فيه على موافقتهم على القيام بالحملة التى ينوى القيام بها فاخبرهم انه قرر ان يهاجم بلاد السودان من اجل ان يوحد قوة الاسلام تحت قائد واحد وخلافة واحدة ففتح السودان الغنى لكى يعطى القوة لجيوش الاسلام وفى ذلك رفع لروح المسلمين الحقيقية وكذلك قال لهم ان اسكيا اسحق صاحب سنغاى ليس قرشيا فليس له الحق فى ان يأخذ لقب امير المؤمنين او خليفة وقد ذكر لهم المنصور ان استغلال امكانيات وخيرات بلاد السودان سيدفع حركة الجهاد فى سبيل اعلاء كلمة الله وصد اعداء الاسلام ولانقاذ الاندلس وارجاعها إلى خطيرة الاسلام والمسلمين ولكى يستطيع المنصور ان يقوى جيشه ويمده بالاسلحة الحديثة والاستكثار من بناء السفن الحربية اللازمة للاسطول لغزو العدو فى عقر داره بالاندلس ذلك لان المنصور كان يرى ان الاسلام فى بلادهم فى خطر وان الجهاد اصبح واجبا مقدسا على المسلمين وان الدور العظيم للدولة السعدية لايقف عند حد التصدى للقوى البرتغالية والاسبانية والتركية او عند حد تصفية بعض الجيوب المستعمرة فى بلاده انما يتعداها إلى تحطيم الحزام الصحراوى والوصول بنجاح إلى منحنى ثنية نهر النيجر ووضع يده على سنغاى وفى اثناء عرض هذه القضايا ابدى بعض المستشارين بشكهم فى نجاح الحملة بحجة صعوبة اجتياز الصحراء وعدم تفكير اية دول من الدول المغربية السابقة فى غزو السودان، لكن فى النهاية وافق الجميع على فكرة المنصور. وقد اقنع المنصور الجميع بتفوقه العسكرى وما يتوافر لجيش المغرب من اسلحة حديثه وذلك عكس ما كانت عليه الدول المغربية السابقة ومن ثم استطاع اقناعهم بفكرة الغزو لانه كان يعمل على نشر لواء خلافته القرشية الهاشمية على العالم الاسلامى ومن ثم كان يسعى لتوحيد مسلمى

غرب افريقيا ولجمع كلمة المسلمين بهذه البلاد وتوحيد قواهم للوقوف صفا واحدا امام الهجمات الخارجية التى يمكن ان يقوم بها الاسبان بصفة خاصة او غيرهم من الاوربين الذين كانوا يتربصون الدوائر ببلاد السودان ذات السواحل الاستراتيجية التى تتحكم فى طريق الهند البحرى .

ومن هنا فقد أخذ المنصور فى الاستعداد للغزو واهتم بنفسه شخصيا بالاشراف على ما تتطلبه الحملة من وسائل ومعدات والاستعداد لهذه الحملة القوية بصفة خاصة ووضع الامكانيات الضخمة التى كان المنصور يتوفر عليها، لذا فانه قدر صعوبة الصحراء وكفاءة القوات وان القوات الصغيرة ذات الكفاءة العالية والتجهيزات الكاملة اقدر فى الوصول إلى سنغاى لاسيما وان اسلحة المغاربة افضل وخاصة فى الاسلحة النارية فهذا التفوق فى السلاح يفوق الكثرة العددية .

وقام احمد المنصور قبل ارسال حملته بمراسلة علماء ورجال الدين والقضاة فى سنغاى ومنهم القاضى عمر بن محمود بن عمر اقينت، المسموع الكلمة فى بلاد السودان ليعرض له الدخول فى طاعته وليس نهب الذهب كما صور ذلك مؤرخو الغرب والدعوة لخلافته القرشية الهاشمية وامامته على مسلمى البلاد .

ولقد صمم المنصور على ان يكون كل ما يرسله إلى بلاد سنغاى سواء اكان انسانا او حيوانا او عتادا او سلاحا من افضل ما تملكه دولة المغرب وكان قبل ذلك اختيار القائد المناسب واختار لهذا القائد جودر، كان اندلسيا من بلاد الاندلس تربى فى القصر الملكى فى مراكش ولم يكن ضد القائد له خبرة بالقيادة العسكرية لكن شبابه آهله لهذه القيادة وقيادتها لكن امانته وقدرته التنظيمية وهى صفات ضرورية فى قائد يحتاج اليها ما دام قد خرج إلى الميدان ورقى إلى رتبه الباشوية وكان تحت امرته عشرة قواد وبلغ عدد افراد القوة اربعة الاف من الاقوياء الذين اختيروا من بين افراد الفرق

لشجاعتهم وصلابتهم وحبهم للنظام ومن هؤلاء الفان من المشاة المزودين بالاسلحة النارية نصفهم من الاندلسين الذين هاجروا إلى مراكش وكذلك خمسمائة من الخيالة حاملى الاسلحة النارية والباقى من الاتراك الذين دخلوا خدمة الجيش الشريفى السعدى، ١٥٠٠ من الخيالة الخفيفة مزودين بالحراب الطويلة ولكنهم مغاربة. وتكونت المدفعية من ستة مدافع كبيرة وعدد من المدافع الصغيرة، وبلغت دواب الحملة ثمانية آلاف جمل والف حصان .

وقد انتهى الاستعداد للحملة وجرى الاحتفال بها واستعراضها يوم الاثنين ١٦ ذى الحجة عام ٩٩٨هـ/ سنة ١٥٩١م بحضور الخليفة والجمهور المغربى واخذت الحملة طريقها إلى بلاد السودان بقيادة جودر باشا وهيئة مستشاريه وكبار قواده وكانت اهم تعيلمات المنصور إلى قائده جودر باشا هو احتلال جاو العاصمة وتميكتو وجنى القضاء النهائى على دولة سنغاى وضم حدودها إلى سلطنة المغرب .

وقد فكر المنصور فى الاحتمالات التى قد تحدث فى البلاد بعد ان تخرج الحملة إلى اهدافها حيث هناك خطر جيرانه الاسبان والاتراك اذ ربما يعتديان عليه بعد ان يعرفوا انه مشغول فى حملته هذه لاسيما وان قرار انسحابها نوع من الاستحالة بعد وصولها. وكان عليه لابد ان يرسل هدية سنويا إلى السلطان التركى مراد الثالث لاستمالته وصرفه النظر عن التوسع فى المغرب الاقصى اضافة إلى تصميم المغاربة على ان يكون خليفتهم شريفا قرشيا لاعثمانيا قد سبب المرارة فى استطنبول وكانت علاقته باسبانيا باحسن ما يكون ولم يعد يخشى فيليب الثانى بعد هزيمة انجلترا لاسطوله الارمادا فغزوه بلاد السودان ربما تعطى فرصة لاحدهما لغزو المغرب وبصفة خاصة ميناء العرائش لذا فانه طلب من سفير انجلترا استئجار عدد من عمال بناء السفن والمراكب الانجليز لبناء نوع من السفن الحربية فى ميناء العرائش وقت انصراف الحملة إلى بلاد

السودان وكانت هذه خطة ذكية لصرف كلا الطرفين عن ميناء العرائش .

وسلكت الحملة طريقا خاصا نحو السودان عرف فيما بعد بطريق جودر بعد ان سار فيه نحو الجنوب عبر جبال اطلس إلى مقاطعة درعه حيث وجد كل ما يطلبه جاهزا وعلى اتم استعداد وبدات المسيرة واوغل فى الصحراء بعد اختراق الحدود الجنوبية لبلاد المغرب حيث وصلت إلى بلما ثم منها إلى طريق لمتونة ومنها إلى الساقية الحمراء حيث تكثر آبار المياة ثم منها إلى واحة تكوارين وتغازة ثم إلى كرير وبعد ذلك وصلت الحملة إلى تمبكتو فى جمادى الاولى عام ٩٩٩هـ بعد ان كانت تحركت فى محرم من نفس العام فيكون قد قطعت الرحلة فى شهور اربعة وكانت مرت عدة شهور لم تصل انباء عن الحملة للخليفةالمنصور حتى برز فجأة احد رجال الطوارق الذى كان يرعى جماله بالقرب من اروان على بضعة ايام شمال تمبكتو وشاهد الجيش يتجه إلى تمبكنو ولقد سر المنصور بذلك سرورا عظيما وعرف ان الحملة نجحت فى عبور الصحراء وبذلك قطعت المسافة التى تقدر بنحو الف كيلو تمر خلال اربعة اشهر بعد ذلك ان قامت بنحو ستين مرحلة .

وكان اهل سنغاى فى اشد حالات الحيطة من نيات السلطان العدائية ولكنهم كانوا واثقين من ان الصحراء سوف تحميهم كحاجز طبيعى للدفاع عنهم ولم يخطر ببالهم امكانية عبور جيش مغربى لهذه الصحراء ولذلك كانوا بعيدين عن اى استعداد. وقد سمع الاسكيا اسحاق اخبار الحملة قبل ان يصلوا نهر النيجر بفترة. وكان الاسكيا قد اتخذ قرارا حاسما لكنه جاء متاخرا حيث ارسل الاوامر إلى زعماء القبائل الصحراوية ان يطمروا الابار التى يمكن ان يستفيد منها المغاربة ولكن الرسل وقعوا فى ايدى قطاع الطرق ولم تصل الاوامر إلى زعماء القبائل مما اضاع اثمن فرصة فى يد الاسكيا وهى ردم الابار وموتهم عطشا. وقام الاسكيا بجمع قوات من بلاده والبلاد

المجاورة إلى مساندته كامارات الهوسا (كبيى) ومالى والطوارق .

ورغم ان الحملة قد فقدت عددا كبيرا من قواتها اثناء الطريق بفعل الجوع والعطش والارهاق إلا ان جودر تمكن ببقية القوات ان يصل إلى تمكينو حيث ان الحملة فقدت بعض الرجال والعتاد والعدة وبعض الحيوانات .

ولقد وصلت الحملة إلى سنغاى عن طريق غير الطريق الذى كان يتوقعه اهل سنغاى ومن هنا فقد فوجئوا بها تصل إلى تمبكتو وهم لايعرفون كيفية المواجهه مع هذه القوات. حيث ان جيش السنغاى كان مكونا من عشرين الف من الفرسان وعشرة الاف من المشاة وان اغلبية الجيش كانت مكونة من حاملى الاقواس فيما بلغ عدد الفرسان وهم حملة الحراب عدة الاف. ورغم ان السنغاى مسلمون الا انهم كانوا يعتقدون اعتقادا كبيرا فى السحر. بل ان بعض المصادر قدرت عددهم بمائة الف جندى ولم يكونوا مدربين على اساليب القتال الحديثة التى اتبعته المغاربة .

واستعد الاسكيا اسحاق الثانى لملاقاة القوات المغربية فى موقع يسمى ستكى بالقرب من تنديبى فى منطقة فسيحة سهلة تقع على الضفة اليمنى لنهر النيجر حيث يحدها من الشمال النهر ومن الجنوب جبال ينجان ومن الغرب توجد بعض راوفد صغرى لنهر النيجر ودارت هذه المعركة فى هذا المكان المتسع الذى لم يبعد عن العاصمة جاو باكثر من خمسة وثلاثين ميلا حيث بدا اسكيا اسحق يقيم المتاريس فى الطريق ويستعد للحرب ومن هنا فان جودر صمم على ان يقاتلهم، وقبل ان تبدأ المعركة اراد السنغاى ان يبثوا الفوضى بين صفوف مهاجمهم بان جعلوا امامهم قطيعا كبيرا من الماشية ولكن المغربة فتحوا صفوفهم ومرت القطعان دون ان تحدث ضررا، وبدا المغاربة المعركة كعادتهم بالاحاطة بالاعداء من الجبهتين وعلى الرغم من التفوق العددى للسنغاى الا انهم كانوا ضعيفى التسلح فام يكن امامهم فرصة للانتصار امام

الاسلحة النارية والنظام الجيد الذى يتفوق فيه المغاربة .

وما ان التحم الجانبان حتى ظهرت قوة كلا الدولتين ومقوماتها وليس العدد فعدة المغاربة البنادق والمدافع وعدة السنغاى السيوف والرماح والقسى ركبهم يرمون بالرصاص مما جعل الماشية التى ارسلها الاسكيا عندما احست باصوات الرصاص وطلقات المدافع تندفع للخلف على اصحابها ولم تدم المعركة غير يوم واحد انتهت بهزيمة اهل سنغاى وانتصار المغاربة بفضل الاسلحة الحديثة وحسن التنظيم الحديث ومن مبيدان المعركة اتجهت القوات إلى جاو لاحتلالها وكان الاسكيا اسحاق قد امر باحراق العاصمة بعد ان استماتت جيوش سنغاى فى الدفاع عن بلادهم حتى أبيد معظم افراده .

وكان دخول جودر العاصمة جاو فى ٢٠ رجب ٩٩٩هـ/ ٢٣ مايو ١٥٩١م حيث هجرها معظم سكانها ولم يبق من سكانها الا رجال الدين والعلماء والطلبة ومن لم يقدر على الخروج والهرب كالتجار، اما باقى قوات سنغاى وقوداها فقد اسرعوا بالهرب والفرار إلى قواربهم وركوب النهر ولم يستطع المغربة مطاردتهم لانهم لم يملكوا القوارب التى تسهل لهم مطاردة اعدائهم واكتفوا باحتلال العاصمة واستقبل المغاربة فى العاصمة جاو بحماس من التجار والعلماء ورجال الدين وقد ظن المغاربة انهم سيجدون مدينة جاو العاصمة مزينة ذات مبان فخمة وان استيلاءهم عليها سيكون خير مكافأة لهم بعد سيرهم الشاق المضنى فى الصحراء ولكنهم وجدوا بدلا من ذلك مجموعة من الاكواخ المبنية بالطين على مثال المبانى السودانية وليس هناك من اثر لثروة كانوا ينتظرونها. بل ان مسكن الملك لم يكن ليتميز كثيرا عما يحيط بالقصر من اكواخ هذا إلى ان السكان كانوا قد حملوا معهم ما ظنوه ذا قيمة للمغاربة .

ولما وصلت بشرى النصر إلى مراكش اقيمت الافراح وكتب المنصور إلى الجهات المختلفه يزف اليها النبأ العظيم ومن ذلك الرسالة التى أرسلها من مراكش يوم الجمعة

السابع من شعبان ٩٩٩هـ/ ٣١ مايو ١٥٩١م وقد تضمنت اخبارا عن الحملة التى حققت النصر وكان جودر قد كتب إلى المنصور بخير الفتح فبعث اليه بهدية فيها عشرة الاف مثقال ذهبا ومائتان من خيار الرفيق .

وفتح اسكيا باب المفاوضات مع جودر وارسل وفدا سودانيا إلى العاصمة ليعرض الصلح عليه مقابل الاعتراف بطاعة المنصور والتعهد بارسال الخراج السنوى، وكان انسحاب اسحاق الاول إلى الداخل قد جعل لكل من القائدين فترة من الوقت يتمتع بها فقد عرض اسكيا الصلح والمهادنة مقابل اموال يؤديها للمنصور بعد اقتناعه بفشل المقاومة وجودر باشا وجد فى ذلك فرصة لاراحة قواته واعادة تنظيمها فقبل الهدنة على ان يترك المغاربة البلاد على ان يكون للمغاربة وحدهم حق تصدير الملح والاصداف إلى بلاد السودان لانها كانت وثيقة الصلة بتجارة الذهب وكان عرض اسحاق الاول سخيا جدا وقبول المغاربة له يعطيهم سيطرة تامة على الحياة الاقتصادية للسودان الغربى وكان هم اسحق الاول ان يجنب بلاده احتلالا عسكريا ربما يكون عبئا ثقيلا لا يمكن لشعبه احتماله وقد يصبح التخلص من السيادة المغربية فى المستقبل امرا مستحيلا .

ويبدو ان الظروف قد اجبرت جودر باشا ومن معه على قبرل الهدنة والمفاوضات وذلك للتعب الذى حل بالقوات المغربية من طول المسافة وخوض المعارك والامراض. وقبل الباشا جودر العرض لساعته اذ كان يملك السلطة الضرورية لذلك حيث كان المرض قد تفشى بين افراد جيشه ومات عدد كبير منهم فكانت رغبته الوحيدة ان يعودوا ادراجه باسرع مايمكن وابرام عقد الصلح على شرط قبول مولانا احمد المنصور. ثم تراجعت القوات المغربية من جاو العاصمة إلى تمبكتو وارسل عقد الهدنة إلى الخليفة السعدى. ومعها رسالة عما فيها قاساة الجيش فى عبور الصحراء .

وظلت حالة الجيش المغربى فى تدهور ففى مدى اربعة عشر يوما مات اربعمائة

ومرض الباشا نفسه وضرب المرض بسهمه فى الاواب التى كانت تعتمد عليها الحملة وهى العمود الاساسى لتحركات الجيش حيث انه لايستطيع الحركة بدونها وكانت تمبكتو افضل كثيرا من جاو وحيث الجو احسن حالا من العاصمة وكان مبعث الراحة فى نفوس المغاربة وجود مسجد سانكورى الجميل الذى كان لايزال يسمو على كل شئ آخر. وكان جو تمبكتو يدعو إلى الراحة النفسية اذ كانت العاصمة الثقافية لبلاد السودان وملجأ الطلاب من بلاد بعيدة وطلابها كتجارها افضل ما فيها حيث لم يكن لديهم ما يخشونه من المغاربة فقد بقى التجار والعلماء والطلاب فى المدينة كما سبق القول ولم يهربوا إلى الصحراء، لذا وجد المغاربة الحياة التجارية الثقافية هادئة لم يصبها ادنى اضطراب ومظاهر الحياة عادية لا ينقصها ادنى متطلبات .

ولما وصل رسول جودر باشا إلى مراكش حاملا شروط الصلح نقم عليهم المنصور ولم تحدث الرسالة سرورا لدى السلطان، بل لم يرض عن الشروط التى عرضها الاسكيا اسحق وانتقد بشدة عدم ترك جودر حامية فى جاو وعدم أخذه رهائن من اسحق فصمم المنصور على ان يبدله بقائد آخر اقل منه تساهلا وإكثر حزما وكان ذلك القائد الجديد محمود باشا زرفون وعينه على راس القوات المحاربة وترك لجودر مهمة ادارة شئون البلاد المفتوحة، وقد وصل زراون على وجه السرعة وتسلم مهمته لكنه كان من الواضح ان فقد الرجال والعتاد فى البلاد قد يستفذ موارد الدولة .

وقد انقسم الراى فى مراكش إلى ما حققته غزوة السودان إلى آراء مختلفة اذ راى الشعب املا فى ضم هذه الديار إلى خطيرة الاسلام سيساعد على قوة الحركة الجهادية ضد اعداء البلاد والدين، وهناك فريق راى ان السيطرة على البلاد قد تضربالتجارة والاقتصاد والنواحى الثقافية والحضارية لاسيما ان استمرار الوجود المغربى فى البلاد سوف يحتاج إلى حامية كبيرة وتحصينات مستمرة لمقاومة الخسائر التى

لايمكن تجنبها سواء من انتشار الامراض المعدية او لمخاطر الحروب الاخرى. فقد دلت تجربة هذه الحرب على معظم الخسائر فى مثل هذه الاحوال كانت من الامراض والحرب كما ان الحاجة ستكون ماسة إلى حمل السلاح الدائم لكن المنصور الذى كان يرى فى فتح بلاد السودان حماية لهذه الديار من التعرض لخطر السيطرة الاوربية ومنعا للالتفاف من خلف ظهره وعملا على تدعيم الوحدة الاسلامية وبناء كيان كبير يخضع للخلافة السعدية والاستفادة من موارد البلاد وثرواتها من اعداء دولة كبرى تماثل امبراطوريات الاتراك العثمانية والاسبان، لكن التجار كانوا يعارضون استمرار الغزو خوفا على مصالحهم لانه ربما يكون تصميم الخليفة السعدى المنصور إلى الوصول إلى اهدافه قد يؤدى إلى خراب الاقتصاد فى سنغاى ونضوب موارد الذهب لاسيما اذا تدخلت الدولة فى شئون التجارة حيث انه من الطبيعى ان تكون التجارة هى موضع الاهتمام الاكبر للتجار. ففى الماضى كان الزنوج مستعدين دائما ان يبادلوا بذهبهم الملح ومواد التجارة التى ترد من بلاد ما وراء البحر المتوسط (البلاد الاوربية) .

وقام محمود رزقون بالدخول فى قتال عنيف مع اسكيا اسحاق مما اضطره إلى الفرار من العاصمة والدخول إلى بلاد الوثنيين فى الجنوب الذين قتلوه هو وحراسه وبقية اسرته وهكذا سقطت دولة الاساكى على ايدى القوات المغربية السعدية ودخلت البلاد فى طاعة الخليفة المنصور السعدى ما بين البحر المتوسط حتى الغابات الاستوائية وبالسيطرة على سنغاى فقد ظهرت دولة اسلامية كبرى كان على المنصور ان يقودها بحنكة ودراية للاستفادة من هذا الفتح لكن متطلبات سنغاى وما كانت تحتاج اليه من موارد كبيرة وقوات كثيرة وطرق المواصلات الصعبة وعدم تلاحم البلدين ووجود الصحراء الواسعة التى يستغرق عبورها اربعة اشهر وما تلاقية القوافل فى الطريق ووقوفها عقبة كداء فى طريق التلاحم الاسلامى والبناء القوى للوحدة المغربية السودانية التى

كان يهدف اليها المنصور لكن بعد فتح بلاد السودان اصبح المنصور الخليفة الوحيد فى جميع هذه البلاد مما زاد من مكانته ومركزه الدينى والسياسى على السواء. ولقد كان تاثير الفتح واضحا لما وصلت اليه البلاد من الرخاء والرفاهية وقد ارتفعت عملة بلاده وتسابق التجار على التعامل بالدينار المنصورى. ورغم القضاء على السلطه الشرعية فى البلاد واحتلالها والقضاء على سلطانها الفعلى الا ان المغاربة عجز واعن ادارتها وضبطها. كذلك فانهم لم يتمكنوا من اكتساب ثقة اهل البلاد طوال الفترة التى خضعت فيها البلاد للنفوذ والحكم السعدى الشريف مما ادى إلى ظهور بوادر التفكك والانهيار فى بلاد السودان لاسيما وانه كان للعلماء دور بارز فى الحياة السياسية والتاثير على مجريات الامور وكان ذلك من اسباب بطش محمود بن زرقون باكبارهم وشيوخهم حتى يتمهد الامر للحكم المغربى .

ولقد ساعدت على بسط النفوذ المغربى بسرعة فى البلاد ذات الطابع من الفوضى الذى طبع الحياة اليومية وذلك من أثر الصراع المرير من اجل العرش وقد انعكس ذلك على حالة الامن العام وعلى النشاط الزراعى والتجارى وعلى الصيد اذ خاف المزارعون والتجار والصيادون على نشاطهم وكان الحكام طغاة يحاولون ان يجمعوا فى الفترة التى يقضونها فى الحكم ما يمكن جمعه وكان الوباء الذى حل بمدينة تمكيتو من اثر انتشار مرض الطاعون من اسوا الكوارث التى حلت بالبلاد منذ عام ١٥٨٣م. ولقد قال محمود كعت التكبكتى صاحب تاريخ الغتاشى واصفا ما قال عن اثر الحملة السعدية فى بلاد سنغاى جبر الله كسر بتمكينو وكثر قراءها من كوكبا إلى جنى وجمع شملها وأقامها أتم قيام وعمرها وافاض الله البركة فى برها وبحرها فى أوائل دولة جيش مولانا احمد المنصور واكثر الخير فيها حتى كاد الناس ينسون دولة سنغاى .

وهذه شهادة من مؤرخ دولة الاساكى حكام سنغاى وهو من أهل الديار واعترافه

بفضل الحملة السعدية يدحض كل الاراء الباطلة والمقولات الكاذبة التى سار عليها مؤرخو الغرب وما رموا به الحملة المغربية باقوال فرية المقصود بها الاساءة إلى كل عمل اسلامى وعلى المحلل العلمى الدقيق ان ياخذ دائما فى الاعتبار ما ترمى اليه اقوال مثل هؤلاء المؤرخين المفرضين الغربين الذين روا فى الفتح الاسلامى المغربى لبلاد السودان سدا يحول دون تحقيق اهدافهم بالاستعمار والتبشير بالدين المسيحى. لاسيما ان فتح بلاد السودان قد تبعه وصول جماعات كبيرة من العلماء المغاربة للتدريس ولاسيما فى جامعة سانكرى والدعوة للاسلام واصلاح المفاهيم الخاطئة عن الاسلام وبناء المدارس الاسلامية والمساجد فى المدن الكبرى ولقد أرسل المنصور أثر وصول أول بشرى بالنصر مع محمود زرفون ستين عالما وفقيها مغربيا مهمتهم الدعوة للاسلام وليس لاستيراد الذهب ونهب مصادر البلاد كما صور ذلك يوفيل وغيره من كتاب الغرب بل ان الاعمال الانشائية انطلقت فى طول البلاد وعرضها ووصل المهندسون والبناءون من المغرب لبناء المبانى الحديثة والمساجد وديوان الحكومة على احدث طراز معمارى فى المغرب واستعان بالاندلسين وكان نصف الحملة الاولى تنهض بتعمير سنغاى وادخال احدث الاساليب فى الادارة والزراعه والصناعة والتعليم وافساح المجال امام الخبرات المغربية للاسهام فى الرقى بالمجتمع السنغائى بعد انضمامهم إلى اخوانهم بالمغرب .

ولقد حقق المنصور هدفه فى السيطرة على بلاد السودان الغربى باعتبار ان واجب الخلافة الاسلامية يلقى عليه مسئولية الدفاع عن ديار الاسلام بمقتضى ان يضع يده على مقدرات المسلمين وخبرات ارضهم لغرض النهوض بمهمة الجهاد الاسلامى باعتباره خليفة لرسول الله ﷺ فواجبه ان يجاهد فى سبيل الاسلام وان يتبعه المسلمون فى ذلك قادة ورعايا باعتباره القائد الاوحد الذى يفرض عليه ان يحمل المسلمين على

الوحدة باللين او بالشدة واعتبار المنصور نفسه الخليفة الوحيد للمسلمين بالنظر لانفراده بين ملوك المسلمين وامرائهم بالنسب الهاشمى القرشى مصداقا للحديث الشريف الائمة من قريش ابرارها بسرارها وفجارها امراء فجارها وخاصة عندما برزت قوة المغرب السياسية والعسكرية والاقتصادية فالمنصور كان يرى نفسه خليفة مستمدا سلطة الخلافة من نسبه .

وهكذا تحققت مخططات المنصور الواسعة رغبة فى الجهاد والاستظهار على عدو الدين وفتح الاندلس والاقطار البعيدة لاسيما وان اجداده وآباءه اقاموا الدولة السعدية منذ نشاتها كدولة قامت على الجهاد ومن هنا فكان عليه ان يواصل مهمة الجهاد بجد ومثابرة واعطاء ذلك الاولوية المطلقة لاسيما كرد فعل على سقوط الاندلس والرغبة فى العودة عن طريق الكفاح تساوى فيها ابناء الاندلس المهاجرون والمغاربة لاسيما وان حركة الجهاد الاسلامى بضم بلاد السودان قد حققت احدى الظواهر التى اختلطت فيها السياسة بالدين وبالوطنية خلال العهد السعدى لاسيما وان الدولة قامت على هذا العنصر المهم من احترام الشعب والالتفاف المتعاظم حول الشرفاء المجاهدين .

وقد استعاد ملوك السعدين الشرفاء من هذا المد العاطفى فى توجيه الحملات العسكرية وخاصة منها ما وجه إلى بلاد السودان حيث قيل دائما ان هذه البلاد تعج بالوثنيين وتحتاج إلى من يرشدها إلى طريق الاسلام والدعوة الاسلامبية وكان هذا هو المغزى الحقيق وراء هذه الحملة وليس غيره من الاهداف المادية الاخرى. واستغل المنصور ما كانت تلقاه كلمة الجهاد من قبول واقبال فى كسب التاييد لتحركاته الخارجية وكان فتح السودان نصرا مؤزرا ولذا كانت مداهمة بلاد السودان لنشر الاسلام وتعميق مفاهيم الدعوة الاسلامية والحصول على الدعم المادى والبشرى لاسيما تجنيد السودان فى الحربية والاسطول وقصر جلب الاموال لتجهيز الجهاد فى اسبانيا وللمرابطة

على المسيحين قبالة الساحل الاوربى ولادخال عقيدة الاسلام إلى الوثنيين الذين تضمهم دولة سنغاى والاقاليم المجاورة لذا فان حملة جودر ضمت كما سبق القول اشخاصا مؤهلين للقيام بالدعوة الاسلامية دائمة ووعاظ للجيش نفسه وهم الذين رافقوهم فى رحلة اختراق الصحراء الصعبة، بل ان معظم الجنود كانوا اندلسين غيورين على الاسلام بعد ان فقدوا ديارهم واوطانهم وكان حماسهم للاسلام شديدا بالقدر الذى يؤهلهم للقيام بالدعوة إلى تعاليم الدين الاسلامى الحنيف ولقد انتشر الاسلام انتشارا واسعا على ايدى رجال الحملة المغربية ومن ذلك فى منطقة مسينا غرب سنغاى وامارة تاندريما حيث كان المغاربة يجدون بعض سكانها على الوثنية لذا تعمدوا ان يجعلوا مقدار الجزية كبيرا وذلك لحمل الناس على الدخول فى الاسلام وقد نجحت هذه الوسيلة فى دخول الناس افواجا فى الدين الحنيف (المؤلف المجهول نذكره النسيان فى اخبار ملوك السودان ص ٢٣) كذلك فان الدعوة الاسلامية اثرت فى بلاد الموشى بعد ان بث الجيش المغربى الدعوة الاسلامية وحمل الناس على اعتناق الاسلام حيث انه كان واجب الدعوة هو العمل الحقيقى لرجال الدين الذين صاحبوا الحملة وكذلك رجال الجيش المغربى بل ان ترك الجيش إلى مثل هذه الجهات كان ياخذ شكلا دينيا ويكون ذلك عند صعود المؤذن او المنادى على ظهر الجامع او اى بناء مرتفع وينادى فى الناس ويحدد مكان الفرقة ومكان الاجتماع وتعتقد ان هدفا دينيا ونفسيا كان يكمن وراء مثل هذه المظاهر مما يدفع الناس إلى الدخول فى الاسلام. وهكذا كان هدف نشر الاسلام فى بلاد السودان من العوامل الرئيسية التى حركت همة المنصور لقتال النظام واخضاعه (احمد المغربى، بداية الحكم المغربى فى بلاد السودان الغربى ص ١٣٢- ١٣٣) .

كما لايمكن ابدا انكار ان الحملة المغربية قد نجحت كل النجاح فى مقاومة

حركة التبشير المسيحي فى بعض الجهات الافريقية لاسيما وقد تسرب بعض المبشرين الاوربين المسيحين إلى داخل الاراضى السنغالية انطلاقا من المستعمرات المسيحية الساحلية واقنعوا بعض القبائل بالدخول فى المسيحية ويبدو ان اخبار نشر المسيحية بين هذه القبائل قد وصلت إلى المنصور بدليل وجود رسالة كتبها لاحد عماله يخبره فيها بان الفتح لما انتهى فى الجيوب إلى من يليهم اى قبائل سنغاى وجد ان هناك قبائل قد اعتنقت المسيحية ففاوضها المغاربة الفاتحون فى امر التخلى عن ذلك وهكذا فان نشر الاسلام قد كان من بين خطط المنصور السودانية الكبرى وليس الحصول على الذهب– وان ما قام بها جنوده قد خدم هذا الهدف كذلك فان كثيرا من العادات والتقاليد والمراسم المغربية قد انتقلت إلى بلاد السودان. وخاصة الاحتفال بالمولد النبوى الشريف وختم القرآن الكريم وصحيح البخارى ومسلم فى ليالى رمضان وذبح اضحية عيد الاضحى وترتيل الامداح النبوية ليلة القدر وقد اهتم المغاربة وباشوات السودان بهذه المظاهر الاسلامية والسلوكيات التى تتلائم مع التعاليم الاسلامية، كذلك بالنسبة لمدينة دييى عاصمة اقليم مسينا مثلا الواقع قرب سنغاى وهو من الاقاليم التى لم تكن تخضع لحكم السنغاى قبل قدوم المغاربة وفقد تقدمت العقيدة الاسلامية بها والانتشار الاسلامى بشكل سريع بسبب دور العلماء لاسيما وان السيطرة المغربية قد ركزت مجموعات متفقة اشتغلت بالعلم والتجارة الدائمه فى المدينة وضواحيها وقد حققت تلك المجموعات شيوع التعاليم الاسلامية والعادات والمراسم الدينية على وجهها الحقيقى وتلقين دروس الدين الاسلامى وشئون الشريعة والفقه والادب العربى وانتشار اللغة العربية واللسان العربى (وجهه نظر غربية مؤلف مونتيل) ولقد حاول بعض المؤرخين الاوربين الاساءة إلى احمد المنصور على اعتبار انه كان رجلا استعماريا يهدف إلى بناء امبراطورية بغض النظر عن اى اعتبار آخر وانه كان يفاوض الانجليز او الفرنسين فى موضوع احتلال الهند واسبانيا، ولكن المنصور كان يضع نصب عينه

اضعاف اسبانيا واستعادتها لأنه كان مصمما على اعادة الحكم المغربى والاسلامى والمسلمين اليها .

ومما يثبت وحدة الهدف الاسلامى عند المنصور بعد فتح بلاد السودان تلك المسالة التى كتبها إلى الملكة اليزايت ملكة انجلترا يقول لها فيها ان تلك الاقاليم ازدادت فى الامبراطورية المغربية فى قوة جديدة للحلف المغربى الانجليزى وهذه الممالك السودانية ازدادت بحمد الله ملكنا ونظمها الفتح الالهى، لكن بريطانيا (انجلترا) تراجعت عن هذا التحالف لانه ربما يؤدى ذلك إلى احداث رجة فى البلاد الاسلامية الاسيوية وبعث الوحدة الاسلامية بشكل غير مرغوب فيه عند المسيحين. ولقد كان السلطان السعدى يعتقد ان استعمار الهند المتاخمة لبلدان اسلامية كثيرة سوف يقوى مركز المغرب ويجعل هذه الدول الاسلامية تتحالف مع جيش المغاربة المسلم الذى يوجد على راسه خليفة شريف ويساعده على اعادة فتح الاندلس ومن ثم فان جيوش المسلمين قاطبة حينئذ فتسرع إلى النهوض بهذا العرض الجهادى وهو تحرير الاندلس الذى كان الشغل الشاغل للخليفة السعدى .

ولقد حققت الحملة السعدية على بلاد السودان اسمى اهدافها ايضا بالقيام بالعمل الوقائى والذى يرمى إلى منع العثمانين من الوصول إلى بلاد وسط افريقيا وشل حركة المستعمرين القائمين فى غامبيا ومنع القوات المتواجدة من التوغل شرقا والوصول إلى مصادر الذهب والملح وبالتالى منع اى امتداد نحو المغرب فى المستقبل وهكذا نجح المنصور فى دفن الاطماع التركية الذين كانوا قد أمدوا الماى ادريس الوما سلطان برنو بالاسلحة وكانوا يمهدون للسيطرة على وسط افريقيا (راجع رسالة الماجستير للمؤلف- سلطنة البرنو الاسلامية جامعة القاهرة، ١٩٧٥) وكذلك الاطماع البرتغالية إلى الابد والتحكم فى تلك الاطماع اذ ما قدر لها ان تبعث وتنطلق من جديد ونجحت الخطة

فى منع القوتين بشكل مباشر او غير مباشر فى التحرك إلى بلاد السودان ووقف زحفهما إلى تلك البلاد .

وهكذا كان نجاح احمد المنصور بمشروع فتح بلاد السودان قد اعطاه المظهر الاسلامى بانه الخليفة المسلم الذى يقوم باحدى واجباته الدينية المقدسة، وان فكر المنصور كان بمتد إلى الوصول إلى برنو وكانم وصولا إلى كل بلاد المغرب من الجزائر إلى مصر وتمركزه على امتداد الشريط الصحرواى الذى يحد تلك البلاد جنوبا ولقد كان المنصور مفكرا ومخططا ذكيا يهدف إلى غايات اوسع من السيطرة على بلاد سنغاى والاقاليم المجاورة له .

ومهما تكن النتائج التى حققها الفتح المغربى للسودان الغربى والتى وصل اليها المنصور من تحقيق الروابط الاسلامية والدينية والسياسية والتى ربما لم تعمر طويلا بعد وفاة المنصور ولم يقم الخلف الذين سؤل اليهم مقاليد الامور على الحفاظ على هذه المكاسب التى حققها المنصور بالحملات التى تحملت الصعاب الا انه حقق نجاحا باهرا وضع فيه حاجزا بمنع اختراق حدود سنغاى الشرقية وجعل اسم احمد المنصور خليفة الاشراف السعدين فى المغرب وما يحمله هذا الاسم سليل الدوحة النبوية من الهيبة والقوة الروحانية إلى كل اذن افريقى فى هذه الجهات وعمل ذلك على امكانية استغلال هذه الشعوب باسم الجهاد الاسلامى لمجاهدة الممالك المسيحية والتى ربما كانت فى الاقاليم المجاورة وقطع كل آمل وراء المخططات التى تريد بديار الاسلام الشر ونشر عقيدة غير اسلامية .

وهكذا تمكن المنصور فى ادخال هذه البلاد فى طاعة السعدين الاشراف وانتشار الدعوة للخلافة القرشية السعدية فى اقطار السودان كلها لانها اولى بمعرفة قدر الخلافة وشرف اثارها واحقيتها بقيادة المسلمين فى كل جهة من جهات العالم

الاسلامى ومن هنا فقد ترك الفتح المغربى القرشى العربى الاسلامى بصماته الواضحة القوية فى شتى المجالات الحياتية فى بلاد السودان وكان له مآثر عظيمة حاول كتاب الغرب التهوين من آثارها وطمس الحقائق حول الدور الباهر الذى تركه الحكم السعدى لاسيما وان فترة حكم باشوات المغرب لهذه الانحاء قد زاد عن قرن ونصف من الزمان كان له الفضل كل الفضل فى نقلة حضارية كبرى شهدتها هذه البلاد فى ظل الحكم المغربى بحيث حظيت المجالات المختلفة بالاهتمام الكبير من قبل الحكام الذين اولوا جل اهتمامهم لكل النشاطات العملية والفكرية والثقافية والعمارية والاجتماعية والصناعية والزراعية والاقتصادية وبدات معالم الحياة تاخذ بعدا آخر مغايرا لما كان عليه الحال وقت حكم الاساكى فقد عمل المغاربة على صبغ هذه الانحاء بالصبغة المغربية ولم يأل جهدا فى تنفيذ المشروعات الكبرى التى من شانها ان تعود بالنفع على الشعب السودانى ما دام قد ارتبط مصيره بالوحدة المغربية الاسلامية واستقرت الاعاد الكبيرة من الجنود المغاربة الذين سقط مصيرهم فى هذه البلاد وكان عليهم وعلى من ياتى من جند جديد من المغرب ان يتواءم مع طبيعة الحياة الجديدة وان يذوب فى المجتمع السودانى الاسلامى حيث ان الاسلام لا يفرق بين الالوان والاجناس ومن هنا فان المغاربة الذين قدموا ذابوا فى المجتمع السودانى وتزوجوا من السودانيات وباشروا حياتهم العادية بين مواطنى هذه البلاد لاسيما لان هناك اعدادا كبيرة من الحرفين والصناع والعلماء والاطباء قد رافقوا هذه الحملة وكان يقع عليهم العبء الاكبر فى العمل على نقل البلاد نقلة حضارية كبرى والاخذ بيدها إلى مدارج الرقى والتحضر والاخذ بالاساليب الحديثة والعصرية ونقل مفاهيم الحضارة الاسلامية الراهنة والانتقال بالانسان السودانى فى ظل المتغيرات المغربية من حالة سكنى الاكواخ والبيوت المبنية بالطين والقش إلى البناء الحديث العصرى والاعداد وفتح العديد من المدارس والجامعات والاهتمام ببناء الانسان السودانى ودفعه إلى مزيد من التطلع إلى فنون جديدة وتجديد

الوجه الحضارى والثقافى للسودان بعد ظهور عوامل جديدة واصبحت الطرق مطروقة والقدوم سهلا وميسورا لابناء المغرب مما سهل عليهم التحرك باعداد كبيرة لاسيما وان الخليفة المنصور السعدى شجع جميع طوائف الشعب المغربى على الانتقال جنوبا دعما لروح الاخوة الاسلامية وعملا على ترسيخ قيم اسلامية جديدة وربط بلاد السودان بمعالم الحضارة الحديثة والاخذ بالاساليب المتطورة فى شتى نواحى الحياة، لاسيما ان صلة الربط كانت مباشرة بين بلاد السودان والمغرب وزاد الاهتمام بالبريد حيث كان البريد هو صلة الربط الوحيدة لاسيما للاطلاع على مجريات الامور بالبلاد ومتابعة كل صغيرة وكبيرة ولقد اولى المنصور اهتماما خاصا بهذه الوسيلة وقسم المسافة إلى تمكينو والى مراكش إلى عدة مراحل وجعل على خدمة البريد مجموعة من الجنود تنحصر مهمتهم فى نقل البريد من المغرب إلى بلاد السودان والعودة منه ولقد كانت الرحلة ما بين مراكش وبلاد السودان يقطعها رجال البريد فى فترة لاتزيد عن اربعين يوما للذهاب إلى مراكش والعودة إلى بلاد السودان ولقد كانت هذه فترة قياسية اذ كيف يقوم رجل البريد بقطع مسافة قطعتها قوات جودر فى اكثر من مائة وخمسة عشر يوما يقطعها رجل البريد فى عشرين يوما فقط بالاضافة إلى انه كان يقضى وقتنا فى مراكش حتى تكون المراسلات المرسلة إلى السودان جاهزة للاعداد .

وعلى اية حال فان الذين حاولوا ان يطمسوا معالم الدور العربى فى بلاد السودان وان ينقصوا من الدور الرائع الذى لعبه المغاربة انما كانوا يخدمون اهدافا استعمارية تبشيرية للاساءة للفترة التى كانت فيها البلاد فى ظل الحكم السعدى الشريف سواء الاشراف السعديين، والاشراف العلويين وذلك بشان مؤرخى الغرب فى محاولة الانقضاض على كل عمل اسلامى من شانه ان يقوى روح الوحدة والتضامن وللعمل الاسلامى المشترك البناء لما فيه خير الاسلام والمسلمين وتصويره على انه انهيار وليس تقدما .

(ب) مآثر الدور المغربى فى بلاد السودان ١٥٩١- ١٧٦٠

لقد اولى المغاربة اهتمامهم الاكبر فى بلاد السودان بترقية الفرد السودانى وبنائه علميا وفكريا وثقافيا وحضاريا واعطوا اهتمامهم الاكبر بالجانب الاسلامى العلمى وصقل مواهب ابناء الشعب السودانى، ومن هنا عملوا على ارسال العديد من العلماء ورجال الدين والفقه والشريعة والمدرسين والمساعدة على انتقالهم وانتقال الكتب والمكتبات والورق والوراقين ومن هنا توالت هجرة العلماء المغاربة فى ظل الحكم السعدى والعلوى ولاسيما ان الحياة الثقافية والفكرية قد واصلت تقدمها وتطورها. واذ كان حاكم السودان محمود زرقون قد انزل بالعلماء ورجال الدين السودانين ضربة مؤلمة بترحيلهم إلى المغرب، فان الثقافة العربية الاسلامية كانت من العمق والانتشار بحيث تابعت طريقها ومسارها الطبيعى لاسيما بعد ان استئناف المدرسون والاساتذة والعلماء دروسهم ومن هنا تركت الحركة الفكرية مآثرها الفريدة على اوجه الحياة اليومية .

ولقد ساهم العلماء المغاربة مساهمة فعالة فى الحركة العلمية واخذوا يشجعون روح البحث العلمى والفوا فى كثير من المواضيع وامتاز نشاطهم العلمى بتخرج اعداد كبيرة من الطلاب على ايديهم فاغنوا المكتبه السودانية بالجديد والطريف فى شتى الموضوعات وكانت المؤلفات المغربية فى بلاد السودان يتهافت التجار على بيعها فى مكتبات تمبكتو وجنى وجلو وغيرها من المدن الكبرى فى بلاد السودان. كما ان وفود الاعداد الكبيرة من العلماء ورجال الجيش والادارة والحكم قد ساعد على تطور اللغة العربية التى لم يدخل عليها المدرسون المغاربة الجدد الجزالة وياخذونها بالتبسيط فقط ولكنهم فوق ذلك لم يتورعوا عن ادخال بعض التعابير من اللهجة المغربية الدارجة الامر

الذى جعل هذه اللغة واسطة مهمة وفعالة فى التبليغ للدعوة الاسلامية ونشر تعاليم الاسلام فى يسر وسهولة وكذلك قام الائمة ورجال الدين فى المساجد بعد ان اجاز لهم العلماء ورجال الفتيا للمدرسين ان يتحدثوا للمسلمين باللهجات المحلية فى امور الدين والعبادات واصبح شيئا مالوفا فى كل المساجد ان ينهى الفقية حديثة ويلقى خلاصته باحدى اللهجات المفهومة ثم يقوم المترجم بنقل ما القاه باللغة السنغائية .

ولقد حظى التعليم بنوع خاص من المغاربة بصورة لم تكن معروفة من قبل واتيح التعليم لكل فئات الشعب السودانى فلم تعد المدارس وقفا على ابناء العلماء انفسهم وعلى عدد قليل من الطلبة يتفق القاضى عليهم من الوقف، بل اصبح التعليم مفتوحا امام كل راغب فى التعليم سواء فى الكتاتيب او الجوامع او المدارس او الجامعة الكبرى جامعة سانكرى (انظر كتاب حركة المد الاسلامى فى غرب افريقيا للمؤلف. جامعة سانكرى فى قلب القارة الافريقية ص ٢١٤- ٢٢٢) بل اصبح التعليم بجميع اطواره مفتوحا امام كل راغب وتكفلت الادارة المغربية بجميع نفقات وتكاليف مراحل التعليم المختلفة وبالطلاب الغرباء والاساتذة. وقد ذكر عبد الرحمن السعدى فى كتابه تاريخ السودان. ان مدينة تمبكتو فى بداية الحكم المغربى قد اضحت تعج بالعديد من الطلاب الذين كان بعضهم يهاجر من اقصى الغرب الذى كان محروما من التعليم ومن بلدان افريقية اخرى وتم تنظيم مراحل التعليم وهذا التقسيم لم يكن متعارفا عليه قبل قدوم المغاربة فقد اصبح التعليم تعليما ابتدائيا ومتوسطا ومتخصصا واعطيت اجازات علمية فى بداية العهد المغربى وشهدت البلاد توسعا فى حركة التاليف والوراقة اذ اننا نجد بالقرب من جامعة سانكورى او سانكرى كانت توجد حوانيت الوراقين على جانبى الطريق والتى كانت تباع بها الكتب المنسوخة والمخطوطة للطلبة ورجال العلم والدين وكانت جلها من التآليف الجديدة فى نسخ متعددة او فى هوامش جديدة وشرح لكتب

قديمة وذلك لغرض بيعها في السوق المحلى او تصديرها لجهات بعيدة فى بلاد الهوسا او برنو، او مالى او الاقاليم المجاورة لسنغاى بعد ان شع نور العلم والتعليم فى هذه البلاد واصبحت قبلة العلم والعلماء وكعبة لطلاب العلم من كل انحاء الديار السودانية بل انه اصبح من المشاهد المعتادة رؤية فقيه او عالم اسلامى يملى على الكتبة فصولا من كتاب ولا ينتهى من املائه الا وكان للوراق عدة نسخ من هذا الكتاب وهكذا كان العهد المغربى السعدى دافعا للحركة العلمية والتعليمية فى سنغاى شهد به ابناء الاقليم وعلى راسهم عبد الرحمن السعدى فى كتابه تاريخ السودان بل ان الفتح المغربى لبلاد السودان قد ساعد على ظهور نوع جديد من العلماء اهتم بجانب الدراسات التاريخية وتسجيل الاحداث وهو ما لم يكن موجودا قبل الغزوة المغربية فقد ظهر مؤرخون سودانيون وصفوا تاريخ المنطقة بانفسهم وكان لهم الفضل كل الفضل فى معرفة تاريخ السودان وبصفة خاصة احداث تلك الفترة ومنهم على سبيل المثال احمد فراطو عن تاريخ برنو وعبد الرحمن السعدى عن تاريخ السودان ومحمود كعت عن تاريخ الفتاش والمؤرخ المجهول عن تذكره النسيان وبرز كتاب التراجم وعلى راسهم احمد بابا التمكينى اضافة إلى تنوع الاعمال الاخرى فى الاصول والتفسير وعلوم الدين والفقه وعلوم الشريعه والدين وعلوم اللغة العربية كالنحو والصرف والبلاغة والبيان والعروض وظهر الشعراء والادباء وبدات الحركة الفكرية تؤتى ثمارها المرجوة بفضل انفتاح الباب امام علماء المغرب للرحيل إلى الجنوب بصورة جماعية بعد ان كانوا افرادا قبل الفتح المغربى ورحيل علماء بلاد السودان إلى المغرب للاطلاع على مراكز العلوم والحضارة والثقافة فى مراكش وفاس واغمات وسجلماسة وغيرها من بلاد المغرب. وقد عاد هؤلاء إلى بلادهم بعد ان كانوا قد اطلعوا على فنون جديدة وعلوم لم يكن قد اخذت طريقها للمعرفة من قبل فى بلاد السودان .

ولقد تعاون السودان فى تلك الحقبة الزمنية (١٥٩١- ١٧٦٠م) بقدر واسع فى اثراء حركة الفكر العربى الاسلامى ودفع الفكر الاسلامى والثقافة العربية إلى جهات اوسع وابعد فى القارة الافريقية وصولا إلى وسط القارة وسواحل بنين والا كن والجوكون حيث المناطق الجنوبية التى لم يكن للحركة الاسلامية ان تصل اليها الا بفضل الوجود المغربى المكثف فى بلاد السودان واسبغ علماء السودان (احمد بابا، محمود كعت، عبد الرحمن السعدى، وغيرهم من علماء هذه البلاد على حركة الفكر الاسلامى والتعليمى دورا لا يقل شانا عن غيرهم من علماء الشرق الاسلامى والمغرب ذلك لان مؤلفاتهم قد اخذت طريقها للتدريس بين ايدى الطلاب فى جامعات المشرق والمغرب، بل ان بعضا من هؤلاء الاساتذة السودانين مارسوا تدريسهم فى جامعات المغرب احمد بابا، عبد الرحمن السعدى فى جامعات القروين وفى الجامعة المصرية الازهر فى ذلك الوقت) بل ان عديدا من الاساتذة السودانين قد تضلعوا فى علوم التفسير الحديث مما جعلهم يقومون بتدريس هذه المواد فى جامعة الازهر .

لكن رغم ما استجد من علوم دراسية لم تكن معروفة من قبل الا ان علوم الشريعة الاسلامية بفروعها المختلفة وعلوم اللغة العربية ظلت هى الاساس فى الحركة العلمية والتعليمية فى السودان خلال فترة الوجود المغربى فى بلاد السودان، بل ان هذه العلوم كانت جميعها تدور حول المذهب المالكى الذى كان هو مذهب هذه البلاد والذى قدم اليها من المغرب وقد ساد المغرب والسودان معا ومن هنا حرص اهل السودان على اتباع تعاليم هذا المذهب والاخذ بها فى جميع مناحى الحياة اليومية ولقد التزمت المدرسة الشرعية السودانية بقالب معين فى الفكر الشرعى لم تحاول الاخذ باسلوب العرض والتحليل والاجتهاد مما اصاب هذه المدرسة بالقصور واتهمت بالمعرفة السطحية لاغراض العلوم الشرعية .

ولقد حفلت الحياة العلمية بالعديد من العلماء السودانيين الذين ساهموا فى اثراء النهضة العلمية بتلك البلاد فى المجالات الشرعية والعلمية والادبية والذين ظل نشاطهم قائما حتى نهاية القرن السابع عشر وكان لهم ابداعات فى ميدان التاليف والمناقشات فى المسائل العلمية والشرعية والدينية واللغوية وساهم علماء سنغاى فى خدمة العام ونشره بين طبقات الطلاب الدارسين والمثقفين والمتطلعين إلى المعرفة لاسيما وان العلماء قد حظوا بمكانة عالية فى اعين الناس وقد استمر التقدير والاحترام للعلماء سواء تعلق الامر بالسكان او بالحكام، بل ان السودانى وصل به الحد فى تقدير واحترام رجال العلم والدين إلى انه اعتبر عالم الدين والفقية والقاضى جزءا لايتجزا من كيان الشرع نفسه، ومن اجل ذلك فقد نسب لبعض من هؤلاء العلماء بعض الخوارق والكرامات ووضعوا فى مصاف الصالحين والاولياء وذلك لما تركوه من آثار وبما طبعوا به المدرسة السودانية فى هذا المجال لاسيما انهم كانوا بعيدين عن الحكم والسياسة، وقد احترم السلطان احمد المنصور نفسه صاحب فكرة الغزو وخليفة المسلمين فى المغرب والسودان رجال الدين والعلماء السودانين وقدرهم حق التقدير والاحترام ومن ذلك فان العالم السودانى احمد بابا عندما قدم للسلام على المنصور جعل موظفو القصر حجابا بينهما فرفض احمد بابا ان يتحدث مع المنصور الا اذا رفع الحجاب وقد لبى طلبه وتكلما وجها لوجه فى امور السودان وما لحق بالعلماء من جراء تعسف الحاكم محمود زرقون .

هكذا حظيت فترة الحكم المغربى باهتمام وعناية كبيرة بالتعليم من جانب السلطة والشعب نظرا لارتباط التعليم بالمقومات الدينية التى كان يهدف المنصور ورجالات حكمه إلى ترسيخها والدعوة اليها بين الاهالى ونشر الدعوة الاسلامية بين الوثنيين. وقد حظيت هذه النهضة بسمعة مدوية فى العالم الاسلامى من ازدياد حركة

النقله والترحال لاسيما جامعة تمبكتو وكانت سمعتها تضارع جامعة فاس والقاهرة وتونس وغيرها من الجامعات الاسلامية فى ذلك الوقت، بل ان هناك آراء تذكر ان محمود زرفون الذى خلفه جودر فى حكم بلاد السودان ارسل العلماء السودانين ليس مبعدين او مضطهدين كما قبل بل للاطلاع على جامعات ومعاهد العلم وامهات الكتب ودراسة طرق العلم والتدريس فى بلاد المغرب والا لماذا سمح لهم بالعودة من المغرب إلى السودان بعد قضائهم فترة من البحث والتدريس والاطلاع والتاليف، بل العديد منهم قد الف كتبا فى بلاد المغرب والذين منهم احمد بابا الذى الف جزءا من كتابه نيل الابتهاج بتطريز الديباج فى السودان واتم الجزء الباقى فى مراكش مما يعطى الدلالة بانهم كانوا فى رحلة علمية وليس للنفى والا لاختار لهم محمود زرقون باشا السودان مكانا بعيدا إلى الجونب حيث الوثنين والذى كان يقوم فيه حكام سنغاى السابقين من الاساكى بارسال المنفين او المسجونين إلى هذه البقاع، كما انه قد سمح للعلماء السودانين بان يصحبوا مكتباتهم معهم فى رحلتهم إلى المغرب. وان يقابلوا الخليفة المنصور السعدى نفسه ويتحدثوا معه فى شئون بلادهم .

وهناك العديد من الطلاب صحبوا هؤلاء العلماء فى رحلتهم إلى المغرب حيث درسوا امهات الكتب على الاساتذة السودانين والمغاربة وحيث كانوا يحضرون بمجالس العلم بفان ومراكش او يتجهون إلى مصر والحجاز لاداء فريضة الحج .

ومن المؤكد ان المدن السودانية التى كانت تضم المراكز الثقافية والحضارية السودانية قد تحولت اثناء الحكم المغربى من مراكز للاشعاع الدينى إلى مراكز للاشعاع الثقافى والحضارى واصبحت من المدن المشهورة فى العالم العربى والاسلامى كبقيه المدن التى ترقد فيها معالم العلم والثقافة وتعج بالاساتذة والطلاب والمؤلفات الكثيرة. ولكن تطلع العالم الاسلامى باثرة والعالم الاوربى المعاصر فى ذلك الوقت بمعرفة

الكثير عن المراكز الحضارية الاسلامية جنوب الصحراء الكبرى وبدات محاولات العديد من الاوربين لمحاولة معرفة الكثير عن جامعة سانكرى فى تمكيتو التى اصبحت مركز الحضارة والثقافة العربية الاسلامية فى ذلك الجزء المجهول من العالم الاسلامى واصبحت تشكل مدرسة جامعة إلى جانب المدارس والجامعات العربية الاسلامية فى البلاد الاخرى ولقد تركت فترة الحكم المغربى بصماتها المتعددة فى مختلف المجالات الحضارية وشهدت الحياة الاجتماعية والمجتمع السودانى تطورا واسعا فى القرن السابع عشر الميلادى وتغيرت اساليب وانماط الحياة والمعاملات والسلوكيات اليومية والحياة القبلية والطبقات الاجتماعية وعادات الملبس والماكل والطعام والاحتفالات والزواج والفنون (انظر حركة الفنون والعمارة فى غرب افريقيا، للمؤلف، مجلة الفيصل السعودية العدد ١٠٧ ، فبراير ١٩٨٦) .

وهكذا ساهمت حركة النشاط المغربى اثر الفتح فى التطور السياسى والاقتصادى والثقافى فى جميع المجالات المختلفة فى المجتمع السودانى (انظر رسالة الدكتوراة، للمؤلف، السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية جامعة اسيوط، ١٩٨٣) .

محمد الغربى، بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى، بغداد، ١٩٨٢) للاستزادة عن اثر الفتح المغربى لبلاد السودان الغربى حيث ان المجال هنا لايتسع للحديث عن مآثر تلك الغزوة بهذه الصورة التى يراد منها اختصار العناصر بصورة تتناسب مع دراسة الموضوع عن الدولة السعدية وليس عن فتح السودان، ذلك لان هذا الموضوع قد اعدت فيه العديد من الدراسات الاكاديمية والتى فيها كانت الدراستان لدرجة الدكتوراه) ونكتفى بهذا القدر عن غزوة بلاد السودان فى عهد المنصور وعلى الذى يريد الاطلاع والتوسع فى هذا الموضوع ان يعود إلى هاتين الدراستين ويضاف اليها دراسة الدكتور عبد الكريم كريم. عصر المولى احمد المنصور الذهبى دكتوراة،

آداب عين شمس ١٩٦٩) وبهذا يتاح للباحث المتعمق الاطلاع على هذه الرسائل الثلاث حول الموضوع. ليدرك ان ما اشيع حول الغزوة والاضرار ببلاد السودان وانها آخرت تقدم السودان والسودانين لم تكن غير قرية اوربية باطلة يراد من ورائها الاساءة والتقليل حول كل عمل عربى اسلامى من شانه ان يعود بالفائدة والخير على بلاد الاسلام ان الذين يطالعون هذه الرسائل الثلاث يدركون البعد المغربى فى تغير وجه الحياة السودانية بصورة تامة وفقا لما كان يسود عالم المغرب العربى فى ذلك الوقت من القرن السابع عشر الميلادى .

الفصل السادس

الدولة السعدية بعد احمد المنصور الذهبى

تعرضت المغرب بعد وفاة المنصور الذهبى لكثير من المحن والشدائد، بل ان الاخطار قد زادت على البلاد واشتدت وطأة التدخل الاجنبى الخارجى والاحتلال الاوربى والتركى، فقد استفاد فيليب الثالث ملك اسبانيا من هذه الظروف لتصفية قضية المسلمين الاندلسين (المورسكين) نهائيا واستغل طلب ابناء المنصور لمساعدته فى مقابل تنازلات اقتصادية وسياسية واستراتيجية ولم يلبث فيليب الثالث ان امر فى عام ١٦٠٩م بطرد جميع المسلمين الاندلسين (المورسكين) من جميع المدن والقرى الاسبانية. وقد تم تنفيذ هذا القرار بالفعل ونجحت اسبانيا فى تصفية بقايا الاندلسين ويبلغ عدد الذين طردوا على هذه الصورة نصف مليون مسلم من ديارهم فنزلوا سواحل تونس وطرابلس والجزائر والمغرب الاقصى ويقدر بعض المؤرخين (فيليب حتى، تاريخ المغرب) ان عدد المسلمين الذين طردوا من الاندلس منذ سقوط غرناطة حتى النصف الاول من القرن السابع عشر الميلادى بنحو ثلاثة ملاين مسلم هاموا على وجوهم فى شتى انحاء البلاد الاسلامية لكن وفاة احمد المنصور الذهبى كانت دافعا لفيليب الثالث لتصفية جذور المشكلة ومن هنا فقد استطاع ان يضع نهائيا حلا لمشكلة التواجد الاسلامى فى اسبانيا .

ولقد اهتزت صورة المغرب بعد وفاة المنصور ذلك لان المغرب الذى كان ينعم بالقوة والسيادة والاستقرار والياس والشدة فى مواجهة الاخطار والاحداث فى عهد الخلفاء السعدين الاوائل حتى وفاة المنصور، ذلك لان هؤلاء الخلفاء كانوا يضعون فى خططهم الاهتمام ببناء الكيان المغربى القوى ورفع شان هذه الديار امام القوى الخارجية التى تتربص به الدوائر والمحافظة على الاستقلال الوطنى والامساك بلعبة التوازن

فى العلاقات بين القوى الكبرى فى ذلك العصر .

لكن المغرب بعد وفاة المنصور مباشرة بدا يعانى من عوامل الانحلال والانقسام والصراع والتفكك والتقهقر والانطواء داخل حدوده والتشرذم وقيام كيانات صغيرة على ارضه لاسيما فى عهد الخلفاء المتاخرين الذين تدافعوا على كرسى الحكم الذى كانوا يتقاتلون عليه من اجل الفوز به وعلى حساب الكرامة المغربية او القتل والتدمير وقد ادى ذلك إلى الضعف امام اعداء المغرب فى الداخل والخارج. وفقد الشعب ثقته فى حكام السعدين بعد ما كان يرى ويستمع ويشاهد الاحداث والصراعات الدامية على ارضه من اجل المنصب لا من اجل المصلحة العليا للقيادة الاسلامية الشريفة، فبدأ الشعب يتطلع إلى قيادة اسلامية جديدة شابة تستطيع ان تمسك زمام الامور وتاخذ بيد الشعب إلى طريق الوحدة بعد ان تهالكت القيادة السعدية وبدات النهاية تقترب والكهولة تعنى النهاية وبات الامر مجرد سنوات قصيرة حتى تكون النهاية قد حلت وبدات اوضاع سياسية جديدة بقيادة اسرة شريفة جديرة تقود المسيرة إلى ما يحقق اهداف الشعب العربى المسلم .

ولقد كان هناك الكثير من الاسباب والعوامل التى عجلت بوضع نهاية للاسرة السعدية بمجرد وفاة الخليفة احمد المنصور الذهبى لاسيما ان نظام ولاية العهد الذى كانت تسير الدولة على اساسه فى تولية الحكم قد دفع البلاد إلى كوارث ومتاعب كثيرة لأنه لم يكن يلتزم بان يكون اكبر ابناء الخليفة هو ولى العرش ولكن كانت هناك اعتبارات اخرى فى اختيار ولى العهد مما كان يترتب عليه حدوث التنافس والتطاحن والاقتتال بين ابناء الخليفة او احد ابناء البيت السعدى بالقوة اكثر من غيره او انه يستطيع ان يجد الانصار الذين يؤيدنه فى تولى الحكم فانه كان يتحدى ولى العهد الشرعى وينقض على مقاليد الحكم ويعمل على الاستيلاء على السلطة الشرعية

عن طريق القوة وكانت هذه الافعال التى تدور حول العرش تدفع بالاهالى إلى التمرد وعدم الثقة فى الخلفاء وزوال هيبة الدولة وانقسام ابناء البيت السعدى بين مؤيد ومعارض لولى العهد او الحاكم الشرعى وبين من استخدم القوة والنفوذ فى الاستيلاء على السلطة ولقد حدث الصراع على اشدة بين ابناء المنصور الثلاثة بعد وفاته مباشرة وكان قرار المنصور السعدى بتعيين اولاده حكاما على الولايات والاقاليم ايذانا بتفكك الدولة وبداية انهيارها بعد وفاته وكان الصراع قد بدا اولا فى ولاية زيدان والمامون وأبى فارس وكان تقسيم احمد المنصور الذهبى حكم الخلافة على اولاده الخمسة فى تجربة مكررة للحكم اللامركزى والذى كان قد جر الويال على البلاد باستمرار وعلى السلطة الاقليمية الحقيقية التى كان يتولاها ابناء الخليفة السلطان .

(أ) الخليفة زيدان بن احمد المنصور
١٠١٢– ١٠٣٧هـ

تمت بيعة زيدان بعد وفاة ابية فى ربيع اول عام ١٠١٢هـ وكان زيدان يتولى حكم مدينة فاس شانه شان كل اولياء العهد الذين يتولون حكم هذه المدينة باعتبارها المدينة الثانية فى البلاد بعد مراكش ومن يتولاها لابد ان يكون خليفة البلاد بعد كوت الخليفة وذلك لكى يكسب خيرة الحكم وادارة شئون البلاد، لكن كان مقر الخلافة فى مراكش لذا نجد ان اهل الحل والعقد والاعيان وعليه القوم والشعب قد بايعوا اخاه فى مراكش، لكن زيدان كانت قد تمت مبايعته من اهل فاس وابا فارس تمت بيعته من اهل مراكش ولم يعترف اهل مراكش بيعة اهل فاس لزيدان. لذا كان فى البلاد حاكمان احدهما وهو الشرعى فى فاس والثانى فى مراكش ومن تلك اللحظة بدات الاخطار تدق ناقوسها فى البلاد ايذانا بدخول البلاد فترة صراع جديد، بعد ان استتبت الامور خلال اكثر من ربع قرن فى عهد المنصور الذهبى ومن ثم تم انقسام البلاد بين الاخوة وظهر الصراع والتنافس على اشدة وانقسمت القوات والقبائل والبيت السعدى نفسه بين مؤيد لزيدان ومعارض لابى فارس وبالعكس وبدات الحرب الاهلية والصراع الدموى والقتال الضارى يشتد بين الاخوين زيدان فى فاس وابو فارس فى مراكش وبدأ كل منهما يجهز قواته ويستعد للقتال وبات الشعب مهددا فى آمنه داخليا وبالاحتلال من الخارج ونسى كل من ابناء المنصور قضية البلاد الكبرى وهى المحافظة على الاستقلال ودولة المنصور فى السودان والانتهاء من الجيوب الاستعمارية فى البلاد وتلاقت قوات الاخوين فى مكان بالقرب من ام الربيع يقال له (اخواته) لكن قوات الحاكم الشرعى زيدان انهزمت امام قوات ابى فارس والتى كان يقودها اخ ثالث لهما بدلا من أبى فارس هو المامون وتراجع زيدان بمن بقى معه من قواته إلى فاس، لكن

الشقيق الثالث وقد استبدت به شهوة الحكم بعد ان حقق انتصار ام الربيع على زيدان ساورته نفسه فى الحكم ومن ثم طمع فى الاستيلاء على فاس وان ينصب نفسه ملكا عليها بدلا من زيدان ويستقيل عن اخيه ابى فارس فى مراكش ما دام هو صاحب الانتصار فلابد له ان يحكمها بدلا من اخيه فى مراكش .

ولما كانت قوات زيدان قد انفضت من حوله ولم يعد له طاقة فى قتال المامون فقد ترك فاس وفر إلى الاتراك فى تلمسان يطلب عونهم ومساندتهم فى العون إلى حقه الشرعى فى الحكم ودخل المامون فاس واستقر الحكم له ونصب نفسه سلطان وخليفة للبلاد، ثلاثة خلفاء زيدان وابو فارس والمامون) بل اكثر من ذلك فان المامون بعد ان كسب التأييد وشعر بالقوة عزم على القضاء على اخيه ابى فارس والاستيلاء على مراكش ليكون الحاكم الاوحد فى البلاد بعد ان فر زيدان إلى تلمسان وكان عليه ان يجهز قوات كثيرة العدد والعدة وان ينفق الاموال الطائلة على تجنيد القبائل وحشد القوات المرتزقة من العبيد والاوربين وعهد بقيادة هذه القوات إلى ابنه (عبد الله بن المامون) الذى استطاع ان يهزم قوات عمه ابى فارس وان ينجح فى دخول مراكش وبهذا الانتصار استطاع المامون ان يوحد البلاد تحت حكمه منذ وفاة ابيه المنصور ودانت له فاس ومراكش فى شعبان عام ١٠١٥هـ .

لكن هل استقرت الامور على هذا المنوال طبعا لا فقد كان زيدان الحاكم الشرعى للبلاد يقف لهم بالمرصاد بعد ان امده الاتراك فى تلمسان بالاسلحة والذخيرة والرجال فتقدم من وجدة إلى سجلماسة واستولى عليها ثم دخل درعه وبلاد السوس فى الجنوب حيث المركز الاول للدعوة السعدية ومن الجنوب استطاع ان يحشد قواته ويعد عدته متطلعا إلى مراكش التى استطاع ان يدخلها وان يهزم قوات عبد الله بن المامون وفر عبد الله إلى ابيه فى فاس ولكن زيدان استطاع ان يتبع فلوله المنهزمة وان

يقضى على قوة فاس، لكن الحرب سجال فقد حشد عبد الله بمعاونة ابيه المامون قواتهما وتحالف سويا من اجل طرد زيدان من مراكش وفعلا نجحا للمرة الثانية فى طرده منها بعد ان استقر لهم المقام فى فاس ومراكش للمرة الثانية .

لكن ازاء هذه الاحداث الدامية فقد استقر راى اهل مدينة مراكش على مبايعة احد افراد البيت السعدى من غير ابناء احمد المنصور هو الامير السعدى محمد بن عبد المؤمن بن محمد الشيخ المهدى وهو ابن عم زيدان وابى فارس والمامون ومن هنا فقد دخلت شخصية رابعة من خارج ابناء المنصور فى الصراع على العرش وذلك بتاييد شرعى من اهل الحل والعقد واعيان مراكش وحشد الامير السعدى محمد ابن عبد المؤمن بن محمد الشيخ قواته بيدعمه سكان مراكش، وقاتلوا عبد الله بن المامون بن احمد المنصور وتم طرده من مراكش ونصب ابن عبد المؤمن حاكما على مراكش وكان ذلك فى شوال فى عام ١٠١٦هـ ولم يستطيع عبد الله بن المامون ان يعود ادراجه مرة اخرى إلى مراكش بعد ان فر إلى فاس، لكن الحاكم الجديد لمراكش محمد بن عبد المؤمن وقع فى اخطاء كثيرة من جراء شهور حكمه القصير حيث لم تجد الاجراءات التى اتخذها قبولا لدى سكان العاصمة مما دفعهم بان يتحالفوا ضده ويضمروا شرابه فقاموا بالكتابة إلى الحاكم الشرعى او خليفة البلاد الذى خلف اباه احمد المنصور السعدى الامير زيدان الذى استطاع ان يدخل مراكش للمرة الثالثة وان يهزم قائد جند محمد بن عبد المؤمن وازاء هذه الاحداث المتلاحقه ادرك زيدان انه لابد من القضاء نهائيا على قوة المامون اخيه وابنه عبد الله وتحطم قواتها نهائيا حتى يتفرغ لحكم البلاد منفردا بعد ان طرد محمد بن عبد المؤمن نهائيا من مراكش وتحرك إلى فاس وطرد المامون وابنه عبد الله منها وهزمهم هزيمة نكراء وضع بها نهاية لكل ما كان يدور من احداث على ارض المغرب وانضم اثر انتصارات كل مؤيدى المامون من قوات

فاس إلى زيدان واستطاع زيدان ان يقضى على قوات التحالف بين المامون وابى فارس ومحمد الشيخ وان تستتب له الامور فى البلاد بعد صراع طويل انتهى مؤقتا عام ١٠١٨هـ بعد صراع بين الاخوة المتصارعين وابن عمهم لفترة زادت عن ست سنوات (١٠١٢- ١٠١٨هـ) شهدت فيها الوانا من العذاب والانهيار والاهمال والفوضى والصراع الدامى. وانقسمت البلاد وقل الانتاج وانهك الاقتصاد واضمحلت الصناعة وخربت الزراعة وهجرت المدن من سكانها وسادت البلاد حالة من الكساد والفقر والتفكك الاجتماعى والتدهور الاقتصادى وظهرت على السطح امارات محلية واستقل حكام المدن كل بمدينة وكان التاريخ يعيد نفسه هذه المرة على ارض المغرب ارض الاندلس ملوك طوائف بصورة اخرى تهدد البلاد بالانقسام وطمع الاعداء وكثرت المحليات الصغيرة التى خرجت عن طاعة فاس ومراكش فى ظل الصراع الطويل بين ابناء البيت السعدى من اجل الشهوة والسلطة وكثرت الثورات فى مختلف نواحى البلاد وكثر الخارجون على الشريعة الرافعون لراية العصيان وكثرت المنازعات وساد شعور عام بين الطوائف بان العرش اصبح مطمعا شخصيا وسادت النظرة الفردية دون مصالح الامة والعقيدة والمستقبل والارض المحتلة والبلاد السودانية المترامية فى الجنوب والذى بذل لها المنصور السعدى كل غالٍ ونفيس وكل جهد وعرق من اجل بناء وحدة اسلامية كبرى وشهدت هذه السنوات الست مقدمات الانهيار الاكبر للدولة وبدات اطراف الدول تتعرض للغزو وللاقتطاع نظرا لعدم وجود الحاكم الشرعى الذى يحمى الديار من التدخل الاوربى الاسبانى والانجليزى والفرنسى والمطامع الاوربية المتزايدة من قبل القوى الجديدة كهولندا وفرنسا وانجلترا وغلبت شهوة الحكم واعتلاء كرسى العرش على عقول الحكام، مما دفعت المامون بن احمد المنصور من اجل المصالح الفردية ان يرتمى فى احضان الاسبان طالبا المساعدة فى تولى العرش متنازلا عن ديار الاسلام والمسلمين وارض الاجداد ولاسيما حيث قبل ان يتنازل للملك فيليب الثالث

ملك اسبانيا وان يحقق حلم الاسبان للتقديم وهو ميناء العرائش وكان هذا هو الشرط الذى اشترطه فيليب الثالث ان يسلم ميناء العرائش ليدخل إلى فاس والميناء الغربى الهام الذى كانت تتصارع عليه القوى الثلاث الكبرى تركيا والبرتغال واسبانيا قبل معركة القصر الكبير ١٥٧٨م سلم بسهولة نظير نزوة الحكم وشهوة السلطان وكان ان قبل المامون ان يبيع بلاد الاسلام والمسلمين وخان قضية البلاد والعقيدة فبدلا من ان يقود المامون قواته لتحرير البلاد والثغور المحتله من اهله فى ايام رمضان عام ١٠١٩هـ وسلمه للاسبان وللاسف الشديد يتحرك شمال البلاد (بلاد الريف) بمساعدة القوات الاسبانية ويقدم العون والدعم والمساندة للاسبان ويتم الاستيلاء على ميناء العرائش بعد ان افرغه من اهله فى ايام رمضان عام ١٠١٩هـ وسلمه للاسبان وللاسف الشديد تم ذلك فى الشهر الحرام شهر الصيام ونزول القرآن بل ان ذلك كان فى الربع الاخير من الشهر وسكان الثغر المسلمين يغادرون ديارهم ووطنهم من اجل مطامع شخصية (هذا هو حال المسلمين) فهل وجد فى تاريخ اوربا المسيحية من يتنازل عن الديار من اجل المصالح الشخصية ومطمامع الحكم وهكذا تكررت الاحداث وقضية عبد الله الغالب وابنه محمد المتوكل فى التنازل عن ديار الاسلام والمسلمين وتواطئوا مع الصلبين المحتلين طلبا للمساعدة العسكرية والمساندة التى ترفع الصليب بدلا من نداء الله اكبر وخيانة للعقيدة ولمصالح الشعب المغربى العليا وتسليم بلد من بلاد الاسلام للفرنجة.
لكن الشعب المغربى الابى المتدين العريق العميق العقيدة الراسخ الايمان ثار لحمية الاسلام وتواطئ السلطان مع اعداء الدين والبلاد وقاد الشيخ ابو العباس احمد المقرى صاحب كتاب نفح الطيب الثورة فى الشمال ضد المامون وتزعم ثورة العامة الذين استطاعوا قتله لما قام به من افك فى حق الاسلام والمسلمين وكان قتله عام ١٠٢٢هـ وبهذا يكون الصراع قد استمر عشر سنوات (١٠١٢– ١٠٢٢هـ) منذ تولى الحكم الامير زيدان مقاليد الامور فى البلاد اسميا وبهذا وضعت نهاية محزية لمن خان شرف

الشرافة السعدية وقدسية الارض والتراب الوطنى وخرج عن شرع الاسلام ولقى اخوه ابو فارس مصرعه مثل المامون وذلك بقتله خنقا نظرا لاستهانته بحق الدولة والدين والعقيدة وكان ذلك قبل موت المامون باربع سنوات اذ كان ذلك عام ١٠١٨هـ ولكن زيدان الذى استمر يقود سفينة الحياة للبلاد باذلا كل جهد لمقاومة الثورات والمؤمرات على حكمه ومواجهة تحديات الخطر الخارجى وفقد المغرب قوته ووحدته من جراء هذا الصراع الطويل الذى استمر مع ابى فارس ست سنوات ومع المامون عشر سنوات نتج عنها توزع حكم البلاد إلى ولايات واقاليم ولم يكن زيدان الحاكم الشرعى للبلاد يحكم سوى مراكش وام الربيع وبن عبد الله بن المامون الذى كان يتولى حكم فاس والتى تولاه من بعده اخوته ابناء المامون إلى جانب حكم زعماء العشائر ورؤساء القبائل وبعض الثورات فى بلاد السوس ولقد كان زيدان بن المنصور الخليفة الشرعى للبلاد نظرا لقوة صبره وقدرته على مواجهة الصعاب والتحديات وانه فى النهاية استطاع ان ينفرد بالحكم وعلى كل الذين يقاتلونه ويقومون بالثورة عليه وكما ذكرت بعض المصادر الاوربية يوفل. ان مولاى زيدان بن احمد المنصور وخليفة ابيه قد شعر بالخيبة حين راى قلة ما تركه له ابوه صاحب السمعة المدوية والمشهور بالذهبى ان الخزائن تكاد تكون خاوية وان غزو السودان قد استنفد مواد وطاقات هائلة وتكاليف باهظة وان هذه الغزوة قد قضت على ثلاثة وعشرين الف جندى وان كل من عاد من بلاد السودان عند استبدال القوات والاحلال قد مات من جراء الامراض التى كانوا يحملونها معهم وظهرت الخزائن خاوية فارغة وان ما تحملت البلاد خلال الغزو وما استنفد من الرجال والمعدات وذهب كله عبثا (اقوال مضادة للاسلام والمسلمين) لكن اليفرنى يذكر بعد خمسين عاما من عودة الحملة الاولى ونجاح المهام الموكلة اليها ان المغاربة كانوا وما زالوا بعد موت المنصور بفترة طويلة يذكرون بالفخر النتائج التى تحققت لاسيما بتدعيم اواصر الاخوة الاسلامية وتوسع ديار الاسلام وانتشار الدعوة

الاسلامية واقبال السودانين على البلاد المغربية حيث لازالت الاثار المغربية والاثر الحضارى ظاهرا فى كل اوجه الحياة وعلى الرغم من الثروة التى حصل عليها المنصور من الذهب فان فضل الدعوة الاسلامية والدخول فى الاسلام باعداد كبيرة من القبائل الوثنية يعوض كل اثر اخر .

ولقد شهد سنوات حكم زيدان بن المنصور الغزو الاوربى لالتهام القارة الافريقية كما حدث فى ايام الامير هزى الملاح منذ قرابة قرنين ذلك لان وجود احمد المنصور فى السلطة فى الغرب كان يشكل حاجزا قويا ضد الاطماع الاوربية عامة فى بلاد السودان ولقد كانت السنوات التى امضاها زيدان منفردا بالحكم منذ عام ١٠٢٢هـ حتى عام ١٠٣٧هـ خمسة عشر عاما اعواما قاسية فى ادارة البلاد، ذلك لان الاوضاع التى كانت تسود فى عهد المنصور قد ولت ولن تعود القوة والثروة والمكانة الدولية التى حققها المنصور والعلاقات الدولية فى كبريات الدول فى العالم المعاصر والتهافت على اقامة علاقات مع المغرب، كل ذلك لم يكن الا اهدافا وخواطر تروى عن عهد قريب وتبدل الحال غير الحال فلم تعد قوة الدولة مرهوبة داخليا ولا خارجيا ولم يعد السلطان الحاكم من القوة والنفوذ حيث يحسب له حساب من رعيته او فى المجال الخارجى .

لكن رغم الثورات الداخلية والصراعات الاسرية فان الحكم المغربى كان قد وطد نفوذه فى البلاد السودانية وكان الحكام الباشوات لازالوا يحكمون البلاد باسم الخليفة السلطان السعدى والقوات المغربية تتحرك إلى الجنوب طلبا لما يحتاج اليه الباشا الجديد والاتصالات مستمرة والاحوال العامة فى تقدم والمغاربة يبذلون جهدهم فى ان يجعلوا صلة الربط بينهم وبين السودانين قوية لاسيما انهم قبلوا العيش فى ظل حكم واحد وادارة مغربية لمس الافريقى بها مباهج الحضارة المغربية فاندفع ياخذ منهم ما يتلائم مع

قيمه وعاداته وتقاليده وكذلك فان المغاربة الذين استقر بهم القيام وطابت لهم المعيشة تزوجوا من بنات السودان وامتلكوا الدور والزروع واستعدوا للاقامة الدائمة فى هذه الاوطان وهذا دليل قوة العقيدة الاسلامية والبناء الاسلامى الواحد ذلك لان المجتمع السودانى قد قبل عن طيب خاطر ورضى الوجود المغربى الذى استقر وتعايش الجميع تحت الحكم السعدى باعتبار ان السعدين مسلمون وافارقة وانهم كانوا يعيشون على مقربة منهم فى الصحراء جنوب بلاد السوس قبل الانطلاق لتكون الدولة السعدية وانهم كانوا يجاهدون البرتغالين ويصدونهم عن التوغل للداخل وكان السودانى يرى فى ذلك دفاعا عن وطنه وترابه وعقيدته ولم ينظر فى يوم من الايام إلى ان المغربى جاء محتلا او صاحب سيادة بل عاش الجميع فى ظل راية الاسلام اخوة، كما ان زيدان بعد ان فرغ من صراعه ابدى اهتماما بالاحداث الجارية فى بلاد السودان وواصل سياسة أبيه فى النهوض بهذه الاقاليم الاسلامية .

ب – الدولة السعدية بعد زيدان بن المنصور

عبد المالك بن زيدان

بوفاة الخليفة زيدان بن احمد المنصور الذهبى عام ١٠٣٧هـ بعد ان ظل يحكم البلاد فترة ما يقرب من ربع قرن من الزمان قضاها فى محاربة اخوته واخماد الثورات والتقرب إلى الاطراف الدولية المعاصرة والاستعانة بالاتراك لاجل الاستمرار فى السلطة لكنه قبل وفاته كان قد اخذ البيعة لابنه عبد المالك لكى يتولى الحكم خلفا له وتم تنصيب عبد المالك بعد وفاة ابيه مباشرة وبايعه اهل الحل والعقد وعليه القوم وكبار رجال الدولة والجيش فى مراكش لكن هذه البيعة لقيت معارضة شديدة من جانب اخوته الوليد بن زيدان واحمد بن زيدان وتمردا عليه وقاد قواتهما لاسقاطه عن العرش فى مراكش ونشبت بينهما معارك كثيرة استغلها احمد فى الفرار من داخل مراكش واللجوء إلى العاصمة فاس حيث استطاع الدخول اليها والانفراد بالحكم بها عام ١٠٣٧هـ نفس عام تولية عبد المالك ومن هنا انقسمت البلاد على نفسها بين الولاء لعبد المالك واخيه احمد كل منهما سلطانا على الاجزاء التى يحكمها من المغرب لكن احمد بدأ ياخذ اهمية الملك السلطان فضرب السكة باسمه فى فاس واستقبل السفراء وراسل الملوك السلاطين فى الخارج باسم حاكم فاس وخليفة السعدين ولما كانت افعاله قد خرجت عن المالوف والمتعارف عليه بين ابناء الاسرة السعدية ومن طوائف الشعب المختلفة فان الشعب بتحريض من عبد المالك وتاليب القواد العسكرين عليه فقد تم اعتقاله وسجنه فترة طويلة من الزمن لكنه استطاع بمعاونة رجال السجن ان يفر من سجنه لكن قوات عبد المالك تتبعته حتى تم قتله عام ١٠٥١هـ .

ولقد احس الشعب المغربى من طول المعاناة والصراع بين افراد البيت السعدى طوال فترة تقرب من نصف قرن منذ وفاة احمد المنصور وقد ادى قتله إلى عدم

الاكتراث بالخلفاء ورجال السلطة والحكام والسخرية من افراد الاسرة الحاكمة نظرا للافعال التى كانوا يقومون بها وتعاونهم مع المحتل الغاصب بدلا من طرده من الديار الاسلامية يسلمون له البلاد بعد ان يتم طرد المسلمين وتسليمها خالية من السكان إلى العدو الاسبانى، كما ان شهوة الحكم والمطامع الشخصية والتامر على البلاد والعباد وبيعها للفرنجة لكن ازاء كل هذه الاحداث والمصائب التى حلت بالبلاد لم يكن مقتل احمد بن زيدان كافيا لكى يجنب البلاد ويلات الفرقة والصراع فقد قام الوليد ابن زيدان بالاعتداء وقتل الخليفة الشرعى للبلاد عبد المالك اخيه وذلك سنه ١٠٤٠هـ بعد ثلاثه اعوام فقط من توليه السلطة، ولما لم يكن امام اهل الحل والعقد والشعب المغربى بد من ذلك هو مبايعة القاتل الذى كان يرى فى القتل وسيلة للوصول إلى الحكم بغض النظر عن مصير البلاد والعباد وضرورة ان يكون الوالى. والحاكم واضعا نصب عينيه المصالح العليا للبلاد قبل الوصول إلى الحكم لا ان يكون الحكم فترة للملذات واشباع الشهوات ولم تكن الاهداف العليا التى قامت على اساسها الدول فى البداية تعنى الحاكم من قريب او من بعيد بغض للنظر عن أن البلاد قد تمزقت وصارت كيانات صغيرة والعدو يتربص بها ورجال الصوفية والقبائل يسيطرون على البقية الباقية من البلاد ولم يعد للحاكم السعدى سوى العاصمة مراكش وبعض المناطقة المجاورة لها وكما هى الحالة فى عهد ابيه زيدان لم يعد الوليد الذى قتل اخاه عبد المالك يحكم من المغرب الاقصى الواسع العريض سوى مراكش وبعض الاحواز القريبة منها بل انه لم يتوسع قليلا عما كان عليه الحال أيام اخيه عبد المالك .

ولكن الوليد بن زيدان لم ينعم بالحكم طويلا ولم يسرفى البلاد والعباد والاسرة السعدية الحاكمة كما أمر الله بل اننا نجد انه قام بالانتقام بالقتل والطرد والسجن فى كل من كان يشك فى نواياه او عدم الولاء له من افراد الاسرة السعدية وكذلك فى

كبار القواد العسكرين الذين غدر بهم وكان يرسلهم فى حملات تغريبية إلى بلاد السودان او قتلهم فى ثورات كان يديرها بمعرفة رجال القصر، لكن كبار رجال القصر والحرس الخاص وقد رأوا بشاعة الاعمال التى كانت تتم وظنوا ان الدور عليهم لامحالة بعد ان توعد كبارهم بالقتل فانهم دبروا قتله داخل القصر وهو ما تم حيث استطاعوا الانقضاض على رجال الحراسة وقتله عام ١٠٤٥هـ بعد ان مكث خمس سنوات لم يقم فيها بادنى عمل يذكر سواء فى النواحى الداخلية او الخارجية اللهم الا الفتك والقتل وسوء الظن والانغماس فى الملذات وتلبية الاهواء الشخصية صارت البلاد فى نظر الدول الاوربية المعاصرة عبارة عن دويلات صغيرة وفقدت كيانها الواحد مما دفع دولة كانجلترا ان تقيم علاقتها مع الوحدات المستقلة الصغيرة لاسيما امارة سلا التى كان يحكمها المجاهد الاسلامى ابو عبد الله العياشى ولاسيما ان كل هذه الدول الاوربية وبخاصة انجلترا كانت تطمع فى خيرات المغرب وثرواته الطبيعية بعد ان ظهرت هذه النوايا فى عهد زيدان بن المنصور الذى سمح للهولندين والفرنسين والانجليز باقامة قواعد وحصون لهم بالساحل وتحالف معهم ضد قوات الجهاد الاسلامى البحرى الذين كانوا يتخذون من موانئ المغرب مقرا لهم للتصدى للسفن الاوربية .

وفى عام ١٠٤٥هـ بعد مقتل الوليد لم يجد عليه القوم ورجال البلاط شخصا يتولى مقاليد الامور فى البلاد بعد ان عزف عنها أفراد الاسرة السعدية الا طفلا صغيرا من ابناء زيدان وهو الاخ الاصغر للوليد هو محمد الشيخ بن زيدان حيث كان فى مقدمة المرشحين للخلافة فتم اخراجه من السجن الذى كان أودعه فيه الوليد وتمت مبايعته بالخلافة فى مراكش وظل محمد الشيخ الصغير حاكما على مراكش وما حولها لكن السلطة الحقيقية والفعلية كانت بايدى رجل القصر والبلاط وكبار رجال القوات العسكرية، لكنه ظل يحكم البلاد فترة طويلة وصلت إلى عشرين عاما حيث مات عام

١٠٦٥ اذ سادت فترة حكمه الفوضى والضعف والانهيار السياسى والاقتصادى والفساد الاجتماعى وازداد نفوذ الحركات الانفصالية فى البلاد وانقسمت البلاد إلى اكثر من عشر ولايات كل منها تمارس شئون الحكم بمفردها بل كل منها تتصارع مع الولاية الاخرى من اجل بسط النفوذ والسيطرة وتوسيع نطاق الولايات على حساب الاخرى وكانت الفتن الدامية والدسائس تأخذ المقام الاول فى المهام التى يوكل بها الخليفة للتخلص من مناوئية او الذين يخشى خطرهم من رجال القصر ومن رجال الادارة او حكام الاقاليم والامارات التى كان بعضها يقاتل البعض الاخر، بل ان كثيرا من هذه الولايات كان يرفع لواء الجهاد الاسلامى ويدخل فى قتال مع الجيوش الاستعمارية الاسبانية احكام سلا وعبد الله العياشى الذين كانوا يحققون انتصارات بمساعدة رجال الجهاد البحرى .

لكن كل هذه الامور كانت تعمل بان تضع نهاية للدولة التى كانت بوادر نهايتها قد بدات بموت الخليفة القوى احمد المنصور الذهبى على الرغم من انه قد مضى اكثر من ستين عاما على وفاته لم تشهد فيها البلاد ادنى عمل يذكر لاى من الحكام الذين تولوا حكم البلاد فاذا كان زيدان بن المنصور قد ظل يحكم البلاد منذ عام ١٠١٧– ١٠٣٧هـ عشرين عاما هجريا ١٦٠٨– ١٦٢٧ وكذلك ابنه عبد المالك الذى ظل يحكم ثلاث سنوات من ١٠٣٧– ١٠٤٠هـ (١٦٢٧– ١٦٣١م) فان محمد الشيخ ابن زيدان الذى لقب ابو عبد الله ظل يحكم ايضا من ١٠٤٥– ١٠٦٣هـ (١٦٣٦– ١٦٥٢م) فان هذه السنوات الطوال لم تكن صورة البلاد داخليا الا كراهية الشعب للاسرة السعدية وتطلعهم ليوم جديد لم تكن فيه هذه الاسرة قابضة على مقاليد الامور كذلك فان الصورة الخارجية للمغرب لم تكن الا بعض الدويلات التى تقاتل بعضها البعض من اجل تحقيق المكاسب الشخصية والعدو الخارجى يتطلع

إلى اضعاف هذه القوى الاسلامية ومساعدة بعضها الآخر بالاسلحة والجنود وكل ذلك كى يحول دون توحيد هذه البلاد مرة اخرى حتى لايتفرغ الجميع إلى العدو الخارجى وطرده من ديارهم .

لكن تولية محمد الشيخ بعد مقتل المامون بن زيدان لم تكن لتحل مشكلة العرش السعدى ليكون الحكم فى مراكش وفاس تابعا لخليفة واحد لكن كما كانت سنة السالفين منذ عهد زيدان فان ابناء المامون فى فاس استقلوا بحكمها بعيدا عن عمهم محمد الشيخ. ولكن رغم الاستقلال بحكم فاس الا ان ذلك الحكم البعيد عن العاصمة مراكش لم يكن فى مامن من الثورات والفتن والصراعات لذا نجد ابناء المامون يدخلون فى صراع فيما بينهم وكيف لايحدث ذلك وقد اصبح الصراع بين ابناء الاسرة الحاكمة سمة من سمات الحكم ومظهر من مظاهر الحكم السعدى .

وقد راى عبد الله بن المامون مقتل ابيه فعمل على الاستقلال بحكم فاس لكن الثورات انتشرت فى انحاء البلاد ولم تعد له القدرة الكافية على الاستقرار بحكم فاس مما دفعه إلى الاستعانة بجماعة من القواد العسكرين اطلق عليهم اسم الشراقة وهم الذين كانوا يقدمون من الجزائر واغلبهم من القبائل العربية والاتراك للعمل فى الخدمة فى القوات العسكرية وقد استعان بهم عبد الله بن المامون بن زايد لكى يشكلوا الغالبية العظمى من جنده، لكن نظرا للاعمال البشعة والتصرفات غير الاسلامية والاعتداء على الشعب وتجاوز حدود الشرع فان ذلك دفع رجال الدين والعلماء للتصدى لهؤلاء الجنود كما كان يحدث منهم من تجاوزات مع العامة واستيباحة المحرمات والخروج عن أمور الدين فقد استطاع احد رجال الدين المدعو بالشيخ (الربوع) طرد جيش عبد الله بن المامون ومعه الشراقة من فاس، لكن ذلك أدى إلى الثورة وعدم وجود حاكم شرعى قوى يستطيع ان يحكم البلاد ويحفظ الامن ويوفر الامان للشعب فاصبحت فاس مجالا

سهلا ومطية جاهزة لكل من يريد السلطة من رجال الدين وزعماء القبائل، لكن عبد الله استطاع ان يجمع قواته ويعود إلى فاس واعلن الناس بيعتهم للامير عبد الله بن المامون بن زيدان بن احمد المنصور حاكما على مدينة فاس فى الوقت الذى كان فيه عمه محمد الشيخ بن زيدان يحكم مراكش .

الفصل السابع

احوال المغرب فى عهد الاشراف السعدين

شهد المغرب الاقصى فى عهد الاشراف السعدين نوعا من التقدم والازدهار الحضارى والثقافى والتقدم العلمى والصناعى والزراعى بل ان هناك تغيرات كثيرة قد شهدتها الساحة المغربية وانعكست على اساليب الحياة اليومية وما تلاها من تغير اجتماعى وانفتاح على ابواب اوربا وعلاقات مع الاقاليم المجاورة مما ادى إلى الانتعاش فى جميع النواحى لاسيما ان الدولة السعدية قد انتشلت البلاد من التردى التى كانت تعيش فيها فى العصر الوطاسى السابق وشهدت البلاد حالة من الاستقرار السياسى لم تشهده من قبل وان كانت السيطرة الاجنبية الايبيرية على بعض للثغور المغربية لايقلل من انطلاق الدولة نحو التقدم والرقى والازدهار بحيث صارت محطة للانطلاق منها إلى افريقيا ومركزا تجاريا هاما سعت الدول الاوربية إلى اقامة العلاقت الاقتصادية والتجارية والسياسية معها بعد ان استطاعت ان تحفظ كيانها السياسى من الانطواء تحت السيادة التركية العثمانية ووقفت سدا منيعا ضد السيطرة البرتغالية وكسرت شوكتها فى معركة القصر الكبير ولم تحرك اسبانيا ادنى مطمع فى الاراضى المغربية .

ولقد كان عهد المنصور الذهبى هو ازهى عصور الدولة لاسيما ان احمد المنصور السعدى كان يمثل خليفة رسول الله ﷺ بحكم نسبه القرشى وبيعة المسلمين له واعتبار نفسه خليفة على كل المسلمين فى مشارق الارض ومغاربها، بل انه كان يرى انه لايصح لاى حاكم آخر ان يكون له حق استخدام لقب الخليفة وذلك باعتبار ان السعدين كانوا يرون أنفسهم انهم المنوطون بالخلافة القرشية وانهم بعث جديد فى المغرب للخلافة الهاشمية التى كانت فى السابق ممثلة فى دول الادراسة ومن هنا كان تلقبهم يلقب الخلفاء الهاشمين او لقب امير المؤمنين وانهم كانوا يرون فى كونهم من

ذرية رسول الله ﷺ تجب طاعتهم والخضوع لسلطانهم ومن هنا كانت الكلمة الاولى والاخيرة لسلاطين السعدين سواء فيما يتعلق بامور الرعية والسياسة الخارجية او شئون القضاء او خطط الجيش .

وقد كون المنصور السعدى مجلسا للشورى وهو مجلس لملا المسلمين وكانت فكرة الشورى هى اساس الحكم فى المغرب على الرغم من محاولات الكتاب الغربين لوصف المنصور والسعدين عامة بان حكمهم كان حكما مطلقا استبداديا وهذا يتناقص مع مببدا الشورى فى الاسلام الذى كان يسير عليه حكام السعدين. وكان مجلس الشورى يتكون من الاعيان والرؤساء والفقهاء وكبار رجال الدولة واهل الحل والعقد للتشاور فى امور الدولة وتقديم النصائح فى اخطر الشئون التى تمس مصالح البلاد والعباد وابداء الراى فيها. وكان هذا المجلس الاستشارى شبيها ببعض المجالس فى اوربا. ولقد كان نظام الشورى الذى سار عليه خلفاء السعدين نقطة تحول كبرى فى تاريخ المغرب فقد انتقلت فيه البلاد إلى حكم الشرع والدين وتطبيق الشريعة الاسلامية– كما ان الدولة انتقلت فى العصر السعدى إلى دولة قوية بدات تاخذ باساليب الدولة المدينة المستقرة وهو امر لم تكن المغرب قد عهدته من قبل حيث ادى ذلك إلى عودة التضامن الشعبى وانطواء البلاد تحت الراية السعدية بدءا من ظهور محمد القائم فى الدولة وابنائه احمد الاعرج ومحد الشيخ حتى عصر احمد المنصور الذهبى حيث تجددت فاعلية الحركة المغربية المشهود لها بالعمل والجد لتاخذ باساليب اليقظة الاسلامية القادرة على مواجهة التحديات والمخاطر والتى كانت وراء الفتح المغربى لبلاد السودان وتكوين دولة مغربية سودانية واسعة الارجاء وقيام كيان حكم ادارى قوى ياخذ باسسلوب الحكم اللامركزى فى الاقاليم والولايات والمدن الكبرى .

حيث مارس حكام الاقاليم والمدن صلاحيات حكمهم فى ظل سلطان الخلافة

التى اتخذت شعار الخلافة ومظاهرها مثل ذكر اسمائهم فى خطبة الجمعة بالمساجد والاعياد والدعاء للخلفاء السعدين وضرب اسماء الخلفاء على السكة المغربية. ولقد كان للخلفاء الاشراف الحق الكامل فى تعين الوزراء والقادة والكتاب والقضاة والفقهاء والحكام وولاة الاقاليم فى انحاء الدولة وكانت الحكومة هى قمة الجهاز التنفيذى والتى ضمت شخصيات سياسية ودينية وقبلية وعسكرية وانتقى الحلفاء السعديون وزراءهم من بين من تتوافر فيهم الكفاءة الواسعة والقدرة على العمل والعطاء وسرعة تنفيذ المهام الموكلة لهم وهكذا انطلقت البلاد نحو الاعمال الانشائية فى شتى البلاد والمدن حيث كانت الثروة الاقتصادية تدعم هذه المشاريع .

وشهدت البلاد نشاطا اقتصاديا واتسع مجال الانتاج الزراعى والصناعى والتجارى لاسيما ان فترة الحكم السعدى قد شهدت تغيرا عميقا فى مقومات البلاد الاقتصادية وبدات الدولة تنتعش اقتصاديا (الزراعة والصناعة والتجارة) فقد توافدت على المغرب اعداد كبيرة من ابناء الاندلس المطرودين من ديارهم والذين كانوا يجدون فى بلاد المغرب وطنا لهم وملاذا من محاكم التفتيش والاضطهاد وهروبا من المضايقات، وحمل كل هؤلاء خبرتهم الواسعة فى ميادين الزراعة والتجارة والصناعة وساهموا مع اخوانهم المغاربة فى هذه النشاطات الكبرى واستخدموا سفنهم واساطيلهم فى النقل البحرى من المغرب واليه مع دول العالم المعاصرة .

ولقد هيا جو الاستقرار السياسى الذى كانت تنعم به البلاد طوال فترة قرن ونصف من الزمان ازدهار المناطق الزراعية المغربية حيث شهد كتاب الغرب بان المغرب لم يعد فيها شبر واحد غير مزروع او مغروس وازدهرت زراعة قصب السكر الذى كان الانتاج منه يشكل المادة الرئيسية الاولى للتصدير إلى اوربا والذى تكالبت عليه الدول الاوربية التى كانت ترى فى تجارة السكر ما يحقق لها ارباحا كثيرة ولاسيما ان زراعته

كانت تنتشر حول مراكش .

ولقد قام فى العهد السعدى وبصفة خاصة فى عهد السلطان احمد المنصور السعدى اربعة عشر مصنعا لانتاج السكر لا زالت آثار بعض منها باقية إلى الآن شاهدة على التقدم الصناعى فى المغرب والتى كانت هى اول دولة فى العالم تقوم بتصدير مادة السكر إلى اوربا وكانت مدينة شيشاوة على بعد ثمانية كيلو مترات جنوب مراكش من اشهر المدن فى انتاج وتصدير السكر .

وكانت مناطق فاس ونواحى مراكش وحوض نهر سيو الاوسط ونافيلالة وغيرها من المناطق الزراعية فى المغرب خصبة وتجود بعطائها المحصولى الوفير حيث تنوعت المحاصيل الزراعية وكثرت المنتجات التى كانت تصدر إلى اوربا والسودان وكثرت تربية المواشى والحيوانات الاخرى والابل وتربية الخيول وتركزت فى زراعة الفواكه والكروم والزيتون فى كل الاقاليم الجنوبية لاسيما مدينة تارودانت .

وتطورت الصناعة تطورا هاما واخذت بعدا جديدا لم تشهده البلاد من قبل وابدى سلاطين السعديين اهتماما كبيرا بهذا الجانب من جوانب الحياة المغربية لاسيما الجانب الدفاعى الحربى والعسكرى الذى كان يشكل فى نظرهم البعد الحقيقى لقوة الدولة وكيانها فى ظل المخاطر الخارجية فكان ان اندفع المنصور الذهبى وراء استيراد المصانع الحربية التى تصنع الاسلحة المغربية المتطورة فى ذلك العصر وكانت مصانع السلاح والذخيرة تلقى الاهتمام الاكبر من جانب المنصور الذهبى حيث رغب فى اقامة جيش قوى متطور بعد معركة القصر الكبير وانتجت مصانع الاسلحة فى مراكش المدافع الصغيرة والكبيرة لاسيما ان الاندلسيين (المورسكين) كانوا قد نزحوا إلى ديارهم الثانية فى المغرب وكان من بينهم العديد من المتخصصين فى الصناعات الحربية ومنهم على سبيل المثال مصمم الاسلحة الثقيلة المشهور فى ذلك الوقت المسلم الاندلسى

(احمد الحجرى) المشهور باسم (افوكاى) وكان قد فر من الاندلس اثر الاضطهاد واستطاع ان يدفع بالانتاج الحربى فى مصانع مراكش للسلاح وأبدى كثيرا من الاهتمام والاختراع والتصميم فى هذه المصانع بعد ان تم وضع الامكانات اللازمة له وقام بصنع العديد من مدافع الميدان المتوسطة والكبيرة ولكن هذه الصناعات الحربية والعسكرية لم تكن لتكفى متطلبات الجيش المغربى ليتوسع فى زيادة قواته وما تطلبه من اسلحة فقد كان ذلك يتم عن طريق استيراد الاسلحة ولاسيما من انجلترا التى كانت تقدم السلاح للمغرب مقابل استيراد ملح البارود الذى كان يدخل فى الصناعات الحربية، كما ان صناعة السفن الحربية التى عولت عليها حكومة السعدين التى كانت تستورد لها الاخشاب من انجلترا كانت كمثلها فى صناعة الاسلحة حيث كان يتم شراء السفن الحربية لكى تلبى احتياج البلاد وما تقتضيه من توسع وطموحات كبرى لاسيما بعد فتح بلاد السودان .

كما ان جميع الصناعات الاخرى التقليدية كصناعة الملابس والمنسوجات والسجاد والصوف والخشب والزجاج والورق والحلى والمصوغات والنحاس والجلود والحديد وغيرها من الصناعات الاخرى التى كانت تلبى الاحتياج الحياتى للشعب المغربى فقد شهدت تطورا دائما وعظيما على مختلف الجوانب والتى استفادت من التطور الصناعى الذى كانت تشهده دول اوربا فى ذلك الوقت مما دفع بهذه الصناعات ان تحاول منافسة الصناعات الواردة إلى البلاد حيث كانت الواردات الاوربية إلى المغرب بصفة رئيسية هى المواد الصناعية والقصدير والنسيج اضافة إلى الصناعات الحربية والسفن والتى كان يقوم بالسيطرة على السوق التجارية واحتكار اساليب التجارة هم الاندلسيون المورسكين وبعض الشركات الاوربية التى وجدت لها اسواقا فى المغرب لتمارس نشاطها اضافة إلى بعض اليهود الذين تم طردهم من اسبانيا ووجدوا فى حسن

استقبال المغاربة ووصية الدين الاسلامى باهل الذمة مجالا لكى يمارسوا نشاطهم التجارى فى ظل حرية العقيدة وسماحة تعاليم الدين الاسلامى بعكس الصورة على الشاطئ الاوربى الآخر المقابل ولكن ذلك لا يمنع من ان العديد من المغاربة لاسيما فى طنجة وسلا وتطوان قد مارست انواع النشاطات التجارية لاسيما فى حركة التصدير التى كانت اسهل من الاستيراد ولاسيما ان المغاربة كانوا يصدرون المواشى والاغنام المرينى والسكر والنحاس وملح البارود والذهب والتمور وغيرها من المنتجات الزراعية الفائضة عن الاستهلاك المحلى كالجوز واللوز والتين. ونظرا لكثرة الموانى المغربية على الساحل الاطلسى وساحل البحر المتوسط فقد ساهمت كل هذه الموانى والثغور فى حركة النشاط التجارى لكن كانت هناك العديد من هذه الموانى تلعب دورا هاما اكثر من غيرها ومنها على سبيل المثال لا الحصر ميناء العرائش وسلا وتطوان واسفى واغادير وسبته وغيرها العديد من المدن والموانى الكبيرة التى كانت توجد بها الفنادق ومخازن التجار والوكالات التجارية ومراكز للجمارك والتى كانت تشبه المناطق الحرة فى عصرنا الحالى وكانت الحركة التجارية تسير فى يسر وسهولة .

وهكذا شهدت المغرب فى العصر السعدى الاول حتى وفاة المنصور حركة اقتصادية لم تشهدها من قبل وسكت العملة الذهبية والتى كانت تحمل الاحمال الكبيرة من التبر الذى كان يصل من بلاد السودان والذى كانت تضرب منه النقود الذهبية وكان يستعمل منه اكثر من ١٤٠٠ وزنة كل يوم وقد ذكر احد تجار الانجليز انه شاهد وصول ثلاثين جملا إلى مراكش محملة بالذهب وقد تسرب كل هذا الذهب إلى جيوب التجار الانجليز الذين اشترى منهم المنصور السعدى السلاح. ولقد كانت تجارة الذهب عبر صحراء بلاد السودان بمثابة دم الحياة لعدد كبير من هذه الموانى المغربية ومصدر ثروة لالاف من تجار اوربا الذين استفدوا طاقة المغاربة من كل ما كان

لديهم من الذهب وانهم سلبوا المغاربة من كل ما لديهم من الذهب .

ولقد شهدت جوانب الحياة المغربية نوعا من الترف والرخاء تجلى فى اعظم صوره فى اساليب المعيشة والحياة الاجتماعية ومانتج عن ذلك من منافسة الاوربيين لمحاولة الحصول على عقود تجارية او اقامة وكالات تجارية او شركات لهم مستفيدين من هذه الحالة الاقتصادية التى لم تشهدها المغرب من قبل حيث شهدت حركة التصدير. والاستيراد نموا كبيرا فى مختلف السلع والمنتجات بعد ان انفتح المجال امام هذه الشركات لاسيما الانجليزية التى اقام الانجليز لهم شركة تجارية كانت لها اهتمامات صناعية هى الشركة الانجليزية البربرية، وكما اقام الانجليز لهم شركات سعت حكومات فرنسا وهولندا إلى الحصول على موانئ لهم لكى تكون مراكز تجارية يمارسون فيها نشاطهم التجارى والتى كانت سفنهم تقوم بقفل المنتجات والبضائع من المغرب إلى اوربا إلى المغرب .

وهكذا فان المغرب فى العصر السعدى كان هو مركز الاهتمام الاوربى نظرا لحالة الرخاء والثروة الاقتصادية والتبادل التجارى والعلاقات السياسية التى اقامها المنصور مع مختلف الدول الاوربية والمركز التجارى المرموق الذى بلغته البلاد بعد معركة القصر الكبير وتودد دول اوربا إلى عقد معاهدات صداقة مع المغرب لاسيما انه البلد الاسلامى الوحيد الذى لم يخضع للسيطرة التركية العثمانية والذى كان مجالا مفتوحا لكى يمارس فيه الاوربيون اساليبهم فى النهب والغش حيث كان يتم مبادلة ملح البارود الذى تحتاج اليه المصانع المغربية والاسلحة بمثله ذهبا وهكذا ذكر بوفل ان التجار الانجليز هم الذين استحوذوا على ذهب المغرب وغيرهم من التجار الاوربيين والامريكيين الذين دخلوا المجال مؤخرا .

ولقد ابدت الدولة السعدية اهتماما كبيرا بنظام ولاية العهد وذلك منذ العهد

الاول لظهور هذه الاسرة ومن ذلك اننا نجد ان القائم بامر الله مؤسس هذه الاسرة يقوم باخذ البيعة لابنه احمد الاعرج ليكون وليا للعهد من بعده وذلك فى عام ٩١٧ هـ ولقد حرص على مبايعة القبائل له ولقد حرص الحكام السعديون كل الحرص على نظام ولاية العهد لما فيه استمرارية للحكم ومنعا لما يحدث من خلافات بين افراد البيت السعدى بعد وفاة الخليفة الحاكم. وكان ولى العهد يكون من ابناء الخليفة وليس شرطا ان يكون اكبرهم سنا ولكن قد يكون اختياره لمجموعة صفات لا تتوافر فى غيره من ابناء الخليفة وعندما كان يتم اختياره فانه كان يعهد اليه بحكم مدينة فاس المدينة الثانية فى البلاد بعد مراكش وذلك لكى يمارس فيها شئون الحكم ويتدرب على مقاليد الحكم وادارة البلاد من قبل جهاز حاكم لا يقل عن جهاز الحكم فى العاصمة مراكش، وان كان اصغر نسبيا فى الاختصاصات وكان النظام المتبع فى العاصمة هو صورة فى كل مدينة او ولاية من المدن او الولايات الكبرى، ومن ذلك بان يكون له مساعدون من الوزراء ورجال الديوان والكتاب والقضاة، كما انه كان له جيش مكون من عدة فرق. ولقد قام جيش فاس على سبيل المثال بالكثير من المهمات التى كانت تتطلب منه وبصفة خاصة جيش فاس بقيادة الامير احمد المنصور فى تعقب الثوار والقضاء على قواتهم والمشاركة الفعلية فى حرب القصر الكبير عام ١٥٧٨م فقد ساعد جيش فاس بقيادة المنصور اخاه الخليفة عبد المالك بن محمد الشيخ فى كل المهمات .

بل اكثر من ذلك فان اسم ولى العهد كان يذكر بجوار اسم الخليفة عند الدعاء له على منابر المساجد فى صلاة الجمعة كل اسبوع وفى كل الاقاليم .

وكانت البيعة تاخذ صفة رسمية وشرعية ذلك لان الخلفاء كانوا حريصين على ان يشهد هذه البيعة كبار رجال الدين والعلماء والفقهاء وعليه القوم وكبار رجال

الجيش واهل الحل والعقد فى البلاد وكانت تصدر المراسيم بهذا التعين لتعمم وتوزع فى جميع انحاء البلاد .

كذلك ابدى رجال البيت السعدى من الخلفاء السعديين باعتبارهم سلالة الدوحة النبوية الزكية اهتماما كبيرا بالقضاء ورجاله اقامة للعدل وحكما للشرع فى البلاد وظهر القضاء فى العصر السعدى كسلطة مستقلة عن جهاز الحكم تمارس سلطاتها الذى ليس عليها سلطان الا حكم الشرع والدين وكان يتم تعيين قاضى الجماعة (قاضى القضاة فى الشرق) من قبل الخليفة وهو الذى يعين القضاة فى المدن الكبرى كفاس وسلا واغادير وسجلماسه ورباط الفتح والعرائش وغيرها من المدن الكبرى وكان يتم تعيين قاضى فى كل مدينة او قرية كبرى وان تعتبر الاحكام والحكم بين المواطنين يتم على وجه السرعة حتى يحقق العدل بين افراد المجتمع المغربى .

وكان هناك ديوان للمظالم او مجلس المظالم وهو اعلى سلطة قضائية وكان هذا المجلس يراسه الخليفة عندما يتم عرض المسائل الشائكة التى لم يستطع قاضى الجماعة الحكم فيها، وكان يتم اختيار القاضى لسعة علمه ونزاهته وجدأته فى الحق وعدله بين الناس وعدم خضوعه لادنى سلطة من سلطات الحكم او رغبات الحكام او ولاة الاقاليم ولم يكونوا يخضعون لاهواء شخصية او نزوات فردية او مطامع مصلحية، بل ان الادارة السلطانية السعدية التى عينت القاضى كانت ترى فيه التزاما بتنفيذ الشرع وتقيدا بالنصوص القرآنية والاحاديث النبوية ومذهب الامام مالك ثم بعد ذلك يطرح موضوع النزاع اذا لم يجد له حلا على مجلس المظالم الذى يراسه الخليفة بنفسه .

وكان هناك نظام الجباية والوقف الذى كان لكل منهما جهاز خاص ومستقل عن جهاز القضاء يمارس فيها اختصاصاته وفق تعاليم الشرع .

وقد سارت نظم الحكم والادارة بدءا من رجال البلاط الخليفى فى العاصمة

مراكش إلى صغار الموظفين فى البوادى والقرى الصغيرة وفق نظام دقيق ومنظم ومتعارف عليه .

وفى عهد المنصور احمد الذهبى فانه قسم مملكته على أولاده الخمسة فى تجربة مكررة للحكم اللامركزى وقد جرت هذه النظم الوبال على البلاد لما فيها من انقسام وصراع بين ابناء المنصور وسبق الحديث عن الصراع بينهم من اجل السلطة، لكن السلطة الحقيقة الاقليمية كان يتولاها عاهل او قائد يتم تعيينه من قبل ولى العهد او الامير خليفة السلطان وهو الذى كان يصدر التوجهات لحكام هـذه الولايـات او الاقاليم .

كذلك فى العهد المنصورى قد ابدى الخليفة السعدى اهتماما كبيرا بدوام الصلة والربط بين العاصمة مراكش وحكام الاقاليم للاطلاع على سير الحكم بهذه البلاد البعيدة عن العاصمة ومن هنا فقد اهتم كثيرا بالبريد وتعبيد الطرق وتوفير وسائل المواصلات اللازمة فى كل مرحلة من مراحل الطريق حيث كان المنصور على علم تام بما يجرى فى انحاء بلاده فانه كثيرا ما كان يوجه الرسائل والمراسيم والقرارات مختومة بختمه السلطانى الخليفى لكى تقرأ فى المساجد فى جميع انحاء المملكة وذلك كلما كانت هناك ضرورة تستدعى اعلام الشعب بما يجرى من احداث على ارض المغرب كما حدث بعد فتح بلاد السودان وضمها للديار المغربية وتحقيق الانتصار على قوات سنغاى وكذلك بعد الانتصار الكبير على قوات البرتغال واوربا فى معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك المرسيم التى كانت تصدر بشان تعيين قاضى الجماعة او تولية ولى العهد وكل ما كان يستجد من أمور لها علاقة بمصالح الشعب المغربى وقد كانت هذه الرسائل او المرسيم لها صفة الاعلان والاعلام فى العصر الحديث حيث كانت هى الوسيلة الوحيدة التى يلجأ اليها رجال الحكم لاعلام الشعب بما يجرى من احداث فى

البلاد .

كما ان السلطان كان قابضا بيديه على السلطة التنفيذية والحاكمة فى كل انحاء البلاد ومن ذلك فان جميع حكام الولايات والمدن الكبرى والاقاليم يحاسبون امامه على ما يرتكبون من اخطاء او تقصير فى اداء الواجب الحكومى او عدم تنفيذ الاوامر السلطانية بل انهم كانوا يرجعون إلى العاصمة فى جميع النواحى المدينة والعسكرية والاقتصادية التى لا يستطيعون ايجاد حلول لها لانهم كانوا يطلبون راى السلطان والديوان فى مراكش وان الرد يكون عليهم سريعا حيث كانوا يجدون مخرجا لكل مشكلة تواجهم سواء كانت صغيرة او كبيرة ولا يتاخر الرد عليه طويلا، كما انه كان يلحق العقاب المناسب بالذين يخرجون عن المهام الموكلة لهم والمجاوزين لصلاحياتهم او الذين يتهمون بهوى فى قضاء مصلح اقربائهم وكان الحكم السعدى يختار القيادات الصالحة المؤهلة والتى لا تحوم حولها شهبات فى اداء اعمالها بغض النظر عن كونها من البيت السعدى او من اصل مغربى ومن ذلك نجد ان الخليفة المنصور السعدى لايتورع فى اسناد بعض المناصب الهامة والحساسة فى البلاد كمنصب وزير المالية لغير المغاربة وهو محمد بن زرقوى والذى كان من اصل اندلسى لكى يتولى منصب وزير المالية قبل ارساله فى حملته إلى بلاد السودان خلفا لجودر باشا قائد الحملة الاول .

وقد شهدت البلاد تقدما عمرانيا كبيرا لا نظير له فى جميع العصور اثناء فترة الحكم السعدى حيث تفنن المنصور السعدى فى بناء القصور التى كانت اية فى فن المعمار الاسلامى والزخرفة والزينة وخاصة قصر البديع الذى قام ببنائه فى مراكش والذى ظهر فى بنائه اقصى انواع التبذير والترف والذى جلب له عددا كبيرا من كبار الصناع من اصحاب المهارات الفائقة.. وكان الذهب لا يزال ينصب دون قيد على

المغرب لاسيما ان المنصور استطاع ان يتمتع بثمار النصر فى السودان والقصر الكبير حيث در عليه فتح السودان كثيرا من الذهب وايضا الفدية من الاسرى الاوربيين ساهمت فى ثراء المغرب، ومن هنا فقد تركز اسراف المنصور الشخصى اكثر ما يكون على بناء القصر الكبير المتسع الضخم فى مراكش حيث استخدم فى بنائه آلافا من العمال وقدمت السفن الكبيرة تحمل من الهند اثمن مواد الشرق لتزيينه وامدته ايطاليا وايرلندا بالرخام اللازم لالاف الاعمدة واحيط القصر بحدائق ضخمة تتناسب مع فخامة القصر حتى اصبح قصر البديع كما اطلق عليه بعد ست سنوات من البناء صورة من العظمة لا تضارع .

ولقد كان قصر البديع وغيره من الوان العمارة من المآثر والاضرحة يحمل الطابع الاندلسى مع تاثيرات شرقية اسلامية وربما فارسية وهندية. واحتفظ المنصور بالابراج والقلاع القديمة من عهود سابقة والتى استولى عليها من البرتغاليين والاسبان وجهزها بما يلزم من حشود عسكرية ومعدات ومدافع لحماية الثغور والسواحل، بل انه اضاف العديد من هذه القلاع والابراج فى جميع المدن والمواقع الهامة .

كما ان المدن شهدت حركة واسعة من الاتساع واضافة الاحياء الجديدة والمدن الجديدة نظرا لوفود ما يقرب من مليونى مهاجر اندلسى إلى المغرب ويترتب على هذه الاعداد الوافدة من بناء المساكن والمدن الجديدة والاحياء الجديدة فازدهرت المدن وعمها الرخاء والامن وعادت بعضها لتحتل مكانة كانت فقدتها مثل اغادير وتارودت وعمت مدن الجنوب مصدر الدعوة السعدية حالة من العمران والتعمير لم تشهدها من قبل .

(أ) الجيش والاسطول والشرطة

منذ ان ظهرت الدولة السعدية على مسرح العمل السياسى فى جنوب المغرب وهى ترفع لواء تحرير الارض المغربية المحتلة والقضاء على شراذم الدويلات الصغيرة داخل المغرب والقضاء على الجيوب المحتلة من قبل القوى الاستعمارية البرتغالية والاسبانية التى اتخذت لها موطئ قدم على الساحل محاولة منه التوغل فى الداخل للقضاء على الكيان المغربى ومن هنا كان على قادة الدولة السعدية ان يعمدوا على القضاء على هذه المخاطر حفاظا للكيان المغربى من الانهيار ودعما للقوى الوطنية التى جاءت بالسعديين إلى عرش البلاد بعد ان عملوا على الاطاحة ببقايا بنى وطاس الذين تعاونوا مع القوى المحتلة، كذلك فان السعدين عملوا من جانبهم بكل الطرق والوسائل على الوقوف بحزم وقوة وعناد امام المطامع التركية العثمانية التى كانت تبغى السيطرة على البلاد اسوة بما هو قائم فى الجزائر وتونس وطرابلس وتوحيد كل بلاد المغرب تحت لواء الدولة العثمانية .

ومن هنا فانه ازاء هذه الاخطار فان الدولة السعدية استشعرت منذ الوهلة الاولى لظهورها ضروة الاعتماد على القوة العسكرية وبناء هذه القدرات الحربية دعما لنفوذها وحماية لترابها ودفعا للاخطار المحدقة بها من كل جانب. فكان الاهتمام الاول بل العناية الاولى لقادة الامور هو بناء جيش قوى وحشد عسكرى كبير من افراد القبائل ومن ابناء البلاد اضافة إلى الاستعانة بالخبرات العسكرية الاخرى سواء كانت اندلسية او جزائرية او تركية وتكوين فرق من خيرة القوات تكون قادرة على صد كل عدوان خارجي ومحققة للقوة اللازمة حفاظا على استقلال البلاد .

ولما كان السعديون يدركون عمق الاخطار وشدة الازمات فانهم وضعوا كل اهتمامهم فى بناء جيش قوى، ذلك لان الجيش هو عماد قوة الدولة واساس سطوتها

واستقرارها وتوسعها فى الاراضى المجاورة وتحرير الثغور المحتلة ومهابة للاعتداء والطامعين فى حدود البلاد وهو امل البلاد فى التوسع جنوبا حيث بناء الدولة السعدية الواسعة .

وكذلك الاستعانة به فى المهمات الخارجية والتعاون فى القتال مع القوى المتحالفة مع المغرب، بل هو السند القوى للخليفة فى صراعه الداخلى مع الذين يناوئونه فى الحكم واستخدامه للقضاء على الثورات الداخلية التى كانت تحدث بين ابناء البيت السعدى فى سبيل الوصول إلى الخلافة. وذلك لان من كان يملك القوة العسكرية الغالبة هو الذى كان يتقرر له مصير الحكم لانه لم يكن هناك عهد من عهود حكام الدولة السعدية يخلو من الفتن والثورات والتدخلات الاجنبية والمطامع الاوربية الاسبانية او البرتغالية او المطامع التركية العثمانية وكان الجيش المغربى هو القادر وحده على الوقوف فى وجه هذه المطامع الخارجية .

وقد استعان الجيش المغربى فى صفوفه بالخبرات القتالية الخارجية حيث ضم بين صفوفه العديد من المقاتلين من الاتراك العثمانيين والجزائريين والاندلسيين الذين كانوا يشكلون الفئة الغالبة بين صفوف الجيش المغربى كما ان الجيش ضم العديد من المرتزقة الذين كان جلهم من الاوربيين الذين يعتنقون الدين الاسلامى وينضمون للخدمة نظير رواتب سخية كانت تبذلها لهم السلطات السعدية .

ولقد استفاد الجيش المغربى بالخبرة القتالية التركية فى فن القتال والتدريب والاعداد والتجهيز للمعركة حيث ان ابناء محمد الشيخ الخليفة السعدى الثالث وهم عبد المالك وعبد المؤمن واحمد المنصور قد تلقوا تدريبات عسكرية فى الجزائر على الاساليب التركية فى القتال وكذلك فى اسطنبول وشاركوا فى حرب تحرير تونس واستفادوا من خبرات الاتراك وادخلوا هذه الاساليب فى جيش المغرب مما جعله بعد من اقوى الجيوش العالمية فى ذلك الحين بعد ان حقق النصر الكبير على قوات البرتغال

بمشاركة قوات اوربا فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م .

ولقد حرصت الدولة السعدية دائما على ان يكون الجيش المغربى دائما على اهبة الاستعداد والحرب دفعا للظروف المحيطة حيث كان السعديون يحصلون على السلاح اللازم لجيشهم وسفنهم الحربية واساطيلهم العسكرية من انجلترا ولقد كانت الاسلحة المستخدمة فى معركة القصر الكبير معظمها سلاح انجليزى كانت تقوم بتصديره الملكة اليزابيث ملكة انجلترا للمغرب نظير حاجة بلادها إلى ملح البارود اللازم للمصانع الانجليزية لصنع الذخيرة والذى كانت تحصل عليه رغم اوامر البابا بعدم التعاون والتجارة فى السلاح مع الدول الاسلامية. وكانت رغبة المغاربة فى تزويد جيشهم بالسلاح اللازم وخشب السفن الحربية وكمرات المدافع واشرعة السفن وكل اللوازم الحربية للقتال، وكذلك كانت رغبة المغاربة فى نفس الوقت للحصول على هذه الموارد الحربية من اجل الدفاع عن مراكش والعرش المغربى ضد الثورات الداخلية وذلك دعما لاستقرار العرش .

وفى عهد احمد المنصورى السعدى كان هناك جيشان فى البلاد احدهما جيش نظامى مكون من عدة فرق تضم اكثر من اربعين الف مقاتل جاهزة للتحرك والاشتراك فى القتال فى اية لحظة وهى دائما على اهبة الاستعداد، وكانت هذه القوات تضم فى صفوفها اعدادا كبيرة من الاندلسيين والجزائريين والمرتزقة وهى تحت السلاح باستمرار ولها معسكرات وتتوالى التدريب يوميا على احدث الاسلحة والاساليب القتالية- وكان هناك عدد كبير من الضباط الاتراك والاوربيين فى الجيش المغربى وكانوا يتولون تدريب الجيش على اساليب القتال المتطورة والالات الحربية الحديثة لان المنصور كان حريصا على تزويد جيشه باحدث ما تنتجه المصانع الحربية الانجليزية وكان يقيم للجيش حصونا ومعسكرات موزعة فى انحاء البلاد والمدن الهامة والثغور الحساسة التى يخشى عليها

من هجوم مباغت وكانت هناك معسكرات لهذه القوات داخل المدن الكبرى كمراكش وفاس وسلا والعرائش واغادير وتطوان ورباط الفخ وغيرها من الامارات الكبيرة والمهمة .

كذلك كان يقابل هذا الجيش النظامى الثابت الذى يعتبر قوة الدولة وعمودها الفقرى قوات اخرى احتياطية تضم ما لا يقل عن مائتى الف جندى ومقاتل يتم استدعاؤهم فى حالة تعرض البلاد للخطر وهم احتياط الجيش الثابت وهم من المتطوعين والمحالين على العمل المدنى بعد ادائهم الخدمة العسكرية. وقد كان الجيش المغربى فى عهد المنصور الذهبى مفخرة الجيوش المعاصرة لاسيما بعد ان حقق هذا الجيش انتصاره الساحق على قوات اوربا فى معركة القصر الكبير وايضا قدرة هذا الجيش الفائقة على اجتياز الصعاب وتخطى الاخطار وعمل المستحيل فى اجتياز الصحراء الكبرى الفاصلة بين المغرب وسنغاى ووصوله إلى بلاد سنغاى فى فترة وجيزة لاتزيد عن اربعة شهور قطع فيها اكثر من اربعين مرحلة وهى قوات حربية كثيفة تحمل العدد والعدة والزاد والزواد وكل ما تحتاج اليه وصولا إلى سنغاى واستطاعت ان تحقق انتصارا باهرا فى فترة زمنية وجيزة مما جعل فترة حكم المنصور تشهد ايضا النصر الكبير وانتصار حرب سنغاى وكان الفضل فى ذلك يعود لحسن التدريب والاعداد والتنظيم والخطط العسكرية والاسلحة الحديثة التى كانت لاتقل عن اسلحة اقوى الجيوش المعاصرة .

وكان الجيش المغربى مقسما إلى وحدات متخصصة وفزق كل منها يؤدى مهام محددة واسلحة مختلفة كسلاح المدفعية والمشاة والفرسان والدروع وغيرها من الفرق المختلفة والتى كانت توجد لها فرق عسكرية تدعم هذه التشكيلات والتى منها سلاح الخدمات الطبية (التمريض) وسلاح المهندسين والامداد والتموين وسلاح الاستطلاع والبريد والمؤن والتغذية واعمال الصيانة والحدادة والارشاد الدينى وكذلك سلاح

الحياكة وكل هذه الفرق المعاونة كانت تعمل فى ظل قيادة واحدة منظمة تنظيما دقيقا مما سهل لها اداء المهام الملقاة على عاتقها عملا لخدمة اهداف الدولة وتنفيذ اوامر وقرارات السلطان الصادرة بشان القتال والتدريب والدفاع والهجوم فى اللحظات التى يستدعى فيها استدعاء القوات للمشاركة فى دفع خطر عن البلاد وقد كان هناك تسلسل فى القيادة والرتب والتنظيم القيادى وكل هذه الرتب كانت تسلسل فى القيادة وصولا إلى الخليفة او السلطان باعتباره هو القائد الاول للقوات حيث كان الخلفاء والسلاطين يحرصون على قيادة قواتهم بانفسهم واشتراكهم فى المعارك الحربية وادارتها من مسرح العمليات حفزا للقتال وتشجيعا للجنود حيث ان وجود الخليفة بين صفوف قواته كان يدفع القوات للتفانى فى القتال وانجاز المهام الملقاة على عاتق الجنود وكان الجيش المغربى مقسما إلى ست فرق مختلفة كانت الرتب ومراتب القواد والجنود منسجمة مع تباين مهام هذه الفرق فى ذلك الجيش وكان كل ذلك يسير وفق نظام دقيق منضبط مع الاساليب العسكرية والوحدات والاسلحة وطرق استدعاء القوات .

ولقد كانت الاسلحة النارية والمدافع هى السلاح ذا الاثر الفعال فى القتال. ولقد عمل المغاربة دائما من اجل احراز النصر دون غيره من اجل دفع الكفاءة القتالية وتجهيز القوات بغض النظر عن التفوق العددى الهائل الذى كانت تعتمد عليه معظم الجيوش فى ذلك الوقت وقد ترك المغاربة نظام استخدام الاعداد الهائلة وترك اسلوب التفوق العددى والعمل على استخدام قوات ذات كفاءة عالية وتجهيزات كاملة وثقل متوفر وهذا سبب نجاحهم فى موقعة القصر الكبير. وكان فضل التدريب والاسلحة النارية قد صحح التوازن العسكرى واحرز الانتصارات لاسيما ان الجيش المغربى كان يضم صفوة من القواد غير المغاربة من الاتراك العثمانيين والمرتزقة ومن الاندلسيين وربما من الانجليز فيما بعد. وقد استفاد المغاربة من الاستعانة بهذه الاعداد فى تطوير

الاساليب القتالية والنظم الادارية والتنظيمية .

ومن هنا صار الجيش المغربى قوة لايستهان بها ، بل ان خبرة القوات كانت تشارك فى مهام قتالية خارج حدود المغرب تحالفا مع انجلترا ومساعدة لها ضد الاسبان واستعدادا للغزو فى الاندلس وقطع طرق المواصلات على الاسطول الاسبانى واشتراك قوات اجنبية تقاتل مع الانجليز ضد الاسبان وارسال المؤن المغربية الى الاسطول الانجليزى .

وهكذا كان الجيش المغربى فى العصر السعدى يشكل قوة حربية كبيرة. لكن القوى الاوربية لم تمكن لهذه القوات بالتحرك شمالا واجتياز مضيق جبل طارق سعيا مرة ثانية لعودة السيادة الاسلامية على الاندلس من جديد حيث ان تحالفات المنصور السعدى مع الملكة اليزابث ملكة انجلترا لم تقدم ادنى خطوة ايجابية نحو تحقيق الهدف الذى كان يوليه. فكان عليه العمل للاستفادة من هذه القوات وتوجيهها وجهة اخرى نحو فتح بلاد السودان لاسيما ان المنصور كان دائما يذكر ان طريق الاندلس اصبح مغلقا امام المغاربة لان البرتغاليين والاسبان قد استولوا على اجزاء البلاد الاندلسية كذلك فان الاتراك العثمانين قد سيطروا على تلمسان وبقية الجزائر ومن هنا لم يكن امامه الا توجيه طاقة الجيش المغربى لعمل عسكرى يكسب المنصور سمعة عالية ويضم بلاد السودان إلى الدولة السعدية الشريفة لان هذه القوات لابد ان تؤدى واجبها من أجل سمعة الخليفة القرشى بدلا من قتال الاتراك العثمانين فى الجزائر لان محاولة اخراجهم منها قد يحتاج إلى مجهود كبير دون عائد. فى حين انه بغزو السودان تتحقق وحدة اسلامية كبيرة بها الخير للاسلام والمسلمين .

كذلك فان السعديين عملوا من جانبهم على بناء اسطول بحرى قوى لاسيما ان معظم المدن الساحلية والثغور كانت تقع فى قبضة القوى المستمرة من البرتغاليين

والاسبان. ومن هنا كان الواجب الاسلامى والجهاد الشرعى يقتضى انتزاع هذه المدن من ايديهم ولكن البلاد التى ورثوا حكمها من الوطنيين لم يكن بها ما يسمى بالاسطول القوى الذى كان فى عهد المرابطين او الموحدين او بنى مرين حيث انحدرت سمعة الاسطول المغربى فى ظل احتلال موازين القوى البحرية وسيطرة الاساطيل الاوربية على غرب البحر المتوسط وسواحله وعلى المحيط الاطلسى واختفى الاسطول المغربى الذى كان يحقق الانتصارات على الاعداء فى حوض البحر المتوسط .

لكن السعديين عندما امسكوا بزمام الامور كانت لاتزال هناك بقايا صناعة للترسانة الحربية من بقايا عهد الموحدين وبنى مرين فى العرائش والرباط وهى ترسانات قديمة لم يكن فن صناعة السفن بها يتلاءم مع اساليب العصر لاسيما وان السفن الاوربية قد احرزت تقدما فائقا فى المجال الملاحى والتسليح وفن القتال البحرى الحديث وان هذه الترسانة البحرية القديمة لا تزال تصنع السفن باساليب بالية لا تتلاءم ومفاهيم القتال الحديثة مما اضطر المنصور احمد إلى القيام بالاستعانة بالخبرة الانجليزية لاسيما بعد معركة الارمادا وانتصار الاسطول الانجليزى على الاسطول الاسبانى بان يطلب من سفير المغرب فى لندن بان تقوم الحكومة بامداد بلاده بالاخشاب اللازمة وعدد كبير من خيرة المهرة والمهندسين وبنائى السفن الانجليزية للاستعانة بهم فى بناء انواع حديثة من السفن الحربية عملا لدفع الخطر عن البلاد وان يكون عملهم فى ترسانة العرائش لتجديدها وعملا على ان تكون السفن الحربية المغربية لاتقل عن نظائرها من السفن الاوربية تجهيزا وتسليحا وبناء ومن هنا فقد بذل المنصور منذ عام ١٥٨٩م جهودا فائقة فى تجديد وتحديث الترسانة الحربية البحرية فى الرباط والعرائش وسلا والاستعانة برجال الجهاد البحرى الاسلامى فى بعض الثغور والذين قبلوا الانضمام تحت القيادة البحرية السعدية التى كانت تتالف من اكثر من اربعة الاف مقاتل بحرى .

ولكن دور صناعة السفن المغربية فى العرائش والرباط لم تكن تفى بما تحتاج اليه البلاد من سفن عديدة لاسيما وان للمغرب موانى عديدة وسواحل طويلة على ساحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى مما دفع بالخليفة المنصور السعدى تلبية احتياج القوات البحرية بالقيام بشراء العديد من القطع البحرية المجهزة تجهيزا حديثا من اوربا لاسيما من انجلترا وهولندا وفرنسا دعما للاسطول المغربى الذى كان عليه ان يقوم بدوريات حراسة على الموانى المغربية وقد اوكلت قيادة هذه السفن إلى ربابنة اندلسيين او مرتزقة اوربيين او اتراك عثمانيين وقد احرز الاسطول المغربى بعض الانتصارات على البحرية البرتغالية ومنعها من دخول الموانى المغربية .

كذلك فان الاسطول السعدى كان من القوة بحيث انه كانت هناك خطط لتحالف مغربى تركى عثمانى للقيام بغزو مشترك لتحديد الاندلس من ايدى مغتصبيها حيث كانت القوات المشتركة فى هذا التحالف عام ١٥٧٦م فى عهد الخليفة عبد الملك بن محمد الشيخ مكونة من سبع وعشرين سفينة منها ثمانى سفن حربية وثلاث وعشرين سفينة نقل وست فرقاطات مما يعطى الدليل القوى بان السعديين كانوا قد عملوا على استعادة قوتهم ونفوذهم البحرى بمجرد وصولهم للحكم حيث كانوا يسعون إلى بناء قوة عسكرية بحرية تستطيع ان تحفظ لهم حماية سواحلهم الطويلة وقد ضم الاسطول المغربى اعدادا كبيرة من المغاربة واخوانهم الاندلسيين والاجانب وقد تجاوز عدد قوات الاسطول اكثر من اربعة الاف جندى كان جلهم من الاندلسيين الذين كان من بينهم اكثر من ثلاثمائة من البحارة والفنيين الاندلسيين الذين كانوا يعملون فى الترسانة البحرية فى الرباط .

ومن هنا استطاع السعديون ان ينشئوا اسطولا حربيا فى فترة زمنية وجيزة وان الاساطيل المغربية قد شهدت عهدا جديدا مغايرا لما كان عليه الاسطول فى العهد

الوطاسى، بل ان شوكة هذا الاسطول قد زادت بعد انتصار المغاربة فى معركة القصر الكبير حيث وقعت الهزيمة بالبرتغاليين ومن معهم من اوربا وكسرت شوكة نصارى البرتغال واهلكت نفوسهم وكشحت اموالهم ولم يفكر الاورويبون فى قتال المغاربة فى ديارهم بعد هذه المعركة بعد ان هناك ملك البرتغال ومن معه من النبلاء البرتغاليين .

لكن هذه المشروعات البحرية لم تلبث ان توقفت فجاة بعد وفاة السلطان احمد المنصور الذهبى وما ساد المغرب الاقصى من حرب اهلية بين اولاد السلطان المتوفى طمعا فى العرش مما جعل ابناء المنصور السعدى الذين تنازعوا حكم البلاد لم يولوا ادنى اهتمام بالاسطول حيث كان من الطبيعى ان لا تلقى دار صناعة السفن اية عناية من قبل هؤلاء الامراء المتنازعين بعد ان سمح بعض من هؤلاء الامراء تسليم بعض القواعد البحرية للاسبان لكى تستخدمها الاساطيل الاسبانية لتموين اساطيلها المتجهة إلى المحيط الاطلسى جنوبا من أجل التربع على عرش المغرب مما اضاع هيبة الاسطول وانحدار الانتاج الحربى البحرى إلى حد ادنى واغلقت دار الصناعة ولم تعد هناك حاجة إلى رجال البحرية الانجليز الذين كانوا يعملون فى الترسانة البحرية فتمت اعادتهم إلى بلادهم حيث لم تكن تتوافر لهم امكانات الاقامة والاعاشة بعد ان ظهر العديد من الامارات والمدن المستقلة التى استقلت عن الخلافة السعدية ولم يعد لابناء السلطان احمد المنصور السعدى من حكم سوى مراكش وبعض الاجزاء المحيطة بها وخرج ميناء العرائش الذى كانت به دار صناعة السفن من حوزة المغاربة وسلمه المامون بن احمد المنصور للاسبان ولم يعد يخضع لملك المغاربة بل ان ملك اسبانيا هدد بالحرب والاستيلاء على جميع القواعد المغربية والثغور الاخرى التى تخرج منها سفن المجاهدين البحريين المسلمين لاعتراض السفن الاسبانية فى عرض المحيط او البحر مما دفع الامراء السعديين المتاخرين للعمل على طرد رجال الجهاد الاسلامى البحريين من

ميناء الرباط وسلا والتعاون مع القوى الاوربية من اجل القضاء على هذا النشاط الذى كان يجلب الكثير من المضار على حكام المغرب. وبذلك انهارت القوى البحرية كما انقسمت القوات البحرية من اثر الصراع بين ابناء الخليفة وكل مهمتهم كانت ضم قوات لتجارب القوات الاخرى وانشغل الامراء المتأخرون بالحرب الاهلية والصراع الداخلى ولم تعد هناك قوة بحرية نهائيا وتمزقت القوات البرية بين مؤيد لهذا الامير ومعارض لذلك الامير ودار القتال بين ابناء الشعب الواحد من اجل طلب العرش .

واهتم السعديون بالامن الداخلى عملا على الاستقرار ونشر الامن والامان والتقدم الاقتصادى والازدهار الحضارى ومن ثم كان العمل على تدعيم جهاز الشرطة وتخصيص الرجال له والاستعانة بهم فى اقرار الامن فى المدن الكبرى وحماية الاسواق ومصالح الشعب والسهرعلى حماية القلاع والحصون والمدن الكبرى وحماية ابواب المدن والضرب على الخارجين على القانون بشدة وحزم وحماية طرق القوافل الصحراوية وتامين وصول البريد والاقامة فى اماكن ومحطات مخصصة لهم ومراقبة سير القوافل والسهر عل تطبيق الاحكام الادارية والقضائية والقيام بما تتطلبه وظائفهم فى القبض على اللصوص والمجرمين وتقديمهم للمحاكمة وحماية السجون والسهر على تنفيذ الاوامر وكان منصب رئيس الشرطة من المراكز الهامة فى الدولة وكان رئيس الشرطة من الرجال المقربين لدى السلطان وكانت توكل اليه العديد من المهام وكان رايه يؤخذ به فى كثير من المسائل التى تهم مصالح البلاد، بل ان رئيس الشرطة لم تكن وظيفته تقل عن وظيفة قائد الجيش وكان لرؤساء الشرطة فى المدن الكبرى والولايات مكانة خاصة وكان افراد الشرطة يقومون بمعاونة رجال الحكم والادارة وديوان المظالم والقاضى وكان يعتمد عليهم فى حمابية مصادر الثروة ومراكز اقامة الاجانب فى الفنادق والوكالات التجارية وكذلك فى مراكز الجمارك والتاكد من سلامة ابواب المدينة العاصمة وبوابات

المدن الكبرى وتامينها خوفا من سطو اللصوص او الاعراب وقد ادى رجال الامن والشرطة الواجبات المنوطة بهم ومن اجل ذلك عهد المنصور السعدى إلى رئيس الشرطة فى فاس بان يقوم بقيادة اول حملة عسكرية إلى بلاد السنغال كشفا للطرق ومصادر المياة واماكن اقامة قوات الحراسة وذلك قبل ان يتوجه جودر باشا بحملته الكبيرة إلى بلاد السودان. حيث كان جيش مدينة فاس بقيادة محمد بن سالم رئيس الشرطة الخليفية بفاس وكان جيشه مكونا من الاندلسيين والشرافه وقد ادى قائد الشرطة محمد ابن سالم المهام الموكلة اليه على خير اداء ومهد الصحراء الساحلية ووصل إلى بلاد السنغال واجتاز الصحراء الغربية .

وقد كان ديوان الشرطة مرتبا ومنظما وفق الاساليب العصرية السائدة فى ذلك الوقت وفقا للقيام بالمهام الموكلة إلى هذا الجهاز حيث ان الاستقرار من جراء استتباب الامن دفع البلاد نحو التقدم الزراعى والصناعى والتجارى وساعد على حركة النقل والانتقال وانشغال الناس بالتجارة وذهاب القوافل الكبيرة إلى بلاد السودان بعد ان تم تامين الطرق الصحراوية ووضع نقط حراسة على مسافات معينة ونشط البريد فى ظل قيام رجال الشرطة بالمهام المكلفين بها والتى منها تحصيل الضرائب .

وكان جهاز الشرطة عنصرا فعالا فى تامين السيادة السعدية على البلاد وتامين النظام فى الكثير من القلاع والحصون ووضع اساس نظام ثابت للحراسة وذلك على اسس سليمة لاقرار السكينة فى ربوع البلاد حيث كانت هذه الحصون والقلاع تخضع لنظام حراسة دقيق ووضع نقط مراقبة امامية من رجال الشرطة ترقب ادنى التحركات التى تتجه صوب المدن الكبرى للقيام بعمليات اغارة او سلب او نهب .

ولقد كان لهذه الاجراءات الامنية سبب فى ازدهار التجارة الداخلية والخارجية وانتعاش حركة الاسواق والقيام بحرب ضد اعمال القرصنة والسطو وتامين الطرق

والسهر على حراستها فقصد المغرب الكثير من التجار من الشرق والغرب ولاسيما الدول الاوربية وبرزت المدن الجنوبية الواقعة على اطراف الصحراء بعد فتح السودان كمدن تجارية هامة كمدينة تارودنت وسجلماسة واضحت البلاد سوقا تجارية عظيمة تمد المغرب بكثير من السلع الهامة وكانت وفرة التبر الذى تجلبه القوافل من بلاد السودان يستدعى حراسة مشددة وتامين رجال الشرطة لقوافل الدولة المتجهة إلى السودان ومنها إلى المغرب محملة بانتاج هذه البلاد وحاملة منتجات المغرب إلى الاسواق السودانية فاصبحت القوافل تامن على نفسها وتسلك الطرق المؤدية إلى بلاد السودان وتركزت التجارة فى بلاد المغرب الاقصى من جراء قيام الشرطة بواجبها على احسن وخير اداء فى العصر السعدى حتى نهاية عصر احمد المنصور للذهبى .

(ب) المآثر الحضارية والثقافية

دافع الاشراف السعديون فى بلادهم المغرب الاقصى عن الميراث الحضارى الاسلامى الذى اصبح يتركز فى بلادهم بعد سقوط غرناطة آخر المعاقل الاسلامية فى الاندلس ١٤٩٢م وسقوط بلاد المغرب الاوسط والادنى تحت النفوذ العثمانى التركى واستطاعوا بعد جهود متلاحقة ومتواصلة من العمل ان يزيحوا من طريقهم العوامل التى تحاول ان تحد من انطلاق الحركة الفكرية الثقافية والعلمية فى المغرب وان يطردوا البرتغاليين من المدن الساحلية التى استولوا عليها، كما ان زعامة المغرب الاقصى قد بلغت ذروتها بعد انتصار القصر الكبير واصبحت مراكش عاصمة لدولة اسلامية كبرى تشمل المغرب الاقصى وبلاد السودان وزادت هذه الانتصارات السياسية من نهضة المغرب الثقافية والحضارية والعلمية فقد اصبح قلب الحياة الاسلامية المغربية. وقد حافظ الاشراف السعديون على هذه الزعامة الثقافية التى توارثتها دول المغرب الاقصى منذ ايام المرابطين واستطاع هؤلاء الاشراف ان يجنبوا بلادهم الخطر الذى اصاب بلاد المغرب الاخرى فى القرن السادس عشر وهو خطر النفوذ التركى الذى أخضع الجزائر ثم امتد إلى تونس .

وشهدت سنوات الحكم السعدى تمركز ثقافة الاسلام وحضارته وتراثه فى بلاد المغرب الاقصى لاسيما ثقافة الاندلس العربية الاسلامية ذات المآثر الكثيرة بعد ان طردت من الاندلس ونزحت الثقافة العربية غربا إلى الغرب بعد ان وفدت إلى المغرب الاوسط والادنى المؤثرات الحضارية التركية ودور الانكشارية والجند وظهر الاثر التركى العثمانى فى التنظيمات الادارية والعسكرية واصبحت اللغة التركية لغة الدواوين ولغة الجهاز الحاكم واصبح النفوذ العثمانى ممتدا غربا حتى الجزائر ووقف وكذلك فى مراكز الجمارك والتاكد من سلامة ابواب المدينة العاصمة وسجلماسه ورباط الفخ والعرائش

وغيرها من المدن الكبرى وكان يتم تعيين على اعتاب المغرب الاقصى حيث مارست مراكز الحضارة الاسلامية فى المغرب الاقصى دورها فى الحفاظ على الوجود الثقافى الحضارى العربى الاسلامى .

ولقد وضع السعديون بانتصارهم الكبير حدا لتهديد الاساطيل المسيحية للثغور والمدن المغربية واستطاعت ان تتخلص من النفوذ الصليبى ومن ثم بدا التفرغ للعمل والبناء الحضارى والثقافى والعمل فى البلاد فى مختلف الاصعده سواء فى المجال الزراعى والصناعى والتجارى البلاد فى ظل حالة الرخاء والثروة والانتعاش الاقتصادى الذى شهدته مما انعش الروح العلمية والثقافية وساعد على التقدم فى الميادين المختلفة لاسيما ان المغرب قد استفاد فائده علمية وثقافية وحضارية وفقهية ولغوية باستقبالها وفتح ذراعيها للوفود الاندلسية التى وجدت فى المغرب الاقصى وبلاده ومدنه المختلفة محطة نهائية للاستقرار فعملوا على العطاء وبذل الجهد وتطوير البلاد المغربية فى شتى المجالات .

كما ان العهد السعدى قد شهد نزوح العديد من اهل الاندلس المشتغلين بالعلم إلى المغرب الاقصى واصبحت مدن المغرب مراكز ثقافية وحضارية تستمد مصادرها من الاستقرار والطمانينة السياسية والاقتصادية ثم من حالة الرخاء والترف وثراء الامراء وعليه القوم واغدقهم على اهل العلم والادب والدين والثقافة وتشجيعهم على المضى فى طريقهم المرسوم، كما ان سقوط غرناطه وتفرق الاندلسيين ورحيل اغلبية الشعب الاندلسى إلى المغرب الاقصى قد اوجد معلما من معالم النهضة الحضارية التى لم تشهدها البلاد وشهد حالة من التطور الفكرى والثقافى والعلمى وذيوع القيم الاسلامية المتعمقة التى ساعد آل البيت السعدى الشريف على ترسيخها فى مفهوم الشعب ومن هنا تدفقت ثقافة الاندلس إلى المغرب طليقة من كل قيد بعد ان ترك الاندلسيون البلاد

نهائيا، بل ان هذه المؤثرات الاندلسية المغربية لم تكتف بما احرزته من تقدم وتطور فى بلاد المغرب بل تخطت حواجز الصحراء جنوبا لتنطلق إلى بلاد السودان الغربى بصورة اكثر كثافة وفى ظل الحملة المنصورية او بعد فتح سنغاى وما تم بعد ذلك من نزوح العلماء والفقهاء والادباء والشعراء لحضور مجالس العلم والدرس والتدريس هناك او لنشر معالم العمارة وفق البناء فى تلك البقاع الافريقية .

وقد اظلت بلاد المغرب فى ذلك العصر نهضة علمية شاملة ظهرت نتائجها ومآثر هابارزة فى الادب واللغة والفقه وعلوم الشريعة والحديث ومن هنا فقد انصهرت فى المغرب المؤثرات التركية مع المغربية مع الافريقية الوافدة من المغرب الاوسط والادنى بعد الخضوع للحكم التركى العثمانى ومن هنا سار السبق العلمى فى تلك البقعة من بلاد المغرب التى حافظت على استقلالها بعد ان كانت دعائم النهضة العلمية قد توطدت وظهرت بوضوح فى عهد الموحدين فجاء السعديون لكى يجنوا ثمار هذا التطور بعد ان خبت قليلا شعلة العلم والمعرفة والثقافة طوال عهد الوطاسيين ومن هنا لم يكن السعديون اقل حماسة ممن مضوا قبلهم فى طريق النهضة العلمية والثقافية والحضارية إلى غايتها لاسيما وان الخلفاء السعديين الذين تربوا تربية اسلامية سليمة وكان لهم تاريخ طويل فى مجال العلم والبحث والتدريس والتاليف قد ظهرت مؤثراتهم العلمية والثقافية طوال قيامهم بالتدريس فى جامع القرويين ولابناء سلاطين الوطاسيين فسرعان ما كانوا حجة فى الامور الفلسفية والمسائل الشرعية وعلوم الدين والذين عملوا على اقتناء الكتب والمخطوطات وانشاء المكتبات واحاطوا انفسهم بالعلماء ورجال الدين والفقه والحديث والتفسير ومن ذلك مثلا ما ذكره السلاوى فى كتابه الاستقصا عن السلطان ابو عبد الله محمد الشيخ والد احمد منصور الذهبى والذى تلقب بالمهدى بانه بلغ فى العلم درجة الرسوخ حتى انه كان يخالف القضاه فى الاحكام التى يرون انها

يجب ان تكون ثم يرد عليهم فيما افتوا فيه فيجدون الصواب معه وقد وقع ذلك مرارا وكانت له حواشى على التفسير وبعدها فقد شهدت البلاد نهضة علمية اسلامية فى العصر السعدى لا تقل عن عهد المرابطين والموحدين وبنى مرين ان لم تكن تتفوق عليها فى العديد من المجالات .

كما ان الخليفة احمد الاعرج بن محمد القائم بامر الله ثانى الخلفاء السعدين بعد أن ادى فريضة الحج وعاد من الاراضى المقدسة بالحجاز ووصل إلى المغرب فانه استقر بمدينة فاس حيث اتخذ موقعا له فى مجلس القرويين للقيام بالتدريس والتعليم واكتسب لذلك سمعة طيبة وتقربا من ذوى السلطان حتى صار مؤدبا ومعلما لابناء السلطان احمد الوطاسى وكان كذلك يقوم باعمال التدريس والوعظ والتاليف حتى القتال والتحرير جنوب البلاد ومن هنا كانت الاسرة السعدية تقوم على الشرف والشرافة السعدية القرشية وعلى العلم والاهتمام بعلوم الشرع والدين والفقه والحديث والاهتمام بعلوم اللغة العربية وادابها وذلك عملا على العودة إلى ان يصبح المغرب الاقصى قلعة الاسلام والعلم والثقافة، بل انه فى ظل الاستقلال وعدم التبعية التى نعمت بها بلاد المغرب ظلت تستلهم طريق التقدم الاسلامى واساليب الحياة والعلم متاثرة بالقيم المغربية والمؤثرات الحضارية العربية الشرقية وهكذا تزعم المغرب الاقصى فى العهد السعدى الحياة الثقافية والعلمية والفكرية فى بلاد المغرب كلها وكان لهذه الاحداث كلها اثرها الفكرى فى تاكيد الزعامة الثقافية التى وضحت وتجلت فى مدارس المغرب الاقصى المختلفة التى مارست نشاطها فى اثراء الحركة الثقافية والعلمية وبرزت مدارس مراكش وفاس وسلجماسه وثارودانت واغمات وسلا والعرائش واغادير وغيرها من المدارس العلمية والثقافية التى توثقت فيما بينها بالروابط العلمية والفقهية والذى تمثل فى انتقال العلماء ورجال الدين وحطهم الرحال فى كل من هذه المدن لفترة وسرعان

ما ينتقلون إلى مدن اخرى لكى يسهموا فى اثراء الحركة الفقهية والدينية وما تمثل ايضا فى انتقال الطلاب إلى جامع القرويين بفاس طلبا للعلم واستزادة من مناهله الفياضة وتلقى دروس الفقه والحديث وعلوم الرياضه والفلك والكيمياء وغيرها من علوم العصر على ايدى جهابذة العلم المغاربة فى ذلك الوقت والذين اشركوا معهم اخوانهم الاندلسيين الذين ضربوا بباع طويل فى مختلف العلوم والفنون وكان لهم دورهم البارز على مختلف الاصعدة العلمية .

كما ان العصر السعدى شهد ازدياد دور الطرق الصوفية كالشاذلية والقادرية والجزولية والجيلانية وغيرها من الطرق الصوفية الفرعية التى استقطبت حولها العديد من ابناء الشعب المغربى والتى كان لها دور فى الجهاد والعمل والعبادة وكانت لها مؤلفاتها التى يتلقفها انصارها بالدراسة والتدريس والتى ساعدت على نمو الروح الاسلامية المجاهدة ضد العدو المحتل وكيف انها كانت تلقى بمؤثراتها على ابناء الشعب المغربى فى المنطقة الممتدة من ساحل البحر المتوسط وساحل المحيط الاطلسى فى الداخل وصولا إلى البوادى والقرى وكيف ان الدعوة السعدية نفسها قامت على اكتاف رجال الطريقة الصوفية الجزولية وكيف ان الطرق الصوفية فتحت ميدانا جديدا للدعوة الاسلامية بعد ان تضافرت جهود رجال الطرق واقطابها ضد القوى المتحكمة فى مصير المغرب فقد اسقطت الاسرة المرينية وكذلك ساعدت فى اسقاط اسرة بنى وطاسى وكيف ساعدت هذه الطرق فى ظهور نزعة التحرر الوطنى والجهاد ضد القوى الاوربية والتفتح على الحياة الثقافية وكيف ان الصبغة الدينية وفق تعاليم المذهب المالكى وهى التى كانت تسود فى البلاد وكيف ان الذهب المالكى كان راسخا كل الرسوخ بين ابناء الشعب المغربى والذين كانوا يكنون حبا خالصا للدوحة النبوية الشريفة والشجرة الذكية الهاشمية ومن هنا بسط المذهب المالكى لواءه على كل المذاهب الصغرى

الاخرى التى اختنقت من الحياة الدينية المغربية وكيف ان الحركة الفكرية العلمية المغربية عقدت اواصر التحالف مع السعديين من اجل استمرار الارتباط باسم الوحدة الجهادية الاسلامية سعيا للوصول إلى صيغ ثقافية مقبولة من لدن المجتمع الغربى بعد ان دخلت بعض الانحرافات والشعوذة والمفاهيم الخاطئة فى الطرق الصوفية وكان على السعديين تصحيح مسار هذه الطرق وربطها بحركة المرابطة للجهاد الاسلامى لتكون الصلة بينها وبين التعاليم الدينية الاسلامية الصحيحة قوية وكذلك عملا على تعميق المناخ الحضارى الثقافى البدوى الذى عايشته الاسرة السعدية فى السوس جنوب مراكش خاليا من البدع والخزعبلات والذى كان ميراث الاسرة السعدية الشريفة فى مرحلتها الاولى ينطلق من اساس ان قادة السعديين الثلاثة (محمد القائم بأمر الله واولاده احمد الاعرج ومحمد الشيخ) كانوا من رجال الدعوة الاسلامية والذين كانت لهم اهمية كبرى فى دفع حركة تنقية المسيرة الصوفية من كل ما شابها من اضرار لحقت بها وغياب الوعى العلمى الاسلامى القرآنى من اثر اختلاط العوام والاطراف الاخرى المعادية لنبع الاسلام الصافى المتمثل فى كتاب الله الكريم وسنة خير المرسلين

وكيف ان القبائل العربية المنتشرة فى ارجاء المغرب أسهمت فى اثراء الحركة اللغوية العربية ونشر العلوم الفقهية وظهور العديد من رجال الدين والفقه والحديث والتفسير من ابناء هذه القبائل مما ساعد على تدعيم العمل العلمى الاسلامى وكيف ان المؤثرات الحضارية الاسلامية أسهمت فى التطور السياسى والاقتصادى والاجتماعى للمجتمع المغربى الذى كان قد اصابه التمزق والتشرذم من جراء الثورات الداخلية والانقسامات الاقليمية وظهور كيانات صغيرة والجيوب الاستعمارية فجاءت الاسرة السعدية لتصبح فكرة الوطن الواحد والقيم الاسلامية التى قادها الدعاة والمعلمون فى

دروب المغرب المختلفة مما ساعد على بروز الاشعاع الحضارى الاسلامى بنفس القدر والقوة التى كانت تسود عصور المرابطين والموحدين بعد ان كان مجئ الاسرة السعدية قد واكب تقلص المظاهر الحضارية والثقافية الاسلامية فى العصر الوطاسى، لكن السعديين وقد قدموا من جنوب البلاد جاء معهم دفع حضارى قوى وعميق قلب وجهة الحياة الفكرية والثقافية الاسلامية راسا على عقب واحس الناس بتاثير تعاليم الطريقة الصوفية الجزولية التى رفع شعارها السعديون لاسيما ان هذه الطريقة الصوفية الصافية عملت على نشر العقيدة الصحيحة وتوحيد المغاربة للوقوف صفا واحدا وسدا منيعا فى وجه المد الاستعمارى وقد تسلح المريدون حينئذ بالقرآن والشريعة والسلاح لمحاربة المستعمرين الاوربيين وكذلك العمل على مقاومة النفس والرجوع إلى جادة الطريق. وهكذا حملت الطرق الصوفية مشعل الثقافة العربية الاسلامية وكان لارياب الزوايا والمريدين دور كبير فى نشر التعاليم الاسلامية ولعبوا دورا ثقافيا وادبيا .

وقد شهدت المغرب فى نهاية القرن السادس عشر ازدياد نفوذ العلماء وعملهم على نصح الرعية والدولة وزيادة الاهتمام بالدين لاسيما قبيلة جزولية التى كانت منتشرة فى الصحراء والسوس ونهضت بالجهاد ضد الامراء المتاخرين فى الاسرة السعدية لحملهم بالسيف على تغيير المنكر لاسيما بعد ان انتشر الخلل والفساد والرذيلة فى المجتمع .

ولقد زادت سمعة جامعة القرويين بفاس فى عهد السعديين واشتهرت فى الأصقاع السودانية واصبح التعليم العالى والاجازاة التى كانت تمنحها تلك الجامعة مطلبا للطلاب بعد ان يكونوا قد تضلعوا فى علوم الدين والعلم واللغة لعدة سنوات وبعد ان اكتظت بالطلاب والدارسين الذين دابوا على اختيار الاستاذ وحضور حلقات الدرس المناسبة حيث كان كل استاذ يدرس اكثر من مادة واحدة وقد يلقى درسا من كتاب

يدرس منه استاذ آخر فى ذات الوقت وقد اعتبرت المساجد فى مختلف المدن المغربية اماكن للدرس والتدريس والتحصيل وتهافت الطلاب على حضور حلقات العلم فى المساجد التى كانت تشهد توسعا لان الجامع كان يعتبر بمثابة مدرسة تلقى فيها علوم الدين وقد كان التعليم بجميع اطواره يجرى فى المساجد او الجوامع لاسيما ان الفقهاء كانوا ياتون بالصبية والاطفال إلى المساحات الخارجية من المساجد لتحفيظهم القران الكريم وتدريسهم علوم الدين واللغة وقد اشتهرت مدارس الصبيان او الكتاتيب فى العهد السعدى فى جميع انحاء البلاد والقرى والبوادى والسهول والسفوح وفى كل تجمع سكانى حيث حرص سلاطين السعديين على الوصول بالقرآن وعلومه إلى كل بقاع المغرب الاقصى لاسيما بعد ان امتد نفوذهم إلى بلاد السودان .

ومن الامر المؤكد ان مراكز الثقافة والحضارة الاسلامية تحولت فى العهد السعدى من الاشعاع الدينى إلى الاشعاع الحضارى الثقافى واصبحت هذه المراكز من الشهرة فى العالم العربى والاسلامى وتزخر بالعلم والثقافة الاسلامية وبمؤلفات الاساتذة وقد تطلع العالم الاسلامى والاوربى إلى هذه المراكز الثقافية، وانه فى ذلك العصر لم يعد التعليم مقتصرا على المساجد والجوامع بل انه قد ظهرت انواع من التعليم الذى له صلة بالعلوم العصرية والمواد التى تدرس لاجل اكتساب المهارات والصنائع وزاد الاهتمام بالعلوم الحديثة واقبل الطلاب على دراسة هذا النوع من العلوم عملا على النبوغ فى قطاع من هذه القطاعات وقد كان الطلاب يتوافدون من البلاد البعيدة إلى مراكش او فاس للحصول على اجازات علمية تفتح لهم ابواب التدريس والتوظف فى بلادهم وكان اولئك الطلاب يدرسون امهات الكتب على الاساتذة والذين كان من بينهم الاندلسيون الذين ادخلوا العديد من العلوم الحديثة للتدريس كعلوم الرياضيات والكيمياء والفلسفة والطبيعة وعلوم الفلك والفيزياء وغيرها من العلوم التى كانت

منتشرة فى غرناطة قبل سقوطها عام ١٤٩٢م فنقلوا طرق تدريسهم وتعليمهم إلى المغرب بعيدا عن جو الارهاب ومحاكم التفتيش والاضطهاد والقتل والحرق وهى الاساليب التى كان يستخدمها الاسبان معهم من اجل اجبارهم على التنصير وترك الاسلام والدخول فى المسيحية .

لكنه رغم كل هذا التقدم الذى ادركه العصر السعدى فى مختلف العلوم الا ان العلوم الشرعية وعلوم اللغة العربية ظلت محور الحركة الثقافية والعلمية والفكرية طوال العصر السعدى وظلت امهات الكتب الاسلامية وما ظهر حولها من حواشى وشروح من المواضيع التى تدرس سواء فى التفسير وعلوم الحديث وكل ذلك كان يدور حول المذهب المالكى الذى كان هو مذهب اهل المغرب والسودان بعد ضمة للدولة المغربية السعدية، بل اكثر من ذلك فان مؤلفات الاساتذة والعلماء المغاربة كانت تدرس فى جامعات المغرب والمشرق وبلاد السودان، بل ان هناك اساتذة مغاربة كثيرين كانوا يدرسون فى جامعة الازهر وجامعة الزيتون بتونس وكان منهم العديد من المجاورين فى بيت الله الحرام فى مكة المكرمة والمدينة المنورة ويقومون بالقاء الدروس فى حلقات دراسية داخل المسجد المكى او النبوى. ولقد اصبح المغرب الاقصى بحق يساهم بقدر كبير ودور لاينكر فى اثراء حركة الفكر العربى الاسلامى ودفع الثقافة العربية الاسلامية قدما فى شتى الاقطار المغربية بل فى كل القارة الافريقية وصولا إلى بلاد السودان الغربى والاوسط والشرقى من منطلق الدور الذى لعبه الخليفة المنصور السعدى بعد فتح السودان وضمه للديار المغربية فى وحدة اسلامية شملت بلاد المغرب والسودان .

وذلك لان الحركة الثقافية والفكرية والعلمية فى المغرب قد اخذت مناخا وأغراضا فكرية متنوعة بعد ان كان العمل العلمى فى العصور السابقة ينحصر فى النواحى الدينية واللغوية والمنطق فتخطاها إلى دراسة كل العلوم الاوربية لاسيما وان

المغاربة قد احسوا بما وصل اليه الاوروبيون من تقدم وتطور عملى فى ظل دراسة هذه العلوم والفنون الجديدة التى زاد اطلاع المغاربة عليها بعد ان زادت صلتهم ببلاد انجلترا وفرنسا وهولندا واسبانيا وصقلت مواهبهم بالاطلاع على المؤلفات التى قدموا بها إلى مراكش وتهافت الطلاب على دراستها وعمل العلماء على شرائها ونسخها لكى ياخذ المدرسون بتبسيطها وادخالها فى المدارس المغربية بعد ان حظى التعليم بنوع من التنظيم والعناية لم يكن يعرفها من قبل ولم تعد المدارس وقفا على ابناء السلاطين والامراء وعليه القوم وقادة الجند والشرطة والقضاة وابناء العلماء انفسهم بل تعدتها إلى كل طوائف الشعب بعد ان عمل المنصور الذهبى على ادخال العلوم الحديثة لاثراء المكتبة المغربية بكل جديد وطريف فى هذا الميدان العلمى بعد ان حدث تطور علمى لاسيما وان المنصور فتح ابواب العلم والبحث امام العلماء وقد راينا كيف انه قدم إلى المغرب احد كبار مصممى الاسلحة الثقيلة المخترع الاندلسى احمد الحجرى المشهور بافوكان بعد ان هرب من اسبانيا ووضع المنصور كل الامكانات امامه للاختراع فافرغ اختراعاته وتصميماته معمل السلاح بمراكش الذى بدا يصنع انواعا خاصة من مدافع الميدان .

ولقد توافد على جامعات المغرب العشرات من علماء وخبراء الاندلس والمغرب الاوسط وبلاد المشرق الاسلامى واستقبلت جامعة القرويين العشرات ايضا ممن لمع اسمهم فى تاريخ العلم والفكر والتقدم وبارك السعديون الحركة العلمية والثقافية والفكرية العربية الاسلامية وشجعوها واحترموا العلماء والفقهاء والمخترعين وقربوهم اليهم واسقطوا عنهم وظائف السلطنةومنعوا عنهم ظلم الحكام، وكان للعلماء وضع خاص بحيث انه كان لا يجوز لغير السلطان النظر فى اية شكوى ضد اى عالم او فقيه .

ومن هنا فقد ادى الامر بعد اعوام قصيرة من تولى احمد المنصور الذهبى الحكم ان ظهرت نهضة علمية حقيقية تقوم على الدراسة المنهجية والتطبيقية واتضح فيها

معالم الفن المغربى الاندلسى الاصيل وظهر الالتحام المغربى الاندلسى فى كل المجالات لاسيما انه قد توجهت بعثات طلابية من مراكش وفارس إلى انجلترا وفرنسا وندب المنصور السعدى بعضا من الطلاب للعمل فى المجالات الصناعية ليكتسبوا الخبرات من العلماء الاجانب وسمحوا لبعض الطلاب بالتوجه إلى اوربا للاطلاع على الابحاث والمخترعات والوقوف على احوال هذه البلاد ومعالم التقدم العلمى بها .

وكذلك زاد عدد المثقفين بالعربية واللغات الاوربية لدرجة اننا نجد بعض المغاربة كان يجيد اللغة التركية والاسبانية والانجليزية وغيرها من اللغات الاوربية وكان يطلع على المؤلفات الاوربية بلغات اهلها وقد كان هذا نموذجا مغربيا رغم التمسك بالقرآن الكريم ودراسة علوم الشرع والدين والمحافظة على القيم والعادات والتقاليد المغربية .

وهكذا فانه يمكن القول بان المراكز الثقافية الاسلامية فى ذلك العصر كانت قد حققت نجاحا بارزا فى ربط الفكر الدينى العربى الإسلامى بالحضارات الاوربية فى المجال التطبيقى والعلمى وسار ذلك النهج فى نطاقه التاثيرى المتبادل بحيث لم يكن يتخطى الآخذ بعلوم الغرب بعد امتداد للثقافة الاوربية، انما ياخذ منها ما يستفيد منه الراغبون فى العلم والاستزادة من العلوم الاوربية خروجا على المجال القديم الذى كان يدرس الفلسفة والمنطق والتاريخ وآداب الرحلات والشعر وعلوم اللغة العربية والادب والانشاء وعلوم الدين من فقه وحديث وشهدت البلاد تقدما فى العلوم الصناعية والهندسة المعمارية ودراسة علوم الكيمياء والرياضيات وعلوم صناعة الاسلحة وانتقل بعض الاندلسيين إلى المغرب بما كان لديهم من علم اعطوه خبرة لابناء المغرب .

وقد انتشرت المؤثرات الاندلسية بصفة خاصة فى مدن واقاليم الساحل نظرا لقربها من الاندلس وصارت مراكش وفاس حواضر عالمية ذات تاريخ مجيد فى الحضارة والثقافة العربية الاسلامية لاسيما ان سلاطين السعديين فى مراكش وفاس كانوا

يستقدمون اعلام الفقهاءوالعلماء لتهذيب اولادهم وحضور مجالس مشورتهم بل ان مجلس الشورى الذى شكله المنصور السعدى كان يضم بين صفوفه بعضا من الفقهاء البارزين، بل ان الخلفاء السعديين كانوا يشجعون الاطباء والفلاسفة وكانوا يتخذون مجالس لهم تضم العديد من الشعراء والادباء وقربوا الفقهاء واغدقوا عليهم وشجعوهم بكل وسيلة وعملوا على استخدام النخبة العلمية الاندلسية والعمل بكل الوسائل على تهريبهم من الاندلس للاستفادة بهم بعد ان كان ملوك اسبانيا يحرمون على الصناع والعلماء المسلمين الاندلسيين الهجرة إلى المغرب استفادة منهم وتسخيرهم للعمل فى المجالات الصناعية والعلمية وذلك لما اشتهر به علماء المسلمين المتخصصين فى مختلف المجالات كالطب والصيدلة والبيطرة والهندسة والصناعات الحربية .

وكما سبق القول فان المنصور السعدى قد جدد المدارس القديمة وانشأ العديد من المدارس فى ذلك العصر وقد اكد المؤرخون كالقشنالى واليفرانى وغيرهم من المعاصرين للسعديين ان المدارس القديمة والحديثة قد تفوقت فى هذا العصر تفوقا ظاهرا وبدأ التفوق فى الطب والهندسة والكيمياء والصناعات الحربية وفى العلوم الشرعية وغيرها من العلوم الاخرى حتى اذا تمكن المغرب من هضم العلوم العصرية بعد ان زخرت بها المدارس بدا المغرب يخرج تفوقا فى هذه العلوم بعد ان عاد الاندلسيون إلى المغرب بذخيرة علمية عظيمة ينفعون بها الناس .

وهكذا يمكن القول من خلال هذا العرض لجوانب الحياة الفكرية والثقافية والعلمية فى المغرب ان هذه البلاد قد شهدت فى عهد الخليفة المنصور السعدى الذهبى امنا وطمانينة واستقرارا لم تشهده فى اى عصر سابق من قبله سواء فى عصر اخيه عبد المالك بن محمد الشيخ او اخيه عبد الله الغالب او فى العصور السابقة مما أدى إلى انتشار الآثار الفنية والعلمية فى مدن المغرب الاقصى لكن الحاضرة مراكش وفاس كانتا

اكثر تالقا فى سماء العلم والفن والثقافة العربية الاسلامية بسبب وجود بلاط السلطان السعدى وبلاد ولى العهد فى فاس وما يحيط بهما من ابهة ومظاهر السلطنة وبسبب تنافس الامراء وكبار رجال الدولة وعلية القوم فشهدت البلاد نهضة فى المدارس والمكتبات وخزانات الكتب ودكاكين الوراقين كما اصبحت مدينة مراكش وفاس من اهم مراكز الفن والحضارة والثقافة فى عهد السعديين .

كذلك لعب الثراء الواسع وورود الذهب بكميات كبيرة وزيادة انتاجه إلى رواج التجارة والصناعة بسبب توافر الذهب بكثرة ووفرة كما ادى الرخاء إلى زيادة دخل الدولة وثراء السلاطين لاسيما المنصور السعدى وقد زاد ثراء السعديين وعظم جاهلهم بعد ان جمعوا كميات كبيرة من الذهب السودانى وفدية اسرى معركة القصر الكبير واصبح من الميسور ان ينفق السلاطين اموالا كبيرة فى اقامة المصانع (السكر والاسلحة والمنسوجات) واقامة القصور (قصر البديع فى مراكش) واقامة المساجد والجوامع واصلاح جامع القرويين بفاس، كما كان وفود اهل الفن والصناعة الاندلسيون مما دفعهم إلى الانفاق لذلك تجلت فى المبانى السعدية الروعة والثروة وروعة الفن وضخامة المبانى اضافة إلى قيام السعديين باحياء تقاليد الاسلام ورفع لواء السنة واتسام الامراء والولاة منذ مؤسس الاسرة محمد القائم بامر الله بالتقوى والصلاح مرورا باولاده احمد الاعرج ومحمد الشيخ اقبالا على العبادة وذكر الله، فقلت المبانى المدنية بجانب انتشار المساجد والجوامع فيما عدا قصر البديع الذى استمر بناؤه ست سنوات فى عهد المنصور بالاضافة إلى ان المنصور امر ببناء العديد من المساجد فى المدن الكبرى وانشاء الزوايا والاربطة وبناء المسجد الجامع الكبير فى مراكش لاسيما وان الناس قد اقبلوا على المساجد اقبالا منقطع النظير مما اضطر الدولة إلى الاكثار من بناء هذه المساجد، نعم أقبل امراء السعديين على بناء القصور وتنافسوا فى بنائها وزخرفتها بينما توجه

السعديون بعنايتهم إلى المساجد، وقد بذل المنصور اموالا كثيرة فى تجديد وتوسيع جامع القرويين بفاس واستجلب له خيرة الصناع المهرة والمهندسين حتى جاء اروع آية فى فن البناء وابهته وهكذا حرص السعديون على تثبيت سيادتهم على تراب المغرب الاقصى بالكامل عملا على اسقاط الوطاسيين وكذلك القضاء على الامارات المستقلة والمدن التى اعلنت استقلالها عن العاصمة مراكش وكذلك الجيوب البرتغالية لاسيما بعد معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك فان السعديين لم يهملوا جانب بناء القناطر والجسور فقد اهتم المنصور ببناء القناطر الضخمة على الانهار لربط طرق الامبراطورية واجرى القنوات الكبرى للرى والشرب واستخراج المعادن على اختلافها وبصفة عامة فان المنصور كان ينمى مرافق البلاد ويضاعف قدراتها المالية وقد نجح السعديون فى سياستهم هذه نجاحا بعيد المدى .

وهكذا نرى كيف ان المغرب حققت خطوات واسعة وبارزة فى المجالات الثقافية والفكرية والعلمية من جراء حالة الاستقرار الامنى والرخاء الاقتصادى وتوسع الدولة جنوب الصحراء الكبرى واستقدام العلماء والخبراء من الاندلس والدول الاوربية التى ساعدت على أن تقفز المغرب قفزة جبارة فى مختلف المجالات والاصعدة العلمية .

وهكذا خطت الدولة السعدية بعدا مغايرا للعصور والاسرات الحاكمة قبلها فى الاهتمام بالعلوم العصرية الحديثة وادخالها فى مدارسها وتدريسها وتدريب المغاربة على استخدام المواد الصناعية فى الصناعات المختلفة مما دفع بالمغرب لان تخطو خطوات واسعة مغايرة لبقية البلاد المغربية التى كانت تخضع للحكم العثمانى التركى مما دفع بالمغرب ان يلعب دورا بارزا ومتميزا على الساحة العالمية ودخوله فى علاقات قوية مع الدول الاوربية كفرنسا وانجلترا وهولندا وأسبانيا وبلاد الخلافة التركية العثمانية .

الفصل الثامن

السعديون وعلاقاتهم مع القوى المعاصرة

تبوات المغرب فى العهد السعدى مكانة مرموقة بين القوى الدولية المعاصرة لها لاسيما بعد احراز نصر القصر الكبير عام ١٥٧٨م على القوات البرتغالية ومن تحالف معها من القوات الاوربية .

كذلك زادت هذه المكانة تالقا بعد اتمام فتح بلاد السودان (سنغاى) وضمها للديار المغربية وتكوين المنصور السعدى لامبراطورية اسلامية كبرى تقف على صف المساواة مع الدولة التركية العثمانية والامبراطورية الاسبانية فيما وراء البحار. وقد ساعد هذان الانتصاران على ان تخطب الدول المعاصرة للمغرب (الامبراطورية التركية العثمانية– اسبانيا– انجلترا– فرنسا– هولندا) ود المغرب وتسعى لاقامة علاقات طيبة معها تتسم بروح المساواة وتبادل المصالح المشتركة سواء ما كان منها تجاريا اقتصاديا او سياسيا الهدف من ورائه تحقيق المصلحة العليا للمغرب كدولة وشعبها كرعية بحيث يؤدى ذلك فى النهاية إلى المحافظة على كيانة القومى الاقليمى وعدم السماح بالتنازل عن شبر من هذا التراب وذلك فى حالة وجود سلاطين اقوياء يفضلون مصلحة الشعب على المصالح الشخصية التى كانت تتبعها تنازلات عن بعض الثغور أو الموانى المغربية لبعض القوى الخارجية .

ومما لاشك فيه ان القرن السادس عشر الميلادى عصر الدولة السعدية قد شهد تطورات سياسية بين القوى الاوربية والدولة المغربية لاسيما بعد أن تصاعدت القوى المسيحية الاوربية وانتشرت عبر المحيطات محاولة حصار الوجود العربى الاسلامى لاسيما ان العهد الوطاسى السابق للاسرة السعدية كان قد اغلق حدوده عليه وافلت شمس الدولة المغربية الكبرى فى عهد الموحدين ومع هذا فان المغرب فى العهد الوطاسى وهو

أضعف حلقات الحكم فى المغرب بحيث اصبح المغرب عاجزا عن صد الغارات الاوربية منقسما داخليا على نفسه بين امارات ودويلات صغيرة فكان فى تلك الآونة (١٤٢٠- ١٥١٠م الاسرة الوطاسية) يمثل حلقة ضعيفة مغلوبة بين قوتين اوربيتين صاعدتين هما البرتغال واسبانيا ثم بعد ذلك انجلترا واسبانيا وفرنسا وهولندا (الارض المنخفضة) وجاء الدور على الكيان الاسلامى الذى يلبس ثوب الخلافة الاسلامية متمثلا فى الدولة التركية العثمانية الصاعدة التى بسطت لواءها على شرق البحر المتوسط والبلاد العربية واوربا الشرقية .

وكان المغرب فى ظل هذه الصراعات مع بداية النصف الثانى من القرن السادس عشر يمثل بالنسبة للدول الاوربية السابق الاشارة لها الجسر الاول للعبور إلى افريقية والهند والعالم الجديد عن طريق سواحله الطويلة الممتدة على ساحل المحيط الاطلسى، وبفضل ثغوره المتعددة على ساحل البحر المتوسط كان العثمانيون الاتراك ينظرون إلى المنطقة الغنية المغربية التى استعصت على جيوشهم محاولة النيل منها أو اخضاعها مثلما تم اخضاع تونس والجزائر حيث انه كان البلد العربى الوحيد فى ذلك الوقت الذى يعيش وحيدا خارج نطاق الخلافة العثمانية .

ومع ظهور حركة الجهاد الاسلامى ودور الطريقة الجزولية فى ترشيح الاسرة السعدية الشريفة لكى تتحرك تحت راية الجهاد الاسلامى مرتدية عباءة الشرافة القرشية الهاشمية النبوية الزكية كانت كل الموانئ الهامة الكبرى فى المغرب قد تحولت إلى قواعد برتغالية واسبانية فكان لابد من مقاومة هذا الخطر بعد ان بدا التفكير من القوى الاوربية فى التوغل فى الداخل حيث مراكش العاصمة وفاس .

كما أن العقد الثانى من القرن السادس عشر قد شهد بداية دخول الاتراك العثمانيين إلى بلاد المغرب وذلك فى نفس الوقت الذى شهد قيام الدولة السعدية

بالمغرب الاقصى ولقد كان دخول الاتراك إلى ميدان المغرب العربى انما يهدف فى المقام الاول إلى احياء حركة الجهاد الاسلامى البحرى التى يقودها قوات المجاهدين المسلمين (جهاد اسلامي وليس قرصنة بحرية كما صور ذلك المؤرخون الغربيون الاوروبيون فذلك من اجل تخليص هذه البلاد من قوى الاحتلال المسيحى والقضاء على نفوذ القوى الفرنجية) ثم ضم هذه البلاد إلى الخلافة العثمانية فكان من المتوقع ان يكون هناك تقاربا بين القوتين الاسلاميتين العثمانيين الاتراك) (والشراف السعديين للعمل سويا على طرد القوى الاوربية ومواجهتها والعمل على حصرها من بلاد المغرب وتحرير الثغور المغربية من اردانهم النجسة ولاسيما ان نفوذهم قد امتد من باب مضيق جبل طارق حتى طرابلس مارا بالجزائر التى سيطروا على بعض بلاده هى وتونس ولاسيما أن معظم ثغور المغرب الاقصى فى العصر الوطاسى كانت واقعة تحت الاحتلال البرتغالى والاسبانى وكان الشعب المغربى قد تعلقت كل آماله وطموحاته فى الاستقلال وطرد الغزاه بالاسرة الحاكمة السعدية الشريفة التى قدمت من جنوب بلاد السوس لكى تعمل على توحيد القوى الوطنية السياسية تحت الراية السعدية لاسيما أن هذه الاسرة قد استطاعت قبل ان تنهى الوجود الوطاسى من فاس عام ١٥٤٩م أن تحرر كل الموانئ المغربية الممتدة من سانت كروز (فى اقليم العيون الصحراوى) إلى ازمور قد عادت عن طريق الجهاد الاسلامى للسيادة السعدية الشريفة .

(أ) ابعاد العلاقة السعدية التركية العثمانية

لقد عمل الاتراك العثمانيون منذ الوهلة الاولى التى دخلت فيها قواتهم إلى الموانئ والديار المغربية فى الجزائر وتونس وطرابلس على العمل على كسر شوكة القوى الاوربية المسيحية ومنعها من تنفيذ خططها لاحتواء الاراضى المغربية ولاسيما فى المغرب الاقصى الذى اراده لهم ضما لبقية الاراضى المغربية فى المغرب الاوسط والادنى ومن ثم كان ارسالهم شحنات السلاح التركية الوفيرة للمغاربة وحركة الجهاد الاسلامى المغربى لكى تكون فى ايدى المجاهدين لتحرير السيادة الوطنية وكانت الاسلحة الوفيرة التى ضمت اسلحة متقدمة منها آلات للحصار ومدافع عاملا حاسما فى تحرير الموانئ المغربية من ايدى البرتغاليين والاسبانين لاسيما ان الاتراك قد انتهزوا دعوة السعديين القائمة على القضاء على مراكز الاحتلال الاجنبى لبلاد المغرب الاقصى وان هذا الشعور الوطنى المغربى السعدى قد لقى قبولا وحماسا من الجانب التركى العثمانى الذى كان يهدف فى المقام الاول من تحركه فى غرب البحر المتوسط إلى اعادة البلاد المغربية إلى سيادتها ثم التفكير مستقبلا فى دفع حركة الجهاد الاسلامى لكى يندفع وراء مضيق جبل طارق لتحرير الاندلس التى كانت لاتزال توجد بها قوة من الاندلسيين الموركسين التى تقدر باكثر من مليون ونصف المليون مواطن مسلم، والذين كانت لاتزال تراودهم احلامهم بالعمل على ان تعود لهم السيادة والكيان الاسلامى تطلعا إلى الدول الاسلامية العربية للعمل فى تقديم الوان العون العسكرى والمادى والمعنوى باوسع نطاق له لتحطيم الحكم المسيحى والعمل على دفعه شمالا من جنوب شبه الجزيرة الايبيرية وحضارة خلف جبال البرانس .

ولقد عملت المغرب على الاستفادة من وصول الاندلسيين الموركسيين من اسبانيا واستقرارهم فى الديار المغربية خلال الفترات التى كانوا يتعرضون فيها لاقسى

انواع التعامل البشرى ولاسيما ان السعديين عملوا على ان تكون لهم قوات حربية وعسكرية منتظمة وفق احدث الاساليب العصرية فكانت الاستعانة بنواة الجيش السعدى بهذه الاعداد الاندلسية المنظمة والمدربة احسن تدريب والتى تملك زمام استخدام الاسلحة الحديثة، وهكذا كان تكوين جيش مغربى حديث بمساعدة الاندلسيين يدفع بالمغرب بالمقدمة لكى تكون دولة قوية لاسيما ان الاستعانة بهم قد تمت فى العديد من المؤسسات المغربية والتى كانت غالبيتها مؤسسات ومصانع حربية وعسكرية .

ولكن ازاء تطور القوة العسكرية المغربية فان خلافا قد حدث بين اتجاه حكام المغرب الاقصى من السعديين الجدد وبين سلاطين آل عثمان الاتراك وبجانبهم رجال الجهاد الاسلامى البحرى، ذلك لان السعديين والذين كانوا يعتزون بنسبهم القرشى باعتبارهم خلفاء اشراف من الدوحة الزكية النبوية ويطمعون إلى فرض خلافتهم على جميع البلاد الاسلامية وخاصة بلا المغرب العربى (انظر حملة محمد الشيخ السعدى إلى تلمسان) هذا إلى جانب اعتزازهم بوطنهم المغرب ومحافظتهم على استقلاله والعمل على دعم هذا الاستقلال وعدم قبولهم لادنى تدخل يحد من استقلال وكرامة وطنهم وعدم قبولهم لاية سلطة خارجية حتى ولو كانت سلطة اسلامية من دولة كبرى كالامبراطورية العثمانية، والذى كان الاشراف السعديون يرفضون الاعتراف بخلافتهم على العالم العربى والاسلامى باعتبار ان سلاطين الاتراك العثمانية ينتمون إلى عنصر الاعاجم وليس العنصر العربى الشريف القرشى فى حين ان الاتراك العثمانيين كانوا يسعون إلى بسط لواء سيطرتهم على المغرب الاقصى وتوحيد بلاد المغرب الكبير وذلك لتامين الجانب الغربى لامبراطوريتهم وخاصة حوض البحر المتوسط الغربى وسواحل المحيط الاطلسى، وذلك لمواجهة الخطر الصليبى بقوى اسلامية كبيرة وموحدة، ولقد

كان على الاتراك نظرا لاعتبارات استراتيجية وسياسية وعسكرية ان ينهضوا بالمهمة الدقيقة وكان الاتراك ينظرون من زاوية السيطرة المرحلية على بلاد المغرب الاقصى وكانوا يرون فى تزويد السعديين وحركة الجهاد الاسلامى بالاسلحة النارية والمدافع الحديثة ما يكسبهم التاييد الشعبى والالتفاف حول الخلافة العثمانية ويدفع الشعب المغربى وعليه القوم وذوى النفوذ ورجال الدين إلى حسن النية بالنسبة للاتراك .

لكن خلافا قد نشب فى أوائل عهد الاسرة السعدية عندما تقدمت قوات محمد الشيخ السعدى للسيطرة على المغرب الاوسط حماية لظهر المغرب الاقصى من الشرق وتطور ذلك إلى صراع مسلح بينهما وخاصة بعد وصول النفوذ العثمانى إلى المغرب الاوسط الذى يشترك مع السعديين فى الحدود السياسية، والاحداث التاريخية منذ ظهور العثمانيين على مسرح الاحداث السياسية ذلك لانه لا توجد دولة وقفت امام تيار الزحف التركى مثلما صمدت الدولة السعدية وحافظت على استقلالها وخاصة بعد ان بدات احتكاكاتها واتصالاتها بالاتراك العثمانيين فى عهد اقوى سلطانين فى تاريخ الاتراك وهما سليم الاول وسليمان القانونى، ولقد كان السعديون يعملون على اخذ الحيطة واليقظة والحذر فى تعاملهم مع الاتراك نظرا لمعرفتهم لنوايا سلاطين آل عثمان والتى كانت اخبارهم تصل إلى مسامع السعديين والتى ربما كانت على جانب من الصحة. وان كان الذى يقوم بنقلها الاسبان والفرنسيون عملا على عدم تكوين جبهة اسلامية قوية تقف ضد الوجود الاوربى على سواحل البحر المتوسط والمحيط الاطلسى .

ولقد عاون الاتراك العثمانية السعديين فى السيطرة على فاس عام ١٥٤٩م وانهاء الاسرة الوطاسية وراجت اشاعات نقلها قناصل اسبانيا وفرنسا ان السعديين يفكرون فى بناء اسطول بحرى ضخم عملا على استعادة الاندلس من أيدى الاسبان بمعاونة القوات التركية العثمانية، لكن لم يمض زمن طويل على اكتساح السعديين

لفاس الا وكانت قواتهم تنزل شرقا فى اتجاه المغرب الاوسط حيث السيطرة على تلمسان بعد ان اخضعوا فى طريقهم اليها مدينة وجدة بالقرب من الجزائر ولم يمض يونيو ١٥٥٠م الا وكانت تلمسان تخضع لنفوذ محمد الشيخ السعدى بعد أن أمن الشيخ السعدى عدم تحرش القوات الاسبانية بقواته وربما تكون قد عقدت معاهدة بين الطرفين من اجل طرد واضعاف قوة الاتراك العثمانيين فى الجزائر ويبدو ان المساعدات العسكرية الاسبانية قد مكنت محمد الشيخ من احراز انتصاراته فى المغرب الاوسط على الاتراك العثمانيين والتغلب عليهم لكن ازاء ذلك القتال فى المغرب الاوسط فان الاتراك انتهزوا فرصة طلب أبى حسون الوطاسى المساعدة لاستعادة ملكة من أيدى السعديين بالمغرب الاقصى واستعداده لضم المغرب تحت السيادة التركية وقامت حملة تركية عثمانية بقيادة صالح رايس والى الجزائر بالاستيلاء على فاس وطرد محمد الشيخ من عاصمة الوطاسيين وقد بدا ظاهرا أن المغرب اصبح تحت النفوذ العثمانى .

وكانت الدولة العلية العثمانية قد راجعت حساباتها بعد ان اصبح المغرب ليس عدوا للاسبان ولكنه حليف قوى لهم مما جعل هذا التحالف يقلب الموازين راسا على عقب فكانت الحملة التركية لاكتساح المغرب واعلان الباب العالى ضم المغرب إلى الخلافة العثمانية بعد أن خطب امام مسجد القرويين بفاس فى عهد أبى حسون الوطاسى للخليفة العثمانى لاول مرة ولاخر مرة فى تاريخ المغرب حيث أن ذلك لم يدم طويلا اذ أن الثورة الشعبية العارمة قامت لتخلع السلطان الوطاسى وتطرد الاتراك .

وتعد استعادة فاس نقطة تحول فى تاريخ العلاقات التركية بالدولة السعدية فقد ظهرت عداوة محمد الشيخ المهدى لتركيا بان ابن محمد الشيخ صرح اكثر من مرة بانه عازم على دخول الجزائر ومنازلتهم بها. وازاء هذا الوضع بالغ الخطورة تحرك العثمانيون بسرعة وارسلوا وفد إلى محمد الشيخ للتفاوض وعندما وصلت سفارة

السلطان التركى، تأخر الخليفة المغربى فى استقبالها ثم اذن لها بالمثول بين بديه وابقاهم واقفين على ارجلهم وكان مما قاله لهم تحقيرا لسلطانهم وتحديا له. سلم على أمير القوارب سلطانك وقل له ان سلطان المغرب لابد ان ينازلك على محمل مصر ويكون قتاله معك عليه وان شاء الله باتيك إلى مصر والسلام» بل ان السلطان السعدى كان يطلق لسانه فى السلطان العثمانى ويسميه سلطان القوارب .

ولا شك ان التاريخ العثمانى السعدى على المغرب كان فى صالح الاسبان والبرتغاليين ولهذا فقد حدث التقارب السعدى البرتغالى ولقد ادرك السلطان سليمان القانونى مدى تقارب محمد الشيخ مع المسيحيين وتطور هذا التعاون إلى مشروع للتحالف ضد العثمانيين ومع ذلك فقد كانت سياسة الخليفة العثمانى اخذ المغرب بالهداوة، لكن الرد القاسى الذى ابلغته الحاشية التركية للسلطان كان من اثره أن العثمانيين جربوا لاول مرة اثارة الفرقة التركية العسكرية العاملة فى المغرب ضد السلطان المغربى ونظام حكمه وقد جر ذلك إلى الكثير من المتاعب وتعرض محمد الشيخ للاغتيال والقتل .

وقد ادى حادث اغتيال محمد الشيخ والغدر به بهذه الطريقة البشعة بعد قطع راسه ووضعها فى مخلاة وارسالها إلى القسطنطينية وتعليقها على احد ابواب العاصمة التركية قد أدت إلى زيادة العداوة بين الاتراك وأبى عبد الله الغالب بن محمد الشيخ الذى تولى الحكم خلفا لابيه مما دفع الغالب إلى الاندافع فى سياسة المهادنة مع الاوريبين فاضطر الغالب المتلهف إلى السلاح والقوات العسكرية أن يتنازل لفرنسا فى عام ١٥٥٩م عن مدينة القصر الصغير الواقعة بين سبته وطنجة مقابل الحصول على اسلحة فرنسية تقوى وضعه امام خطر الاتراك الراغبة فى ضم المغرب باية طريقة وباى ثمن. وكان الاتراك قد ربطوا جسورهم وتعاونوا مع القوات التى اغتالت محمد الشيخ

فى المغرب ونزلوا بجزيرة باديس وتوغلوا فى المغرب من جديد حتى اشرفوا على مدينة فاس، الا أن عبد الله الغالب سلم الجزيرة للاسبان أملا فى دخول اسبانيا الحرب ضد الاتراك العثمانيين واشراكها فى الحرب لمنع الاسطول العثمانى من انزال قوات برية فى سواحل المغرب وكان يقابل ذلك عند المغاربة الصمود والتضحية بكل شئ والتحالف حتى مع الشيطان للحفاظ على استقلال بلادهم لاسيما ان الاتراك العثمانيين استخدموا عدة وسائل لتنفيذ هدفهم فى ضم المغرب والمطالبة على الدوام باية وسيلة بقبول الخلافة العثمانية لاسيما بعد احتضانها للامراء السعديين عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن أبناء محمد الشيخ نكاية فى أخيهم عبد الله الغالب وكذلك العمل على توزيع الاسلحة على بعض القبائل المغربية دفعا لانماء روح الوحدة الاسلامية والعمل على بث تلك الدعوة فى الاوساط الدينية والقبائل الكبرى .

وكذلك عملت تركيا على الابقاء على للقوات التركية المحترفة العاملة مع الجيش المغربى ولاسيما الحاشية التركية التى كانت مقربة لدى الخليفة السابق، واذا كان الغالب قد تنازل لفرنسا عن القصر الصغير ولاسبانيا عن حجر بادس فانه تنازل ايضا للبرتغال عن ميناء مازاكان بعد ان كان المغاربة قد قاربوا تخليصه من أيديهم .

وكان الاتراك قد ارسلوا حملة بقيادة حسن بن خير الدين باشا حاكم الجزائر لكن القوات المغربية قضت على طموحات هذه الحملة وتمت هزيمتها ولم يشهد عصر الغالب أية محاولات تركية اخرى بعد حملة حسن خير الدين باشا .

وقد حدث تطور هام فى عام ١٥٧١م عندما انكسر الاسطول العثمانى بشكل تام امام اساطيل اسبانيا واوربا فى معركة لبيانتو ومنذ ذلك لم يعد العثمانيون يفكرون فى اضافة حلقة اخرى فى سلسلة امبراطوريتهم، بل اصبح المغرب بالنسبة لهم يشكل سدا قويا يقف فى مواجهة القوى المسيحية القوية والمتفوقة .

لكن الاتراك استضافوا اعداء الغالب من البيت السعدى أمثال عبد المالك وعبد المؤمن واحمد المنصور عندما التجأ هؤلاء الامراء السعديون إلى الباب العالى طالبين العون لاسترجاع العرش السعدى لهم بعد تعاون الغالب مع الدول المسيحية مما دفع الاتراك بامدادهم باسلحة ومدافع وجيش كامل قوامة خمسة آلاف جندى مسلحين احسن تسليح وفق اساليب العصر وذلك بعد ان نجح عبد المالك واخوته فى اقناع السلطان سليم الثانى فى اغراء الاتراك بمساعدتهم بهذه القوات لاسيما وان عبد المالك وأخاه المنصور قاما بدور كبير فى حملة تونس وبلغت اخبار انتصاراتهما إلى مسامع السلطان العثمانى وقد خصص السلطان العثمانى لمولاى عبد المالك واخويه عبد المالك واحمد المنصور بتلمسان مبالغ مالية كبيرة للمساعدة وكذلك عشرين مدفعا حديثا وعشرين سفينة نقل للقوات وكان انتصار العثمانيين فى تونس قد شجعهم على مساعدة الامراء السعديين لبسط نفوذهم بعد ذلك على المغرب الاقصى لان استيلاء الاتراك على المغرب الاقصى يؤكد سيطرتهم على جميع البلاد ويؤمن حدودهم الغربية زيادة على ان ضم المغرب إلى الامبراطورية يجعل الاسبان والبرتغاليين فى نزاع دائم وقد يكون ذلك عاملا قويا ومساعدا على العمل لاعادة فتح الاندلس مرة اخرى ومساعدة المسلمين وعودتهم إلى ديارهم ودخل الجيش التركى لمساعدة عبد المالك فى فاس عام ١٥٧٥م وبعد استتباب الامر للسلطان المولى عبد المالك عادت القوات التركية ادراجها إلى الجزائر مرة ثانية وازاء اشتداد الصراع بين عبد المالك وابن أخيه محمد المتوكل (المسلوخ) ابن الغالب فان العثمانيين ساهموا مساهمة فعالة فى ارسال اسلحة حديثة ومتنوعة وكذلك قوات وخبراء عسكريين ومدربين وأشفعوا ذلك بارسال فيلق عسكرى تركى للمساندة عام ١٥٧٨م فى الصراع الدائر على أرض المغرب .

وقد أرك الاتراك بعد عودة القوات إلى الجزائر خطورة سياسة عبد المالك واتجاهه

بل نزوعه إلى الاستقلال حيث كانت هذه سياسة اسلافه السابقين من البيت السعدى وكذلك مسالمة المسبحيين وتوطيد العلاقات معم ولم تمض سنوات قليلة حتى غدروا به كما غدروا سابقا بوالده محمد الشيخ ووضعوا له السم فى كعك اهدى ومات عبد المالك قبل انتهاء معركة القصر الكبير عام ٩٨٦هـ/ ١٥٧٨م أقوال معادية للوحدة الاسلامية) والذى دس السم لعمه عبد المالك هو الامير محمد المتوكل (المسلوخ) لاحداث بلبلة بين قوات عبد المالك وتحقيق النصر للبرتغاليين بقيادة دوق سباستيان فى القصر الكبير وليس الاتراك هم الذين وضعوا السم لان ذلك غير مؤكد .

وفى عهد احمد المنصور السعدى الذى خلف اخاه عبد المالك فى تولى أمور المغرب بعد انتصار القصر الكبير فان العلاقات بدات متوترة نظرا لتدخلهم السافر فى تولية اسماعيل بن عبد المالك بدلا من المنصور بعد انتهاء المعركة وبعد فشل الانقلاب الذى جرى ضده من قبل الاندلسيين خاصة وانه كان هناك اتفاق بين الاندلسيين المورسكين الضباط العاملين فى جيش المغرب للعمل بمساعدة الاتراك لقلب نظام الحكم والاطاحة بالبيت السعدى وتاسيس دولة اندلسية تحت الحماية التركية برئاسة الامير السعدى دواد بن عبد المؤمن. ويخبرنا القشتالى فى كتاب مناهل الصفا فى اخبار موالينا الشرفا وكان قريبا من الاحداث بان محمد بن زرقون الاندلسى جمع كلمة الجنود الاندلسيين كافة على الثورة والفتنة ومن هنا فقد تحقق أمير المؤمنين أحمد المنصور من ذلك وما انطوى عليه دور الاندلسيين فى العداوة والبغضاء لسلطان السعديين نظرا لعملهم على هدم الاسرة السعدية وتفريق امر الجماعة فما كان من أحمد المنصور الا أن أعدم غالبية الضباط الاندلسيين الموالين للاتراك وتطهير جيشه من صفوفهم وكان احتضان الاتراك لاسماعيل بن المالك ابن صاحب انتصار القصر الكبير تمهيدا لاستغلاله ضد المنصور ومحاولة اخضاعه للخلافة التركية .

والثابت أن هذه المؤامرة لم تثر اهتمام الاتراك العثمانيين والباب العالى بالقدر الذى كان يحدث من قبل ويظهر ان طلب حاكم الجزائر الرئيس علوج باشا أسلحة وسفن وقوات من السلطان فى ذلك الوقت بالذات وهو العام الاول من تولى المنصور لم يلق تجاوبا يذكر فقد اسدل الستار على المشاكل بعد وصول سفراء كل بلد إلى البلد الآخر .

وكان السلطان مراد الثالث التركى قد افتتح علاقاته مع المنصور بارسال سفاره تهنئة إلى خليفة مراكش للانتصار الكبير على الاوربيين فى معركة القصر الكبير مع هدية وكانت رسالة الخليفة العثمانى تدعو المنصور إلى أن يكون على أهبة الاستعداد لتحرير وهران والمشاركة فى حرب الاسبان، بل اكثر من هذا فقد رغب السلطان مراد الثالث فى عقد حلف مع المغرب يهدف فى الدرجة الاولى إلى غزو اسبانيا واستعادة الاندلس لانه عدو عنيد للحركة الاسلامية بل ان السلطان التركى طلب ان تعلق الاتفاقية والعهد بالكعبة المشرفة والروضة المعظمة وطلب من المنصور أن يرسل اليه جيشا جرارا وقوات كبيرة للعمل على فتح الاندلس ان شاء الله ولعل السلطان العثمانى كان صادقا فى تحليله وعرضه فاسبانيا بعد هزيمتها المنكرة فى معركة الارمادا فى ٣٠ يونيو ١٥٨٨م امام القوات الانجليزية هبطت إلى الدرجة الثانية بالنسبة للقوات الكبرى المعروفة فى ذلك الوقت، ومن هنا فانه لم يكن من الصعب القيام بعمل تركى مغربى ضدها لاسيما بحجم القوات التى عرض السلطان مراد الثالث ارسالها لمشاركة القوات المغربية، لاسيما ان سلطان بنى عثمان كان يعلم مدى عمق العلاقات والصداقة القوية التى تربط الملكة اليزابيث ملكة انجلترا بالسلطان المنصور السعدى ومدى اتصالاتهما بشأن ولى عهد البرتغال والمشكلة الاسبانية، لكن انجلترا لم تكن هى أو غيرها من ملوك اوربا وامرائها فى ذلك الوقت تسمح باعتداء اسلامى على دولة مسيحية او الاشتراك فى

التعاون من اجل السيطرة على اسبانيا وقد يكون ذلك مبدا عاما لازالت تسير عليه السياسه الغربية الاوربية الامريكية حتى وقتنا الحاضر .

ولكن المنصور السعدى كان حذرا من الاتراك بعد أن غدروا بأبيه محمد الشيخ وأخيه عبد المالك ومن ثم اتخذ موقفا سلبيا من قبل السفارات التى كان يتم ارسالها إلى بلاده وموقف اللامبالاة وعدم إرسال هدايا مماثلة إلى السلطان مراد الثالث لكن هناك آراء تذكر عكس ذلك لان المنصور كان يرى فى هذه المراسلات ما هى الا سباق بين الاتراك والانجليز لكسب ود المنصور وكان المنصور يردد دائما اذاء هذه المراسلات التركية بالقول لعل ذلك اجتماع لكلمة الاسلام ان شاء الله بهذا الصلح الذى آن أن ينعقد بين الدولتين ويبرم حكمه بين المملكتين عونا على صرف العناية بحول الله لمجاهدة عدو الدين .

وتردد السفراء بين الاستانة (القسطنطينية) وبين مراكش فتوجهت سفارات احمد ابن ودة والشاظبى والشياظمى وابن الحسن على بن محمد التمكرونى بين أعوام ١٥٨٨ و ١٥٩٠م واستقبل احمد المنصور سفيرا تركيا فى يناير ١٥٨٩م، ولكن اقتراح السلطان العثمانى لم يتحقق لاسباب مجهولة وقد يكون من بينها القيام بالثورة ضد الوجود التركى فى طرابلس الغرب وكذلك ثورات مدمرة فى تونس أغفلت السلطات العثمانية فى ذلك الوقت عن التفكير فى مشروع تحرير الاندلس نظرا لان هذه الثورات استنفذت بعضا من جهد الدولة وهددت قوتها، كما أن الاحوال فى بلاد الشام واليمن فى ذلك الوقت لم تكن هادئة، كذلك فان ثورات رجال القبائل فى الجزائر جعلت القوات التركية فى الجزائر منصرفة لاخماد ثورات رجال الجبال، كذلك فان مراد الثالث واجه ثورات عنيفة فى الاقاليم الاوربية الغربية القريبة من بحر البلطيق ودول الصرب والبلقان مما جعل الاتراك ينصرفون عن مشروعهم فى غزو اسبانيا بالتعاون

مع المغاربة، كذلك فان حروب السلطان مراد الثالث فى الشرق مع ايران (فارس) قد أخذت جهدا كبيرا من نشاط الدولة وازاء هذه المواقف اخذت العلاقات بين الاتراك والسعديين تعود إلى حالة من الهدوء والود بعد أن انصفت بالحذر والحيطة من جانب المغاربة وكانت الظروف الدولية تساعد على ذلك، ولكن الخلاف التركى المغربى لم يجعل المغاربة يستثمرون انتصاراتهم فى معركة القصر الكبير ذلك لانه لو قدر لهذه العلاقات أن تكون متعاونة ومتضافرة لتم تحرير قواعد الاحتلال فى المغرب الاقصى .

لكن ازاء تحسن العلاقات وجد المنصور فرصة للانطلاق بالسياسة الخارجية وكانت مسالمة الاتراك عاملا قويا فى ممارسة سياسة التوسع فى السودان الغربى (سنغاى) ومن ذلك فانه عندما كان المنصور السعدى يستعرض قواته العسكرية المتجهة إلى بلاد السودان الغربى كان السفير المغربى لدى الخلافة التركية العثمانية السفير أبو الحسن على بن محمد التمكرونى يلقى خطبة اسلامية لدى يدى السلطان العثمانى يحض فيها على اتحاد كلمة المسلمين وتوحيد جيوشهم لمحاربة الكفار والوثنيين واعادة المسلمين إلى سابق عزهم ومجدهم التليد ومن هنا بات واضحا ازاء هذه الخطبة أن العثمانيين الاتراك لن يتحركوا ضد المغرب من جديد بازاء طموحاته فى التوسع فى بلاد السودان وهكذا شهد عصر المنصور انتهاء الاطماع العثمانية التركية فى المغرب وتسليم الباب العالى بالامر الواقع .

وبعد أن فتح المنصور بلاد السودان الغربى فقد أخذ يرنو ببصره إلى بلاد الشرق الاسلامى لبسط نفوذه عليها واعلان خلافته على مصر والشام وبلاد الحجاز والعراق وغيرها من البلاد العربية التى تخضع للحكم التركى، ومن ثم فقد أخذ يراسل زعماء هذه البلاد وعلية القوم وكبار رجال الدين وقادة البلاد وكبار الاسر والاعيان عاملا على بث الدعوة للخلافة السعدية القرشية الشريفة وأرسل إلى علماء مصر خاصة نظرا لدور

مصر الكبير فى المنطقة باعتبارها مدخلا إلى بلاد الشرق الاسلامى وعملا على تكوين قاعدة مشايعة للدوة السعدية فى بلاد كمصر وغيرها من البلاد واخذ العلماء والفقهاء ورجال الدين فى الازهر الشريف وفى الحجاز ودمشق وحمص وحماه وبغداد يتطلعون إلى حكم الشريف السعدى والتحرر من جبروت وظلم نظام الحكم العثمانى التركى وقد ظهر ذلك فى رد العلماء المصريين فى رسائلهم إلى المنصور السعدى بل ان المنصور اتخذ خطوات فعلية فى هذا السبيل فقد راسل عالمين كبيرين من علماء مصر فى ذلك الوقت هما ابو عبد الله محمد بن يحيى الشهير ببدر الدين القرافى، والامام العارف بالله أبو عبد الله محمد بن الشيخ أبى الحسن البكرى وقد كتبا اليه ردهما فى شأن ما كان يطلبه المنصور .

وكذلك عمل على وصول دعوته إلى بلاد الشام والى عقر دار الخلافة التركية فى القسطنطينية ومن ذلك فانه أرسل سفارة إلى انجلترا ليخاطب الملكة اليزابث فى طلب مساعدة انجلترا عن طريق اسطولها فى نقل وفد مغربى إلى حلب على الحدود القريبة من تركيا لعرض الدعوة السعدية الشريفة ومد نفوذها إلى هذه البلاد مؤكدا لملكة انجلترا بأن المسلمين فى بلاد الشرق الاسلامى سوف ينضمون إلى لوائه والدعوة له والترحيب بالخلافة القرشية العربية بدلا من خلافة العثمانيين الاتراك الاعاجم اذا وصلت هذه الوفود إلى بلاد الشام، لكن ملكة انجلترا اعتذرت عن القيام بمثل هذا العمل بعد أن اتضح لها أن المنصور السعدى يهدف إلى فتح الاندلس واعادة المسلمين إلى ديارهم والى طرد النصارى من الاقاليم الجنوبية للاندلس واقامة كيان اسلامى بتشجيع من تركيا. وقد تنبهت السلطات العثمانية فى هذه البلاد إلى نوايا احمد المنصور وحالت بينه وبين الاتصال بمن كانت هذه الوفود المغربية تريد الاتصال بهم لتحقيق اهدافها .

وفى مقابل ذلك فان السلطان التركى وحاكم طرابلس العثمانى مد المساعدة للسلطان ادريس الوما سلطان برنو الاسلامية فى السودان الاوسط وأمده بالسلاح النارى والاسلحة الحديثة نكاية فى مخطط المنصور من أجل زعزعه الاستقرار فى البلاد التى تخضع للحكم العثمانى (عبد الفتاح مقلد الغنيمى، سلطنة برنو الاسلامية رسالة ماجستير غير مطبوعة جامعة القاهرة ١٩٧٥م) .

وفى عهد السلطان التركى محمد الثالث وصلت سفارة تركية إلى المغرب تطلب من المنصور السعدى اخلاء مدينة أغادير الميناء الرئيسى للبلاد لاعداده قاعدة للاسطول الانجليزى وبأن لايتعرض رجال الجهاد الاسلامى فى البحر للسفن الفرنسية وقد أدرك المنصور ازاء رسالة محمد الثالث مدى تقارب انجلترا مع تركيا، ولكن المنصور الذى كان مشهودا له بحسن التخطيط والحنكة السياسية أدار ظهره للانجليز واتجه للاسبان بعد تحول السياسة الانجليزية عن المغاربة وكان هذا الاتجاه هو السياسة التقليدية للسياسة المغربية ووصل التفاهم مع الملك الاسبانى فيليب الثالث إلى حد دفع المنصور إلى التعاون والتحالف التام وأن يدخل فى حلف ثلاثى مكون من المغرب وفارس (ايران) واسبانيا عام ١٦٠٢ ضد الاتراك على أمل الاستفادة من التحالف الثلاثى وتقسيم الخلافة التركية وبسط نفوذ الخلافة السعدية القرشية على بلاد الشرق الاسلامى وهكذا كان المنصور السعدى شخصية قوية ماهرة ذكية حنكنة الايام فخطط للمغرب وجهه القوى وكيانه المستقل .

(ب) السعديون وعلاقاتهم مع انجلترا

كان الموقع الجغرافى المتميز للمغرب الاقصى بامتداد سواحله الطويلة على شواطئ البحر المتوسط والمحيط الاطلسى واعتباره مفتاح الطريق إلى افريقية وملاصقته لجنوب أوربا بحيث لايفصلها الا ذلك المضيق المعروف بمضيق جبل طارق وكثرة المنحنيات المغربية الطبيعية والزراعية وما تجود به ارضها من خيرات وتقدمها فى صناعات لم تكن اوربا تعرفها وكانت فى أمس الحاجة اليها كانتاج السكر الذى تخصصت فيه المغرب وتهافت الاوربيون جميعا على استيراده وكانت المبادلات التجارية لما يحقق مصالح الطرفين قد دفعت بانجلترا بان تدخل ميدان العلاقات والصلات مع المغرب السعدى لاسيما بعد الانتصار الساحق الذى احرزه المغرب على البرتغال ودول اوربا التى تسانده فى معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م .

ومن هنا فقد أخذت العلاقات بين الطرفين شكلا تجاريا خالصا فى بداية الامر بل ان أول صلات وعلاقات بين المملكتين كانت تجارية ومنذ بداية العهد السعدى بدأ التنظيم والتوسع فى تجارة البلدين لاسيما وأن انجلترا قد بدأت تجارتها مع السعديين وهم لايزالون حركة اسلامية مجاهدة فى اقليم السوس بالجنوب، ذلك لان التجار الانجليز كانوا يترددون على المناطق المغربية جنوب مراكش لشراء منتجات هذا الاقليم من السكر وملح البارود اضافة إلى منتحات بلاد السودان الغربى التى كانت تصل إلى سجلماسة وتارودانت والاقاليم الجنوبية من المغرب. ولتقدم القبطان توماس وتيد هام الانجليزى بباخرته المحملة بالاسلحة النارية الحديثة الثقيلة والتى كان من بينها المدافع إلى ميناء أغادير وأسفى فى الجنوب عام ١٥٥١ ودفع بهذه الاسلحة التى كان المغاربة فى اشد الشوق اليها لاستخدامها فى تقوية صفوفهم وطرد البرتغاليين من هذه النواحى حيث تم طرد البرتغاليين بحد السيف وقوة السلاح من أغادير وأسفى قبيل قدوم هذه

الاسلحة ومن ثم عادت هذه السفينة محملة بمنتجات المغرب ومنها السكر واللوز والذهب .

وباع التجار الانجليز الاسلحة إلى المغاربة خرقا لاوامر البابا التى كانت تنص على عدم بيع الاسلحة للمسلمين فكان يتم تبادل السكر وتبر الذهب بالاسلحة ولما تولى محمد الشيخ مقاليد الامور فى المغرب عمل على توسيع نطاق التجارة مع الانجليز وقد حصل قبل قدوم توماس بعدة سنوات وفى عام ١٥٤١م على أسلحة انجليزية استطاع بهذه الاسلحة احراز الانتصار على البرتغاليين وتم له طرد البرتغاليين من جميع الموانئ المغربية فيما عدا طنجة وسبته ومازكان .

وقد اعتبرت البرتغال آنذاك أن نمو التبادل النوعى وزيادة قدرة المغرب العسكرية موجهتان ضد مصالحها مباشرة واعتبرت أن استخدام الانجليز لميناء اغادير وأسفى معا لانزال السلاح اساءة بالغة لكل المسيحيين وخروج على أوامر بابا روما .

ولقد سار أبو عبد الله الغالب بن محمد الشيخ على سياسة أبيه فى تطوير علاقة السعديين مع انجلترا لذا فاننا نجده يقوم فى جمادى الاولى عام ٩٧٧هـ اكتوبر ١٥٦٩م بارسال رسالة إلى اليزابيث ملكة انجلترا طالب فيها دوام العلاقات التجارية واستعداد المغرب لفتح ثغوره أمام السفن الانجليزية وامداد انجلترا بالسلع المغربية التى تحتاج اليها السوق الانجليزية والمصانع الانجليزية فى مقابل امداد المغاربة بالاسلحة والذخيرة والمدفع .

ولقد فعل محمد المتوكل (المسلوخ) ابن الغالب نفس الشئ مع انجلترا اذ أرسل إلى انجلترا طالبا السلاح لصد الخطر العثمانى ومقاومة عمه عبد المالك بن محمد الشيخ المطالب بالعرش واستطاع عبد المالك الحصول على الخشب الانجليزى لبناء سفن للاسطول المغربى وكذلك السلاح اللازم لقواته من انجلترا وكانت انجلترا فى

أمس الحاجة إلى ملح البرود لصناعة الاسلحة فى بلادها وقبل اشهر قليلة من معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وصل سفير انجليزى إلى مراكش هو ادمون هوجان Hogan على ظهر سفينة حربية انجليزية محملة بالمدافع الثقيلة الكبيرة وانواع متعددة من البنادق والذخائر وعادت إلى بلادها بالذهب وملح البارود والسكر، كذلك مارست شركة انجليزية نشاطها التجارى فى المغرب باسم الشركة البربرية منذ عام ١٥٨٥م، ولقد كانت هذه الشركة هى صلة الربط التجارى حيث كانت تضم العديد من التجار الانجليز من انجلترا والمغرب وكانت تمارس نشاطها التجارى بل والصناعى بموافقة السلطات المغربية .

بل ان الملكة اليزابيث بعد ارسالها الاسلحة لعبد المالك بن محمد الشيخ حاولت عقد اتفاقية تحالف مع الحكام السعديين وطلبت منهم فك الاسرى الذين سقطوا فى أيديهم فى معركة القصر الكبير، اضافة إلى جعل المغرب سوقا للتجارة الانجليزية وقد سمح عبد المالك فى فترة حكمه القصيرة بتصدير ملح البارود اللازم لمدافعهم ومصانع الحربية الانجليزية وكذلك السكر والنحاس وغيرها من المنتجات المغربية الوفيرة وذلك فى مقابل أن ترسل انجلترا للمغرب الاسلحة ومواد البناء للسفن ولقد كانت الاسلحة الانجليزية والعلاقات المغربية الانجليزية وراء انتصار المغاربة فى معركة القصر الكبير مما دفع فيليب الثانى ملك اسبانيا إلى التقدم باعتراض إلى المغرب للنمو الخطير فى العلاقات المغربية الانجليزية لكن اليزابيث ملكة انجلترا كانت تواقه لان تواصل التبادل غير المشروع فى نظر البابوية وأوربا فى السلاح مقابل ملح البارود المراكشى اللازم لصنع الذخيرة والذى لم يكن متوافرا الا عند المغاربة فقط ورغم ما فعلته فى اخفاء هذه التجارة غير المشروعة فقد عرف بها فليب الثانى ملك اسبانيا وملات المرارة قلبه حين تحطم الجيش المسيحى الاوربى فى موقعة القصر الكبير بواسطة اسلحة مستوردة من

انجلترا لذا اعترض بشدة عندما علم برغبة اليزابيث فى اعادة العلاقات التجارية فيما بعد مع أحمد المنصور الذهبى إلى حد أن أضطر الشريف السعدى إلى رفض طلبها الا انه عاد فقبل التبادل لان عودة التجارة كانت رغبة ملحة لدى المنصور من أجل تزويد جيشه بالسلاح وكانت تعادل رغبة اليزابيث فى الحصول على ملح البارود. ولم تمض فترة طويلة حتى علم العالم المسيحى كلة وكذلك اسبانيا ان المغاربة يحصلون على حاجتهم من السلاح والذخيرة والمدافع وخشب السفن والاسطول من انجلترا وكذلك طلقات المدافع واسلحة الاسطول وكل ما يحتاج المغاربة كان يتم الحصول علية من انجلترا وقد استقبل المنصور سفير ملكة انجلترا للتهنئة بانتصارات القصر الكبير ولكن مما يدعو إلى الدهشة انة لم يكن يحمل من الهدايا ماهو جدير بالتسجيل. وقد زادت فرصة التجارة مع انجلترا بعد وصول هذا السفير فقد تم فى عام ١٥٨٠م تكوين أول اتحاد للتجار الانجليز فى المغرب . وعملت انجلترا على زيادة نفوذها التجارى وزاد الاهتمام الذى أولاه اتحاد التجار الانجليز بهذه الشركة وأرسل المنصور رسالة إلى انجلترا مفادها أن المنصور سيعامل التجار الانجليز بجميل العدل وحسن الانصاف فى سائر أحوالهم وعامة شئونهم وهكذا كانت هذه الرسالة فاتحة عهد جديد فى العلاقات المغربية الانجليزية فى عهد المنصور لما فيه مصلحة البلدين حيث أن المنصور كان يعقد على التعاون المغربى الانجليزى أعظم الآمال ويتطلع إلى القيام معهم بعمل عسكرى مشترك ضد المصالح الاسبانية وضرب مصالحها فى مختلف جهات العالم ويبدو أن الانجليز كانوا معجبين بالطموح المغربى ومدركين أهمية دوره فى محاربة الاسبان والنزول بسواحلهم ولكنهم لم ينظروا بجدية لهذا الموضوع على نفس قدر حكمهم على مخططاته الاستعمارية .

ولقد كان الدور الانجليزى منصرفا إلى منع الاسبان من الحصول على أية

مكاسب فى المغرب ومحاولة تضييق الخناق عليهم لذا كانت تقف مع المنصور فى منعه من التنازل عن مينا العرائش أو مقايضته بميناء الجديدة ومنع الاسبان أن يستغلوا عنصر الحذر المغربى من العثمانيين الاتراك ليصلوا إلى مكسب فى الاراضى المغربية. ولكن أهم انجاز عملى كان متصلا بالجانب التجارى فاصبحت المعادن على اختلافها وخاصة النحاس وملح البارود والسكر تاخذ طريقها إلى بحر الشمال ويقابلها فى الاتجاه المعاكس السلاح والسفن .

وجاءت قضية الدو انطونيو المطالب بالعرش البرتغالى ضد الاسبان الذين ضموا البرتغال إلى املاكهم والجهود المبذولة لاعادتة إلى عرشه على النطاقين العسكرى والمالى لتدخل العلاقات بين البلدين مرحلة أكثر نشاطا وحيوية وكانت الملكة اليزابيث تلح على المنصور فى دفع الاموال للامير البرتغالى والتريث فى موضوع ارسال الجنود المغاربة إلى لشبونة وكان ذلك الدور المغربى دليلا على المكانة العالية التى وصلت اليها المغرب فى مجال السياسة الاوربية الخارجية فى عهد المنصور، وفى عام ١٥٨٨م تم هزيمة الارمادا الاسبانية هزيمة ساحقة ومن ثم ظهرت انجلترا كاقوى دولة بحرية وتحكمت فى بحار العالم وساعدت الهولنديين فى الحصول على استقلالهم عن أسبانيا .

ولقد استفاد المنصور من هذه الظروف الدولية اذ اصدر فى ١١ يناير ١٥٨٨م أوامره لحاكم تطوان أحمد النفيسى بالهجوم على مدينة سبته التى كانت تحتلها اسبانيا وذلك لتكون مركزا للاسطول المغربى وكانت تلك أول مرة كشف فيها المنصور أوراقه أمام الاسبان وأن هذا الهجوم كان بالاتفاق مع انجلترا والمطالب بالعرش البرتغالى ويدل على ذلك بكل وضوح ما جاء فى رسالة المنصور فتضمنت خطة مغربية بمنتهى الذكاء وهى أن يجئ الاسطول الانجليزى فى وقت الهجوم المغربى إلى السواحل المغربية

الشمالية ويقوم المغاربة بالاغارة على مدينة سبته برا وبحرا وذلك لدفع بقايا الاسطول الاسبانى لترك هذه القاعدة والتقوقع بالموانئ الاسبانية الجنوبية الشرقية وافساح المجال أمام الاسطول المغربى للقيام بعملية غزو سبته على أوسع نطاق استفادة من تحطيم الاسطول الاسبانى وعدم قدرته على الدفاع عن المدينة لان أسطوله كان فى حالة سيئة بعد هزيمته أمام الاسطول الانجليزى .

وقد احتفل أحمد المنصور الذهبى بانتصار انجلترا على أسبانيا نكاية فى اسبانيا بهذا الانتصار العظيم وأرسل عام ١٥٨٨م اقتراحا بهجوم انجليزى مغربى على اسبانيا ولقد كان الامير دون أنطونيو المطالب بالعرش البرتغالى رهينة لدى البلاط المغربى فحاولت انجلترا لدى السلطان العثمانى لكى يضغط على الخليفة السعدى لمحاربة الاسبان وان نقوم انجلترا باعداد الاسطول على حساب المنصور. بعد أن تعهد الانجليز من جانبهم باقناع حاكم مدينة سبته الاسبانى بتسيلم المدينة المغربية للمغرب اعتمادا على اتصالات كانت تجرى معه فى هذا الصدد .

كما أن المغرب كانت على أتم استعداد للقيام بالعمل على عودة المطالب بالعرش البرتغالى واحتلال اسبانيا ومن ذلك فقد أرسل المنصور سفيره إلى لندن فى ١٢ يناير ١٥٨٩م وكان يحمل معه عدة مقترحات منها أن يقود أحمد المنصور بنفسه الجيوش المغربية الانجليزية لاحتلال غرب اسبانيا وأن تقوم انجلترا بارسال ما تحتاج اليه المغرب من أسلحة ومدافع وقطع بحرية لكن انجلترا أرسلت عدة ضباط لقيادة هذه الحملة ولم تأخذ بالعرض المغربى لقيام المنصور بقيادة هذه القوات وعندما كانت انجلترا ترسل قواتها متجهة إلى سواحل البرتغال لاعادة الامير دون انطونيو كان المنصور السعدى لم يقرر الاشتراك بعد لان مطالبه لم تلب فى لندن وقام الخليفة المنصور بأن وجه رسالة إلى الضباط الانجليز أن انجلترا لم تجب مطالبه وفضلت دور المغرب بعدم

الاشتراك العسكرى والاكتفاء بتقديم المؤن والزاد والبارود والاموال اللازمة كما أن المنصور لم يوضع فى الصورة المناسبة واخطارة بتوقيت تحرك الحملة الانجليزية وتعارض أهداف الحملة نظرا لان المنصور كان يريد التحرك إلى جنوب اسبانيا لا الاندفاع شمالا فى البرتغال .

وازاء هذه المواقف الانجليزية فان أحمد المنصور عاد إلى سابق عهده وسابق علاقاته الودية مع الاسبان، وازاء هذا التصرف خاب سعى انجلترا لدى المنصور وحدث نوع من النفور بين الطرفين استمر لعدة سنوات بسبب انشغال كل طرف منهما بمواجهة مشاكله الداخلية لاسيما أن المنصور كان يعد عدته لفتح بلاد السودان الغربى، ومن هنا فان المنصور أبقى على السفير المغربى مرزوق سيد سفيرا له لدى البلاط الانجليزى حتى انتهى من اعداد حملته المتجهة إلى السودان الغربى وقد تحسنت العلاقات المغربية التركية العثمانية ازاء عدم التفات انجلترا إلى المطالب المغربية وتجاهلها لمطالب المنصور وبعد أن رفضت انجلترا ايضا نقل وفد مغربى إلى حلب ببلاد الشام للدعوة للخلافة السعدية العربية القرشية وقد باء التحالف الانجليزى المغربى ضد أسبانيا بالفشل نظرا لان انجلترا لا يمكن لها أن تمكن سلطانا مسلما من احتلال أو السيطرة على اراضى دولة مسيحية مهما يكن نوع العداء أو القتال فيما بينما ومهما تكن الخلافات المذهبية المسيحية سواء كاثوليك أو بروتستانت ومن هنا اعتذرت للمنصور عن استعدادها للقيام بحملات مشتركة ضد اسبانيا وبعد طول مباحثات احس المنصور أن كل جهده لم يعد بفائدة مثمرة عليه فقطع علاقاته مع انجلترا .

وبعد وفاة المنصور وتوزع الحكم بين ابنائه فان انجلترا اتجهت إلى اقامة علاقات مع الوحدات المستقلة التى انفصلت عن مراكش العاصمة لاسيما امارة سلا التى كان يحكمها أبو عبد الله العباسى ولاسيما ان انجلترا كانت لاتزال تطمع فى خبرات المغرب

وفى عام ١٦٠٠م وصل سرا إلى لندن موظف كبير فى مقر السلطان واسكنته الملكة الانجليزية هو وحاشيته المكونة من تاجرين ومترجم واثنى عشر خادما وحين شرفوا بمقابلة الملكة اليزابيث، ادهش السفير الملكة حين ذكر انه قدم ليقترح أن تقوم هى والسلطان المنصور بهجوم مشترك على اسبانيا ويستوليا على أملاك فيليب الثانى فى الدنيا الجديدة والقديمة ويقتسماها ولما كانت الملكة تشك فى قدرة الجيش المغربى على أن يقوم بدوره فى مثل هذه الغزوة فقد ذكرها بغزو المنصور لبلاد السودان ونجاحه فى ذلك نجاحا باهرا ولما كانت الملكة لا تريد أن تفقد كميات الذهب وملح البارود والسكر والمواد الاخرى التى تحصل عليها من المغرب فانها أجابت اجابة دبلوماسية أدت بالمغاربة أن يعتقدوا أن مطالبهم قد اجيبت .

وكانت وفاة المنصور فاتحة عهد جديد للاوربيين إلى افريقيا والمغرب حيث كان منظر الذهب الذى ينصب إلى مراكش قد ادار عقولهم نحو امكانية الاستيلاء على معادن هذه الثروة عن طريق البحر وقد عرف الانجليز اكثر من غيرهم بسبب مركزهم الممتاز فى تجارة مراكش الخارجية كمية الذهب الهائلة التى تاتى إلى الدولة حيث كان وضعهم أفضل من أية دولة اخرى حيث كانوا يجمعون كميات كبيرة من ذهب المغرب .

ولقد استفادت انجلترا بعلاقتها مع المغرب السعدى اكثر مما استفاد المغاربة، ذلك لان الانجليز كانوا يضعون مصالحهم الاقتصادية فوق كل اعتبار اضافة إلى أن عقائدهم المسيحية لاتسمح لهم بمساعدة سلطان مسلم على حساب ملك مسيحى مهما تكن درجة العداوة وعمق الصراع وعنف الهجمات بين الطرفين ذلك لانهما فى النهاية ملكين مسيحيين (أسبانيا وانجلترا) .

كما أن انجلترا كانت من أولى الدول التى استنزفت ذهب المغرب وبلاد السودان

الغربى ومن ذلك فأننا نجد أحد التجارالانجليز كتب فى عام ١٦٣٥/ ١٦٣٦م يقول عن تجارة الذهب وكيف حقق الانجليز منها اهدافهم فى الحصول على كل الذهب حيث ذكر أن أهل السوس فى جنوب المغرب لهم تجارة كبيرة فى البضائع الانجليزية المرسلة إلى تمبكتو وجنى وللاجزاء الاخرى من السودان الغربى ومن هناك يحضرون قدرا كبيرا من الذهب بينما نحن الانجليز نتسلم جزء كبيرا من هذا الذهب من بيع بضائعنا وحتى عام ١٦٣٨م كان الذهب يشحن إلى انجلترا، كما ذكر جورج كارتريت قد يعتبر هذا الذهب كنزا اكثر منه سلعة لان الكميات القديمة التى كانت تحملها القوافل من بلاد السودان الغربى أيام مولاى أحمد الاعرج عم السلطان أحمد المنصور قد ضاعت من جراء الاضطرابات التى سادت الدولة وقبل نهاية العام كان احتياطى الذهب فى مراكش يتسرب إلى انجلترا ولان تجارة السودان الغربى من الذهب قد توقفت .

ولقد كانت تجارةتجارة الذهب بمثابة الدم ومصدر الثروة لآلاف من التجار الانجليز الذين استقروا فى مراكش ومن ذلك أنه فى ١٦٠٠م كتب مراسل فى مراكش إلى تجار لندن يعلمهم أن زيارة سفير مراكش للندن سوف تكون فرصة للربح من جراء قيام التجار المغاربة بشراء الآلات والاسلحة الانجليزية .

ومن هذا العرض يتبين لنا أن العلاقات المغربية الانجليزية والتى كان المغاربة بحسن نيتهم يتطلعون اليها على اعتبار استثمار العداء بين الانجليز والاسبانيين لصالحهم لتحقيق أهدافهم فى ابعاد النفوذ الاسبانى عن الاراضى المغربية والقيام بعمل مشترك من أجل اعادة الوضع الاسلامى إلى الاندلس كما كان فى السابق والعمل على تقديم العون لاخوة الاسلام فى الاندلس الذين لا زالوا يعيشون فى ظل الاستعباد والاضطهاد المسيحى الاسبانى، لكن ذلك الهدف لم يكن له أدنى صدى لدى الساسة

الانجليز لاسيما أن الملكة اليزابيث كانت تنظر إلى الدور المغربى على أساس أن أحمد المنصور السعدى يوجد عنده ولى عهد البرتغال كرهينة ومن ثم لابد من مجاراته فى مشاريعه حتى تتمكن الملكة من تحقيق أهدافها فى كسب معركة الاسبان وقد استفادت انجلترا باستخدامها صداقة المغاربة فى تحقيق أهدافها لكن المغرب لم يحقق أدنى هدف من أهدافه فى علاقته مع انجلترا فهو لم يستطع أن يحرر الموانئ المغربية المحتلة من قبل الاسبان ولا استطاع أن يحقق الهدف الاسمى الذى كان يمثل صلب السياسة السعدية فى اعادة المورسكين إلى بلادهم وطرد القوى الاسبانية شمالا من الاندلس كذلك من الناحية الاقتصادية فقد حققت انجلترا كل ما كانت تسعى اليه من أجل الحصول على كل المكاسب التى كانت تسعى اليها وهى استنزاف المغرب من كل ثروته الذهبية حيث أن أوربا لم تكن لها موارد من الذهب سوى الذهب الذى تحصل عليه من المغرب وبلاد السودان وكانت انجلترا تهتم بمبادلة الاسلحة الانجليزية والالات والمصانع بالحصول على الذهب والسكر وملح البارود ومن هنا فقد أقام اتحاد رجال الاعمال الانجليزى مراكز تجارية له فى المغرب واستطاع أن يحقق كل المكاسب التى كان يسعى اليها فى حين اننا نجد ان الطرف المغربى الذى كان فى أمس الحاجة إلى السلاح والذخيرة والمدافع لانه كان يشعر بالحاجة إلى هذه الاسلحة للدفاع عن اراضيه وتحقيق أهدافه فى التوسع جنوبا فى بلاد السودان وكانت انجلترا تشعر بحاجة المغاربة إلى هذا السلاح ومن ثم تقوم ببيعه باسعار خيالية وتحصل كل ما تبيعة ذهبا أو ملحا للبارود تعيد تصديره مرة أخرى للحصول على الذهب .

وعلى هذا كانت العلاقات السياسية والتجارية المغربية الانجليزية تحقيقا للمصالح الانجليزية فى الدرجة الاولى بغض النظر عما يعود على المغرب من مكاسب وتلك هى السياسة الاوربية فى كل الازمنة والاوقات تحقيق المصالح الشخصية على حساب

العلاقات مهما تكن نتائجها وبذلك كانت انجلترا هى الرابحة على طول الخط .

(جـ) السعديون والعلاقات البرتغالية

استولى السعديون على مقاليد الامور فى جنوب المغرب وهم يضعون نصب أعينهم ضرورة القضاء على الجيوب الاستعمارية البرتغالية وضرورة طردهم من كل اراضى المغرب وقد نجح المغاربة فى طرد البرتغاليين بقوة السلاح من الموانئ الجنوبية كأغادير وأسفى جنوبا وحين تم للسعديين القضاء على الحكم الوطاسى واسقاطه من فاس فانه كان يتحتم عليهم ضرورة استمرار النضال من أجل القضاء على كل الجيوب الاستعمارية البرتغالية فى الشمال والغرب لاسيما أنه كانت للبرتغال مستعمرة جنوب الدار البيضاء وكانت تدعى البريحه .

وكانت البرتغال قد استطاعت فى أقل من قرن من الزمان احتلال معظم الموانئ المغربية الشمالية والغربية والجنوبية وبعض سواحله ولقد كان هذا الاحتلال من الاسباب القوية التى أدت إلى ظهور الكيان السعدى كقوة مجاهدة فى بلاد السوس والقضاء على هذه الجيوب واسقاط الدولة الوطاسية وقد نجح الامير السعدى محمد القائم بأمر الله واولاده أحمد الاعرج ومحمد الشيخ فى تحرير الغالبية العظمى من الموانئ البرتغالية بحيث لم يبق فى نهاية الامر من هذه المدن والموانئ سوى ثلاث موانئ فقط هى سبته وطنجة مازكان، وحاول جان الثالث ملك البرتغال فى ذلك الوقت طلب المساعدة من الامبراطور شارل الخامس ملك اسبانيا فى صد هجوم السعديين ولكن ملك اسبانيا لم يبد أدنى اهتمام بمطالب البرتغال نظرا لانشغاله بحركة الكشوف الجغرافية فى العالم الجديد اضافة إلى مشاكله فى هولندا (الاراضى المنخفضة) وصراعه مع انجلترا .

وللحقيقة التاريخية التى لا يمكن الجدال فيها أن المخاطر التركية العثمانية وأطماعهم السياسية فى المغرب الاقصى ومحاولتهم ادخال المغرب الاقصى تحت سيادتهم كان عاملا مباشرا فى تأخير حركة الجهاد الاسلامى والحد من قدرتها الانطلاقية فى القضاء على كل الجيوب الاستعمارية البرتغالية والاسبانية قضاء نهائيا، اذ أن ظهور الاتراك العثمانيين فى الجزائر وتونس ومخططاتهم فى ضم المغرب وقفت سدا أمام انطلاق السعديين ودفعت بهم إلى التحالف مع الاسبان من أجل الحفاظ على استقلالهم الوطنى ومن ثم فان كل الموانئ المغربية الخاضعة لسيطرة الاسبان لم يستطع المغاربة تحريرها، حيث أن محمد الشيخ كان يضع فى مخططه ضرورة تصفية كل القواعد المحتلة انطلاقا من المبادئ التى قامت عليها الدولة السعدية حيث أن القضاء على القواعد البرتغاية لابد أن يتبعه القضاء على القواعد الاسبانية انطلاقا لفرض السيادة المغربية السعدية فوق كل التراب المغربى ثم انطلاقا لتكوين دولة المغرب الكبرى بالسيطرة على المغرب الاوسط والادنى .

ولقد كانت المصالح المشتركة بين المغاربة والبرتغاليين تلتقى مع السعديين ازاء الاخطار التركية العثمانية التى كانت تحيق بالمغرب وتفترق عندما يطرأ ما يشغل العدو المشترك العثمانى عن الانقضاض على فريسته، ورغم كل ذلك فقد كانت العلاقات السياسية بين المغرب ودولتى شبة جزيرة أيبيريا تحكمها عدم الثقة باستمرار وبانقضاء حكم محمد الشيخ وتولى ابنه أبو عبد الله الغالب الحكم فان هذا الاخير ازاء مواقف الاتراك العثمانيين قد تقارب أكثر من أبيه مع الاوربيين اذ نجد انه هادن القوى الايبيريه المحتلة وتنازل لهم عن ميناء البريجه الذى كان قد تم تحريره، لكن الغالب تنازل عنه نظير فدية عظيمة وأموال طائلة وقد باع هذا الميناء للبرتغاليين ولقد كانت صداقة البرتغاليين على حساب معاداته للاتراك العثمانية وقد تنازل الغالب عن البريجه

للبرتغاليين كما تنازل عن باديس للاسبان، كما أنه تخلى عن مساعدة الثوار الاندلسيين فى الاندلس (الموروسكين) ابان ثورتهم على الاسبان، بل أكثر من ذلك كما ذكر المؤرخ المجهول الذى تحدث عن الدولة السعدية حيث صب جام غضبه على هذا الخليفة السعدى نظرا لوشايته بالاندلسيين عند فيليب الثانى ملك اسبانيا وكان ذلك الموقف المتخاذل للغالب خيانة للقضية الاسلامية وطعنا لظهر المسلمين (المؤرخ المجهول) اذا كان ذلك الموقف قد حدث وربما يكون تحاملا من المؤرخ المجهول الذى لا شك كان عدوا للدولة السعدية حيث اننا نجد اليفرانى يذكر ان ذلك ربما يكون تعرض للاساءة للاسرة السعدية الشريفة، لكن ربما يكون ذلك قد حدث فى فترة الصراع على السلطة بين الحكام السعديين .

ولقد زادت المطامع البرتغالية فى المغرب فى عهد عبد المالك بن محمد الشيخ بعد اقصاء محمد المتوكل بن الغالب ولجوء إلى البرتغال طالبا من ملكها الشاب دون سباستيان مساعدته فى الوصول إلى العرش الذى اغتصبه منه عمه عبد المالك وقد صادف هذا المطلب هوى فى نفس ملك البرتغال الشاب الذى كان يطمع فى الاستيلاء على جميع اراضى المغرب بعد ان كان قد طرد المغاربة البرتغاليين من كل المناطق المحتلة فيما عدا سبته وطنجه ومازاكان ومن ثم كانت أحداث اكبر حركة فى تاريخ المغرب معركة القصر الكبير (انظر الفصل الخاص بما جرى فى معركة القصر الكبير فى باب أعمال الامير السعدى عبد المالك بن محمد الشيخ وكيف انتصر المسلمون على المعسكر الصلبيى ولم ينج من القوة النصرانية سوى عدد قليل وادت هذه المعركة إلى تدهور البرتغال ومكانتها ولم يعد لها شأن دولى وعلت هيبة السعديين فى العالم الاسلامى لانهم دافعوا عن ديارهم المقدسة وحافظوا على كيان المغرب ، ولم تكن الكارثة بالنسبة للبرتغال فى فقد ملكها وقواتها العسكرية ومعها قوات اوربا ولكنها

فقدت كيانها السياسى واستقلالها وضمت إلى اسبانيا وظهرت الاسرة السعدية على مسرح الاحداث السياسية والعسكرية فى نفوس المغاربة واظهرتهم هذه المعركة كحكام اقوياء يمكن الاعتماد عليهم فقد استطاعوا حفظ التوازن بين قوى الشرق والغرب، مما جعل للمغرب دورا فى السياسة العالمية، كما عادت المعركة بالشهرة والثروة للسلطان أحمد المنصور ومن ثم مهدت الطريق لفتح السودان الغربى .

وكانت المغرب فى ظل الانتصار الكبير تتوجس خيفة من الاتراك نظرا للتدخل السافر الذى كان يبديه الاتراك فى شئون المغرب ومن هنا لم تستطع القيادة المغربية أن تستثمر انتصارها فى الطلب من البرتغاليين اخلاء المراكز المغربية الثلاث المحتلة (سبته، طنجة، مازاكان) فى مقابل الافراج عن الاسرى. لكن قد تكون اسباب مغربية تمنع المغرب من طلب الجلاء عن الجيوب البرتغالية فى المغرب لاسيما أن هذه الجيوب قد تم الاستيلاء عليها من قبل الاسبان بعد المعركة مباشرة، ولم يكن المنصور وقد خرج لتوه من معركة مع البرتغال يرغب فى الدخول فى معركة اخرى مع ملك اسبانيا فيليب الثانى الذى كان قد أعلن حالة الاستعداد بين قواته عندما علم بهزيمة البرتغاليين وشحن الثغور البرتغالية لانه كان يعد نفسه قائما على ممتلكات البرتغال، وكان المنصور يدرك أن كل القوى الاوربية الصليبية قدهالتها الهزيمة وأزعجتها هذه الهزيمة الكبيرة التى لم ينج منها الا اقل من مائة جندى حيث كانت أعظم النكبات التى فاقت كل احتمال اذ انه فى ست ساعات فى يوم من أيام اغسطس الحارة عام ١٥٧٨م أبيدى قوى برتغالية بلغت ستة وعشرين الف رجل يضاف اليهم قوات أوربية ليصل عدد الذين سحقوا فى هذه المعركة اكثر من أربعين ألف .

فقد غيرت هذه المعركة (معركة القصر الكبير) مجرى التاريخ فى كل أوربا، بل فى كل العالم المعاصر وانتشرت نتائجها إلى افريقيا وامتدت إلى الصحراء حيث وقف

المنصور كالطود الشامخ ضد الاطماع الاوربية فى غرب افريقيا ووصلت قواته إلى هذه المناطق لتحول دون امتداد الايدى الاوربية الملطخة بدماء المسلمين فى الاندلس والمصاصة للدماء الافريقية من أجل الرقيق والذهب فالتاريخ لم يتغير والمواقف الاوربية المعادية للاسلام والمسلمين لم تخفت أو تنطفئ بل زادت حدتها على مر التاريخ محاصرة للاسلام وضربا لاهله. واكتسب المغاربة صيتا وسمعة عالية فى العالمين الاسلامى والمسيحى فاق كل ما تمتعوا به من قبل، بل لم يبلغوه من بعد .

وهكذا حفظ المغاربة للاسلام والعروبة وللدين الخالد صورته الزاهرة المشرقة أمام العالم أثر هذا الانتصار الباهر فى هذه المعركة ولو كان هناك تعاون قوى بين القوى المغربية والتركية العثمانية لتحقق الامل الاسلامى الكبير فى تلك اللحظة وانتهزت هذه القوى الاسلامية حالة الفوضى والارتباك التى تعيشها أوربا وعبرت القوات الاسلامية مضيق جبل طارق وسيطرت على الاقاليم الجنوبية على الاقل من أسبانيا وكان الواجب الاسلامى يحتم على القيادة التركية فى هذه الحالة أن تكون على أهبة الاستعداد لحشد قواتها قريبا من ميدان المعركة للتدخل فى المرحلة الحاسمة للاستفادة من هذا الانتصار لاسيما أن معركة القصر الكبير (وادى المخازن) كانت فى الجزء الشمالى الغربى من بلاد المغرب وهى على مسافة قريبة من المناطق الملاصقة للمضيق، لكن رغبة الاتراك الجامحة فى ابتلاع المغرب وبسط النفوذ التركى على أراضيه حالت دون استثمار النتائج الباهرة عن هذا الانتصار المغربى على القوى البرتغالية وهكذا سحقت المغرب قوى البرتغال المعتدية ومعها قوات أوربا التى جاءت ترفع راية الصليب على أرض عربية اسلامية .

أن العداء للاسلام والروح الصليبية لم تتغير فالذين يطالعون كتاب محمد حسنين هيكل الذى نشره الاهرام ابريل ١٩٩٢ عن حرب الخليج بين القوى الغربية

بقيادة أمريكا وبريطانيا وفرنسا والتحالف العربى ضد العراق المسلم يدرك أن عملية عاصفة الصحراء التى قادها الامريكان اطلق عليها «امجاد العذراء مريم» وأن الجنود كانوا يكتببون فوق دباباتهم «المجد للمسيح، ويا ايها المسلمون نادوا ربكم فاذ لم يرد عليهم فنادو المسيح» (محمد حسنين هيكل حرب الخليج القاهرة ابريل ١٩٩٢) .

وعودة إلى معركة القصر الكبير أدرك أحمد المنصور أن أوربا لا يمكن أن تترك عار الهزيمة يمر بدون عقاب (أمريكا تعاقب حاليا العراق وليبيا وربما غدا أقطار عربية أخرى) ومن هنا كان تدخل الاسبان وارد فى فكر المنصور فاكتفى بما أحرزه المغرب من انتصار على البرتغاليين والقوى الاوربية .

لكن المغاربة كانوا عازمين فى مراحل لاحقة على استرداد الاندلس لكن ذلك ربما يكون فى نطاق المراحل الامنية البعيدة التحقيق فى ظل بروز قوى أوربية اخرى (انجلترا، فرنسا، هولندا) وغيرها من القوى الاوربية التى لاتسمح بان يحقق المغرب اهدافه فى العودة للاندلس، كما وان كانت الرغبة الابييرية فى احتلال الاراضى المغربية السعدية وكان هذا هو الهدف الاول فى المخططات التوسعية للبرتغال (حملة سباستيان) وكانت البابوية فى روما الكرسى البابوى يدفع بتأييده الحاسم لهذا العمل من أجل السيطرة على كل الاراضى الاسلامية وحين عزم السعديون ومصمموا بالعزم بدافع وشعور دينى جارف وتأييد شعبى لحركة الجهاد الاسلامى للاسترداد والاجلاء عن الموانئ المغربية والاراضى الاندلسية كان هناك تهاون من بعض القوى المغربية التى أعقبت المنصور فى الحكم من أبناء المنصور نفسه وأبناء زيدان بن المنصور. لكن القوى الاسلامية المغربية المجاهدة من الامراء المستقلين والذين كان ابرزهم الامير أبو عبد الله العياشى الذى حارب البرتغاليين فى المغرب وانتصر عليهم فى أكثر من معركة وعمل على تحرير الموانئ المغربية وقد سار على منواله فى جهاد البرتغاليين وريث العياشى فى

مكناسه (الخضر عيلان) الذى دخل فى حروب عديدة مع البرتغاليين ومع المحتلين الانجليز الذين كانوا يحتلون طنجه وكانت طنجة قد استسلمت للانجليز فى ٢١ مايو ١٦٦٢م وقد بقيت طنجه فى يد الانجليز إلى أن حررها الاشراف العلويين (اجداد الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى) عام ١٦٨٤م فى عهد المولى اسماعيل بن الشريف (١٦٨٢- ١٧٢٧م) .

وهكذا نرى أن العلاقات المغربية البرتغالية مرت بعدة أطوار منذ بزوغ فجر الاسرة السعدية على مسرح الاحداث فى المغرب فقد كان هدفها تحرير الاراضى المغربية من السيطرة الغربية وحققت حركة الجهاد الاسلامى كل ما كانت تصبو اليه من نجاح وطموحات فى انهاء الوجود البرتغالى وحصره فى اضيق نطاق وجاءت معركة القصر الكبير لتضع نهاية ما ساوية لكل الاحلام التى كان يحلم بها البرتغاليون فى السيطرة الكاملة على كل الاراضى المغربية وليعاد النظر فى العلاقات المغربية الاوربية برمتها فى عصر احمد المنصور الذهبى. وكيف أن المنصور كان يعمل من جانبه فى الوصول إلى الهدف البعيد وهو الاشتراك مع انجلترا فى احتلال البرتغال واسبانيا وان تتحرك قوات يكون هو على راس القيادة فيها لكن انجلترا خدعت المنصور فى ذلك .

كما أن الشعور الوطنى المغربى الجارف قد اكتسح كل أثر للقوى الاستعمارية الغربية سواء كانت برتغالية أو أسبانية أو انجليزية فى عهد السلطان المظفر مولاى اسماعيل الشريف الذى استطاع أن يحرر كل الاراضى المغربية من قبضة الانجليز وبقايا الجيوب الاسبانية والبرتغالية .

لكن يبقى أمر محير حتى كتابة هذا البحث وهو لماذا تظل مدينتا سبته ومليله وهى أراضى مغربية عربية اسلامية حتى الآن فى قبضة الاسبان وقد تم اجلاء الاسبان عن منطقة شمال المغرب أو ما كان يسمى بالريف المغربى وتم تحرير كل الاراضى

التى كانت مستعمرة ولم يبق الا هاتان المدينتان .

ان عدم تحرير سبته ومليله حتى وقتنا الحاضر يعود إلى استمرار الظاهرة الاستعمارية التاريخية التى بدات مع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، ان استمرار احتلال هاتين المدينتين والمينائين) دون بقية الاراضى المغربية يعنى ان عقدة احتلالهما لا زالت تدخل تحت طور العداء التاريخى وعقدة المد الاسلامى الجارف فهل توضع نهاية لهذا الاحتلال؟ .

(د) السعديون وعلاقاتهم مع الاسبان

عندما تحركت حركة الجهاد الاسلامى بقيادة الامير السعدى محمد القائم بأمر الله وولديه الاعرج ومحمد الشيخ لطرد البرتغاليين الذين كانوا يحتلون اقليم السوس جنوب المغرب ومظم الثغور المغربية المطلة على المحيط الاطلسى وحققوا أهدافهم فيما كانو يبغون من طرد البرتغاليين من ديارهم قبل الدخول فى الصراع النهائى مع الوطاسيين حكام المغرب. فقد كان الاسبان يحتلون السواحل الشمالية المطلة على البحر المتوسط مثل مسليله وباديس وعضاضه ولم تكن أيدى السعديين قد وصلت إلى تلك المناطق الواقعة تحت السيادة الوطاسية وبعد سقوط العاصمة فاس فى أيدى السعديين فانهم اتجهوا إلى تحرير الموانئ الواقعة فى قبضة الاسبان، لكن هناك ظروفا داخلية مغربية دفعت محمد الشيخ أن يصرف النظر عن تحرير الموانئ الشمالية الواقعة تحت أيدى الاسبان وبقيت هذه الموانئ بايدى الاسبان دون تحرير، وقد كانت نظرة محمد الشيخ إلى هذا الاتجاه محاولة ايجاد توازن فى العلاقات الدولية لقطع الطريق على الاتراك للسيطرة على المغرب بعد معارك تلمسان ووصول الاتراك إلى فاس مدعمين أبى حسون الوطاسى ضد محمد الشيخ وجاء بعده ابنه أبو عبد الله الغالب

ليوطد علاقاته مع الاسبان وتنازل لهم عن ميناء حجر باديس ليحول دون وصول الاتراك إلى الاراضى المغربية وكان ميناء حجر باديس قد احتله الاسبان فى السابق لكن الاتراك طردوهم منها عام ١٥٢٢م فى أوائل العهد السعدى بمساعدة رجال البحر المجاهدين فى حركة التحرر الاسلامى .

واستمرت العلاقات السعدية تسير فى طريقها المعتاد والمتوافق طوال حكم الغالب. وبعد وفاة الغالب فان ابنه محمد المتوكل (المسلوخ) صار على نفس النهج قبل مهادنة الاسبان كما كان يسير على نفس النهج جده محمد الشيخ وأبوه أبو عبد الله الغالب .

وأثناء الصراع بين محمد المتوكل وعمه عبد المالك بن محمد الشيخ حول احقية أيهما بالعرش المغربى فان الاسبان خذلوا عبد المالك لانهم ساندوا الحاكم الشرعى محمد المتوكل من وجهة نظرهم، لكن عبد المالك وقد أدرك مطامع الاتراك فى بلاده والذين مكنوه من العودة إلى عرش المغرب، فانه عمل على انتهاج سياسة مهادنة وحسن جوار مع الاسبان، وقد راسل عبد المالك الملك الاسبانى فيليب الثانى بشأن مساندته فى طرد البرتغاليين من بقية الموانئ التى لازالوا يحتلونها، لكن ملك أسبانيا وضع الثغور المغربية البرتغالية المحتلة تحت سيادته أثر انهزام البرتغال فى معركة القصر الكبير للحيلولة دون انتهاز المنصور الانتصار الكبير فى معركة تحرير الموانى المغربية، ومن ثم عمل الاسبان على تجديد المعاهدة المغربية الاسبانية التى وقعت فى عهد الامير مولاى عبد المالك والتى كانت قد تمت فى أبريل عام ١٥٧٧م وأدرك المنصور خطورة الاسبان ومن ثم عمل على احياء هذه المعاهدة. وقد انتهز المنصور توقيع هذه المعاهدة وارسل إلى اسبانيا فى عام ١٥٨١م يطلب مساعدة عسكرية من الملك فليبى الثانى عندما علم بتحرك الاسطول التركى إلى المغرب فى قوات بحرية كبيرة تزيدعن ستين سفينة حربية ووقعت المعاهدة بين المنصور والاسبان والتى تنص على

حسن الجوار لمدة عشرين عاما مقابل أن يتخلى المنصور عن أهم الثغور المغربية وهو ثغر العرائش مقابل مساعدتهم له عسكريا ولذلك اضطر السلطان التركى مراد الثانى إلى سحب حملته العسكرية على بلاد المغرب أثر التحالف المغربى الاسبانى .

وبعد توحيد البرتغال واسبانيا زاد الخطر الصليبى على المغرب ومن هنا كان على المنصور أن يعمل على حفظ التوازن فى العلاقات بين القوى العالمية المعاصرة على الرغم من أنه كان يعمل ما وسعه العمل على تحرير الموانئ المغربية وارسال حملة مغربية لتحرير الاندلس اما بالاشتراك مع الاتراك العثمانيين أو الاشتراك مع الانجليز البروتستانت المعادين للاسبان ولاسيما بعد معركة الارمادا التى تم فيها تدمير الاسطول الاسبانى كاملا فى ١٠ أغسطس ١٥٥٨م وكانت اسبانيا قد ارسلت اعتذارا رسميا عن طريق سفيرها فى المغرب بعد أن اعلن البلاط الاسبانى على لسان الوفد الذى وصل إلى فاس حاملا التهانى والهدايا القيمة أثر انتصار معركة القصر الكبير بان القوات الاسبانية التى اشتركت فى هذه الحملة لم تكن قوات نظامية، وانما كانوا متطوعين شعبيين من أسبانيا ومن هنا كان هذا اعتذارا كافيا من قبل اسبانيا ولم يتردد فى الصلات التى كانت لعبد المالك مع البلاط الاسبانى .

ولقد أتخذ المنصور موقفا لم يكن ليحسب عليه وهو وقوفه ضد تحرك القوات الظافرة فى معركة القصر الكبير والتى كانت القوات المغربية قد شمرت عن ساعدها فى انتفاضة عسكرية عارمة وانتفاضة عسكرية لم يشهدها الجيش المغربى من قبل وهو العمل مباشرة على اجتياز مضيق جبل طارق للعودة بالمسلمين إلى ديارهم فى الاندلس الذى قسم بين اسبانيا والبرتغال تحت علم حكومة اندلسية تركية، لكن المنصور والذى كان قد خرج لتوه من امتحان صعب بعد وفاة اخيه عبد المالك فى المعركة وتأييد الاتراك لابنه اسماعيل لتولى حكم المغرب كان فى حاجة ماسة إلى وقت كافٍ لكى

يعيد دراسة أوراقه ويعد نفسه للمستقبل عن دراسة للواقع السياسى المعاصر واعداد خطط مستقبلية وايجاد الفرص المناسبة لتنفيذ هذه الخطط. ولكن الذى دفع المنصور إلى ذلك وعدم مساندة حركة الجيش ربما الخوف من النفوذ التركى، لكن المنصور وقد أدرك أبعاد اللعبة الدولية وظهور القوى الاوربية القوية (انجلترا وفرنسا وهولندا وغيرها من القوى الاخرى) والخطر التركى على استقلال بلاده فقد عمل على انتهاج سياسة متوازنة مع كل القوى والعمل على النهوض بالمغرب وادخاله عصر التطور والتقدم العلمى وانهاء التخلف والعزلة ومحاولة ان يكون للمغرب دور بارز ونشط فى الصراعات الدولية .

ولهذا فقد شهدت العلاقات المغربية الاندلسية بعدا جديدا مغايرا للعهود السابقة فى الربع الاخير من القرن السادس عشر استطاع المنصور أن يضغط على اسبانيا للحصول على مكتسبات مغربية منتهزا فرصة الصراع الانجليزى الاسبانى حول مساندة ولى عرش البرتغال .

وقد استفادت اسبانيا من توقيع اتفاقيا ١٥٨١م استفادة كاملة فى حين أن المغاربة لم يكن لهم الا استخدامها ورقة يلوحون بها ضد العثمانيين الاتراك عندما تتحرك شهوتهم ومطامعهم التوسعية لمحاولة ابتلاع المغرب وكان أن عملت اسبانيا فى ظل توقيع هذه المعاهدة على ضرب القوى الاسلامية الاندلسية بشدة بعدما علمت بأن هناك تعاونا تركيا اندلسيا للقيام بالثورة وتدخل الاتراك للمساندة، كذلك حصلت على ميناء العرائش الهام المطل على المحيط الاطلسى وتخصيصه للاسطول الاسبانى وساعدت فى اطلاق أسرى حرب القصر الكبير وربطت التجارة المغربية (عامل اقتصادى هام) بالتجارة الاسبانية ووضع العراقيل أمام تجار الدول الاوربية ومنعهم من استخدام الموانئ المغربية وخاصة التجار الانجليز اعداء الاسبان .

لكن المنصور ماطل فى تنفيذ هذه الشروط ووضع شروطا اخرى مثل اقتراحه مبادلة ميناء العرائش بميناء الجديدة (لاحظ مبادلة أرض مغربية بأرض مغربية اخرى شرط استسلامى) والتهرب من موضوع غلق الموانئ المغربية أمام تجارة أوربا وبصفة خاصة الانجليز وقد ظل هذا الموضوع معلقا .

أما من ناحية الاسرى فقد عمل المنصور من جانبه على ترحيل من لايمكن الاستفادة منه والذين قبلوا الاقامة طوعا لا كرها فى المغرب فانه سمح لهم بالبقاء خوفا من بطش حكوماتهم لهم أو احراقهم وقتلهم عند العودة ففضلوا البقاء مع اعتناق الاسلام والتزاوج من بنات المغرب والانصهار فى المجتمع الاسلامى لاسيما أن الذين أطلق سراحهم قد لقوا مصيرهم المحتوم حيث قوبلوا بالازدراء والسخرية والتهكم ثم كان مصير العدد الاكبر منهم القتل بعد التحقيق معهم فى اسباب الهزيمة ولم ينج من القتل الا النبلاء وأفراد الاسرة المالكة (زاهر رياض. الممالك الاسلامية فى غرب أفريقية ص ١٧٧) .

وهكذا فان هذه الاتصالات المغربية الاندلسية (الاسبانية) سرعان ما تغيرت ولم تعد عنصرا هاما فى وقت ظهرت فيه قوة جديدة وعوامل جديدة اقتضت التراجع عن الموضوع كله وتحول المنصور إلى صف المناوئين للاسبان وتحالف مع البرتغاليين (ولى العهد دون انطونيو)والملكة اليزابيث ملكة انجلترا، وذلك بعد أن سلم الباب العالى باستقلال المغرب وانهاء عصر الاطماع وتحطيم الاسطول الاسبانى ووصول دون انطونيو المطالب بالعرش إلى فاس وازدياد قوة المسلمين بأسبانيا وفشل فيليب الثانى فى القضاء على روح المقاومة الاسلامية فى البلاد وغرق القوات الاسبانية فى اوحال هولندا حيث الارض المنخفضة ومتاعبهم ولاسيما بعد ان بدأ فى الافق القريب أن هناك قوى اوربية جديدة تحاول أن تدخل ميدان السياسة الدولية لتحد من قوة اسبانيا وتعمل على كسر

شوكتها وكان ذلك ممثلا فى هولندا وقد استغل المنصور قضية المطالب بالعرش البرتغالى أحسن استغلال فقد وجه من اقنعه بالحضور من لندن إلى المغرب واقنع ملكة انجلترا بالموافقة على حضوره للمغرب ليكون قريبا من مسرح الاحداث والاطلاع على ما يجرى فى بلاده .

وقد استغل المنصور حضور المطالب بالعرش البرتغالى إلى المغرب لكى يحقق العديد من أهدافه والتى منها تحرير الموانئ المغربية المحتلة وكذلك الضغط على اسبانيا ليحقق استقلال الموانئ المغربية المحتلة لاسيما ان اسبانيا لم يأت عليها عام ١٥٨٨م الا وكانت قد ادركت ان العاهل السعدى مصمم على القيام بخطوة ضدها ومن ثم اجرت معه اتصالات بهدف التروى فى موضوع الامير البرتغالى المطالب بالعرش على الرغم انها كانت تتوجس خيفة من أعمال المنصور السعدى لاسيما وان اسبانيا قد تاكدت فعلا من وصول كميات كبيرة من الاسلحة والمدافع والذخائر من انجلترا وهولندا إلى المغرب كما أن وسائل المخابرات الاسبانية تاكد لديها ان المغاربة على اتصال بالثورة الاسلامية فى اسبانيا وانها ارسلت لهم السلاح والعتاد والمؤن ودفعت بهم للثورة تحقيقا لمطالبهم واضعافا لاسبانيا، بل اكثر من ذلك فان المغرب قام بحركة تعبئة عامة بين صفوف قواته العسكرية فى موانئ الشمال المغربية .

وقد استطاع المنصور ان يحقق بعد الانجاز الباهر الذى تشهده الدبلوماسية المغربية الهادئة، وان اسبانيا قد قبلت على الفور تسليم مدية أصيلا المغربية على الساحل المغربى والتى كانت احدى المستعمرات الاسبانية القوية التحصين وذات الموقع الممتاز وسلمت المدينة للقيادة المغربية بعد انسحاب الاسبان منها فى ١٣ سبتمبر ١٥٨٩م. وقد عبر القشتالى فى كتابه مناهل الصفا الذى نشره الدكتور عبد الكريم كريم المغربى الجنسية أن عام ٩٩٧هـ/ ١٥٨٨م قد شهد استعداد المنصور وكان على أهبة الاستعداد وجعل

قصده وهمه مجاهدة المشركين وتحرر ديارهم بعساكره الامامية وارسال السرايا والجند حتى ينجز الله وعده الكريم فى اعلاء كلمة الحق .

لكن الاسبان عند تسليمهم مدينة أصيلا كانوا قد عرضوا على المنصور السعدى الوقوف على الحياد فى موضوع الخلاف الانجليزى الاسبانى بشأن المطالب بالعرش البرتغالى وعدم تقديم ادنى عون أو مساندة للثورة الاسلامية العارمة (المورسكين) فى الاندلس. لكن المنصور كان قد خطا خطوات واسعة فى تاييده للمعسكر البروتستانتى الانجليزى ومده بالنحاس وملح البارود لصنع المدافع والاستفادة من الخبرة الانجليزية على حساب الضعيف الاسبانى الذى انهارت قوته بعد معركة الارمادا لاسيما وأن الاسبان كانوا يخافون حدوث ادنى اتصال بين المغاربة والمورسكين الذين كانوا على اهبة الاستعداد للثورة وحمل السلاح دفعا للروح الصليبية والعذاب الواقع عليهم لذا عمل فيليب الثانى ملك اسبانيا على ان يكون المنصور على الحياد فى الصراع بين القوى الاوربية كما أن ملك اسبانيا كان دائما يلعب على الوتر الحساس بالنسبة للمغرب وهو التدخل التركى فى المغرب وهذا ما كان يخشاه المغاربة وكانوا يحسبون له ألف حساب واستغل الاسبان حاجة المغاربة إلى مساعدتهم لاسيما من الموانئ الشمالية .

لكن المنصور وقد كان دارسا لتاريخ الصراع المغربى الاسبانى ويحس بما يعانى منه مسلمو الاندلس المضطهدون قام عام ١٥٩٦م، بارسال ثلاث سفن حربية كبيرة لمساعدة الاسطول الانجليزى والهولندى للمساعدة فى معركة قادس كما ارسل المنصور سفارة لامير البرتغال يعلن له فيهما استعداد المغرب لمده بالقوات المسلحة وتايده فى المطالبة بالعرش البرتغالى ضد ملك اسبانيا .

لكن الاسبان ازاء تدخل المنصور فى مساعدة ولى العهد البرتغالى ومساعدة الانجليز ضدهم فانهم عملوا على التدخل المباشر فى شئون المغرب الداخلية واذكاء نار

الثورة ضد المنصور والمساعدة فى اشعال حرب داخلية بينه وبين ابنه وولى عهده المأمون ونائب الخليفة على فاس وشمال المغرب مما جعل المنصور ينشغل عن القضايا الاوربية والخارجية بمعالجة مشاكله الداخلية والقضاء على الثورة ولكن المنصور كان دائما يقظا ولم يغفل عن دسائس الاسبان ضده، لكن العلاقات المغربية الاندلسية (الاسبانية) شهدت نوعا من التحسن فى آخر عهد المنصور السعدى لاسيما بعد قيام الحلف الثلاثى بين المغرب وايران (فارس) واسبانيا ضد العدو المشترك للثلاثة العثمانيين الاتراك وقد قبل المغرب بالتعاون مع اسبانيا استغلال خبرات السودان الغربى وقد توفى المنصور عام ١٦٠٣م .

ولقد كان الملك الاسبانى يهدف بانضمامه للحلف المغربى الفارسى هو دفع المغرب وفارس لقتال الاتراك وضرب القوى الاسلامية بعضها ببعض ليخفف عبء القتال والمشاغل عن جبهته وان يحارب الاتراك فى جبهة شرسة ضد فارس وجبهة عربية ضد المغرب وبذلك يخف العبء والزحف التركى العثمانى على الجبهة المسيحية فى اوربا الشرقية، ومن هنا كان الاسبان شانهم شان الانجليز والبرتغاليين يضعون نصب أعينهم مصالح العالم المسيحى مهما تكن درجة تحالفهم مع المسلمين الذين كانوا يتصرفون عكس الرؤية المسيحية فلم نجد ملكا أو اميرا مسيحيا تحالف مع مسلم ضد اهداف المسيحية الكبرى .

وقد شهدت البلاد المغربية أحداثا جساما بعد وفاة احمد المنصور وزادت الاخطار فى التدخل الخارجى والاحتلال الاوربى والتركى وقد استفاد فيليب الثالث ملك اسبانيا من هذه الظروف العصيبة فى المغرب لتصفية المورسكين الذين قدر عددهم باكثر من مليون ونصف مسلم واستغل ملك اسبانيا النزاع بين ابناء المنصور حول العرش المغربى وطلب احدى الاطراف مساعدة اسبانيا نظير امتيازات اقتصادية وسياسية

واستراتيجية وتم طرد المورسكين من اسبانيا نهائيا وكان محمد الشيخ بن احمد المنصور وراء هذا الطرد وكشف لفيليب الثالث ملك اسبانيا خططا كان المورسكين قد اعدوها للثورة على الاسبان واعادة الحكم الاسلامى بالتعاون مع الجزائر والاتراك. وقد تم نزول المسلمين فى المغرب الاقصى وتونس وطرابلس والجزائر ويقدر فيليب حتى فى كتابه تاريخ المغرب أن عدد المسلمين الذين طردوا من الاندلس بعد سقوط غرناطه فى النصف الاول من القرن السادس عشر نحو ثلاثة ملايين مسلم وبهذا القرار الذى اتخذه فيليب الثالث ملك اسبانيا بطرد المسلمين من ديارهم فقد حل نهائيا مشكلة التواجد الاسلامى فى اسبانيا بصفة نهائية .

ولقد ظل الاسبان يتحينون الفرص الملائمة لتحقيق اهدافهم فى ابتلاع الموانى المغربية والاستيلاء على ميناء العرائش الهام حتى حانت لهم الفرصة عند التنازع بين فاس ومراكش وتمكن زيدان بن المنصور من طرد اخيه المامون (محمد الشيخ) من فاس فطلب الاخير مساعدة ملك اسبانيا الذى اشترط عليه تسليم ميناء العرائش بعد ان يقوم باخلائه تماما من جميع سكانه المغاربة المسلمين فى سبيل قيام اسبانيا بنصرته على اخيه زيدان خليفة مراكش وتم تسليم المدينة للاسبان فى شهر رمضان عام ١٠١٩هـ (لاحظ أن المطامع الشخصية لم تراع حرمة الاسلام والمسلمين والشهر الكريم فى رمضان ١٠١٩هـ) وهكذا كانت الخيانة وراء تسليم الارض والعرض والدار والدوار من قبل أحد أمراء الاسرة السعدية الذى كلفته هذه الفعلة البشعة إلى جانب افشاء اسرار الاندلسيين فتم قتله بايدى المجاهدين المسلمين عام ١٠٢٢هـ هو وقائده حيث قتلوا بمدينة تطوان ولم يكتف فيليب الثالث بالاستيلاء على ميناء العرائش بل ابتلع مدن المعمورة والمهدية لانها أقرب الموانئ إلى العرائش وجهز ستين سفينة استولى بها على المهدية التى فر منها السكان المغاربة المسلمون دون قتال عام ١٠٢٣هـ وان دل هذا

المخطط فانما يدل على أن الفرنجة لا يكلون عن انتهاز الفرص للقضاء على الوجود الاسلامى وهذه هى أفعال بعض السلاطين المسلمين والذين تكون الشعوب الاسلامية دائما هى الضحية فى كل العصور والدهور الا فيما ندر من الحكام الاوفياء لبلادهم وعقيدتهم الاسلامية وشعوبهم والذين يعملون باخلاص لتحدى القوى الاوربية التى تكن العداء الدائم للاسلام وأهله .

ويقال ان اهل مدينة سلا بقيادة المجاهد المغربى أبى عبد الله العباسى الذى لعب دورا بارزا فى تاريخ المغرب نظرا لدوره البطولى فى محاربة الاسبان والبرتغاليين من اجل تحرير البلاد المغربية من رجس الاوربيين قد ارسل للسلطان زيدان بن المنصور فوراحتلال الاسبان لمدينة المهدية لمساعدته بل استطاع ورجاله المجاهدون أن يقتل اكثر من اربعمائة شخص من القوة الاسبانية لكنه لم يستطع ان ينجح فى دخول مدينة المهدية مرة اخرى ولم تزل اطماع ملك اسبانيا قائمة فى السيطرة على مزيد من الاراضى المغربية نظرا لانه كان يحس الضعف والتمزق والاقتتال بين الحكام السعديين وعدم قدرتهم العسكرية على قتال الاسبان نظرا لانصرافهم لقتال بعضهم البعض .

ولكن اذا كان الحكام السعديون فى اواخر عصر الاسرة السعدية انصرفوا عن أمر الجهاد والمحافظة على الديار وتركها نهبا للاسبان والانصراف للمصالح الشخصية الا ان بعض امراء الوحدات المستقلة التى ظهرت اثر تفكك الدولة السعدية كان لهم دور كبير فى مكافحة اطماع الاسبان وايقاف اخطارهم إلى أن سقطت الدولة السعدية وظهرت الدولة العلوية الفتية على انقاض الدولة السعدية مسلحة بالايمان والعقيدة والنسب القرشى الشريف لتعيد للمغرب وحدته وقوته وعزته وتماسكه من جديد امام اعدائه المتربصين ولتدخل العلاقات المغربية الاسبانية طورا جديدا فى العلاقات .

وهكذا نرى كيف أن الاطماع الاسبانية لم تنقطع عن طلب المزيد من الاراضى المغربية والتوسع على حساب القوى الاسلامية حيث أن عقدة التوسع الاسلامى لاتزال

ترسخ فى عقول الاوربيين ومن ثم لا زالوا يضمرون العداء التاريخى رافعين راية الحروب الصليبية حتى وقتنا الحالى .

(هـ) ابعاد العلاقة السعدية الفرنسية الهولندية

دخلت فرنسا مجال العلاقات الدولية مع المغرب منذ عهد حكم الاسرة الوطاسية وكانت بداية العلاقة مصالح تجارية نظرا لانها كانت بعيدة عن بؤر الصراع الساخنة فى المغرب والبحر المتوسط حيث الصراع المغربى البرتغالى والاسبانى ولم تكن لفرنسا فى ذلك الوقت مصالح عسكرية أو العمل على اغتصاب املاك الامارة الوطاسية ولكن كانت تريد ان يكون لها دور فى نسيج العلاقات الدولية الكبرى بالمغرب وان تستبدل احد الاقطاب الايبيريه ويكون لها دور مشارك من منطلق المصالح الاقتصادية والتبادل التجارى ودخول ميدان امداد المغرب بالاسلحة وتوثيق علاقاتها بالدولة العثمانية التركية لكى تكون منفذا لها فى بلاد المغرب الاوسط من واقع السيطرة العثمانية على هذه الاقطار وضرورة أن يكون لها دور تلعبه فى بلاد الشمال الافريقى حيث أن هذا التواجد الفرنسى فى نهاية القرن السادس عشر سوف يكون مقدمة للنشاط الفرنسى فيما بعد لاسيما ان فرنسا كانت تخطط إلى ايجاد دور لها فى الاستعمار والاستيلاء على احدى القواعد على الساحل المغربى سواء على البحر المتوسط أو المحيط الاطلسى امتدادا لها إلى بلاد السودان الغربى وممارسة دورها كدولة قوية صاعدة لاسيما انه كان لها دور فى حركة الحروب الصليبية (حملة لويس التاسع على تونس فى العهد الحفصى) فضلا عن ضرورة التواجد السلمى والاستمرار فى هذا التواجد على حساب القوى التى بدات تصعد مثل البرتغال واسبانيا ولحقت بالحركة الاستعمارية الاوربية .

وهكذا كانت العلاقات الفرنسية المغربية عملا على اطلاق حرية التجارة وكانت

فرنسا قد استغلت علاقاتها مع الاتراك العثمانيين للتدخل فى السياسة الجزائرية حيث كانت فرنسا وراء ابعاد حسن بن خير الدين باشا عن ولاية الجزائر ونظرا لانه كان يقف ضد السياسة الفرنسية ومصالحها فى البلاد وعينت بدلا منه صالح ريش الذى قاد حملة عودة الاسرة الوطاسية ممثلا فى أبى حسون للعودة للحكم بدلا من السعديين .

لكن العهد السعدى وبصفة خاصة منذ حكم أبى عبد الله الغالب بن محمد الشيخ الذى كان يسير فى خطه السياسى بالتهاون والمسالمة مع جميع الدول الاوربية فان فرنسا وجدت فى هذا الجو الملائم فرصة للحصول على مكاسب اقليمة لها فى المغرب حيث ان الغالب ارسل سفارة إلى فرنسا عام ١٥٧٦م وانتهزت فرنسا هذه السفرات وطلبت من الغالب التنازل لهما عن ميناء يكون مرسى للسفن والبضائع الفرنسية وتنازل عن ميناء القصر الصغير نظير امداد المغرب بالسلاح وفى عهد محمد المتوكل بن الغالب ارسل المتوكل سفارة عام ٩٦٨هـ يعرض على فرنسا احتكارها لتجارة السكر شرط دفع ثمنه بالسعر الذى يطلبه المغرب وتصدير النحاس نظير وصول الاسلحة الفرنسية والعتاد الحربى .

كذلك راسل عبد المالك بن محمد الشيخ فرنسا لمساعدته فى الوصول إلى العرش لكنه لم يجد استجابة لمطالبه نظرا لانشغال شارل التاسع ملك فرنسا بحروبه مع الاسبان، كذلك راسل عبد المالك الملك الفرنسى هنرى الثالث وابلغه بتوليه العرش وقد كانت العلاقات حسنة بين المغرب وفرنسا فى عهد عبد المالك بن محمد الشيخ .

وفى عهد احمد المنصور كان السفير الفرنسى من الوفود التى وفدت إلى المغرب للتهنئة بانتصار المغرب فى القصر الكبير وقد حمل السفير الفرنسى هدية ضخمة وهو يأمل عقد معاهدة صداقة مع المغرب وكانت هديته حجرا من الزمرد فى حجم اليد وزمرده فى حجم التفاحة وكمية كبيرة من اللؤلؤ وجدها المنصور مرضية ومؤكدة لهذه

الصداقة وقد سعت فرنسا لكى تقوم الحكومة المغربية بجعل الموانى المغربية مفتوحة امام التجارة الفرنسية وكذلك قيام الجهات المغربية باطلاق الاسرى الفرنسيين الذين كانوا يشاركون ملك البرتغال فى حملته على المغرب وهزيمته فى معركة القصر الكبير ١٥٧٨م وكذلك طلب السفير الفرنسى أن تقوم المغرب بتصدير ملح البارود والنحاس والذهب والسكر إلى الاسواق الفرنسية .

وفى عام ١٥٩٦م وصلت إلى المغرب سفارة فرنسية لمقابلة الخليفة المنصور السعدى فى مراكش ومحاولة عقد اتفاقية وتعاون عسكرى ضد اسبانيا العدو الاول للمغرب والتى كانت تدخل فى صراع مع فرنسا فى ذلك الوقت .

وبعد وفاة احمد المنصور السعدى فان السياسة الفرنسية لم تتغير قبل التعاون مع الحاكم الشرعى المغربى زيدان بن المنصور حيث عملت على التفاهم مع الشرعية السعدية وعدم الدخول فى علاقات او تعاون مع الوحدات المنفصلة المستقلة عكس السياسة الانجليزية التى كانت تتعامل مع الوحدات الصغيرة المستقلة عن مراكش .

ولم يحدث ما يعكر صفو العلاقات المغربية الفرنسية بعد ذلك فى عهد السلاطين السعديين المتاخرين الذين استمروا فى تنفيذ المعاهدات السابقة مع فرنسا بقدر ما أتيح لهم من سلطان فى البلاد المغربية إلى ان سقطت الدولة السعدية وخطت العلاقات المغربية الفرنسية خطوات واسعة فى عهد الاسرة العلوية الشريفة .

وكذلك فان هولندا التى كانت قد خرجت لتوها من السيطرة الاسبانية وحصلت على استقلالها فانها عملت على اقامة علاقات مع المغرب وكانت طبيعة هذه العلاقات فى بداية الامر شأنها شان كل العلاقات الاوربية تبدا بداية تجارية ثم تتطور إلى عقد معاهدات سياسية وارسلت هولندا إلى المغرب عام ١٥٩٦م وفدا هولنديا إلى المغرب فى عهد المنصور احمد لعقد معاهدة تجارية اقتصادية تفتح بموجبها المغرب

الموانى المغربية امام التجارة الهولندية وقد لاقى الوفد الهولندى قبولا من السلطان احمد المنصور لاسيما ان الهولنديين كانوا اشد اعداء اسبانيا، كما ان الهولنديين ابدوا استعدادهم القوى والفورى فى امداد المنصور بكل ما يحتاج اليه من اسلحة وذخائر وسفن حربية وكانت هولندا تهدف فى المقام الاول إلى تعميق العلاقات المغربية الهولندية إلى أن تجعل المغرب جميع موانيها مفتوحة امام السفن الهولندية باعتبار انها ستكون نقط ارتكاز تتمركز بها السفن الهولندية لمهاجمة السفن الاسبانية العائدة من الشرق الاقصى إل اسبانيا لاسيما الموانئ المغربية الجنوبية القريبة من السنغال مثل اركان والجديده .

وقد ازدهرت العلاقات المغربية الهولندية فى عهد المولى زيدان بن المنصور الذى تولى عرش المغرب عقب وفاة والده المنصور وسمح مولاى زيدان للهولنديين بطرد مجاهدى البحر الاسلاميين من موانى المغرب وخاصة ميناء المهدية واقام الهولنديون حصنا لهم بالساحل وكان الهولنديون يهتمون بتوطيد علاقاتهم مع الحكام الشرعيين ولم تقم ادنى علاقات بين الهولنديين والانفصاليين بالمغرب .

وهكذا كانت العلاقات المغربية والفرنسية والهولندية شأنها شأن العلاقات الاوربية تهدف فيها هذه الدول إلى تحقيق مكاسب اقليمية لها مثل الحصول على موانى لها لتكون نقط امداد وتموين لسفنها وملاذا لتجارها وتجارتها ومقرا لسفرائها ومخازن للسلع التجارية الفرنسية والهولندية، اضافة إلى ان الاوروبيين الفرنسيين والهولنديين كانوا يرون فى رغبة المغاربة الجارفة للحصول على الاسلحة الحديثة لكى يحققوا لهم مكاسب تجارية ،والسيطرة على بعض الموانى كالقصر الصغير لفرنسا وفتح الموانى مثل ميناء سلا أمام السفن الهولندية، لكن تسمح فى المقابل عن قيام شركات مغربية فى أى من هذين البلدين أو حصول المغرب على موانى فرنسية او هولندية لكى تكون مقرا للتجار

المغاربة أو اماكن لاقامة الفنادق او التوكيلات التجارية .

وفى كل الاحوال كان الجانب الغربى الاوربى هو الطرف القوى والمستفيد فى كل الاحوال سواء السماح له باحتلال الموانى او اماكن لرسو السفن الحربية والتجارية او احتكار التجارة فى انواع معينة كملح البارود والنحاس والسكر والذهب واستفادت أوربا فى استنزاف ثروات المغرب تحقيقا لمصالحها السياسية والاقتصادية والاستراتيجية وفى كل هذه الظروف لم يكن المغرب ليحقق أدنى مصلحة له سوى امداده بالسلاح وبعض المصانع الصغيرة .

وتلك هى نبذة قصيرة ومختصرة عن دور المغاربة السعديين فى العلاقات مع الاتراك العثمانيين والانجليز والبرتغاليين والاسبان والفرنسيين والهولنديين ومدى ابعاد هذه العلاقات وانعكاساتها على الساحة المغربية ومدى تاثير هذه العلاقة على الشعب المغربى وما هى الفوائد المباشرة التى تحققت من كل هذه العلاقات والتى لاشك فى أن المغرب كان الجانب غير الكاسب فى هذه العلاقات على المدى البعيد وكان الجانب الرابح هو الطرف الاوربى فى كل الاحوال .

الفصل التاسع

انهيار الدولة السعدية وسقوطها

ذكر ابن خلدون فى المقدمة الفصل الرابع عشر ان الدولة لها اعمار طبيعية كما للاشخاص واعمار الدول تختلف ذلك لان الدولة فى الغالب لاتعدو اعمار ثلاثة اجيال والجيل هو عمر شخص واحد من العمر الوسط فيكون اربعين عاما هو انتهاء النمو والنشوء إلى غايتة واذا قلنا ان عمر الدولة ثلاثة اجيال لأن الجيل الاول لم يزالوا على خلق البداوة وخشونتها وتوحشها من شظف العيش والبسالة ولاتزال سورة العصبية محفوظة فيهم والدولة السعدية فى اقليم الجنوب ببلاد السوس قبل ان تتهيأ للتوسع شمالا والتوغل فى الاراضى المغربية والصراع مع القوى البرتغالية التى كانت تحتل الثغور الجنوبية الواقعة على شاطئ المحيط الاطلسى وظهور حركة الجهاد الاسلامى صورة لما قالة وصول ابناء محمد القائم بأمر الله (احمد الاعرج ومحمد الشيخ) للسيطـرة على مراكـش وفاس .

والجيل الثانى تحول حالهم بالملك والترفة والحضارة وينطبق ذلك على حالتنا هذه وحتى فترة تولى محمد الشيخ وابنة أبى عبد الله الغالب وكذلك عبد المالك بن محمد الشيخ ونهاية المرحلة الثانية تقف عند المجد والحضارة والترف الذى بلغتة دولة السعديين فى عصر احمد المنصور الذهبى .

والجيل الثالث يبدأ من النزاع بين أبناء احمد المنصور والنزاع بين ابناء زيدان بن المنصور حتى نهاية الدولة وهم الذين فقدوأ حلاوة العز والعصبية وبلغ فيهم الفساد والترف غايتة وصاروأ عيالا على الدولة والتى تشهد صاحب الدولة يستعين بغير اهلة وقومة ويستكثر بالمولى ويصطنع من خارج دولتة من رجال فنذهب الدولة ويكون هرم الدولة وتخلفها فيكون الهرم حاصلا مسئوليا .

وكانت الدولة السعدية التى تبوأت مكانة عالية فى عهودها السابقة حتى نهاية حكم أحمد المنصور قد دخلت مرحلة انكهولة والشيخوخة بدأ من زيدان بن المنصور وبدات ارهاصاتها المنذرة بسقوطها من واقع خيوط حركة التاريخ لاسيما أن كل الشواهد والادلة كانت توحى بالشواهد أن النزاع بين ابناء احمد المصور من اجل العرش انما كانت هى حلقات تمر بمر حلة كهولتها استعداداً لسقطو ط الدولة السعدية البالية وعودة الحياة المغربية إلى تجديد نشاتها وهذه المرة تكون فى اسرة شريفة علوية لكى تحمل راية الجهاد ومسئولية الحكم ولازالت تمارسة حتى وقتنا الحاضر ممثلا فى جلالة الملك الحسن الثانى الذى يحكم المغرب منذ عام ١٩٦١ حتى ١٩٩٢ م تاريخ كتابة هذا البحث .

وكان المغرب السعدى قد تمتع بنوع من الاسقرار والقوة والنفوذ والسيادة والمهابة فى عهد الخلفاء الاوأئل من الاشراف السعديين الذين أولوا المغرب والقوى جل اهتمامهم ورفع شأنة بين الامم القوى الخارجية لكن بعد وفاة المنصور الذهبى خضعت جميع المدن والولايات للانفصال والثوار وذلك فيما عدا العاصمة مراكش وبعض احوازها بسبب الصراع بين افراد الاسرة السعدية وعانى المغرب من التفرقة والانقسام فى عهد الخلفاء المتاخرين الذين كان ضعفهم امام اعداء المغرب الخارجى والداخلى قد جعل الاهالى لايثقون فى القيادة الحاكمة ومن هنا بدأ الشعب يتطلع إلى قيادة جديدة بعد تهالك القيادة السعدية الضعيفة حيث كانت شوكة هذه القياده فى محاربة الخارجين عن الدولة والامراء الانتصاليين بل أن بعض الأمراء السعديين قد هزموا على ايدى الثورار وقد أدى ذلك إلى استسلام خلفاء مراكش للواقع السياسى الجديد .

وكما سبق القول والصراع بين افراد البيت السعدى كان من الأسباب القوية

التى عجلت بنهاية الأسرة سريعا وانهيارها بل انه كان العامل الاول من اسباب قيام الثورات والحركات الانفصالية والامارات الستقلة عن الحكومة المركزية فى المغرب الاقصى وانشغال الامراء السعديين بالصراع فيما بينهم عن احوال الرعية والعدو الخارجى وعن تفكك الدولة وظهور الامارات الانفصإلية وقيام بعض الزعماء وكبارزجال القبائل والاقإليم والمدن الكبرى باعلان الاستقلال عن الدولة الام فى مراكش بل الادهى من ذلك أن هذه الولايات والامارات دخلت فى نزاع عسكرى فيما بينها من اجل الحدود والتوسع كل امارة على حساب الاخرى ولم تكن هذه الامارات فى وئام فيما بينها وبين القيادة الاسرة العلوية الشريفة التى قدر لها أن تكون امارة مستقلة فى أواخر عهد السعديين البإلى والمتهالك .

وفى الواقع التاريخى أن بعض هذه الامارات قد ادت بعض الخدمات إلى المغرب الاقصى فى محاربة المحتلين الفرنجة سواء اكانوا من البرتغإليين او الاسبان ودخلوا فى صراع عسكرى معهم وحققوا بعض الانتصارات ولستطاعوا طردهم من بعض المدن كما فعل المجاهد ابو عبد الله العياش فى سلا .

وقد كانت حالة الفوضى من اسباب قيام هذه الحركات الانفصإلية التى انتشرت فى البلاد وكانت مراكش عبارة عن امارة من الامارات شأنها شان الامارات الاخرى الاانها كانت الواجهة الشرعية الرسمية للدولة والتى تتعاون معها الدول الخارجية ولقد كان العامل الدينى من الاسباب القوية لقيادة هذه الزعامات السياسية وخاصة الأسرة العلوية الشريفة .

ولقد شهد المغرب الاقصى ظهور العديد من الامارات المستقلة التى مارست سياستها فى داخل الاقليم الذى تسيطر عليه كانها دولة ذات سيادة وذات حدود سياسية معترف بها بل أنها كانت تحاول التوسع على حساب الامارات المستقلة الاخرى

ومن هذه الامارات امارة النفيس بتطوان، وكذلك امارة الشيخ أبى عبد الله محمد العياشى فى سلا ثم فاس وتادلا ، ووكذلك امارة أبى حسون السحلالى فى السوس .

ورمارة ابن ابى مجلى فى سجلماسة وغيرها من الامارات الصغيرة الاخرى والذى يلقى نظرة على هذه الامارات المستقلة التى زاد عددها فى عهد الاسرة السعدية لاسيما منذ عهد زيدان بن المنصور حتى سقوط الدولة يدرك للوهلة الاولى ان المغرب قد اصبح حالة كما كان حال الاندلس فى السابق مقسما إلى ملوك وطوائف كل منهم يحكم ويستقل بطائفة من القوم وقطعة من الأرض يقيم بها سطانا يمارس فى داخله نفوذه وسيادته بل يمارس علاقات خارجية مع الدول الكبرى ويدخل الميدان الدولى ويقيم علاقات كما نعلت انجلترا فى اقامة علاقات تجاربة وسياسية وعسكرية مع بعض من هذه االامارات المستقلة ، بل هولندا دخلت فى صراع عسكرى مع امارة سلامن أجل طرد المجاهدين الاسلامين البحريين .

وكان ان توفى محمد الشيخ الاصغر بن زيدان بن احمد المنصور عام ١٠٥٤هـ وتولى الخلافة فى مراكش وبعض المناطق القريبة منها ابنة ابو العباس احمد وكانت الدولة فى عهدة قد وصلت إلى حالة من التردى والضعف والانهيار حيث انة كان لايزال طفلا صغيرا وفى ذلك الوقت كان اخوالة من عرب الشبانات والذين احاطوا بة بعد ان قويت شوكتهم وزاد سلطانهم وحاصروا مراكش العاصمة عدة شهور واستبدوا بمقإليد الامور وكانت والدة أبى العباس احمد تمد الطريق لاسرتها لان تستولى على الحكم بعد ان كانوا هم اصحاب الكلمة العليا فى مراكش ، ومن ثم انتهى الامر بإن قامت قبيلة الشبانات بقتل السلطان السعدى اخر سلاطين السعذيين عام ١٠٦٩هـ وازالوا نهائيا معالم الاسرة السعدية بمقتل أبى العباس واستيلاء عرب الشبانات على مقاليد الامور فى البلاد وبايعوا ابرهيم عبد الكريم زعيم قبيلة الشبانات وعقيل عقب

قتل السلطان السعدى الصغير وسقطت الدولة السعدية نهائيا .

وبسقوط دولة الإشراف السعديين من مسرح الاحداث السياسية بالمغرب الاقصى تكون قد طويت صفحة من صفحات التاريخ الاسلامى والاسرى كما طويت قبلها صفحات لاسرات المرابطين والوحدين وبنى مرين وغيرهم من الاسر الحاكمة ان مارست كل منها دورا فى حياة المغرب وفى حقيقة الامر ان كل اسرة حاكمة لابد تكون فيها فترة خالدة باهرة ساطعة بالاعمال وقد كانت معركة القصر الكبير عام ١٥٧٨م مفخرة الاسرة السعدية بل مفخرة المغرب ابد الدهر .وقد عاشت الاسرة السعدية مايزيد عن قرن ونصف من الزمان . لكن الاسرة العربية من الشبانات لم يكن ليقدر لها ان تمارس دورها على مسرح الاحداث سوى سنوات حيث أنها لم تكن مؤهلة لان تقود مسيرة المغرب لانها كانت حبيسة مراكش ولم تكن من القوة القيادية بحيث تتصدر العمل السياسى فى هذه المرحلة الحاسمة بالصراع والتمزق على الساحة الداخلية المغربية والصراعات العالمية على أرض المغرب .

ولكن الله حارس تلك الديار وحامى أرضه المسلمة قيض لها قيادة مجاهدة شريفة علوية سلالة قرشية من الدوحة الزكية لكى تسقط حكم الشبانات من مراكش عام ١٠٧٥هـ لتبدا أسرة الاشراف العلويين فى حكم البلاد (١٠٧٥- ١٤١٢هـ- ١٦٦٤- ١٩٩٢م) ولازالت تحكم البلاد حتى الآن .

الاسرة السعدية

١- محمد القائم بامر الله ابو عبد الله

٩١٥-٩١٨هـ -١٥١٥- ١٥١٨م.

٢- احمد ابو العباس بن محمد القائم بامر الله- الاعرج .

٩١٨-٩٥١هـ-١٥١٨-١٥٤٤م.

٣- ابوعبد الله محمد الشيخ - المهدى - بن محمد القائم بامر الله.

٩٥١-٩٦٥هـ-١٥٤٤-١٥٥٧م .

٤- عبد الله بن محمد الشيخ ابو محمد (الغالب بالله).

٩٦٥-٩٨١هـ-١٥٥٧-١٥٧٤م.

٥- محمد المتوكل على الله الغالب .

٩٨١-٩٨٣هـ-١٥٧٤-١٥٧٦م .

٦- عبد المالك بن محمد الشيخ - صاحب معركة القصر الكبير .

٩٨٣-٩٨٦هـ-١٥٧٦--١٥٧٨ .

٧- احمد المنصور بالله السعدى - الذهبى - ابو العباس.

٩٨٦-١٠١٢هـ-١٥٧٨-١٦٠٣م.

٨- زيدان بن احمد المنصور - المامون بن احمد المنصور - ابو فارس بن احمد المنصور .

١٠١٢-١٠٣٧هـ-١٦٠٣-١٦٢٧م.

٩- الوليد بن زيدان.

١٠٤٠- ١٠٤٥هـ-١٦٣٦م .

١٠- محمد بن الشيخ بن زيدان (أبو العباس).

١٠٤٥-١٠٦٣هـ-١٦٣٦-١٦٥٢م.

١١- احمد بن محمد الشيخ بن زيدان (ابو العباس) .

١٠٦٣-١٠٦٩هـ-١٦٥٢-١٦٥٨م.

الباب الثالث

الأشراف العلويون حكام المغرب حتى الآن
(١٠٧٥- ١٤١٢هـ- ١٦٦٤- ١٩٩٢م)
(محمد بن محمد بن الشريف بن على- الحسن الثانى بن محمد الخامس بن يوسف بن الحسن)

ظهرت الاسرة العلوية الكريمة ذات الحسب النبوى الشريف، نسل سلالة الأسرة الهاشمية فرع الشجرة الذكية النبوية والأسرة العلوية العلية الشريفة بعد عام ١٦٦٠ باربعة اعوام بعد القضاء على حكم الاسرة السعدية التى كانت قد أسلمت قيادة المغرب إلى الاسرة الشباناتية التى لم تدم فى سلطة مراكش سوى ست سنوات، لكن الاسرة العلوية فيض الله لها حكم المغرب وهى لا تزال تقوم على العرش العلوى الشريف، وقد بدأ العلويون (او الفلاليون) وهم سلاطين اشراف فى الوقت نفسه على انهم اصحاب حركة اصلاحية دينية لاتقل عن اية حركة اصلاحية ظهرت فى العالم الاسلامى بل انها تزيد عنها بنسبها النبوى الشريف ولعل التفاعل بين الدين ونسب الساسرة وتاريخها الجهادى الاسلامى قد اوجد لها تربة صالحة وصلابة قوية فلما توجد فى أى بلد اسلامى آخر فيما عدا المغرب .

وينتسب الاشراف العلويون إلى الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله عنهم وارضاهم، فهم سلالة شريفة قرشية نبوية وفى ذلك يقول دائما جلالة الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى عند رواية الاحاديث النبوية مبدأ قوله: قال جدى رسول الله ﷺ كذا فالنسب شريف وايضا فهم بنو عم الاشراف السعديين حكام الاسرة السابقة ويلتقو معهم من حيث تسلسل الاسم القرشى فى اسم محمد بن القاسم وهم ايضا بنو

عم الادارسة (١٧٢- ٤٧هـ- ٧٨٨- ٩٥٨م) (انظر الجزء الثانى من هذه الموسوعة: المغرب بين الاغالبهوالادارسة وبنى رستم) ويلتقى العلويين مع الادارسة فى اسم عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن على ابن أبى طالب .

وأول من دخل بلاد المغرب من الاسرة العلوية الحاكمة هو جدهم الاكبر الذى يمكن ان تطلق عليه الحسن الداخل المغربى وذلك عام ٦٧٤هـ وهو الحسن بن القاسم بن محمد بن القاسم بن الحسن بن عبد الله بن أبى محمد بن عرفه والذى يمتد نسبه إلى محمد النفس الذكية (انظر ملحق هذا الفصل بالنسب القرشى بدأ من على بن أبى طالب ونهاية إلى الحسن الثانى ملك المغرب الحالى مسلسلا فى شجرة طيبة .

والشعب المغربى الطيب المحب لرسول الله ﷺ كان يرى فى وجود الاشراف الذين هم نتاج الشجرة الطيبة المباركة التى يتفرع منها النسل الطاهر لرسول الله ﷺ صاحب الدعوة الخالدة الباقية ابدا الدهر إلى أن يرث الله الارض ومن عليها والهادى للبشرية ان وجود أفراد من هذه الاسرة بركة وفخرا للقبيلة والاقليم الذى يقيم فيه هذا الشريف ولاسيما وان مشاعر المغاربة تلتف حول هؤلاء الاشراف ويحيطونهم بنوع من التكريم والتقدير والحب والطاعة ومن هنا استطاع الاشراف العلويون السجلماسيون او الفلاليون تكوين دولتهم على انقاض دولة السعديين .

وكما سبق القول كان جدهم الاكبر الحسن بن القاسم جد العلويين هو أول من نزل بلاد المغرب ثم اتجه جنوبا إلى سجلماسة بعد قدومه من بلاد الحجاز متمسكا بالنسب الشريف العلوى عاملا بالشرافة الحجازية القرشية فى محيطها العربى المغربى وقد كان وجوده فى الاقاليم الجنوبية يشكل بناء اسرى واجتمعى ودينى وسياسى متميز عن بقية الاقاليم المغربية الاخرى حيث البعد الدينى عاملا قويا لظهور الحركة

الاصلاحية العلوية مرتدية عباءة الشرافة القرشية باسم احياء الدولة الاسلامية المغربية الكبرى .

ونذكر بعض المصادر ان بعضا من اهل الورع والتقوى والصلاح قد قاموا بأداء فريضة الحج وكانوا جميعا من مدينة سجلماسه المغربية قد توقفوا وهم فى طريقهم إلى المدينة المنورة لزيارة رسول الله ﷺ فى قرية بنى ابراهيم وهى قريبة من ميناء ينبع الواقع على البحر الاحمر وتصادفوا ان تقابلوا مع شريف من الاشراف الحسنين فخاطبوه فى أمر الرحيل معهم واصطحابهم فى قافلتهم حتى المدينة المنورة ثم العودة معهم إلى بلادهم المغربية المحبة للنسل النبوى الشريف وحببوا اليه الانتقال معهم إلى بلادهم ولقب هذا الشريف بالداخل (الحسن) وانتشرت اسرة الحسن الداخل فى سجلماسه ومن هنا فان الاشراف العلويين اشراف سجلماسه السعديين اشراف درعه ابناء عمومة. ومن هنا فان الاسرة العلوية المغربية تناسلت وانتشر نسلها وابناءها واخفادها فى هذه المنطقة الجنوبية باقليم سجلماسه من المغرب الاقصى زمنا طويلا .

ولما كان الضعف والتفكك والانقسام والفوضى قد بدات نضرب باطنابها فى الدولجة السعدية فان اهالى الاقاليم الجنوبية فى سجلماسه بايعوا المولى محمد الشريف بن على بن محمد بن على بن يوسف بن على ابن الحسن بن محمد بن الحسن الداخل اماما وقائدا على الاقليم توطئة لكى يتولى حكم الدولة المغربية المنقسمة على نفسها ولكن هذه المبايعة لم تجد اجماعا تاما وتلك طبيعة النفس البشرية حيث اننا نجد بعض الاجزاء لم ترضى هذه المبايعة واخذوا يكيدون له ويقفون كاشوكة الضعيفة امام الزحف الشريف الكاسح وهم اهل حصن (تيو عاصت) لكن الشريف القرشى الذى كان يكره القتال والدماء والفتن لاسيما بين ابناء الاقليم الواحد والدين الواحد عرض فى تلك الحالة وقد رأى بعض الانقسام على أبى حسون السحلالى بالسوس ودرعه أن

يتنازل عن سجلماسه وكان أبو حسون يتخذ من مدينة بليغ عاصمة لامارتة ثم حولها إلى مدينة تارودانت واخذ نجم أبى حسون يلمع فى سماء المغرب واستولى على درعه لذا وجد المولى محمد بن الشريف العلوى الذى كان قد بويع بالامارة فى سجلماسه أن يدعو السحلالى للدخول إلى سجلماسه وصارت سجلماسه من أملاك أبى حسون صاحب السوس، ثم حدث خلاف بين أبى حسون وبين الشريف محمد بن محمد نظرا لسوء العلاقات والخلافات دفعت محمد بن محمد الشريف إلى اعلان الثورة على صاحب السوس لسوء معاملته لوالده الذى كان أبو حسون قد قبض عليه وسجنه فى قلعة ببلاد السوس، لكن ابنه محمد استولى على سجلماسة وطرد عامل أبى حسون منها واستطاع ان يفك اسر والده ثم قاتل السملاليين وطردهم من درعة وصارت تلك الأقاليم كلها تحت طاعة الشريف العلوى كما خضعت له العديد من الحصون والقرى والبلاد والقلاع المجاورة وبايع اهل سجلماسة محمد بن محمد الشريف بالأمارة عام ١٠٥٠هـ ووافق أبوه على ذلك .

وقد وضع الأمير العلوى الجديد نصب عينه وأهدافه المستقبلية ضرورة الاستيلاء على المغرب كله وانهاء عهد الفرقة والأنقسام ولابد من العمل بعون الله على توحيد كل هذه الديار تحت الرايجة العلوية دفاعا عن التراب المقدس وتحرير كل الجيوب الباقية سواء كانت فى قبضة الانجليز أو الفرنسيين أو الاسبان أو غيرهم من الأوربيين وتكوين دولة علوية كبرى وتقدم بجيوشه وقواته لكى يحتل مراكش وفاس وما يقع بينهما من مدن وأقاليم وقلاع وحصون وقبائل ولكن واجهته عدة عقبات حالت دون تنفيذ هذه الخطوة الجريئة المندفعة بقوة الأيمان، وكيف لا وانه كان يقع عليه ان يقاتل حكام الأمارات الصغيرة المنقسمة على نفسها والتى قسمت المغرب إلى عدة أقاليم وولايات .

وكان بداية صراعه مع الامير محمد اولاتى حاكم تدلا وفاس. وكانت مواقعه تقع بزاوية الدلاء بمنطقة مراكش الوسطى وكانت الزاوية مركز للطريقة الدلائية وكان محمد الحاج الدلائى قد استولى على فاس عام ١٠٥١هـ ودخل أهلها فى طاعته وأصبح الامير الدلائى من اقوى أمراء المغرب بعد مقتل أبى عبد الله العياشى صاحب مدينة سلا، لكن فى عام ١٠٦٠هـ استنجد اهل فاس بالمولى محمد بن الشريف العلوى لينقذهم من حكم الدلائى فقبل الشريف العلوى دعوتهم وافتتح فاس لكنه اضطر إلى العودة إلى سجلماسة وحدثت معاهدة صلح بين الطرفين وقد حاول محمد الشريف الاستيلاء على فاس لكنه فشل اكثر من مرة ومن ثم بدأ يعيد تفكيره فى ضرورة ايجاد ارض صالحة لدعوته لكى يكون دولته المغربية الكبرى فرأى بتاقب نظره أن العقبات التى تحول بين تحقيق احلامه بالمغرب الأقصى كثيرة فكان عليه ان يولى وجهه شطر المغرب الاوسط لعله يحقق آماله واحلامه ويستطيع ان يصل إلى هدفه السامى وتحرك إلى الجزائر تحيط به جموع كثيرة من القبائل التى بايعته وانطوت تحت لواء دعوته وحاول ان يطرد الاتراك من هناك وان يكون دولته الشريفة هناك ثم يزحف بعد ذلك إلى المغرب الاقصى لتكون الدولة القرشية العلوية الشريفة شأنها شأن الدول الكبرى كالمرابطين والموحدين حيث ان زحفه من المغرب الاوسط سوف يسهل له القضاء على الأمارات المستقله والولايات الصغيرة بالمغرب الاقصى ويضم هذه الأمارات إلى دولته المرتقبة .

واتجه الشريف العلوى إلى استخدام نفوذه فى الصحراء الشرقية لربط الصلة شرقا مع سجلماسة فاتجه إلى مكان يسمى بسط (انكادا) حيث بايعته القبائل والاحلاف وبعض سكان هذه المدن والقلاع وبذلك استطاع ان يكون جيشا كبيرا استطاع به ان يتزعم حركة تحرير اقليم الجزائر من الأتراك، لكن الشريف مولاى محمد اضطر إلى

العودة مرة أخرى إلى سجلماسة أزاء رد فعل الأتراك العثمانيين الذين احسوا بالخطر من ناحية الشريف العلوى فتحركوا إلى تلمسان لتطويق قوات الأمير العلوى وقد أحس الشريف العلوى بخطورة الموقف لاسيما وان مولاى محمد الشريف قد خشى التصادم مع الأتراك لاسيما وأنه لم ينفذ أدنى هدف من خططه البعيدة الرامية إلى انشاء دولة مغربية كبرى فعاد إلى مواقعه الأولى فى سجلماسة لجمع قواته ودعم كيانة وذلك بعد أن حقق الهدف الأول من أهدافه وهو جمع وحدة القبائل المغربية حوله ضد الدخلاء الأجانب إلى جانب انضمامهم لصفه فى مواجهة الأتراك ومن هنا احسست هذه القبائل أن السلطة لا محالة منتهية إلى الأسرة العلوية وأن المغرب سيصبح من القوة ووحدة الهدف ما يمكنه من طرد العناصر المتغطرسة وغير المرغوب فيها من الأجانب .

وبدا الأتراك فى الجزائر لأول مرة يشعرون بالخطر من الشريف العلوى وأن سلطانهم بات مهددا فى المغرب الأوسط من جراء القوة العلوية الصاعدة، لذا فقد وجه إليه عثمان باشا والى الجزائر وفدا إلى سجلماسة لمناشدة الشريف العلوى بحق الروابط والاخوة الأسلامية وصلة القربى والنسب القرشى الشريف والانتساب إلى رسول الله ﷺ أن يكف عن مهاجمتهم وأن يمنع القبائل المغربية من الهجوم على الأتراك المسلمين فتأثر الشريف العلوى بما قاله له الوفد التركى وتعهد بعدم تجاوزه الحدود التركية فى المغرب الاوسط. هذا عن الموقف التركى الذى كان مهددا من القوة العلوية الصاعدة .

أما الجانب السعدى الحاكم فى مراكش فقد ادرك بعد الخطر القادم إليه والواقع لا محالة ولكن مركزه الضعيف لم يكن يسمح له بان يتحرك ويقف فى وجه الشريف العلوى أو محاولة التحرش به والصدام معه. ذلك لان الخليفة السعدى محمد الشيخ بن زيدان بن أحمد المنصور أحس بخطر الحركة العلوية فى سجلماسة لكنه لم يجد القوة الكافية لمحاربة العلويين فآثر ان يصرف النظر عن ذلك وعمل على مراسلتهم وقد رد

عليه المولى محمد الشريف العلوى مراسلاته .

ولما أحس محمد الشريف بأن وضعه العسكرى والسياسى أصبح من القوة بحيث يستطيع أن يبدأ فى تنفيذ ما كان يفكر فيه فانه لم يترك فرصة إلا وانتهزها للتوسع وكانت له طريقة مبتكرة فى محاربة المناوئين له من حكام الأقاليم اذ انه كان يفرض ضريبة ضد الأمراء والمجاورين ثم يجاريهم ولم يلبث ان يعود إلى موقعه الأصلى سجلماسة بعد أن يكون قد أثار الفزع فى اعدائه وهكذا كان اسلوبه فى محاربة الأمراء الولائيين ومع السملاليين ونظرا لما ابداه من شجاعة وحزم وقوة والتفاف القبائل حوله فان وفاة والده محمد الشريف كانت فرصة له لكى يجدد القوم والجيش والقبائل البيعة من جديد له عام ١٠٦٩هـ. لكن أخاه الرشيد الذى كان ذا مطامع سياسية كبرى لم ترضيه مبايعة القوم له فخرج الرشيد يعلوى ارجاء المغرب ساعيا لكسب تاييد القبائل له وجمع قوات حربية عديدة يستطيع ان يقف فى وجه اخيه محمد بن محمد الشريف العلوى أخاه الأكبر وأن يصل إلى الخلافة ونجح الرشيد فى أن يكون جيشا كبيرا محاولا محاربة أخاه فتصدى له المولى محمد ووقعت بين الأخوين معركة بمنطقة سهول انكادا وكان من حظ الرشيد أن أول رصاصة انطلقت قتلت أخاه محمد عام ١٠٧٥هـ ١٦٦٤م. وانفرد الرشيد بن محمد الشريف العلوى بالحكم وظل يحكم البلاد طوال ثمانية عشر عاما (١٠٧٥– ١٠٨٢هـ ١٦٦٤– ١٦٨٣م) ومن ثم وضع همه الأول إلى تكوين الدولة العلوية الكبرى وفى عدم تشتيت قواته العسكرية فى قتال جزئى مع الأمراء المحليين لا يعود عليه بما يخطط له ومن ثم عزز جيشه بالعناصر الفلالية التى كانت منذ اللحظة الاولى القوة المساندة للأسرة العلوية وعمل على القضاء على القوة الصغيرة التى كانت فى بد ابن اخيه المولى محمد بن محمد الشريف، ثم عاد إلى كازا التى اتخذها عاصمة ملكة الجديدة. وقد تهيات الظروف

لهذا العلوى المحنك المثابر ان يؤسس دولة قوية بالمغرب على أنقاض السعدين بعد أن نجح فى القضاء على جميع الأمارات المستقلة التى كانت تمزق المغرب إلى وحدات صغيرة ومن ثم أنقض على أمارة الشبانات فى مراكش والذين كانوا قد استولوا عليها من السعديين عام ١٠٦٩هـ .

وهكذا كان دخول الرشيد بن الشريف على إلى مراكش عاصمة الأسرة السعدية وقضاءه على حكم الشبانات بداية ظهور الأسرة العلوية الشريفة التى حكمت البلاد منذ عام ١٠٧٥هـ حتى عصرنا الحاضر ١٤١٢هـ وبذلك تكون المغرب قد دخلت طورا جديدا من اطوار الحكم وبدأت مرحلة ظهر فيها الخليفة المظفر بالله اسماعيل شقيق الرشيد بن الشريف بن على ليكون أقوى سلاطين المغرب ويعيد للذاكرة ذكرى يوسف بن تاشنين وعبد المؤمن بن على وعبد المالك بن محمد الشيخ السعدى وغيره الكثيرين من رجالات المغرب الذين لعبوا ادوارا خالدة خلدت اسماءهم فى سجل ابطال التاريخ الاسلامى الذين ضربوا بسهم وافر فى تحقيق الأنتصارات لشعوبهم .

وفى ذلك يقول ليفى بروفشال وهو من اساتذة السوربون والذى كتب عام ١٩٥٣م يقول أن المغرب كان طوال خمسة قرون خلت الدولة الأسلامية الوحيدة التى دعمت نفسها على أنها أمة وأن المغرب كان امبراطورية مستقلة ذات تاريخ طويل شديد الغيرة على استقلاله وعلى اتم استعداد لمقاومة أى شكل محاولة المساس بأرضه ووحدته وهكذا قام الجد المظفر مولاى اسماعيل بالعمل على توطيد أركان الدولة داخليا وخارجيا وتمكن من اقتلاع كل ما كان يقف فى بناء الأمبراطورية العلوية الشريفة، ذلك لأن المغرب له ثمة تقاليد مورثة راسة الجذور تجعل منه قوة فعالة وذلك بعد أن قرن تاريخ المغرب فى القرن السابع عشر الميلادى بظهور الأسرة العلوية المنحدرة من سبط الرسول ﷺ لكى تكون الاسرة الحاكمة العاملة على عودة المغرب لعظمته العقيدة

وهى الأسرة التى حافظت على استقلال المغرب فبنما خضعت كل اجزاء المغرب العربى والعالم العربى باسره للقوة الأستعمارية التركية والأوربية وهكذا تمكنت الاسرة العلوية من اعادة المغرب إلى مكنته السابقة .

ويقول روم لاندو فى كتابه المغرب لقد كان السلطان هو رأس الأمة بل أنه كان الأمة بل أنه كان الأمام الذى يكن الشعب له كل الأحترام وقد أطلق الشعب على السلاطين لقب أمير المؤمنين وهو لقب يطلق منذ عصر المرابطين ويوصف السلطان بانه الأمام الأعظم فقد كان من حقه أن يؤم الأمة بكاملها فى الصلاة على أن الذى يميزه عن غيره أن سيادته لا تطال لكونه شريفا قرشيا وبذلك يكون قد ورث البركة عن اسلافة ولقد ضربت هذه المشاعر الدينية جذورها فى المغرب وترك تاثيرها الواضح والجلى فى اعماق النفس المغربية ومن هنا سادت الأسرة العلوية على سلطان المغرب بدفعها إلى ذلك النسب القرشى النبوى الشريف والجهاد الاسلامى ضد القوى التى تحاول ان تنال من سيادة المغرب وحب الشعب المغربى لآل الرسول والتفافهم حول سلطانهم وأمير المؤمننين سليل الشرف القرشى الحسيب النسيب وهكذا كانت المغرب علويه حتى عصرنا الحاضر .

ونكتفى بهذا القدر من الدراسة فى تاريخ المغرب حتى لا ندخل فى المحظور وتتجاوز مرحلة العصر الوسطى– العصور الأسلامية – وندخل المرحلة التاريخ الحديث ونتوقف عند القرن السابع عشر ولا ندخل قرنا جديدا يدفع بنا إلى دراسة واسعة ومستفيضة عن الأسرة العلوية الشريفة وهذا لا يدخل فى نطاق البحث الذى قسمناه إلى ستة اجزاء كل جزء يعالج أسرة حاكمة معينة ولم يكن فى خطتنا الدراسية الدخول إلى الأسرة العلوية ولكن لما كانت الأسرة العلوية هى التى اسقطت الاسرة السعدية واقامت كيان المغرب العربى الموحد فلابد من الأشارة إلى هذه الأسرة على

عجالة وفى هذه الصفحات القلائل وأن كان ذلك لايمنعنا أن نضيف قائمة باسماء سلاطين الأسرة العلوية الشريفة بدا من الأمام على بن أبى طالب رضى الله عنه وصولا إلى الملك الحسن الثانى ملك المغرب الحالى وبذلك نكون قد ختمنا تلك الدراسة بخاتمة تجلت فى النسب البنبوى الشريف سليل الحسن بن على بن أبى طالب سبط رسول الله ﷺ .

الحسب النسبى لجلالة الملك الحسن الثانى
نسل السلالة القرشية الهاشمية فرع الشجرة
الذكية والدوحة النبوية العلوية

١ – الأمام على بسن أبى طالب بن عبد المطلب .

٢ – الحسن بن على بن أبى طالب .

٣ – الحسن (المثنى) ابن الحسن بن على .

٤ – عبد الله (الكامل) ابن الحسن (المثنى) ابن الحسن .

٥ – محمد (النفس الذكية) ابن عبد الله (الكامل) ابن الحسن (المثنى) .

٦ – القاسم بن محمد (النفس الذكية) بن عبد الله (الكامل) .

٧ – اسماعيل بن القاسم بنْ محمد (النفس الذكية) .

٨ – أحمد بن اسماعيل بن القاسم .

٩ – الحسن بن أحمد بن اسماعيل .

١٠ – على بن الحسن بن أحمد .

١١ – أبو بكر بن على بن الحسن .

١٢ – الحسن بن أبى بكر بن على .

١٣ – عرفه بن الحسن بن أبى بكر .

١٤ – أبو محمد بن عرفه بن الحسن .

١٥ - عبد الله بن أبى محمد بن عرفه .

١٦ - الحسن بن عبد الله بن أبى محمد .

١٧ - القاسم بن الحسن بن عبد الله .

١٨ - محمد بن القاسم بن الحسن .

١٩ - محمد بن محمد بن القاسم .

٢٠ - القاسم بن محمد بن محمد .

٢١ - الحسن بن القاسم بن محمد (أول من دخل المغرب عام ٦٧٤هـ) .

٢٢ - محمد بن الحسن بن القاسم .

٢٣ - الحسن بن محمد بن الحسن .

٢٤ - على بن الحسن بن محمد .

٢٥ - يوسف بن على بن الحسن .

٢٦ - على بن يوسف بن على .

٢٧ - محمد بن على بن يوسف .

٢٨ - على بن محمد بن على .

٢٩ - محمد بن على بن محمد الشريف (مؤسس الأسرة العلوية الحاكمة وأول من تولى الحكم ١٠٥٧هـ/ ١٦٤٦م) .

٣٠ - محمد بن محمد بن الشريف بن على .

٣١ - على بن محمد بن محمد الشريف .

٣٢ - اسماعيل بن على بن محمد .

٣٣ - عبد الله بن اسماعيل بن على .

٣٤ - محمد بن عبد الله بن اسماعيل .

٣٥ - هشام بن محمد بن عبد الله .

٣٦ - عبد الرحمن بن هشام بن محمد .

٣٧ - محمد بن عبد الرحمن بن هشام .

٣٨ - الحسن بن محمد بن عبد الرحمن .

٣٩ - يوسف بن الحسن بن محمد .

٤٠ - محمد (الخامس) بن يوسف بن الحسن .

٤١ - الحسن (الثانى) بن محمد (الخامس) بن يوسف- يحكم من عام ١٩٦٢م .

الأسرة العلوية الحاكمة بالمغرب

١ – محمد بن على الشريف– ١٠٥٧– ١٦٤٦م .

٢ – محمد بن محمد بن على الشريف .

٣ – الرشيد بن على الشريف .

٤ – اسماعيل بن على الشريف (المظفر بالله أبو النصر) .

٥ – أحمد بن اسماعيل (الذهبى) .

٦ – عبد الملك بن اسماعيل بن على الشريف (أبو مروان) .

٧ – عبد الله بن اسماعيل بن على الشريف .

٨ – على بن اسماعيل بن على الشريف .

٩ – محمد بن اسماعيل بن على الشريف .

١٠ – المستضئ بن اسماعيل بن على الشريف .

١١ – زيدان بن اسماعيل بن على الشريف .

١٢ – محمد بن عبد الله بن اسماعيل بن على.

١٣ – يزيد بن محمد بن عبد الله .

١٤ – هشام بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل .

١٥ – سليمان بن محمد بن عبد الله بن اسماعيل .

١٦ – عبد الرحمن بن هشام بن محمد بن عبد الله .

١٧ - محمد بن عبد الرحمن بن هشام .

١٨ - الحسن بن محمد بن عبد الرحمن .

١٩ - عبد العزيز بن الحسن بن محمد .

٢٠ - عبد الحفيظ بن الحسن بن محمد .

٢١ - يوسف بن الحسن بن محمد .

٢٢ - محمد (الخامس) بن يوسف بن الحسن .

٢٣ - الحسن (الثانى) بن محمد (الخامس) بن يوسف .

الخاتمة

أنه يتضح من خلال منهج البحث وعناصره التى شكلت هذه الدراسة بأبوابها الثلاث وفصولها المتعددة واسهاماتها فى رسم حركة الاحداث بالمغرب خلال الحقبة الوطاسية والسعدية وظهور الاشراف العلويين، ان فكرة الدولة المغربية الاسلامية قد تعرضت للعديد من الاعتداءات والتدخلات وكيف أن فترة الاسرة الوطاسية وان كانت قد سبقتها مقدمات فى أواخر العهد المرينى كانت أضعف حلقات التاريخ المغربى وكيف ان العامل القبلى والاقليمى شكل بعدا خطيرا فى تفكك الوحدة المغربية وما أحدثه من عوامل التفرقة القبلية وخضوع البلاد فى دوامة الصراعات الداخلية والتدخلات الخارجية من الايبيرين (البرتغال والاسبان) وكيف انتقل الصراع على الجانب المغربى واختلال موازين القوى وضعف الجانب الاسلامى وظهور التفوق الغربى البحرى والبرى وظهور التنافس الاستعمارى بين هذه القوى ونشاطهم فى حركتهم التوسعية وكيف ظهر على الجانب المعاكس رد فعل اسلامى عاملا من اجل توحيد البلاد الاسلامية فى ظل الخلافة التركية العثمانية وكيف قاد الاتراك حركة توحيد العالم الاسلامى والاندفاع بالراية الاسلامية فى اوربا الشرقية وكيف أن القوى الابيرية كانت تضرب على الوتر الحساس لاثارة النعرة الاقليمية الضيقة والجانب القبلى، لكسر قوة الوحدة الاسلامية وكيف استجاب الجانب المغربى من اجل المحافظة على كيانه الاقليمى فى وجه الانطواء التركى العثمانى .

وكيف أن بنى وطاس استطاعوا ازالة الاسرة الشريفة التى كانت تحكم فى فاس بعد انهاء الحكم المرينى ومقتل آخر سلاطين بنى مرين السلطان عبد الحق بن أبى سعيد بن العباس وكيف كانت الدولة الوطاسية قصيرة العمر الزمنى بحيث أن فترة البقاء فى الحكم لم تتجاوز الثمانين عاما هجرية وكيف تقلص نفوذ هؤلاء الحكام

بحيث لم يعد لهم نفوذ ولا سيادة الا على العاصمة وبعض النواحى المحيطة وكيف أن البلاد وقعت بين فكى كماشة شرقية تجلت فى الوجود التركى العثمانى ورجال الجهاد الاسلامى الذين بسطوا نفوذهم فى الجزائر وغربا بالسيطرة البرتغالية الاسبانية على الثغور المغربية المطلة على البحر المتوسط والمحيط الاطلسى وكيف أن هذه القوى الاستعمارية ارادت السيطرة الكاملة على كل التراب المغربى وارسالها الحملات العسكرية إلى العواصم فاس ومراكش وكيف أن هذه الحملات لم تحقق أهدافها فى السيطرة على الداخل المغربى فاكتفت بالسيطرة على القلاع والحصون إلى اقامتها على الساحل بعد أن ثبت فشلها فى التوغل للداخل .

وكيف أن ذلك الانهيار العسكرى وضعف القوة الحربية الوطاسية وما تجلى من انحياز بعض افراد الاسرة الوطاسية وتعاونهم مع القوى الاستعمارية كان الدافع القوى والمحرك الاساسى لكى تلعب الطرق الصوفية دورها فى قيادة حركة الجهاد الاسلامى ومحاولة الوقوف بالقوة والحزم والجهاد فى وجه المعتدين الذين دنسوا تراب الوطن المغربى الطاهر وكيف ان زعماء هذه الطرق الصوفية لاسيما الطريقة الجزولية الشاذلية استطاعت ان تعبئ الجماهير والشعب المغربى حول الهدف الاسمى المستمد من كتاب الله الكريم وسنة خير المرسلين فى ضرورة رفع- راية الجهاد الاسلامى فوق رأس الجموع المحتشدة فى الزوايا والاربطة والقبائل لتكوين وحدة مغربية تستطيع ان تحقق الهدف الاسمى من وراء هذه الحشود المؤمنة بحقها فى تحرير بلادها فكان ان رفعت راية الجهاد الاسلامى إلى أسرة عريقة عرفت بالانتساب إلى السلالة النبوية الشريفة وانتمائها إلى الدوحة الزكية المعطرة واهلتها هذه الشرافة لكى تقود هذه الجموع من أجل تحرير الثغور الاسلامية التى كانت ترفع عليها راية الصليب وما يمثله ذلك من تحدٍ صارخ لمشارع المسلمين الذين كانوا ربما ينظرون للتعامل التجارى مع هذه المراكز

الاستعمارية الساحلية فكان أن تعلقت الآمال فى اقليم السوس الجنوبى بالغرب من نارودانت ودرعه على من أهلته جميع المواصفات لكى يرفع بيديه الشريفتين راية الجهاد وعقدت الآمال على سليل الاسرة السعدية الشريفة اتى ترتدى عباءة الشرافة الشرقية وقبلت أن تقود البلاد إلى حركة التحرير والتطهير من كل رجس ودنس صليبى فكان محمد القائم بأمر الله السعدى هو حامل راية الجهاد .

وهكذا القيت مسئولية تحرير الاراضى المغربية المحتلة ورفع راية الجهاد الاسلامى على الامير السعدى محمد القائم بأمر الله يعاونه ولداه أحمد الاعرج ومحمد الشيخ حتى استطاعا بما لديهما من قوات عسكرية وحشود قبائلية أن يحررا جميع الثغور المغربية الواقعة فى قبضة البرتغاليين فيما عدا سبته وطنجة ومازاكان بعد أن تم طرد البرتغاليين بحد السيف من أغادير وأسفى من جراء الثورة العارمة التى قادها الامير السعدى محمد القائم بأمر الله وابناؤه احمد الاعرج ومحمد الشيخ وهكذا قدر للاسرة السعدية ان يعلو نجمها فى سماء المغرب وان يلتف الاهالى حول القيادة الجديدة التى رأوا فيها خلاصهم من نير الاستعمار الايبيرى ومن تهاون حكام بنى وطاس الذين عجزوا عن مقاتلة الاجانب الفرنجة بل انهم صالحوهم وعقدوا معاهدات صلح معهم ومن ثم اشتد الضغط السعدى على العواصم الكبرى فكان أن تم للامير أحمد الاعرج دخول مراكش العاصمة الثانية فى البلاد من قبل الوطاسيين ونجح فى الاستيلاء عليها وطرد الوالى الوطاسى لكن الامين احمد الوطاسى دخل فى قتال وصراع عنيف مع السعديين انتهى به الامر إلى أن تم طرده بل قتله هو وأسرته ودخل محمد الشيخ بن محمد القائم السعدى العاصمة فاس الوطاسية بعد أن كان قد استطاع أن يتخلص من الحكم الثنائى بينه وبين أخيه أحمد الاعرج وينجح فى اقصائه عن الحكم ويقوم بسجنه ومن ثم الانفراد بالحكم وعدم الاعتراف بالمعاهدات الموقعة بين الوطاسيين وبين

الامير احمد الاعرج فكان ان دخل فاس العاصمة وقضى على النفوذ الوطاسى واتخذ مراكش عاصمة للاسرة السعدية، لكن استطاع أحد رجال الحكم الوطاسى (بو حسون) أن يفر إلى تلمسان حيث السيطرة التركية العثمانية بالمغرب الاوسط واستطاع أن يستنجد بالاتراك ويطلب مساعدتهم واندفع الاتراك بقواتهم إلى المغرب الاقصى واستطاعوا الدخول إلى فاس وطرد قوات محمد الشيخ السعدى وتعيين بو حسون الوطاسى خليفة على البلاد، لكن السعدى عاد ادراجه مرة اخرى إلى فاس وطرد بقايا الوطاسيين وانتهى إلى الابد الحكم الوطاسى وتفرد بالحكم فى البلاد، بل انه اراد أن يقاتل الاتراك فى المغرب الاوسط فارسل قوات وحشودا مغربية استطاعت ان تستولى على المغرب الاوسط وان تدخل تلمسان والعديد من المدن الجزائرية، لكن الاتراك استطاعوا دحر السعديين وردهم إلى داخل المغرب الاقصى، ومن ثم خشى محمد الشيخ الخطر التركى فتحالف مع الاسبان والبرتغاليين وتنازل لهم عن بعض الموانى الساحلية لكى يحول بينه وبين الاتراك العثمانيين حيث ترك لهم ميناء باديس لكى تحتله القوات الاسبانية وبذلك يقطع تحرك الاسطول التركى العثمانى الطامع فى السيطرة على المغرب الاقصى .

لكن الاتراك وقد رأوا أن المغرب الاقصى خارج عن نطاق سيطرتهم بل ان حليفهم المغربى قد تحالف مع اعداء الاسلام ضد الوجود التركى العثمانى بل اكثر من ذلك اغلظ فى القول للسفير التركى وهدده بان المغرب سوف تقاتل العثمانيين فى مصر وان الاتراك لا يحق لهم حمل لقب الخلافة لانهم أعاجم ولا ينتمون للعرق القرشى العربى الهاشمى كما ان ذلك حق للسعديين وحدهم. وازاء ذلك فان الاتراك دبروا مؤامرة قتل محمد الشيخ وتم قتله فعلا وهو عائد من احدى المعارك عن طريق حرسه الخاص الذى كان يضم عددا من الضباط الاتراك وحملت راسه فى مخلاه إلى

القسطنطينية وعلقت على احدى أبواب العاصمة وقد اغاظت هذه الفعلة البشعة ابنه أبا عبد الله الغالب بأمر الله عندما تولى الحكم فنكل بالضباط الاتراك الذين دبروا مؤامرة قتل والده وتم مطاردة عناصر الجيش المؤيدة للوجود التركى واكثر من ذلك عقد محالفات صداقة وحسن جوار مع الاسبان والبرتغاليين تنازل لهم فيها عن بعض الثغور المغربية واستخدم عبد الله الغالب اقصى انواع العنف والشدة والميل إلى سفك الدماء ضد معارضيه من افراد البيت السعدى فكان ان هرب اخوته الثلاثة إلى الجزائر وهم عبد المالك وأحمد المنصور وعبد المؤمن واقام الثلاثة إلى الجزائر وهم عبد المالك واحمد المنصور وعبد المؤمن واقاموا فى تلمسان بل ان عبد المؤمن احد الاخوة الثلاثة السعديين تولى حكم امارة تلمسان من قبل الخليفة التركى ونزوح ابنه الوالى العثمانى على الجزائر وازدادت حدة الصراع بين الاتراك العثمانيين وبين الاسبان والبرتغاليين ودمر الاتراك الاسطول الاسبانى وتم طردهم نهائيا من تونس ١٥٦٠م وبالمقابل قام الاسبان بتعاون الاساطيل الاوربية معهم بالانتصار على القوة التركية البحرية عام ١٥٧١م فى معركة لبياتنو ومن ثم تبعه الانتصار الحاسم للاتراك العثمانيين على الاسبان فى تونس عام ١٥٧٣م ودخل الصراع من أجل المغرب مرحلة حاسمة من النزاع بين القوى العالمية فى ذلك الوقت واستفاد الغالب من كل الظروف المحيطة واستطاع ان يحفظ التوازن فى العلاقات بين هذه القوى حفاظا على استقلال بلاده وعدم الخضوع للنفوذ التركى العثمانى وتحتضن الخلافة التركية فى اسطنبول الاخوة الثلاثة ابناء محمد الشيخ نكاية فى اخيهم الغالب لارتمائه فى احضان الاسبان وتعمل على فتح المجال أمامهم للاشتراك فى الحكم والقتال فى صفوف القوات التركية حيث لعب مولاى الامير عبد المالك واحمد المنصور دورا بارزا فى معركة تونس والانتصار على القوات الاسبانية وسافرا إلى اسطنبول فقرر الخليفة العثمانى مراد الثانى ان يدعم نفوذهما فى المغرب وان يبذل لهما كل عون وسانده واستجاب لطلبهما برفع رأس والدهما (محمد

الشيخ) وكانت لا تزال معلقة على احدى ابواب العاصمة التركية وتم دفنها .

وفى تلك الظروف يموت أبو عبد الله الغالب ويتولى الحكم بعده ابنه محمد المتوكل (المسلوخ) وتثور ثائرة الامير عبد المالك بن محمد الشيخ نظرا لاحقيته فى عرش المغرب ويطلب العون التركى وتستجيب القيادة التركية فى الجزائر بناء على فرمانات سلطانية ويتحرك عبد المالك إلى المغرب الاقصى تسانده قوات تركية ويستطيع أن يهزم ابن اخيه المتوكل ويستولى على مقاليد الحكم عام ١٥٧٦م لكن محمد المتوكل لم يستسلم للهزيمة فيندفع إلى الجنوب طالبا العون من القبائل المغربية لكن احمد المنصور شقيق عبد المالك يطارده فى كل الاراضى والاقاليم التى يلجا اليها حتى اضطره إلى الهرب شمالا وكان احمد المنصور يتولى حكم فاس فى ذلك الوقت وتوضع تحت بديه قوات حربية قوية مجهزة باحسن الاسلحة ويحاول محمد المتوكل (المسلوخ) ان يستنجد بملك اسبانيا لكن الملك الاسبانى فيليب الثانى كان مشغولابصراعه فى الاراضى المنخفضة (هولندا) والكشوف الجغرافية الجديدة فى العالم الجديد ولم يكن لديه ادنى قوة يستطيع ان يقدمها له. فصرف النظر عنه وولى وجهته نحو البرتغال وكانت البرتغال فى ذلك الوقت تحت قيادة يقودها شاب هو (دون سباستيان) لم يتجاوز من العمر السادسة والعشرين عاما يحلم بالعظمة المسيحية وتربية الجزويت والحماس الصليبى والمشاعر المعادية للاسلام ومطالعته المشوهة عن الصراع الاسلامى الصليبى على ارض الاندلس وما يسمع به عن مجتمع الاندلسين (المورسكين) المضطهدين فى غرناطه وهو الذى كانت لديه أفكار خيالية واخلاقيات مثالية تهفو إلى نشر التعاليم المسيحية الجزويتية فى كل العالم والعمل على نشر العقيدة الكثوليكية فى ارجاء واسعة من الكرة الارضية وكان الهجوم عنده خير وسيلة للدفاع فى فكرة التربية العسكرية التى تربى عليها وانه كان صاحب راى صلب عنيد

تشرب بدورس اللاهوت على ايدى اساتذته وهو ان حل مشكلات البرتغال المتردية لا يكون الا بالعبور إلى الاراضى الاسلامية المغربية وخوض الحرب المقدسة ضد المسلمين الكفار (هكذا يصور العالم المسيحى المسلمين بالكفار فى العصور الوسطى) (انظر حرب الخليج– محمد حسنين هيكل– اصدار جريدة الاهرام ابريل ١٩٩٢) وما زالت فكرة الصليبية والمسيح والعذراء مسيطرة على فكر القادة العسكريين) .

وتلقف دون سباستيان طلب العون من الامير المخلوع بالارادة الشعبية محمد المتوكل بن عبد الله الغالب وكانها الفرصة الاخيرة لكى يحقق احلامه واهدافه البعيدة التى كان يسعى اليها لنقل الحرب المقدسة (من وجهة نظر الاوربيين) إلى الجانب العربى ولياخذ من طلب المتوكل ذريعة لاحتلال كل الاراضى المغربية وقرر حشد القوات البرتغالية وطلب العون والمساندة بالقوات البحرية والبرية والعدة والعتاد والذخيرة والمؤن والسلاح من خاله ملك اسبانيا وكذلك قدمت اليه قوات أوربية من كل الدول الاوربية انجلترا فرنسا، هولندا، المانيا، النمسا، الدنمرك، قوات ايطالية من المدن الايطالية، قوات البابوية التى تدفعها بركة البابا وتدعو لها وهى رافعة الصليب بالنصر والانتصار وتندفع الحشود البرتغالية إلى المغرب مدعومة بقوات اوربا والتى وصل عددها إلى اكثر من اربعين الف مقاتل تحملها اكثر من ثلاثمائة سفينة بعد ان كان دون سباستيان قد قام بنفسه بزيارة خاطفة إلى ميناء سبته وطنجة فى نوفمبر عام ١٥٧٨م وقبل العبور الكبير باربعة شهور وفى نهاية يونيو ١٥٧٨م غادرت الحملة العاصمة البرتغالية لشبونة بعدتها وعتادها واستطاعت الحملة ان تعبر مضيق جبل طارق وان تصل إلى الساحل المغربى وفى ١٢ يوليو نزلت بميناء اصيلا، وفى ٢٥ يوليو ١٥٧٨م تعرضت الحملة لمتاعب كثيرة وفى ٢٢ يوليو تحركت الحملة من اصيلا فى اتجاه الداخل واقتربت الحملة بمسافة ١٢ كيلو متر من مدينة القصر الكبير بالقرب من

وادى المخازن وكانت اوربا كلها تحبس انفاسها فى انتظار نتائج هذه الحملة وما تسفر عنه من نتائج .

وعلى الجانب المغربى كانت قوة الايمان وروح الجهاد والاستشهاد والحشد والاعداد وحسن التخطيط والتعبئة والطريقة التى تحرك بها عبد المالك بن محمد الشيخ وكيفية ادارة الصراع والاستفادة من الظروف الطبيعية المحيطة وكيفية استثارة الملك الشاب البرتغالى ودفعه للتقدم للداخل بعد أن سبه وفحش له فى القول لكى يندفع وفعلا نجحت خطة عبد المالك فى استثارة حفيظة الملك البرتغالى ونزل على وادى المخازن على مقربة من القصر وفى صبيحة يوم الاثنين ٤ اغسطس ١٥٧٨م (٣٠ جمادى الاولى ٩٨٦هـ) كانت المعركة الفاصلة بين القوى المتصارعة واحق الله كلمته ونصر عبده الشريف عبد الملك بن محمد الشيخ فى معركة فاصلة تعتبر صفحة مضيئة فى تاريخ المغرب أبد الدهر واندحرت قوات العدو بالكامل وفى ذلك يؤكد Bovill فى كتابه Bovill, E.W. The golden trade of the Moors الذى ترجمه زاهر رياض تحت عنوان (الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا واثرها فى تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى ص ١٧٤ : لقد أبيدت القوة البرتغالية والاوربية جميعها التى بلغت قوامها اربعين الف رجل ولم ينج من الموت او الاسر الا اقل من مائة رجل ولكن لم يكن هذا كل شئ فى نكبة البرتغال فقد اكسبت المعركة المغرب صيتا واسعا فى العالمين الاسلامى والمسيحى فاق كل ما تمتعوا به من قبل بل لم يبلغوه من بعد) .

وقتل فى هذه المعركة الملوك الثلاثة عبد المالك بن محمد الشيخ، ومحمد المتوكل بن الغالب، دون سياستيان ملك البرتغال واستفاد وجنى ثمار هذا النصر الواسع الخليفة أحمد المنصور السعدى الذى حكم سته وعشرين عاما كانت أزهى عصور المغرب وفترة قوتها وسيادتها ولعبها دورا بارزا فى المجال العالمى وخطبت ودها جميع

الدول واقامت علاقات مع شتى الدول الاوربية ولعبت ادوارا هامة فى شأن العمل على تحرير الاندلس وعودة الاندلسيين إلى ديارهم لكن التوازن الدولى لم يحقق له اهدافه ولم يستطع أن يتعاون مع تركيا إلى المدى البعيد من أجل العمل سويا لاعادة الاسلام إلى ارض الاسلام فى الاندلس ولكن عهده شهد انتهاء الاطماع العثمانية فى المغرب الاقصى وتسليم الباب العالى بالامر الواقع والاعتراف بسيادة المغرب على أرضه ثم كانت فكرة التوسع جنوب الصحراء الكبرى وتكوين خلافة سعدية واسعة وضم بلاد سنغاى والحيلولة دون وصول البرتغاليين والاسبان إلى الاراضى الاسلامية فى بلاد السودان الغربى والوقوف ضد الزحف التركى والاوربى فكانت فكرة الغزو المغربى لبلاد السودان الغربى عام ١٥٩١م وتحقيق حلم المغرب فى اقامة خلافة سعدية واسعة الارجاء عادت بالوحدة الاسلامية إلى سابق قوتها وتمت روح التضامن الاسلامى والاخاء وحق الاخوة الاسلامية وساعدت على تقدم بلاد السودان الغربى وانتشار الحضارة الاسلامية والمعارف والثقافة والقيم والتقاليد والعادات العربية الاسلامية الاصيلة على نطاق واسع وتحقق الثراء والثروة للمنصور وصار يعرف باسم المنصور الذهبى ورفع راية الاسلام فى هذه الاراضى وانتشر الاسلام بين الوثنيين وأصبحت جامعة سانكرى فى تمبكتو كعبة الطلاب والعلماء ورجال الفقه والدين يفد اليها الطلاب فى عهد حكم باشاوات المغرب من كل انحاء دول افريقيا وصولا إلى السودان الشرقى والحبشة ووسط افريقيا ووصولا إلى المحيط الاطلسى وانتشر الاسلام عل نطاق واسع بين القبائل الوثنية وانطوى الجميع تحت لواء الاسلام ودام الحكم المغربى السعدى فى هذه البلاد فترة تزيد عن مائة وستين عاما بدأ من ١٥٩١ إلى ١٧٦٠م تاريخ سقوط هذه الديار فى أيدى القوى الاوربية التى وجدت فى عدم اهتمام القيادة العلوية وانشغالها بالمشاكل الداخلية فرصة للانقضاض على ديار الاسلام لتضمها إلس الاملاك الاستعمارية .

وهكذا تعتبر فترة حكم احمد المنصور السعدى أزهى عصور الدولة السعدية بل هى عصر القوة والسيادة ولكن الظروف العالمية والتوجس خيفة من الاتراك العثمانيين جعلت المنصور السعدى لاينفع بقواته إلى أوربا ليحرر الاندلس او على الاقل ليطالب بفك اسر المدن المغربية المحتلة (تحريرها) مقابل اطلاقه سراح اسرى معركة القصر الكبير لكن قوة الدولة لم تكن لتدوم على حال فيموت المنصور السعدى عام ١٦٠٣م وتدخل البلاد فى دوامة صراعات الاسرة بين افراد البيت السعدى الواحد زيدان بن المنصور واخويه المامون (محمد الشيخ وأبى فارس وقتال طويل وصراع يستنزف موارد الدولة وبمنعها من ان تولى نظرها إلى ما يحيط بها من اخطار وتنازلات اقليمية فى الديار المغربية للقوى الخارجية واطماع اسبانية فى الاراضى والديار واحلام فى عودة السيطرة على كل البلاد وانقسام البلاد إلى الاقاليم ومحليات وامارات كل منها يقاتل الآخر من أجل التوسع على حساب الطرف الآخر والخليفة السعدى حبيس مراكش وحصونها ولم يعد له من الحكم الا الاسم والتكالب على المصالح الاقتصادية المغربية واستنزاف الموارد الطبيعية والصناعات المغربية الراقية لاسيما فى صناعة السكر وينفرد زيدان بن المنصور بالحكم لكنه يموت عام ١٦٣٢م بعد صراع طويل مع اخويه ويحدث نفس الصراع بين ابنائه وتنقطع اوصال الدولة ويستبد العرب الشبانات بالحكم وينهوا عصر الاسرة السعدية مع ابن اختهم أبى العباس احمد آخر سلاطين الاسرة عام ١٠٦٩هـ- ١٦٥٨م. ويستمر حكمهم ست سنوات حتى تتقدم الاسرة العلوية الشريفة لتسقط حكم الشبانات عام ١٠٧٥هـ/ ١٦٦٤م وبذلك تدخل البلاد عصرا جديدا لازالت تحت قيادته حتى وقتنا الحالى (١٩٩٢م) نظرا لما تتمتع به القيادة العلوية الشريفة من رؤية صائبة وقدرة بصيرة على ادارة دفة الامور وعمل متواصل لما فيه مصلحة الشعب المغربى الذى يكن كل تقدير وحب للاسرة العلوية القرشية الهاشمية الشريفة ذات النسب الحسنى العلوى الشريف: وبهذا تكون قد طويت صفحات هذه الموسوعة باحسن

فاتحة نكما بدات بزحف صحابة رسول الله ﷺ صحبه عمرو بن العاص عام ٢٣هـ/ ٦٤٣م لكى نطأ الاراضى المغربية فى اقليم برقه فاتحة الديار المغربية تنتهى الموسوعة بخير خاتم واحسن الفصول وهو ظهور الاسرة العلوية الشريفة كاسرة حاكمة للمغرب العربى منذ عام ١٠٧٥- ١٤١٢هـ/ ١٦٦٤- ١٩٩٢م .

الله العلى القدير نسال أن يكون هذا العمل العلمى المتواضع خالصا لوجهه ومتجردا من كل هوى واغراض نفسية ذلك لان الذين اختاروا النهج العلمى وبعدوا عن أهواء المصالح والمكاسب والمناصب يكون العلم تاجا فوق رؤوسهم وهامة تعلو فوق الهامات مهما بعدت المراحل والمسافات .

والله من وراء القصد .

المصادر والمراجع

(أ) المصادر :

١ – ابن أبى زرع : الانيس المطرب بيروض القرطاس فى اخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس. فاس ١٨٤٢م .

٢ – ابن غدارى المراكشى : البيان المغرب فى اخبار بلاد المغرب. القاهرة ١٩٥٠م.

٣ – ابن صواد تذكرة النسيان فى آخبار ملوك السودان، نشرة هوادس، باريس، ١٩٥١ .

٤ – الجزنائى : زهرة الاس فى بناء مدينة فاس. تلمسان، ١٩٢٣م .

٥ – التمبكنى: احمد فيل : قبل الابتهاج بتطريز الديباج، القاهرة، ١٣٢٩هـ.

٦ – التمبكتى : محمود كعت : تاريخ الفتاش فى اخبار البلدان والجيوش واكابر الناس، نشره هوادس، باريس، ١٩١٣م .

٧ – الدباغ: معالم الايمان فى معرفة اهل القيروان، تونس، ١٣٢٠هـ .

٨ – السعدى: تاريخ السودان، نشره هوداس ، ١٨٩٨م .

٩ – السلاوى: الاستقصا فى اخبار المغرب الاقصى، الدار البيضاء، ١٩٥٥م .

١٠ – العيدروس محى الدين عبد الله : النور السافر عن اخبار القرن العاشر، بغداد، ١٣٢٣هـ .

١١– القادرى : محمد بن الطيب الحسنى، نشر المثانى. الرباط. د.ت .

١٢ - القادرى : محمد بن الطيب الحسنى : النقاط الدرر واستعاد المواعظ والعبر عن اخبار المائة الحادية عشرة والثانية عشرة. مخطوط. مصور معهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ١٣١٨ تاريخ .

١٣ - القشتالى : ابو فارس عبد العزيز : مناهل الصفا فى أخبار الملوك الشرفا مخطوط مصور، مكتبة جامعة عين شمس رقم ٤٩٤ رسائل .

١٤ - المالكى : رياض النفوس، تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، ١٩٥١م .

١٥ - المقرى : احمد بن محمد : فتح الطيب فى غصن الاندلس الرطيب. القاهرة ١٩٤٩م .

١٦ - مؤلف مجهول : تاريخ الدولة السعدية. تحقيق كولان الرباط. ١٩٣٤م .

١٧ - محمد المهدى الفاسى، ممتع الاسماع فى ذكر الجزولى والتباع. فاس، ١٨٩٥م .

١٨ - البقرانى : محمد الصغير : نزهة الحادى فى ذكر ملوك القرن الحادى عشر، فاس، ١٣٠٧هـ .

١٩ - ابن عساكر، ابو عبد الله عمر: دوحة الناشر ، تحقيق محمد حجر : الرباط، ١٩٧٦م .

٢٠ - مؤلف مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية، ، تحقيق محمد ابن أبى شبيب، الجزائر، ١٩٢٠م .

٢١ - ابن العربى، الفاسى محمد : مرآة المحاسن فى اخبار الشيخ أبى المحاسن. الرباط. د.ت .

٢٢ – ابن القاضى : المنتقى المنصور على تاثير مولاى الخليفة المنصور. الرباط. د.ت .

٢٣ – ابن القاضى : درة الحجال فى تحريز اسماء الرجال تحقيق علوشى. الرباط، ١٩٣٤ .

٢٤ – الحسن الوزان، ليو الافريقى: وصف افريقيا. ترجمة عبد الرحمن حميد. الرياض، ١٣٩٩هـ .

٢٥ – ابن خلدون : عبد الرحمن: المقدمة، طبعة بيروت، ١٩٧٨ .

(ب) المراجع :

٢٦ – ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ. الدار البيضاء، ١٩٧٨م .

٢٧ – جلال يحيى : المغرب الكبير وهجوم الاستعمار : الاسكندرية، ١٩٦٦م .

٢٨ – حسن احمد محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا، القاهرة ١٩٥٨م .

٢٩ – حسن صبحى : التنافس الاستعمارى الاوربى فى المغرب، الاسكندرية ١٩٦٦م .

٣٠ – ابراهيم شحاته حسن : وقعة وادى المخازن فى تاريخ المغرب، الدرا البيضاء، ١٩٧٩ .

٣١ – حسين مؤنس : معالم تاريخ المغرب والاندلس. القاهرة، ١٩٨٠م .

٣٢ – زاهر رياض : شمال افريقية فى العصور الوسطى. القاهرة، ١٩٨١م .

٣٣ – زاهر رياض : استعمار افريقية: القاهرة ، ١٩٦٥م .

٣٤ – يوفان : الممالك الاسلامية وتجارة الذهب فى غرب افريقيا. ترجمة : زاهر رياض. القاهرة، ١٩٦٨م .

٣٥ – ارنولد، توماس الدعوة إلى الاسلام. ترجمة حسن ابراهيم حسن وآخرون، القاهرة، ١٩٧٠م .

٣٦– روم، لاند: المغرب فى القرن العشرين، ترجمة نقولا زياده، بيروت، ١٩٤٣م .

٣٧ – أحمد صفر : مدينة المغرب فى التاريخ. تونس، ١٩٥٩م .

٣٨ – عبد العزيز بن عبد الله : مظاهر الحضارة المغربية، الدرا البيضاء، ١٩٥٨م

٣٩ – عبد العزيز بن عبد الله : تاريخ المغرب. الرباط، د.ت .

٤٠ – عبد الكريم كريم : المغرب فى عهد الدولة السعدية : الدار البيضاء، ١٩٧٧م .

٤١ – عبد العزيز بن عبد الله : تطور الفكر واللغة فى المغرب، القاهرة ، ١٩٦٩م .

٤٢ – عبد الله كنون : رسائل سعدية، تطوان، د.ت .

٤٣ – عبد الله الروى : تاريخ المغرب، ترجمة ذوقان فرقوط. بيروت، ١٩٧٧م .

٤٤ – صلاح العقاد : المغرب فى بداية العصر الحديث، القاهرة، ١٩٦٢م .

٤٥ – عبد القادر زياديه : مملكة سنغاى فى عهد الاسفين. الجزائر، ١٩٦٧م .

٤٦ – نعيم قداح : افريقية الغربية فى ظل الاسلام، الجزائر، ١٩٧٥م .

٤٧ – محمد احمد الغربى : موريتانيا ومشاغل المغرب الافريقية، الرباط، ١٩٦٣م .

٤٨ – محمد احمد الغربى : بداية الحكم المغربى فى السودان الغربى. بغداد، ١٩٨٢م .

٤٩ – محمد صبحى : الحركة الفكرية فى المغرب فى عهد السعديين : الرباط، ١٩٧٩م .

٥٠ – نقولا زيادة : المغرب والسودان فى ايام المنصور الذهبى : بيروت ، ١٩٦٧م .

٥١ – يسرى الجوهرى : افريقية الاسلامية : القاهرة، ١٩٨٠م .

(جـ) الرسائل الجامعية :

٥٢ – زين العابدين السراج : دولة كانم الاسلامية، ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م .

٥٣ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : سلطنة برتو الاسلامية، ماجستير، جامعة القاهرة، ١٩٧٥م .

٥٤ – عبد الفتاح مقلد الغنيمى : السياسة الخارجية لسلطنة سنغاى الاسلامية، دكتوراه، ١٩٨٣م .

٥٥ – عبد الكريم كريم : عصر المولى احمد المنصور، رسالة دكتوراه، جامعة عين شمس، ١٩٦٩م .

٥٦ – عسر عسران احمد طه : دولة الاشراف السعديين ، ماجستير ، دار

العلوم، جامعة القاهرة، ١٩٨١م .

٥٧ – محمد عيسى صابر : الحياة السياسية ومظاهر الحضارة فى دولة المرنين بالمغرب، دكتوراه، دار العلوم، ١٩٧٩ .

٥٨ – نبيلة محمد حسن : الانتشار الاسلامى فى السودان الغربى. ماجستير، آداب الاسكندرية، ١٩٧١م .

(د) المراجع الاجنبية :

1- Atkinon, W.: History of spain and portugal. London, 1970 .

2- Abdellah, t'oroui : Histore du Maghreb. Paris, 1970 .

3- Braudel, F.: Les Espagnol en Afrique du Nord. Paris, 1928 .

4- Bonnier, g.: L'accupation de Toumboucton. Paris,1929 .

5- Jaoques, C.: La petite histiore du Maroc, Casablanca. 1953 .

6- Degrammont. H.: Histiored' A'alger sous la domination Turque. Paris, 1887 .

7- Ranke, L.: The ottoman and the spanish emperes. London,1920 .

8- Massignon, L.: La Maroc dans les L'annees du Ilsiecle. Alegr. 1906.

9- Richard, F.: Etud sur histiore des portugie au Moiroc. 1955.

10- Hume, M.: Spain its greetness and decay. London, 1918.

11- Julein, A.: L'Histiore de' Afirque de Nord. Paris, 1952 .

12- Diop, Anta.: L'Afrique Niore Precolon lale. Paris, 1952.

13- Pianel, G.: La conquete du soudan Par Moulay Ahmed al Mansour. Paris, 1953 .

14- Kirkpatrick. A.: The spanish Conquitadores. London, 1947.

15- Halail, I.: The ottoman empire. London, 1957 .

16- Alexander, P.: InBarbery. New York, 1926.

17- Perre, P.: The truth aboul Marracca. New York, 1953.

18- Harris, Walter,: France and Spain and the Rib. London, 1927 .

19- Berth.: Histiore du Marco. Casablanca, 1939 .

20- Cherbanneau: Les Liflercture arab au Soudan. Algerie, 1931 .

الفهـــرس

الصفحة

صفحة

صفحة

صفحة

تم بحمد الله





هذه الدراسة عن المغرب العربي نقدمها للقارىء العربي والمسلم ولكل الذين يهتمون بالتاريخ الإسلامي تتناول حقبة تاريخية على امتداد ١٤٠٠ سنة وصل فيها المد الإسلامي أبعاداً واسعة حتى يمكن القول أن الإسلام استطاع أن يكون قارة إسلامية شملت أجزاء متجاورة من آسيا وأفريقيا وأوروبا٠ وعلى هذا تكون هذه الدراسة عن جزء عزيز من عالمنا العربي والإسلامي والذي لعب دوراً في إثراء الحركة العربية الإسلامية حتى وقع على تلك الكتلة من القارة الإسلامية دور كبير في نشر الإسلام والعروبة في أرجاء واسعة من القارة الإفريقية لا سيما تلك الأقاليم التي تقع إلى الجنوب من المغرب العربي وكذلك في أوروبا حيث الأندلس وما جاورها من أقاليم٠

